

قصة الأندلس

من الفتح إلى السقوط

دكتور راغب السرجاني

مؤسسة اقرأ
للنشر والتوزيع والترجمة



المطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٤٨١٠

بطاقة الفهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة

السرجاني، راغب.

قصة الأندلس / تأليف/راغب السرجاني

القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠

(٤٠٠ ص)، ٢٤ سم تدمك: ٦-٨٠٦-٤٤١-٩٧٧-٩٧٨

١ - الأندلس — تاريخ

أ. العنوان ٩٥٣،٠٧١

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١٠٥٢٢٤٢٠٧-٠١٠٠-٠١٢٦٣٤٤٠٤٣

E-mail:iqraakotob@yahoo.com

www.Iqraakotob.net

المقدمـــــة

بسم الله، والحمد لله، والصلاة والسلام على رسول الله..

إن الحمد لله، نحمده ونستعين به ونستهديه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، إنه من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل الله فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأن محمدًا عبده ورسوله.

* * *

لماذا نكتب في التاريخ؟

لأن هذا الكون وكل ما فيه يسير على سُنَنٍ ثابتة لا تتغيَّر ولا تتبدَّل، وأننا في حاجة لإدراك هذه القوانين؛ كي نتمكَّن من استعمال نِعَمِ الله الكثيرة التي خلقها ﷻ وسخَّرها لنا في هذا الكون؛ بل لكي نستطيع أن نحيا الحياة الصحيحة باستيعابنا للتجارب السابقة التي جرت عليها سنن الله في كونه، ذلك أن هذه السنن لا تتغيَّر ولا تتبدَّل ولا تتحوَّل، قال ﷻ: ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣].

إنها قاعدة قرَّرها الله ﷻ في كتابه، وجعلها -أيضًا- من سننه الثوابت، التي يمكن للجميع إدراكها واستغلالها؛ ومن أبسط الأمثلة العملية على هذا: أننا نجد أن الماء يغلي عند درجة مائة مئوية، وسيظلُّ يغلي عند هذه الدرجة إلى يوم القيامة، فمن رحمته ﷻ أن ثَبَّت لنا هذا الأمر؛ إذ لو كان الماء يغلي اليوم عند درجة ثلاثين -مثلاً- وغدًا عند درجة خمسين، وبعد غدٍ عند سبعين فلن تستقيم حياة الناس،

ولن تستقرَّ أمورهم؛ لأن كل يوم مغاير للآخر، وكل شكلٍ فيه تبدُّل وتحوُّل لم يُعهَد من قبل.

كذلك النار؛ تحرق وستظلُّ تحرق إلى يوم القيامة..

صحيح أن ثمة استثناءات لا يُبنَى عليها، فتلك النار التي من أهمِّ خصائصها الإحراق لم تحرق إبراهيم ﷺ، فهذا استثناء أو هي معجزة، والمؤمن الكيِّس لا ينتظر المعجزات ولا يبني على الاستثناءات، ولا يتخذها قواعد، إنما يبني على القوانين التي يمكنه أن يُدرك بنفسه أنها ثابتة؛ إن أحدًا لا يمكنه أن يضع يده -مثلاً- في النار! ثم يقول: قد يحدث لي مثلما حدث لإبراهيم ﷺ. فذلك غير جائز، ولا يصحُّ أن يتفوَّه به أحدٌ؛ لأنه لا يتوافق مع سُنَنِ الله التي أقرَّها في كونه، وقِسْ على ذلك ما شئت؛ فالإنسان والحيوان بصفة عامَّةٍ لا يستطيع أن يعيش بدون طعام أو شراب، ولو امتنع أي إنسان عن الطعام والشراب فترة فمآله -لا محالة- إلى الموت.

كذلك وبالمثل فإن لله ﷻ سننًا ثابتة في تغيير الأمم وتبديل أحوالها؛ سواء كان هذا التبديل من الضعف إلى القوة، أو كان من القوة إلى الضعف، فبحسب الطريق الذي تسلكه كل أُمَّة تكون خاتمتها، ونحن حينما نقرأ في التاريخ ونُقَلِّب في صفحاته نُشاهد سنن الله ﷻ في التغيير والتبديل؛ فالتاريخ يُكَرِّر نفسه بصورة عجيبة، حتى والله! لَكَأَنَّك وأنت تقرأ أحداثًا حدثت منذ ألف عامٍ أو يزيد - تشعر وكأنها الأحداث نفسها التي تتمُّ في هذا الزمن، مع اختلاف في الأسماء والتفاصيل فحسب.

فأنت حين تقرأ تاريخ الماضي فكأنك تقرأ أحداث المستقبل بتفصيلاتها؛ ذلك أن أحداث المستقبل هذه لن تتمَّ إلاَّ على هذه السنن الثابتة، التي جعلها الله في تبديل

الأمم وتغيير أحوالها؛ فانظر في أي طريق تسير الآن لتعرف إلى أي مصير ستصل، والمؤمن العاقل هو الذي لا يبدأ من الصفر فيُكَرِّر كل ما فعل السابقون، وإنما يقف أمام تاريخهم فيسير على درب مَنْ أصاب فأفلح، ويبتعد عن طريق المخطئين الخاسرين.

وفي تاريخ الأندلس خير دليل على هذا؛ لذلك فنحن نحاول تحليل هذا التاريخ؛ نحاول أن نُقَلِّب صفحاتٍ ونُظهر أحداثًا قد علاها التراب أعوامًا وأعوامًا، نحاول أن نُظهر ما حاول الكثيرون أن يطمسوه، أو يُخرجوه لنا في صورة باطلٍ وهو حقٌّ، أو في صورة حقٍّ وهو باطلٌ؛ فكثيرٌ يحاولون أن يُزوِّروا تاريخنا الإسلامي، وهي جريمة خطيرة جدُّ خطيرة، يجب أن يُتصدَّى لها.

* * *

لماذا تاريخ الأندلس؟

لأن تاريخ الأندلس يشمل أكثر من ثمانمائة سنة كاملة من تاريخ الإسلام، وتحديدًا من عام (٩٢هـ=٧١١م) إلى (٨٩٧هـ= ١٤٩٢م)؛ أي ثمانمائة وخمس سنين (هجريًّا)، هذا إذا أغفلنا التداعيات التي أعقبت ما بعد عام ٨٩٧هـ، فهي فترة ليست بالقليلة من تاريخ الإسلام؛ فمن غير المقبول إذًا ألاَّ يعرف المسلمون تفاصيل فترة شغلت في الزمن أكثر من ثلثي التاريخ الإسلامي، هذا أمر.

والأمر الآخر أن تاريخ الأندلس لطول فترته، مرَّ فيه كثير من دورات التاريخ التي اكتملت ثم انتهت، فسنن الله في تاريخ الأندلس واضحة للعيان؛ فقد قام فيه كثير من الدول وارتفع نجمها، وسقط فيه -أيضًا- كثير من الدول وأفل نجمها، كثير من الدول أصبحت قوية؛ ومن ثَمَّ راحت تفتح ما حولها من البلاد، وكثير منها أصبحت ضعيفة، وأصبحت لا تستطيع حماية أرضها، أو تعتمد على غيرها في

حمايتها؛ مثلما يحدث الآن، وظهر -أيضًا- في تاريخ الأندلس المجاهد الشجاع، وظهر الخائف الجبان، ظهر التقيُّ الورع، كما ظهر المخالف لشرع ربه ﷻ. ظهر في تاريخ الأندلس الأمين على نفسه وعلى دينه وعلى وطنه، وكذلك الخائن لنفسه ودينه ووطنه، ظهرت كل هذه النماذج، وتساوى فيها الجميع؛ حاكم ومحكوم، عالم وأمِّيٌّ.

وما من شكٍّ أن دراسة مثل هذه الأمور يُفيد كثيرًا في استقراء المستقبل للمسلمين.

إن في تاريخ الأندلس أحداثًا يجب أن نعرفها:

من الضروري أن نعرف موقعة وادي بَرْبَاط؛ تلك الموقعة التي تُعَدُّ من أهمِّ المعارك في التاريخ الإسلامي، ليس لأنها الموقعة التي فُتحت فيها الأندلس فقط؛ ولكن لأنها تُشَبَّه في التاريخ بموقعتي اليرموك والقادسية، ومع ذلك فإن الكثير من المسلمين لا يسمع من الأساس عن وادي بَرْبَاط.

ومن الضروري -أيضًا- أن نعلم هل قصة حرق السفن -التي يُقال: إنها حدثت في عهد طارق بن زياد رحمه الله- حقيقة أم من نسج الخيال؟ كثير من الناس لا يعلم حقيقة وتفاصيل هذه القصة، وكيف حدثت، إنْ كانت قد حدثت؟ وإذا لم تكن حدثت في الأصل فلماذا انتشرت بين الناس؟!

ثم يجب أن نعرف مَنْ يكون عبد الرحمن الداخل رحمه الله؛ ذلك الرجل الذي قال عنه المؤرخون: لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام بالكلية من بلاد الأندلس.

كما يجب أن نعرف مَنْ هو عبد الرحمن الناصر، أعظم ملوك أوربا في القرون الوسطى على الإطلاق؛ ويجب أن نعرف كيف وصل إلى هذه الدرجة العالية؟ وكيف أصبح أكبر قوة في العالم في عصره؟

وكذلك يوسف بن تَاشْفِين رحمه الله القائد الرباني، صاحب موقعة الزَّلاَّقَة، يجب أن نعرفه ونعرف كيف نشأ؟ وكيف ربَّى الناس على حياة الجهاد؟ وكيف تمكَّن من الأمور؟ بل وكيف ساد دولةً ما وصل المسلمون إلى أبعادها في كثير من فتراتهم؟

وأبو بكر بن عمر اللمتوني.. هذا المجاهد الذي دخل الإسلامَ على يده أكثرُ من خمس عشرة دولة إفريقية.

ومن المهم -أيضًا- أن نتعرَّف على أبي يوسف يعقوب المنصور، صاحب موقعة الأَرَكِ الخالدة؛ تلك التي دُكَّت فيها حصون النصارى، وانتصر فيها المسلمون انتصارًا ساحقًا.

كما يجب أن نعرف دولة المرابطين وكيف قامت؟ ودولة الموحدين وكيف قامت؟

ومن الضروري أن نعرف مسجد قُرْطُبَة، ذلك المسجد الذي كان يُعَدُّ أوسع مساجد العالم، وكيف حُوِّل إلى كنيسة ما زالت قائمة إلى اليوم؟! وكذلك مسجد إِشْبِيلِيَة ينبغي أن نعرفه.

وينبغي أن نعرف جامعة قُرْطُبَة والمكتبة الأموية، وقصر الزهراء ومدينة الزهراء..

ينبغي أن نعرف قصر الحمراء، وغيرها من الأماكن الخالدة التي أمست رسومًا وأطلالاً، وهي اليوم في عِدَاد أفضل المناطق السياحية في إسبانيا، وتُزار من عموم الناس؛ سواء كانوا مسلمين أو غير مسلمين.

موقعة العِقَاب تلك التي مُنِيَ فيها المسلمون بهزيمة ساحقة، رغم تفوُّقهم على عدوِّهم في العدد والعُدَّة، وكأنَّ موقعة حُنَيْن عادت من غابر التاريخ؛ لتروي

أحداثها في موقعة العقاب، تلك الموقعة التي قال عنها المؤرخون: بعد موقعة العقاب لم يُرَ في الأندلس شابٌّ صالحٌ للقتال.

كما يجب أن نعرف كيف سقطت الأندلس؟ وما عوامل السقوط؟ التي إن تكرَّرت في أُمَّة من المسلمين سقطت لا محالة بفعل سنن الله الثابتة.

ثم كيف وأين سطعت شمس الإسلام بعد سقوط الأندلس؟ كيف جاء غروب شمس الإسلام في الأندلس -في غرب أوربا- متزامنًا مع إشراقها وسطوعها في القسطنطينية شرق أوربا؟

كما يجب ألاَّ ننسى مأساة بَلَنْسِيَة، وكيف قُتِل ستون ألف مسلم في يوم واحد؟ وما أحداث مأساة أُبَّذَة؟ وكيف قُتل ستون ألف مسلم آخرون في يوم واحد؟

ثم يجب أن نذكر دائمًا مأساة بَرْبُشْتَر، وكيف قُتل أربعون ألف مسلم في يومٍ واحدٍ، وسُبيت سبعة آلاف فتاة بِكْر من فتيات بَرْبُشْتَر؟! وقد شاهدنا هذه الأحداث الغابرة تُعِيد التحدُّث عن نفسها في البوسنة والهرسك وغيرها من بلاد المسلمين.

لو عرفنا هذا كله، وعرفنا ردَّ فعل المسلمين، وكيف قاموا من هذه المآسي المفزعة، لعرفنا كيف ننهض الآن ونقوم.

* * *

نعلم أن كثيرًا من التساؤلات -بعد قراءة هذا الكتاب- ستظل في حاجة إلى إجابة.. إن اتساع مساحة الفترة التاريخية التي نتناولها تجعل من العسير -إن لم يكن من المستحيل- أن نستوعب كل ما يمكن أن يُكتب فيها في مثل هذه المساحة المرصودة للكتاب؛ لذا فلقد حاولنا قدر الاستطاعة وفي حدود ما هو متاح أن نُقَدِّم

«قصة الأندلس» كملامح عامة لهذه الفترة التاريخية الثريَّة، كي تكون في ثوبها المختصر ماثلة في الأذهان قريبة من أكبر عدد من شرائح القراء، ولا سيما الشباب الذين هم عدة الحاضر وبشارة المستقبل.

كما أن بعض الأسئلة ستظلُّ بلا إجابة؛ لأن بعض فترات الأندلس تعاني من ندرة في المصادر، ذلك أنه -وحتى هذه اللحظة- ما زال الكثير من نفائس وذخائر التراث الإسلامي الأندلسي والمغربي في حكم المفقود؛ فإما هي كتب مفقودة بالكامل لا يُعرف إلى أين أخذتها يد الزمان، كما أن كثيرًا من النفائس ما زالت في هيئتها المخطوطة، وتحتاج إلى أن تمتد إليها أيدي العلماء والباحثين لتحقيقها وضبطها وإخراجها إلى عالم المطبوع؛ فيسهل انتشارها والاستفادة منها.

إلى جانب هذا، فإن المؤرخين -حين يكتبون- فإنما يكتبون الوقائع وعليها ثوب من رؤيتهم وتحليلهم وتفسيرهم لها، ولا شكَّ أن المؤرخ بشرٌ يناله النقص والخطأ وعدم الاستيعاب، ولئن كان تاريخنا الإسلامي قد تميز بوجود مؤرخين لا يترددون في أن يذكروا للشخصية العظيمة مثالبها، وأيضًا يذكرون للشخصية السيئة محاسنها، فإن هؤلاء المؤرخين -أيضًا- ما زالوا بشرًا، تُؤَثِّر صياغاتهم ومواقفهم وميولهم على التحليل والتفسير للوقائع التاريخية.

لكننا اجتهدنا ما وسعنا الجهد في التقريب والتفسير والترجيح بين ما تعارض من الروايات التاريخية، محاولين الوصول إلى ما نراه الحق، راجين أن يجبر الله عثراتنا، وأن يتقبل منا أعمالنا بقبول حسن.

***

إن قصة الأندلس قصة مؤلمة؛ ذلك أننا سنستعرض تاريخًا ومجدًا زاهرًا، ونحن نعلم أن هذا المجد قد انتهى وضاع، وصارت الأندلسُ الفردوسَ المفقود.. إلا أنه

لا مناص عن قراءة صفحات هذا المجد السليب، وهذا التاريخ الثريّ.. لنقرأ كيف تقام الأمجاد وكيف تضيع، فلئن كنا نسعى في نهضة أمتنا ورفعتها فَلأَن نسعى ونحن نعلم وندرك خبرة الماضي خير من أن نسعى ولا ماضي لنا ولا خبرة.

***

إن تاريخ الأندلس بصفحاته الطويلة -أكثر من ثمانمائة عام- يُعَدُّ ثروةً حقيقية.. ثروة ضخمة جدًّا من العلم والخبرة والعِبرة، ومن المستحيل في هذه الدراسة أن نُلِمَّ بكل أحداثه وتفصيلاته، بل لا بُدَّ وأن نُغفِل منه بعض الجوانب؛ ليس تقليلاً من شأنها وإنما اختصارًا للمساحة.

ومن الواجب على الجميع أن يبحث في تاريخ الأندلس -تاريخ ثمانمائة عام- إذ هو يحتاج أكثر وأكثر مما أفردنا له.

***



الباب الأول

الطريق إلى الأندلس



الفصل الأول

الأندلس.. طبيعة المكان

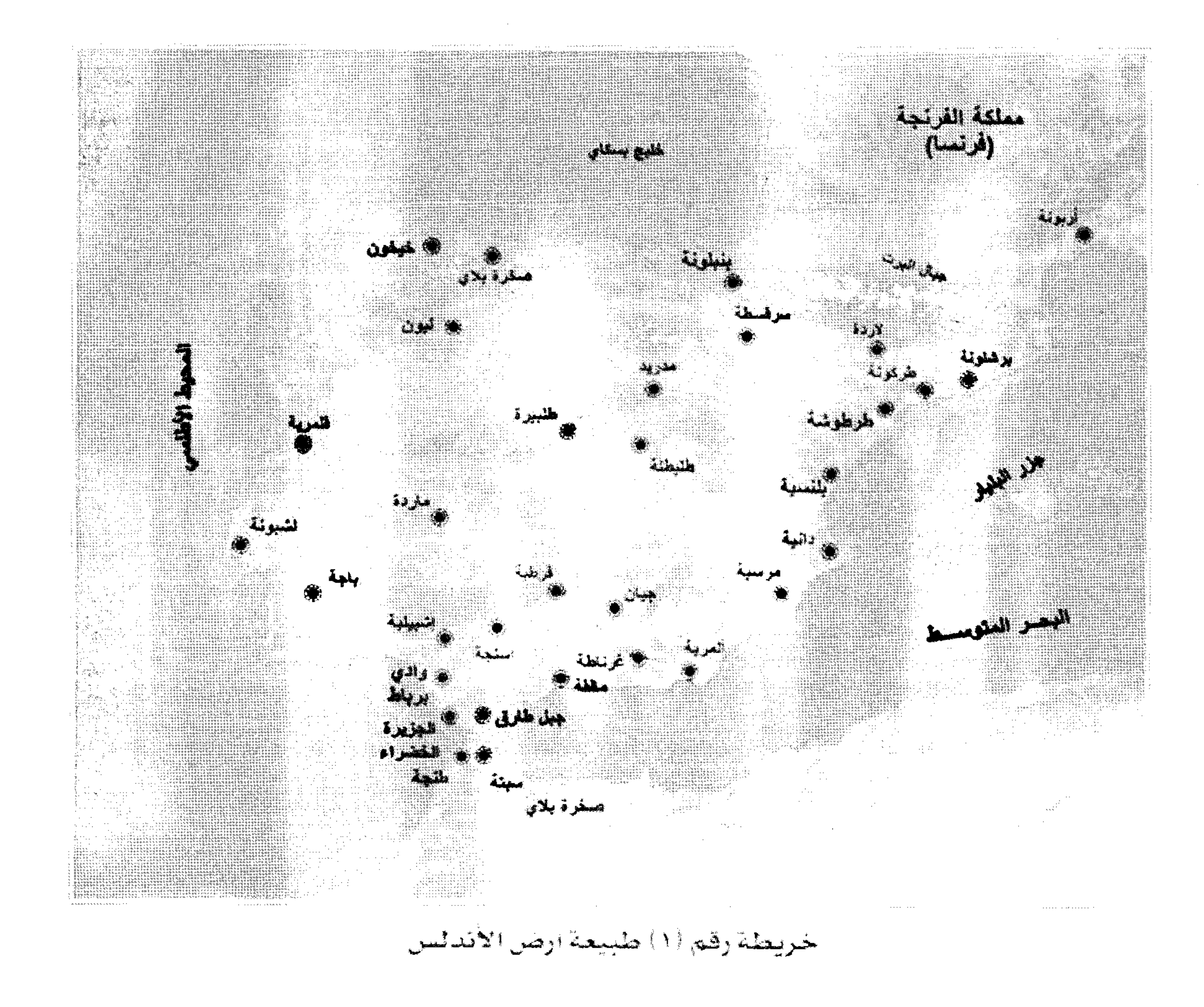
بلاد الأندلس هي اليوم دولتا إسبانيا والبرتغال، أو ما يُسمَّى: شبه الجزيرة الأيبيرية، ومساحتها (مجموع الدولتين) ستمائة ألف كيلو متر تقريبًا؛ أي: أقل من ثُلثي مساحة مصر.

ويفصل شبه الجزيرة الأندلسية عن المغرب مضيق أصبح يُعرَف منذ الفتح الإسلامي بمضيق جبل طارق، (ويسميه الكُتَّاب والمؤرخون العرب باسم درب الزقاق)، وهو بعرض ١٢,٨كم بين سَبْتَة وجبل طارق.

جغرافية الأرض:

تقع شبه الجزيرة الأيبرية في الجنوب الغربي من أوربا، على مثلَّث من الأرض، يضيق كلما اتجهنا نحو الشرق، ويتَّسع كلما اتجهنا إلى الغرب، وتتصل في الشمال بفرنسا (بلاد الفرنجة) بواسطة سلسلة جبلية تُعرف بجبال البرينيه (جبال البرتات)، وباستثناء تلك الناحية فإن المياه تُحيط بها من كل جانب؛ مما جعل العرب يُطلقون عليها «جزيرة الأندلس» على سبيل التجوُّز؛ فالبحر المتوسط يُحيط بها من الشرق والجنوب الشرقي، ويُحيط المحيط الأطلنطي بها من الجنوب الغربي والغرب والشمال.

فجبال البرينيه هي الفاصل البري الوحيد الذي يربط شبه الجزيرة مع أوربا، فتلتقي في الشمال مع المحيط الأطلنطي، وفي الجنوب مع البحر المتوسط.



خريطة رقم (١) طبيعة أرض الأندلس

وجبال البرينيه التي تمثِّل فاصلاً بين فرنسا وإسبانيا تجعل الجزيرة وكأنها تُوَلِّي وجهها عن أوربا، فيما تتجه به إلى المغرب، وهذا ما أجمع عليه الجغرافيون المسلمون الذين عدُّوها امتدادًا لإفريقيا، وليست رقعة من القارة الأوربية، والمعروف أن شبه الجزيرة تتشابه مع المغرب في كثير من المعالم النباتية والحيوانية؛ وبخاصة منطقتي سَبْتَة وطَنْجَة [١].

أمَّا داخل الجزيرة فسنرى أنفسنا أمام هضبة كبيرة تُعْرَف بالمسيتا، تقطعها الجبال بشكل أفقي، وتكثر فيها الأنهار فكأنها تعيش فوق شبكة من المياه.

لماذا سميت «الأندلس»؟

وعن سبب تسميتها بالأندلس فقد كانت هناك بعض القبائل الهمجية التي جاءت من شمال إسكندنافيا من بلاد السويد والدنمارك والنرويج وغيرها، وهجمت على منطقة الأندلس وعاشت فيها فترة من الزمن، ويُقال: إن هذه القبائل جاءت من ألمانيا، وما يهمنا هو أن هذه القبائل كانت تسمى قبائل الفندال أو الوندال باللغة العربية؛ فسُمِّيت هذه البلاد بفانداليسيا على اسم القبائل التي كانت تعيش فيها، ومع الأيام حُرِّف إلى أندوليسيا فأندلس.

وقد كانت هذه القبائل تتسم بالوحشية، و(Vandalism) في اللغة الإنجليزية تعني همجية ووحشية وتخريبًا، وتعني -أيضًا- أسلوبًا بدائيًّا أو غير حضاري، وهو المعنى والاعتقاد الذي رسخته قبائل الفندال، وقد خرجت هذه القبائل من الأندلس، وحكمتها طوائف أخرى من النصارى عُرِفت في التاريخ باسم قبائل القوط (GOTHS) أو القوط الغربيين، وظلُّوا يحكمون الأندلس حتى قدوم المسلمين إليها.

(١) محمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس، ص١٦.

الفصل الثاني
الأندلس قبل الإسلام

حالة الجهل والتخلف في المناطق الأوربية

من المفيد جدًّا أن نتعرَّف على حالة أوربا والوضع الذي كانت عليه -وبخاصة بلاد الأندلس- عند الفتح الإسلامي، وكيف تغيَّر هذا الوضع وهذا الحال بعد دخول أهل هذه البلاد في الإسلام؟

كانت أوربا في ذلك الوقت تعيش فترة من فترات الجهل والتخلُّف البالغ، فكان الظلم هو القانون السائد؛ فالحكَّام يمتلكون الأموال وخيرات البلاد، والشعوبُ تعيش في بؤسٍ شديد، واتخذ الحكَّام القصور والقلاع والحصون؛ بينما عامة الشعب لا يجدون المأوى ولا السكن، وإنما هم في فقر شديد، بل وصل بهم الحال إلى أن يُباعُوا ويُشتَرَوا مع الأرض، وكانت الأخلاق متدنِّية، والحرمات منتهكة، وبُعْدٍ حتى عن مقومات الحياة الطبيعية؛ فالنظافة الشخصية -على سبيل المثال- مختفية؛ حتى إنهم كانوا يتركون شعورهم تنسدل على وجوههم ولا يُهَذِّبونها، وكانوا -كما يذكر الرحَّالة المسلمون الذين جابوا هذه البلاد في ذلك الوقت- لا يستحمُّون في العام إلاَّ مرَّة أو مرَّتين، بل يظنُّون أن هذه الأوساخ التي تتراكم على أجسادهم هي صحَّة لهذا الجسد، وهي خير وبركة له[1]!

وكان بعض أهل هذه البلاد يتفاهمون بالإشارة، فليست لهم لغة منطوقة؛ فضلاً

(١) أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك)، ص٨١.

عن أن تكون مكتوبة، وكانوا يعتقدون بعض اعتقادات الهنود والمجوس من إحراق المتَوَفَّى عند موته، وحرق زوجته معه وهي حيَّة، أو حرق جاريته معه، أو مَنْ كان يُحِبُّه من الناس، والناس يعلمون ذلك ويُشاهدون هذا الأمر، فكانت أوربا بصفة عامَّة قبل الفتح الإسلامي يسودها التخلُّف والظلم والفقر الشديد، والبُعد التامُّ عن أي وجه من أوجه الحضارة أو المَدَنية[1].

ودامت همجية أوربا البالغة زمنًا طويلاً من غير أن تشعر بها، ولم يبدُ في أوربا بعض الميل إلى العلم إلاَّ في القرن الحادي عشر والقرن الثاني عشر الميلاديين[2].

القوط يحكمون الأندلس:

في أواخر القرن الرابع الميلادي استطاع القوط الغربيون بقيادة ألاريك أن يُسيطروا على مصائر القسم الغربي من الإمبراطورية الرومانية؛ بما قَدَّمُوه من خدمات أوصلت الإمبراطور الروماني تيودوسيوس إلى العرش، فلما مات الإمبراطور عام (٣٩٥م) أصبح ألاريك -زعيم القوط الغربيين- أقوى قائد في غرب أوربا ووسطها، فما لبث أن حاول السيطرة على روما نفسها (عاصمة الإمبراطورية الرومانية) ونجح في هذا فعلاً عام (٤١٠م) في مأساة لا يزال يتذكرها التاريخ الأوربي.

وفي هذه الفترة كانت الدولة الرومانية قد سمحت لقبائل الوندال الهمجية -التي تستوطن شبه الجزيرة الأيبرية- بالاستقرار في منطقة الشمال الغربي من الجزيرة؛ بشرط ألا تُهَدِّد استقرار المناطق الأخرى، غير أن كثرة القبائل وهمجيتها وضعف الدولة الرومانية، جعل هذه القبائل تُسيطر على كل الجزيرة -تقريبًا- وتُهَدِّد بلاد الغال (فرنسا الآن) -أيضًا- وتمارس تخريبًا همجيًّا كبيرًا.

ثم انتهى غبار الصراع في روما بموت ألاريك فَخَلَفه أطاووف في زعامة القوط

---

(١) أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك) ص١٨٦، ١٨٧.
(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب ص٥٦٧.

الغربيين، وتطوَّرت الأحوال إلى أن أقرَّت الإمبراطورية الرومانية أطاووف في جنوب بلاد الغال، ثم سَلَّطَتْه على قبائل الوندال، فاستمرَّ زحف القوط الغربيين الأقوياء يُنهي ويضغط ويطرد قبائل الوندال إلى الجنوب، وفي أثناء تراجع الوندال كانوا يُخَرِّبُون ما بقي من حضارة الرومان في شبه الجزيرة، إلى أن انتصر القوط الغربيون وأحكموا سلطانهم على الجزيرة؛ خاصة في عهد الزعيم القوي (واليا Valia).

لم يلبث الأمر كثيرًا حتى تضعضعت الإمبراطورية الرومانية؛ مما جعل القوط الغربيين يستقلُّون عن الإمبراطورية بحكم شبه الجزيرة، واتخذ (يوريك Euric) لقب الملك في عام (٤٦٧م)، وهو يُعَدُّ المؤسس الحقيقي لدولة القوط الغربيين، الذين سيُعرفون باسم (القوط) في كل مراحل التاريخ اللاحقة[١].

وقبل الفتح الإسلامي لإسبانيا بسنة أو تزيد قام أحد رجال الجيش واسمه لُذريق بالاستيلاء على السلطة وعزل الملك غِيطشَة[٢]، وغداةَ الفتح الإسلامي كان لُذريق هو حاكم البلاد[٣].

كانت إسبانيا قبل الفتح الإسلامي تشكو الاضطراب والفساد الاجتماعي، والتأخُّر الاقتصادي وعدم الاستقرار؛ نتيجة السياسة ونظام المجتمع السائد، والسلطة الفاسدة، لكن هذا لا يعني أن هذه السلطة لم تكن قادرة على الدفاع، كما لا يعني انعدام قوتها السياسية والعسكرية؛ بل كان بإمكانها أن تصدَّ جيشًا مهاجمًا وتُحاربه وتقف في وجهه؛ فقد أقام القوط في إسبانيا دولة اعْتُبِرَتْ أقوى الممالك الجرمانية حتى أوائل القرن السادس الجرماني، وبقيت بعد ذلك تتمتَّع بقوة عسكرية مُدَرَّبة وقوية، تقارع الأحداث وتقف للمواجهات[٤].

---

(١) للمزيد؛ انظر: حسين مؤنس: فجر الأندلس؛ دراسة في تاريخ الأندلس من الفتح الإسلامي إلى قيام الدولة الأموية (٧١١ -٧٥٦م)، ص١٥ ومابعدها.

(٢) غِيطشَة أو ويتزا. انظر: ستانلي لين بول: قصة العرب في إسبانيا، ص٩.

(٣) عبد الرحمن حجي: التاريخ الأندلسي ص٣٠.

(٤) عبد الرحمن حجي: التاريخ الأندلسي ص٣٠، ٣١.



الباب الثاني

فتح الأندلس



لماذا الأندلس؟

لماذا اتّجه المسلمون في فتوحاتهم إلى هذه البلاد خاصَّة؟ لماذا اتجهوا نحو الشمال ولم ينحدروا إلى الجنوب -مثلاً- في أعماق القارة الإفريقية؟ ولِمَ في هذا التوقيت تحديدًا؛ (أي: سنة ٩٢هـ=٧١١م)؟

كان المسلمون قد انتهَوْا -في هذا الوقت- من فتح بلاد الشمال الإفريقي كلّها؛ فتحوا مصر وليبيا وتونس والجزائر والمغرب، ووصلوا إلى حدود المغرب الأقصى والمحيط الأطلسي؛ ومن ثَمَّ لم يكن أمامهم في سير فتوحاتهم إلاَّ أحد سبيلين؛ إمَّا أن يتَّجهوا شمالاً، ويعبروا مضيق جبل طارق ويدخلوا بلاد إسبانيا والبرتغال -وهي بلاد الأندلس آنذاك- وإمَّا أن يتَّجهوا جنوبًا صوب الصحراء الكبرى ذات المساحات الشاسعة والأعداد القليلة من السكان.

لم يكن هدف المسلمين هو البحث عن الأراضي الواسعة أو جمع الثروات، إنما كانت الدعوة إلى الله وتعليم دينه للناس كافَّة هو الهدفَ الأساس للفتوحات الإسلامية، وكان الأمر قد استتبَّ لهم في بلاد شمال إفريقيا في أواخر الثمانينيات من الهجرة؛ لذا كان من الطبيعي أن تتجه الفتوح الإسلامية صوب بلاد الأندلس آنذاك؛ لتصل دعوة الله إلى الجميع.

وكان هذا هو النهج الذي سار عليه المسلمون في كل فتوحاتهم، ويُجسِّد هذا النهج ذلك الحوار الذي دار بين رِبْعِيٍّ بن عامر ﷺ وبين رستم قائد الفرس قبل موقعة القادسية -وكان رسولاً إليه- فلقد سأل رستمُ رِبْعِيَّ بنَ عامر: ما جاء بكم؟ فأجابه الصحابي الجليل: إن الله ابتعثنا لنُخرج مَن شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله،

ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلَنا بدينه إلى خلقه لندعوهم إليه، فمَنْ قَبِلَ ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه، ومَنْ أبى قاتلناه أبدًا حتى نُفضي إلى موعود الله. قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال مَنْ أبى، والظفر لمن بقي[1].

* * *

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٠١، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٢/ ٣١١.

الفصل الأول

فتح الأندلس.. فتح أموي مجيد

كان فتح الأندلس في سنة اثنتين وتسعين من الهجرة؛ أي في عصر الخلافة الأموية، وتحديدًا في خلافة الوليد بن عبد الملك رحمه الله الخليفة الأموي الذي حكم من عام (٨٦هـ=٧٠٥م) إلى عام (٩٦هـ=٧١٥م)؛ وهذا يعني أن فتح الأندلس كان في منتصف خلافة الوليد الأموي رحمه الله.

والحقُّ أن الدولة الأموية ظُلمت ظلمًا كثيرًا في التاريخ الإسلامي؛ وأُشيع عنها الكثير من الافتراءات والأكاذيب والأحداث المغلوطة التي تُشَوِّه صورتها، وبالتالي تنال من صورة التاريخ الإسلامي في أزهى عصوره -بعد عصر النبي ﷺ والخلفاء الراشدين- وهو العصر الذي عاش في كنفه الصحابة والتابعون، ومن أثر ذلك أن زعم بعض الناس -لا سيما أعداء الحكم بالشريعة الإسلامية- أن التاريخ الإسلامي لم يكن إلاَّ في عهد أبي بكر وعمر رضي الله عنهما، بل لقد وصل الأمر إلى الطعن في تاريخ أبي بكر وعمر مع علم الجميع بفضلهما.

ولا يخفى على أحد أن المراد من ذلك هو أن يترسَّخ في الأذهان استحالة قيام دولة إسلامية من جديد، فإذا كان هذا شأن السابقين القريبين من عهد رسول الله ﷺ وأصحابه رضوان الله عليهم؛ وإذا كان هذا شأن دولتي بني أمية وبني العباس القريبتين من عهد النبوة ومع ذلك لم تستطع إحداهما أن تُقيم حكمًا إسلاميًّا صالحًا -كما يزعمون- فكيف بالمتأخِّرين؟! وهي رسالة يُريدون أن يَصِلُوا بها إلى كل

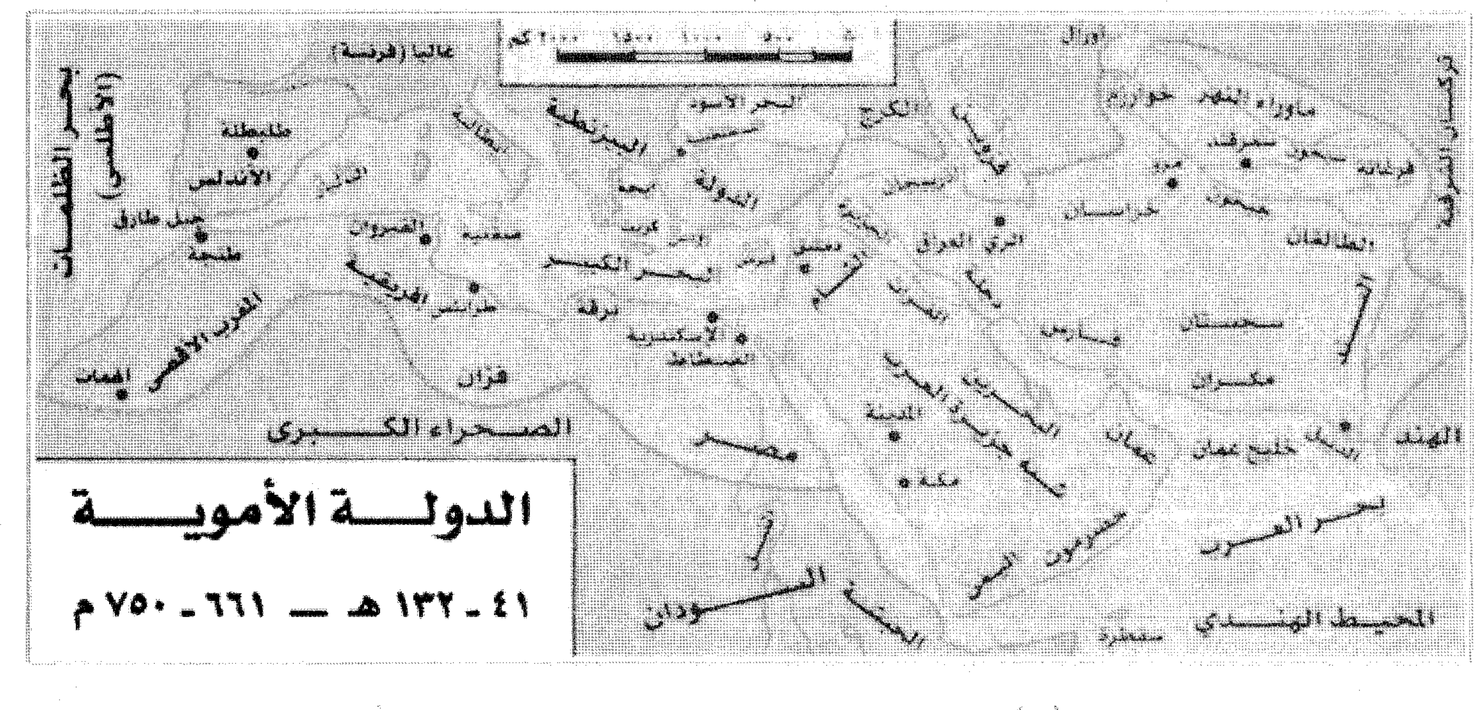
مسلم، وليس لهم من غرض وراء ذلك إلاَّ أنهم ﴿يُرِيدُونَ أَنْ يُطْفِئُوا نُورَ اللهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَيَأْبَى اللهُ إِلاَّ أَنْ يُتِمَّ نُورَهُ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ﴾ [التوبة: ٣٢].

وقفة إنصاف لبني أمية (٤٠-١٣٢هـ=٦٦٠-٧٥٠م):

الدولة الأموية كغيرها من الدول الإسلامية لها الأيادي البيضاء والفضل الكبير على المسلمين في شتَّى بقاع الأرض، ونظرة واحدة على عدد المسلمين الذين دخلوا الإسلام في زمن حكمها تكفي للردِّ على الافتراءات والمزاعم التي حِيكت في حقِّها، فهذا إقليم شمال إفريقيا بكامله دخل الإسلام في عهد بني أمية؛ ابتداء من ليبيا وحتى المغرب، وإذا كانت الفتوح الإسلامية لهذه البلاد قد بدأت في عهد عثمان بن عفان ﷺ؛ فإن هذه البلاد قد ارتدَّت على عقبها ثم فُتحت من جديد في عهد بني أمية.

كانت الدولة الأموية تفتح البلاد بالإسلام في أربع جبهات في وقت واحد، منها جبهة الغرب التي وصلت إلى الأندلس -وهو موضوع هذا الكتاب- لكن ثمة ثلاث جبهات أخرى: كانت في بلاد السند على يد محمد بن القاسم الثقفي، وفي بلاد ما وراء النهر حتى الصين على يد قتيبة بن مسلم الباهلي، وفي بلاد القوقاز في الشمال على يد مسلمة بن عبد الملك المرواني.

فدخل الناس في دين الله أفواجًا، وأشرقت شمس الإسلام على بلادٍ كانت تعبد الأصنام والأوثان والنار والملوك، وانزاحت من وجه العالم خرافاتٌ وأباطيل، وأبصر الناس -بفضل الله الذي جرى على يد بني أمية- نور الله المبين، فأقبلوا على الإسلام زرافات ووحدانًا، ثم ما لبثوا أن كانوا من جنوده وأبطاله وعلمائه ورُوَّاده. وقطفت الأُمَّة الإسلامية عبر كل تاريخها ثمار الزرع الذي غرسه بنو أمية، فكم من رءوس الأُمَّة ومُقَدِّميها -في العلم والفقه والتفسير والأدب والطب والجغرافيا والهندسة والكيمياء والفلسفة- كانوا من هذه البلاد التي فتحها بنو أمية! مثل:



خريطة رقم (٢) حدود الدولة الإسلامية زمن الخلافة الأموية

البخاري ومسلم والترمذي والنسائي، والطبري وابن خلدون والذهبي، وابن سينا والفارابي والكندي والبيروني، وسلسلة طويلة تستعصي على الحصر، فتح الإسلام بلادهم ثم قلوبهم، ثم فتح بهم بلادًا وقلوبًا أخرى كثيرة.

كان الجهاد في أيام الأمويين أمرًا طبيعيًّا؛ يخرج إليه الناس ابتغاء مرضاة ربهم، وتبليغًا لدعوة ربِّ العالمين، وإضافة إلى ذلك فقد دُوِّنَت السُّنَّة النبوية في خلافتهم، وحُكِّم شرع الله وطُبِّق في دولتهم.

ولقد قال فيهم الإمام الكبير العَلَم ابن حزم كلمة ما أصدقها، قال: «وكانت دولة عربية لم يتخذوا قاعدة[١]، إنما كان سكنى كل امرئ منهم في داره وضيعته التي كانت له قبل الخلافة، ولا أكثروا احتجانَ[٢] الأموال ولا بناءَ القصور، ولا استعملوا مع المسلمين أن يخاطبوهم بالتمويل[٣] ولا التسويد[٤]، ويُكاتبوهم بالعبودية والمُلك[٥]، ولا تقبيل الأرض ولا رِجْلٍ ولا يَدٍ[٦]، وإنما كان غرضهم الطاعةَ الصحيحة من التولية والعزل في أقاصي البلاد، فكانوا يعزلون العمَّال، ويولُّون الآخرين في الأندلس، وفي السند، وفي خراسان، وفي أرمينية، وفي اليمن، فما بين هذه البلاد. وبعثوا إليها الجيوش، وولَّوْا عليها مَنِ ارتضوا من العمال... فلم يملك أحد من ملوك الدنيا ما ملكوه من الأرض، إلى أن تغلَّب عليهم بنو العباس بالمشرق، وانقطع بهم ملكهم، فسار منهم عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس،

(١) أي لم يتخذوا مدينة ملكية.

(٢) الاحتجان: جمعُ الشيء وضمُّه إليك. ابن منظور: لسان العرب، مادة حجن ١٣/ ١٠٨، والزبيدي: تاج العروس، باب النون فصل الحاء ٣٤/ ٣٩٩، والمعجم الوسيط ١/ ١٥٨.

(٣) أي لم يلزم الخليفةُ الناسَ أن يقولوا عند مخاطبته: يا مولاي.

(٤) أي أن يقولوا: يا سيدي.

(٥) أي أن يكتبوا إلى الولاة والوزراء بقولهم: من الملك، أو من السيد إلى العبد أو المولى.

(٦) كان من عادة خلفاء الدول من بعد بني أمية، ومما يُعَدُّ من الآداب السلطانية أو «البروتوكول الرسمي» – بمصطلح هذه الأيام– أن يُقَبِّل الناس يد الخليفة، وبعض الدول كان الناس يُقَبِّلون الأرض بين يدي الخليفة.

وملكها هو وبنوه، وقامت بها دولة بني أمية نحو الثلاثمائة سنة، فلم يكُ في دول الإسلام أنبل منها، ولا أكثر نصرًا على أهل الشرك، ولا أجمع لخلال الخير»[(١)].

ومع كل هذا فإنَّا لا نقول بتبرئتهم من كل خطأ أو عيب؛ فالنقص والخطأ شيمة البشر، ومن المؤكَّد أن هناك أخطاءً كثيرةً في تاريخ بني أمية، لكن -بلا شكٍّ- كل هذه الأخطاء تذوب في بحر حسناتهم وبحر أفضالهم على المسلمين، فقد امتدَّ حُكم بني أمية اثنين وتسعين عامًا، من عام (٤٠هـ= ٦٦٠م) إلى (١٣٢هـ= ٧٥٠م)، وكان أول خلفاء بني أمية الصحابي الجليل معاوية بن أبي سفيان ﷺ -ورضي الله عن أبيه أبي سفيان صاحب رسول الله ﷺ- ذلك الخليفة الذي لم يَسْلَم من ألسنة كثير من الناس؛ فطعنوا في تاريخه وفي خلافته ﷺ، ولقد كذبوا، فليتنا نَصِلُ إلى معشار ما فعله معاوية بن أبي سفيان للإسلام والمسلمين.

وإن كان هذا ليس مجال الحديث عن بني أمية إلاَّ أنَّ هذه المقدمة البسيطة قد تُفيد -بمشيئة الله- في الحديث عن الأندلس، فبعد معاوية بن أبي سفيان ﷺ تتابع الخلفاء الأُمَيون، وكان أشهرهم عبد الملك بن مروان رحمه الله، ومَنْ تَبِعَه من أولاده، وكان منهم الوليد وسليمان ويزيد وهشام، وقد تخلَّلهم الخليفة الراشد المشهور عمر بن عبد العزيز ﷺ، وهو خليفة أموي من أبناء الدولة التي يطعنون فيها، وهو الذي ملأ الأرض عدلاً ورحمةً وأمنًا ورخاءً؛ حتى عدَّه المؤرخون خامس الخلفاء الراشدين.

أمَّا الجانب السيِّئ من تاريخ دولة بني أمية فإنه يكمن في السنين السبع الأخيرة من تاريخهم، تلك التي شهدت الكثير من المآسي، والكثير من الاختلاف عن المنهج الإسلامي، وكانت سُنَّة الله تعالى؛ فحين فسد الأمر في بني أمية قامت دولة أخرى وهي دولة بني العباس، أمَّا الأندلس وفَتْحُها فيبقى حسنةً من أعظم حسنات بني أمية.

---

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ٢/ ١٤٦.

ما قبل فتح الأندلس

وضع المسلمين في الشمال الإفريقي:

دخل الإسلام بلاد الشمال الإفريقي قبل فتح الأندلس بسبعين سنة؛ أي سنة (٢٢هـ=٦٤٤م)، وكانت تسكن هذا الإقليم قبائل ضخمة تُسَمَّى قبائل الأمازيغ (البربر[١]) وهذه القبائل قبائل قوية الشكيمة شديدة البأس، وقد ارتدَّت عن الإسلام أكثر من مرَّة؛ فدارت الحروب بينها وبين المسلمين، وانتهت باستقرار الإسلام في هذا الإقليم أواخر عام (٨٥ أو ٨٦هـ= ٧٠٤ أو ٧٠٥م) على يد موسى بن نُصَير رحمه الله.

مُوسَى بن نُصَير القائد ابن القائد (١٩-٩٧هـ=٦٤٠-٧١٦م):

كان مُوسَى بن نُصَير قائدًا بارعًا، تقيًّا ورعًا، ثَبَّت الله به أقدام الإسلام في هذه المنطقة المترامية الأطراف، وهو من التابعين، وقد روى عن بعض الصحابة كتميم الداري رضي الله عنه.

قال عنه ابن خلِّكان: كان عاقلاً كريمًا شجاعًا ورعًا تقيًّا لله تعالى، لم يُهزم له جيشٌ قطُّ[٢]. أمَّا أبوه فهو نُصَير بن عبد الرحمن بن يزيد، وكان شجاعًا وممن شهد معركة اليرموك الخالدة، وكانت منزلته مكينة عند معاوية رضي الله عنه، وبلغ في الرتب أن كان رئيس الشرطة في عهد معاوية حين كان واليًا على الشام في خلافة عمر وعثمان رضي الله عنهما[٣]، وفي روايات أخرى أنه كان رئيس حرس معاوية نفسه[٤].

---

(١) كلمة البربر أُطلِقت بأربعة إطلاقات في أربعة عهود مختلفة، فأُطلقت في عهد (هومير) على القبائل المعقدة اللغة واللهجة حيثما وُجِدَتْ، وأُطلِقَت في عهد (هيرودوت) على الأمم الغريبة عن لغة اليونان وحضارتهم، وأُطلقت في عهد (بلتوس) على الروم ما عدا سكان روما، وأطلقها العرب في عهدهم على الأُمَّة التي تسكن الساحل الإفريقي -وهم المقصودون هنا- لأنهم يتكلمون بلغة ليست مفهومة للعرب، والعرب يُطلقون كلمة البربر على الأصوات المتجمعة غير المفهومة». انظر: الطاهر أحمد الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، ص٢٠.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٣١٨ وما بعدها.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٥/ ١١٠، ٦/ ٤٩٦.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٣١٩.

ولَمَّا خرج معاوية لصِفِّين لم يخرج نُصير معه، فقال له: ما منعك من الخروج معي؛ ولي عندك يدٌ[١] لم تُكافئني عليها؟ فقال: لم يمكني أن أشكرك بكفري مَنْ هو أولى بشكري منك. فقال: مَنْ هو؟ فقال: الله ﷻ. فأطرق مليًّا، ثم قال: أستغفر الله. ورضي عنه[٢].

كذلك روى التاريخ لأمِّ موسى قصة بليغة في الشجاعة، فلقد شهدت هي -أيضًا- معركة اليرموك مع زوجها وأبيه، وفي جولة من جولات اليرموك التي تقهقر فيها المسلمون أبصرت أمُّ موسى رجلاً من كفار العجم يأسر رجلاً من المسلمين، تقول: «فأخذتُ عمود الفسطاط، ثم دنوت منه فشدخت به رأسه، وأقبلتُ أسلبه فأعانني الرجل على أخذه»[٣].

فمن هذين الأبوين خرج مُوسَى بن نصير، الذي تربَّى في كنف القادة وقريبًا من بيت الخلافة مع أولاد معاوية وأولاد الأمراء والخلفاء، فنشأ على حُبِّ الجهاد في سبيل الله ونشر الدين؛ حتى أصبح شابًّا يافعًا يتقلَّد الرتب والمناصب فكان على الخراج بالبصرة[٤]، ثم تولى قيادة جيش البحر وغزا قبرص في عهد معاوية ﷺ[٥]، ثم تولَّى إفريقية والمغرب[٦] في عهد الوليد بن عبد الملك في عام ٨٩ هـ، وقيل في عام ٧٧ هـ[٧].

من هنا كانت الفرصة مواتية لموسى بن نصير ليُنْجِزَ ما عجز السابقون عن

---

(١) اليَدُ: النعمة السابغة، والفضل، والإحسان، والمِنَّة. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء، فصل الياء ٦/ ٢٥٤٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة يدي ١٥/ ٤١٩، والمعجم الوسيط ٢/ ١٠٦٣.

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٣١٩، والمقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/ ٢٤٠.

(٣) ابن حجر: الإصابة في تمييز الصحابة ٨/ ٣١٤.

(٤) الزركلي: الأعلام ٧/ ٣٣٠.

(٥) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٤٩٦.

(٦) إفريقية هي تونس الآن، والمغرب هي بلاد المغرب العربي الآن، الجزائر والمغرب. وكلمتي «إفريقية» والمغرب تعني بلاد الشمال الإفريقي ما عدا مصر، والجانب الشرقي من ليبيا.

(٧) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٣١٩.

إنجازه، فيُعيد الاستقرار لهذا الإقليم؛ فتوَجَّه رحمه الله ناحية المغرب وأعاد تنظيم القوات الإسلامية، وكانت البلاد في ذلك الوقت في قحطٍ شديد، فأمر الناس بالصوم والصلاة وإصلاح ذات البين، وخرج بهم إلى الصحراء. وأقام على ذلك إلى منتصف النهار، ثم صَلَّى وخطب في الناس ودعا، ولم يذكر الوليدَ بنَ عبد الملك، فقيل له: ألا تدعو لأمير المؤمنين؟!

فقال: هذا مقام لا يُدعى فيه لغير الله عز وجل، فسُقُوا حتى رَوَوا[1].

مُوسَى بن نُصَير يُثَبِّت دعائم الإسلام في إفريقيا:

كان الهمُّ الأول لموسى بن نصير منذ أصبح واليًا على المغرب هو تثبيت دعائم الإسلام في هذا الإقليم، الذي ارتدَّ أهله عن الإسلام أكثر من مرَّة؛ ولكي يتمكَّن من ذلك كان عليه أن يعلم لماذا يرتدُّ الناس في هذا الإقليم عن الإسلام؟ وكيف يعودون لقتال المسلمين بعد أن كانوا مسلمين؟!

وفي بحثه عن أسباب هذه الردَّة المتكرِّرة وجد مُوسَى بن نُصَير خطأين وقع فيهما مَنْ سبقوه:

الخطأ الأول: هو أن عقبة بن نافع ومَن معه كانوا يفتحون البلاد فتحًا سريعًا، ثم يتوغَّلُون داخلها طمعًا في فتح أماكن أخرى كثيرة، دون أن يُوَفِّرُوا الحماية لظهورهم في هذه المناطق التي فتحوها؛ ومن ثَمَّ كانت النتيجة أن الأمازيغ (البربر) انتبهوا لهذا الأمر واستغلُّوه جيدًا؛ فانقلبوا على عُقبة وأحاطوا به وقتلوه، وحتى يتغلَّب على هذا الأمر بدأ مُوسَى بن نُصَير بفتح البلاد في أناةٍ شديدة، وفي هدوء وحذرٍ كحذر خالد بن الوليد رضي الله عنه، فبدأ يتقدَّم خطوة ثم يُؤَمِّن ظهره، ثم خطوة أخرى ويُؤَمِّن ظهره، حتى أتمَّ الله عليه فتح هذا الإقليم مرَّة أخرى في سبع أو ست

(١) وابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٣١٩، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ١٩٦، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٩.

سنوات، بينما استغرق عقبة بن نافع في فتحه شهورًا معدودات.

أمَّا الخطأ الثاني: فقد وجد أن سكان هذا الإقليم لم يتعلَّموا الإسلام جيدًا، ولم يعرفوه حقَّ المعرفة، فبدأ بتعليمهم الإسلام؛ فكان يأتي بعلماء التابعين من الشام والحجاز ليُعَلِّمُوهم الإسلام ويُعَرِّفُوهم به، فأقبلوا على الإسلام وأحبُّوه، ودخلوا فيه أفواجًا، حتى أصبحوا جند الإسلام وأهله بعد أن كانوا يُحاربون المسلمين[1]، وهكذا عمل مُوسَى بن نُصَير على تثبيت دعائم الإسلام وتوطيدها في الشمال الإفريقي، وأتمَّ الله عليه فتح الإقليم بكامله عدا مدينة واحدة وهي مدينة سَبْتَة[2]، فقد فتح ميناء طَنْجَة، ولم يفتح ميناء سَبْتَة المماثل له في الأهمية؛ ولذلك ولَّى موسى بن نصير على ميناء طَنْجَة (القريب جدًّا من سَبْتَة والقريب في الوقت ذاته من الأندلس) أمهر قُوَّاده طارق بن زياد رحمه الله.

وطارق بن زياد لم يكن عربيًّا، بل كان من قبائل الأمازيغ (البربر) التي استوطنت الشمال الإفريقي، والتي كان يُمَيِّزُها اللون الأبيض والعيون الزرقاء والشعر الأشقر[3]، بعكس ما يُتخَيَّل من كونهم يُشبهون الزنوج؛ حتى إن البعض ينسبونهم إلى أصول أوربية، وقد حمل طارقُ بن زياد القائدُ الفذُّ هذه الصفات الشكلية، إضافة إلى ضخامته الجسمية ووسامته الشديدة، التي لم تمنعه من الانشغال بحُبِّ الجهاد في سبيل الله، ونشر هذا الدين بالتقوى والعمل الصالح.

من هنا نرى أن موسى بن نصير رحمه الله قد تولَّى أمر بلاد المغرب وهي تضطرم نارًا، فكان أوَّل عمل له هو تأمين قواعد انطلاقه، ثم انصرف لإخماد الفتن، والقضاء على الثورات، وتصفية قواعد العدوان، وبناء المجتمع الإسلامي الجديد،

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٤٣، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/ ١١٠، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٩، والناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ١/ ١٥٢.

(٢) وهي الآن من مدن المغرب العربي التي تحتلها إسبانيا، وتقع على مضيق جبل طارق.

(٣) شوقي أبو خليل: فتح الأندلس ص٢٠.

ثم وجد بعد ذلك في إفريقية طاقاتٍ ضخمةً، وإمكاناتٍ جبَّارة؛ فأفاد من حرية العمل المتوفرة له، وانصرف إلى متابعة حشد القوات وتعبئتها وقيادتها من نصر إلى نصر، وإشراكها في شرف الفتوح وتحميلها أعباء نشر الإسلام.

تبيَّن لنا بعد تلك الحوادث والفتن التي قضى عليها موسى بن نصير أنه كان من أعظم رجال الحرب والإدارة المسلمين في القرن الأول الهجري، وقد ظهرت براعته الإدارية في جميع المناصب التي تقلَّدَها، كما ظهرت براعته الحربية في جميع الحملات البرية والبحرية التي قادها، وقد ظهرت هذه المواهب واضحة جليَّة في حُكمِه لإفريقية؛ حيث كانت الحكومة الإسلامية تُواجه شعبًا شديد المراس، يضطرم بعوامل الانتفاض والفتنة، وإذا كان موسى قد أبدى في معالجة المواقف وإخماد الفتنة كثيرًا من الحزم والشدَّة، فقد أبدى في الوقت نفسه خبرة فائقة بنفسية الشعوب، وبراعة في سياستها وقيادتها[1].

***

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١/ ٥٩.

الفصل الثاني

موسى بن نصير وقرار الفتح

تفكير قديم في فتح الأندلس

لم يكن موسى بن نصير رحمه الله هو أول مَنْ فكَّر في فتح الأندلس، وإنما كانت فكرة فتح الأندلس فكرة قديمة؛ فلقد استطاعت الجيوش الإسلامية أيام عثمان بن عفان رضي الله عنه الوصول إلى القسطنطينية ومحاصرتها، إلاَّ أنها لم تستطع أن تفتحها، فقال عثمان بن عفان رضي الله عنه: «إن القسطنطينية إنما تُفتح من قِبَل البحر، وأنتم إذا فتحتم الأندلس فأنتم شركاء لمن يفتح القسطنطينية في الأجر آخر الزمان»[1].

أي: إنه على المسلمين لكي يتمكَّنُوا من فتح القسطنطينية أن يفتحوا الأندلس أولاً، ثم يتَّجهون منها بعد ذلك إلى القسطنطينية -في شرق أوربا- ويقصد عثمان رضي الله عنه بالبحر ما كان يُعرف بالبحر الأسود في ذلك الوقت، لكن المسلمين لم يستطيعوا أن يصلوا إلى الأندلس إلاَّ أيام بني أمية، وفي ولاية موسى بن نصير على الشمال الإفريقي.

موسَى بن نُصَير وعقبات فتح الأندلس

استتبَّ الأمر لموسى بن نصير في شمال إفريقيا، وانتشر الإسلام وبدأ الناس يُقبلون على تعلُّم دينهم، فلمَّا رأى موسى بن نصير ثمار عمله، بدأ يُفكِّر في نشر

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٥٩٨، وابن كثير: البداية والنهاية ٧/ ١٧١، والحِميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص٣٣.

الإسلام في البلاد التي لم يصلها بعدُ، فبدأ يُفَكِّر في فتح بلاد الأندلس، والتي لا يفصلها عن شمال إفريقيا سوى المضيق الذي صار يُعْرف بعد الفتح الإسلامي بـ(مضيق جبل طارق)، ولكن كانت هناك عدَّة عقباتٍ؛ كان أهمها ما يلي:

العقبة الأولى: قلة السفن:

وجد موسى بن نصير أن المسافة التي سيقطعها في البحر بين المغرب والأندلس لا تقلُّ عن ١٣ كم، ولم يكن لديه سفنٌ كافيةٌ ليعبر بجيشه هذه العنبة المائية؛ فمعظم معارك المسلمين -باستثناء بعض المواقع مثل: ذات الصواري وفتح قبرص- كانت بَرِّيَّة؛ ومن ثَمَّ لم تكن هناك حاجة كبيرة إلى سفن ضخمة، ولكن الآن الأمر مختلف، وهم في حاجة للسفن الضخمة لتنقل الجنود وَتَعْبر بهم المضيق ليصلوا إلى الأندلس.

العقبة الثانية: وجود جزر البليار النصرانية في ظهره:

كان موسى بن نصير قد تعلَّم من أخطاء سابقيه؛ فلم يكن يخطو خطوةً حتى يُؤَمِّن ظهره أولاً، وفي شرق الأندلس كانت تقع جزرٌ تُسَمَّى جزر البليار -وهي عدَّة جزر تقع أمام الساحل الشرقي لإسبانيا، وأهمها ثلاثة جزر هي: مَيُورْقَة ومَنُورقَة ويَابِسَة، وتُسَمَّى في المصادر العربية بالجزر الشرقية- وهي قريبة جدًّا من الأندلس؛ ومن هنا فإن ظهره لن يكون آمنًا إن دخل الأندلس، وكان عليه أولاً أن يحمي ظهره.

العقبة الثالثة: وجود ميناء سَبْتَة المهم على مضيق جبل طارق في أيدي نصارى على علاقة بملوك الأندلس:

لم يكن المسلمون حينئذٍ قد فتحوا مدينة سَبْتَة، وهي مدينة ذات موقع استراتيجي مهم، ولها ميناء يطلُّ على مضيق جبل طارق، فكانت آنئذٍ تحت حكم

رجل نصراني يُدْعَى (يُليان)، الذي كانت تربطه علاقات طيبة بملك الأندلس السابق غِيطشَة، وغِيطشَة هذا كان قد تعرَّض لانقلاب قادَه قائد له يُدعى لُذريق، وتولى لُذريق حُكم الأندلس نتيجة هذا الانقلاب، فخشي موسى بن نصير إن هو هاجم الأندلس أن يتحالف يُليان مع لُذريق ضدَّه نظير مقابل مادي أو تحت أي بند آخر، فيُحاصروه ويقضوا عليه هو وجنوده.

العقبة الرابعة: قِلَّة عدد المسلمين:

كانت العقبة الرابعة التي واجهت موسى بن نصير هي أن قوات المسلمين الفاتحين التي جاءت من جزيرة العرب ومن الشام واليمن محدودة جدًّا، وكانت في الوقت نفسه منتشرة في بلاد الشمال الإفريقي؛ ومن ثَمَّ قد لا يستطيع أن يتِمَّ فتح الأندلس بهذا العدد القليل من المسلمين، هذا مع خوفه أن تنقلب عليه بلاد الشمال الإفريقي إذا هو خرج منها بقواته.

العقبة الخامسة: كثْرة عدد النصارى:

في مقابل قوَّة المسلمين المحدودة كانت قوات النصارى تقف بعُدَّتها وضخامتها عقبةً في طريق موسى بن نصير لفتح الأندلس، وكان للنصارى في الأندلس أعدادٌ ضخمةٌ، هذا بجانب قوَّة عُدَّتهم وكثرة قلاعهم وحصونهم، وإضافة إلى ذلك فهم تحت قيادة لُذريق القائد القوي.

العقبة السادسة: طبيعة جغرافية الأندلس، وكونها أرضا مجهولة بالنسبة للمسلمين:

كان البحر حاجزًا بين المسلمين وبلاد الأندلس، فلم يكونوا على علم بطبيعتها وجغرافيتها؛ وهذا ما يجعل الإقدام على غزو أو فتح هذه البلاد أمرًا صعبًا، فضلاً عن هذا فقد كانت بلاد الأندلس تتميَّز بكثرة الجبال والأنهار، تلك التي ستقف

عقبةً كئودًا أمام حركة أيِّ جيش قادم، خاصةً إذا كانت الخيول والبغال والحمير هي أهمُّ وسائل ذلك الجيش في نقل العُدَّة والعَتَاد.

مُوسَى بن نُصَيْر ومواجهة العقبات

لم يستسلم موسى بن نصير رغم هذه العقبات التي كانت موجودة في طريق فتح الأندلس، بل زادته هذه العقبات إصرارًا على فتحها، ومن هنا بدأ -وفي أناةٍ شديدة- يُرَتِّب أموره ويُحَدِّد أولوياته، فعمل على مواجهة هذه العقبات على النحو التالي:

أولاً: بناء الموانى وإنشاء السفن:

بدأ موسى بن نصير في عام (٨٧ أو ٨٨هـ=٧٠٦ أو ٧٠٧م) ببناء الموانى التي تُشَيَّد فيها السفن، وإن كان هذا الأمر ربما يطول أمده، إلاَّ أنه بدأه بهمة عالية وإرادة صلبة؛ فبنى أكثر من ميناء في الشمال الإفريقي[١].

ثانيًا: تعليم الأمازيغ (البربر) الإسلام:

وفي أثناء ذلك بدأ موسى بن نصير -أيضًا- يبذل جهودًا أكبر لتعليم الأمازيغ (البربر) الإسلامَ في مجالس خاصة لهم، أشبه بما نُسَمِّيه الآن الدورات المكثَّفة، فلمَّا اطمأنَّ إلى فهمهم للإسلام بدأ يعتمد عليهم ويستعملهم في جيشه، وهذا الصنيع من الصعب -إن لم يكن من المستحيل- أن نجده عند غير المسلمين؛ فلم تستطع دولةٌ محارِبَةٌ أو فاتحة غير الدول الإسلامية أن تُغَيِّر من طبائع الناس وحُبِّهم وولائهم الذي كانوا عليه؛ حتى يُصبحوا هم المدافعين عن هذه الدولة والناشرين لدينها؛ خاصَّة إذا كانوا حديثي عهدٍ بهذا الفتح أو بهذا الدين الجديد، فهذا أمر عجيب حقًّا، ولا يتكرَّر إلاَّ مع المسلمين وحدهم؛ فقد ظلَّت فرنسا -على سبيل

---

(١) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٥٧.

المثال- في الجزائر مائة وثلاثين عامًا، ثم خرجت جيوشها، بينما ظلَّ الجزائريون كما كانوا على الإسلام لم يتغيَّرُوا، بل زاد حماسهم له وزادت صحوتهم الإسلامية.

علَّم مُوسَى بن نُصَير الأمازيغ (البربر) الإسلام عقيدةً وعملاً، وغرس فيهم حُبَّ الجهاد وبَذْل النفس والنفيس لله ﷻ؛ فكان أن صار جُلُّ الجيش الإسلامي وعمادُه من الأمازيغ (البربر) الذين كانوا منذ ما لا يزيد على خمس سنوات من المحاربين له.

ثالثًا: تولية طارق بن زياد على الجيش:

القائد هو قِبلة الجيش وعموده، بهذا الفَهْم ولَّى مُوسَى بنُ نُصَير قيادةَ جيشه - المتَّجه إلى فتح بلاد الأندلس - القائدَ الأمازيغي (البربري) المحنَّك طارق بن زياد (٥٠-١٠٢هـ=٦٧٠-٧٢٠م) ذلك القائد الذي جمع بين التقوى والورع، والكفاءة الحربية، وحُبِّ الجهاد، والرغبة في الاستشهاد في سبيل الله، ورغم أنه كان من الأمازيغ (البربر) وليس من العرب إلاَّ أن مُوسَى بن نُصَير قدَّمه على غيره من العرب، وكان ذلك لعدة أسباب؛ منها:

١ - الكفاءة: لم يمنع كون طارق بن زياد غير عربي أن يُوَلِّيَه مُوسَى بن نُصَير قيادةَ الجيش؛ فهو يعلم أنه ليس لعربي على أعجمي ولا لأعجمي على عربي فضلٌ إلاَّ بالتقوى؛ فقد وجد فيه الفضل على غيره، والكفاءة في القيام بهذه المهمة على أكمل وجه، وهذا إن دلَّ على شيء فإنما يدلُّ على أن دعوة الإسلام ليست دعوة قَبَلِية أو عنصرية تدعو إلى التعصب، وتُفَضِّل عنصرًا أو طائفةً على طائفة؛ إنما هي دعوة للعالمين: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَاكَ إِلاَّ رَحْمَةً لِلْعَالَمِينَ﴾ [الأنبياء: ١٠٧].

٢ - قدرته على فَهم وقيادة قومه: إضافة إلى الكفاءة التي تميَّز بها طارق بن زياد كان لأصله الأمازيغي (البربري) الفضلُ في القضاء على أيٍّ من العوامل النفسية

التي قد تختلج في نفوس الأمازيغ (البربر) الذين دخلوا الإسلام حديثًا؛ ومِن ثَمَّ استطاع قيادتهم وتطويعهم للهدف الذي يصبو إليه، ثُمَّ لكونه أمازيغيًّا (بربريًّا) فهو قادر على فهم لغة قومه؛ إذ ليس كل الأمازيغ (البربر) يُتقنون الحديث بالعربية، وكان طارق بن زياد يُجيد اللغتين العربية والأمازيغية (البربرية) [1]؛ ولهذه الأسباب وغيرها رأى مُوسَى بن نُصَير أنه يصلح لقيادة الجيش فولاَّه إيَّاها.

رابعًا: فتح جزر البليار وضمها إلى أملاك المسلمين:

من أهمِّ الوسائل التي قام بها مُوسَى بن نُصَير تمهيدًا لفتح الأندلس، وتأمينًا لظهره -كما عهدناه- قام بفتح جزر البليار -التي ذكرناها سابقًا- وضمَّها إلى أملاك المسلمين، وبهذا يكون قد أمَّن ظهره من جهة الشرق، وهذا العمل يدلُّ على حُنكته وبراعته في التخطيط والقيادة، ومع هذا كلِّه فقد أُغفِل دورُه في التاريخ الإسلامي كثيرًا.

مشكلة سَبْتَة والعناية الإلهية:

استطاع مُوسَى بن نُصَير أن يتغلَّب على قلَّة عدد الجيش من خلال الأمازيغ (البربر) أنفسِهم، وتغلَّب -كذلك- على العقبة المتمثِّلة في قلَّة السفن نسبيًّا ببناء موانٍ وصناعةِ سفنٍ جديدة، وبقيت أرض الأندلس -كما هي- أرضًا مجهولة له، وكذلك ظلَّت مشكلة ميناء سَبْتَة قائمة لم تُحَلّ بعدُ، وهو ميناء حصين جدًّا يحكمه النصراني يُليان، وقد استنفد موسى بن نصير جهده وطاقته، وفعل كل ما في وُسْعِه،

(١) نستنتج هذا من أن طارقًا منحدر من عائلة كانت -فيما يظهر- سابقة إلى الإسلام، فهو طارق بن زياد بن عبد الله، ثم يبدأ في نسبه ظهور الأسماء البربرية من بعد عبد الله كما في النسب الذي أورده ابن عذاري في البيان المغرب: «طارق بن زياد بن عبد الله بن ولغو بن ورنجوم بن نبرغاسن بن ....». فمنه نتوقع أن يكون جده عبد الله هو أول من أسلم من عائلته فتسمى بعبد الله، أو أن يكون أبو جده «ولغو» هو أول مَنْ أسلم، ولكنه احتفظ باسمه كما هو ثم سمَّى ولده عبد الله؛ لذا فمن الطبيعي أن يكتسب الحفيد لغة العرب ويتقنها، كما سيأتي فيما بعد خطبته الشهيرة لدى فتحه الأندلس، وفيها يظهر تمكُّنه في العربية ولسانها إن نحن أخذنا بقول الذين يرجِّحُون ثبوتها.

ولم يجد حلاًّ لهاتين المشكلتين، وهنا تدخَّل الأمر الإلهي والتدبير الرباني: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لاَ يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ﴾ [الحج: ٣٨]، ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، وهذا ما حدث بالفعل وتجسَّد في فعل يُليان صاحب سَبْتَة، وكان على النحو التالي:

- فكَّر يُليان جدِّيًّا في الأمر من حوله، وكيف أن الأرض بدأت تضيق عليه، وتتآكل من قِبَل المسلمين الذين يزدادون قوَّة يومًا بعد يوم، وتساءل: إلى متى سيظلُّ صامدًا أمامهم إن هم أتوا إليه؟

- ومن جانب آخر كان يُليان مع ذلك يحمل الحقد الدفين لـ لُذريق حاكم الأندلس؛ ذلك الذي قتل صديقه غِيطشَة، وقد كان بين يُليان وغِيطشَة علاقات طيبة؛ حتى إن أولاد غِيطشَة من بعده استنجدوا بـ يُليان هذا ليُساعدهم في حرب لُذريق، ولكن لم يكن لـ يُليان طاقة بلُذريق، كما لم يكن لأولاد غِيطشَة -أيضًا- طاقة به، ومن هنا كان ثمة عداء دفين بين صاحب سَبْتَة وحاكم الأندلس؛ ومن ثَمَّ فإلى أين سيفرُّ يُليان إن استولى المسلمون على ميناء سَبْتَة؟!

- وتَذْكُر الكثيرُ من الروايات أن السبب الرئيس في توتُّر العلاقة بين يُليان حاكم سَبْتَة ولُذريق حاكم الأندلس، ما فعله الأخير بابنة يُليان؛ إذ إنه اغتصبها، فلمَّا أُخبر بذلك يُليان أقسم أن ينال منه، ولم يجد أمامه إلاَّ أن يُساعد المسلمين ويُوَفِّر لهم بعض التسهيلات[1].

- والأمر الأخير الذي نتوقَّع أنه دار في خَلَدِ يُليان هو أن ظروف الأندلس الداخلية كلها كانت تصبُّ في مصلحة المسلمين؛ إنْ هم أرادوا فتح الأندلس، فكان يُليان على علم بأن لُذريق قد بالغ في ظلم شعب الأندلس، وفَرَضَ عليهم الضرائب

(١) في تفصيل ذلك انظر: الحِميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص٣٤، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٥١، ٢٥٢.

الباهظة؛ فعاشوا في فقر وبؤس شديدين؛ بينما هو في النعيم والمُلك؛ وهذا ما جعلهم يكرهونه ويتمنَّوْنَ الخلاص منه، كما أنه قد عاد إلى اضطهاد اليهود، وكان قد رُفع عنهم الاضطهاد أيام غِيطشَة، فلمَّا جاء لُذريق أعاد العنف والقهر؛ لدرجة أنهم أرسلوا وفدًا ليُقابل طارق بن زياد ويستحثُّه على فتح الأندلس[1]، هذا إلى جوار رغبة يُليان في استعادة ممتلكات وضِياع أولاد غِيطشَة الكثيرة في الأندلس، والتي كان لُذريق قد صادرها.

ومن تدبير ربِّ العالمين أن اختمرت هذه الأفكار جيدًا في عقل يُليان، بينما كان مُوسَى بن نُصَير -آنذاك- قد استنفد جهده وتحيَّر في أمره -فإذا بيُليان يُرسل إلى طارق بن زياد والي طَنْجَة (على بعد عدَّة كيلو مترات من ميناء سَبْتَة) برُسُلٍ من قِبَله يعرض عليه عرضًا للتفاوض، أمَّا تدبير العناية الإلهية والمفاجأة الحقيقية فكانت في بنود هذا العرض وهذا الطلب العجيب، الذي نصَّ على ما يلي:

١- نسلِّمُك ميناء سَبْتَة. (وكانت تلك معضلة حَارَ المسلمون أعوامًا في الاهتداء إلى حلٍّ لها؛ حيث كانت فوق مقدرتهم).

٢- نمدُّك بالمعلومات الكافية عن أرض الأندلس.

أمَّا المقابل فهو: ضيعات[2] وأملاك غِيطشَة التي صادرها لُذريق، وكان لغِيطشَة ثلاثة آلاف ضيعة، وكانت مِلكًا لأولاده من بعده، فأخذها منهم لُذريق وصادرها[3].

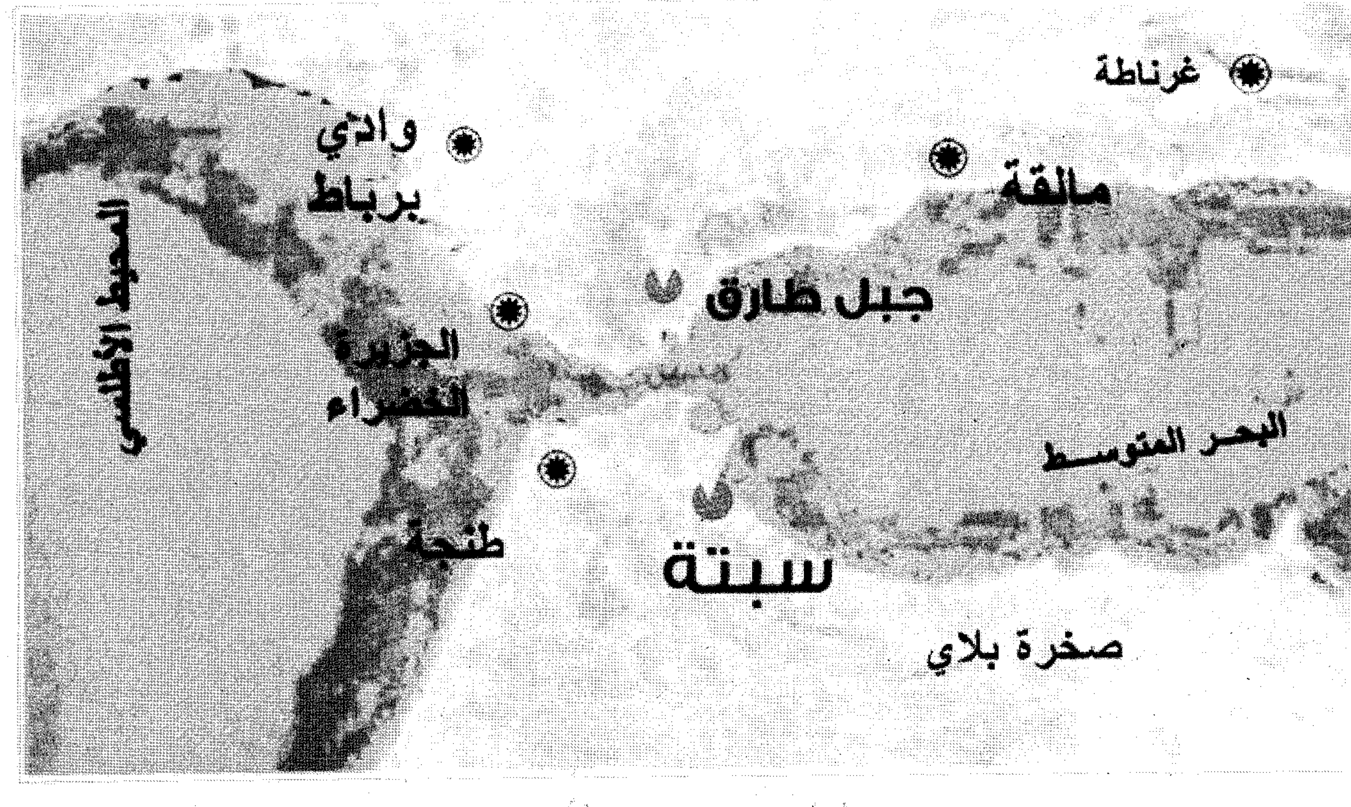
ما أجمل العرض وأحسن الطلب!

---

(١) حسين مؤنس: موسوعة تاريخ الأندلس ١/ ١٥، ١٦، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٢٣-٣٣.

(٢) ضيعات: جمع ضيعة؛ وهي تعني: عقَارًا وأرضًا مُغِلَّةً. ابن منظور: لسان العرب، مادة ضيع ٨/ ٢٢٨، والمعجم الوسيط ١/ ٥٤٧.

(٣) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٥٨.



خريطة رقم (٣) موقع مدينة سبتة وجبل طارق

بهذا العرض أراد يُليان صاحب سَبْتَة أن يتنازل للمسلمين عن سَبْتَة، ويُساعدهم في الوصول إلى الأندلس، ثم حين يحكمها المسلمون يسمع يُليان ويُطيع، على أن يردَّ المسلمون بعد ذلك ضيعات وأملاك غِيطشَة، فما أجمل العرض! وما أحسن الطلب! وما أعظم السلعة! وما أهون الثمن!

إن المسلمين لم يُفكِّروا يومًا في مغنم أو ثروة أو مالٍ حالَ فتحهم البلاد، ولم يرغبوا يومًا في دنيا يملكها غِيطشَة أو يُليان أو لُذريق.. أو غيرهم؛ فقد كان هدفهم تعليم الناس الإسلام، وتعبيدهم لربِّ العباد ﷻ، فإذا دخل الناس في الإسلام كان لهم ما للمسلمين وعليهم ما على المسلمين، ولو لم يدخلوا في الإسلام وأرادوا دفع الجزية فحينئذٍ يُترك لهم كل ما يملكون.

ومن هنا كان الثمن هيِّنًا جدًّا والعرض غاية الآمال، فبعث طارق بن زياد إلى مُوسَى بن نُصَير -وكان في القيروان عاصمة الشمال الإفريقي آنذاك (وهي في تونس الآن)- يُخبره هذا الخبر، فسُرَّ سرورًا عظيمًا، ثم بعث مُوسَى بن نُصَير بدوره إلى الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك يُطلعه -أيضًا- الخبر، ويستأذنه في فتح الأندلس، فكتب إليه الوليد: أن خُضْهَا بالسرايا؛ حتى تختبر شأنها، ولا تُغَرِّرْ بالمسلمين في بحرٍ شديد الأهوال. فراجعه: إنه ليس ببحر؛ وإنما هو خليج، يُتبيَّن للناظر ما وراءه[1]. وهنا أَذِنَ له الوليد بن عبد الملك، إلاَّ أنه شرط عليه شرطًا كان قد فكَّر فيه قبل ذلك مُوسَى بن نُصَير نفسُه، وهو: ألاَّ يدخل بلاد الأندلس حتى يختبرها بسَرِيَّة من المسلمين، فما يُدريه أن المعلومات التي سيُقَدِّمها له يُليان عن الأندلس ستكون صحيحة؟! ومَنْ يضمن له ألاَّ يخون يُليانُ عهده معه، أو يتَّفق مِنْ ورائه مع لُذريق، أو مع غيره؟

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص١٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٢٦٧، والحميري: الروض المعطار ص٣٥، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٥٣.

سَرِيَّةُ طَرِيف بن مَالِك أول سَرِيَّةٍ للمسلمين إلى الأندلس:

وصلت رسالة الإذن من الخليفة الوليد بن عبد الملك فجهَّز موسى بن نصير بالفعل سريةً من خمسمائة رجل، وجعل على رأسهم طَرِيف بن مالك، وكان طريف -أيضًا- من الأمازيغ (البربر).

سار طريف بن مالك -ويكنى أبا زرعة- من المغرب على رأس خمسمائة من المسلمين (أربعمائة راجل معهم مائة فارس) صوب الأندلس، واستقلَّ أربعة مراكب فوصلها في رمضان عام (٩١هـ=٧١٠م)، وتَذْكُر بعض الروايات أن طريفًا قام بعدَّة غارات وغنم غنائم كثيرة من أموال وأمتعة وأسرى أيضًا[١].

وقد قام طريف بن مالك رحمه الله بمهمته على أكمل وجه في دراسته لمنطقة الأندلس الجنوبية، التي سينزل فيها الجيش الإسلامي بعد ذلك، (وقد عُرِفَت هذه الجزيرة فيما بعدُ باسم هذا القائد فسُمِّيَتْ جزيرة طريف)، ثم عاد بعد انتهائه منها إلى مُوسَى بن نُصَير وشرح له ما رآه، وفي أناةٍ شديدةٍ وعملٍ دءوبٍ ظلَّ مُوسَى بن نُصَير بعد عودة طريف بن مالك عامًا كاملاً يُجَهِّز الجيش ويُعِدُّ العُدَّة، حتى جَهَّزَ في هذه السنة سبعةَ آلافِ مقاتلٍ، وبدأ بهم الفتح الإسلامي للأندلس رغم الأعداد الضخمة لقواتِ النصارى هناك[٢].

فتح الأندلس ومساعدة يُليان واليهود:

تكثر بعض الروايات العربية والأجنبية من ذِكْر يُليان حاكم سَبْتَة وتُقحمه في كل مرحلة من مراحل فتح المسلمين لبلاد الأندلس، وتُفيد بأن التفكير في فتح الأندلس لم يأتِ إلاَّ بعد عرض يُليان المساعدة على المسلمين، أو طلبه المساعدة من المسلمين لإرجاع أولاد غِيطشَة إلى حكم الأندلس، والانتقام من لُذريق الذي نال

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص١٦، ١٧، والحميري: الروض المعطار ص٣٥، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٥٤.
(٢) الحميري: الروض المعطار ص٣٥، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص٦٦.

من عِرْض ابنته.

وحقيقة الأمر أن الاتصال بين يُليان حاكم سَبْتَة وبين طارق بن زياد وموسى بن نصير جاء مواتيًا في الوقت الذي كان فيه موسى بن نصير (والي إفريقية) يُفَكِّر في فتح الأندلس، وذلك بعد فتح طَنْجَة المشرفة على الأندلس، فمن الطبيعي جدًّا أن تكون الأندلس هي الخطوة الثانية التي يُفَكِّر فيها موسى بن نصير، ونحن لا ننفي الاتصال بين الجانبين الإسلامي والإسباني؛ ولكن لا نجعله السبب الرئيس لفكرة الفتح؛ لأنه يُقَلِّلُ من قيمة الفتح الإسلامي للبلاد؛ حيث يَدَّعِي البعض أن مساعدات يُليان وتسهيلاته لطارق هي التي ساعدت في نجاح الفتح، ولكننا لا نستبعد أن يكون ذلك عاملاً مساعدًا من عوامل نجاح عملية الفتح، ولا يُستبعد -كذلك- أن يكون يُليان قدَّم تسهيلات للمسلمين؛ خاصة فيما يتعلَّق بأماكن البلاد وسبل مداخلها ومخارجها. أمَّا أن يكون العامل الوحيد فهذا أمر تأباه الحقيقة التاريخية.

أمَّا ما يتعلَّق بمساعدة اليهود للمسلمين وتقديمهم التسهيلات اللازمة لإتمام عملية الفتح، فليس لها أساس من الصحَّة لأسباب عدة؛ منها:

١- لا توجد أي إشارة في المصادر والمراجع العربية عن أي تسهيلات قدَّمها اليهود للمسلمين؛ إذ لو كانت هناك مساعدة لذكرها المؤرخون للتاريخ الأندلسي وهم كثر، ولتناقلتها الرواة جيلاً بعد جيل؛ كما ذكروا مساعدة يُليان وتناقلوها.

٢- ليس من الداعي أن نُقحم اليهود في عملية الفتح؛ خاصَّة بعد أن علمنا أن فكرة الفتح نفسها فكرة إسلامية صميمة؛ قبل أن يعرض يُليان أو أولاد غِيطشَة أو اليهود المساعدة على المسلمين، فكان من حكمة القائد الفذِّ موسى بن نصير أن يستغلَّ هذه الفرصة، خاصة وهم أدرى الناس بمداخل الأندلس ومخارجها.

٣- المتتبِّع لسير عملية الفتح التي قام بها المسلمون للمدن الأندلسية، يتَّضح له أن المسلمين لم يكونوا على علم بوجود أعداد كثيرة من اليهود في بلاد الأندلس، فصاحب (أخبار مجموعة) يقول عن فتح إِلْبِيرة: «فحَصَروا مدينتها فافْتُتِحَتْ، فألْفَوا بها يومئذٍ يهودًا»[1]. ويقول لسان الدين بن الخطيب صاحب كتاب (الإحاطة في أخبار غَرْنَاطَة) عن فتح طارق بن زياد لغَرْنَاطَة مدينة إِلْبِيرة: «فحاصروا مدينتها، وفتحوها عَنْوَة، وألفوا بها يهودًا ضمُّوهم إلى قَصَبَة[2] غَرْنَاطَة، وصار لهم ذلك سُنَّة مُتَّبَعَة؛ متى وجدوا بمدينة فتحوها يهودًا، يضمونهم إلى قصبتها، ويجعلون معهم طائفةً من المسلمين يسدونها»[3].

وهذا ينفي وجود أي صلة لليهود بالفتح؛ إذ لو كان لهم صلة لَعَلِمَ المسلمون بأماكن تواجدهم بالأندلس، وصيغة «ألفوا» توحي بعدم المعرفة المسبقة للأمر، وكأنَّ الأمر مفاجأة.

٤- لا يُسْتَبْعَد أن يكون إقحام اليهود في عملية الفتح متعمَّدًا، ويكون الهدف من ذلك هو التقليل من عملية الفتح الإسلامي العظيم، والنصر المؤزَّر الذي حَقَّقه طارق بن زياد على القوط على الرغم من قلَّة عدد المسلمين بالنسبة للجيش الأندلسي، الذي كان يفوقه أضعافًا.

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٢١، ٢٢.

(٢) القَصَبة: القلعة، والقصر وجوف الحصن. ابن منظور: لسان العرب، مادة قصب ١/ ٦٧٤، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٣٧، وهو استعمال أندلسي ذائع، وكانت القصبة الأندلسية تضم في معظم الأحيان قصرًا للحاكم ومسجدًا للصلاة وثكنات للجند. انظر ابن الخطيب: الإحاطة ١/ ١٠١ (تعليق المحقق: محمد عبد الله عنان).

(٣) لسان الدين ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١/ ١٠١.

الفصل الثالث

طارق بن زياد يفتح الأندلس

بعد عام من الحملة الاستطلاعية الناجحة التي قادها طريف بن مالك رحمه الله، وبعد أن انتهى موسى بن نصير من وضع خطة الفتح، وفي شعبان[١] من سنة ٩٢هـ= يونيه ٧١١م تحرَّك هذا الجيش المكون من سبعة آلاف فقط من جنود الإسلام، وعلى رأسه القائد طارق بن زياد.

يقول ابن الكردبوس: «وكان موسى بن نصير حين أنفذ طارقًا مُكِبًّا على الدعاء والبكاء والتضرُّع لله تعالى، والابتهال إليه في أن ينصر جيش المسلمين...»[٢].

حملة طارق وسفن العبور:

كثيرًا ما يتردَّد في تاريخ الفتح الإسلامي للأندلس الحديث عن السفن التي استعملها الجيش الإسلامي في عبوره إلى الأندلس، وفي هذه السطور نُوَضِّح بعض الأمور المهمة عن حقيقة تلك السفن، ومدى نسبتها إلى يُليان حاكم سَبْتَة من خلال النقاط التالية[٣]:

- أتم المسلمون فتح بلاد الشمال الإفريقي قبل فتح الأندلس بعقود طويلة،

---

(١) اختلفت روايات المؤرخين في الشهر الذي عبر فيه طارق بن زياد الجبل المنسوب إليه؛ منهم من قال: في الخامس من رجب. كابن الأثير في الكامل ٤/ ٢٦٨، وابن عذاري في البيان المغرب ٢/ ٦، والذهبي في تاريخ الإسلام ٦/ ٣٩٣، والمقري في نفح الطيب ١/ ٢٥٤، ومن المؤرخين من ذكر الشهرين دون ترجيح؛ منهم: الحميري في الروض المعطار ص٣٥، وابن الخطيب في الإحاطة ١/ ١٠٠.

(٢) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص٦٧، ٦٨.

(٣) للمزيد انظر: عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص٤٧-٤٩.

ومعلوم أن الشمال الإفريقي تطلُّ شواطئه على البحر المتوسط والمحيط الأطلسي، وهذا يجعلهم يُفَكِّرُون في توفير السفن اللازمة لحمايتها من أي اعتداء بيزنطي؛ وهو متوقَّع لِمَا كان بين الدولة الإسلامية والبيزنطيين من عداء مستحكم؛ وهذا لا يجعلهم يتوجَّهُون إلى استعارة السفن، بل يجب أن تكون مملوكة لهم.

- سبق للمسلمين نشاط بحري حربي في الشمال الإفريقي؛ ففي عام (٤٦هـ) وجَّه معاويةُ بن حُدَيْج عبدَ الله بنَ قيس لغزو صقلية، فكان أول مَنْ غزاها، وذلك في عهد معاوية بن أبي سفيان[١].

- كان اهتمام المسلمين واضحًا بصناعة السفن منذ وقت مبكِّر بعد فتح إفريقية، فأقاموا دارًا لصناعة السفن في تونس في عهد الحسان بن النعمان والي الشمال الإفريقي (٧٦-٨٦هـ).

- فُتِحَتْ طَنْجَة في ولاية عقبة بن نافع رحمه الله سنة (٦٣هـ)، وهي ميناء صالح لصناعة السفن.

- استعمل طريف بن مالك أربعة سفن للعبور بسريته الخمسمائة[٢]، وهذه السفن هي التي استعملها طارق بن زياد لعبور سبعة آلاف مسلم من المضيق إلى الأندلس[٣]، ولم يُذكر اسم يُليان في هذا السياق، بل وتُصَرِّح بعض الروايات بأن موسى بن نصير قد عمل من السفن عِدَّة؛ يقول المقري: «وكان موسى منذ وَجَّه طارقًا لوجهه قد أخذ في عمل السفن؛ حتى صار عنده منها عدة كثيرة، فحمل إلى طارق فيها خمسة آلاف من المسلمين مددًا كملت بهم عدة مَنْ معه اثني عشر ألفًا؛ أقوياء على المغانم، حِرَاصًا على اللقاء، ومعهم يُليان المستأمن إليهم في رجاله وأهل

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ١/ ٢٥٣.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص١٦.
(٣) السابق ص١٧.

عمله؛ يدلُّهم على العورات، ويتجسَّس لهم الأخبار»[١]. وتَذْكُر بعض الروايات أن السفن التي حملت الجيش الإسلامي إلى الأندلس هيَّأها له يُليان حاكم سَبْتَة[٢]، ويقول ابن عذاري في البيان المغرب: «فكان يُليان يحتمل أصحاب طارق في مراكب التجار التي تختلف إلى الأندلس، ولا يشعر أهل الأندلس بذلك، ويظنُّون أن المراكب تختلف بالتجار، فحمل الناسَ فوجًا بعد فوج إلى الأندلس»[٣]. فبناءً على هذه الرويات فالسفن ليست ليُليان وإنما عاون في تأجيرها لمعرفته بها.

- القيام بعملية فتح بلادٍ مثل بلاد الأندلس لا يمكن أن يفي بحاجتها استعارة سفن؛ لا سيما وأن النشاط البحري مألوف عند المسلمين، وسبق التهيُّؤ لفتح الأندلس قبله بعدَّة سنوات، وامتلاك السفن وصناعتها أحد هذه الأسباب.

كل هذا يُؤَكِّد أن أكثر السفن التي استعملها المسلمون في فتح الأندلس كانت إسلامية الصنع، أنتجتها دار قريبة، أو جُلِبَتْ من دور أخرى بعيدة.

:

تحرَّك الجيش الإسلامي وعبر المضيق -الذي عُرف فيما بعد باسم قائد هذا الجيش مضيق جبل طارق- من خلال السفن؛ وذلك لأن طارق بن زياد حين عبر المضيق نزل عند هذا الجبل، وقد ظلَّ إلى الآن -حتى في اللغة الإسبانية- يُسَمَّى جبل طارق ومضيق جبل طارق، ومن جبل طارق انتقل طارق بن زياد إلى منطقة واسعة تُسَمَّى الجزيرة الخضراء، وهناك قابل الجيش الجنوبي للأندلس، وهو حامية جيش النصارى في هذه المنطقة؛ فلم تكن قوَّة كبيرة، وكعادة الفاتحين المسلمين فقد عرض طارق بن زياد عليهم الدخول في الإسلام، ويكون لهم ما للمسلمين وعليهم

(١) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٥٧.
(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص٣٥.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٦.

ما على المسلمين، ويتركهم وأملاكهم، أو يدفعون الجزية ويترك لهم -أيضًا- ما في أيديهم، أو القتال، ولا يُؤَخِّرهم إلاَّ ثلاثًا، لكن تلك الحامية أخذتها العزَّة وأبت إلاَّ القتال؛ فكانت الحرب سجالاً بين الفريقين؛ حتى انتصر عليهم طارق بن زياد، فأرسل زعيمُ تلك الحامية وكان اسمه تُدْمير رسالة عاجلة إلى لُذريق -وكان في طُلَيْطِلَة عاصمة الأندلس آنذاك- يقول له فيها: أَدْرِكْنا يا لُذريق؛ فإنه قد نزل علينا قوم لا ندري أَهُمْ من أهل الأرض أم من أهل السماء؟! قد وطئوا إلى بلادنا وقد لقيتُهم فلتنهض إليَّ بنفسك[1].

لقد كان المسلمون فعلاً أناسًا غرباء -بالنسبة لهم- فالذي عندهم أن الفاتح أو المحتلَّ لبلد آخر إنما تقتصر مهمته على السلب والنهب لخيرات البلد، والذبحِ والقتلِ في كثير من الأحيان؛ أمَّا أن يجدوا أناسًا يعرضون عليهم الدخول في دينهم ويتركون لهم كل شيء، أو أن يدفعوا لهم الجزية ويتركون لهم -أيضًا- كل شيء؛ بل ويحمونهم من الأعداء، فهذا ما لم يعهدوه من قبلُ في حياتهم؛ بل ولا في تاريخهم كله، وفضلاً عن هذا فقد كانوا في قتالهم من المهرة الأَكْفَاء، وفي ليلهم من الرهبان المُصَلِّين، وقد أبدى قائد تلك الحامية دهشته وعجبه الشديد من أمر هؤلاء المسلمين؛ وتساءل في رسالته إلى لُذريق عن شأنهم: أهُم من أهل الأرض، أم من أهل السماء؟! وصدق؛ فهم من جند الله ومن حزبه ﴿أُولَئِكَ حِزْبُ اللَّهِ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ [المجادلة: ٢٢].

[illegible]:

لما وصلت أنباء تَقَدُّمِ طارق بن زياد إلى لُذريق -وكان في الشمال- لم يتهيَّب الموقف للمرَّة الأولى؛ لاعتقاده أن المسألة لا تعدو أن تكون غزوة من غزوات

(١) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٤.

النهب، لن تلبث أن تتلاشى، ولكن حين وصلته أنباءُ تَقَدُّمِ المسلمين ناحية قُرْطُبَة، أسرع إلى طُلَيْطلَة وحشد حشوده، وأرسل قوَّة عسكرية بقيادة ابن أخته بنشيو - وكان أكبر رجاله- للتصدِّي لهم، ووقع القتال بالقرب من الجزيرة الخضراء، فكانوا عند كل لقاء يُهْزَمون، وقُتِلَ قائدهم بنشيو، وفرَّ مَنْ نَجَا من جنوده في اتجاه الشمال؛ ليُخبروا لُذريق بما جرى، وبفداحة الخطر القادم من الجنوب[١].

موقعة وادي بَرْبَاط (٩٢هـ=٧١١م) وفتح الأندلس:

حين وصلت رسالة الفارِّين المنهزمين إلى لُذريق وقعت عليه وَقْعَ الصاعقة؛ فجُنَّ جنونُه، وفي غرورٍ وصلفٍ جمع جيشًا قِوَامه مائةُ ألف من الفرسان[٢]، وجاء بهم من الشمال إلى الجنوب يقصد جيشَ المسلمين، وكان طارق بن زياد في سبعة آلاف فقط من المسلمين جُلُّهم من الرَّجَّالة، وعددٍ محدود جدًّا من الخيل، فلـمَّا أبصر أمرَ لُذريق وجد صعوبة بالغة في المواجهة، سبعة آلاف أمام مائة ألف؛ فأرسل إلى موسى بن نصير يستنجده ويطلب منه المدد، فبعث إليه طريف بن مالك على رأس خمسة آلاف آخرين من الرجَّالة -أيضًا- تحملهم السفن[٣].

وصل طريف بن مالك إلى طارق بن زياد وأصبح عدد الجيش الإسلامي اثني عشر ألف مقاتل، وبدأ طارق بن زياد يستعدُّ للمعركة؛ فكان أول ما صنع أن بحث عن أرض تصلح للقتال، حتى وجد منطقة تُسمَّى وادي بَرْبَاط، وتُسَمِّيها بعض المصادر أيضًا (وادي لُكَّة[٤])، وكان لاختيار طارق بن زياد لهذا المكان أبعاد

(١) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٨، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٣٧، ٣٨.

(٢) اختلفت تقديرات المؤرخين لعدد جيش لُذريق؛ فهي على أقل تقدير أربعون ألفًا؛ كما عند ابن خلدون في تاريخه ٤/ ١١٧، وعلى أعلى تقدير ستمائة ألف؛ كما هو عند الحِميري في الروض المعطار في خبر الأقطار ص٣٥، وهي نحو مائة ألف كما عند المقري في نفح الطيب ١/ ٢٥٧، وحسين مؤنس في فجر الأندلس ص٧٠.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص١٧، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٢.

(٤) في بعض المصادر (وادي لُقَّة) أو (لِقة) بالكسر.

استراتيجية وعسكرية مهمة؛ فقد كان مِن خلفه وعن يمينه جبل شاهق، وبه حَمَى ظهرَهُ وميمنته؛ فلا يستطيع أحدٌ أن يلتفَّ حوله، وكان في ميسرته -أيضًا- بحيرة فهي ناحية آمنة تمامًا، ثم وضع على المدخل الجنوبي لهذا الوادي (أي في ظهره) فرقة قوية بقيادة طريف بن مالك؛ حتى لا يُباغت أحدٌ ظهرَ المسلمين؛ ومن ثَمَّ يستطيع أن يستدرج قوات النصارى من الناحية الأمامية إلى هذه المنطقة، ولا يستطيع أحدٌ أن يلتفَّ من حوله.

ومن بعيد جاء لُذريق في أبهى زينة؛ يلبس التاج الذهبي والثياب الموشَّاة بالذهب، وقد جلس على سرير محلًّى بالذهب يجرُّه بغلان[1]، فهو لم يستطع أن يتخلَّى عن دنياه؛ حتى وهو في لحظات الحرب والقتال، وقَدِمَ على رأس مائة ألف من الفرسان، وجاء معه بحبالٍ محمَّلةٍ على بغالٍ! ولا تتعجَّب كثيرًا؛ إذا علمت أنه أتى بهذه الحبال ليُقَيِّد بها أيدي المسلمين وأرجلهم بعد هزيمتهم المحقَّقة -في زعمه- ثم يأخذهم عبيدًا، وهكذا في صلف وغرور ظنَّ أنه حسم المعركة لصالحه؛ ففي منطقه وبقياسه أنَّ اثني عشر ألفًا يحتاجون إلى الشفقة والرحمة؛ وهم أمام مائة ألف من أصحاب الأرض.

وفي ٢٨ من شهر رمضان سنة ٩٢هـ= ١٩ من يوليو سنة ٧١١م بوادي بَرْبَاط دارت معركة هي من أشرس المعارك في تاريخ المسلمين، وإن الناظر العادي إلى طرفي المعركة ليدخُلُ في قلبه الشفقة -حقًّا- على المسلمين؛ الذين لا يتعدَّى عددهم الاثني عشر ألفًا، وهم يُواجهون مائة ألف كاملة، فبمنطق العقل: كيف يُقاتِلُون؟ هذا فضلاً عن أن ينتصروا.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٧.

غرناطة
مالقة
وادي
برباط
جبل طارق
الجزيرة
الخضراء
المحيط الأطلسي
البحر المتوسط
طنجة
سبتة
صخرة بلاي

خريطة رقم (٤) موقع معركة وادي برباط - وادي لكة

بين الفريقين:

رغم المفارقة الواضحة بين الفريقين إلاَّ أنَّ الناظر المحلِّل يرى أن الشفقة كل الشفقة على المائة ألف، فالطرفان ﴿هَذَانِ خَصْمَانِ اخْتَصَمُوا فِي رَبِّهِمْ﴾ [الحج: ١٩]؛ وشتَّان بين الخصمين! شتان بين فريق خرج طائعًا مختارًا، راغبًا في الجهاد، وبين فريق خرج مُكرهًا مضطرًا مُجبرًا على القتال! شتان بين فريق خرج مستعدًا للاستشهاد، مسترخصًا الحياة من أجل عقيدته، متعاليًا على كل روابط الأرض ومنافع الدنيا، أسمى أمانيه الموتُ في سبيل الله، وبين فريق لا يعرف من هذه المعاني شيئًا، أسمى أمانيه العودة إلى الأهل والمال والولد! شتان بين فريق يقف فيه الجميع صفًّا واحدًا كصفوف الصلاة؛ الغنيُّ بجوار الفقير، والكبير بجوار الصغير، والحاكم بجوار المحكوم، وبين فريق يمتلك فيه الناس بعضهم بعضًا ويستعبد بعضهم بعضًا!

فهذا فريق يقوده رجل رباني -طارق بن زياد- يجمع بين التقوى والكفاءة، وبين الرحمة والقوَّة، وبين العزَّة والتواضع، وذاك فريق يقوده متسلِّط مغرور، يعيش مترفًا مُنعَّمًا، بينما شعبه يعيش في بؤس وشقاء، وقد ألهب ظهره بالسياط! هذا جيش تُوَزَّع عليه أربعةُ أخماس الغنائم بعد الانتصار، وذاك جيش لا ينال شيئًا، وإنما يذهب كله إلى الحاكم المتسلط المغرور؛ وكأنما حارب وحده! هذا فريق ينصره ويُؤَيِّده الله ربُّه؛ خالق الكون ومالك الملك ﷻ، وذاك فريق يُحارب الله ربَّه ويتطاول على قانونه وعلى شرعه! وبإيجاز فهذا فريق الآخرة وذاك فريق الدنيا، فعلى مَنْ تكون الشفقة إذًا؟! على مَنْ تكون الشفقة وقد قال ﷻ: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي﴾ [المجادلة: ٢١]؟! على مَنْ تكون الشفقة وقد قال ﷻ: ﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ [النساء: ١٤١]؟! فالمعركة إذًا باتت وكأنها محسومة قبلاً.

[illegible]

هكذا وفي شهر رمضان بدأت معركة وادي بَرْبَاط غير المتكافئة ظاهريًّا،

والمحسومة بالمنطق الرباني، بدأت في شهر الصيام والقرآن، الشهر الذي ارتبط اسمه بالمعارك والفتوحات والانتصارات، وعلى مدى ثمانية أيام متصلة دارت رحى الحرب، وبدأ القتال الضاري الشرس بين المسلمين والنصارى، أمواج من النصارى تنهمر على المسلمين، والمسلمون صابرون صامدون؛ ﴿رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُمْ مَنْ قَضَى نَحْبَهُ وَمِنْهُمْ مَنْ يَنْتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ [الأحزاب: ٢٣].

وعلى هذه الحال ظلَّ الوضع طيلة ثمانية أيَّام متَّصلة انتهت بنصر مؤزَّر للمسلمين؛ بعد أن عَلِمَ اللهُ صبرهم وصِدْق إيمانهم، لقد سطر المسلمون بقيادة طارق بن زياد ملحمة من ملاحم الجهاد التي لم تشهدها بلاد المغرب والأندلس من قبلُ؛ ثمانية أيام تتلاطم فيها السيوف وتتساقط فيها أشلاء القتلى والشهداء، لقد قاتل الجيش القوطي قتالاً شديدًا يُعَبِّر عن شدَّة بأس وقوَّة شكيمة؛ ولكن هيهات أن تصمد تلك القوَّة أمام صلابة الإيمان وقوة العقيدة التي يتحلَّى بها الجيش المسلم؛ واثقًا بربه متيقِّنًا النصر! ويصف ابن عذاري جيش المسلمين وهم في هذا الجوِّ المتلاطم في المعركة فيقول: «فخرج إليهم طارق بجميع أصحابه رجَّالة، ليس فيهم راكب إلاَّ القليل؛ فاقتتلوا قتالاً شديدًا حتى ظنُّوا أنه الفناء»[1]. وفي نفح الطيب يقول المقري: «كانت الملاقاة يوم الأحد لليلتين بقيتا من شهر رمضان، فاتَّصلت الحرب بينهم إلى يوم الأحد لخمس خلون من شوال بعد تتمة ثمانية أيام، ثم هَزَمَ الله المشركين؛ فقُتِلَ منهم خلق عظيم، أقامت عظامهم -بعد ذلك بدهر طويل- ملبسة لتلك الأرض»[2]. وأمَّا لُذريق فقيل: إنه قُتِلَ. وفي رواية: إنه فرَّ إلى الشمال. لكنَّ ذِكْره اختفى إلى الأبد.

والحقيقة التي أثبتتها هذه المعركة -وغيرها من المعارك الحاسمة في التاريخ

(١) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٧.
(٢) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٥٩.

الإسلامي- أن المسلمين لا ينتصرون إلاَّ بقوتهم الإيمانية؛ إن هذا الفتح يعود إلى قوَّة المسلمين بتمكُّن العقيدة وتغلغل معانيها في نفوسهم، إن تفوُّق المسلمين مستمدٌّ دومًا من إيمانهم بعقيدتهم؛ وليس من سوء أحوال الآخرين، كما أن الإسلام ينبع تفوُّقه وسبقه من ذاتيَّته القوية وعقيدته النقية وتشريعه المكين؛ لأنه من وحي الله تعالى[١].

تمخَّضَت عن هذه المعركة عدَّة نتائج؛ كان أهمها:

١- طوت الأندلس صفحة من صفحات الظلم والجهل والاستبداد، وبدأت صفحة جديدة من صفحات الرقيِّ والتحضُّرِ.

٢- غنم المسلمون غنائم عظيمة؛ كان أهمها الخيول، فأصبحوا خَيَّالة بعد أن كانوا رجَّالة.

٣- بدأ المسلمون المعركة وعددهم اثنا عشر ألفًا، وانتهت المعركة وعددهم تسعةُ آلاف؛ فكانت الحصيلة ثلاثة آلاف من الشهداء رَوَوْا بدمائهم الغالية أرض الأندلس، فأوصلوا هذا الدين إلى الناس، فجزاهم الله عن الإسلام خيرًا.

وقفات مع خطبة طارق بن زياد[٢]:

أورد ابن خلكان في (وفيات الأعيان) والمقري التلمساني في (نفح الطيب) أنه لما اقترب جيش لُذريق من الجيش الإسلامي، قام طارق بن زياد في أصحابه، فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، ثم حثَّ المسلمين على الجهاد ورغَّبَهم فيه، ثم قال: «أيها الناس؛ أين المفرُّ؟! والبحر من ورائكم والعدوُّ أمامكم، فليس لكم والله! إلاَّ

(١) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص٥٥.
(٢)السابق، ص٥٩، ٦١.

الصدق والصبر، واعلموا أنكم في هذه الجزيرة أَضْيَعُ من الأيتام في مآدب اللئام، وقد استقبلتُم عدوَّكم بجيشه وأسلحته، وأقواتُه موفورة، وأنتم لا وَزَرَ[1] لكم غير سيوفكم، ولا أقوات لكم إلاَّ ما تستخلصونه من أيدي أعدائكم، وإن امتدَّت بكم الأيام على افتقاركم، ولم تُنجزوا لكم أمرًا، ذهبت ريحكم، وتعوَّضت القلوبُ من رعبها منكم الجراءةَ عليكم، فادفعوا عن أنفسكم خذلان هذه العاقبة من أمركم بمناجزة هذا الطاغية، فقد ألقته إليكم مدينتُه المحصَّنة، وإنَّ انتهاز الفرصة فيه لممكن لكم إن سمحتم بأنفسكم للموت. وإني لم أُحَذِّركم أمرًا أنا عنه بنَجْوَة[2]، ولا حملتُكم على خُطَّة أرخصُ متاعٍ فيها النفوسُ إلاَّ وأنا أبدأ بنفسي، واعلموا أنكم إن صبرتم على الأشق قليلاً؛ استمتعتم بالأرفه الألذ طويلاً، فلا ترغبوا بأنفسكم عن نفسي[3]، فيما حَظُّكم فيه أوفر من حَظِّي، وقد بلغكم ما أنشأتْ هذه الجزيرةُ من الحورِ الحسان من بنات اليونان الرافلات في الدُّرِّ والمَرْجَان، والحُلَل المنسوجة بالعِقْيَان[4]، المقصورات في قصور الملوك ذوي التيجان، وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عُرْبانًا، ورضيكم لملوك هذه الجزيرة أصهارًا وأختانًا؛ ثقةً منه بارتياحِكم للطِّعَان، واستماحِكم بمجالدة الأبطال والفرسان، ليكون حَظُّه معكم ثوابَ الله على إعلاء كلمته، وإظهار دينه بهذه الجزيرة، ويكون مغنمها خالصًا لكم من دونه ومن دون المسلمين سواكم، والله تعالى وليُّ إنجادكم على ما يكون لكم ذِكْرًا في الدارين. واعلموا أنِّي أول مجيب إلى ما دعوتُكم إليه، وأنِّي عند ملتقى

---

(١) الوَزَر: المَلْجَأ. الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الواو ٢/ ٨٤٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة وزر ٥/ ٢٨٢، والمعجم الوسيط ٢/ ١٠٢٨.

(٢) النَّجْوة: المكان المرتفع الذي تَظنُّ أنه نجاؤك. ويقال: هو بنجوة من هذا الأمر؛ بعيد عنه بريء سالم. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل النون ٦/ ٢٥٠٢، ٢٥٠٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة نجا ١٥/ ٣٠٤، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٠٥.

(٣) أي: لا تروا لأنفسكم فضلاً عليَّ، من رغب بنفسه عن فلان: رأى لنفسه عليه فضلاً. ابن منظور: لسان العرب، مادة رغب ١/ ٤٢٢، والمعجم الوسيط ١/ ٣٥٦.

(٤) العِقْيان قيل: هو الذهب الخالص. وقيل: هو ما ينبُتُ منه نباتًا. ابن منظور: لسان العرب، مادة عقا ١٥/ ٧٩.

الجمعين حامل بنفسي على طاغية قومه لُذَرِيق فقاتِلُه -إن شاء الله تعالى- فاحملوا معي، فإنْ هلكتُ بعده فقد كَفَيْتُكم أمره، ولن يُعوزكم بطل عاقل تسندون أمركم إليه، وإن هلكتُ قبل وصولي إليه فاخلفوني في عزيمتي هذه، واحملوا بأنفسكم عليه، واكتفوا الهمَّ من فتح هذه الجزيرة بقتله، فإنهم بعده يُخْذلون»[١].

ولنا وقفات مع هذه الخطبة:[٢]

١- لم يتعرَّض المؤرخون لتاريخ الفتح الأندلسي -سواء من المتقدمين أو المتأخرين- إلى هذه الخطبة، وهذا يُشير إلى عدم شيوعها، وعدم معرفة المؤرِّخين لها؛ وهو أمر يُقَلِّل أو يمحو الثقة بواقعيتها.

٢- لم تكن الخطبة وما فيها من السجع من أسلوب ذلك العصر (القرن الأول الهجري)، وغير متوقَّع لقائد جيش أن يعتني بهذا النوع من الصياغة.

٣- ذكر في الخطبة: «وقد انتخبكم الوليد بن عبد الملك من الأبطال عربانًا». والذي انتخبهم القائد موسى بن نصير والي إفريقية وليس الوليد.

٤- كان المتوقَّع أن تحتوي الخطبة على آيات من القرآن وأحاديث الرسول الأمين ﷺ، أو وصايا وأحداثٍ ومعانٍ إسلامية تُناسب المقام كالمعهود.

٥- إن طارقًا -وأكثر الجيش- من الأمازيغ (البربر)؛ مما يجعل من المناسب أن يخاطبهم بلغتهم؛ إذ ليس من المتوقَّع أن تكون لغتهم العربية قد وصلت إلى مستوى عالٍ.

طارق بن زياد وقضية حرق السفن

قبل الانتقال إلى ما بعد وادي بَرْبَاط، لا بدَّ لنا من وقفةٍ أخرى؛ أمام قضية

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٥/ ٣٢١، ٣٢٢، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٤٠، ٢٤١.

(٢) د. عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص ٥٩-٦١.

اشتهرت وذاع صيتها كثيرًا في التاريخ الإسلامي بصفةٍ عامَّةٍ، والتاريخ الأوربي بصفةٍ خاصةٍ، وهي قضية حرق طارق بن زياد للسفن التي عَبَر بها إلى بلاد الأندلس قبل موقعة وادي بَرْبَاط مباشرة.

فما حقيقة ما يُقال من أن طارق بن زياد أحرق كل السفن التي عبر عليها؟ وذلك حتى يُحَمِّس الجيش على القتال، وقد قال لهم: البحر من ورائكم والعدوُّ من أمامكم، فليس لكم نجاة إلاَّ في السيوف.

في حقيقة الأمر هناك من المؤرخين مَنْ يُؤَكِّد صحَّة هذه الرواية، ومنهم مَنْ يُؤَكِّد بطلانها، ونحن مع مَنْ يرى أنها من الروايات الباطلة؛ وذلك للأسباب الآتية:

أولاً: أن هذه الرواية ليس لها سند صحيح في التاريخ الإسلامي؛ فعِلْمُ الرجال وعِلْمُ الجرح والتعديل الذي تميَّز بهما المسلمون عن غيرهم يُحيلانا إلى أن الرواية الصحيحة لا بُدَّ من أن تكون عن طريق أناس موثوق بهم، وهذه الرواية لم تَرِدْ قطُّ في روايات المسلمين الموثوق بتأريخهم، وإنما أتت إلينا من خلال المصادر والروايات الأوربية التي كتبت عن موقعة وادي بَرْبَاط.

ثانيًا: أنه لو حدث وأحرق طارق هذه السفن بالفعل لتطلَّب ذلك ردَّ فعل من قِبَل موسى بن نصير أو الوليد بن عبد الملك استفسارًا عن هذه الواقعة، أو حوارًا بين موسى بن نصير وطارق بن زياد حول هذه القضية، أو تعليقًا من علماء المسلمين عن جواز هذا الفعل من عدمه، وكل المصادر التاريخية التي أوردت هذه الرواية وغيرها لم تذكر على الإطلاق أي ردٍّ فعل من هذا القبيل؛ مما يُعطي شكًّا كبيرًا في حدوث مثل هذا الإحراق.

ثالثًا: أن المصادر الأوربية قد أشاعت هذا الأمر؛ لأن الأوربيين لم يستطيعوا

أن يُفَسِّروا كيف انتصر اثنا عشر ألفًا من المسلمين الرجَّالة على مائة ألف فارس من القوط النصارى في بلادهم وفي عقر دارهم، وفي أرض عرفوها وألِفوها؟! ففي بحثهم عن تفسيرٍ مقنعٍ لهذا الانتصار الغريب قالوا: إن طارق بن زياد قام بإحراق السفن لكي يضع المسلمين أمام أحد أمرين: الغرق في البحر من ورائهم، أو الهلاك المحدق من قِبَل النصارى من أمامهم، وكلا الأمرين موت محقَّقٌ؛ ومن ثَمَّ فالحلُّ الوحيد لهذه المعادلة الصعبة هو الاستماتة في القتال؛ للهروب من الموت المحيط بهم من كل جانب؛ فكانت النتيجة الطبيعية الانتصار، ولو كانوا يملكون العودة لكانوا قد ركبوا سفنهم وانسحبوا عائدين إلى بلادهم.

وهكذا فسَّر الأوربيون النصارى السرَّ الأعظم -في زعمهم- في انتصار المسلمين في وادي بَرْبَاط، وهم معذورون في ذلك؛ إذ لم يفقهوا القاعدة الإسلامية المشهورة والمسجَّلة في كتاب الله ﷻ والتي تقول: ﴿كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللهِ وَاللهُ مَعَ الصَّابِرِينَ﴾ [البقرة: ٢٤٩].

فالناظر في صفحات التاريخ الإسلامي يجد أن الأصل هو أن ينتصر المسلمون وهم قلَّة على أعدائهم الكثيرين؛ بل ومن العجيب أنه إذا زاد المسلمون على أعدائهم في العدد، واغترُّوا بتلك الزيادة أن تكون النتيجة هي الهزيمة للمسلمين، وهذا هو ما حدث يوم حنين: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنْكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُمْ مُدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

ومن هنا فقد حاول الأوربيون -عن جهلٍ منهم وسوء طوية- أن يضعوا هذا التفسير وتلك الحُجَّة الواهية؛ حتى يُثبِتُوا أن النصارى لم يُهزَمُوا في ظروفٍ متكافئةٍ، وأن المسلمين لم ينتصروا إلاَّ لظروف خاصة جدًّا.

رابعًا: متى كان المسلمون يحتاجون إلى مثل تلك الحماسة التي تُحرق فيها

سفنُهم؟! وماذا كانوا يفعلون في مثل هذه المواقف -وهي كثيرة- والتي لم يكن هناك سفن ولا بحر؟! فالمسلمون إنما جاءوا إلى هذه البلاد راغبين في الجهاد، طالبين الموت في سبيل الله؛ ومن ثَمَّ فلا حاجة لهم بقائد يُحَمِّسُهم بحرق سفنهم، وإنْ كان هذا يُعَدُّ جائزًا في حقِّ غيرهم.

خامسًا: ليس من المعقول أن قائدًا محنَّكًا مثل طارق بن زياد رحمه الله يُقدِمُ على إحراق سفنه، وقطع خطِّ الرجعة على جيشه، فماذا لو انهزم المسلمون في هذه المعركة، وهو أمر وارد وطبيعي جدًّا؟ ألم يكن من الممكن أن تحدث الكرَّة على المسلمين؛ خاصة وهم يعلمون قول الله عز وجل: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا زَحْفًا فَلَا تُوَلُّوهُمُ الْأَدْبَارَ ۞ وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال: ١٥- ١٦].

فهناك إذًا احتمال أن ينسحب المسلمون من ميدان المعركة؛ وذلك إمَّا متحرِّفين لقتال جديد، وإمَّا تحيُّزًا إلى فئة المسلمين، وقد كانت فئة المسلمين في المغرب في الشمال الإفريقي؛ فكيف إذًا يقطع طارق بن زياد على نفسه التحرُّف والاستعداد إلى قتال جديد، أو يقطع على نفسه طريق الانحياز إلى فئة المسلمين؟! ومن هنا فإنَّ مسألة حرق السفن هذه تُعَدُّ تجاوزًا شرعيًّا كبيرًا، لا يُقدِم عليه مثل طارق بن زياد رحمه الله، وما كان علماء المسلمين وحُكَّامهم ليقفوا مكتوفي الأيدي حيال هذا الفعل إن كان قد حدث.

سادسًا: وهو الأخير في الردِّ على هذه الرواية أن طارق بن زياد كان لا يملك كل السفن التي كانت تحت يديه؛ فبعضها -كما ذكرتْ بعض الروايات[1]- أن يُليان صاحب سَبْتَة قد أعطاها له بأجرةٍ ليعبر عليها ثم

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٦، والحميري: الروض المعطار ص٣٥.

يُعيدها إليه بعد ذلك؛ فيعبر بها يُليان إلى الأندلس -كما أوضحنا سابقًا- ومن ثَمَّ فلم يكن من حقِّ طارق بن زياد إحراق هذه السفن.

لكل هذه الأمور نقول: إن قصة حرق السفن هذه قصة مختَلَقة، وما أُشيعت إلاَّ لتُهَوِّن من فتح الأندلس وانتصار المسلمين.

طارق بن زياد يُسرع بالتوغل والفتح:

بعد النصر الكبير الذي أحرزه المسلمون في وادي بَرْبَاط، تدفَّق الناس من المغرب والشمال الإفريقي إلى جيش طارق[1]، فتضخَّم جيش طارق إلى حدٍّ يصعب تقديره[2]، فوجد طارق بن زياد أن هذا الوقت هو أفضل الفرص لاستكمال الفتح وإمكان تحقيقه بأقل الخسائر؛ وذلك لِمَا كان يراه من الأسباب الآتية:

١- النتيجة الحتمية لانتصار اثني عشر ألفًا على مائة ألف؛ وهي الروح المعنوية العالية لدى جيش المسلمين.

٢- ازدياد عدد الجيش المسلم بما انضمَّ إليه من المتطوعين في المغرب والشمال الإفريقي.

٣- ما أصاب القوط النصارى من فقدان الثقة، التي تجسَّدت في انعدام الروح المعنوية.

٤- وإضافة إلى انعدام الروح المعنوية فقد قُتِل من القوط النصارى وتفرَّق منهم الكثير؛ فأصبحت قوتهم من الضعف والهوان بمكانٍ.

٥- وجد طارق بن زياد أن انتهاء لُذَرِيق المستبدِّ -قُتِلَ أو فرَّ هاربًا- عن الناس

(١) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٥٩.
(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٧٢.

والتأثير فيهم فرصة كبيرة لأن يُعلِّم الناسَ دين الله ﷻ؛ ومن ثَمَّ فهم أقرب إلى قبوله والدخول فيه.

٦- لم يضمن طارق بن زياد أن يظلَّ يُليان صاحب سَبْتَة على عهده معه مستقبلاً؛ ولذلك فعليه أن يستفيد من هذه الفرصة ويدخل بلاد الأندلس مستكملاً الفتح.

لهذه الأسباب أخذ طارق بن زياد جيشه بعد انتهاء المعركة مباشرة واتَّجه شمالاً؛ لفتح بقيَّة بلاد الأندلس، قاصدًا طُلَيْطلَة عاصمة القوط، التي كانت تُحضِّر لاختيار قائد جديد بعد اختفاء لُذريق، وفيها جرى التنافس بين أتباع لذريق وبين أتباع غِيطْشة.

* * *

الفصل الرابع

الفتح الإسلامي يكتسح الجزيرة

لا بُدَّ هنا -قبل استكمال مسيرة الفتح- من وقفة مع طبيعة الجزية في الإسلام؛ لبيان حقيقتها وما يُثار حولها من شبهات، فلم يكن المسلمون بدعًا بين الأمم حين أخذوا الجزية من البلاد التي فتحوها ودخلت تحت ولايتهم؛ فإنَّ أَخْذَ الأمم الغالبة للجزية من الأمم المغلوبة أمرٌ حدث كثيرًا ويشهد به التاريخ، ورغم ذلك فقد كثر الكلام حول أمر الجزية في الإسلام، وحول دعوة القرآن لأخذها من أهل الكتاب؛ حتى رأى البعض أن الجزية هذه ما هي إلاَّ صورة من صور الظلم والقهر، والإذلال للشعوب التي دخلت تحت ولاية المسلمين، وفي هذا إجحاف كبير ومغايرة للحقيقة، نحن بصدد الكشف عنها وبيانها فيما يلي:

أولاً: تعريف الجزية:

الجزية في اللغة مشتقة من مادة (ج ز ي) بمعنى جَزاهُ بما صنع؛ تقول العرب: جزى يجزي، إذا كافأ عما أُسدي إليه، والجزية مشتقة من المجازاة على وزن فِعلة؛ بمعنى: أنهم أَعطَوْها جزاءَ ما مُنِحوا من الأمن[1].

وهي في الاصطلاح تعني: ضريبة يدفعها أهلُ الكتاب بصفة عامة -ويدفعها المجوس في آراء أغلب الفقهاء، والمشركون في رأي بعضهم- نظير أن يُدافع عنهم

(١) الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل الجيم ٦/ ٢٣٠٢، ٢٣٠٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة جزي ١٤/ ١٤٥، والمعجم الوسيط ١/ ١٢١، ١٢٢.

المسلمون، وإن فشل المسلمون في الدفاع عنهم تُرَدُّ إليهم جزيتُهم، وقد تكرَّر هذا في التاريخ الإسلامي كثيرًا.

ثانيًا: على مَنْ تُفْرَضُ الجزية؟

من رحمة الإسلام وعدله أن خصَّ بالجزية طائفةً ومنع أخذها من آخرين؛ فهي:

- تؤخذ من الرجال ولا تؤخذ من النساء.
- تؤخذ من الكبار البالغين ولا تؤخذ من الأطفال.
- تؤخذ من الأصحاء ولا تؤخذ من المرضى وأصحاب العاهات غير القادرين على القتال.
- تؤخذ من الغني ولا تؤخذ من الفقير؛ بل إن الفقراء من أهل الكتاب (النصارى واليهود) والمجوس والمشركين قد يأخذون من بيت مال المسلمين؛ إن كانوا في بلد يُحكَم فيها بالإسلام.

أي أنها تُؤْخَذ من القادرين الذين يستطيعون القتال فقط، ولا تؤخذ حتى من القادرين الذين تفرَّغوا للعبادة.

ثالثًا: قيمة الجزية :

فليُلاحِظ كلُّ مَنْ يطعن في أمر الجزية ويقول: إنها صورة من صور الظلم والقهر والإذلال للشعوب. خاصَّة حين يعلم أنها تُدفَع في مقابل الزكاة التي يدفعها المسلمون؛ وله أن يعلم -أيضًا- أن قيمة الجزية هذه أقلُّ بكثير من قيمة ما يدفعه المسلمون في الزكاة؟!

في هذا الوقت الذي دخل فيه المسلمون الأندلس كانت قيمة ما يدفعه الفرد

(ممن تنطبق عليه الشروط السابقة) من الجزية للمسلمين دينارًا واحدًا في السنة؛ بينما كان المسلم يدفع ٥ ,٢٪ من إجمالي ماله إن كان قد بلغ النصاب وحال عليه الحول، وفي حالة إسلام الذمِّيِّ تسقط عنه الجزية، وإذا شارك مع المسلمين في القتال دفعوا له أجره، فالمبالغ التي كان يدفعها المسلمون في الزكاة كانت أضعاف ما كان يدفعه أهل الكتاب وغيرهم في الجزية -تلك الزكاة التي هي نفسها أقل من أي ضريبة في العالم- فهناك مَنْ يدفع ١٠ و٢٠٪ ضرائب، بل هناك مَنْ يدفع ٥٠ وأحيانًا ٧٠٪ ضرائب على ماله؛ بينما في الإسلام لا تتعدَّى الزكاة ٥ ,٢٪؛ فالجزية كانت أقلَّ من الزكاة المفروضة على المسلمين؛ وهي بهذا تُعَدُّ أقلَّ ضريبةٍ في العالم، بل كانت أقلَّ بكثير مما كان يفرضه أصحاب الحُكْم أنفسُهم على شعوبهم وأبناء جِلْدَتهم.

وفوق ذلك فقد أمر الرسول ألاَّ يُكَلَّف أهلُ الكتاب فوق طاقاتهم، بل تَوَعَّد مَنْ يظلمهم أو يُؤذيهم؛ فقال: « [1] »[2]. أي: أنا الذي أخاصمه وأحاجُّه يوم القيامة.

:

انطلق طارق بجسم الجيش الرئيسي نحو طُلَيْطلَة، ووزع باقي الجيش -الذي كثر عدده- في سرايا إلى أنحاء الجزيرة المختلفة؛ توجَّه طارق بن زياد إلى مدينة إِسْتِجَة (Ecija) وهي -أيضًا- من مدن الجنوب، وكانت فلول القوط قد تجمَّعت بها واستعدَّت لمعركة أخرى مع المسلمين، ففتح في الطريق شَذُونَة ثم مورور، ثم في

(١) المعاهد: أكثر ما يطلق على أهل الذمة، وقد يطلق على غيرهم من الكفار إذا صولحوا على ترك الحرب. انظر: المناوي: فيض القدير ٦/ ١٥٣.

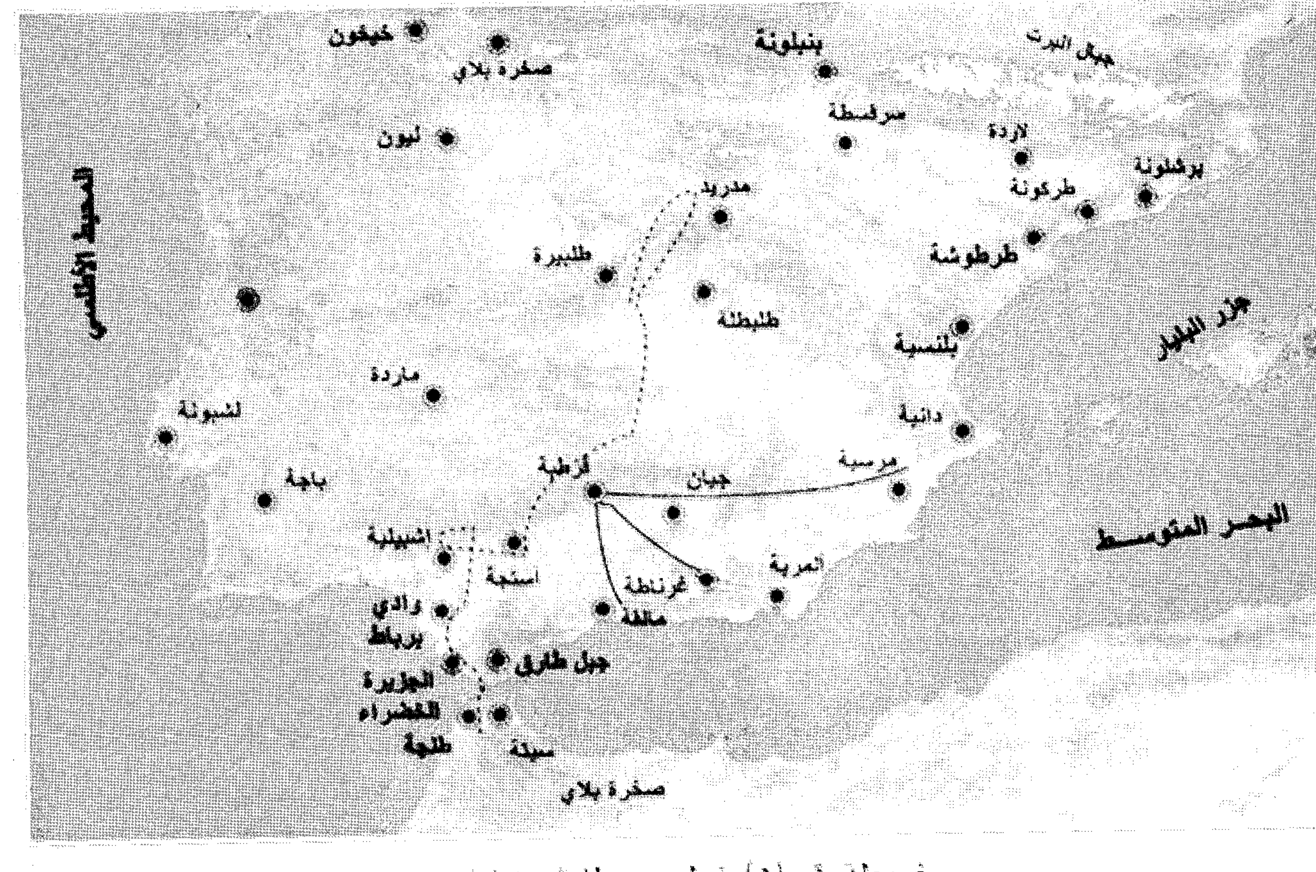
(٢) أبو داود: كتاب الخراج والفيء والإمارة، باب في تعشير أهل الذمة إذا اختلفوا بالتجارات (٣٠٥٢)، والبيهقي (١٨٥١١)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٤٤٥).

إِسْتِجَة قاتل المسلمون قتالاً عنيفًا، لكنه -بلا شَكٍّ- أقلُّ مما كان في وادي بَرْبَاط؛ فقد فَقَدَ النصارى معظم قوتهم في موقعة وادي بَرْبَاط، وقبل أن ينتصر المسلمون في أواخر المعركة فتح النصارى أبوابهم وصالحهم طارق على الجزية[١].

وثمة فارق كبير جدًّا بين أن يُصالح النصارى على الجزية، وبين أن يفتح المسلمون المدينة فتحًا؛ لأنه لو فتح المسلمون هذه المدينة فتحًا (أي: بالقتال) لكان لهم أن يأخذوا كل ما فيها، أمَّا إنْ صالح النصارى على الجزية؛ فإنهم يظلُّون يملكون ما يملكون ولا يدفعون إلاَّ الجزية، التي كانت تُقَدَّر آنذاك بدينارٍ واحد في العام.

ومن إِسْتِجَة وبجيش لا يتعدَّى تسعة آلاف رجل بدأ طارق بن زياد بإرسال السرايا لفتح المدن الجنوبية الأخرى[٢]، وانطلق هو بقوَّة الجيش الرئيسة في اتجاه الشمال؛ حتى يصل إلى طُلَيْطلَة عاصمة الأندلس آنذاك، فقد بعث بسرية إلى قُرْطُبَة، وسرية إلى غَرْنَاطَة، وسرية إلى مَالَقَة، وسرية إلى مُرْسِيَة، وهذه كلها من مدن الجنوب المنتشرة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، والمطلَّة على مضيق جبل طارق، وكان عدد الرجال في هذه السرايا لا يزيد على سبعمائة رجل، ومع ذلك فقد فُتحت قُرْطُبَة على قوتها وعظمتها بسرية من تلك التي لا تتعدَّى سبعمائة رجل؛ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللهَ رَمَى﴾ [الأنفال: ١٧]، كذلك كانت الحملات الأخرى التي أرسلها إلى غَرْنَاطَة وإِلْبِيرة ومَالَقَة تفتح البلاد والمدن، وفتحت مُرْسِيَة وقاعدتها أوريولة صلحًا[٣]

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص١٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٨، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٦٠.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص١٩، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٦٠، ٢٦١، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص٧٢ وما بعدها، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٤١ وما بعدها.
(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١/ ٥٠.



خريطة رقم (٥) خط سير طارق بن زياد

طارق بن زياد على أعتاب طُلَيْطلة

وطُلَيْطِلَة مدينة قديمة من مدن إسبانيا تقع في وسط شبه جزيرة أيبريا على مسافة ٩١ كيلو مترًا جنوب غرب مدريد -العاصمة الإسبانية الحالية- ويُحيط بها نهر التاجو من جهات ثلاث في وادٍ عميق يسقي مساحات شاسعة من أراضيها.

وكان موسى بن نصير رحمه الله -الذي اتَّسم بالحكمة والأناة- قد أوصى طارق بن زياد ألاَّ يتجاوز مدينة جَيَّان أو لا يتجاوز مدينة قُرْطُبَة، وأمره ألاَّ يسرع في الفتح في طريقه إلى العاصمة طُلَيْطِلَة حتى لا يحوطه جيش النصارى[١].

لكن طارق بن زياد وجد أن الطريق إلى طُلَيْطِلَة مفتوحٌ أمامه، وليس فيه صعوبات تُذْكَر؛ فاجتهد رأيه، وعلى خلاف رأي الأمير موسى بن نصير وجد أن هذا هو الوقت المناسب لفتح طُلَيْطِلَة العاصمة، التي تُعدُّ أحصن مدن النصارى على الإطلاق؛ فهي محاطة بجبال من جهة الشمال والشرق والغرب، أمَّا الجهة الجنوبية -وهي الجهة المفتوحة- فقد كان عليها حصن كبير جدًّا، فرأى أنه إن هاجمها في هذه الفترة التي يُصيب النصارى فيها الضعف الشديد، فلن يستطيعوا معه مقاومة جيش المسلمين ويتمكَّن من فتحها، وهذا ما قد يتعذَّر بعد ذلك فلا يستطيع فتحها، وثبتت براعة طارق فقد فتحت المدينةُ أبوابها له، ودخلها دون قتال على قلَّة ما معه، وانعدام المدد من خلفه[٢].

ثم لم يكتفِ طارق بفتح العاصمة، بل واصل الزحف شمالاً، فاخترق قشتالة وليون وطارد فلول القوط حتى أسترقة، فلجئوا إلى آخر الشمال الغربي عند جبال جيليقية الشامخة، وعبر طارق جبال أشتوريش (استورياس) حتى وصل إلى خليج

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٩٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١١٧، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٢٣.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٢٣، ٢٤، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٦٤، ٢٦٥.

غسقونية (بسكونية) على المحيط الأطلسي، فكانت هذه نهاية فتوحاته[1].

موسى بن نصير يأتي بالمدد:

تَقَدُّمُ طارق بن زياد بهذه السرعة في بلاد الأندلس لم يَنَلْ قَبُولاً لدى موسى بن نصير؛ إذ وجد فيه تهوُّرًا كبيرًا لا يُؤْمَن عواقبه، وكان قد عُرِفَ عن موسى بن نصير الأناةُ والحكمةُ والصبرُ في كل فتوحاته في شمال إفريقيا حتى وصوله إلى المغرب؛ ومن ثَمَّ فقد بعث برسالة شديدة اللهجة إلى طارق بن زياد يأمره فيها بالكفِّ عن الفتح، والانتظار حتى يصل إليه؛ وذلك خشية أن تلتفَّ حوله الجيوش النصرانية.

وفي أثناء ذلك بدأ موسى بن نصير يُعِدُّ العُدَّة لإمداد طارق بن زياد بعد أن انطلق إلى هذه الأماكن البعيدة الغائرة في وسط الأندلس، فجَهَّز من المسلمين ثمانية عشر ألفًا[2].

من أين جاءوا؟

إن المسلمين من مشارق الأرض ومغاربها قد انهمروا على أرض الأندلس حين علموا أن فيها جهادًا، فقد كان جُلُّ الاثني عشر ألف مسلم الذين فتحوا الأندلس مع طارق بن زياد من الأمازيغ (البربر)، أمَّا هؤلاء الثمانية عشر ألفًا فهم من العرب الذين جاءوا من اليمن والشام والعراق، اجتازوا كل هذه المسافة البعيدة حتى وصلوا إلى بلاد المغرب، ثم عبروا مع موسى بن نصير إلى بلاد الأندلس نصرةً ومددًا لطارق بن زياد.

موسى بن نصير وأعمال عظام في طريقه إلى طارق بن زياد:

كان موسى بن نصير قائدًا محنَّكًا، له نظرة واعية وبُعْدُ نظرٍ ثاقب، ولم يكن يومًا

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١/ ٥١.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٢٤.

كما يَدَّعِي أناس أنه عطَّل طارق بن زياد عن الفتح؛ حسدًا أن يُنسَب إليه وحده فتحُ بلاد الأندلس[١]؛ ومن ثَمَّ أراد أن يشترك في الأمر معه؛ ذلك أنَّ طارق بن زياد من عُمَّال موسى بن نصير، وواليه على الأندلس، وحسنات طارق بن زياد تُعَدُّ في ميزان موسى بن نصير رحمهما الله؛ فقد دخل الإسلام على يديه، ولكن كانت رؤية موسى بن نصير تستند إلى الحفاظ على جيش المسلمين من الهلكة وهو بعيد عن أرضه لم تستقر خطوط إمداده؛ لا سيما والجيش قد اخترق أرض الأندلس نحو العاصمة، وظلَّت كثير من المدن في ظهره غير مفتوحة ولا آمنة[٢].

ومن ثَمَّ فقد قَدِمَ موسى بن نصير وسلك بالجيش نحو المدن التي لم يفتحها طارق، فتوجَّه نحو إِشْبِيلِيَة وفي الطريق أعاد إخضاع شَذُونَة، وافتتح قَرْمُونَة -وهي يومئذٍ من أمنع معاقل الأندلس- ثم حاصر إِشْبِيلِيَة حصارًا شديدًا، طال مداه شهورًا حتى فَتَحت أبوابها أخيرًا، ثم تجاوزها موسى بن نصير إلى الشمال، ولم يكن يفتح المناطق التي فتحها طارق بن زياد، وإنما اتجه ناحية الشمال الغربي، وهو الاتجاه الذي لم يسلكه طارق بن زياد؛ فقد أراد استكمال الفتح ومساعدة طارق بن زياد؛ وليس أخذ النصر أو الشرف منه.

واصل موسى بن نصير سيره نحو طارق بن زياد، وفي طريقه فتح الكثير من المناطق العظيمة حتى وصل إلى منطقة تسمى مَارِدَة[٣]، كل هذا وطارق بن زياد في طُلَيْطِلَة ينتظر قدومه، وكانت مَارِدَة من المناطق التي تجمَّع فيها كثير من القوط النصارى، فحاصرها موسى بن نصير حصارًا بلغ مداه -أيضًا- شهورًا، كان آخرها شهر رمضان، ففي أواخره وفي عيد الفطر المبارك وبعد صبر طويل فتحت المدينة أبوابها، وصالح أهلها موسى بن نصير على الجزية، وهكذا كانت تمرُّ الأعياد

(١) تذكر بعض الروايات ذلك، انظر: مجهول: أخبار مجموعة ص٢٤، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٦٩.
(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٧٩ وما بعدها.
(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص٢٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ١٤.

على المسلمين في جهاد لنشر دين الله في ربوع العالمين[١].

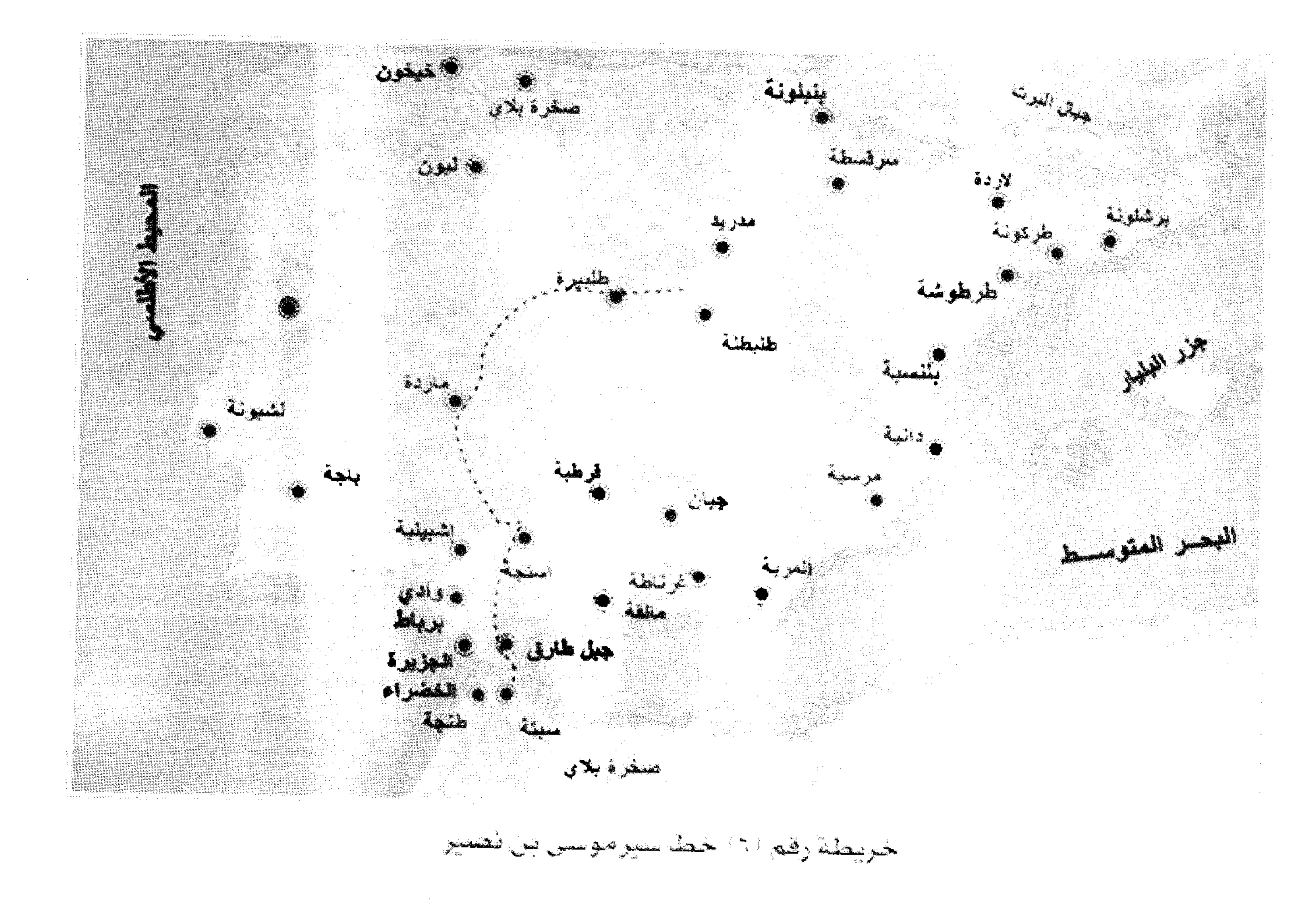
لم يكتفِ موسى بن نصير بذلك، بل أرسل ابنه عبد العزيز بن موسى بنِ نصير -رحمهم الله جميعًا- الذي تربَّى كأبيه وجدِّه على الجهاد؛ ليفتح مناطق أوسع ناحية الغرب، وقد توغَّل عبد العزيز في الغرب كثيرًا؛ حتى إنه في فترات معدودة فتح كل غرب الأندلس، التي تسمى حاليًا دولة البرتغال، فقد وصل إلى لَشْبُونَة وفتحها ثم فتح البلاد الواقعة في شمالها، وبهذا يُعَدُّ عبد العزيز بن موسى بنِ نصير فاتح البرتغال.

موسى بن نصير وطارق بن زياد.. لقاء الأبطال واستكمال الفتح:

تذكر بعض المصادر أنه لما التقى موسى بن نصير وطارق بن زياد أمسك موسى بطارق وعنَّفه ووبَّخه، بل تذكر -أيضًا- أنه قيَّده وضربه بالسوط، وبعضها يقول: إنه حبسه وهمَّ بقتله[٢]. إلاَّ أننا نقطع بأن هذا لم يحدث، وإنما الذي حدث أن موسى بن نصير قد عنَّف طارق بن زياد بالفعل على معصيته له بعدم البقاء في قُرْطُبَة أو جَيَّان واستمراره حتى طُلَيْطِلَة -كما ذكرنا- وقد كان تعنيفًا سريعًا؛ ولا نشكُّ في أنه كان لقاءً حارًّا بين بطلين افترقا منذ سنتين كاملتين، منذ رمضان سنة ٩٢هـ= يوليو ٧١١م وحتى ذي القعدة سنة ٩٤هـ= أغسطس ٧١٣م، فقد أخذت الحملة التي قادها طارق بن زياد حتى وصلت إلى طُلَيْطِلَة عامًا كاملاً، وكذلك استغرقت الحملة التي قادها موسى بن نصير حتى قابل طارقًا في المكان نفسه عامًا كاملاً.

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٢٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ١٤، ١٥، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٧١.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٢٦، ٢٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ١٦، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٧١.



خريطة رقم (٦) خط سير موسى بن نصير

ومما يدلُّ على تلك العلاقة السامية بين هذين القائدين العظيمين ما جاء في (نفح الطيب) من أن موسى بن نصير لما سمع بانتصار طارق عبر الجزيرة بمَنْ معه ولحق به، فقال له: يا طارق؛ إنه لن يجازيك الوليد بن عبد الملك على بلائك بأكثر من أن يمنحك الأندلس فاستبحه هنيئًا مريئًا. فقال له طارق: أيها الأمير؛ والله! لا أرجع عن قصدي هذا ما لم أنتهِ إلى البحر المحيط، أخوض فيه بفرسي. يعني البحر الشمالي (أي: المحيط الأطلنطي من ناحية شمال شبه جزيرة الأندلس)[(١)].

فكأن موسى بن نصير تنازل عن الأندلس لطارق من قبل أن يأتيه أمر الوليد بهذا؛ لِمَا أُعجب به من عمل طارق وجهاده، بل وتنازل عنها إعجابًا وبطيب نفس «هنيئًا مريئًا»، ثم إن طارقًا لم يكن ممن يهمه الولاية والإمارة، بل شغله حُبُّ الجهاد، وما رضي عنه بغيره، ولو كان المنصب على الجزيرة الغنية.

وبعد اللقاء اتَّحَدَا معًا واتجها إلى فتح منطقة الشمال؛ لاستكمال عمليات الفتح، ففتحا مناطق عِدَّة؛ كان منها -على سبيل المثال- منطقة بَرْشُلُونَة ففتحاها[(٢)]، ثم اتجها إلى مدينة سَرَقُسْطَة؛ وهي أعظم مدن الشمال الشرقي ففتحوها[(٣)]، وفي منطقة الشمال قام موسى بن نصير بعملٍ يُحْسَد عليه؛ فقد أرسل سريَّة خلف جبال البِرِينيه، وهي الجبال التي تفصل بين فرنسا وبلاد الأندلس، وتقع في الشمال الشرقي من بلاد الأندلس، عبرت هذه السرية جبال البرينيه، ثم وصلت إلى مدينة تُسمَّى أَرْبُونَة، وتقع هذه المدينة على ساحل البحر الأبيض المتوسط، وبذلك يكون موسى بن نصير قد أسس نواةً لمقاطعة إسلامية سوف تكبر مع الزمان، كما سيأتي بيانه بمشيئة الله.

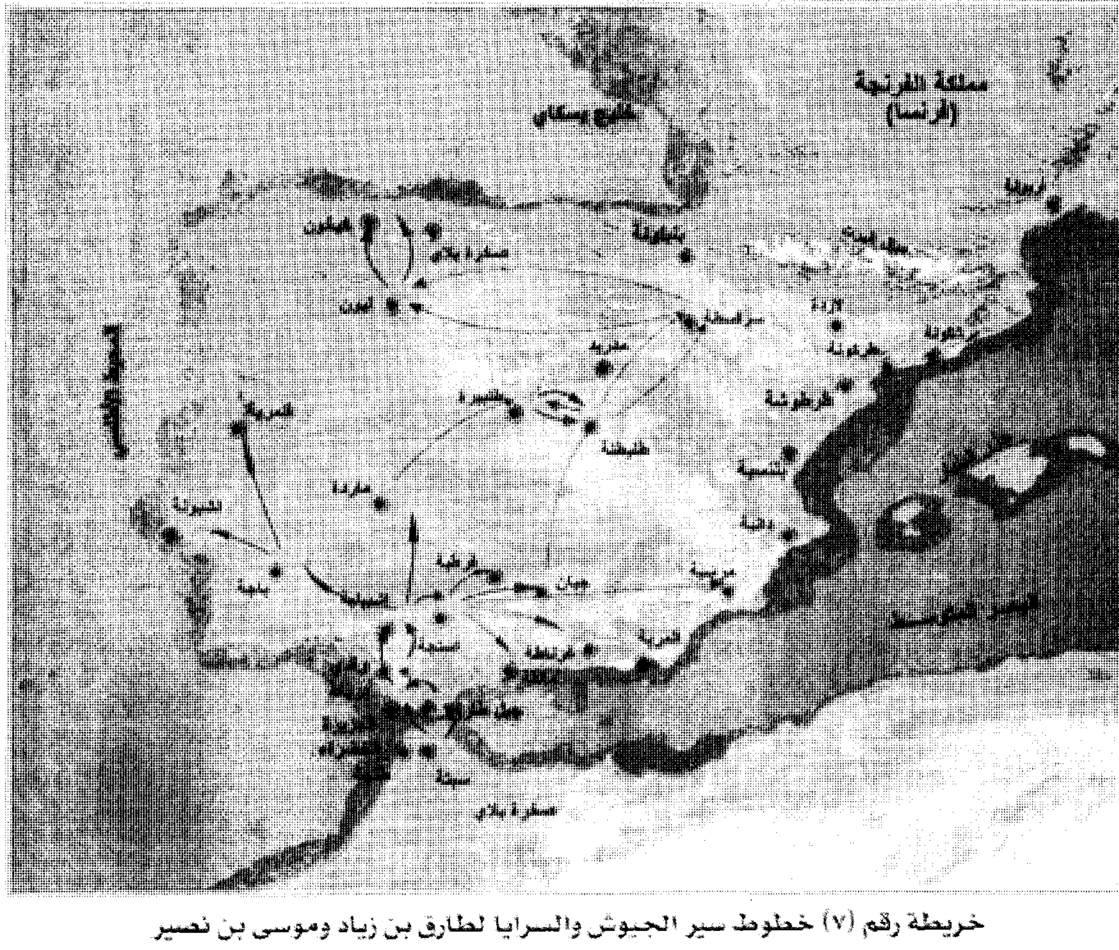
(١) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٤٢.
(٢) من المؤسف أن الكثيرين من المسلمين لا يعلمون عن برشلونة شيئًا إلا فريق كرة القدم المشهور، ولا يكاد يدور بخَلَدِهم أنها كانت في يومٍ ما مسلمة يُحكم فيها بشرع الله ﷻ.
(٣) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٧٣.

وبعد هذه السرية الوحيدة التي فتحت جنوب غرب فرنسا اتجه موسى بن نصير بجيشه إلى الشمال الغربي حتى وصل إلى آخره، وقد ظلَّ المسلمون يفتحون مدن الأندلس؛ المدينة تلو الأخرى حتى تمَّ الانتهاء من فتح كل بلاد الأندلس، إلاَّ منطقة واحدة في أقصى مناطق الشمال الغربي وتُسمى منطقة الصخرة أو صخرة بلاي، وهي تقع على خليج بسكاي عند التقائه مع المحيط الأطلنطي[1].

ففي زمن قُدِّر بثلاث سنوات ونصفٍ -ابتدأ من سنة (٩٢هـ=٧١١م) وانتهى في آخر سنة (٩٥هـ= ٧١٤م)- كان قد تمَّ للمسلمين فتح كل بلاد الأندلس عدا صخرة بلاي هذه، وحين عزم موسى بن نصير على أن يُتِمَّ فتح هذه الصخرة ويستكمل الفتح إلى نهايته، أتاه ما لم يكن يتوقَّعه.

لو لم تكن البراهين ثابتة على تمام الفتح في هذه المدة القصيرة لما صدَّقه أحد؛ لأن شبه الجزيرة الأندلسية قطر عسير فسيح لا يسهل على أحد فتحه أو إخضاعه... والحق أن فتح المسلمين للأندلس معجزة في حدِّ ذاته؛ إذ لا يُصَدِّق المرء وهو يتتبَّع أخبار هذا الفتح أن الذين كانوا يقومون به -بهذا النظام، وبهذا النظر البعيد- إنما كانوا بربرًا لم يسبق لهم عهد بالنظام ولا الجيوش ولا المعاهدات، الحق أن الإسلام قد خطا بمعتنقيه خلال القرن الأول بضعة قرون إلى الأمام، وهذا تاريخ الرومان في إفريقية: لم يوفقوا إلى تحضيرها على نحو يُقارب ما فعله الإسلام -ولو من بعيد- في بضعة قرون، فما بالك وقد فعل الإسلام ذلك في نحو نصف قرن؟![2]

(١) ابن الأثير: الكامل ٤/ ٢٧٠، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٧٤-٢٧٦.
(٢) د. حسين مؤنس: فجر الأندلس ص ١٠٧.



خريطة رقم (٧) خطوط سير الجيوش والسرايا لطارق بن زياد وموسى بن نصير

ولو ذكرنا أن موسى أكمل عمل طارق، وأن عبد العزيز أكمل عمل الاثنين لاستبان أن العرب ساروا في فتح هذه البلاد على خطَّة محكمة لم يكن من الميسور وضع أحسن منها: فقد قُضِيَ على المقاومة واحتلت العاصمة في أول وثبة، ثم اتجهت الهمة إلى إخضاع كبريات مدن الغرب، ثم احتلَّ المسلمون إقليم سَرَقُسْطَة وتتبَّعوا فلول المقاومة في معاقلها في الشمال والشمال الغربي، ثم فتحوا أقصى الغرب، وخُتم العمل بفتح الجنوب الشرقي. ولو أن مجلسًا للحرب من كبار العسكريين اجتمع ليضع خطة لفتح البلاد لما وُفِّق إلى خير من ذلك، وتلك ناحية ينبغي ألاَّ تغيب عن ذهن أحدنا وهو يدرس هذا الفتح؛ لأنها في الواقع تدلُّ على نبوغ حربي عند هؤلاء المسلمين الأولين[1].

***

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص١٠٦، ١٠٧.

الفصل الخامس

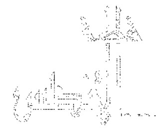
قرار الخليفة بوقف الفتح واستدعاء القادة

من أقصى بلاد المسلمين.. من دمشق.. من أمير المؤمنين الوليد بن عبد الملك تصل رسالة إلى موسى بن نصير وطارق بن زياد بأن يعودا أدراجهما إلى دمشق، ولا يستكملا الفتح، حزن موسى بن نصير وأَسِفَ أشدَّ الأسف، لكن لم يكن بُدٌّ من الاستجابة والعودة كما أُمر.

ولنا أن نندهش مع موسى بن نصير لماذا هذا الأمر الغريب؟! ولماذا الاستدعاء في هذا التوقيت خاصة؟! إلاَّ أن هذه الدهشة سرعان ما تتبخَّر حين نعلم سبب ذلك عند الوليد بن عبد الملك، وكان كما يلي:

١- كان الوليد بن عبد الملك يشغله همُّ توغُّل المسلمين بعيدًا عن ديارهم؛ فهو المسئول عن المسلمين الذين انتشروا في كل هذه المناطق الواسعة، وقد رأى أن المسلمين توغَّلوا كثيرًا في بلاد الأندلس في وقت قليل، وخشي رحمه الله أن يلتفَّ النصارى من جديد حول المسلمين؛ فإن قوة المسلمين مهما تزايدت في هذه البلاد، فهي قليلة وبعيدة عن مصدر إمدادها، فأراد ألاَّ يتوغَّل المسلمون أكثر من هذا.

٢- كان من الممكن للوليد بن عبد الملك أن يُوقف الفتوح دون عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد، لكن كان هناك أمر آخر عجيب قد سمعه الوليد بن عبد الملك؛ جعله يُصِرُّ على عودة موسى بن نصير وطارق بن



زياد إلى دمشق؛ ذلك أنه قد وصل إلى علمه أن موسى بن نصير يُريد بعد أن ينتهي من فتح بلاد الأندلس أن يفتح كل بلاد أوربا حتى يصل إلى القسطنطينية من الغرب[1].

كانت القسطنطينية قد استعصت على المسلمين من الشرق، وكثيرًا ما ذهبت جيوش الدولة الأموية إليها ولم تُوفَّق في فتحها، وهنا فكَّر موسى بن نصير أن يخوض كل بلاد أوربا؛ فيفتح إيطاليا ثم يوغوسلافيا ثم رومانيا ثم بلغاريا ثم منطقة تركيا الحالية، حتى يصل إلى القسطنطينية من جهة الغرب؛ أي أنه سيتوغَّل بالجيش الإسلامي في عمق أوربا منقطعًا عن كل مدد، فأفزع هذا الأمر الوليد بن عبد الملك، وخشي على جيش المسلمين من الهَلَكَة؛ فعجَّل بأمر عودة موسى بن نصير وطارق بن زياد.

همة عالية:

هنا لا بُدَّ لنا أن نقف وقفة عند هذه الهمَّة العالية التي كانت عند موسى بن نصير؛ خاصة إذا علمنا أنه عندما كان يُفَكِّر هذا التفكير كان يبلغ من العمر خمسًا وسبعين سنة؛ فلله دَرُّه! شيخ كبير ومع ذلك يجاهد في سبيل الله، ويركب الخيول، ويفتح المدينة تلو المدينة، يحاصر إِشْبِيلِيَة شهورًا ويحاصر مَارِدَة شهورًا، ثم يفتح بَرْشُلُونَة وسَرَقُسْطَة والشمال الشرقي، ثمَّ يتَّجه إلى الشمال الغربي ويتجه إلى الصخرة يُريد أن يفتحها، ثم هو يُريد أن ينطلق إلى فرنسا وإيطاليا وغيرها حتى يصل إلى القسطنطينية!

أيُّ همَّة هذه التي امتلكها هذا الشيخ الكبير؟! التي تجعله يفعل كل هذا ويُؤَمِّل لهذا التفكير وعمره خمسٌ وسبعون سنة! إنه ليضرب المثل لرجالات المسلمين اليوم

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١١٧، ١١٨، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٣، ٢٣٤.

وشيوخهم الذين بلغوا مثل عمره أو أقل منه، وظنُّوا أنهم قد «خرجوا على المعاش» وانتهت رسالتهم بخروجهم هذا؛ فهي رسالة واضحة لهم بأن رسالتهم في الحياة لم تنتهِ بعدُ، فمَنْ لتعليم الأجيال؟! ومَن لتوريث الخبرات؟! ومَن لتصحيح المفاهيم؟!

فقد بدأ موسى بن نصير فتح الشمال الإفريقي وقد تجاوز الستين من عمره؛ أي تجاوز سنَّ المعاش في زمننا هذا، ثم ها هو ذا في سنِّ الخامسة والسبعين يحزن حزنًا شديدًا، ولكن على أي شيءٍ كان حزنه؟! حزن أولاً على أمر الوليد بن عبد الملك له بتركه ساحة الجهاد، وقد كان محبًّا له؛ علَّه ينال الشهادة التي لم تُصِبْهُ، ثم حزن ثانيًا حزنًا شديدًا؛ لأن الصخرة لم تُفتَح بعدُ، ثم حزن ثالثًا -وكان حزنه أشدَّ- لأنه لم يستكمل حُلْمَ فتح القسطنطينية من قِبَل الغرب كما كان يتمنى.

وفي هذا يذكر المَقَّرِيُّ صاحب (نفح الطيب) أن موسى بن نصير ترك الأندلس «وهو مع ذلك متلهِّف على الجهاد الذي فاته، أَسِيفٌ على ما لحقه من الإزعاج، وكان يُؤَمِّل أن يخترق ما بقي عليه من بلد إفرنجة (فرنسا)، ويقتحم الأرض الكبيرة حتى يتصل بالناس إلى الشام مؤملاً أن يتَّخذ مخترَقُه بتلك الأرض طريقًا مَهْيَعًا[1] يسلكه أهل الأندلس في مسيرهم ومجيئهم -من المشرق وإليه- على البرِّ لا يركبون بحرًا»[2].

عودة وأُمنية:

لم يجد موسى بن نصير إلاَّ أن يسمع ويُطيع لأمر الوليد بن عبد الملك، فأخذ طارقَ بن زياد وعاد أدراجه إلى دمشق، وعندما وصل وجد الوليد بن عبد الملك في

---

(١) المهيع: السهل والواضح والبيّن والواسع. ابن منظور: لسان العرب، مادة هيع ٨/ ٣٧٨، والمعجم الوسيط ٢/ ١٠٠٣.

(٢) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٣، ٢٣٤، ٢٧٧، وانظر: الحميري: الروض المعطار ص٥٠.

مرض الموت، ثم لم يلبث أن مات وتولَّى الخلافة من بعده أخوه سليمان بن عبد الملك، وكان على رأي أخيه في استبقاء موسى بن نصير في دمشق؛ خوفًا من هلكة جيش المسلمين في توغُّله داخل بلاد أوربا نحو القسطنطينية.

وبعد عام من قدوم موسى بن نصير سنة (٩٧هـ=٧١٦م) كان سليمان بن عبد الملك ذاهبًا إلى الحجِّ، وهذا ما وافق اشتياقًا كبيرًا من قِبَل موسى بن نصير؛ فقد عاش في أرض الجهاد في شمال إفريقيا وبلاد الأندلس أكثر من عشر سنين لم يَعُدْ فيها مرَّة واحدة، فما كان منه إلاَّ أن رافق سليمان بن عبد الملك في طريقه إلى الحجِّ في ذلك العام[١].

وفي طريقه إلى هناك قال موسى بن نصير: اللهم إن كنت تُريد لي الحياة فأعدني إلى أرض الجهاد، وأَمِتْني على الشهادة، وإن كنت تُريد لي غير ذلك فأمتني في مدينة رسول الله ﷺ. ووصل رحمه الله إلى الحجِّ، وبعد حجِّه وفي طريق عودته مات في مدينة رسول الله ﷺ، ثم دُفِنَ مع الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين[٢].

وهكذا كانت همم الصالحين وقلوب المَوْصُولين برب العالمين، فقد بلغ من الكبر عِتِيًّا؛ إلاَّ أنه قَدَّم أكثر مما عاش، ظلَّ قلبه معلَّقًا بحُبِّ ربه ﷻ حتى دعاه، فكانت الخاتمة وكانت الإجابة، عاش بين الأسنَّة في أقصى بلاد الأندلس، إلاَّ أنه مات بعد الحجِّ في مدينة رسول الله ﷺ، فلله دَرُّه من قائد وقدوة!

لقد مات القائد المسلم موسى بن نُصير بعد أن ملأ جهادُه -بقيادة المدِّ الإسلامي المبارك- وِدْيانَ المغرِب الإسلامي (الشمال الإفريقي والأندلس) وجباله وسهوله وهضابه، ووَجَّه دعاةَ الحق لإسماع ساكنيه نداءَ الخير؛ فيُخرجهم من الظلمات إلى النور المبين... كان موسى بن نصير يقود هذا الجهاد في شبه الجزيرة

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام ٦/ ٤٨٩.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء ٤/ ٥٠٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٢.

الأندلسية وهو يبلغ من العمر خمسًا وسبعين سنة، ممتطيًا جواده؛ يهبط في وديانها ويرتفع على صخراتها، يتحرَّك فيه إيمانٌ بالله العلي الكبير، فتسمو نفسه وتتجدَّد طاقته وتحدوه لإعلاء كلمة الله ورفع رايته في كل مكان، فيندفع قويَّ الجنَان رغم ما علا رأسه من الشَّيْب الوقور، يقوده إصرار العقيدة السمحة، وهِمَّة الإيمان الفتيِّ، وتُفَتِّق طاقاتِه كلمةُ الله، وتُقيم قوتها إيمانًا يعلو على أي اعتبار[1].

أمَّا رفيق الدرب طارق بن زياد فقد انقطعت أخباره كُلِّيَّةً بعد رحيله إلى دمشق مع موسى بن نصير، ولا أحدٌ يدري هل عاد مرَّة أخرى إلى الأندلس أم بَقِيَ في دمشق؟!

مهما بلغ المؤرخ في الثناء على طارق فإنه لا يستطيع وفاء حقِّه، ولو فكَّر أحدنا في الأمر لحظة لاستخرج من حياة طارق وأعماله سرًّا من أسرار قوَّة الإسلام، وناحية من نواحي امتيازه؛ فطارق هذا رجل مغربي بربري لم يكن ليصبح -بغير الإسلام- إلاَّ قائدًا خاملاً لجماعة من البربر منسيين في ركن من أركان الأطلسي، فجاء الإسلام فجعل منه قائدًا فاتحًا، وسياسيًّا محنَّكًا يقود الجيوش ويفتح الأمصار، ويُوَقِّع المعاهدات في قدرة وكياسة جديرتين بالإعجاب، فلو لم يكن للإسلام من أثر إلاَّ تكوين أمثال هذا الرجل واستنهاض قومه للعمل الجليل لكفاه، فكيف وقد بثَّ الإسلام هذه الروح في كل مكان أظلَّته رايته، وكيف وقد فعل هذا في أقصر وقت وحققه على أتم وجه؟![2].

الصخرة.. والدرس الصعب.

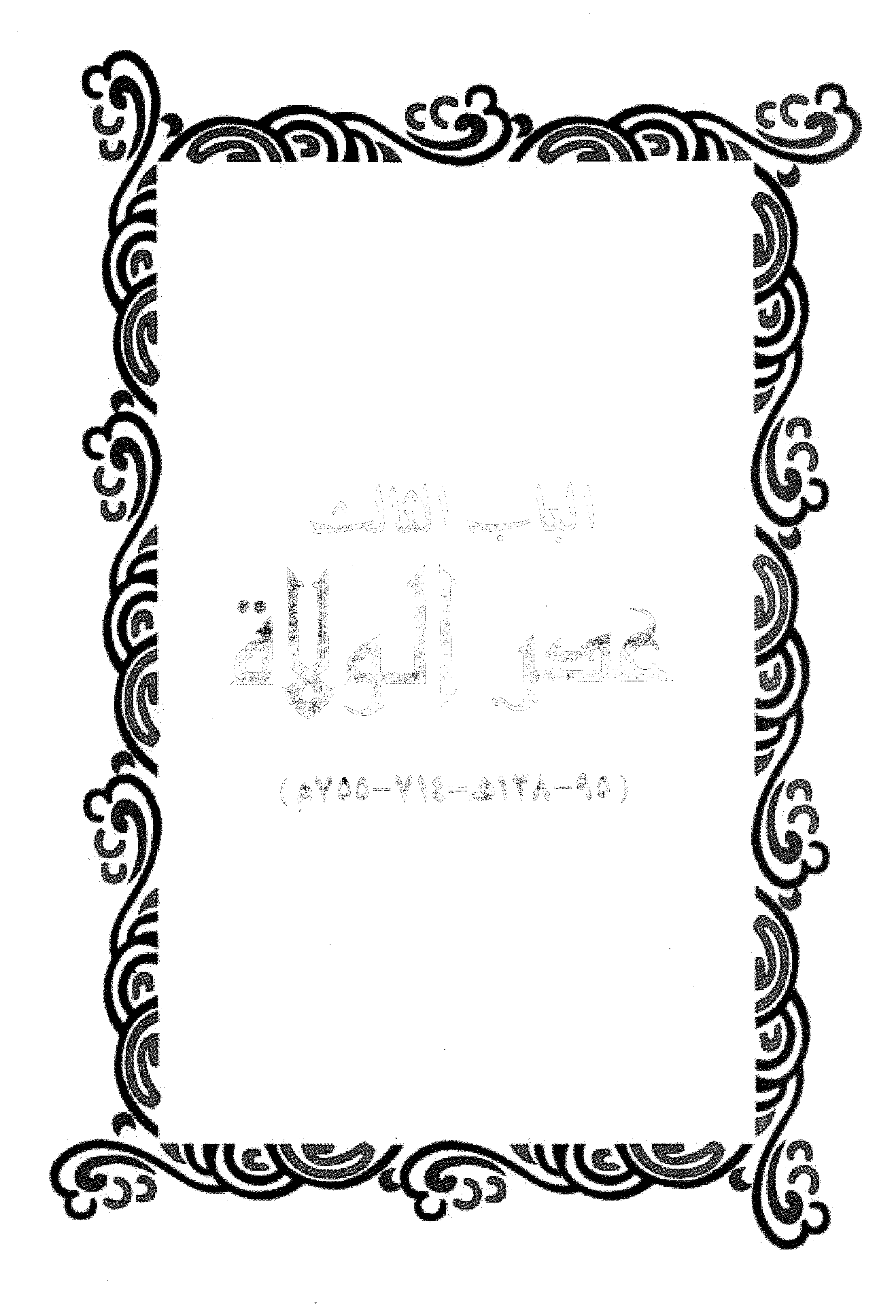
رحل موسى بن نصير وطارق بن زياد من الأندلس إلى دمشق بعدما وصلا

(١) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص١٢٨.
(٢) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص١٠٦، ١٠٧.

بفتوحاتها إلى غرب فرنسا، إلاَّ أنه كانت هناك منطقة صغيرة جدًّا في أقصى الشمال الغربي من بلاد الأندلس لم تُفتَح بعدُ، ولم يخطر على بال أحد من المسلمين أنه سيأتي يومٌ وتكون تلك المنطقة هي نواة الممالك النصرانية التي ستنشأ فيها بعدُ، وستكون صاحبة اليد الطُّولَى في سقوط الأندلس بعد ذلك بقرون.

تلك هي منطقة الصخرة التي لم يستكمل المسلمون فتحها، وكانت فيها طائفة كبيرة من النصارى، وأغلب الظنِّ أنه لو بقي موسى بن نصير أو طارق بن زياد ما تركوها، إلاَّ أننا نستطيع أن نقول: إن التهاون في أمر بسيط جدًّا قد يُؤَدِّي إلى ويلات عظيمة على مَرِّ الزمن، فلا بُدَّ أن يأخذ المسلمون كلَّ أمورهم بالعزم والحزم وعدم الطمأنينة، إلاَّ بعد استكمال النهايات على أتَمِّها.

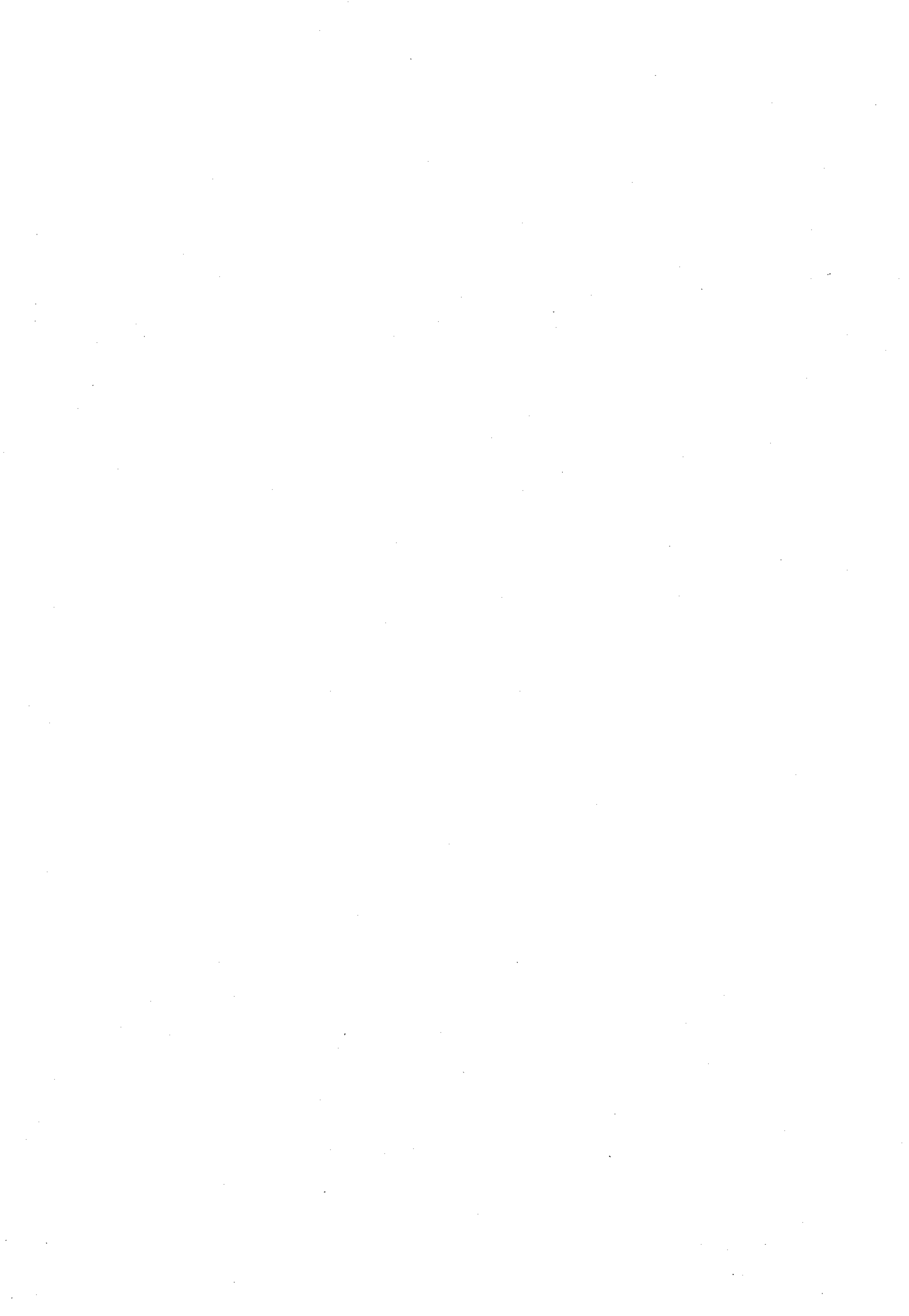
❊ ❊ ❊



الباب الثالث

عصر الولاة

(٩٥-١٣٨هـ-٧١٤-٧٥٥م)



بعد انتهاء عهد الفتح يبدأ عهد جديد في تاريخ قصة الأندلس يُسمَّى عهد الولاة، الذي يبدأ من عام (٩٥هـ=٧١٤م) ويستمرُّ مدَّة اثنين وأربعين عامًا حيث ينتهي عام (١٣٨هـ=٧٥٥م) [١]، وعهد الولاة يعني أنَّ حُكم الأندلس في هذه الفترة كان يتولاَّه رجل يتبع الحاكم العام للمسلمين، وهو الخليفة الأموي الموجود في دمشق في ذلك الوقت.

وكان أول الولاة على الأندلس هو عبد العزيز بن موسى بنِ نصير رحمه الله (ت٩٧هـ=٧١٦م) وكان كأبيه في جهاده وتقواه وورعه، كان يقول عنه أبوه موسى بن نصير: عرفتُه صَوَّاما قَوَّاما[٢]. وقال عنه الزركلي في الأعلام: «أمير فاتح، ولاَّه أبوه إمارة الأندلس عند عودته إلى الشام سنة (٩٥هـ=٧١٤م) فضبطها وسدَّد أمورها، وحمى ثغورها، وافتتح مدائن، وكان شجاعًا حازمًا، فاضلاً في أخلاقه وسيرته»[٣].

وإذا نظرنا إلى عهد الولاة نرى أنه قد تعاقب فيه على حكم الأندلس اثنان وعشرون واليًا، أو عشرون واليًا تولَّى اثنان منهم مرتين[٤]؛ فيُصبح مجموع فترات حكم الأندلس اثنتين وعشرين فترة خلال اثنين وأربعين عامًا؛ أي أن كل والٍ حكم سنتين أو ثلاث سنوات فقط.

ولا شكَّ أن هذا التغيير المتتالي للحكام قد أَثَّر تأثيرًا سلبيًّا على بلاد الأندلس، إلاَّ أن هذا التغيير في الواقع كان له ما يُبَرِّرُه؛ حيث كان هناك في بادئ الأمر كثيرٌ من الوُلاة الذين يُستَشْهَدون أثناء جهادهم في بلاد فرنسا، ثم جاءت مرحلة كان فيها

---

(١) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٩٨-٣٠٠.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ٧/ ٢٩٠، وابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٣٠٠.

(٣) الزركلي: الأعلام ٤/ ٢٨، ٢٩.

(٤) الحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ١/ ٣-٨، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٩٨-٣٠٠.

كثيرٌ من الوُلاة يُغَيَّرون عن طريق المكائد والانقلابات والمؤامرات.. وما إلى ذلك.

ومِنْ هنا نستطيع أن نُقَسِّم عهد الولاة بحسب طريقة الإدارة وطريقة الحكم إلى فترتين رئيستين مختلفتين تمامًا؛ حيث كانت الفترة الأولى فترة جهاد وفتوح وعظمة للإسلام والمسلمين، وتمتدُّ من بداية عهد الولاة من عام (٩٥هـ=٧١٤م) وحتى عام (١٢٣هـ=٧٤١م)؛ أي: سبعة وعشرين عامًا.

وكانت الفترة الثانية فترة ضعف ومؤامرات ومكائد وما إلى ذلك، واستمرَّت من سنة (١٢٣هـ=٧٤١م) وحتى سنة (١٣٨هـ=٧٥٥م)؛ أي مدَّة خمس عشرة سنة، وفي تناولنا لفترتي عهد الولاة هاتين لن ندخل في ذكر تفاصيل كُلٍّ منهما، وإنما سنقتصر على بعض الولاة فقط؛ لما لهم من الأهمية في دراستنا هذه.

* * *



الفصل الأول

عهد القــــــوة

بصفة عامَّة تميَّزت الفترة الأولى من عهد الولاة بعِدَّة أمور؛ كان من أهمها:

١- نشر الإسلام في بلاد الأندلس:

بعد أن تمكَّن المسلمون من توطيد أركان الدولة الإسلامية في هذه البلاد بدءوا يُعَلِّمون الناس الإسلام، ولأن الإسلام دين الفطرة فقد أقبل عليه أصحاب الفِطَر السوية من الناس عندما عرفوه، فاختاروه بلا تردُّد؛ فلقد وجد الإسبان في الإسلام دينًا متكاملاً شاملاً يُنَظِّم كل أمور الحياة، وجدوا فيه عقيدة واضحة وعبادات منتظمة، وجدوا فيه تشريعات في السياسة والحكم والتجارة والزراعة والمعاملات، وجدوا فيه تواضع القادة الفاتحين، وجدوا فيه كيفية التعامل والتعايش مع الأخ والأب والأم والزوجة والأبناء والجيران والأقرباء والأصدقاء، ووجدوا فيه كيفية التعامل مع العدوِّ والأسير، ومع كل الناس.

لقد تعوَّد الإسبان في حياتهم -قبل ذلك- فصلاً كاملاً بين الدين والدولة؛ فالدين عندهم لا يعدو أن يكون مجرَّد مفاهيم لاهوتية غير مفهومة، يتعاطونها ولكن لا يستطيعون تطبيقها، وفي التشريعات والحكم يُشَرِّع لهم مَنْ يحكمهم وَفق هواه، وحسبما يُحَقِّق مصالحه الشخصية، أمَّا في الإسلام فقد وجدوا أن الأمر يختلف عن ذلك تمامًا؛ فلم يستطيعوا أن يتخلَّفوا عن الارتباط به والانتساب إليه؛ فدخلوا فيه أفواجًا.

وفي مـدَّةٍ قليلـة أصبح عمـوم أهـل الأنـدلس (السـكان الأصـليين) يـدينون بالإسلام، وأصبح المسلمون من العرب والأمازيغ (البربر) قلَّةً بينهم، وأصبح أهـل الأندلس هم جند الإسلام وأعوان هذا الدين[١]، وهـم الـذين اتَّجَهُـوا بعـد ذلـك إلى فتوحات بلاد فرنسا.

٢- نشأة جيل المولَّدين:

كان من جرَّاء انصهار وانخراط الفاتحين بالسكان الأصليين، وانتشـار الإسـلام بصورة سريعة أن نشأ جيل جديد عُرِفَ باسـم (جيـل المولَّـدين)، وهـم أبنـاء الـذين أسلموا من أهل الأندلس الأصليين، فقد كان الأب عربيًّا أو أمازيغيًّا (بربريًّا) والأم أندلسية[٢].

٣- إلغاء الطبقية ونشر الحرية العقائدية:

ألغـى المسـلمون الطبقيـة التـي كانـت سـائدة قبـل ذلـك؛ حيـث جـاء الإسـلام وساوى بين النـاس جميعًـا؛ حتـى كـان الحـاكم والمحكـوم يقفـان سـويًّا أمـام القضـاء للتحـاكم في المظـالم، وعمـل المسـلمون في هـذه الفـترة عـلى إتاحـة الحريَّـة العقائديـة للناس؛ فتركوا للنصارى كنائسهم، وما هدموها قطُّ، وما كانوا يُحَوِّلونها إلى مساجد إلاَّ إذا وافق النصارى عـلى بيعهـا لهـم، وكـان بيـع الكنـائس للمسـلمين يُقَـدَّر بـأثمانٍ باهظة، أمَّا إن رفضوا بيعها تركها المسلمون لهم[٣].

وهـذه المواقـف العظيمـة إنـما كانـت تحـدث والنصـارى محكومـون مـن قِبَـل

---

(١) مما يدل على ذلك قول السمح بن مالك في كتابه إلى الخليفة عمر بن عبد العزيز -أمير المؤمنين- عندما أراد أن يخلي الأندلس من المسلمين: «إن الناس قد كثروا بها وانتشروا في أقطارها، فاضرب عن ذلك». والناس هنا المقصود بهم المسلمين. انظر: ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٦، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص٣٤٠، ٣٤١.

(٢) انظر في تفصيل ذلك: حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٣٤٤، ٣٥٠.

(٣) حول أوضاع أهل الذمة في الأندلس انظر دراسة حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٣٥٠-٤٠٩.

المسلمين، وعلينا أن نَعِيَ هذا الأمر جيدًا، ونقارن صنيع المسلمين هذا بما فعله النصارى بعد انتهاء الحكم الإسلامي في بلاد الأندلس، فيما عُرِفَ باسم محاكم التفتيش الإسبانية.

٤- الاهتمام بالحضارة المادية:

اهتمَّ المسلمون في هذه الفترة بتأسيس الحضارة المادية أو المدنية؛ فأسَّسوا الإدارة، وأقاموا العمران، وأنشئوا القناطر والكباري؛ ومما يدلُّ على براعتهم في هذا الأمر تلك القنطرة العجيبة التي تُسَمَّى قنطرة قُرْطُبَة[1]، وكانت من أعجب القناطر الموجودة في أوربا في ذلك الزمن، كذلك أنشأ المسلمون دورًا للأسلحة وصناعة السفن، وبدأت الجيوش الإسلامية تقوى وتتعاظم في هذه المنطقة.

٥- تقليد الإسبان للمسلمين في كل شيء:

كان من السمات المميِّزة -أيضًا- في هذه الفترة الأولى من عهد الولاة أن الإسبان بدءوا يُقَلِّدُون المسلمين في كل شيء؛ حتى أصبحوا يتعلَّمُون اللغة العربية التي يتكلَّمها الفاتحون، بل كان الإسبان النصارى واليهود يفتخرون بتعليم اللغة العربية في مدارسهم.

[illegible]

كذلك كان من بين السمات المميزة لهذه الفترة -أيضًا- أن اتخذ المسلمون قُرْطُبَة عاصمةً لهم[2]؛ وقد كانت طُلَيْطِلَة في الشمال قبل ذلك هي عاصمة الأندلس، ولكن وجد المسلمون أنها قريبة من فرنسا وقريبة من منطقة الصخرة، وهما من مصادر الخطر عليهم؛ فرأوا أن طُلَيْطِلَة بذلك مدينة غير آمنة؛ ومن ثَمَّ فلا يمكن أن تكون

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٣٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٦، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٥، ٤٨٠، ٣/ ١٥.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٥، والمقري: نفح الطيب ٣/ ١٤.

هي العاصمة؛ لذلك اختاروا مدينة قُرْطُبَة، التي تقع في اتجاه الجنوب؛ لانتفاء الأسباب السابقة، وحتى تكون -أيضًا- قريبة من المدد الإسلامي في بلاد المغرب.

٧- الجهاد في فرنسا:

كان الجهاد في فرنسا من أهم السمات المميزة لهذه الفترة من عهد الولاة، فاتخذت خطوات كبيرة في هذه الفترة، وسنذكر هنا بعض الولاة الذين كان لهم سَبْقٌ وحضور في عملية الجهاد في بلاد فرنسا؛ منهم على سبيل المثال:

السمح بن مالك الخولاني (ت ١٠٢هـ=٧٢١م):

تُعَدُّ ولاية السَّمْح بن مالك الخَوْلانِيِّ هي الولاية الرابعة للأندلس[١]، فبعد أن قُتل عبد العزيز بن موسى بن نصير بإِشْبِيلِيَة في رجب ٩٧هـ[٢]، اجتمع أهل الأندلس على تولية أيوب بن حبيب اللَّخْمِيِّ، وهو ابن أخت موسى بن نصير، ولم تدم ولايته إلاَّ ستة أشهر فقط؛ أي في سنة (٩٧هـ=٧١٦م)[٣]، ثم كانت ولاية الأندلس إلى الحرِّ بن عبد الرحمن الثقفي في ذي الحجة سنة ٩٧هـ= مارس ٧١٦م، من قِبَل عامل إفريقية محمد بن يزيد، فبقى الحرُّ واليًا عليها ثلاث سنين؛ فنقل الحرُّ الثقفي العاصمة من إِشْبِيلِيَة إلى قُرْطُبَة وقيل: في زمن أيوب اللَّخْمِيِّ[٤].

ثم لما تُوُفِّيَ الخليفة سليمان بن عبد الملك في (صفر ٩٩هـ= سبتمبر ٧١٧م)، خلفه عمر بن عبد العزيز رحمه الله[٥]، فعيَّن السمح بن مالك واليًا على الأندلس في

---

(١) انظر ترتيب الولاة: المقري: نفح الطيب ١/ ٢٩٩.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٢٨، والحميدي: جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس ٧/ ٢٨٩، ٢٩٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٤، ٢٥، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٨١.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص٢٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٥، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٤، ٣/ ١٤.

(٤) مجهول: أخبار مجموعة ص٢٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٥، والمقري: نفح الطيب ٣/ ١٤، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ١٢٠، ١٢١.

(٥) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٥٧-٥٩، والذهبي: تاريخ الإسلام ٦/ ٣٨٢، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٢٠٠.

رمضان عام (١٠٠هـ)، وجعل ولايتها تابعة للخلافة مباشرة؛ نظرًا لأهميتها وكثرة شئونها[١].

فتُعَدُّ ولايةُ السَّمْحِ بن مالك الخَوْلانِيِّ رحمه الله على الأندلس من حسنات الخليفة الراشد عمر بن عبد العزيز رحمه الله (٦١-١٠١هـ=٦٨١-٧٢٠م)؛ فقد حكم عمر بن عبد العزيز رحمه الله المسلمين سنتين ونصف على الأكثر (٩٩-١٠١هـ= ٧١٨-٧٢٠م)[٢]، وفي هذه الفترة الوجيزة عَمَّ الأمن والرخاء والعدل كل بلاد المسلمين.

[illegible]:

اختار عمر بن عبد العزيز رحمه الله السمحَ بن مالك الخَوْلاني، ذلك القائد الربَّاني المشهور في التاريخ الإسلامي، وهو القائد الذي انطلق إلى بلاد فرنسا مجاهدًا، وكانت بفرنسا مدينة إسلامية واحدة هي مدينة أَرْبُونَة، تلك التي فتحها موسى بن نصير رحمه الله بسرية من السرايا[٣]، لكن السمح بن مالك الخَوْلاني فتح كل منطقة الجنوب الغربي لفرنسا، ثم أَسَّس مقاطعة ضخمة جدًّا وهي مقاطعة سبتمانيا[٤].

أخذ السمح الخولاني يستكمل الفتوح في جنوب غرب فرنسا، وفي الوقت ذاته أرسل يُعَلِّم الناس الإسلام؛ سواء في فرنسا أو في الأندلس، إلى أن لقي ربه شهيدًا في معركة تولوز بطرسونة يوم عرفة سنة (١٠٢هـ=٩ من يونيه ٧٢١م)[٥].

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٣٠، والحميدي: جذوة المقتبس ١/ ٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٦، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٥، ٣/ ١٤، ١٥.

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٤/ ٥٩، وابن كثير: البداية والنهاية ٩/ ٢١٧.

(٣) انظر: المقري: نفح الطيب ١/ ٢٧٤.

(٤) انظر تفصيل ذلك: الخشني: قضاة قرطبة ص٩، وسبتمانيا الآن هي ساحل (الريفيرا)، وتُعَدُّ من أشهر المتجعات السياحية في العالم.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٦، والمقري: نفح الطيب ٣/ ١٥، وذكر الحميدي في جذوة المقتبس أنه استشهد في يوم عرفة سنة ١٠٣هـ، ٦/ ٢٣٦، ٢٣٧.

ولاية عنبسة بن سحيم (ت ١٠٧هـ=٧٢٥م):

لما سقط السمح بن مالك شهيدًا في أرض الجهاد، اختار أهل الأندلس عبد الرحمن بن عبد الله الغَافِقِيَّ رحمه الله أميرًا عليهم، واستطاع بمهارته العسكرية أن يجمع شتات المسلمين، ويعود إلى الأندلس في ذي الحجة سنة (١٠٢هـ)، وكانت هذه ولايته الأولى، ولم تدم إلاَّ شهرين؛ فقد عزله يزيد بن أبي مسلم عامل إفريقية، وولَّى بدلاً منه عَنْبَسَة بْن سُحَيْم رحمه الله وذلك في صفر (١٠٣هـ)[١].

جهاد عنبسة بن سحيم رحمه الله:

كان رحمه الله قائدًا تقيًّا وَرِعًا، وإداريًّا فذًّا، ومجاهدًا حَقَّ الجهاد، حكم بلاد الأندلس من سنة (١٠٣هـ=٧٢١م) إلى سنة (١٠٧هـ=٧٢٥م)[٢]، فوصل في جهاده إلى مدينة سانس (Sens)، وهي تبعد عن باريس بنحو ثلاثين كيلو مترًا، وهذا يعني أن عَنْبَسَة بن سُحَيْم رحمه الله قد وصل إلى ما يقرب من ٧٠٪ من أراضي فرنسا، ويعني هذا -أيضًا- أن ٧٠٪ من أراضي فرنسا كانت بلادًا إسلامية، فقد أوغل عَنْبَسَة بن سُحَيْم رحمه الله في غزو الفرنج، ويرى (إيزيدور) أسقف بَاجَة[٣] في ذلك العصر أن فتوحات عَنْبَسَة كانت فتوحات حِذَق ومهارة أكثر منها فتوحات بطش وقوة؛ ولذلك تضاعف في أيامه خَرَاج بلاد الغال -فرنسا- وافتتح قرقشونة (Carcassona) صلحًا بعد أن حاصرها مدَّة، وأوغل في بلاد فرنسا فعبر نهر الرون إلى الشرق، وأُصيب بجراحات في بعض الوقائع[٤]، فاستُشهِدَ عَنْبَسَة بن سُحَيْم

---

(١) انظر في تفصيل ذلك: الأزدي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ١/ ٣٨٦، وابن الأثير: الكامل ٤/ ٣٧٧، ٥/ ١٢٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٧، ٣/ ١٦، والذهبي: تاريخ الإسلام ٧/ ٢٠٩.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٧، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٥.

(٣) باجة: هي مدينة بالأندلس بينها وبين قرطبة مائة فرسخ (٥, ٥كم تقريبًا). الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ص٧٥، وصفة جزيرة الأندلس ص٣٦.

(٤) انظر: الزركلي: الأعلام ٥/ ٩١، وانظر تفصيل حملات عنبسة بن سحيم: الأمير شكيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ٧٣-٨٦، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ٢١٠-٢١٥.

رحمه الله وهو في طريق عودته إلى الأندلس في (شعبان ١٠٧هـ= ديسمبر ٧٢٥م)[١].

ولاية عبد الرحمن الغافقي (١١٢هـ=٧٣٠م):

بعد استشهاد عَنْبَسَة بن سُحَيْم رحمه الله بدأت الأمور في التغيُّر؛ فقد تولَّى حكم الأندلس مِن بعده مجموعة من الولاة على غير عادة السابقين، فعلى مدى خمس سنوات فقط (١٠٧-١١٢هـ=٧٢٥-٧٣٠م) تولَّى إمارة الأندلس ستة ولاة، كان آخرهم رجل يُدعى الهيثم بن عبيد الكلابي -أو الكناني حسب بعض الروايات- وكان عربيًّا متعصبًا لقومه وقبيلته[٢].

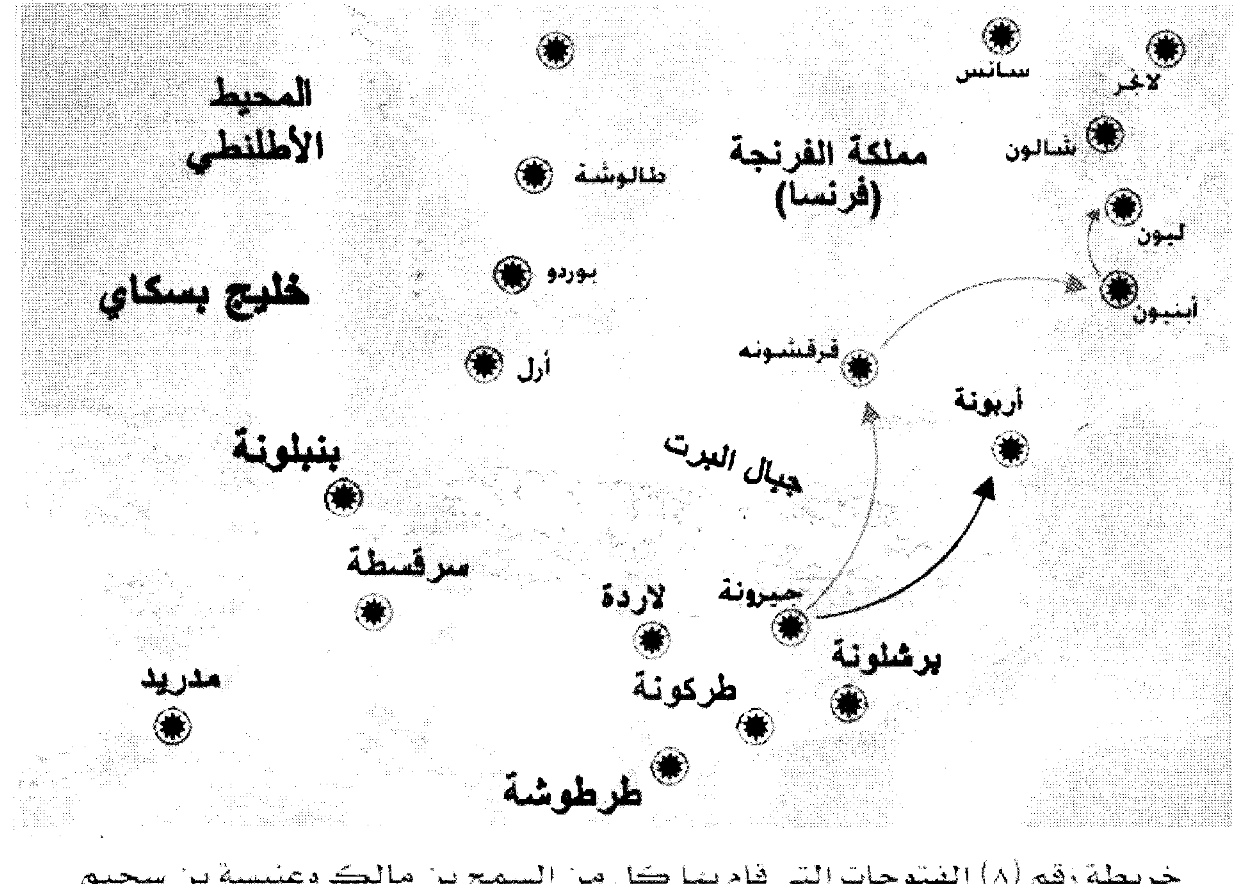
ومن هنا بدأت الخلافات تدبُّ بين المسلمين: المسلمون العرب من جهة والمسلمون الأمازيغ (البربر) من جهة أخرى، وكانت خلافات بحسب العِرْقِ وبحسب العنصر، وهو أمر لم يحدث في تاريخ المسلمين منذ فتح الله على المسلمين هذه المناطق وحتى هذه اللحظة، ولم تمرّ خلافات العصبيات هذه مرور الكرام، وإنما دارت معاركُ ومشاحناتٌ بين المسلمين العرب والمسلمين الأمازيغ (البربر)[٣]، حتى مَنَّ الله على المسلمين بمَنْ قضى عليها ووحَّد الصفوف من جديد، وبدأ يبثُّ في الناس رُوح الإسلام الأولى، التي جمعت بين الأمازيغ (البربر) وبين العرب، والتي لم تُفَرِّق بين عربي وأعجمي إلاَّ بالتقوى، ذلك هو عبد الرحمن الغَافِقِيُّ رحمه الله.

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٤/ ٣٧٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٧، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٥، ٣/ ١٦، وذكر الحميدي في جذوة المقتبس أن ولايته على الأندلس كانت سنة ١٠٦هـ من قِبَل بشر بن صفوان أمير إفريقية في أيام هشام بن عبد الملك، ووفاته سنة ١٠٧هـ، وقيل سنة ١٠٩هـ، ٦/ ٣١٩.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٣١، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٨، وفيه أن محمد بن عبد الله الأشجعي ولي بعده شهرين، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٥، ٣/ ١٨.

(٣) انظر: شكيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ص٨٦، ٨٧.



خريطة رقم (٨) الفتوحات التي قام بها كل من السمح بن مالك وعنبسة بن سحيم

مَنْ يكون عبد الرحمن الغافقي؟

هو عبد الرحمن بن عبد الله بن بشر بن الصارم الغَافِقِيّ العَكِّيّ (ت ١١٤هـ=٧٣٢م)، ينتسب إلى قبيلة (غافق) وهي فرع من قبيلة (عك) باليمن، ويُكنى أبا سعيد، وكان من كبار القادة الغزاة الشجعان، وهو أحد التابعين رحمه الله[١].

مولده:

ربما يكون وُلِدَ في اليمن ورحل إلى إفريقية، وَفَدَ على سليمان بن عبد الملك الأموي في دمشق، وعاد إلى المغرب، فاتصل بموسى بن نصير وولده عبد العزيز، أيام إقامتهما في الأندلس، ووليَ قيادة الشاطئ الشرقي من الأندلس[٢].

فكره العسكري:

تميَّز القائد عبد الرحمن الغافقي من الناحية العسكرية بالحسم، وهو مبدأ في غاية الأهمية، ويحتاج إليه القائد؛ حتى لا تتشتَّت الأمور ويبعد الهدف في ظلِّ التراخي عن اتخاذ القرار وتأخير ذلك عن وقته.

كما تميَّز أسلوبه العسكري النابع من فكره الصائب بالتوازن، بين ما يملك من قوى وما يُريد من أهداف، إضافة إلى اعتماد مبدأ الإعداد قبل التلاقي؛ أي: إعداد الجنود والشعب كله قبل المعركة إعدادًا قويًّا من كافَّة النواحي، والتأكُّد من توافر كل أنواع القوة؛ بداية من قوة الإيمان بالله، مرورًا بقوَّة التماسك والأخوة بين أفراد الجيش جميعًا، بل وأفراد الشعب، وانتهاءً بقوة الساعد والسلاح، وهي القوة المادية، وعدم الاستهانة أو التقليل من شأن أي نوع من أنواع هذه القوى؛ فإن أي قصور في أي نوع منها كفيلٌ بجلب الهزيمة على الجيش كله.

---

(١) الأزدي: تاريخ العلماء والرواة للعلم بالأندلس ١/ ٢٩٨، والزركلي: الأعلام ٣/ ٢١٢.
(٢) الزركلي: الأعلام ٣/ ٢١٢.

خُلُقُه:

وكان ﷺ، من أحسن الناس خُلُقًا[١]، وكانت إنسانيته هذه تنبع من تربيته الإسلامية الصحيحة على يد صحابة النبي ﷺ؛ فلا عجب إذا رأينا منه حُسْنَ السيرة في أخلاقه مع رعيته، ولا عجب إذا رأينا العدل والورع والصبر على الرعية، وإسداء المعروف للناس دون انتظار أي مقابل؛ فهو ليس بحاجة إلى أحد من الناس؛ فهو أمير وقائد، ويمتلك مقومات كثيرة غير أنه ينتظر الأجر من الله ﷻ.

قال عنه الذهبي: عبد الرحمن بن عبد الله الغَافِقِيّ أمير الأندلس وعاملها لهشام بن عبد الملك. روى عن ابن عمر، وعنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وعبد الله بن عياض[٢]، وذكره ابن بشكوال فيمن دخل الأندلس من التابعين[٣].

وذكر الحميدي أنه روى الحديث عن ابن عمر، وروى عنه عبد العزيز بن عمر بن عبد العزيز، وكان صالحًا جميل السيرة في ولايته، كثير الغزو للروم، عَدْلَ القسمة في الغنائم[٤].

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ٧/ ٢٧٤، ٢٧٥، والمقري: نفح الطيب ٣/ ١٥.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٧/ ٤١٤.
(٣) المقري: نفح الطيب ٣/ ١٥.
(٤) الحميدي: جذوة المقتبس ٧/ ٢٧٤، ٢٧٥.

الفصل الثاني

معركة بلاط الشهداء وتوقف الفتوحات

بعد أن وحَّد عبد الرحمن الغافقي المسلمين، وتيقَّن أن قوة الإيمان قد اكتملت، توجَّه بهم ناحية فرنسا ليستكمل الفتح من جديد، ودخل مناطق لم يدخلها السابقون، فوصل إلى أقصى غرب فرنسا، وأخذ يفتح المدينة تلو المدينة، ففتح مدينة (آرل[١])، ثم مدينة (بودو[٢]) ثم مدينة (طلوشة)، ثم مدينة (تور)، ثم وصل إلى (بواتيه)، وهي المدينة التي تسبق باريس مباشرة، والفارق بينها وبين باريس حوالي مائة كيلو متر تقريبًا إلى الغرب منها، وبينها وبين قُرْطُبَة حوالي ألف كيلو متر؛ أي أنه توغَّل كثيرًا جدًّا في بلاد فرنسا في اتجاه الشمال[٣].

وفي مدينة بواتيه عسكر عبد الرحمن الغافقي في منطقة تُسَمَّى البلاط (البلاط في اللغة الأندلسية تعني القصر)، عند قصر قديم مهجور كان بها، ثم بدأ في تنظيم جيشه لملاقاة جيش النصارى، وكان عدد جيشه يصل إلى خمسين ألف مقاتل؛ ولذا تُعَدُّ حملة عبد الرحمن الغَافِقِيّ هي أكبر حملة تدخل إلى بلاد فرنسا[٤].

---

(١) آرل: هي مدينة في جنوب فرنسا، تقع في مقاطعة بوشيه دو رون، بالقرب من ساحل البحر الأبيض المتوسط.

(٢) وهي موجودة الآن بفرنسا.

(٣) انظر تفصيل زحف عبد الرحمن الغافقي في بلاد فرنسا: شكيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ٨٧-٩١، وعبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص١٩٣-٢٠٣، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٢١-٢٢٧.

(٤) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٢٧.

وقفة في تاريخ ومصادر المعركة :

لوقعة بلاط الشهداء ظرف خاص لسنا نجده في الكثير من المواقع؛ ذلك أن المصادر الإسلامية تصمت تمامًا عن ذكر تفاصيل هذه المعركة، وهذا في حقيقة الأمر من العجائب التي لا نعرف لها تفسيرًا بعدُ، فإمَّا أن ما كُتب عن المعركة ما زال مفقودًا في بطون المخطوطات غير المنشورة، ينتظر لحظة النور وهنا تنسجم الأمور؛ فالمسلمون لم يتوقَّفُوا في التأريخ لهزيمة مهما كانت قاسية لا في الأندلس ولا في غير الأندلس، لا في القديم ولا في الحديث منذ غزوة أُحُد وحُنَين، وحتى سقوط غَرْنَاطة، أو الهزائم الكبرى التي قبلها كالعِقَاب مثلاً.

فإن لم يكن ما كُتب عن المعركة مفقودًا، وكان المسلمون قد توقَّفُوا في الحديث عنه لسبب ما، فإننا لا نجد في هذه اللحظة إلاَّ أن نسير مع المؤرخ المحقق الدكتور حسين مؤنس الذي أدهشه قلة التفاصيل، واجتهد في معرفة السبب فلم يجد إلاَّ أن قال: «الواقع أن المسألة لا تُعَلَّل إلاَّ بشيء واحد: هو أن هزيمة المسلمين كانت من الشدَّة بحيث كان أوائل الرواة ينفرون حتى من مجرَّد ذكرها من فرط الألم والتشاؤم، فاندرجت في مدارج النسيان، وتعاقبت عليها الأعصر فلم يبقَ في ذاكرة الرواة منها شيء إلاَّ أن أهل الإسلام قد هزموا في هذه الناحية هزيمة مروعة بين سنتي ١١٤ و١١٥ هجرية»[١].

وحين خلت تفاصيل المعركة من الرواية الإسلامية لم يبقَ في المتاح إلاَّ الرواية الأوربية المسيحية عنها، وهي روايات حافلة بكثير من التفاصيل، وبكثير من الأساطير كذلك.. ولقد تشبعت الروايات الأوربية بالمبالغات في وصف المعركة ووصف النصر العظيم للفرنجة، والهزيمة الساحقة الماحقة للمسلمين، مبالغة مَنْ

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٢٨.

رأى فيها إنقاذ المسيحية من الفناء على يد الإسلام الزاحف بسرعة مدهشة، والذي لم يقف أمامه حتى الآن شيء، فإذ به ينتقل من الشرق إلى الغرب، ومن جنوب المتوسط إلى شماله، ويكاد يجعل بحر المتوسط بحيرة تامَّة لمملكته الناهضة.

إذًا فكلُّ ما نعرفه عن تفاصيل بلاط الشهداء مأخوذ من الرواية الأوربية لا غير، وخلاصة ما تُقَدِّمه الرواية الغربية نميل إلى تصديقه بعد استخلاصه من المبالغات، وإن كان لا يسلم من مؤاخذات واعتراضات كذلك، وسنعرض لها بعد توقُّفنا أمام المعركة.

الكثرة والغنيمة من عوامل الهزيمة:

رغم ضخامة حملة عبد الرحمن الغَافِقِيّ تلك إلاَّ أنه كانت هناك مشكلة كبيرة تكاد تفتك بها، وهي أن هذه الحملة كانت قد فتحت مدنًا كثيرة حتى وصلت إلى بواتيه؛ ومن ثَمَّ فقد جمعت من الغنائم الكثير الذي زاد وثَقُلَ في أيدي المجاهدين، وهنا بدأ المحاربون ينظرون إلى هذه الغنائم، ويُفتَنُون بهذه الأموال الضخمة التي حصَّلوها.

ثم عندما وصل عبد الرحمن الغَافِقِيُّ بالجيش إلى بواتيه ظهرت ثمة أمور أخرى جديدة؛ فقد تجدَّدت العصبيات التي كانت قد اندحرت في بلاد الأندلس بين العرب والأمازيغ (البربر) من جديد؛ وذلك بسبب كثرة الغنائم، فقد اختلفوا في توزيعها رغم أنه أمر معروف ومُتَّفق عليه، وأخذ كلٌّ ينظر إلى ما بيد الآخر؛ يقول العرب: إنهم أحقُّ لأفضليتهم. ويقول الأمازيغ (البربر): نحن الذين فتحنا البلاد. ونسي الجميع أن الفاتحين الأوائل ما فرَّقوا قطُّ بين عربٍ وأمازيغ (بربر)، بل ما فرَّقوا بينهم وبين مَنْ دخل الإسلام من الأندلسيين بعد ذلك.

يمكننا أن نضيف -أيضًا- ما قد يكون من زهو واغترار بالكثرة والعدد

الضخم، فخمسون ألفًا من المجاهدين عدد لم يُسبَقْ في تاريخ الأندلس، فأخذتهم العزَّة، وظنُّوا أنهم لن يُغلَبوا بسبب كثرتهم هذه، لا سيما وأنهم اكتسحوا الجنوب والوسط الفرنسي، ولم تقف لهم قوَّة ذات بال.

التقى الجيشان؛ خمسون ألفًا من المسلمين أمام أربعمائة ألف استطاع شارل مارتل تجميعهم من كل شيء طالته يداه؛ فمحاربون ومرتزقة، وفرنجة وهمج قادمون من الشمال، وأمراء وعامة وعبيد، واندلع القتال بين الجيشين لمدَّة تسعة أيام لا غالب ولا مغلوب.

حتى إذا كان اليوم العاشر، حمل المسلمون على الفرنج حتى كادوا ينتصرون إلاَّ أن فرقة من فرسان الفرنجة استطاعت أن تنفذ إلى معسكر الغنائم في خلف الجيش الإسلامي، وهنا صاح الصائح ينادي على الغنائم، فقفلت فرقة من الفرسان في قلب الجيش الإسلامي إلى الخلف مدافعة عن الغنائم، فاهتزَّ قلب الجيش الإسلامي، ثم اهتزَّ وضع الجيش جميعه مع هذه الحركة المفاجئة، وما كان عبد الرحمن الغافقي ينادي على الناس ويحاول تجميعهم من جديد حتى أصابه سهم ألقاه من على فرسه شهيدًا، فصارت الطامَّة طامتان: ارتباك حركة الجيش، واستشهاد القائدِ العظيم.

بالغت الروايات الأوربية كثيرًا في أعداد قتلى المسلمين فيها، فتذكر بعضها أن قتلى المسلمين في بلاط الشهداء بلغ خمسة وسبعين وثلاثمائة ألف مسلم، وهو بلا شَكٍّ رقم مبالغ فيه جدًّا؛ لأن جيش المسلمين في الأساس لم يَتَعَدَّ خمسين ألفًا، أو ثمانين في أقصى التقديرات.

بعد انقضاء اليوم العاشر انسحب المسلمون إلى الجنوب، وجاء اليوم الحادي عشر فنهض الفرنجة لمواصلة القتال، فلم يجدوا من المسلمين أحدًا، فتقدَّموا على

حذر من مضارب المسلمين فإذا هي خالية، وقد فاضت بالغنائم والأسلاب والخيرات، فظنُّوا الأمر خدعة، وتريَّثُوا قبل أن يجتاحوا المعسكر وينتهبوا ما فيه، ولم يُفَكِّر أحد منهم في تتبُّع المسلمين؛ إما لأنهم خافوا أن يكون العرب قد نصبوا لهم بهذا الانسحاب شركًا، أو ربما لأن شارل مارتل اطمأن أنه يستطيع العودة إلى بلاده في الشمال مطمئنًا إلى انصراف المسلمين عنها[1].

يرفض الدكتور عبد الرحمن الحجي في كتابه «التاريخ الأندلسي» قصة الغنائم هذه، ويسوق في الردِّ عليها جملة من الأمور هي: عدم ثبوت شيء متعلق بأن ثمة نزاعًا كان بين العرب والبربر لا من قبل المعركة ولا في الوقت الذي تلاها، كذلك ما يبدو في قصة الغنيمة من أسطورية تجانب ما عُرف عن الأهداف العليا للفتح الإسلامي، ولما عُرف عن الفاتحين في فرنسا من الزهد في مثل هذه الأمور، كما أنه من الغريب أن يحمل الفاتحون غنائمهم وهم متوجهون إلى معركة يعرفون أنها حاسمة، ولو قُدِّر أن اجتمع لهم مثل هذا القدر الضخم من الغنائم -كما تصف الرواية الأوربية- لكانوا أودعوها مدنًا مفتوحة وما حملوها معهم؛ لا سيما وقد أظهرت لنا طبيعة الفتوح في الأندلس اهتمام المسلمين بالخيل والسلاح تحديدًا لا بغير ذلك من الغنائم، كذلك تتناقض الرواية الأوربية حين تقول بأن الفرنج لم يكتشفوا حيلة المسلمين وانسحابهم إلاَّ في صبيحة اليوم التالي، وقد كانوا يتجهزون لقتال، ما يعني أنه لم تكن تبدو بوادر انتصار لهم ولا هزيمة للمسلمين، فضلاً عن أن تكون هزيمة ساحقة كما تمَّ تصويرها، بل الأرجح في هذه الحالة أن المسلمين انسحبوا بشكل تكتيكي طبيعي لَمَّا استشهد الغافقي، وهو قرار عسكري يُؤخذ بلا حرج حين تبدو صعوبة المعركة، ولا يعني في حدِّ ذاته هزيمة فادحة[2].

---

(١) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٢٩.

(٢) انظر التفصيل: عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص١٩٧ وما بعدها.

إلاَّ أننا لا نميل كل الميل إلى كلام الدكتور الحجي، وإن كان طرح بعض ما يحتاج إلى دراسة متخصصة، ذلك أن الفاتحين من البشر ويجوز أن يحرصوا على الغنائم وأن يُفتنوا بها، وليسوا -على عظمتهم- بأكرم من صحابة النبي ﷺ الذين فُتنوا بها في أُحُد، كما أن الهزيمة في بلاط الشهداء إذا لم تكن كبيرة لكُنَّا سمعنا بعودة أخرى للمسلمين إلى تلك المناطق، إلاَّ أن ذلك لم يحدث؛ وهذا ما يعطينا الإيحاء القوي -الذي يفتقر للدليل الأكيد- بأنها كانت حقًّا هزيمة مؤثِّرة، وبها توقَّفت الفتوحات في شمال فرنسا، كذلك لا يُفَسِّر الدكتور الحجي طبيعة الصعوبات التي تدفع المسلمين لانسحاب ليس بعده رجعة، وقد عهدناهم في كل مراحل التاريخ -وفي فتح الأندلس نفسها- يُقاتلون في عدد وعدَّة أقل كثيرًا من عدوهم، وفي أرض لا يعرفونها كما يعرفها أصحابها.

وأمَّا الدكتور عبد الحليم عويس فيبدو أنه ممن يميل إلى تفسير الغنائم كسبب للهزيمة؛ يقول: «قصة (الغنيمة) في تاريخنا غريبة، والدرس الذي تُلقيه علينا -كذلك- أغرب! لقد بدأت أولى هزائمنا بسبب الغنيمة، ولقد وقفنا مرغمين -عند آخر مدى وصلت إليه فتوحاتنا، بسبب الغنيمة- كذلك! فقصة الغنيمة.. هي قصة الهزيمة في تاريخنا. كان قائد المعركة الأولى هو الرسول عليه الصلاة والسلام.. وخالف الرماةُ أمرَه، وخافوا من أن تضيع فرصتهم في الغنيمة.. فكانت (أُحُد)، وشهد الجبل العظيم استشهاد سبعين رجلاً من خِيرَة المسلمين.. بسبب الغنيمة.. نعم بسبب الغنيمة!

وكان قائد المعركة الأخيرة عبد الرحمن الغافقي آخر مسلم قاد جيشًا إسلاميًّا منظمًا لاجتياز جبال البرانس، ولفتح فرنسا، وللتوغُّل -بعد ذلك- في قلب أوربا. وهُزِمَ الغافقي.. سقط شهيدًا في ساحة (بلاط الشهداء) إحدى معارك التاريخ الخالدة الفاصلة.. وتداعت أحلام المسلمين في فتح أوربا، وطَوَوا صفحتهم في هذا

الطريق.. وكان ذلك للسبب نفسه الذي استفتحنا به دروس الهزيمة.. أعني بسبب الغنيمة. ومنذ تمَّ الاستقرار في المغرب العربي، وإسبانيا الإسلامية، وهم يطمحون إلى اجتياز جبال البرانس وفَتْح ما وراءها، هكذا أراد موسى بن نصير، لكن الخليفة الوليد بن عبد الملك خشي أن يُغَامِر بالمسلمين في طريق مجهولة، ثم فكَّر على نحو جدي السمحُ بن مالك الخولاني والي الأندلس ما بين عامي (١٠٠-١٠٢هـ)، وتقدَّم فاستولى على ولاية (سبتمانيا) إحدى المناطق الساحلية المطلَّة على البحر الأبيض المتوسط جنوب فرنسا، وعبر -بذلك- السَّمْح جبال البرانس، وتقدَّم فنزل في أرض فرنسا مُنعطِفًا نحو الغرب؛ حيث مجرى نهر الجارون، مُستوليًا في طريقه على ما يقابله من البلدان، حتى وصل إلى تولوز -في جنوب فرنسا- لكنه لم يستطع أن يستقرَّ فيها، وقُتِلَ السَّمْحُ، وتراجعت فلول جيشه تحت قيادة أحد قواده (عبد الرحمن الغافقي) فكأن السَّمْح لم ينجح إلاَّ في الاستيلاء على سبتمانيا»[1].

وعلى كل حال، فما زال الباحثون في انتظار الجديد الذي تجود به الأيام من نفائس المخطوطات، مما عسى أن يساعدنا في فهم هذه المعركة التي بها توقفت فتوحنا في أوربا.

النصر الكارثي

ربما يبدو هذا العنوان غريبًا على البعض؛ لكنه في الحقيقة كان ما أثبته الواقع وشهد به التاريخ، ولقد فطن إلى هذا المعنى بعض المنصفين من مؤرخي أوربا، قال أناتول فرانس: إن أهم تاريخ في حياة فرنسا هو معركة بواتيه -بلاط الشهداء- حين هَزَم شارل مارتل الفرسان العرب -المسلمين- في بواتيه سنة (٧٣٢م)، ففي ذلك التاريخ بدأ تراجع الحضارة العربية أمام الهمجية والبربرية الأوربية[2].

---

(١) عبد الحليم عويس: دراسة لسقوط ثلاثين دولة إسلامية ص٧، ٨.

(٢) انظر: شوقي أبو خليل: بلاط الشهداء ص ٤٤، وعبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص١٩٩-٢٠٣.

بين التاريخ والواقع

يقول الله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّ وَعْدَ اللهِ حَقٌّ فَلاَ تَغُرَّنَّكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا وَلاَ يَغُرَّنَّكُمْ بِاللهِ الْغَرُورُ﴾ [فاطر: ٥]. فالملاحظ أن المسلمين قد اغترُّوا بهذه الدنيا التي فُتحت عليهم فتنافسوها؛ ففي الحديث عن عمرو بن عوف الأنصاري ﷺ أن رسول الله ﷺ قال: «فَوَاللهِ! مَا الْفَقْرَ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى عَلَيْكُمْ أَنْ تُبْسَطَ عَلَيْكُمُ الدُّنْيَا كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، وَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1]. فسُنَّة الله ﷻ في خلقه أنه إن فُتِحَت الدنيا على الصالحين؛ فاغترُّوا بها وتنافسوا فيها؛ فإنها ستُهلكهم لا محالة كما أهلكت مَنْ كان قبلهم؛ ﴿فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَبْدِيلاً وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّةِ اللهِ تَحْوِيلاً﴾ [فاطر: ٤٣].

أمر آخر كان في جيش المسلمين وكان من عوامل الهزيمة؛ وهو العنصرية والعصبيَّة القَبَلِيَّة، التي كانت بين العرب والأمازيغ (البربر) في هذه الموقعة، ولقد شاهد الفرنسيون أثر هذه العصبية ووَعَته كتبهم، وظلَّ في ذاكرتهم على مدار التاريخ، حتى مرَّت السنوات ودخلت فرنسا بلاد الجزائر واحتلتها من سنة (١٨٣٠م) حتى سنة (١٩٦٠م)، فلـمَّا قامت الحركات الاستقلاليَّة منذ سنة (١٩٢٠م) وما بعدها، فكَّرت فرنسا في القضاء على هذه الحركات الاستقلالية الناشئة، ولم تجد أمامها إلاَّ إشاعة الفتنة بين العرب والأمازيغ (البربر)، وضَرْب بعضهم ببعض، فكانت تُشِيعُ بين الأمازيغ (البربر) أنهم قريبون من العنصر الآري (وهو العنصر الأوربي)، وبعيدون عن العنصر السامي (وهم العرب)؛ أي: أنتم منا ونحن منكم والعرب بيننا غرباء. وذلك للتشابه الكبير بين الأمازيغ (البربر) والأوربيين في المظهر، وهذا ما لا يعترف به الإسلام ولا يُقِرُّه على الإطلاق، فمعيار

---

(١) البخاري: كتاب الرقائق، باب ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦١)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١).

التفاضل في الإسلام هو التقوى.

ولم تكتفِ فرنسا بذلك، بل قامت بتكثيف تعليم اللغة الفرنسية في مناطق الأمازيغ (البربر)، في حين منعت تعليم اللغة العربية في هذه المناطق؛ وذلك حتى يتمَّ فصل الأمازيغ (البربر) عن العرب تمامًا في منطقة الجزائر، وهي وإن كانت قد نجحت في أمر اللغة بعض الشيء، إلاَّ أنها لم تُفلح على الإطلاق في تحويل الأمازيغ (البربر) من الإسلام إلى النصرانية، فظلَّ الأمازيغ (البربر) على إسلامهم، وإن كانت لغتهم قد تغيَّرت.

وكانت قبائل الأمازيغ (البربر) تمثِّل ١٥٪ من شعب الجزائر، ورغم أن لهم لغة خاصة بهم وهي الأمازيغية، إلاَّ أنهم كانوا يتمسَّكون بالعربية باعتبارها لغة القرآن الكريم، لكن حين قامت فرنسا بنفخ نار العصبية، بدأت تُذْكي الروح الأمازيغية (البربريَّة) في اللغة المنفردة لهذه القبائل؛ فبدأت تُعَلِّم اللغة الأمازيغية؛ حتى إنها أنشأت في فرنسا عام (١٩٦٧م) أكاديميةً خاصةً لتعليم اللغة الأمازيغية، وبدأت تكتب اللغة الأمازيغية بحروف لاتينية؛ رغم أنها كانت لغة منطوقة وليست مكتوبة، وقامت فرنسا كذلك بحذف الكلمات العربية التي كانت قد دخلت هذه اللغة، وأبدلتها بأخرى أصيلة في اللغة الأمازيغية، وبدأت بالفعل في اجتذاب الشباب من الأمازيغ (البربر) لتعليمهم اللغة الأمازيغية في فرنسا؛ حتى إنها في عام (١٩٩٨م) أنشأت ما يُسَمَّى بالأكاديمية العالمية للبربر، فبدأت تُجَمِّع الأمازيغ (البربر) من مناطق المغرب العربي وغرب إفريقيا وتُعَلِّمهم اللغة الخاصة بهم؛ وكل ذلك لفصل الأمازيغ (البربر) عن العرب، تلك الجموع التي ما هي إلاَّ جموع إسلامية ارتبطت برباط العقيدة والدين، لكنها رأت آثار ذلك في بلاط الشهداء وما تلاها فلم تتوانَ، وفي الوقت الذي تعمل فيه فرنسا جاهدة على إقامة لغة غير العربية في بلد مسلم عربي، كانت هي نفسها التي رفضت المشروع الذي تَقَدَّم به جوسبان

رئيس وزرائها إلى شيراك سنة (١٩٩٩م) بإقرار بعض اللغات المحلية داخل فرنسا، والذي ردَّ عليه شيراك بقوله: إنك بهذا تُريد بلقنة فرنسا. أي: جعلها كدول البلقان، بلاد متفرقة بحسب العِرْقِ وبحسب العنصر، فهذا الأمر -في رأيهم- حلال على الجزائر حرام على فرنسا[١]!

* * *

(١) فهمي هويدي: مقال: «درس فتنة الأمازيغ»، صحيفة الأهرام ٣/ ٧/ ٢٠٠١م.

الفصل الثالث

وقفة تاريخية

بعد استشهاد عبد الرحمن الغَافِقِيّ رحمه الله في موقعة بلاط الشهداء في منطقة بواتيه، وبعد هزيمة المسلمين فيها انسحب المسلمون، وتوقَّفت الفتوحات الإسلامية في هذه المنطقة، وقبل استكمال الطريق والخوض في تفاصيل ما حدث بعد بلاط الشهداء، هناك بعض النقاط المهمَّة، والتي نَوَدُّ الوقوف أمامها قليلاً:

أولها: لماذا لم يقمْ أهل الأندلس بالثورات رغم ضآلة الحاميات الإسلامية في الأندلس؟

كان قِوَامُ الجيش الإسلامي في بلاد الأندلس ثلاثين ألفَ مقاتلٍ، كان مع طارق بن زياد منهم اثنا عشر ألفًا[1]، وقد استُشهِد منهم في وادي بَرْبَاط ثلاثةُ آلافٍ، واستشهد مثلُهم في الطريق من وادي بَرْبَاط إلى طُلَيْطِلَة، فوصل طارق بن زياد إلى طُلَيْطِلَة بستة آلاف فقط من الرجال، ثم عبر موسى بن نصير بثمانية عشر ألفًا[2]، فأصبح قِوَام الجيش الإسلامي أربعة وعشرين ألف مقاتل، تمَّ توزيعهم على كل مناطق الأندلس الواسعة وبعض مناطق جنوب فرنسا، كحاميات إسلامية وفاتحين لمناطق أخرى لم تُفْتَح.

فلماذا لم يقم أهل هذه البلاد -على سَعَتِها- بالثورة على المسلمين، أو على الحاميات الإسلامية الموجودة فيها؛ رغم قِلَّتها الملحوظة التي لا تُقارَن بعدد السكان على الإطلاق؟!

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص١٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٦، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٥٤.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٢٤.

ومثل هذا السؤال هو العجب كل العجب! فالسؤال الذي كان متوقعًا هو: لماذا يثور أهل الأندلس؟ وليس لماذا لم يثوروا؟ كان أهل الأندلس قبل دخول الإسلام يعيشون ظلمًا مريرًا وضنكًا شديدًا؛ تُنهب أموالهم وتُنتهك أعراضهم فلا يعترضون؛ حُكَّامهم في الثروات والقصور يتنعَّمُون، وهم لا يجدون ما يسدُّ الرمق، يزرعون الأرض وغيرُهم يأكل ثمارها، بل إنهم يُباعون ويُشترَوْن مع تلك الأرض التي يزرعونها.

فلماذا إذًا يثور أهل الأندلس؟! أيثورون من أجل هذا الذي أذاقهم العذاب ألوانًا؟! أم يثورون من أجل ظهور لُذريق جديد؟! أم يثورون من أجل ذكريات أليمة مليئة بالجوع والعطش، والنهب والسرقة، والظلم والتعذيب والتنكيل، والفساد والرشوة والجبروت؟؟!

ثم ماذا كان البديل المطروح؟ إنه الإسلام الذي حملته أرواح المسلمين الفاتحين، إنه الإسلام الذي حرَّم كل ما سبق، وجاء ليقول لهم: تعالَوْا أُعْطِكم بدلاً من الظلم عدلاً؛ ليس هبةً مني، لكنه حقٌّ لكم ولقومكم وأولادكم وذريتكم من بعدكم. إنه الإسلام الذي لم يُفَرِّق بين حاكم ومحكوم، فإن حدث لأيٍّ منكم مظلمة قام القاضي لا يُفَرِّق بين المسلم واليهودي والنصراني، أيًّا كان شكله أو لونه أو جنسه.

إنه الإسلام الذي لا يرفع من قيمة الأشخاص بقدر أموالهم أو صورهم أو أجسامهم؛ إنما بقدر أعمالهم، والأعمال متاحة للجميع (الغني والفقير، الحاكم والمحكوم)، إنه الإسلام الذي يقول فيه الحاكم لك: إنْ كنتَ من المسلمين وكنت غنيًّا فلن تدفع إلاَّ (٥ , ٢٪) زكاةً لأموالك، إذا بلغت النِّصابَ، وحال عليها الحَوْلُ، وإن كنت فقيرًا فلن تدفع شيئًا، بل ستأخذ من بيت مال المسلمين إلى أن تغتني.

وإن كنت من غير المسلمين وكنت غنيًّا وقادرًا على القتال -وليس غيرَ ذلك- فستدفع جزيةً؛ هي أقل بكثير من زكاة المسلمين، نظير أن يُدَافعوا عنك، وإن هم فشلوا في الدفاع عنك فستُرَدُّ إليك أموالك.

إنه الإسلام خلاص الشعوب؛ وحين عرفه أهل الأندلس تمسَّكوا به، واعتنقوه اعتناقًا، ولم يرضَوْا عنه بديلاً؛ فكيف يحاربونه ويُضَحُّون بهذا النعيم المقيم في الدنيا والآخرة من أجل حياة المرارة والعذاب والذلِّ والحرمان؟!

ثانيًا: ولكن البعض سيقول: هل من المعقول أن كل أهل الأندلس أُعجبوا بهذا الدين؟! ألم يكن هناك ولو رجل واحد يُريد أن يثور ويعترض حبًّا في سلطان أو مصلحة كانت قد ضُيِّعَتْ عليه؟!

نقول: بلى؛ كان هناك كثير من الناس من أصحاب المصالح، الذين كان لهم أعوان كثيرون أرادوا أن يثوروا على حكم الإسلام؛ ليسترجعوا مجدهم، ويُحَقِّقوا مصالح كانت لهم، أمَّا لماذا لم يثوروا؟ فالجواب عنده ﷻ في قوله: ﴿لأَنْتُمْ أَشَدُّ رَهْبَةً فِي صُدُورِهِمْ مِنَ اللهِ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لاَ يَفْقَهُونَ﴾[الحشر: ١٣].

فلقد كانت للمؤمن زمنَ الفتوحات رهبة في قلوب النصارى واليهود، وفي قلوب المشركين بصفة عامَّة، فالله ﷻ يُلقي على المؤمن جلالاً ومهابةً؛ فيخافه القريب والبعيد، يقول ﷺ: «نُصِرْتُ بِالرُّعْبِ مَسِيرَةَ شَهْرٍ»[1]. ويقول ﷻ: ﴿فَأَتَاهُمُ اللهُ مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ﴾[الحشر: ٢].

ولم يكن هذا الرعب بسبب بشاعة في الحرب، أو إجرام منقطع النظير، إنما كان هبة ربانية لجند الله ﷻ ولأوليائه، فلم تكن حرب الإسلام إلاَّ رحمةً للناس كل الناس؛ فها هو ذا ﷺ كما جاء في صحيح مسلم عن بُريدة ﷺ حين كان يُوَدِّع الجيوش فكان يخاطبهم؛ قائلاً: «اغْزُوا بِاسْمِ اللهِ، فِي سَبِيلِ اللهِ، قَاتِلُوا مَنْ كَفَرَ بِاللهِ، اغْزُوا وَلاَ تَغُلُّوا، وَلاَ تَغْدِرُوا، وَلاَ تُمَثِّلُوا، وَلاَ تَقْتُلُوا وَلِيدًا»[2].

---

(١) البخاري: كتاب التيمم (٣٢٨) عن جابر بن عبد الله، ومسلم: كتاب المساجد ومواضع الصلاة (٥٢١).

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب تأمير الإمام الأمراء على البعوث ووصية إياهم بآداب الغزو وغيرها، (١٧٣١).

وفي رواية: «وَلاَ تَقْتُلُوا شَيْخًا فَانِيًا وَلاَ طِفْلاً صَغِيرًا وَلاَ امْرَأَةً»(١).

فأين هذا من حروب غير المسلمين مع المسلمين؟! أين هذا مِن قَتْلِ مائتي ألف مسلمٍ من المدنيين في البوسنة والهرسك وكوسوفا؟! أين هذا من فِعْل الروس في الشيشان، وفِعْل الهنود في كشمير، وفِعْل اليهود في فلسطين، وفِعْل أميركا في أفغانستان والعراق؟!

فرغم أن الرهبة والرعب أُلقِيَ في قلوب الأعداء، إلاَّ أن حروب المسلمين كانت رحمة للعالمين؛ حتى لقد سَعِدَ الذين لم يدخلوا في الإسلام من اليهود والنصارى في ظلِّ حكم الإسلام أيما سعادة؛ عملاً بقوله ﷻ:

﴿لَا يَنْهَاكُمُ اللَّهُ عَنِ الَّذِينَ لَمْ يُقَاتِلُوكُمْ فِي الدِّينِ وَلَمْ يُخْرِجُوكُمْ مِنْ دِيَارِكُمْ أَنْ تَبَرُّوهُمْ وَتُقْسِطُوا إِلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُقْسِطِينَ﴾ [الممتحنة: ٨].

فقد تُرِكَتْ لهم كنائسُهم، وكان لهم قضاءٌ خاصٌّ بهم، ولم يُفَرَّق بين مسلم ونصراني ويهودي في مظلمة؛ فكان العجب حقًّا أن يثوروا، العجب كل العجب أن ينقلبوا على الإسلام، والعجب كل العجب أن يرفضوا حكم الإسلام وقد جاء من عند حكيم خبير، يَعْلَمُ ما يُصلِحُ كونَه وأرضه وعبيده؛ ﴿يَعْلَمُ خَائِنَةَ الْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِي الصُّدُورُ﴾ [غافر: ١٩].

ثالثًا: تساؤل البعض عن عوامل الفرقة في بلاد الأندلس؛ إذ كيف تعلقت قلوب هذا الجيل القريب من عهد رسول الله ﷺ وصحابته -وهم جيل التابعين أو تابعي التابعين- بالأموال وحب الدنيا؟! وكيف تظهر فيهم هذه العنصرية القبلية؟!

وللإجابة على الشقِّ الأول من هذا السؤال، نقول: إذا كانت هذه العوامل قد

---

(١) أبو داود: كتاب الجهاد، باب في دعاء المشركين (٢٦١٤) عن أنس بن مالك.

حدثت في سنة (١١٤هـ=٧٣٢م) فإنها قد حدثت مع الصحابة ﷺ في عهد الرسول ﷺ سنة (٣هـ=٦٢٥م) وذلك في غزوة أُحُد، والتي نزل فيها قوله ﷻ مخاطبًا صحابة رسول الله ﷺ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢] وكأنَّ غزوة أُحُدٍ تُعيد نفسَها من جديد في (بلاط الشهداء).

فقد نزلت هذه الآية في الصحابة ﷺ حين خالفوا أمر رسول الله ﷺ ونزل الرماة وتركوا مواقعهم طلبًا للغنيمة، بعد أن تيقَّنوا من النصر، فكانت الهزيمة بعد النصر؛ حتى إن عبد الله بن مسعود ﷺ قال: ما كنتُ أحسب أنَّ مِنَّا مَنْ يُريد الدنيا حتى نزلت هذه الآية: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢][١].

وهكذا في بلاط الشهداء كانت الغَلَبَةُ للمسلمين في أول المعركة في أول يومين أو أول ثلاثة أيام، ثم لما التفَّ النصارى حول الغنائم يأخذونها -وكان قد وقع حبُّها في قلوب المسلمين- حدث الانكسار في الجيش ثم هُزِمُوا.

يقول ابن كثير رحمه الله في تفسير قوله ﷻ: ﴿مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]، يقول: ﴿وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ﴾؛ أي: لم يستأصلكم في هذه الموقعة، وأعطاكم الفرصة للقيام من جديد[٢]. وهكذا في بلاط الشهداء، لم يُستَأْصَلِ الجيش الإسلامي، لكنه عاد وانسحب ليقوم من جديد.

وإذا جئنا إلى ما قبل أُحُد، وإلى الرَّعيل الأول من صحابة رسول الله ﷺ في غزوة بدر وجدنا -أيضًا- صورةً من صور بلاط الشهداء، وذلك حين انتصر المسلمون ثم اختلفوا على الغنائم؛ حتى إن سورة الأنفال التي نزلت بعد ذلك تُعَظِّم

(١) الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن ٧/ ٢٩٤، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣٦.
(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم ٢/ ١٣٣.

من هذا النصر المجيد قد بدأت بقوله ﷻ: ﴿يَسْأَلُونَكَ عَنِ الأَنْفَالِ قُلِ الأَنْفَالُ للهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللهَ وَرَسُولَهُ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [الأنفال: ١]. وهو كلام له وَقْعُ السِّهَام على الصحابة، لكنه أمر قد حدث وهو أصيل في النفس البشرية.

ومن هنا فما حدث في بلاط الشهداء ليس بجديد؛ لأنه من عيوب النفس البشرية، وقد حدث مثله في بدر وفي أُحُد، لكن كان هناك اختلافٌ؛ فالرسول ﷺ بعد غزوة أُحُد تدارك الأمر بسرعة؛ فحمَّس المسلمين على الجهاد، وذكَّرهم بالآخرة حتى قاموا في حمراء الأسد[1]، فكانت الغلبة وردُّ الاعتبار، أمَّا بعد بلاط الشهداء فلقد قام بالفعل رجل من المسلمين هو عقبة بن الحجاج رحمه الله، يُحَمِّسهم ويُشَجِّعهم، إلاَّ أنه لم تحدث موقعة بعد بلاط الشهداء كموقعة حمراء الأسد بعد أُحُد -يسترد فيها المسلمون اعتبارهم وثقتهم بأنفسهم.

كذلك اختلف الفريقان في أن معظم جيش المسلمين في بلاط الشهداء لم يرجع عن حبِّه للدنيا وتعلُّقه بها، أمَّا في أُحُد فقد قال عنهم ﷻ: ﴿مِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنْكُمْ مَنْ يُرِيدُ الآخِرَةَ﴾ [آل عمران: ١٥٢]؛ ولذلك لم يَعُدِ المسلمون بعد بلاط الشهداء كما عادوا بعد أُحُد مباشرة.

ومن أَوْجُهِ الشبه الكبيرة -أيضًا- بين (أُحُد) (وبلاط الشهداء) أنه عندما أُشيع خبر وفاة الرسول ﷺ في أُحُد حدث الانكسار[2]، وانهزم المسلمون وفرُّوا، وكذلك بالنسبة لبلاط الشهداء، فحينما قُتِلَ عبدُ الرحمن الغافقي رحمه الله انسحب المسلمون، وانكمشوا على أنفسهم إلى الداخل، وهنا تكمن العبرة والعِظَة من أحداث المسلمين المتكرِّرة وشديدة التشابه.

(١) ابن عبد البر القرطبي: الدرر في اختصار المغازي والسير ١/ ١٦٧، وابن كثير: السيرة النبوية ٤/ ٥٢
(٢) ابن كثير: السيرة النبوية ١/ ١٥٨.

مشكلات القومية والعنصرية:

وهي الشق الثاني من السؤال، وكسابقتها فإن مسألة القومية والعنصرية كانت قد ظهرت -أيضًا- في عهد رسول الله ﷺ، وهذا لا يُعَدُّ قَدْحًا في هذا العهد أو في هؤلاء الصحابة، بقدر ما هو بيانٌ لأمور فُطِرَت وجُبِلَت عليها النفسُ الآدمية، لكن فرقٌ بين أن تعود هذه النفس إلى طريق بارئها وبين أن تتمادى في غيِّها.

ولعلَّنا نذكر هنا تلك الحادثة المشهورة التي حدثت بين أبي ذرٍّ وبين بلال رضي الله عنهما؛ حين عيَّره أبو ذرٍّ بأُمِّه في خلاف بينهما؛ قائلاً لبلال: **يابن السوداء**.

فذهب بلال إلى رسول الله ﷺ مغاضبًا يحكي له ما حدث، فما كان من رسول الله ﷺ إلاَّ أن غضب غضبًا شديدًا، وقال لأبي ذرٍّ: «**طَفُّ الصَّاعِ[1]، إِنَّكَ امْرُؤٌ فِيكَ جَاهِلِيَّةٌ، إِخْوَانُكُمْ خَوَلُكُمْ[2]، جَعَلَهُمُ اللهُ تَحْتَ أَيْدِيكُمْ، فَمَنْ كَانَ أَخُوهُ تَحْتَ يَدِهِ فَلْيُطْعِمْهُ مِمَّا يَأْكُلْ وَلْيُلْبِسْهُ مِمَّا يَلْبَسُ، وَلاَ تُكَلِّفُوهُمْ مَا يَغْلِبُهُمْ، فَإِنْ كَلَّفْتُمُوهُمْ فَأَعِينُوهُمْ**»[3].

والعبرة هنا بردِّ فعل أبي ذرٍّ رضي الله عنه حيال هذا الغضب من رسول الله ﷺ، وحيال هذا الذنب الذي اقترفه، فما كان من أبي ذرٍّ إلاَّ أن وضع رأسه على التراب مُصرًّا على أن يطأ وجهَه بلالٌ رضي الله عنه بقدمه؛ حتى يُكَفِّر عن خطيئته تلك، وكان رَدُّ فعل بلال رضي الله عنه أن غفر لأبي ذرٍّ، ورفض أن يطأ وجهه، وقد حدث مثل هذا -أيضًا- بين الأوس والخزرج، حين فَتَنَ بينهم شاسُ بن قيس، فقالت الأوس: يا لَلأوس. وقالت الخزرج: يا لَلْخزرج. وحينها قال الرسول ﷺ: «**اللهَ اللهَ! أَبِدَعْوَى الْجَاهِلِيَّةِ وَأَنَا بَيْنَ**

---

(١) طَفُّ الصاع: أي كلكم قريبٌ بعضُكم من بعض؛ فليس لأحد فضلٌ على أحد إلا بالتقوى؛ لأنَّ طَفَّ الصاع قريب من ملئه، انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة طفف ٩/ ٢٢١.

(٢) خولكم: خدمكم، انظر: ابن حجر العسقلاني: فتح الباري ١/ ١١٥.

(٣) البخاري: كتاب الإيمان، باب المعاصي من أمر الجاهلية، ولا يكفر صاحبها بارتكابها إلا بالشرك (٣٠)، ومسلم: كتاب الأيمان والنذور، باب إطعام المملوك مما يأكل... (١٦٦١)

أَظْهُرِكُمْ دَعُوهَا فَإِنَّهَا مُنْتِنَةٌ»[١]

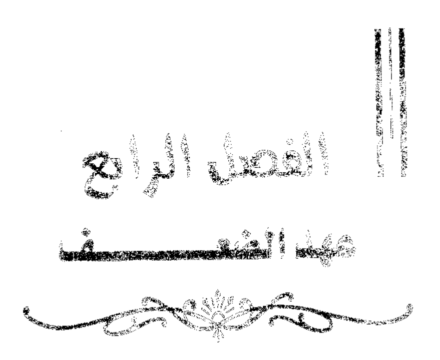
وليس أدل على تلك القَبَلِيَّة مما حدث بمجرَّد وفاة الرسول ﷺ من فتنة بني حنيفة، واجتماع الناس حول مُسَيْلِمَة الكَذَّاب، حتى سُئِلَ رجلٌ من أتباع مُسَيْلِمَة: أتعلم أن محمدًا ﷺ صادق ومسيلمة كاذب؟ فأجاب قائلاً: والله أعلمُ أنَّ محمدًا صادق، وأن مسيلمةَ كاذب، ولكنَّ كاذب بني ربيعة، أحبُّ إليَّ من صادق مضر[٢]. هكذا كانت النظرة قَبَلِيَّة تمامًا في نظر هذا الرجل، ولو لَمَسَ الإيمانُ قلبَه ما قال مثل قولته هذه.

إذًا فقد ظهرت العنصرية والقبلية منذ عهد رسول الله ﷺ، إلاَّ أن الرسول ﷺ كان يتدارك هذا الأمر بسرعة، ويُحَفِّز الناس بالإيمان ويُقَرِّبهم إلى ربهم، ويُذَكِّرهم بالآخرة: ﴿وَذَكِّرْ فَإِنَّ الذِّكْرَى تَنْفَعُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الذاريات: ٥٥] فسرعان ما يتجاوزون ما حدث ولا يعودون، متذكِّرين قوله ﷻ في كتابه الكريم: ﴿فَإِذَا نُفِخَ فِي الصُّورِ فَلَا أَنْسَابَ بَيْنَهُمْ يَوْمَئِذٍ وَلَا يَتَسَاءَلُونَ ۝ فَمَنْ ثَقُلَتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ۝ وَمَنْ خَفَّتْ مَوَازِينُهُ فَأُولَئِكَ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنْفُسَهُمْ فِي جَهَنَّمَ خَالِدُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠١- ١٠٣].

* * *

(١) البخاري: كتاب التفسير، باب سورة المنافقون (٤٦٢٤) عن جابر بن عبد الله، ومسلم: كتاب البر والصلة والآداب، باب نصر الأخ ظالمًا أو مظلومًا (٢٥٨٤).

(٢) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٢٧٧، وابن كثير: البداية والنهاية ٦/ ٣٦٠.



الأحداث التي تلت بلاط الشهداء:

ولاية عبد الملك بن قطن الفهري (١١٤-١١٦هـ):

وصلت أنباء فاجعة بلاط الشهداء واستشهاد عبد الرحمن الغَافِقِيّ رحمه الله إلى عبيدة بن عبد الرحمن القيسي والي إفريقية، فبعث إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك رحمه الله يُخبره بولاية عبد الملك بن قَطَن الفِهْرِيّ على الأندلس فأقرَّه الخليفة عليها، وكان ذلك في رمضان وقيل: شوال عام (١١٤هـ=٧٣٢م)[1].

ظلم وجهاد:

كان همُّ عبد الملك بن قطن تثبيت أمر المسلمين في المناطق الفرنسية، التي بدأت تتهاوى بعد موقعة بلاط الشهداء، وقد نجح في ذلك بعزمه، وبانفضاض سكان الجنوب عن الولاء لشارل مارتل -الذي كان يُعاملهم بظلم وعسف ويطلق فيهم يد جنوده- وبغزوات قائده في أَرْبُونَة يوسف الفهري[2]، ومع جهاده هذا إلاَّ أنه كان ظلومًا جائرًا عنيفًا سيِّئ السياسة، فلم يجد والي إفريقية عبيد الله بن الحبحاب بُدًّا من عزله؛ بعد أن كثرت شكاوى الأندلسيين منه، فكان عزله في رمضان

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٣١، والحميدي: جذوة المقتبس ٧/ ٢٨٧ وفيه أنه تولى سنة ١١٥هـ، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٨، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٦، ٣/ ١٨.

(٢) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٦، وعن غزواته انظر: شكيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ص٩٢، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ٢٣٠-٢٣٣.

(١١٦هـ=٧٣٤م)، بعد سنتين من ولايته الأولى[١].

عقبة بن الحجاج (١١٦-١٢٣هـ):

اختار عبيد الله بن الحبحاب لولاية الأندلس مجاهدًا فذًّا يُسَمَّى عقبة بن الحجَّاج السلولي رحمه الله، الذي تولَّى من سنة (١١٦هـ=٧٣٤م) إلى سنة (١٢٣هـ=٧٤١م)[٢].

وقد خُيِّر عقبة بين إمارة إفريقية بكاملها (كل الشمال الإفريقي) وبين إمارة الأندلس، ففَضَّلَ إمارة الأندلس؛ لأنَّها أرض جهاد؛ لملاصقتها لبلاد النصارى[٣]. قال ابن عذاري: «أقام عقبة بالأندلس بأحسن سيرة وأجملها، وأعظم طريقة وأعدلها»[٤]. وقال المقَّري: «وَوَلِيَ عقبة بن الحجاج السَّلُولي من قِبَل عبيد الله بن الحبحاب، فأقام خمس سنين محمودَ السيرة، مجاهدًا مظفَّرًا»[٥].

فتوحاته:

وقد قام رحمه الله خلال سنوات إمارته السبع بأكثر من سبع حملات داخل فرنسا، وكان ينزل إلى الأسرى بنفسه يُعَلِّمهم الإسلام؛ حتى إنه أسلم على يديه ألف من الأسرى[٦]، وقد قال رسول الله ﷺ: «لأَنْ يَهْدِيَ اللهُ بِكَ رَجُلاً وَاحِدًا خَيْرٌ لَكَ مِنْ أَنْ يَكُونَ لَكَ حُمْرُ النَّعَمِ»[٧]. فكيف بألفٍ؟!

---

(١) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٦، ٣/ ١٩.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٣٣، ٣٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٩، ٣٠، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٦.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص٣٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب ٢/ ٢٩.

(٥) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/ ٢٣٦.

(٦) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٩، والمقري: نفح الطيب ٣/ ١٩.

(٧) البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب علي بن أبي طالب... (٣٤٩٨) عن سهل بن سعد، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة رضي الله عنهم، باب من فضائل علي بن أبي طالب رضي الله عنه (٢٤٠٦).

بدأ عقبة بن الحجاج رحمه الله يُعيد أمجاد الجهاد الإسلامي في بلاد فرنسا، فثبَّت أقدام المسلمين في بروفانس -جنوب شرقي فرنسا، وأقام فيها الرباطات[1]، واستولى عقبة على بلاد الدوفينيه -شرقي ليون، وفتح مدينة سان بول[2]، وفتح رحمه الله مدينة أرْبُونَة عاصمة مقاطعة سبتمانيا، وقرقشونة إحدى مدنها[3]، واتسعت فتوحات المسلمين حتى وصلت إلى مقاطعة بيدمونت بشمال إيطاليا[4].

وواصل عقبة جهاده لإقرار الفتح في المدن الأندلسية لا سيما في الشمال الغربي في أرض جيليقية، التي لم تكن فُتحت حتى الآن، وبلغ في ذلك غاية ما يستطيع، إلاَّ أنه واجه -والحق يقال- بسالة نادرة، حتى ليروي صاحب «أخبار مجموعة» أنه «لم تبقَ في جيليقية قرية لم تُفتح غير الصخرة، فإنه لاذ بها ملك يقال له: بِلاي، فدخلها في ثلاثمائة رجل، فلم يزل يقاتلونه ويغاورونه حتى مات أصحابه جوعًا، وترامت طائفة منهم إلى الطاعة، فلم يزالوا ينقصون حتى بقي في ثلاثين رجلاً ليست معهم عُشْر نَسوة[5] فيما يقال، إنما كان عيشهم بالعسل، ولاذوا بالصخرة فلم يزالوا يتقوتون بالعسل معهم جِبَاح النحل[6] عندهم في خروق الصخرة. وأعيا المسلمين أمرُهم، فتركوهم وقالوا: ثلاثون عِلْجًا ما عسى أن يكون أمرهم، واحتقروهم، ثم بلغ أمرهم إلى أمر عظيم»[7].

ولقد ظلَّ عقبة بن الحجاج رحمه الله مجاهدًا حسن السيرة بين جنده إلى أن استشهد

---

(1) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٣٣.

(2) الأمير شكيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطاليا وجزائر البحر المتوسط ١٠٥، ١٠٦، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٣٣.

(3) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص٢٠٤، ٢٠٥.

(4) حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٣٤.

(5) نَسوة: جرعة الشراب، والجرعة من اللبن. ابن منظور: لسان العرب، مادة نسا ١٥/ ٣٢١، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٢٠.

(6) الجباح: جمع الجبح وهو مواضع النحل في الجبل. ابن منظور: لسان العرب، مادة جبح ٢/ ٤١٩.

(7) مجهول: أخبار مجموعة ص٣٤.

سنة (١٢٣هـ=٧٤١م) [1]، وباستشهاده تكون قد انتهت الفترة الأولى من عهد الولاة.

الفترة الثانية من عهد الولاة :

تبدأ هذه الفترة سنة (١٢٣هـ=٧٤١م) وحتى سنة (١٣٨هـ=٧٥٥م) [2]، وقد شهدت هذه الفترة حروبًا كثيرة ونزاعات متجدِّدة تحكَّمت فيها العصبيات القبلية والعنصرية البغيضة، التي اتخذها ولاة الأندلس في ذلك الحين دَيْنًا لهم في تعاملهم؛ سواء مع العرب أو الأمازيغ (البربر)؛ مما أدَّى إلى ظهور ثورات متعدِّدة، ودخول أفكار جديدة لم تعهدها الأندلس من قبلُ.

ثورات الخوارج بالمغرب

بوفاة عقبة بن الحجاج رحمه الله آلت ولاية الأندلس إلى عبد الملك بن قَطَن الفِهْرِيّ مرَّة ثانية (١٢٣هـ=٧٤٢م) [3]، وقد حفلت ولايته الثانية هذه بأحداث جسام، كادت أن تعصف بالإسلام في الأندلس كلية، كان أخطرها تجدُّد الصراع العنصري البغيض بين العرب والأمازيغ (البربر)، وظهور طائفة الخوارج، الذين أشعلوا أُوَار [4] الحرب وقادوا الثورة على عمال بني أمية، الذين أساءوا استعمال السلطة والمعاملة مع الأمازيغ (البربر)؛ مما أتاح للأمازيغ (البربر) اعتناق تلك الأفكار

(١) تاريخ ابن خلدون ٣/ ١٤١، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٦، ٣/ ١٩، وقيل: إن أهل الأندلس خلعوه في صفر ١٢٣هـ. وقيل: إن عقبة استخلف ابن قطن الفهري حين حانت وفاته سنة ١٢١هـ، كما في ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٠، وقيل: أخرجه ابن قطن الفهري سنة ١٢١هـ. كما في أخبار مجموعة ص٣٥.

(٢) بيان ذلك في ثبت الولاة كما هو عند المقري: نفح الطيب ١/ ٢٩٨-٣٠٠، وذكر الولاة كما هو ترتيب ابن عذاري في البيان المغرب ٢/ ٢٢-٣٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٠، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٦، وانظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص٣٥، وفيه يقول: إن ولايته سنة ١٢١هـ، وكذلك في البيان المغرب ١/ ٥٣.

(٤) الأوار: حر الشمس والنار والدخان واللهب. ابن منظور: لسان العرب، مادة أور ٤/ ٣٥، والمعجم الوسيط ١/ ٣٢.

الخارجة عن الدين؛ فقد وجدوا فيها مناصًا لنيل حقوقهم المغتصبة من جَوْر الولاة[١].

بدأت الفتنة الأمازيغية (البربرية) الكبرى في المغرب العربي على يد الخوارج، الذين تغلغلوا في صفوف الأمازيغ (البربر) ونشروا تعاليمهم، التي لاقت قبولاً واسعًا في المجتمع الأمازيغي (البربري)، الذي يُعاني من ظلم الولاة، فخرجوا بقيادة زعيمهم ميسرة المطغري -أو المدغري- على حاكم طَنْجَة عمر بن عبد الله المُرَادِيّ وقتلوه، وزحفوا إلى بلاد السوس في الغرب وقتلوا عاملها إسماعيل بن عبيد الله[٢]، كان لكل هذا وقع الصدمة على عبيد الله بن الحبحاب والي إفريقية، فجمع جموعه وجيَّش جيوشه؛ ليتدارك الأمر قبل فواته وتعاظم قوَّة الخارجين عليه، فالتقى الفريقان من العرب والأمازيغ (البربر) عند وادي شليف، وكانت الهزيمة المنكرة للعرب؛ فقد قُتِلَ فيها أشرافهم وفرسانهم وأبطالهم؛ لذلك سميت بمعركة الأشراف وذلك سنة (١٢٣هـ=٧٤٢م) [٣].

وبلغت أخبار الهزيمة الخليفة هشام بن عبد الملك، فغضب غضبته الشهيرة؛ وقال: «والله! لأغضبنَّ لهم غضبة عربية، ولأبعثنَّ لهم جيشًا أوله عندهم وآخره عندي»[٤]. فعزل هشامُ بن عبد الملك عبيدَ الله بن الحبحاب، واستقدمه في جمادى الآخرة سنة (١٢٣هـ)، وبعث كلثوم بن عياض القُشَيْرِيّ على رأس جيش بلغ ثلاثين ألفًا، وعَهِد له بولاية إفريقية وضَبْط أمورها، وجعل معه ابن أخيه بَلْج بن

---

(١) انظر في تفاصيل ذلك حسين مؤنس: فجر الأندلس ص١٧٠-١٧٣، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٧٩، ٨٠.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٣٤، ٣٥، وابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١/ ٢٣٧، وابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٢.

(٣) ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١/ ٢٣٧، وابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٣.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٤.

بشر القُشَيْرِيّ، وثعلبة بن سلامة العَامِلِيّ[١]، واستعدَّ الجيشان العربي بقيادة كلثوم بن عياض والأمازيغي (البربري) بقيادة خالد بن حميد الزَّنَاتِيّ، واقتتلوا قتالاً شديدًا، لكن دارت الدائرة على العرب، وقُتِلَ قائدهم كلثوم بن عياض، واستطاع بَلْج بن بشر أن ينجو بنفسه وبعضًا من جنده، وتحصَّنوا بمدينة سَبْتَة، وفرض الأمازيغ (البربر) الحصار على بَلْج ومَنْ معه لمدَّة سنة كاملة (١٢٣، ١٢٤هـ)، وكانوا طوال هذا العام يستغيثون بعبد الملك بن قَطَن والي الأندلس، ولكن بلا مجيب[٢]!

ثورات الخوارج في الأندلس:

ويبدو أن عَدْوَى الخروج على الحكَّام انتقلت إلى الأندلس، فلم تلبث الثورة أن انتقلت إلى أمازيغ (بربر) الأندلس، الذين أعلنوا العصيان، وبدءوا بجِلِّيقِيَّة وأستورقة في الشمال الغربي للأندلس حيث الكثافة الأمازيغية (البربرية)، فقتلوا العرب وطردوهم من البلاد، إلاَّ ما كان من سَرَقُسْطَة فقد كانت الغلبة فيها للعرب[٣].

وبعد أن ثَبَّت الأمازيغ (البربر) أقدامهم في تلك المناطق، زحفوا باتجاه المدن الكبرى للسيطرة عليها من خلال ثلاثة جيوش، وَفْقَ خُطَّة ذكية أدركت مواطن الضعف في الولاية الأندلسية، وعملت على استغلالها:

الأول: إلى طُلَيْطِلَة عاصمة الثغر الأدنى.

الثاني: إلى قُرْطُبَة عاصمة الأندلس.

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٣٦، وابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها ١/ ٢٣٩، وابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٤، ٥٥، ٢/ ٣٠، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٠.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ٣٧-٤٢، وابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٥، ٥٦، ٢/ ٣٠، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٠، ٢١.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص٤٢.

الثالث: إلى الجزيرة الخضراء في أقصى الجنوب للبلاد.

وأمام هذا الزحف الأمازيغي (البربري) لم يجد عبد الملك بن قَطَن بُدًّا من الاستعانة ببَلْج وأصحابه المحاصرين في سَبْتَة، وقد كان لا يرضى أن يُغيثهم، ولا يرضى أن يُنزلهم الأندلس حتى أكلتهم المجاعة، فبعث إليهم بالسفن والمئونة، وسمح لهم بالعبور إلى الأندلس؛ لإخماد الثورة الأمازيغية (البربرية)، التي كادت أن تعصف به[1]، وكانت المواجهة الأولى بين بَلْج بن بشر والجيش الأمازيغي (البربري) الثالث المتجه ناحية الجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، وقد وقعت المعركة في ذي القعدة من عام (١١٣هـ) على مقربة من شَذُونَة، وأثبت فيها الجنود الشاميون بقيادة بَلْج بن بشر شجاعة وإقدامًا، رجَّحت كِفَّة النصر فيها للعرب، وفي التوقيت نفسه كانت قُرْطُبَة تصدُّ هجمات الجيش الأمازيغي (البربري) الثاني، وبمجرَّد أن انتصر بَلْج بن بشر على الجيش الثالث لحق بقُرْطُبَة فقاتل مع عبد الملك بن قَطَن الجيشَ البربري الثاني، فهزماه هزيمة ساحقة، حتى لم يبقَ من الأمازيغ (البربر) إلاَّ الشريد، الذي لحق بالجيش الأول المحاصر لطُلَيْطِلَة، وهناك عند وادي سليط جرت معركة طاحنة سُحق فيها الجيش الأمازيغي (البربري) الأول، وسُحقت ثورتهم، وتشتَّت جمعهم، وتفرَّقوا في البلاد، ولم تقم لهم بعدها قائمة[2].

الصراع بين القيسية واليمنية:

خرج عبد الملك بن قَطَن مظفَّرًا بعد أن أنهى ثورة الأمازيغ (البربر) في الأندلس، ولكنه لم يطمئن على سلطانه ما دام بَلْج بن بشر وجنوده الشاميون في الأندلس، وكانت هواجس ابن قَطَن في محلِّها، فعندما عرض على بَلْج الجلاء من

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٤٢، ٤٣، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٠، ٣١.

(٢) انظر تفصيل ذلك عند مجهول: أخبار مجموعة ص٤٣، ٤٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣١، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص١٧٤، ١٧٦، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٨٦، ٨٧.

الأندلس، طبقًا لما اتفقا عليه قبل دخول بَلْج الأندلس، رفض بَلْج وجنوده الشاميون أن يعودوا مرَّة أخرى إلى المغرب بعدما أنقذوا الأندلس وابن قَطَن، وقال بَلْج بأنه ولي الأندلس بعهد من عمِّه كلثوم بن عياض، الذي ولاَّه الخليفة أمر المغرب، وأيَّده في هذا ثعلبة بن سلامة، وتنادوا بخلع ابن قطن وتولية بلج، فانحازت إليهم العرب اليمانية في الأندلس، وهجموا على ابن قَطَن -الذي كان قد قارب التسعين من العمر- في قصره بقُرْطُبَة، واعتقلوه ثم صلبوه، وذلك في ذي القعدة ١٢٣هـ= سبتمبر ٧٤١م[١].

وكان لمقتل عبد الملك بن قَطَن ردُّ فعل مؤلم ومؤثِّر، ألهب مشاعر الحقد والضغينة، وجدَّد الصراع بين القيسية واليمنية؛ فقد توجَّهت جموع المتحالفين مع قَطَن وأمية ابنا عبد الملك بن قَطَن نحو قُرْطُبَة، ودارت بينهم وبين الشاميين معركة ضارية عند أقوة برطورة في شوال (١٢٤هـ=٧٤٢م)، قاتل فيها الشاميون قتالَ مَنْ يطلب الموت دون الحياة؛ فهي معركة مصيرية بالنسبة لهم، فهم إمَّا أن يكونوا بعدها أو ألاَّ يكونوا؛ لذلك كان النصر حليفهم، وفيها أُصيب بَلْج بن بشر بسهم، تسبَّب في موته بعدئذٍ، واختار الشاميون بعده ثعلبة بن سلامة العَامِلِيّ أميرًا عليهم[٢].

في هذه الأثناء تجمَّعت جموع المتحالفين مرَّة أخرى ناحية قُرْطُبَة للقضاء على الشاميين، فخرج لهم ثعلبة وجنده إلاَّ أنه هُزم هزيمة منكرة، وانسحب إلى مَارِدَة وتحصن بها، وصادف ذلك عيد الأضحى (١٠ ذي الحجة ١٢٤هـ)، فأحكموا الحصار على الشاميين، واطمأنُّوا إلى النصر وغرَّهم ما هم فيه من القوة، وشعر ثعلبة بذلك؛ فأرسل إلى عامله على قُرْطُبَة يستنجده ويطلب منه المساعدة العسكرية، فوصلت المساعدة من قُرْطُبَة في صبيحة عيد الأضحى، واستغلَّ ثعلبة انشغال

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص ٤٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣١، ٣٢، والمقري: نفح الطيب ٣/ ١٩.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٤٥-٤٧، وابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٦، ٢/ ٣٢، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٢.

المحاصرين عنه باحتفالاتهم، فباغتهم بالهجوم، وكانت مقتلة عظيمة، دفع فيها المتحالفون عليه الثمن باهظًا، ولم يتورَّع الشاميون عن القتل، ولا عن استرقاق أسراهم من الرجال والنساء والأطفال، البالغ عددهم عشرة آلاف أو يزيد، وقد حملهم ثعلبة إلى قُرْطُبَة، وهو يُريد أن يقتلهم جميعًا[١]، إلاَّ أن حنظلة بن صفوان - والي إفريقية للخليفة الوليد بن يزيد بن عبد الملك- بعث أبا الخطَّار حسام بن ضرار الكلبي لإنقاذ الموقف في الأندلس، بعد أن كادت العصبية القبلية تعصف به، وذلك في رجب سنة (١٢٥هـ=٧٤٣م)، وقد رضي البلديون والشاميون به[٢].

وصل أبو الخطَّار على رأس الطالعة الثانية من الشاميين للأندلس بعد طالعة بَلْج بن بشر الأولى، فأظهر العدل والإنصاف، وأطلق سراح الأسرى والسبي، وتوحَّدت كلمة المسلمين في الأندلس، وأنزل أهل الشام في الكُوَرِ، ومن هنا عاد الاستقرار والهدوء النسبي إلى الأندلس حينًا[٣].

ولكن يبدو أن داء العصبية والقبلية كان متجذِّرًا في النفوس آنذاك، فما هي إلاَّ أيام حتى غلبت النزعة القبلية على أبي الخطَّار وهو يمني متعصب، ووصلت به عصبيته إلى أن تحاكم إليه يمني وقيسي، وكان القيسي أبلغ حُجة من اليمني، ولكن غلبت عليه عصبيته فحكم لليمني، فما كان للقيسي إلاَّ أنه ذهب إلى زعيم قومه القيسية وهو الصَّمِيل بن حاتم؛ ليطلب حقَّه المسلوب، فذهب الصَّمِيل إلى أبي الخطَّار، فأهان أبو الخطَّار الصَّمِيلَ، وضربه حتى اعوجَّت عمامته، فقال له بعض الحجَّاب وهو خارج من القصر: أقم عمامتك يا أبا الجَوْشَن. فقال: إن كان لي قوم

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٤٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٢، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٧، ٣/ ٢٢.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٤٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٣، ٣٤، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٧، ٣/ ٢٢.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص٤٨، ٤٩، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٢، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٩١، ٩٢، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص١٨٩، ١٩٠.

فسيُقِيمُونها[١]. وكان ذلك إيذانًا باشتعال أُوَار الحرب مرَّة أخرى بين القيسية واليمنية.

وقد استطاع الصَّمِيل بن حاتم أن يجمع قومه، وأن يستقطب بعض الشخصيات اليمنية الساخطة على أبي الخطَّار من اللخميين والجُذَاميين، كان منهم ثَوَابَة بن سلامة العَامِلِيّ الجُذَامي، الذي وعده الصَّمِيل بالولاية إن هو انتصر على أبي الخطَّار[٢].

وعجل أبو الخطَّار إلى لقاء الصَّمِيل وقومه القيسية، وكان اللقاء عند وادي لكة في رجب ١٢٧هـ= إبريل ٧٤٥م[٣]، وقد تفرَّق جمع أبي الخطَّار بعد أن تقاعس الكلبيون عن قتال بني عمومتهم من اللخميين والجُذَاميين، ووجد أبو الخطَّار نفسه وحيدًا، فعزم على الفرار إلى قُرْطُبَة، ولكن الصَّمِيل قبض عليه وسجنه وخلعه، وولَّى مكانه ثَوَابَة بن سلامة الجُذَامي عام (١٢٨هـ=٧٤٥م)[٤]، فاجتمع رجال اليمنية من أنصار أبي الخطَّار لنصرته، واستطاعوا التغلُّب على حُرَّاسه، وأخرجوه من سجنه بقُرْطُبَة، فأقام بين قبائل كلب وحمص، واعترفوا به واليًا شرعيًّا على الأندلس، وبدأ أبو الخطَّار يأخذ خطوات عملية نحو استعادة مُلكه الضائع، الذي سلبه منه القيسية بزعامة الصَّمِيل، وتوجَّه بجموعه إلى قُرْطُبَة ليأخذها، فخرج إليه ثَوَابَة بن سلامة، فتفرَّق الناس عن أبي الخطَّار، وانسحب بجيشه، ليُعِيدَ الكرة مرَّة أخرى[٥].

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٤، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٣.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٥.
(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٥، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٤.
(٤) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٥، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٤، ٩٥، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص١٩٤، ١٩٥.
(٥) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٨، ٥٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٥، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٤.

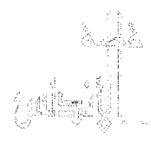
ولم ينعم ثَوَابَة بن سلامة بمُلك الأندلس طويلاً؛ فقد وافاه الأجل بعد عام من ولايته في المحرم (١٢٩هـ=٧٤٦م)، وبقيَت الأندلس أربعة أشهر بعده دون والٍ، مع أن الصَّمِيل يستطيع أن يُنَادي بنفسه واليًا، إلاَّ أنه لم يفعل، واكتفى برصد اللعبة السياسية وإدارتها من وراء الستار(١).

وقد تميزت هذه الفترة من عهد الولاة بكثرة المرشَّحين للولاية، ولكلٍّ منهم أتباعه، فهذا أبو الخطَّار الكلبي، وهذا يحيى بن حريث الجُذَامي، وهذا عمرو بن ثَوَابَة مدعيًا أنه أحق بالولاية بعد أبيه، وفوق ذلك كله كان عقل الصَّمِيل بن حاتم وتدبيره، وليس أدلَّ على ذلك قوله: «نُقَدِّم رجلاً يكون له الاسم ويكون لنا الحظُّ»(٢).

الصميل بن حاتم ويوسف الفهري:

اشتد النزاع بين الأطراف المتنازعة على الولاية، وبدا كل منهم متمسكًا برأيه وأحقيته، محتميًا بقومه وعشيرته، وفي هذا الجوِّ المشحون بالعصبية، التي تُفضي إلى التقاتل والتناحر، توصَّل الصَّمِيل إلى حلٍّ يقضي بتقاسم السلطة بين القيسيين واليمنيين على شكل تعاقب سنوي في الحكم(٣)، واقتنع الطرفان، وبقيت المشكلة في أول والٍ للأندلس، وقد بادر القيسية بقيادة الصَّمِيل إلى تقديم شخصيتهم الأولى؛ فاقترح الصَّمِيل أن يكون يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيّ هو أول الولاة، واستطاع الصَّمِيل أن يُرْضِيَ يحيى بن حريث؛ فأعطاه كورة ريَّة فرضي بها وقنع، ووقع الاتفاق بين القيسية واليمنية على يوسف الفِهْرِيّ في جمادى الأولى (١٢٩هـ=٧٤٧م)، على أن يجتمع القوم بعد عام ليختاروا الشخصية اليمنية التي

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٥، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٥، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٩٧.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٥، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٥.
(٣) محمد سهيل طقوش تاريخ المسلمين في الأندلس ص٩٨.



ستلي الأمر بعد يوسف الفِهْرِيّ[(١)].

وما أن استقرَّ الأمر في الأندلس، حتى عزل الصَّمِيل يحيى بن حريث الجُذَامي عن كورة ريَّة، حتى لا تقوى شوكته مرَّة أخرى ويكثر أنصاره من اليمنية؛ فاشتدَّ غضب يحيى بن حريث لهذا القرار، وسارت رُوح العصبية مرَّة أخرى، ووضع يحيى بن حريث يده في يد أبي الخطَّار، فاجتمعت كلمة الجُذَامِيين والكلبيين وباقي اليمنية في الأندلس لمناصرة يحيى بن حريث، واجتمعت كلمة مضر وربيعة لمناصرة يوسف الفِهْرِيّ والصَّمِيل بن حاتم[(٢)].

وزحف أبو الخطَّار ويحيى بن حريث ناحية قُرْطُبَة، وعسكر الجيش عند نهر قُرْطُبَة (الوادي الكبير) عند قرية شقندة، وعبر الصَّمِيل والفِهْرِيّ وجنودهما إليهما، ودارت معركة شقندة (١٣٠هـ=٧٤٧م)[(٣)]، وقد استمرَّ القتال سجالاً بين الفريقين، حتى استعان الصَّمِيل بعَوَامِّ السُّوقِ وغوغائها، فاشترك أربعمائة منهم في القتال، ليس لهم همٌّ إلاَّ القتل، فلمَّا رأى اليمنيون ذلك دبَّ الرعب في قلوبهم، وخارت عزائمهم، وأثخن القيسية فيهم القتل، وكان منهم عمرو بن حريث وأبو الخطَّار الكلبي الذي قُتِلَ بعد أن وقع في الأسر، وأراد الصَّمِيل أن يشفي غليله وأحقاده من اليمنية، فأمر بالأسرى أن يُقتلوا صبرًا، فقُتِلَ منهم سبعون، ثم تَدَخَّل حليفه أبو العطاء الجُذَامي فأمره أن يكُفَّ عن المذبحة فكَفَّ[(٤)]، وهكذا كُسرت شوكة اليمنية في الأندلس ودانت البلاد لأمر الفِهْرِيّ والصَّمِيل، لا ينازعهما فيها أحد.

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٥.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٦.
(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص٦٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٦، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٨، ٣/ ٢٥، ومحمد سهيل طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٩٩، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص١٩٧، ١٩٨.
(٤) مجهول: أخبار مجموعة ص٦٠، ٦١، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٦، ٣٧، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٢٥، ٢٦.

ويبدو أن يوسف الفِهْرِيّ أردا الخلاص من تلك الوصاية الفعلية عليه من قِبَل الصَّمِيل، فأمر بتعيين الصَّمِيل عاملاً له على إقليم سَرَقُسْطَة في عام (١٣٢هـ=٧٥٠م)، وقبِلَ الصَّمِيل.

ولكن لماذا وافق الصَّمِيل على عرض الفِهْرِيّ وقَبِلَ هذا الإبعاد المتعمَّد؟!

كانت بلاد الأندلس تمرُّ بفترة قحط ومجاعة عظيمة؛ نتيجة للحروب المتزايدة بين العرب اليمنية والقيسية، وبين العرب والبربر، ودامت هذه المجاعة خمس سنوات (١٣١-١٣٦هـ=٧٤٩-٧٥٥م)، وقد سلم من هذه المجاعة إقليم سَرَقُسْطَة، فكان في حالٍ من الرغد والخير؛ لذلك قَبِل الصَّمِيل العرض، كما أن الصَّمِيل فطن إلى أن يوسف الفِهْرِيّ ما بعثه إلى سَرَقُسْطَة إلاَّ ليذل به اليمنية وهم أكثر أهلها، إلاَّ أن الصَّمِيل فتح خزائنه ولم يأتِهِ صديق ولا عدوٌّ إلاَّ أعطاه[1].

خلا الجوُّ للفِهْرِيِّ في قُرْطُبَة، فلم يَعُدِ الصَّمِيل وصيًّا عليه، ولكن يوسف الفِهْرِيّ كان ضعيف الشخصية ولم يكن له في أمور السياسة، فثار الناس عليه، وخرج عليه عامر بن عمرو العَبْدَرِيُّ، وهو يمني[2] خاف أن يفعل الصَّمِيل باليمنية في سَرَقُسْطَة ما فعله بهم في شقندة وما بعدها، وكان باستطاعة يوسف الفِهْرِيِّ أن يقضي عليه في قُرْطُبَة إلاَّ أن جبنه وتردُّده حال دون ذلك؛ إذ رأى أن يأخذ برأي الصَّمِيل أولاً، فنصحه الصَّمِيل بقتله، وفطن عامر العَبْدَرِيُّ لمحاولة يوسف الفِهْرِيِّ قتله، فصرف عامر العَبْدَرِيُّ نظره عن قُرْطُبَة، وأراد أن يقوم بعمل يقضي به على شوكة الصَّمِيل ويوسف الفِهْرِيِّ، وبما أن الرجل كان يمنيًّا متعصبًا، فقد فكَّر في الالتجاء إلى اليمنية في سَرَقُسْطَة، والتحالف معهم على القضاء على القيسية، فكاتب زعيمًا من زعمائهم وهو الحباب الزهري، فاجتمعت كلمة اليمنية، وعزموا على

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٦٢، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٧.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٦٣.

حصار الصَّمِيل في سَرَقُسْطَة، وذلك في عام (١٣٦هـ=٧٥٣م)[١].

فلما اشتدَّ الحصار على الصَّمِيل بعث إلى يوسف الفِهْرِيِّ يطلب نجدته وعونه، ولكن يوسف الفِهْرِيّ تباطأ في الردِّ عليه، ويبدو أن الفِهْرِيَّ كان سعيدًا مسرورًا؛ لأنه سيتخلَّص من وصاية الصَّمِيل الثقيلة عليه، إلاَّ أن أتباع الصَّمِيل من القيسيين جمعوا جموعهم لنصرة زعيمهم الصَّمِيل، وانضمَّ إليهم نفر من بني أمية ومواليهم – لغرض غامض سنكشفه بعد قليل – وكان على رأسهم أبو عثمان عبيد الله بن عثمان، وعبد الله بن خالد[٢].

وانطلقت جموع القيسية ومعهم بنو أمية ومواليهم لنجدة الصَّمِيل، وما كادت تصل طلائعها حتى جزع المحاصِرون ورفعوا الحصار عن الصَّمِيل، وعلى الفور انطلق الصَّمِيل ناحية قُرْطُبَة، ثم هاجم عامر العَبْدَرِيُّ والزهري سَرَقُسْطَة فاستوليا عليها، ثم أن الصَّمِيل ويوسف الفِهْرِيّ هاجما المدينة، ووقع العَبْدَرِيُّ والزهري في قبضة الصَّمِيل الذي أمر بقتلهما[٣].

مشهد الخلافة في الشرق:

بعد وفاة الخليفة هشام بن عبد الملك عام (١٢٥هـ) بدأت عوامل الضعف تسري في جسد الدولة الأموية، وبدت الخلافة وكأنها تسير نحو الهاوية؛ فبوفاة الخليفة هشام بدأت الاضطرابات والفتن والقلاقل تظهر على مسرح الأحداث، واستمرَّ الأمر كذلك نحوًا من سبع سنوات داخل البيت الأموي نفسه، فبعد وفاة هشام بُويع للخلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (الوليد الثاني)، وقد استهلَّ الوليد

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٦٣، ٦٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٧، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٨، وطقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص١٠٢، ١٠٣، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٠١.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة ص٦٥.

(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص٦٥-٦٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٧، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٨، وطقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص١٠٢، ١٠٣، وحسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٠٢، ٢٠٣.

خلافته بالاهتمام بأحوال رعيته اهتمامًا شاملاً، ثم ما لبث أن ارتكب جنايات كثيرة؛ كان أعظمها تنكيله ببني عمه سليمان وهشام، وتنكيله بكبار رجال دولته، ثم إظهاره للمجون والخلاعة والعبث؛ مما عجَّل بسقوط مُلْكه وخلافته، ثم قتله إثْرَ ثورة قام بها يزيد بن الوليد بن عبد الملك اشترك معه فيها أمراء البيت الأموي واليمنية، وما أن تمَّت البيعة ليزيد بن الوليد (يزيد الثالث) حتى قامت المعارضة العنيفة في وجهه، وتزعَّمها أبناء عمومته، كما ثارت عليه الأقاليم الشامية، فلم يهنأ بخلافته طويلاً، ولم تَدُمْ خلافته سوى ستة أشهر (جمادى الآخرة - ذو الحجة سنة ١٢٦هـ)؛ حيث توفي في ذي الحجة، ليترك الشام -وهي الحصن الحصين للدولة الأموية- تشتعل نارًا، كما ترك أبناء أسرته منقسمين على أنفسهم، منشغلين بصراعاتهم عن الأخطار المحدقة بهم، وبصفة خاصة الخطر العباسي.

ثم بُويع إبراهيم بن الوليد بن عبد الملك عام (١٢٧هـ)، ولكن لم يتم له الأمر؛ إذ انقلب عليه مَرْوَان بن محمد وانتصر عليه في عين الجر، وبويع له بالخلافة في ربيع الآخر (١٢٧هـ)، فكانت مدَّة خلافة إبراهيم بن الوليد ما يقرب من أربعة أشهر، وتسلَّم مَرْوَان بن محمد الخلافة ليُصَارع أحداثًا أقوى منه، ويُواجه دنيا مُدبِرَة ودولة ممزقة، قُدِّرَ له أن يكتب الفصل الأخير من حياتها، فبعد حالة من السكون والاستقرار إِثْر بيعة مَرْوَان بن محمد بالخلافة، اندلعت الثورات في كل مكان في الدولة؛ فهناك ثورة في حمص، وأخرى في الغوطة، وثالثة في فلسطين، واضطرابات في العراق قام بها الخوارج والشيعة، وأخطر من ذلك كله كان انقلاب أمراء البيت الأموي عليه؛ كسليمان بن هشام بن عبد الملك، وعبد الله بن عمر بن العزيز، وقد كان انهماك مَرْوَان الثاني في إخماد الثورات والفتن؛ سببًا في انشغاله عن الاهتمام بما كان يجري في المشرق، خاصَّة في خراسان التي كانت مركزًا للدعوة العباسية، وقد انتشرت في المنطقة انتشارًا واسعًا، واستقامت الأمور فيها لبني العباس؛ مما أدَّى إلى

اقتناع الدعاة العباسيين بأن الوقت قد حان للجهر بها، وبدأت رايات العباسيين تنساح في البلاد انسياحًا سريعًا، والتقت سيوف الأمويين والعباسيين، ودارت بين الجيشين رحى معركة عنيفة عند نهر الزاب في شهر جُمادَى الآخرة عام (١٣٢هـ)، استمرَّت أحدَ عشرَ يومًا انتهت بهزيمة مَرْوَان بن محمد ثم قَتْلِه، لتبدأ حِقبة جديدة في التاريخ الإسلامي، هي الخلافة العباسية.

أهم أحداث الفترة الثانية من عهد الولاة في الأندلس

نظرًا لتفاعل الأمور السابقة بعضها مع بعض، نستطيع بإيجاز شديد أن نُلَخِّص أهمَّ الأحداث التي تمخَّضت عنها الفترة الثانية والأخيرة من عهد الولاة فيما يلي:

أولاً: فُقِدَت كثير من الأراضي الإسلامية في فرنسا[١].

ثانيًا: ظهرت مملكة نصرانية في الشمال الغربي عند منطقة الصخرة، تُسَمَّى مملكة (ليون)[٢].

ثالثًا: انفصل إقليم الأندلس عن الخلافة الإسلامية -الأموية في ذلك الوقت- وذلك على يد يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيّ[٣].

رابعًا: انقسمت الأندلس إلى فرقٍ عديدةٍ متناحرة، وثورات لا نهاية لها، فكلٌّ يُريد التملك والتقسيم وفق عنصره وقبيلته.

خامسًا: أمر خطير جدًّا وهو ظهور فكر الخوارج، الذين جاءوا من الشام، واعتناق الأمازيغ (البربر) له؛ وذلك أن الأمازيغ (البربر) كانوا يُعانون ظلمًا شديدًا وعنصرية بغيضة من قِبَل يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيِّ؛ مما مهَّد عقولهم لقبول

---

(١) انظر تفاصيل ذلك عند حسين مؤنس: فجر الأندلس ص٢٣٩-٢٥١.

(٢) انظر تفصيل ذلك في فجر الأندلس، ص٢٥٥-٢٨٦.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٦٢.

هذا الفكر الخارج عن المنهج الإسلامي الصحيح واعتناقه؛ خَلاصًا مما يحدث لهم مِمَّنْ ليسوا على فكر الخوارج[١].

سادسًا: زاد من خطورة هذا الموقف ذلك الحدث الجسيم الذي صدع الأمة الإسلامية في سنة (١٣٢هـ=٧٥٠م)، وهو سقوط الخلافة الأموية وقيام الخلافة العباسية، الذي كان قيامًا دمويًّا رهيبًا، انشغل فيه العباسيون بالقضاء على الأمويين؛ ومن ثَمَّ فقد ضاعت قضية الأندلس وغابت تمامًا عن الأذهان.

ونتيجة لهذه العوامل جميعًا فقد أجمع المؤرخون على أن الإسلام كاد أن ينتهي من بلاد الأندلس، وذلك في عام (١٣٨هـ=٧٥٥م)، وأصبح أمر الأندلس يحتاج في إصلاحه إلى معجزة إلهية، وبالفعل حدثت المعجزة بفضلٍ من الله ومَنٍّ وكرمٍ منه على المسلمين؛ وذلك بدخول رجل يُدعَى عبدَ الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك الأموي إلى أرض الأندلس، وذلك في شهر ذي الحجة عام (١٣٨هـ= مايو ٧٥٦م).

ملامح عهد الولاة الثاني

١- حُبُّ الدنيا:

في أول هذا العهد كانت الأموال كثيرة والغنائم ضخمة، وفُتِحَت الدُّنيا عليهم، في حين يقول رسول الله ﷺ: «إِنَّ مِمَّا أَخَافُ عَلَيْكُمْ مِنْ بَعْدِي مَا يُفْتَحُ عَلَيْكُمْ مِنْ زَهْرَةِ الدُّنْيَا وَزِينَتِهَا»[٢]. وهكذا فُتِحَت الدنيا على المسلمين وانخرطوا فيها؛ فتأثَّر بذلك إيمانُهم.

٢- ظهور العنصرية والقبلية:

وتبعًا لتأثُّر الإيمان ظهرت العنصرية بصورة كبيرة، وحدثت انقسامات كثيرة في

(١) مجهول: أخبار مجموعة ص٤٢، وابن عذاري: البيان المغرب ١/ ٥٤.

(٢) البخاري: كتاب الزكاة، باب الصدقة على اليتامى (١٣٩٦) عن أبي سعيد الخدري، ومسلم: كتاب الزكاة، باب تخوف ما يخرج من زهرة الدنيا، رقم (١٠٥٢).

صفوف المسلمين داخل الأندلس؛ حدثت انقسامات بين العرب والأمازيغ (البربر)، وكانت جذور هذه الانقسامات منذ بلاط الشهداء، ثم حدثت انقسامات بين العرب أنفسِهم، بين المضريين والحجازيين، وبين العدنانيين (أهل الحجاز) والقحطانيين (أهل اليمن)؛ حتى إنه كانت هناك خلافات وحروب كثيرة بين أهل اليمن وأهل الحجاز، ولقد وصل الأمر إلى أن حدثت انقسامات بين أهل الحجاز أنفسِهم؛ بين الفِهْرِيين وبين الأمويين، بين بني قيس وبني ساعدة. وهكذا انقسم أهل الحجاز بعضهم على بعض[١].

٣- ظلم الولاة:

وإضافة إلى حبِّ الغنائم وتفاقم ظاهرة القبلية والنزعة العنصرية، وكخطوة لاحقة لهذا ظهر ما يمكن أن نُسمِّيه ظلم الولاة، فقد تولَّى أمر المسلمين في الأندلس ولاة ظلموا الناس وألهبوا ظهورهم بالسياط؛ كان منهم -على سبيل المثال- عبد الملك بن قَطَن، فقد كان ظالمًا جائرًا[٢].

وعلى دربه سار يوسف بن عبد الرحمن الفِهْرِيّ الذي تولَّى عام (١٣٠هـ=٧٤٨م) وحتى آخر هذه الفترة، وآخر عهد الولاة كلية سنة (١٣٨هـ=٧٥٥م)[٣]، فحدثت انكسارات جديدة وثورات عديدة داخل بلاد الأندلس[٤].

٤- ترك الجهاد:

كنَّا نتحدَّث منذ قليل عن الانتصارات الإسلامية والتاريخ المجيد، وفتح الأندلس وفتح فرنسا، ثم ها هي ذي الدنيا قد تمكَّنت من القلوب، وها هي ذي

(١) انظر تفاصيل ذلك عند حسين مؤنس: فجر الأندلس، ص٧٩- ١٢٩، ص١٨٣-٢٠٣.
(٢) المقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٦، ٣/ ١٩.
(٣) مجهول: أخبار مجموعة ص٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٥-٣٨، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٨، ٣/ ٢٥.
(٤) انظر التفصيل عند ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٨.

العنصرية قد ظهرت، وها هو ذا ظلم الولاة يُسْلِمُ الناس إلى هذه الثورات، وكردٍّ فعل طبيعي جدًّا لكلٍّ هذا ترك الناسُ الجهاد، وتوقَّفت الفتوحات في فرنسا، وتوقَّفت الحروب ضد النصارى في الشمال الغربي في منطقة الصخرة، التي كان يتمركز بها مجموعة من النصارى منذ الفتح الأول لبلاد الأندلس، وكقاعدة ربانية وسُنَّة إلهية فما تَرَكَ قومٌ الجهاد في سبيل الله إلاَّ ضرب الله عليهم الذلَّ، يروي أبو داود عن ابن عمر رضي الله عنهما أن رسول الله ﷺ قال: «إِذَا تَبَايَعْتُمْ بِالْعِينَةِ[1]، وَأَخَذْتُمْ أَذْنَابَ الْبَقَرِ[2]، وَرَضِيتُمْ بِالزَّرْعِ وَتَرَكْتُمُ الْجِهَادَ، سَلَّطَ اللهُ عَلَيْكُمْ ذُلاًّ، لاَ يَنْزِعُهُ حَتَّى تَرْجِعُوا إِلَى دِينِكُمْ»[3]. وهكذا كان الحال حين ترك المسلمون الجهاد في فرنسا وأرض الأندلس، فسَلَّط الله عليهم الذلَّ، وانقسموا على أنفسهم، وانشغلوا بدنياهم.

* * *

(١) بيع العينة: هو أن يبيع الرجل شيئًا من غيره بثمن مؤجل ويسلمه إلى المشتري، ثم يشتريه قبل قبض الثمن بثمن نقد أقل من ذلك القدر. العظيم آبادي: عون المعبود ٩/ ٢٤٢، والمناوي: فيض القدير ١/ ٤٠٣.

(٢) وأخذتم أذناب البقر: كناية عن الاشتغال عن الجهاد بالحرث. المناوي: فيض القدير ١/ ٤٠٣.

(٣) أبو داود: كتاب الإجارة، باب النهي عن العينة (٣٤٦٢)، وصححه الألباني، انظر: السلسلة الصحيحة (١١).



الباب الرابع

عصر الإمارة الأموية



الفصل الأول

عبد الرحمن الداخل

قصة عبد الرحمن الداخل (١١٣-١٧٢هـ=٧٣١-٧٨٨م)

لكي نفهم قصة دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى أرض الأندلس، يجب أن نعود إلى الوراء قليلاً حتى سنة (١٣٢هـ=٧٥٠م)، وهو زمن سقوط دولة بني أمية في المشرق، فقد قتل العباسيون كلَّ مَن كان مُؤَهَّلاً من الأُمَوِيِّين لتولِّي الخلافة؛ فقتلوا الأمراء وأبناء الأمراء وأبناء أبناء الأمراء (الأحفاد)، إلا قلَّة ممَّن لم تصل إليهم سيوفُهم[(١)].

وكان من هؤلاء الذين لم تصل إليهم سيوف بني العباس- عبدُ الرحمن بن معاوية حفيدُ هشام بن عبد الملك الذي حكم من سنة (١٠٥هـ=٧٢٣م) إلى سنة (١٢٥هـ=٧٤٣م).

وقد نشأ عبد الرحمن في بيت الخلافة الأموي، وكان الفاتح الكبير مسلمة بن عبد الملك عَمَّ أبيه يراه أهلاً للولاية والحكم، وموضعًا للنجابة والذكاء، وسمع عبد الرحمن ذلك منه مشافهة، فترك ذلك في نفسه أثرًا إيجابيًّا، ظهرت ثماره فيما بعدُ[(٢)]، ولما بلغ رَيْعَانَ شبابه انقلب العباسيون على الأمويين، وأعملوا فيهم السيف -كما ذكرنا- حتى لا يُفَكِّر في الخلافة أحدٌ منهم؛ فكانوا يقتلون كلَّ مَنْ بلغ من البيت الأموي، ولا يقتلون النساء والأطفال، وكان هذا في سنة (١٣٢هـ).

---

(١) انظر تفصيل ذلك عند ابن كثير: البداية والنهاية ١٠/ ٤٨، وتاريخ ابن خلدون، ٣/ ١٣٢.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٤١، والمقري: نفح الطيب ١/ ٣٢٨، ٣/ ٥٣.

هرب عبد الرحمن بن معاوية من مكانه ومستقره في قرية دير خنان من أعمال قنسرين بالشام إلى بعض القرى في العراق ناحية الفرات، ولكن المطاردة العباسية المحمومة -بما جنَّدته من مكافآت وعيون تبلغها الأنباء- بلغته في مكانه، وبينما كان يجلس في بيته؛ إذ دخل عليه ابنه ذو الأربع سنوات يبكي فزعًا، وكان عبد الرحمن بن معاوية مريضًا معتزلاً في الظلام في ركن من البيت؛ لأنه كان يُعاني من رمد في عينه، فأخذ يُسَكِّن الطفل بما يُسكَّن به الأطفال، إلاَّ أن الطفل ظلَّ فزعًا مرعوبًا لم يهدأ، فقام معه عبد الرحمن بن معاوية فوجد الرايات السود (رايات الدولة العباسية) خارج البيت، وكانت تعمُّ القرية جميعها، فعلم أنَّه مطلوب، فرجع عبد الرحمن بن معاوية وأخذ أخاه هشام بن معاوية وما معه من نقود، وترك النساء والأطفال وكل شيء؛ لأنه يعلم أنهم لن يمسوهم بسوء.

وانطلق عبد الرحمن هاربًا -ومعه أخوه هشام- نحو الفرات، وعند الفرات أدركتهما خيول العباسيين، فألقيا بأنفسهما فيه وأخذا يسبحان، ومن بعيد ناداهما العباسيون: أن ارجعا ولكما الأمان. وأقسموا لهما على هذا، كانت الغاية أن يقطعا النهر سباحة حتى الضفة الأخرى، إلاَّ أن هشامًا لم يقوَ على السباحة لكل هذه المسافة، ثم أثَّر فيه نداء العباسيين وأمانهم، فأراد أن يعود، فناداه عبد الرحمن يستحثُّه ويُشَجِّعه: أن لا تَعُدْ يا أخي، وإلاَّ فإنهم سوف يقتلونك. فردَّ عليه: إنهم قد أَعْطَوْنَا الأمان. ثم عاد راجعًا إليهم، فما أن أمسك به العباسيون حتى قتلوه أمام عيني أخيه، وعَبَرَ عبد الرحمن بن معاوية النهر وهو لا يستطيع أن يتكلَّم، أو يُفَكِّر من شدَّة الحزن على أخيه ابن ثلاث عشرة سنة، ثم اتجه إلى بلاد المغرب؛ لأن أمَّه كانت من إحدى قبائل الأمازيغ (البربر)، فهرب إلى أخواله هناك، في قصة هروبٍ طويلة جدًّا وعجيبة -أيضًا- عبر فيها الشام ومصر وليبيا والقيروان[1].

(١) المقري: نفح الطيب، ٣/ ٢٨، وما بعدها.

وصل عبد الرحمن بن معاوية إلى بَرْقَة (في ليبيا)، وظلَّ مختبئًا فيها خمس سنين إلى أن يهدأ الطلب والمطاردات، ثم خرج إلى القيروان، وكانت القيروان حينئذٍ في حكم عبد الرحمن بن حبيب الفهري[1]، وكان قد استقلَّ -فعليًّا- بالشمال الإفريقي عن الدولة العباسية.

كان عبد الرحمن بن حبيب من نسل عقبة بن نافع فاتح المغرب الأول، وكان ابن عم يوسف الفهري الذي كان يحكم الأندلس، وكان يرغب في أن يحكم الأندلس -أيضًا- إذ الأندلس تَبَعٌ للمغرب، وكان ظهور عبد الرحمن بن معاوية مما يُعَطِّل هذه الأماني.

لماذا يعطل ظهور عبد الرحمن بن معاوية آمال عبد الرحمن بن حبيب الفهري؟

إجابة هذا السؤال فيها جانب واقعي تقريري، وجانب آخر طريف يتمثَّل في النبوءة!

عبد الرحمن بن حبيب صاحب القيروان، والحاكم الفعلي لمنطقة الشمال الإفريقي، وابن عم صاحب الأندلس يوسف الفهري، يعلم أن عبد الرحمن بن معاوية -وهو الأموي سليل بيت الخلافة الأموية التي فتحت هذه البلاد، ونصبت هؤلاء الولاة على مقاليدها، وكانت تملك عزلهم وتوليتهم- لا يسعه أن يجلس في بيته قانعًا من الحياة بالعيش الطيب فحسب، بل لا بُدَّ له أن يطلب حقه في مُلك آبائه وأجداده الخلفاء، فما هذه إلاَّ بلاد هم الذين افتتحوها وملكوها وحكموها بالإسلام.

وهذا في الواقع صحيح جدًّا، وهو -بالمناسبة- التفسير الذي يُفَسِّر تلك الدموية البالغة التي استعملتها الدولة العباسية في القضاء على الأمويين؛ إذ ما دام

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٨/ ٢٥.

وُجد أمويٌّ أو عصبة أموية فإنها لن تفتأ تُفَكِّر في استعادة مُلكها المغصوب؛ ومن هنا كان لا بُدَّ من اجتثاث الأمويين تمامًا لإنهاء هذه المعضلة الخطيرة، والتي أخطر ما فيها مسألة «الشرعية»؛ إذ حُكْم بني أمية لهذه البلاد بعد أن فتحوها بجهادهم لا يُشَكُّ في شرعيته، بينما انقلاب العباسيين على الأمويين موضع أخذ وردٍّ وقيل وقال.

فظهور أموي في بلاد المغرب كعبد الرحمن بن معاوية يفتح في ذهن صاحب المغرب -كما سيفتح في ذهن صاحب الأندلس فيما بعدُ- بابًا من الخوف والتوجُّس والانزعاج؛ إذ الأموي أحق بحكم تلك البلاد، وهي من ميراث أجداده الخلفاء العظام.

دار هذا في ذهن عبد الرحمن بن حبيب، ولا شَكَّ أنه دار -أيضًا- في ذهن كلِّ صاحب رأي، وكل مَنْ كان من أهل الحلِّ والعقد والرئاسة والزعامة. هذا هو الجانب الواقعي.

أمَّا الجانب الطريف فهو مسألة النبوءة!

أجمعت كتب التاريخ على أن مسلمة بن عبد الملك -الفاتح العظيم وفارس بني أمية الذي تولَّى فتح بلاد الشمال والقوقاز كما ذكرنا- كان يتنبَّأ بزوال مُلك بني أمية في المشرق، ثم هروب فتى منهم لإحيائه في بلاد المغرب مرَّة أخرى! وتزيد بعض الكتب فتقول بأنه كان يتوقَّع أن يكون عبد الرحمن بن معاوية هو هذا الفتي الذي سيُقيم مُلك الأمويين في المغرب بعد زواله في المشرق.

وبهذه النبوءة يُفَسِّر كثير من المؤرخين أحداث هذه الفترة، فيُفَسِّرون بها إصرار العباسيين على مطاردة عبد الرحمن بن معاوية خاصة، ويُفَسِّرون بها اتجاه عبد الرحمن بن معاوية إلى بلاد المغرب، ويفسرون بها حُبَّ هشام بن عبد الملك ورعايته

لحفيده عبد الرحمن هذا دون غيره من أبنائه وأحفاده، ويفسرون بها -أيضًا- سعي عبد الرحمن بن حبيب لقتل عبد الرحمن بن معاوية في القيروان.

وما يزيد في الطرافة أن النبوءة تقول بأن صاحب الأندلس يُرسل شَعْرَه ويجعل فيه ضفيرتين، فكان عبد الرحمن بن معاوية بهذا الوصف، وكذا كان عبد الرحمن بن حبيب أيضًا[١].

ما حقيقة هذه النبوءة في الواقع التاريخي؟

الحقيقة أن النبوءات دخلت في العديد من أحداث التاريخ، ولكن -على حدِّ علمي- في كل هذه الأحداث ليس من دليل يقول بأن هذه النبوءة وُجدت أو قيلت قبل وقوع الأحداث نفسها، ثم جاءت الأحداث تصدق النبوءة.

وهذه النبوءة التي نحن بصددها لا تختلف عن هذا، فليس في كتب التاريخ التي وصلت إلينا ما يُؤَيِّد أنها نبوءة ظهرت قبل وقوع الأحداث، لا سيما وأننا نتحدَّث عن تاريخ مبكِّر جدًّا، في بداية القرن الثاني الهجري، قبل أن تُكتب المصادر التاريخية التي بين أيدينا.

والشاهد في موضوعنا أن عبد الرحمن بن حبيب كان يرجو هو -أيضًا- أن يكون صاحب الأندلس، فهو من أبناء الملوك، وهو صاحب جديلتين؛ ومن ثَمَّ فظهور مَنْ يُنافسه في النبوءة -أيضًا- كان من الخطر الذي لا بُدَّ من التخلُّص منه.

وكان عبد الرحمن بن حبيب قد عرف بخبر النبوءة من خادم يهودي له كان قد خدم مسلمة بن عبد الملك، فأوصل ذلك الخادم لعبد الرحمن بن حبيب نبوءة مسلمة من أن قرشيًّا أمويًّا يملك بلاد المغرب بعد زوال الأمر من المشرق[٢].

---

(١) انظر في أخبار النبوءة: مجهول: أخبار مجموعة ص٥٣، ٥٤، والمقري: نفح الطيب ١/ ٢٣٨، ٣/ ٥٣، والناصري: الاستقصا ١/ ١٧٥.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ١/ ١٥٦.

ولما كثر الهاربون الأمويون الواصلون إلى أرض المغرب، ازدادت خشية عبد الرحمن بن حبيب من تَكَوُّن عصبة أموية في بلاده، فأخذ في طرد الكثير منهم، وقتل اثنين من أبناء الوليد بن يزيد، وتزوَّج غصبًا بأخت إسماعيل بن أبان بن عبد العزيز بن مروان، وأخذ مالاً له، ثم جدَّ في طلب عبد الرحمن بن معاوية[1].

بلغ ذلك عبد الرحمن الداخل الذي ما كان له أن تفوته مثل هذه الأمور، فلما أن طلبه عبد الرحمن بن حبيب كان قد خرج من القيروان إلى تادلا، ومنها إلى مضارب قبيلة نفزة بالمغرب الأقصى، وهم أخواله؛ إذ إن أمَّ عبد الرحمن كانت جارية من نفزة، ولم يكن الوضع هناك بالآمن؛ إذ إن وجود الخوارج في هذه المنطقة -وهم الذين يكرهون الأمويين- كان يجعل مقامه هذا -أيضًا- مقامًا على شفا جرف هارٍ[2].

في الواقع لم يَعُدْ أمام عبد الرحمن بن معاوية إلاَّ بلاد الأندلس، وإذا جرينا وراء النبوءة فيمكننا أن نقول بأن بلاد الأندلس لم تكن فقط وجهته الوحيدة، بل كانت -أيضًا- مطلبه وغايته وهدفه القديم منذ أن سمعه صبيًّا من عم أبيه مسلمة بن عبد الملك.

فعبد الرحمن مطلوب الرأس في أيِّ قُطْرٍ من بلاد المسلمين؛ ففي أقصى الشرق من فارس وما يليها تكمن شوكة العباسيين ومعقلهم الرهيب، وقد كانت فارس في هذه الأثناء تحت حكم الرجل القوي الجبار أبو مسلم الخراساني، الذي لُقِّبَ بحجاج بني العباس، وفي العراق عاصمة العباسيين، وفي الشام ومصر سلطة العباسيين مكينة كذلك، وفي الشمال الإفريقي وبلاد المغرب الإسلامي مطلوب من عبد الرحمن بن حبيب والخوارج.

---

(١) المقري: نفح الطيب ٣/ ٢٩، والناصري: الاستقصا ١/ ١٧٥.
(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٤١، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٨/ ٢٤٤.

هذا من ناحية الأخطار التي يمكن أن تحيط بالفرد العادي إن كان مطلوبًا، فكيف وهو من بني أمية الذين لا يأمن أحد الملوك على ملكه وتحت سلطانه واحد منهم؟! لم يكن يسعه في الحقيقة إلاَّ أن يعيش أميرًا أو ملكًا، وإلاَّ فلن يعيش. بذا قضى قانون الواقع على عبد الرحمن بن معاوية.

كانت الأندلس أصلح البلدان لاستقباله؛ وذلك لأنها:

أولاً: أبعد الأماكن عن العباسيين والخوارج.

وثانيًا: لأن الوضع في الأندلس ملتهب جدًّا؛ وذلك على نحو ما ذكرنا في عهد يوسف بن عبد الرحمن الفهري في نهاية الفترة الثانية من عهد الولاة؛ ففي هذا الجوُّ يستطيع عبد الرحمن بن معاوية أن يدخل هذه البلاد؛ ولو كانت تابعة للخلافة العباسية ما استطاع أن يدخلها، كما أنها لو كانت على فكر الخوارج ما استطاع -أيضًا- أن يدخلها؛ فكانت الأندلس أنسب البلاد له على وُعُورَتها واحتدام الثورات فيها.

عبد الرحمن بن معاوية ودخول الأندلس

في سنة (١٣٦هـ=٧٥٣م) بدأ عبد الرحمن بن معاوية يُعِدُّ العُدَّةَ لدخول الأندلس، فعمل على الآتي:

أولاً: أرسل مولاه بدرًا إلى الأندلس لدراسة الموقف، ومعرفة القوى المؤثِّرة في الحُكم فيها، فلقد كانت الأندلس في تنازع بين اليمنية -وزعيمهم أبو الصباح اليحصبي- والقيسية -وزعيمهم أبو جوشن الصميل بن حاتم- وهم الذين كانوا عمادًا لدولة عبد الرحمن بن يوسف الفهري[1].

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ١١/ ٢٣٩، وسير أعلام النبلاء، ٨/ ٢٤٤، والصفدي: الوافي بالوفيات، ١٨/ ١٦٧.

ثانيًا: راسل كلَّ محبِّي الدولة الأموية في أرض الأندلس بعد أن عَلِمَهم من مولاه بدر[١]، والحقُّ أن كثيرًا من الناس في عهد الدولة الأموية وفي غيرها كانوا يُحِبُّون الأمويين كثيرًا، فمنذ ولاية معاوية بن أبي سفيان ﷺ على الشام في خلافة عمر بن الخطاب ﷺ، وفي خلافة عثمان بن عفان وعلي بن أبي طالب ﷺ، والمسلمون في أقطار الدولة الإسلامية يحبُّون بني أمية حبًّا شديدًا، فقد اشتهر بنو أمية على مَرِّ العصور بالسخاء والسياسة والحكمة، واكتساب ثقة الناس وحُسن معاملتهم، والجهاد في سبيل الله، ونشر الدين، وفتح البلاد، فكان لبني أمية داخل بلاد الأندلس الكثير من المؤيدين، والكثير من المحبين حتى من غير بني أمية من القبائل المختلفة.

ثالثًا: راسل كلَّ الأمويين في الأندلس يعرض عليهم فكرته، وأنه يعزم على دخول الأندلس ويطلب معونتهم ومددهم[٢].

كانت الخطوة المؤثِّرة التي نجح فيها بدر[٣] -مولى عبد الرحمن الداخل- هو وصوله إلى موالي بني أمية في الأندلس، وشيخهم أبو عثمان، ومن خلالهم حاول التحالف مع القيسية، إلاَّ أن الصميل بن حاتم -وقد كان زعيم القيسية الذين كانوا عماد الفهري- عَبَّر بوضوح عن مخاوفه من وجود أمير أموي في البلاد، فوَضْع القيسية حينئذٍ لن يكون كما هو في ظلِّ الفهري الذي يستطيعون أن يأخذوا منه ويَرُدُّوا عليه[٤]. فذهبوا إلى اليمنية فرضوا وتمَّ لهم الأمر.

---

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ١١/ ٢٣٩، وابن كثير: البداية والنهاية، ١٠/ ٨٠.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ١٢٣.

(٣) الحقيقة أن بدرًا مولى عبد الرحمن الداخل من أكثر الشخصيات تأثيرًا في قصة الداخل هذه، وله دور كبير منذ لحظة الهروب من الشام ثم قيامه بالسفارة لعبد الرحمن في أمر من أخطر الأمور؛ مثل: توليه الأندلس وتوثيقه للتحالف، ثم سيصير قائد جيوش عبد الرحمن، ثم سينتهي نهاية مأساوية وغامضة، دون أن يعرف أحد الأسباب الحقيقية مما يثير حيرة المؤرخين، إلى جانب أن المعلومات المعروفة عنه قليلة جدًّا.

(٤) هذا نص كلامه: «إني رويت في الأمر الذي أدرته معكما، فوجدت الفتى الذي دعوتماني إليه من قوم لو بال أحدهم بهذه الجزيرة غرقنا نحن وأنتم في بوله، وهذا رجل نتحكم عليه ونميل على جوانبه ولا يسعنا بدل منه». المقري: نفح الطيب ٣/ ٣٠.

وإذًا، فقد نجح بدر في مهمته، فأرسل رسولاً إلى عبد الرحمن يقول له: إن الوضع أصبح جاهزًا لاستقبالك هناك. وحينما سأله عن اسمه، قال: تمام. قال: وما كنيتك؟ قال: أبو غالب. فقال: الله أكبر! الآن تمَّ أمرنا، وغَلَبْنَا بحول الله تعالى وقوته[١]. وبدأ يُعِدُّ العُدَّةَ، ويجهِّز السفينة التي أخذته منفردًا إلى بلاد الأندلس.

عبد الرحمن الداخل في الأندلس

نزل عبد الرحمن بن معاوية رحمه الله على ساحل الأندلس بمفرده، واستقبله هناك مولاه بدر، وكان يحكم الأندلس في ذلك الوقت يوسف بن عبد الرحمن الفهري، وكالعادة كان في الشمال يقمع ثورةً من الثورات[٢].

وبمجرَّد أن دخل عبد الرحمن بن معاوية الأندلس بدأ يُجمِّع الناس من حوله؛ محبِّي الدولة الأموية، والأمازيغ (البربر)، وبعض القبائل المعارضة ليوسف بن عبد الرحمن الفهري، كما كان قد وصلت إلى الأندلس فلول من الأمويين الهاربين، إلى جانب التحالف المأخوذ مع اليمنية.

كان على رأس اليمنيين في ذلك الوقت أبو الصباح اليحصبي، وكان المقرُّ الرئيس لهم في إِشْبِيلِيَة، وهي المدينة الكبيرة التي كانت تُعَدُّ حاضرة من حواضر الإسلام في ذلك الوقت، فذهب عبد الرحمن بن معاوية بنفسه إلى إِشْبِيلِيَة، واجتمع طويلاً مع أبي الصباح اليحصبي، فبايعه أبو الصباح[٣].

وقبل القتال أرسل عبد الرحمن بن معاوية عدَّة رسائل إلى يوسف بن عبد الرحمن الفهري يطلب وُدَّه، وأن يُسَلِّم له الإمارة، ويكون الفهري رجلاً من رجاله

---

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ٣/ ٣١.
(٢) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص٧٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٤٢، والمقري: نفح الطيب، ٣/ ٣٣.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ١٢٣.

في بلاد الأندلس، بحُكْمِ أنه حفيد هشام بن عبد الملك[١]، لكن يوسف الفهري رفض ذلك، وجهَّز جيشًا وجاء ليحارب عبد الرحمن بن معاوية ومَنْ معه.

موقعة المصارة:

من المؤسف حقًّا أن يلتقي المسلمون بسيوفهم، لكن كثرة الثورات وكثرة الفتن والانقلابات جعلت الحَلَّ العسكري هو الحَلَّ الحتمي في ذلك الوقت؛ ففي (ذي الحجة ١٣٨هـ=مايو ٧٥٦م) وفي موقعة كبيرة عُرِفت في التاريخ باسم موقعة المصارة، دار قتال شرس بين يوسف بن عبد الرحمن الفهري من جهة ومعه القيسية، وعبد الرحمن بن معاوية الذي يعتمد في الأساس على اليمنيين من جهة أخرى[٢].

وقبل القتال كان أبو الصباح اليحصبي (رئيس اليمنيين) قد سمع بعض المقولات من اليمنيين تقول: إن عبد الرحمن بن معاوية غريب عن البلاد، ثم إن معه فرسًا عظيمًا أشهب، فإن حدثت هزيمة فسيهرب من ساحة القتال، ويتركنا وحدنا للفهريين.

وقد وصلت عبدَ الرحمن بن معاوية تلك المقولة، فقام وفي ذكاءٍ شديد يفوق سنَّ الخامسة والعشرين، وذهب بنفسه إلى أبي الصباح اليحصبي، وقال له: إن جوادي هذا سريع الحركة ولا يمكِّنُنِي من الرمي، فإن أردت أن تأخذه وتعطيَني بغلتك فعلت. فأعطاه الجواد السريع وأخذ منه البغلة يُقاتل عليها، وحينئذٍ قال اليمنيون: إن هذا ليس بمسلك رجل يُريد الهرب، إنما هو مسلك مَنْ يُريد الموت في ساحة المعركة[٣].

ودارت معركة قوية، انتصر فيها عبد الرحمن بن معاوية، وفَرَّ يوسف الفهري[٤].

(١) المصدر السابق، ٥/ ١٢٣، والمقري: نفح الطيب، ٣/ ٣٣.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٠، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٤٧.
(٣) مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٢.
(٤) مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٤٧.

عبد الرحمن الداخل وأمارات نجابة وعلم وذكاء

كانت عادة المحاربين أن يَتَّبع الجيشُ المنتصرُ فلول المنهزمين والفارِّين؛ ليقتلهم ويقضي عليهم؛ ومن ثَمَّ يقضي على ثورتهم، وحين بدأ اليمنيون يُجَهِّزون أنفسَهم ليَتَتَبَّعوا جيش يوسف الفهري منعهم عبد الرحمن بن معاوية، وقال لهم قولةً ظلَّت تتردَّدُ في أصداء التاريخ، أمارةً على علمه ونبوغه، وفهمٍ صحيح، وفكرٍ صائب في تقدير الأمور؛ قال لهم: «لا تستأصلوا شأفةَ أعداءٍ ترجون صداقتهم، واستبقوهم لأشدّ عداوة منهم»[(١)].

يُريد رحمه الله أن هؤلاء الذين يقاتلوننا اليوم سيُصبحون غدًا من جنودنا؛ ومن ثَمَّ عونًا على أعدائنا من النصارى وغيرهم في ليون وفرنسا وغيرها، فهكذا رحمه الله كان ذا نظرة واسعة جدًّا تشمل كل بلاد الأندلس، بل تشمل كل أوربا، بل إني أراه بذلك التفكير يستطيع أن يُعِيد مُلك الشام بعد ذلك -أيضًا- إلى أملاك الأمويين؛ وذلك لما يلي:

أولاً: ليس في قلبه غلٌّ ولا حقدٌ على مَنْ كان حريصًا على قتله منذ سويعاتٍ قلائل.

ثانيًا: الفهم العميق للعدوِّ الحقيقي وهو النصارى في الشمال.

ثالثًا: رغم كونه لم يتجاوز الخامسة والعشرين إلاَّ أنه كان يمتلك فهمًا واعيًا، وإدراكًا صحيحًا، وفقهًا وعلمًا وسعة اطلاع، عَلِمَ به أنه إن جاز له أن يُقَاتِلهم لتوحيد البلاد تحت راية واحدة، فهو في الوقت ذاته لا يجوز له شرعًا أن يتتبعهم، أو أن يقتل الفارِّين منهم، ولا أن يُجْهِزَ على جريحهم، ولا أن يقتل أسيرهم؛ لأن حكمهم حكم الباغين في الإسلام وليس حكمَ المشركين، وحكم الباغي في الإسلام

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٣/ ٤٢.

أنه لا يُتَتَبَّع الفارُّ منهم، ولا يُقتَلُ أسيرُه، ولا يُجهَزُ على جريحه، بل ولا تُؤخَذ منه الغنائم[١].

وكانت الهزيمة بالغة، حتى إن عبد الرحمن الداخل لم يجد أحدًا في طريقه إلى قصر الحكم في قُرْطُبَة، وسيطر جنوده على ما في يد جنود يوسف من الأسلحة والمتاع وما إلى ذلك، إلاَّ أن بعض الناس حاول انتهاب قصر يوسف الفهري نفسه وسبي أولاده وحريمه، فسارع وطرد الناس، وكسا من عَرِي من أولاد يوسف، وردَّ ما قدر على ردِّه، وهنا غضبت اليمنية وساءهم ذلك حين لم يستطيعوا أن ينتقموا من يوسف في أولاده ونسائه، وداخلهم أن عبد الرحمن الداخل تعصب لنسبه المضري[٢].

وأقام ابن معاوية بظاهر قُرْطُبَة ثلاثة أيام، حتى يترك الفرصة لأهل يوسف الفهري أن يجمعوا أمرهم وأن يخرجوا بأمان، فكان هذا بداية عفافه وحسن سيرته في الأندلس[٣].

بين عبد الرحمن الداخل وأبي الصباح اليحصبي:

ومن المفارقات أنه بعد انتهاء موقعة المصارة وحين لم يرضَ عبد الرحمن بانتهاب قصر يوسف الفهري ولا سبي أولاده، غضب أبو الصباح اليحصبي زعيم اليمنية، وفكر في أن ينقلب على عبد الرحمن بن معاوية نفسه، وكان مما قال: «يا معشر يمن؛ هل لكم إلى فتحين في يوم، قد فرغنا من يوسف وصميل، فلنقتل هذا الفتى المقدام ابن معاوية؛ فيصير الأمر لنا، نقدِّم عليه رجلاً منا، ونحل عنه هذه

---

(١) انظر: القاضي أبو يعلى الفراء: الأحكام السلطانية، ص٥٥، ويوسف القرضاوي: فقه الجهاد، ص١٠١١، وسعود بن عبد العالي البارودي العتيبي: الموسوعة الجنائية الإسلامية ص١٨٣.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٣، ٨٤.

(٣) المقري: نفح الطيب ٣/ ٣٤.

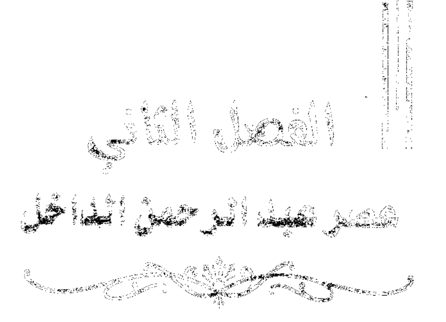
المضرية». فلم يجبه أحد لذلك[1].

ووصلت هذه الأنباء إلى عبد الرحمن بن معاوية، فما كان منه إلاَّ أن أسرَّها في نفسه، ولم يُبْدِها لهم، ولم يُعلِمْهم أنه يعلم ما يُضْمِرُونه له؛ لكنه أصبح على حذرٍ شديدٍ من أبي الصباح اليحصبي[2].

لم يُرِدْ عبد الرحمن بن معاوية أن يُحدث خللاً في الصفِّ المسلم في هذه الأوقات، ولم يُرِدْ أن يُحْدِثَ خللاً بين الأمويين ومحبِّي الدولة الأموية وبين اليمنيين، في ذلك الوقت المليء بالثورات والمعارك الداخلية؛ إنما كان كلُّ همِّه هو تجميع الناس ثم حرب النصارى بعد ذلك، وبالفعل وبعد إحدى عشرة سنة من هذه الأحداث عزل عبدُ الرحمنِ أبا الصباح اليحصبي عن مكانه، واستطاع أن يمتلك زمام الأمور كلها في الأندلس[3].

***

(١) مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٣، ٨٤، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٣٤.
(٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص٨٣، ٨٤، والمقري: نفح الطيب ٣/ ٣٤.
(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٣.



الفصل الثاني
عصر عبد الرحمن الداخل

بعد انتصار عبد الرحمن بن معاوية في موقعة المصارة ودخوله قُرْطُبَة عاصمة الأندلس في ذلك الوقت، لُقِّب عبدُ الرحمن بن معاوية بعبد الرحمن الداخل؛ لأنه أول من دخل من بني أمية قُرْطُبَة حاكمًا[١]، فكان له الكثير من الأيادي البيضاء على الإسلام في بلاد الأندلس، وعُرِفت الفترة التي تلت دخوله قُرْطُبَة بفترة الإمارة الأموية، وتبدأ من سنة (١٣٨هـ=٧٥٥م) وتنتهي سنة (٣١٦هـ=٩٢٨م)، وسُمِّيت (إمارة) لأنها أصبحت منفصلة عن الخلافة الإسلامية؛ سواء كانت في عصر الخلافة العباسية أو ما تلاها بعد ذلك من العصور إلى آخر عهود الأندلس.

وبدأ عبد الرحمن الداخل بعد ذلك يُنَظِّم أمور الأندلس، وكانت هناك ثورات في كل مكان من أرض الأندلس، وَرِثَ بعضها وبعضها الآخر ثار عليه، وبصبر شديد وأناة عجيبة، أخذ عبد الرحمن الداخل يُرَوِّض هذه الثورات الواحدة تلو الأخرى، وتعامل مع كلٍّ منها بما يتوافق معها؛ فاستمال مَنِ استطاع من الثائرين، وحارب الباقين.

ففي فترة حُكمه -التي امتدَّت أربعة وثلاثين عامًا متصلة من سنة (١٣٨هـ=٧٥٥م) وحتى سنة (١٧٢هـ=٧٨٨م)[٢]- قامت عليه أكثر من خمس وعشرين ثورة، وهو يقمعها بنجاح عجيبٍ الواحدة تلو الأخرى، ثم ترك البلاد

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٢٢، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٢٩.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ص٤١، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٣٣.

وهي في فترة من أقوى فترات الأندلس في التاريخ بصفة عامة.

مجمل الثورات التي قامت ضد عبد الرحمن الداخل:

تَعَرَّضَتِ الدولة الأموية في الأندلس في عهد عبد الرحمن الداخل لعدد كبير من الثورات، تزيد على خمس وعشرين ثورة تغلَّب عليها جميعًا؛ ومن هذه الثورات:

ثورة القاسم بن يوسف بن عبد الرحمن الفهري ورزق بن النعمان الغساني، وثورة يوسف بن عبد الرحمن الفهري سنة (١٤٣هـ=٧٦٠م) [١]، وثورة هشام بن عروة الفهري سنة (١٤٤هـ=٧٦١م) [٢]، وثورات أخرى تتابعت عليه من سنة (١٤٤هـ) إلى سنة (١٤٦هـ)، وثورة العلاء بن مغيث اليحصبي سنة (١٤٦هـ=٧٦٣م) [٣]، وثورة سعيد اليحصبي اليماني سنة (١٤٩هـ=٧٦٦م) [٤]، وثورة أبي الصباح حيٍّ بن يحيى اليحصبي سنة (١٤٩هـ=٧٦٦م) [٥]، وثورة البربر في الأندلس بزعامة شقيا بن عبد الواحد المكناسي سنة (١٥١هـ=٧٦٨م) [٦]، وثورة اليمانية في إِشْبِيلِيَة بزعامة عبد الغافر اليحصبي وحيوة بن ملامس الحضرمي سنة (١٥٦هـ=٧٧٣م) [٧]، وثورة سليمان بن يقظان في بَرْشُلُونَة سنة (١٥٧هـ=٧٧٤م)[٨]، وثورة عبد الرحمن بن حبيب الفهري سنة (١٦١هـ=٧٧٧م) [٩]، وثورة

(١) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٢، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ١٣٦.

(٢) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٥، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٣.

(٣) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥١.

(٤) مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٦، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ١٧٨، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٣، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٢٢.

(٥) مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٦، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٣.

(٦) مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٧، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٤، والمقري: نفح الطيب، ٣/ ٤٨.

(٧) مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٨، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٥، والمقري: نفح الطيب، ٣/ ٤٨.

(٨) مجهول: أخبار مجموعة، ص١٠٢، والمقري: نفح الطيب، ٣/ ٤٨.

(٩) مجهول: أخبار مجموعة، ص١٠٠، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٦.

الحسين بن يحيى الأنصاري سنة (١٦٦هـ=٧٨٢م)[١]، وثورة محمد بن يوسف الفهري سنة (١٦٨هـ=٧٨٤م)[٢]، وثورات أخرى كثيرة قامت ضده، ولكنه ما لبث أن أخمدها كلها وقضى عليها.

صقر قريش وثورة العباسيين :

ولن نقف إلاَّ أمام ثورة واحدة فقط من هذه الثورات الخمس والعشرين؛ وذلك لأهميتها الشديدة في فهم هذا الانفصال الذي حدث للأندلس عن الخلافة العباسية، وهذه الثورة حدثت في سنة (١٤٦هـ=٧٦٣م)؛ أي: بعد حوالي ثمان سنوات من تولِّي عبد الرحمن الداخل حكم الأندلس، وقام بها رجل يُدعى العلاء بن مغيث الحضرمي[٣].

وكان أبو جعفر المنصور الخليفة العباسي الثاني، والمؤسس الحقيقي للخلافة العباسية بعد أبي العباس السفاح، قد رَاسَلَ العلاء بن مغيث الحضرمي ليقتل عبد الرحمن بن معاوية؛ ومن ثَمَّ يضمُّ الأندلس إلى أملاك الخلافة العباسية[٤].

وهذا يُعَدُّ أمرًا طبيعيًّا بالنسبة لأبي جعفر المنصور؛ إذ يُريد ضمَّ بلاد الأندلس - وهو البلد الوحيد المنشقُّ من بلاد المسلمين- إلى حظيرة الخلافة العباسية الكبيرة، فجاء العلاء بن مغيث الحضرمي من بلاد المغرب العربي وعبر إلى بلاد الأندلس، ثم قام بثورة يدعو فيها للعباسيين، ويرفع الراية السوداء التي أرسلها له الخليفة أبو جعفر المنصور[٥].

---

(١) مجهول: أخبار مجموعة، ص١٠٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٦، والمقري: نفح الطيب، ٣/ ٤٨.

(٢) مجهول: أخبار مجموعة، ص١٠٥، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٧.

(٣) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥١.

(٤) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٢٢، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٣٢، ٣/ ٣٦.

(٥) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص٩٣، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٢.

ولم يتوانَ عبد الرحمن الداخل عن محاربته، فقامت لذلك حرب كبيرة بين العلاء بن مغيث الحضرمي وعبد الرحمن الداخل، وانتصر عبد الرحمن الداخل كعادته في قمع الثورات، ووصلت الأنباء إلى أبي جعفر المنصور -وكان في الحجِّ- بأن عبد الرحمن الداخل قد هزم جيش العلاء الحضرمي هزيمة منكرة، وأن العلاء بن مغيث الحضرمي قد قُتِل.

وهنا قال أبو جعفر المنصور: قَتَلْنَا هذا البائس. يعني العلاء بن مغيث الحضرمي؛ يُريد أنه قتله بتكليفه إيَّاه بحرب عبد الرحمن الداخل، ثم قال: ما لنا في هذا الفتى من مطمع، (يعني: عبد الرحمن الداخل)، الحمدُ لله الذي جعل بيننا وبينه البحر[١].

وكفَّ أبو جعفر من ساعتها عن التفكير في استعادة بلاد الأندلس، بل إنَّ أبا جعفر المنصور الخليفة العباسي هو الذي سمَّى عبد الرحمن الداخل بصقر قريش، وهو اللقب الذي اشتُهِرَ به بعد ذلك.

فقد ذُكِرَ أن أبا جعفر المنصور قال يومًا لبعض جلسائه: أخبروني: مَنْ صقر قريش من الملوك؟ قالوا: ذاك أمير المؤمنين الذي راضَ الملوك، وسكَّن الزلازل، وأباد الأعداء، وحسم الأدواء.

قال: ما قلتم شيئًا!

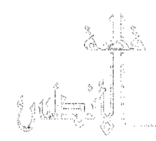
قالوا: فمعاوية؟ قال: لا.

قالوا: فعبد الملك بن مروان؟ قال: ما قلتم شيئًا.

قالوا: يا أمير المؤمنين؛ فمَنْ هو؟

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٢، والمقري، نفح الطيب، ٣/ ٣٦.



قال: صقر قريش عبد الرحمن بن معاوية، الذي عبر البحر، وقطع القفر، ودخل بلدًا أعجميًّا، منفردًا بنفسه؛ فمصَّر الأمصار، وجنَّد الأجناد، ودوَّن الدواوين، وأقام ملكًا عظيمًا بعد انقطاعه، بحسن تدبيره، وشدَّة شكيمته، إنَّ معاوية نهض بمركب حمله عليه عمر وعثمان، وذلَّلا له صعبه؛ وعبدُ الملك ببيعة أُبْرِمَ عقدها؛ وأمير المؤمنين بطلب عِتْرَته، واجتماع شيعته، وعبد الرحمن منفردٌ بنفسه، مؤيَّدٌ برأيه، مستصحبٌ لعزمه، وطَّد الخلافة بالأندلس، وافتتح الثغور، وقتل المارقين، وأذلَّ الجبابرة الثائرين.

فقال الجميع: صدقتَ والله! يا أمير المؤمنين[1].

وهكذا كان أبو جعفر المنصور العباسي معجبًا جدًّا بعبد الرحمن الداخل، وهو ما يمكن أن نُسَمِّيَه إعجاب اضطرار، أو هو إعجاب فرض نفسه عليه.

عبد الرحمن بن معاوية والخلافة العباسية:

تُثير قضية هذا الانفصال الطويل الذي دام بين الأندلس وبين الخلافة العباسية على مرِّ العصور عدَّة تساؤلات في نفوس جميع المسلمين؛ فلماذا ينفصل عبد الرحمن الداخل -الرجل الورع التقيُّ الذي أقام دولة قوية في بلاد الأندلس- بالكلية عن الخلافة العباسية؟!

ووقفة عادلة مع هذا الحدث وتحليله واستجلاء غوامضه نستطيع القول بأن الدولة العباسية قد أخطأت خطأً فاحشًا بحقِّ الأمويين؛ وذلك بقتلهم وتَتَبُّعهم في البلاد بهذه الصورة الوحشية، فإذا كان الأمويون في آخر عهدهم قد فسدوا واستحقُّوا الاستبدال فليكن تغييرُهم، وَلْيَكُن هذا الاستبدال، ولكن على نهج رسول الله ﷺ، بلا قتل وسفك للدماء ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

(١) انظر: أخبار مجموعة، ص١٠٧، وما بعدها، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٩.

كان من المفترض على الدولة العباسية القائمة على أنقاض الأمويين أن تحتوي هذه الطاقات الأموية، وتعمل على توظيفها لخدمة الإسلام والمسلمين، بدلاً من إجبارهم على خلق جيب من الجيوب في صُقْع بعيد من أصقاع البلاد الإسلامية في الأندلس أو في غيرها من بلاد المسلمين.

فهذا عبد الرحمن الداخل الذي نتحدَّث عنه يصيح في اليمنيين بعد موقعة المصارة، ويقول لهم حين أرادوا أن يَتَتَبَّعُوا الفارِّين من جيش يوسف بن عبد الرحمن الفهري: لا تستأصلوا شأفة أعداء ترجون صداقتهم[١]. ليضمَّهم إلى جيشه بعد ذلك، فهكذا كان يجب على العباسيين أن يفعلوا، ويتركوا الأمويين يدخلون تحت عباءتهم؛ حتى يستطيعوا أن يكونوا لهم جندًا وعونًا لا نِدًّا ومنافسًا، كما رأينا النتيجة بأعيننا.

وهذا -أيضًا- المثلُ الأعلى والقدوةُ الحسنة رسولُ الله ﷺ ماذا فعل بعد أن دخل مكة، وكان أهلها قد آذوه هو وأصحابه وطردوهم منها؟! وماذا قال عن أبي سفيان وهو مَنْ هو قبل ذلك؟! ما كان منه ﷺ إلاَّ أن دخل متواضعًا، وقال: «مَنْ دَخَلَ دَارَ أَبِي سُفْيَانَ فَهُوَ آمِنٌ»[٢]. أليس أبو سفيان هذا هو زعيم الكفر وزعيم المشركين في أُحُدٍ والأحزاب؟! فلماذا إذًا يقول عنه ﷺ مثل هذا؟! إنما كان يُريد ﷺ أن يخطب وُدَّه، ويضمَّه إلى صفِّه، وبالمثل فعل ﷺ مع رءوس الكفر في مكة حين قال لهم: «مَا تَظُنُّونَ أَنِّي فَاعِلٌ بِكُمْ؟» فقالوا: خيرًا، أَخٌ كريمٌ وابنُ أَخٍ كريم. فرَدَّ عليهم ﷺ بمقولته التي وعاها التاريخ: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[٣].

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٣/ ٤٢.

(٢) مسلم: كتاب الجهاد والسير، باب فتح مكة (١٧٨٠) عن أبي هريرة، وأبو داود (٣٠٢١)، وأحمد (٧٩٠٩)، وابن حبان (٤٧٦٠).

(٣) ابن هشام: السيرة النبوية، ٢/ ٤١١، والطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٥٥، وابن كثير: البداية والنهاية، ٤/ ٣٠١.

وليس هذا من كرم الأخلاق فحسب، لكنه -أيضًا- من فنِّ معاملة الأعداء، وحُسْنِ السياسة والإدارة، فَلْنتخيَّلْ ماذا سيكون الموقف لو أن الرسول ﷺ أقام الحَدَّ وقطع رءوس هؤلاء الذين حاربوا دين الله سنواتٍ وسنواتٍ؟! بلا شكٍّ كان سيُحدِث جيبًا من الجيوب داخل مكة، وكان أهل مكة سينتهزون الفرصة تلو الأخرى للانقلاب على رسول الله ﷺ، وللانفصال عن الدولة الإسلامية.

لكن العجب العُجَاب كان في نتيجة ذلك بعد وفاته ﷺ، فقد ارتدَّت جزيرة العرب جميعها، ولم يبقَ على الإسلام منها إلاَّ المدينة ومكة والطائف، وقرية صغيرة تُسَمَّى هجر، ثلاث مدن وقرية واحدة فقط؛ أي أن مكة التي لم تدخل في الإسلام إلاَّ قبل وفاة الرسول ﷺ بثلاث سنوات فقط كانت في تعداد هذه المدن القليلة التي ثبتت على الإسلام ولم ترتدّ، وبلا شكٍّ فهو أثر فعل رسول الله ﷺ الذي لم يَنْسَوْه، فكان أن استُوعِبوا في داخل الدولة الإسلامية، وثبتوا وقت الزَّيْغ.

وكان هذا ما سيتكرَّر لو فعل العباسيون مثله واستوعبوا الأُمَوِيين في داخل الدولة العباسية؛ ولأنهم لم يفعلوا ذلك فكان أن اضْطُرَّ مَنْ نجا من الأمويين للذهاب إلى هذه البلاد والانشقاق بها عن دولة المسلمين.

وواقع الأمر يقول: إنه لو كان عبد الرحمن بن معاوية يضمن أن العلاء بن مغيث الحضرمي سوف يَعفو عنه ويُعطيه إمارة الأندلس، أو أي إمارة أخرى من إمارات الدولة العباسية إذا سَلَّم الأمرَ إليه فلربما كان يفعل، لكنه كان يعلم أنه لو قبض عليه لقتله في الحال هو ومَنْ معه من الأمويين إن كانوا مرشَّحين للخلافة، وهذا بالطبع ما دفعه لأن يبقى على عهده من الجهاد ضد الدولة العباسية، وهو أمر مؤلم جدًّا، وحلقة مفرغة دخل فيها المسلمون نتيجة العنف الشديد من قِبَلِ الدولة العباسية في بدء عهدها، ولا شكَّ أن الدولة العباسية قد غيَّرت كثيرًا من نهجها الذي اتَّبَعَتْهُ أولاً، وتولَّى بعد ذلك رجالٌ كثيرون حافظوا على النهج الإسلامي، بل

إن أبا جعفر المنصور نفسه في آخر عهده كان قد غيَّر ما بدأه تمامًا، لكن كانت هناك قسوة شديدة في البَدْء؛ بهدف أن يستتبَّ لهم الأمر في البلاد، فمَنْ يحاول الالتفاف على منهج رسول الله ﷺ فستكون العاقبة دائمًا هي الخسران، وهكذا كان فقْدُ المسلمين لأرواحٍ طاهرةٍ ودماءٍ كثيرةٍ غزيرة وطاقاتٍ متعددةٍ، بل فقدوا الأندلس فلم تَعُدْ مددًا للمسلمين طيلة عهدها؛ فالعنف في غير محلِّه لا يُورِثُ إلاَّ عنفًا، وطريق الدماء لا يُورث إلاَّ الدماء، والسبل كثيرة، ولكن ليس إلاَّ من سبيل واحد فقط؛ إنه الطريق المستقيم طريق الله ﷻ: ﴿وَأَنَّ هَـٰذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَٰلِكُمْ وَصَّاكُم بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

وقفة مع عبد الرحمن الداخل في قضائه على الثائرين

ذكرنا -فيما سبق- أنه في خلال الأربع والثلاثين سنةً الممتدَّة من بداية حكم عبد الرحمن الداخل وحتى نهايته كان هناك أكثر من خمس وعشرين ثورةً في كل أنحاء الأندلس، وذكرنا -أيضًا- كيف روَّض بعضها وقمع غيرها بنجاح الواحدة تلو الأخرى، والتي كان من أهمِّها ثورة العباسيين التي قام بها العلاء بن مغيث الحضرمي، وكيف تَمَّ القضاء عليها.

وهنا يحق لنا أن نتساءل: هل يجوز لعبد الرحمن الداخل أن يُقاتِل الثائرين وإن كانوا من المسلمين؟!

وحقيقة الأمر أن موقفه هذا في قتال الثائرين داخل أرض الأندلس لا غبار عليه؛ لأن الجميع كانوا قد اتفقوا عليه أميرًا للبلاد، وقد جاء عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَنْ أَتَاكُمْ وَأَمْرُكُمْ جَمِيعٌ (أي: مجتمع) عَلَى رَجُلٍ وَاحِدٍ فَأَرَادَ أَنْ يَشُقَّ عَصَاكُمْ، أَوْ يُفَرِّقَ جَمَاعَتَكُمْ فَاقْتُلُوهُ»[1].

---

(١) مسلم: كتاب الإمارة، باب حكم من فرق أمر المسلمين وهو مجتمع (١٨٥٢) عن عرفجة بن شريح.

ومن هنا فقد كان موقف عبد الرحمن الداخل صارمًا مع الثوار؛ وذلك لقمع الانقلابات المتكرِّرَة، والتي تُضعِف من جانب الأمن والاستقرار في البلاد، إلاَّ أنه من الإنصاف أن نذكر أنه رَحِمَهُ اللهُ كان دائمًا ما يبدأ بالاستمالة والسلم وعرض المصالحة، ويكره الحرب إلاَّ إذا كان مضطرًا.

وبلا شكٍّ فإن ثمن هذه الثورات كان غاليًا جدًّا؛ ففي السنوات الأربع من بداية دخول عبد الرحمن بن معاوية إلى الأندلس (١٣٨-١٤٢هـ=٧٥٥-٧٥٩م) سقطت كل مدن المسلمين التي كانت في فرنسا، وذلك بعد أن حكمها الإسلام طيلة سبعٍ وأربعين سنةً متصلة، منذ أيام موسى بن نصير رَحِمَهُ اللهُ وحتى زمن سقوطها هذا، وهكذا سُنن الله الثوابت، فما أن شُغِل المسلمون بأنفسهم إلاَّ وكان التقلُّص والهزيمة أمرًا حتميًّا.

عبد الرحمن الداخل وبناء دولته الجديدة:

حين استتبَّ الأمر لعبد الرحمن الداخل في أرض الأندلس، وبعد أن انتهى نسبيًّا من أمر الثورات بدأ يُفكِّر فيما بعد ذلك، فكان أن اهتمَّ بالأمور الداخلية للبلاد اهتمامًا كبيرًا؛ فقام بما يأتي:

أولاً: بدأ بإنشاء جيش قوي:

وفي بنائه لجيشه الجديد عمل على ما يلي:

١) اعتمد في تكوين جيشه على العناصر التالية:

أ - اعتمد في الأساس على عنصر المولَّدين، وهم الذين نَشَئُوا نتيجة انصهار وانخراط الفاتحين بالسكان الأصليين من أهل الأندلس.

ب - اعتمد كذلك على كل الفصائل والقبائل الموجودة في بلاد الأندلس، فضمَّ إليه كل الفصائل المُضَرِيَّة؛ سواء كانت من بني أمية أو من غير بني

أمية، إلاَّ أنه بعد ثورة اليمانية لمقتل أبي الصباح اليحصبي[1] صار لا يطمئن إلى العرب، فأكثر مِنَ اتخاذ المماليك من غير العرب لا سيما البربر، حتى صار له منهم أربعون ألفًا، وبهم استقرَّ ملكه[2].

ج - كذلك اعتمد على عنصر الصقالبة[3]؛ وهم أطفالٌ نصارى كان قد اشتراهم عبد الرحمن الداخل من أوربا، ثم قام بتربيتهم وتنشئتهم تنشئةً إسلامية عسكرية صحيحة.

وبرغم قدوم عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس وحيدًا، فقد وصل تعداد الجيش الإسلامي في عهده إلى مائة ألف فارسٍ[4] غير الرجَّالة، مشكَّلاً من كل هذه العناصر السابقة، والتي ظلَّت عمادَ الجيش الإسلامي في الأندلس لدى أتباع وخلفاء وأمراء بني أمية من بعده.

٢) أنشأ رحمه الله دُورًا للأسلحة؛ فأنشأ مصانع السيوف ومصانع المنجنيق، وكان من أشهر هذه المصانع مصانع طُلَيْطلَة ومصانع برديل.

٣) أنشأ -أيضًا- أسطولاً بحريًّا قويًّا، بالإضافة إلى إنشاء أكثر من ميناء؛ كان منها ميناء طُرْطُوشة وأَلَمِرِيَّة وإِشْبِيلِيَة وبَرْشُلُونَة وغيرها من الموانى

٤) كان رحمه الله يُقَسِّم ميزانية الدولة السنوية إلى ثلاثة أقسام: قسم يُنفقه بكامله على الجيش، والقسم الثاني لأمور الدولة العامَّة من مؤنٍ ومعمارٍ ومرتباتٍ ومشاريعَ وغير ذلك، والقسم الأخير كان يدَّخره لنوائب الزمان غير المتوقَّعة.

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٣.
(٢) المقري: نفح الطيب، ٣/ ٣٦.
(٣) المصدر السابق، ٣/ ٣٦.
(٤) المصدر السابق، ٣/ ٤٩.

ثانيًا: أَوْلَى العلمَ والجانبَ الدينيَّ اهتمامًا بالغًا:

أعطى عبد الرحمن الداخل العلم والجانب الديني المكانة اللائقة بهما؛ فعمل على الآتي:

- نَشْر العلم وتوقير العلماء.
- اهتمَّ بالقضاء والحسبة.
- اهتمَّ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.
- كان من أعظم أعماله في الناحية الدينية بناء مسجد قُرْطُبَة الكبير، والذي أنفق على بنائه ثمانين ألفًا من الدنانير الذهبية، وقد تنافس الخلفاء من بعده على زيادة حجمه؛ حتى تعاقب على اكتماله في شكله الأخير ثمانية من خلفاء بني أميَّة[1].

وكان من العلماء في أيامه معاوية بن صالح بن حدير بن سعيد الحضرمي، وكان من جِلَّة أهل العلم ومن كبار المحدِّثين، وقد أخذ عنه جملة من الأئمة؛ منهم: سفيان الثوري، وابن عيينة، والليث بن سعد، ويُذْكَر أن مالك بن أنس قد روى عنه حديثًا، وكان عبد الرحمن الداخل قد ولاَّه القضاء[2].

وكان من علماء الأندلس في عهده -أيضًا- سعيد بن أبي هند، والذي لَقَّبه الإمام مالك بن أنس رحمه الله بالحكيم؛ لِمَا عُرِفَ عنه من رجاحة عقله، وقد توفي أيام الداخل[3].

ثالثًا: العناية الكبيرة بالجانب الحضاري (المادي):

ويبرز ذلك في الجوانب التالية:

- اهتمامه الكبير بالإنشاء والتعمير، وتشييد الحصون والقلاع والقناطر، وربطه أول الأندلس بآخرها.

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٢٩، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٥٤٥.

(٢) أبو الحسن النبهاني: تاريخ قضاة الأندلس، ١/ ٤٣.

(٣) أبو الوليد الأزدي: تاريخ العلماء بالأندلس، ١/ ١٩١.

- إنشاؤه الرُّصَافة، وهي من أكبر الحدائق في الإسلام، وقد أنشأها على غِرار الرصافة التي كانت بالشام، والتي أسَّسها جدُّه هشام بن عبد الملك رحمه الله، وقد أتى لها عبد الرحمن بالنباتات العجيبة من كل بلاد العالم، فإذا نجحت زراعتها في الرصافة فإنها تنتشر في الأندلس كلها[١].

رابعًا: حماية حدود دولته من أطماع الأعداء:

بالإضافة إلى إعداده جيشًا قويًا -كما أوضحنا سابقًا- وتأمينًا لحدود دولته الجديدة قام عبد الرحمن الداخل بخوض مرحلتين مهمتين:

المرحلة الأولى: كان عبد الرحمن الداخل يعلم أن الخطر الحقيقي إنما يكمن في دولتي (ليون) في الشمال الغربي، و(فرنسا) في الشمال الشرقي من بلاد الأندلس، فقام بتنظيم الثغور في الشمال، ووضع جيوشًا ثابتةً على هذه الثغور المقابلة لهذه البلاد النصرانية، وهي:

- الثغر الأعلى؛ وهو ثغر سَرَقُسْطَة في الشمال الشرقي في مواجهة فرنسا.
- الثغر الأوسط؛ ويبدأ من مدينة سالم ويمتدُّ حتى طُلَيْطلَة.
- الثغر الأدنى؛ وهو في الشمال الغربي في مواجهة مملكة ليون النصرانية.

المرحلة الثانية: كان رحمه الله قد تعلَّم من آبائه وأجداده عادة عظيمة، وهي عادة الجهاد المستمرِّ وبصورة منتظمة كل عام، فقد اشتُهِرَت الصوائفُ في عهده؛ حيث كان المسلمون يخرجون للجهاد في الصيف وبصورة منتظمة؛ وذلك حين يذوب الجليد، وكان يتناوب عليهم فيها كبار قوَّاد الجيش، بهدف الإرباك الدائم للعدوِّ، وهو ما يُسمُّونه الآن في العلوم العسكرية بالهجوم الإجهاضي المسبق.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٢٨٠، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٦٧.

لولا عبد الرحمن الداخل لانتهى الإسلام من الأندلس بالكلية، هكذا قال المؤرِّخون عن عبد الرحمن الداخل، وإنَّا لتعلونا الدهشة ويتملَّكنا العجب حين نعلم أن عمره حينذاك لم يتجاوز الخامسة والعشرين عامًا، أي في سنِّ خريج الجامعة في عصرنا.

مَلَكٌ من السماء، أم ماذا هو؟! لن نذهب بعيدًا، وسنترك الحديث عنه إلى ابن حيَّان الأندلسي، الذي يقول مُستَعرِضًا بعضًا من صفات عبد الرحمن الداخل:

«كان عبد الرحمن راجح الحلم، راسخ العلم، ثاقب الفهم، كثير الحزم، نافذ العزم، بريئًا من العجز، سريع النهضة، متصل الحركة، لا يخلد إلى راحة، ولا يسكن إلى دَعَة، ولا يَكِلُ الأمور إلى غيره، ثم لا ينفرد في إبرامها برأيه، شجاعًا مقدامًا، بعيد الْغَوْرِ، شديد الحدَّة، قليل الطمأنينة، بليغًا مفوَّهًا، شاعرًا محسنًا، سمحًا سخيًّا، طلق اللسان، وكان يلبس البياض ويعتمُّ به ويُؤْثِره، وكان قد أُعْطِيَ هيبة من وَلِيِّه وعدوِّه، وكان يحضر الجنائز، ويُصَلِّي عليها، ويُصَلِّي بالناس إذا كان حاضرًا الجُمَع والأعياد، ويخطب على المنبر، ويعود المرضى»[1].

شخصية تُشخِص الأبصار وتَبْهَر العقول، فمع رجاحة عقله وسعة علمه كان لا ينفرد برأيه، فإذا اجتمعت الشورى على رأي كان نافذ العزم في تطبيقه رحمه الله، ومع شدَّته وحزمه وجهاده وقوَّته كان رحمه الله شاعرًا محسنًا رقيقًا مُرهَف المشاعر.

ومع هيبته عند أعدائه وأوليائه إلاَّ أنه كان يتبسَّط مع الرعية، ويعود مرضاهم، ويشهد جنائزهم، ويُصَلِّي بهم ومعهم، ومع كونه شديد الحذر قليل الطمأنينة، لم يمنعه ذلك من معاملة الناس والاختلاط بهم دون حرَّاس، حتى خاطبه المقرَّبُون في

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٣/ ٣٧.

ذلك وأشاروا عليه ألاَّ يخرج في أوساط الناس حتى لا يتبسَّطوا معه[١].

ونستطيع أن نفهم شخصيته بصورة أوضح حين نعلم كيف كان في معاملته للناس، فقد جاء أن أحد الناس طلب منه حاجةً أمام أعين الحاضرين، فقضاها له، ثم قال له: «إذا أَلَمّ بك خطب أو حزبك أمرٌ فارفعه إلينا في رقعة، لا تعدوك كيما نستر عليك خلتك، ونكف شمات العدوِّ عنك بعد رفعك لها إلى مالكك ومالكنا - عزَّ وجهه- بإخلاص الدعاء وصدق النية»[٢].

إنها لَتربية ربَّانية لشعبه؛ فهو يُريد رحمه الله أن يربط الناس بخالقهم، يُريد أن يُعَلِّمهم أن يرفعوا حاجتهم إليه عز وجل أولاً، يُريد أن يُعَلِّمهم أنه عز وجل يملكه ويملكهم جميعًا، ثم مراعاةً لعواطف النفس الداخلية، وحفظًا لماء وجه الرعية عند السؤال قال له: فارفع إلينا حاجتك في رقعة كي نستر عليك ولا يشمت أحدٌ فيك.

وها هو ذا رحمه الله لما انتصر على ثائر سرقسطة الحسين الأنصاري، «أقبل خواصُّه يُهَنِّئُونه، فجرى بينهم أحدُ مَنْ لا يُؤْبَهُ به من الجند، فهنَّأه بصوت عال. فقال: والله! لولا أن هذا اليوم يوم أسبغ عليَّ فيه النعمة مَنْ هو فوقي فأوجب عليَّ ذلك أن أُنْعِمَ فيه على مَنْ هو دوني لأصلينك ما تعرضت له من سوء النكال، مَنْ تكون حتى تُقبل مهنِّئًا رافعًا صوتك غير متلجلج ولا متهيب لمكان الإمارة، ولا عارف بقيمتها، حتى كأنك تخاطب أباك أو أخاك؟! وإن جهلك ليحملك على العود لمثلها، فلا تجد مثل هذا الشافع في مثلها من عقوبة. فقال: ولعلَّ فتوحات الأمير يقترن اتصالها باتصال جهلي وذنوبي، فتشفع لي متى أتيت بمثل هذه الزلة؛ لا أعدمنيه الله تعالى. فتهلَّل وجه الأمير وقال: ليس هذا باعتذار جاهل. ثم قال: نَبِّهونا على أنفسكم، إذا لم تجدوا مَنْ يُنَبِّهنا عليها. ورفع مرتبته وزاد في عطائه»[٣]. فهو هنا على رغم غضبه

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ٣/ ٣٧.
(٢) المصدر السابق، ٣/ ٣٩.
(٣) انظر: المقري: نفح الطيب، ٣/ ٤١، ٤٢.

لمقام الإمارة إلاَّ أنه حلم عليه ولم يُعاقبه بل زاد في مكافأته؛ لَمَّا تكشَّفت له حكمة الجندي وفصاحته.

عبد الرحمن الداخل.. الإنسان

مع المدَّة الكبيرة التي حكمها القائد عبد الرحمن الداخل، ومع امتداد عمره، وموقعه القيادي في أي مكان ينزل فيه، مع هذا كله؛ لم يُؤْثَر عنه أيُّ خلق ذميم أو فاحش، بل مدحه العلماء بالعلم والفضل وحُسن الخلق؛ مما يدلُّ على إنسانيته السامية، ومعدنه النفيس، وأخلاقُ الإنسان الحقيقية لا تظهر بوضوح إلاَّ في وقت الشدَّة، وحياة (عبد الرحمن) كلها شدائد وحروب؛ مما يُظْهِر أخلاقه بوضوح أمام أيِّ باحث في التاريخ، ويُحَدِّد ما إذا كانت حسنة أو سيئة.

وكان عبد الرحمن الداخل خطيبًا مفوَّهًا يرتقي المنابر ويعظ الناس، فهو كما نعرف نشأ في بيت الإمارة، وهكذا الأمراء في ذلك العصر، كما كان -أيضًا- شاعرًا مرهف الحسِّ، قال سعيد بن عثمان اللغوي الذي توفي سنة أربعمائة: كان بقُرْطُبَة جَنَّة (حديقة) اتخذها عبد الرحمن بن معاوية، وكان فيها نخلة أدركتُها، ومنها تولَّدت كل نخلة بالأندلس.

قال: وفي ذلك يقول عبد الرحمن الداخل: [الكامل]

يَا نَخْلُ أَنْتِ غَرِيبَةٌ مِثْلِي ... فِي الْغَرْبِ نَائِيَةٌ عَنِ الأَصْلِ

فَابْكِي وَهَلْ تَبْكِي مُكَبَّسَةٌ ... عَجْمَاءُ لَمْ تُطْبَعْ عَلَى خَبَلِ؟

لَوْ أَنَّهَا تَبْكِي إِذًا لَبَكَتْ ... مَاءَ الْفُرَاتِ وَمَنْبِتَ النَّخْلِ

لَكِنَّهَا ذَهِلَتْ وَأَذْهَلَنِي ... بُغْضِي بَنِي الْعَبَّاسِ عَنْ أَهْلِي[1]

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ١١/ ٢٤١، وانظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، ١/ ٣٧.

ومن شعره أيضًا: [الخفيف]

أَيُّهَــا الرَّاكِــبُ الْمُــيَمِّمُ أَرْضِي ... أَقْـرِ مِـنْ بَـعْضِي السَّلامَ لِـبَعْضِي

إِنَّ جِسْـمِي كَـمَا عَلِمْـتَ بِـأَرْضٍ ... وَفُــؤَادِي وَمَالِكِيــهِ بِــأَرْضِ

قُــدِّرَ البَــيْنُ بَيْنَنَــا فَافْتَرَقْنَــا ... فَعَسَـى بِاجْتِمَاعِنَـا اللهُ يَـقْضِي[1]

عبد الرحمن الداخل وفكره العسكري :

تمتَّع عبد الرحمن الداخل بفكر عسكري في غاية الدقَّة والعجب؛ فحياته كُلُّها - تقريبًا- حروب ومناوشات منذ سقوط خلافة بني أمية وحتى وفاته، مرورًا بفراره عبر البلاد والصحارى والقفار والبحار، وانتهاءً بالثورات الكثيرة التي تغلَّب عليها بلا استثناء؛ ليُوَطِّد مُلكه في بلاد الأندلس دون منازع.

ولولا ذكاؤه العسكري ما تغلَّب على كل هذه الثورات، التي يحار العقل في كثرتها، وكيف قضى عليها جميعًا، ونعرض هنا لبعض ملامح فكره العسكري من خلال مواقفه في معاركه وبطولاته، التي شغلت طول حياته وعرضها؛ ومن هذه الملامح:

أولاً: مبدأ المباغتة والحرص على المبادأة:

فهو يُخَطِّط بدقَّة من أجل الوصول إلى أهدافه، ثم هو لا يترك لخصومه الفرصة، بل يُسرع ليُباغتهم وهم في بداية أعمالهم القتالية المضادَّة له، والتاريخ يُؤَكِّد أن أفضل وسيلة للقضاء على أعمال التمرُّد هو تطويقها منذ بداياتها الأولى، وعدم السماح لها بالتطوُّر، والعمل على خنقها وهي لا تزال في مهدها، ويظهر هذا المبدأ واضحًا في معركة المصارة، فقد بات ليلته يستعدُّ للحرب بينما كان خصمه يحاول خداعه،

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ١١/ ٢٤١، ٢٤٢، وانظر: ابن الأبار: الحلة السيراء، ١/ ٣٦.

بحُجَّة تأجيل القتال، وكانت المباغتة كاملة؛ بحيث لم تتمكَّن القوات المضادَّة من الصمود، على الرغم مما أظهرته في البداية من ضروب الشجاعة[1]، والأمر مماثل بالنسبة لبقية حروب الأمير عبد الرحمن ومعاركه؛ حيث كان للمباغتة دور كبير وحاسم في تقرير نتائج القتال من قبل أن تبدأ المعركة.

ولم يكن حرص عبد الرحمن الداخل على الاحتفاظ بالمبادأة أقل من حرصه على المباغتة، فهو يحاول باستمرار وضع خصومه أمام مواقف تحرمهم من حرية العمل، ويفرض عليهم زمن المعركة، وكان في معاركه كلها يُجابه قادة على درجة عالية من الكفاءة، فكان لا بُدَّ له من البحث عن الوسيلة التي تحرمهم من استخدام قدراتهم وإمكاناتهم.

ثانيًا: الاقتصاد في القوى والمحافظة على الهدف:

وتظهر أهمية هذين المبدأين عند مطالعة سيرته، فقد كانت حياته سلسلة متصلة الحلقات من الوقائع والمعارك، وكان لا بُدَّ من الموازنة المستمرَّة بين الأهداف المتتالية للحرب، وبين القوى والوسائط اللازمة للتعامل معها، مع إعطاء الأولوية للأهداف الأكثر أهمية وخطورة عندما يظهر أن هناك أكثر من هدف يجب التعامل معه في وقت واحد، وهذا ما كان يحدث في معظم الأحيان، وأمام هذه المواقف بمجموعها كان لا بُدَّ من إجراء حسابٍ دقيقٍ لموازين القوى؛ بحيث يمكن استخدامها على أفضل صورة وفي أحسن وجه، وهذا ما أَكَّدته مجموعة الأعمال القتالية للأمير عبد الرحمن.

حياة (صقر قريش) في سطور:

لقد كانت حياة القائد العظيم عبد الرحمن الداخل وقفًا على الجهاد وإقامة

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٣/ ٣٣.

الدولة الإسلامية، وتثبيت بُنيانها، وإرساء دعائمها، وردِّ الطامعين فيها، فكانت الأيام التي عاشها الأمير عبد الرحمن في طمأنينة وراحة لا تزيد على أيام قليلة، وكانت حياته حركة مستمرَّة في تنظيم الجيوش، وعقد الرايات، وتوجيه القوَّات، وتحصين الثغور، والقضاء على الفتن والثورات، ووضع أُسس البنيان الحضاري.

وفاته:

عاش عبد الرحمن الداخل تسعًا وخمسين سنة؛ منها تسع عشرة سنة في دمشق والعراق قبل سقوط دولة الأمويين، وستُّ سنوات فرارًا من بني العباس وتخطيطًا لدخول الأندلس، وأربع وثلاثون سنة في المُلك ببلاد الأندلس، وتُوُفِّي بقُرْطُبَة ودُفِنَ بها في (جُمادى الأولى ١٧٢هـ= أكتوبر ٧٨٨م)[١].

* * *

(١) انظر: مجهول: أخبار مجموعة، ص١٠٥، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٥٨، والمقري: نفح الطيب، ٣/ ٤٨.

الفصل الثالث

الإمارة الأموية في عهد القوة

الإمارة الأموية وفتراتها الثلاث

ظلَّ عبد الرحمن الداخل يحكم الأندلس منذ سنة (١٣٨هـ=٧٥٥م) وحتى سنة (١٧٢هـ=٧٨٨م) أي قُرابَةَ أربعةٍ وثلاثين عامًا -كما ذكرنا- وكانت هذه هي بداية تأسيس عهد الإمارة الأموية، والتي استمرَّت من سنة (١٣٨هـ=٧٥٥م) وحتى سنة (٣١٦هـ=٩٢٨م).

وحتى نستطيع أن نفهم عهد الإمارة الأموية يمكنُنا تقسيمه إلى فتراتٍ ثلاثٍ كما يلي:

الفترة الأولى: واستمرَّت مائة عام كاملة (١٣٨-٢٣٨هـ= ٧٥٥-٨٥٢م)، وتُعتبَر هذه الفترة هي فترة القوَّة والمجد والحضارة، وكانت فيها الهيمنة للدولة الإسلامية على ما حولها من مناطق.

الفترة الثانية: وتُعَدُّ فترة ضعف، وقد استمرَّت اثنين وستين عامًا (٢٣٨-٣٠٠هـ=٨٥٢-٩١٣م).

الفترة الثالثة والأخيرة: وهي ما بعد سنة (٣٠٠هـ=٩١٣م)، وحتى (٣١٦هـ)، وهي فترة التأسيس والانتقال لعصر الخلافة الأموية.

الفترة الأولى من الإمارة الأموية (فترة القوة)

تُمَثِّل هذه الفترة عهد القوَّة في فترة الإمارة الأموية؛ كانت البداية فيها لعبد الرحمن الداخل رحمه الله ثم خَلَفَه من بعده ثلاثة من الأمراء، كان أوَّلهم هشام بن عبد الرحمن الداخل، وقد حكم من سنة (١٧٢هـ=٧٨٨م) حتى سنة (١٨٠هـ=٧٩٦م)[١].

عهد هشام بن عبد الرحمن الداخل:

كان عبد الرحمن الداخل قد استقرَّ أمره على ابنه هشام خليفة له، فولاَّه العهد مع كونه أصغر من أخيه سليمان، فلقد كان أكفأ منه وأفضل، ولقد صدق حَدْسُه فيه؛ حيث كان الناس يُشبِّهونه بعد ذلك بعمر بن عبد العزيز رضي الله عنه في علمه وعمله وورعه وتقواه.

وكان هشام بن عبد الرحمن بِمَارِدَة عند موت أبيه، وقد عاد منها إلى قُرْطُبَة بعد ستة أيام من وفاة أبيه، فبايعه العوامُّ ورجال الدولة، وكان ذلك سنة (١٧٢هـ= ٧٨٨م)، وكان أخوه سليمان بطُلَيْطلَة، فلما علم سليمان بالأمر غضب، وأعلن الثورة على أخيه، وجهَّز بالفعل جيشًا توجَّه به لقتال أخيه في قُرْطُبَة، فخرج إليه هشام بن عبد الرحمن والتقيا في جَيَّان، ودارت بينهما حرب شديدة انتهت بهزيمة سليمان، ففرَّ عائدًا إلى طُلَيْطِلَة[٢].

وكان لهشام أخٌ آخر يُسَمَّى عبد الله، وكان هشام يُحسن معاملته، ولكن يبدو أن عبد الله قد طمع فيما هو أكثر من ذلك، ففرَّ إلى أخيه سليمان في طُلَيْطِلَة، فلمَّا علم هشام بالأمر أشفق على عبد الله فأرسل له مَنْ يَرُدُّه ويترضَّاه، إلاَّ أن الرسول لم يلحق به[٣].

---

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٣٤.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٦١، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٢٤.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٢٨٤، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٦٢، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٢٤.

ولم يبقَ أمام هشام إلاَّ أن يُبادر إلى أخيه سليمان -كما كان يفعل أبوه- قبل أن يبدأه سليمان -كما فعل من قبل- ويحاول هو مهاجمة قُرْطُبَة، وبالفعل خرج إلى طُلَيْطِلَة وحاصرها فترة، فحاول سليمان أن يستغلَّ الفرصة وفرَّ منها إلى قُرْطُبَة؛ ليستوليَ عليها في غياب أخيه، ولكن أهلها حاربوه، فحاول الاستيلاء على مَارِدَة؛ لأنها قريبة من قُرْطُبَة، ليستطيع تهديد قُرْطُبَة منها إلاَّ أن واليها استطاع ردَّه عن مَارِدَة، فهرب إلى مُرْسِيَة ثم إلى بَلَنْسِيَة، وأخوه يُطارده، فلمَّا دبَّ اليأس إلى نفسه، طلب الأمان، فأمنَّه وكان قد أمَّن عبد الله قبله، وتركهما يرحلان إلى بلاد الشمال الإفريقي[1].

وقد كان هشام بن عبد الرحمن الداخل عالمًا محبًّا للعلم، وقد أحاط نفسه رحمه الله بالفقهاء، وكان له أثر عظيم في بلاد الأندلس بنشره اللغة العربية فيها، وقد أخذ ذلك منه مجهودًا وافرًا وعظيمًا، حتى أصبحت اللغة العربية تُدرَّس في معاهد اليهود والنصارى داخل أرض الأندلس[2].

ومن أبرز التغيرات الجوهرية التي تمَّت بالأندلس في عهد هشام انتشار المذهب المالكي فيها، وقد كانت البلاد من قبل ذلك على مذهب الإمام الأوزاعي[3].

وكانت لهشام صولات وجولات كثيرة في الشمال مع الممالك النصرانية[4].

وكان من علماء عصره صعصعة بن سلامة الشامي، وكان المفتي أيام عبد الرحمن الداخل، وفي بداية عهد هشام بن عبد الرحمن، كما ولي الصلاة بقُرْطُبَة، وروى عنه عبد الملك بن حبيب وعثمان بن أيوب[5]، كما كان من المحدثين في أيامه

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٢٤.
(٢) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣١٠.
(٣) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٤٦.
(٤) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٦٤، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٣٧.
(٥) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص٧٥.

عبد الرحمن بن موسى، وقد روى عنه أصبغ بن خليل وغيره، وقد توفي هو وصعصعة بن سلامة أيام هشام بن عبد الرحمن[١].

وتوفي هشام بن عبد الرحمن الداخل في (صفر ١٨٠هـ= إبريل ٧٩٦م) فكانت خلافته سبع سنين وتسعة أشهر، وتوفي رحمه الله وهو ابن تسع وثلاثين سنة وأربعة أشهر وأربعة أيام، ودُفِنَ في القصر، وصلَّى عليه ابنه الحكم[٢].

عهد الحكم بن هشام بن عبد الرحمن الداخل:

تولَّى بعد هشام بن عبد الرحمن الداخل ابنه الحكم، وذلك من سنة (١٨٠هـ=٧٩٦م) وحتى سنة (٢٠٦هـ=٨٢١م)[٣]، لكن الحكم لم يكن على شاكلة أبيه ولا على شاكلة جدِّه، فكان قاسيًا جدًّا، فرض الكثير من الضرائب، واهتمَّ بالشِّعر والصيد، وقاوم الثورات بأسلوب غير مسبوق في بلاد الأندلس في عهد الإمارة الأموية؛ حتى وصل الأمر في آخر حياته إلى حرق بيوت الثائرين عليه، ونفيهم خارج البلاد[٤].

ومن أشهر الثورات التي قمعها الحكم بن هشام ثورة الربض (٢٠٢ هـ= ٨٠٨م) وهم قومٌ كانوا يعيشون في إحدى ضواحي قُرْطُبَة، وقد ثار أهلها ثورة كبيرة جدًّا عليه؛ بسبب ما عُرِفَ عنه من معاقرة الخمر، وتشاغله باللهو والصيد، وقد زاد من نقمة الشعب عليه قتله لجماعة من أعيان قُرْطُبَة؛ فكرهه الناس، وصاروا يتعرَّضون له ولجنده مما حثَّه على تحصين قُرْطُبَة، فأقام حولها الأسوار، وحفر الخنادق، وجعل جنوده على مقربة منه؛ فزاد ذلك من حقد أهل قُرْطُبَة عليه، وزاد

(١) أبو الوليد الأزدي: تاريخ العلماء بالأندلس، ١/ ٣٠٠.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٦٥، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٣٨.

(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٦٨، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٣٩.

(٤) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٤١٣، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٣٩.

توجُّسهم منه، ثم حدث أن مملوكًا له اختلف مع أحد العوامِّ فقتله؛ فثار أهل الربض، وزحفوا إلى قصره وأحاطوا به فقاتلهم قتالاً شديدًا هو وجنده حتى تغلَّب عليهم[(١)].

ولم يكتفِ الحكم بهزيمتهم، بل أحرق وخرَّب ديارهم، وقتل ثلاثمائة من وجهائهم وصلبهم، وأمر بطردهم خارج البلاد[(٢)]؛ فتفرَّقوا في البلاد ومنهم مَنْ ذهب إلى الإسكندرية في مصر، وأقاموا فيها فترة ثم ارتحلوا عنها إلى جزيرة كريت، فأقاموا فيها دويلة عام (٢١٢هـ=٧٢٨م) استمرَّت مائة عام حتى استولى عليها البيزنطيون من بعد[(٣)].

ورغم أفعاله تلك إلاَّ أن الحكم بن هشام لم يُوقِفْ حركة الجهاد[(٤)]؛ وذلك لأن الجهاد كان عادة في الإمارة الأموية؛ سواء في بلاد الشام أو في بلاد الأندلس، لكن كانت له انتصارات وهزائم في الوقت نفسه، وكنتيجة طبيعية لهذا الظلم الذي اتَّصف به، وهذه العلاقة التي ساءت بين الحاكم والمحكوم سقطت بعض البلاد الإسلامية في يد النصارى؛ فسقطت بَرْشُلُونَة، وأصبحت تُمَثِّل إمارة نصرانية صغيرة في الشمال الشرقي عُرِفَت في التاريخ باسم إمارة أراجون، وكانت متاخمة لحدود فرنسا بجوار جبال البرينيه في الشمال الشرقي للبلاد[(٥)].

لكن الحكم بن هشام بفضل من الله ومَنٍّ عليه تاب عن أفعاله في آخر عهده، ورجع عن ظلمه، واستغفر واعتذر للناس عن ذنوبه، ثم اختار من أبنائه أصلحهم، وإن لم يكن الأكبر؛ ليكون وليًّا لعهده، وكان من حُسْنِ خاتمته أنه قام بهذا الاعتذار

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٤١٣، ٤١٤.
(٢) المصدر السابق، ٥/ ٤١٤.
(٣) المصدر السابق، ٥/ ٤٨٠، وتاريخ ابن خلدون، ٣/ ٢٥٣.
(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٧٢.
(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٣٢٢، ٣٢٣.

وهذه التوبة وهو في كامل قوَّته وبأسه، وذلك قبل موته بعامين[١].

عبد الرحمن الأوسط:

بعد الحكم بن هشام تولَّى ابنه عبد الرحمن الثاني، وهو المعروف في التاريخ باسم عبد الرحمن الأوسط (فهو الأوسط بين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر كما سيأتي)، وقد حكم من سنة (٢٠٦هـ=٨٢١م) وحتى آخر الفترة الأولى (عهد القوة) من عهد الإمارة الأموية، وذلك سنة (٢٣٨هـ=٨٥٢م)، وتُعَدُّ فترة حكمه هذه من أفضل فترات تاريخ الأندلس، فاستأنف الجهاد من جديد ضدَّ النصارى في الشمال، وألحق بهم هزائم عدَّة[٢]، وكان حسن السيرة، هادئ الطباع، محبًّا للعلم، محبًّا للناس[٣].

قال عنه الصفدي: كان عادلاً في الرعية بخلاف أبيه، جوادًا فاضلاً، له نظر في العلوم العقلية، وهو أول من أقام رسوم الإمرة، وامتنع عن التبذُّل للعامَّة، وهو أول من ضرب الدراهم بالأندلس، وبنى سور إِشْبِيلِيَة، وأمر بالزيادة في جامع قُرْطُبَة، وكان يُشَبَّه بالوليد بن عبد الملك، وكان محبًّا للعلماء مقرِّبًا لهم، وكان يُقيم الصلوات بنفسه، ويُصَلِّي إمامًا بهم في أكثر الأوقات... وهو أول مَنْ أدخل كتب الأوائل إلى الأندلس، وعرَّف أهلها بها، وكان حَسَنَ الصورة ذا هيئة، وكان يُكثِر تلاوة القرآن، ويحفظ حديث النبي ﷺ، وكان يُقالُ لأيامه أيام العروس، وافتتح دولته بهدم فندق الخمر وإظهار البِرِّ، وتملَّى[٤] الناس بأيامه وطال عمره، وكان حَسَنَ التدبير في تحصيل الأموال وعمارة البلاد بالعدل، حتى انتهى ارتفاع بلاده في

---

(١) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ١/ ٤٣.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٨١.
(٣) مجهول: أخبار مجموعة، ص١٢٢.
(٤) تملَّى: أي عاش طويلاً واستمتع بالشيء. ابن منظور: لسان العرب، مادة ملا ١٥/ ٢٩٠.

كل سنة ألف ألف دينار[١].

ومن أهم ما تميَّز به عهد عبد الرحمن الأوسط الأمور الثلاثة التالية:

أولاً: ازدهار الحضارة العلمية:

ومن أشهر العلماء في عصر عبد الرحمن الأوسط عباس بن فرناس رحمه الله (٢٧٤ هـ=٨٨٧م)، وكنيته أبو القاسم، وهو من أهل قُرْطُبَة، من موالي بني أمية، وبيته في برابر (تاكرنا) كان في عصر الخليفة عبد الرحمن الأوسط (في القرن التاسع للميلاد)، وله أبيات في ابنه محمد بن عبد الرحمن (المتوفى سنة ٢٧٣هـ)، وكان فيلسوفًا شاعرًا، له علم بالفلك[٢].

وهو أول مَنِ استنبط في الأندلس صناعة الزجاج من الحجارة، وصنع (الميقاتة) لمعرفة الأوقات، ومَثَّل في بيته السماء بنجومها وغيومها وبروقها ورعودها، وهو أول طيار اخترق الجوَّ؛ أراد تطيير جثمانه، فكسا نفسه الريش، ومدَّ له جناحين طار بهما في الجوِّ مسافة بعيدة، ثم سقط فتأذَّى في ظهره؛ لأنه لم يعمل له ذنبًا، ولم يَدْرِ أن الطائر إنما يقع على زِمِكِّه[٣].

ولكنه -برغم هذه المحاولة الرائدة التي فشلت- كان عبقرية هائلة؛ حتى إن الصفدي بَعْدَ كثيرٍ من المدح له يصفه بأنه «له شخص إنسي وفطنة جني»[٤].

ثانيًا: ازدهار الحضارة المادية:

اهتمَّ عبد الرحمن الأوسط بالحضارة المادية (العمرانية والاقتصادية وغيرها)

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٨/ ٨٤.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/ ٣٨٠.

(٣) المقري: نفح الطيب، ٣/ ٣٧٤، وزِمِكّ الطائر: ذيله وذنبه. ابن منظور: لسان العرب، مادة زمك ١٠/ ٤٣٦، والمعجم الوسيط ١/ ٤٠٠.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٦/ ٣٨٠.

اهتمامًا كبيرًا[(١)]، فازدهرت حركة التجارة في عهده؛ ومن ثَمَّ كثُرت الأموال[(٢)]؛ ومن المهم أن نعلم أن بلاد الأندلس لم يكن فيها ما نُسَمِّيه بـ «التسوُّل»، فقد كانت هذه العادة في بعض البلاد الإسلامية الأخرى؛ لكنها لم تُعرَف في بلاد الأندلس[(٣)].

كذلك تقدَّمت وسائل الريِّ في عهده بشكل كبير، وتمَّ رصف الشوارع وإنارتها ليلاً في هذا العمق القديم جدًّا في التاريخ، في الوقت الذي كانت فيه أوربا تعيش في جهلٍ وظلام دامس، كما أقام القصور المختلفة والحدائق الغنَّاء، وتوسَّع في ناحية المعمار حتى كانت المباني الأندلسية آية في المعمار في عهده رحمه الله[(٤)].

ثالثًا: وقف غزوات النورمان:

النورمان هم أهل إسكندنافيا، وهي بلاد تضمُّ الدانمارك والنرويج وفنلندا والسويد، وقد كانت هذه البلاد تعيش في همجية مطلقة؛ فقد كانوا يعيشون على ما يُسَمَّى بحرب العصابات، فقاموا بغزوات عُرِفَت باسم «غزوات الفايكنج»، وهي غزوات إغارة على أماكن متفرِّقة من بلاد العالم، ليس لها من هَمٍّ إلاَّ جمع المال وهَدْم الديار.

وفي عهد عبد الرحمن الأوسط سنة (٢٣٠هـ=٨٤٥م) هجمت هذه القبائل على إِشْبِيلِيَة من طريق البحر في أربع وخمسين سفينة، ودخلوها فأفسدوا فسادًا كبيرًا، ودمَّروا إِشْبِيلِيَة تمامًا، ونهبوا ثرواتها، وهتكوا أعراضها، ثم تركوها إلى شَذُونة وأَلَمِرِيَّة ومُرْسِيَة وغيرها من البلاد فأشاعوا الرعب، وعمَّ الفزع[(٥)]، وهذه هي طبيعة

(١) المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٤٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٩١.

(٣) قال المقري: «وأما طريقة الفقراء على مذهب أهل الشرق في الدروزة التي تكسل عن الكد، وتحوج الوجوه للطلب في الأسواق، فمستقبحة عندهم إلى نهاية، وإذا رأوا شخصًا صحيحًا قادرًا على الخدمة يطلب سَبُّوه وأهانوه، فضلاً عن أن يتصدقوا عليه؛ فلا تجد بالأندلس سائلاً إلاَّ أن يكون صاحب عذر». نفح الطيب، ١/ ٢٢٠، والفقراء هنا هم الصوفية.

(٤) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٩١، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٤٧.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٨٧.

الحروب المادية بصفة عامَّة، وشتَّان بين المسلمين في فتحهم للبلاد وبين غيرهم في معاركهم!

فلمَّا علم عبد الرحمن الأوسط رحمه الله بهذا الأمر ما كان منه إلاَّ أن جهَّز جيشه وأعدَّ عُدَّته، وخلال أكثر من مائة يوم كاملة دارت بينه وبينهم معارك ضارية، أُغرِقَت خلالها خمسٌ وثلاثون سفينةً للفايكنج، ومنَّ الله على المسلمين بالنصر، وعاد النورمان إلى بلادهم خاسئين خاسرين[1].

ولم يجنح عبد الرحمن الأوسط رحمه الله بعدها إلى الدَّعَة أو الخمول، وإنما عمل على تفادي تلك الأخطاء التي كانت سببًا في دخول الفايكنج إلى بلاده فقام بما يلي:

أولاً: رأى أن إِشْبِيلِيَة تقع على نهر الوادي الكبير الذي يصبُّ في المحيط الأطلنطي، ومن السهولة جدًّا أن تدخل سفن الفايكنج أو غيرها من المحيط الأطلنطي إلى إِشْبِيلِيَة، فقام بإنشاء سور ضخم حول إِشْبِيلِيَة، وحصَّنها تحصينًا منيعًا، ظلَّت بعده من أحصن حصون الأندلس بصفة عامة[2].

ثانيًا: لم يكتفِ بذلك بل قام -أيضًا- بإنشاء أسطولين قويين؛ أحدهما في الأطلسي والآخر في البحر الأبيض المتوسط؛ وذلك حتى يُدافع عن كل سواحل الأندلس، فكانت هذه الأساطيل تجوب البحار وتصل إلى أعلى حدود الأندلس في الشمال عند مملكة ليون، وتصل في البحر الأبيض المتوسط حتى إيطاليا.

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٨٧، ٨٨.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٨/ ٢٦١، والصفدي: الوافي بالوفيات، ١٨/ ٨٤، والحميري: صفة جزيرة الأندلس، ص٢٠.

وكان من نتيجة ذلك أنه فتح جزر البليار للمرة الثانية[١]، وكذلك كان من نتيجة هزيمة الفايكنج في هذه الموقعة قدوم سفارة من الدانمارك محمَّلة بالهدايا تطلب وُدَّ المسلمين، وتطلب المعاهدة معهم.

وبلغت البلاد من القوة في عهد الأمير عبد الرحمن هذا أن جاءته الهدايا من القسطنطينية أيضًا[٢].

* * *

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٨٩، وكنا قد ذكرنا أن الذي فتحها للمرة الأولى كان موسى بن نصير ؒ؛ وذلك قبل فتح الأندلس سنة (٩١هـ=٧١٠م)، ثم سقطت في أيدي النصارى في عهد الولاة الثاني حين انحدر حال المسلمين آنذاك، ثم سيطر عليها الفايكنج، وهنا وفي سنة (٢٣٤هـ=٨٤٩م) تم فتحها ثانية.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٤٦.

الفصل الرابع

الإمارة الأموية في عهد الضعف

بوفاة عبد الرحمن الأوسط رحمه الله يبدأ عهد جديد في بلاد الأندلس، وهو فترة الضعف في الإمارة الأموية، ويبدأ من سنة (٢٣٨هـ=٨٥٢م) وحتى سنة (٣٠٠هـ=٩١٣م) أي حوالي اثنتين وستين سنة.

فلقد تولَّى بعد عبد الرحمن الأوسط ابنه محمد بن عبد الرحمن الأوسط، ثم اثنان من أولاده؛ هما: المنذر وعبد الله، وحقيقة الأمر أن الإنسان لَيَتَعجَّب: كيف بعد هذه القوَّة العظيمة والبأس الشديد والسيطرة على بلاد الأندلس وما حولها يحدث هذا الضعف وذلك الانحدار؟!

فمن سُنن الله عز وجل أن الأمم لا تسقط فجأة، بل يأتي السقوط متدرِّجًا وعلى فترات طويلة، ففي عهد الولاة الثاني ظهرت أسباب الضعف؛ منها:

أولاً: انفتاح الدنيا وحبُّ الغنائم.

ثانيًا: القَبَلِيَّة والقومية.

ثالثًا: ظلم الولاة.

رابعًا: ترك الجهاد.

وكل هذه الأسباب لم تنشأ فجأة، وإنما كانت بذورها قد نشأت منذ أواخر عهد القوَّة من عهد الولاة أثناء وبعد موقعة بلاط الشهداء.

إذًا لكي نفهم سبب ضعف الإمارة الأموية علينا أن نرجع قليلاً، وندرس الفترة الأخيرة من عهد القوة، ونبحث فيها عن بذور الضعف، والأمراض التي أدَّت إلى هلكة أو ضعف الإمارة الأموية في هذا العهد الثاني.

عوامل وأسباب ضعف الإمارة الأموية:

كان من أهمِّ أسباب ضعف الإمارة الأموية ما يلي:

أولاً: كثرة الأموال وانفتاح الدنيا على المسلمين:

من جديد كانت الدنيا قد انفتحت على المسلمين، وكثرت الأموال في أيديهم، وقد زاد هذا بشدَّة في أواخر عهد القوة من الإمارة الأموية، فقد ازدهرت التجارة كثيرًا، ولم يُوجد هناك في البلاد فقير، وفُتِنَ الناسُ بالمال، وتكرَّر ثانية حديث رسول الله ﷺ: «فَوَالله مَا الْفَقْرُ أَخْشَى عَلَيْكُمْ، وَلَكِنْ أَخْشَى أَنْ تُبْسَطَ الدُّنْيَا عَلَيْكُمْ كَمَا بُسِطَتْ عَلَى مَنْ كَانَ قَبْلَكُمْ، فَتَنَافَسُوهَا كَمَا تَنَافَسُوهَا، فَتُهْلِكَكُمْ كَمَا أَهْلَكَتْهُمْ»[1]. وقال -أيضًا- ﷺ: «إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»[2]. وقد حذَّر الرسول ﷺ من الدنيا مِرارًا وتكرارًا وقلَّل من قيمتها، فكان يقول: «وَالله مَا الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مِثْلُ مَا يَجْعَلُ أَحَدُكُمْ إِصْبَعَهُ هَذِهِ[3] فِي الْيَمِّ فَلْيَنْظُرْ بِمَ يَرْجِعُ؟»[4].

ثانيًا: زِرْياب:

اسم ليس بغريب لكنه كان كدابَّة الأرض التي أكلت مِنْسأَةَ سليمان عليه السلام؛

---

(١) البخاري: كتاب الرقاق، باب: ما يحذر من زهرة الدنيا والتنافس فيها (٦٠٦١)، ومسلم: كتاب الزهد والرقائق (٢٩٦١) عن عمرو بن عوف واللفظ له.

(٢) الترمذي: كتاب الزهد، باب أن فتنة هذه الأمة في المال (٢٣٣٦)، وقال: صحيح غريب. وأحمد (١٧٥٠٦)، وابن حبان (٣٢٢٣)، والحاكم (٧٨٩٦)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. ووافقه الذهبي.

(٣) أشار أحد رواة الحديث بِالسَّبَّابَةِ.

(٤) مسلم: كتاب الجنة وصفة نعيمها وأهلها، باب فناء الدنيا وبيان الحشر يوم القيامة (٢٨٥٨) عن المستورد بن شداد، وأحمد (١٨٠٣٧)، وابن حبان (٦٢٦٥).

فسقط جسده على الأرض؛ زِرْياب هذا كان من مطربي بغداد، تربَّى هناك في بيوت الخلفاء والأمراء؛ حيث كان يُغَنِّي لهم ويُطربهم، وكان مُعَلِّمه هو إبراهيم الموصلي كبير مطربي بغداد في ذلك الوقت(١).

ومع كرِّ الأيام ومرِّ السنين لمع نجم زرياب في بغداد فغار منه إبراهيم الموصلي، فدبَّر له مكيدة فطُرِدَ من البلاد، أو أنه هدَّده فهرب زرياب من نفسه دون مكائد كما في روايات أخرى.

وكانت مشارق الأرض الإسلامية ومغاربها متسعة جدًّا في ذلك الوقت، وبعد حيرة وجد زرياب ضالَّته في الأندلس؛ حيث الأموال الكثيرة والحدائق والقصور، وهي صفات كثيرًا ما يعشقها أمثال هؤلاء، كما تكون -أيضًا- أرضًا خصبة لاستقبال وإيواء أمثالهم(٢).

وغالب الأمر أن الأندلس إلى هذه الفترة لم تكن تعرف الغناء، إلاَّ أن زرياب ذهب إلى هناك فاستقبلوه وعظَّموه وأحسنوا وِفَادته، حتى دخل على الخلفاء، ودخل بيوت العامَّة ونواديهم، فأخذ يُغَنِّي للناس ويُعَلِّمهم ما قد تَعَلَّمَه في بغداد، ولم يكتفِ زرياب بتعليمهم الغناء وتأليف ما يُسمَّى بالموشحات الأندلسية، لكنه بدأ يُعَلِّمهم فنون (الموضة) وملابس الشتاء والصيف والربيع والخريف، وأن هناك ملابس خاصَّة بكل مناسبة من المناسبات العامَّة والخاصَّة(٣).

ولم يكن الناس في الأندلس على هذه الشاكلة، إلا أنهم أخذوا يسمعون من زرياب ويَتَعَلَّمُون؛ خاصَّة وأنه قد بدأ يُعَلِّمهم -أيضًا- فنون الطعام كما عَلَّمَهُم ملابس الموضة تمامًا، وأخذ يحكي لهم حكايات الأمراء والخلفاء والأساطير

(١) المقري: نفح الطيب، ٣/ ١٢٣.
(٢) انظر: المقري: نفح الطيب، ١/ ١٢٣.
(٣) انظر مزيدًا من التفاصيل في المقري: نفح الطيب، ١/ ١٣٣.

والروايات، وما إلى ذلك حتى تعلَّق الناس به بشدَّة، وتعلَّق الناس بالغناء، وكَثُرَ المطربون في بلاد الأندلس، ثم بعد ذلك انتشر الرقص، وكان في البداية بين الذكور ثم انتقل إلى الإناث وهكذا.

الغريب أن دخول زرياب إلى أرض الأندلس كان في عهد عبد الرحمن الأوسط رحمه الله؛ ذلك الرجل الذي اهتمَّ بالعلم والحضارة والعمران والاقتصاد وما إلى ذلك، لكنه -ويا للأسف- ترك زرياب يفعل كل هذه الأمور، وينخر في جسد الأُمَّة دون أنْ يدري أحدٌ.

ففي الوقت الذي انتعشت فيه النهضة العلمية وكثُرَ العلماء، كان كلام زرياب المنمَّق وإيقاعه الرَّنَّان يصرف الناس عن سماع العلماء إلى سماعه هو، ويصرف الناس عن سماع حديث رسول الله ﷺ، وعن سماع قصص السلف الصالح إلى سماع حكاياته العجيبة وأساطيره الغريبة، بل - والله - لقد انصرف الناس عن سماع القرآن الكريم إلى سماع أغانيه والتعلُّق بلهوه ومجونه.

وليس هذا بعجيب أو جديد؛ ففي بداية دعوة رسول الله ﷺ في مكة، وحين رآه النضر بن الحارث -وكان من رءوس الكفر- يخاطب الناس بالقرآن فيتأثَّرُون ويؤمنون بهذا الدين، ما كان منه إلاَّ أن قطع أميالاً طويلة وذهب إلى بلاد فارس، وقضى هناك فترة طويلة يتعلَّم حكايات رستم وإسفنديار، ويتعلَّم الأساطير الفارسية، ثم اشترى قينتين (مغنيتين) وعاد إلى مكة، وفي مكة كان النضر بن الحارث يقوم بحرب مضادة للدعوة الإسلامية، فكان إذا وجد في قلب رجل ميلاً إلى الإسلام أرسل له القينتين تُغَنِّيَانِه ما كان في بلاد فارس من حكايات رستم وإسفنديار؛ حتى يُلهياه عن هذا الدين، وظلَّ على هذا النحو، وأنزل الله تعالى فيه قرآنًا يُتلى إلى يوم القيامة: ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَنْ يَشْتَرِي لَهْوَ الْحَدِيثِ لِيُضِلَّ عَنْ سَبِيلِ اللهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّخِذَهَا هُزُوًا أُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [لقمان: ٦].

وقد أقسم عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أنها ما نزلت إلاَّ في الغناء[1].

وهكذا؛ فالشيطان لا يهدأ ولا ينام حتى في وجود هذه النهضة العلمية؛ ﴿ثُمَّ لَآتِيَنَّهُمْ مِنْ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَانِهِمْ وَعَنْ شَمَائِلِهِمْ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَاكِرِينَ﴾ [الأعراف: ١٧].

وكلما زاد الاهتمام بالدين، وارتقى مستوى الإيمان عند الناس، وتعلَّقت قلوبهم بالمساجد، نشط الشيطان، وزادت حركته عن طريق زرياب ومَن سار على نهجه.

وإنه بالرغم من مرور أكثر من ألفٍ ومائتي عام على وفاة زرياب هذا، إلا أن له شهرة واسعة في كل بلاد شمال إفريقيا، فلم يسمع الكثير من الناس عن السَّمح بن مالك الخولاني وعنبسة بن سحيم -رحمهما الله- ولم يسمعوا عن عُقبَة بن الحجاج، أو سيرة عبد الرحمن الداخل، أو عبد الرحمن الأوسط، ولم يسمعوا عن كثير من قادة المسلمين في فارس والروم وفي بلاد إفريقيا والأندلس؛ لكنهم سمعوا عن زرياب، ويعرفون سيرته وتفاصيل حياته، بل إن موشحاته الأندلسية ما زالت إلى يومنا هذا تُغنَّى في تونس والمغرب والجزائر، وما زالت تُدرَّس سيرته الذاتية هناك على أنه رجل من قوَّاد التنوير والنهضة، ويُمَجَّد في حربه ضدَّ الجمود وكفاحه من أجل الفنِّ، ولا يعلم الناس أن زرياب هذا ومَنْ سار على طريقه كان سببًا رئيسًا في سقوط بلاد الأندلس، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

ثالثًا: من أسباب ضعف الإمارة الأموية (عمر بن حفصون):

عمر بن حفصون (٢٤٠-٣٠٦هـ=٨٥٥-٩١٩م) كان مسلمًا من المولَّدين؛ أي: من أهل الأندلس الأصليين، كان عمر بن حفصون قاطعًا للطريق، وكان

---

(١) انظر: الطبري: جامع البيان في تأويل القرآن، ٢٠/ ١٢٧، والبغوي: معالم التنزيل في تفسير القرآن، ٦/ ٢٨٤، والقرطبي: الجامع لأحكام القرآن، ١٤/ ٥٣، وابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٦/ ٣٣٢.

يتزعَّم عصابة من أربعين رجلاً، وحين بدأ الناس يركنون إلى الدنيا ويتركون الجهاد في سبيل الله زاد حجمه، واشتدَّ خطره، وبدأ يثور في منطقة الجنوب؛ حتى أرهب الناس في هذه المنطقة، وأخذ يجمع حوله الأنصار فتوسَّع سلطانه كثيرًا، فسيطر على كل الجنوب الأندلسي.

وفي سنة (٢٨٦هـ=٨٩٩م) قام عمر بن حفصون بعملٍ لم يتكرَّر كثيرًا في التاريخ الإسلامي بصفة عامَّة وتاريخ الأندلس بصفة خاصَّة؛ فلكي يُعَضِّد من قوَّته في آخر عهده، وبعد اثنين وعشرين عامًا من ثورته انقلب على عقبيه وتحوَّل من الإسلام إلى النصرانية، وسمَّى نفسه صمويل؛ وذلك بهدف كسب تأييد مملكة ليون النصرانية في الشمال، وهو وإن كان قد تركه بعض المسلمين الذين كانوا معه إلاَّ أنه نال بالفعل تأييد مملكة ليون، في الوقت الذي تزامن مع توقُّف الجهاد في ممالك النصارى[1].

بدأت (مملكة ليون) تتجرَّأ على حدود الدولة الإسلامية؛ فبدأت تهاجمها من الشمال وعمر بن حفصون أو صمويل يُهاجمها من جهة الجنوب.

نظرة تحليلية على الوضع في الأندلس أواخر عهد الضعف:

بعد اثنين وستين عامًا من الضعف الشديد، وبعدما تفاعلت عوامل السقوط مع بعضها البعض، نُلقي الآن نظرة عامَّة على طبيعة الوضع في بلاد الأندلس أواخر عهد الضعف في الإمارة الأموية؛ أي سنة (٣٠٠هـ=٩١٣م)، ونُوَضِّح أهمَّ الملامح التي سادت هذا العصر، والتي كانت من فعلِ ونتاجِ عوامل الضعف؛ فكانت كما يلي:

أولاً: تصاعد وكثرة الثورات داخل الأندلس:

كانت هناك ثورات لا حصر لها داخل الأندلس، بل واستقلالات في كثير من

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٣٩.

المناطق، والتي كان من أشهرها استقلال صمويل أو عمر بن حفصون؛ حيث استقلَّ بالجنوب وكوَّن ما يشبه الدُّوَيْلة، فضَمَّ إليه الكثير من الحصون، حتى ضمَّ كل حصون إِسْتِجَة وجَيَّان، التي كانت عند فتح الأندلس من أحصن المناطق الأندلسية على الإطلاق، وكذلك كانت غَرْنَاطَة إحدى المدن التي في حوزته، والتي اتخذ لها عاصمة سمَّاها (بابشتر) وتقع في الجنوب بجوار أَلَمِرِيَّة على ساحل البحر الأبيض المتوسط(١).

وكان من هذه الثورات الكبيرة -أيضًا- ثورة ابن حجاج في إِشْبِيلِيَة، وكانت هذه الثورة تمدُّ وتساعد عمر بن حفصون أو صمويل في ثورته ضد قُرْطُبَة(٢).

ومثلها كانت ثورة ثالثة في شرق الأندلس في منطقة بَلَنْسِيَة، ورابعة في منطقة سَرَقُسْطَة في الشمال الشرقي، حيث استقلَّت إمارة سَرَقُسْطَة -أيضًا- عن الإمارة الأموية في قُرْطُبَة، وخامسة في غرب الأندلس يقودها عبد الرحمن الجِلِّيقي، وسادسة في طُلَيْطلَة، وهكذا ثورات وثورات أَدَّت في نهاية الأمر إلى أن الحكومة المركزية للإمارة الأموية في قُرْطُبَة لم تَعُدْ تُسيطر على كل بلاد الأندلس إلاَّ على مدينة قُرْطُبَة وحدها، إضافة إلى بعض القرى التي حولها(٣).

ومن ثَمَّ فقد انفرط العِقد تمامًا حتى سنة (٣٠٠هـ= ٩١٣م)، وتوزَّعت الأندلس بين كثير من القوَّاد، كُلٌّ يحارب الآخر، وكُلٌّ يبغي مُلكًا ومالاً.

ثانيًا: تكوُّن مملكة نصرانية ثالثة:

ذكرنا -سابقًا- أنه كانت هناك مملكتان نصرانيتان؛ هما مملكة ليون في الشمال الغربي ومملكة أراجون في الشمال الشرقي وعاصمتها بَرْشُلُونَة، اللتان تكوَّنتا زمن

---

(١) لمزيد من التفاصيل، انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢٤/ ٣٨، وما بعدها.
(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٢٥.
(٣) انظر بعض تفصيل ذلك عند ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٣٣.

ضعف المسلمين في عهد الولاة الثاني، وهنا وفي الفترة الثانية من فترتي الإمارة الأموية تكوَّنت في الشمال -أيضًا- مملكة نصرانية ثالثة كانت قد انفصلت عن مملكة ليون، وهي مملكة أو إمارة نافار، وتُكتَب في بعض الكتب العربية (نباره)، وتُعرَفُ الآن في إسبانيا بإقليم الباسك، ذلك الإقليم الذي يحاول الانشقاق عن إسبانيا.

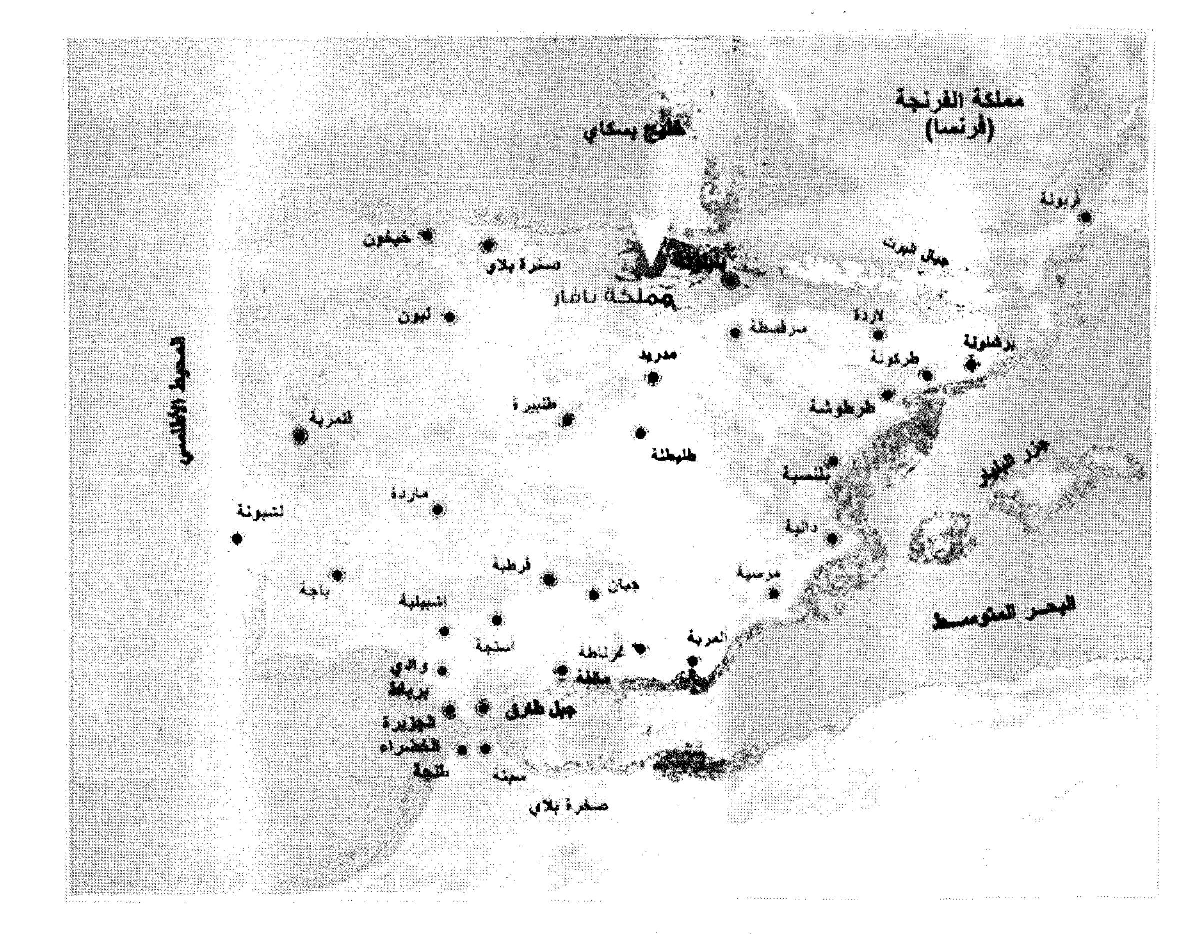
هذه الممالك النصرانية الثلاث بعد أن كانت تخاف المسلمين في العهد الأول للإمارة الأموية، تجرَّأت كثيرًا على البلاد الإسلامية؛ فهاجمت شمال الأندلس، وبدأت تقتل المسلمين المدنيين في مدن الأندلس الشمالية.

ثالثًا: قتلُ ولي العهد:

أمر خطير آخر قد ظهر، وهو يُعَبِّرُ عن مدى المأساة والفتنة في ذلك الوقت، وهو أنَّ وَلِيَّ العهد للأمير عبد الله بن محمد بن عبد الرحمن الأوسط الذي كان يحكم البلاد في ذلك الوقت قتله أخوه المطرف بن عبد الله، وكان ولي العهد هذا يُسمَّى محمد بن عبد الله، فأصبح الوضع من الخطورة بمكان[1].

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٥٠.



خريطة رقم (٩) ظهور مملكة نافار

وهكذا يكون الحال حين يختلف المسلمون ويتفرَّقون، وحين ينشغلون بدنياهم وبزريابهم وبأنفسهم؛ حكومات نصرانية في الشمال تهاجم المسلمين، ثورات واستقلالات في الداخل، قتلٌ لولي العهد القادم، بلاد إسلامية واسعة بغير ولي عهد في هذه المرحلة الحرجة.

رابعًا: ظهور نجم دولة شيعية في بلاد المغرب كانت من أخطر الدول على بلاد الأندلس:

زادت الأمور تعقيدًا في بلاد الأندلس بظهور دولة جديدة في بلاد المغرب، كانت من أشدِّ الدول خطورة على بلاد الأندلس، وهي الدولة المسمَّاة بالفاطمية، واسمها الصحيح الدولة العُبَيْدِيَّة.

ظهرت الدولة العبيدية في بلاد المغرب العربي سنة (٢٩٦هـ= ٩٠٩م)؛ أي: قبل سنة (٣٠٠هـ=٩١٣م) [١] (نهاية الفترة الثانية من الإمارة الأموية) بأربع سنوات فقط، وكانت دولةً شيعيةً خبيثةً؛ همُّها الأول قَتْل علماء السُّنَّة في بلاد المغرب العربي، ومحاولة نشر نفوذها في هذه المنطقة، فانتشرت بصورة سريعة من بلاد المغرب إلى الجزائر وتونس، ثم إلى مصر والشام والحجاز وغيرها.

وأعلن ابن حفصون الطاعة لعبيد الله المهدي[٢]، ولا شَكَّ أن ذلك لم يكن حبًّا في العبيدين؛ ولكن احتياجًا لمددهم وأموالهم.

خامسًا: تَردِّي الأوضاع في بقية أقطار العالم الإسلامي:

إذا تخطَّيْنَا بلاد الأندلس وألقينا نظرة على مجمل أقطار العالم الإسلامي في الشرق والغرب وجدنا ما يلي:

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٦/ ٤٤٦.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٣٥.

مصر والشام يحكمها الإخشيديون، الموصل يحكمها ابن حمدان، البحرين واليمامة يحكمها القرامطة، أصبهان يحكمها بنو بويه، خراسان يحكمها نصر الساماني، طبرستان يحكمها الدَّيْلَم، الأهواز يحكمها البُريديون، كرمان يحكمها محمد بن إلياس، الدولة العباسية أو الخلافة العباسية لا تحكم إلاَّ بغداد فقط، ولا تبسط سيطرتها حتى على أطراف العراق.

هكذا كان الوضع في أقطار العالم الإسلامي؛ لم يكن هناك أيُّ أمل في أيِّ مدد إلى بلاد الأندلس؛ حيث كانت كلها أقطار مشتتة ومفرقة، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله!

وإن الناظر إلى بلاد الأندلس في ذلك الوقت ليرى أنه لا محالة من انتهاء الإسلام فيها، وأن ما هي إلا بضعة شهور أو سنوات قلائل حتى يدخل النصارى إلى الأندلس ويُحكِموا قبضتَهم عليها، ولن تُنقَذَ إلاَّ بمعجزة جديدة مثل معجزة عبد الرحمن الداخل رحمه الله.

وبالفعل فإن الله تعالى بمنِّه وجُودِه أنعم على المسلمين بتلك المعجزة للمرَّة الثانية، فمَنَّ عليهم بأمير جديد، وحَّد الصفوف وقوَّى الأركان، وأعلى من شأن بلاد الأندلس حتى أصبحت في عهده أقوى ممالك العالم على الإطلاق، وأصبح هو أعظم ملوك أوربا في زمانه بلا منازع، إنه عبد الرحمن الناصر رحمه الله.

* * *



الباب الخامس

عصر الخلافة الأموية





الفصل الأول

عبد الرحمن الناصر

عبد الرحمن الناصر (٢٧٧-٣٥٠هـ= ٨٩٠-٩٦١م) وتولي الحكم

رأينا كيف كان الوضع أواخر عهد الضعف من الإمارة الأموية، وكيف أن الناظر إلى بلاد الأندلس في ذلك الوقت يرى أنه لا محالة من انتهاء الإسلام فيها، وأنها ما هي إلاَّ بضعة أشهر أو سنوات قلائل حتى يدخل النصارى الأندلسَ ويُحكِمُوا قبضتهم عليها.

من يكون عبد الرحمن الناصر؟

هو أمير المؤمنين الناصر لدين الله أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله المرواني، وأُمُّه أمُّ ولدٍ تُسمَّى (ماريا) أو (مرته أو مزنة)، وجِدُّه السادس هو عبد الرحمن بن معاوية الأموي - صقر قريش - وقد وُلِدَ في قُرْطُبَة وعاش بها.

نشأ عبد الرحمن بن محمد يتيمًا؛ فعندما كان عُمرُه عشرين يومًا قَتَلَ عمُّه أباه؛ لأنه كان مؤهلاً للإمارة بعد أبيهما عبد الله الأمير السابع من أمراء الأمويين بالأندلس، وفتح الصبي عينيه على الدنيا ليجد الحياة قاتمة أمامه، ولم يكن البلاط الأموي المشغول بكثير من الأحداث -من ثورات داخلية ومطامع خارجية- لِيشغلَ نفسه بطفل صغير كهذا، غير أن جدَّه الأمير عبد الله -الذي اتصف بالورع والتقوى والتقشف وحب الناس، وكان على درجة عالية من التدين- هذا الجد هو الذي تولَّى تربيته، فنال الصبي الصغير نصيبًا كبيرًا من رعايته، وكان جزاءُ عَمِّه

القتل، فقد قتله أبوه عبد الله، بعد أن تأكد من براءة أخيه مما اتُّهم به، ثم اهتم الأمير عبد الله بحفيده اهتمامًا كبيرًا وأولاه عناية خاصة[١]؛ ولعلَّ ذلك عطفٌ وشفقةٌ عليه بعد مقتل أبيه، ونشأ عبد الرحمن في هذا الجو المليء بالأحداث المتتابعة.

وكان عبد الرحمن من ناحيته فتى شديد النجابة والنبوغ، وأبدى بالرغم من حداثته تفوقًا في العلوم والمعارف إلى درجة تسمو على سنه، ودرس القرآن والسُّنَّة وهو طفل لم يجاوز العاشرة، وبرع في النحو والشعر والتاريخ، ومهر بالأخص في فنون الحرب والفروسية، حتى كان جده يُرَشِّحه لمختلف المهام، ويندبه للجلوس مكانه في بعض الأيام والأعياد لتسليم الجند عليه، وهكذا تعلَّقت آمال أهل الدولة بهذا الفتى النابه، وأضحى ترشيحه لولاية العهد أمرًا واضحًا مقضيًّا، بل يقال: إن جده قد رشحه بالفعل لولاية عهده، وذلك بأن برئ بخاتمه إليه حينما اشتدَّ عليه المرض كإشارة باستخلافه[٢].

لا شَكَّ أن سيرة عبد الرحمن الداخل -الجد الأكبر لعبد الرحمن- كانت تلهمه، كما أن قصة تأسيسه للدولة الأموية بعد عناء وجهاد وإرادة فولاذية كانت نصب عين عبد الرحمن، وهو يخوض ما يمكن أن نُسَمِّيَه رحلة التأسيس الثاني.

ومن الطرائف التي تندر في التاريخ أن أحدًا من أعمام عبد الرحمن، ولا من أعمام أبيه، حاول أن يعترضه في المنصب أو ينازعه فيه[٣]، بل كانوا أول مَنْ بايعوه حتى تكلم بلسانهم عمه أحمد بن عبد الله قائلاً: «والله! لقد اختارك الله على علم للخاص منا والعام، ولقد كنتُ أنتظر هذا من نعمة الله علينا، فأسأل الله إيزاع

(١) ابن الأثير: الكامل، ٦/ ٤٦٧، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٥٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٨/ ٢٦٥، ١٥/ ٥٦٢، والصفدي: الوافي بالوفيات، ١٨/ ١٣٦.
(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/ ٣٧٣.
(٣) رسائل ابن حزم ٢/ ١٩٤.

الشكر، وتمام النعمة، وإلهام الحمد»[١].

وقفة مع عبد الرحمن الناصر، وبداية حياته، وتوجُّهه نحو الإصلاح:

إن دراسة كافَّة جوانب حياة عبد الرحمن الناصر لَتحتاج إلى دراسة جادَّة متأنِّية، وعناية خاصَّة تَفُوق هذه السطور، إلا أن هناك بعض الإشارات العامَّة رأينا أن نقف أمامها بعض الشيء، فحينما تولى رحمه الله الحُكم كان يبلغ من العمر اثنتين وعشرين سنةً هجريةً[٢]؛ أي: إحدى وعشرين سنةً ميلادية، وبِلُغَةٍ أخرى فهو طَالِبٌ بالفرقة الثالثة أو الرابعة بالجامعة في أيامنا هذه،هذه واحدة.

أمَّا الثانية فإنه يُخطئ مَنْ يَظُنُّ أن تاريخ عبد الرحمن الناصر رحمه الله يبدأ منذ هذه السن أو منذ ولايته هذه على البلاد، فقد رُبِّي عبد الرحمن الناصر منذ نعومة أظافره تربية قلَّما تتكرَّر في التاريخ.

لم يكد يرى عبد الرحمن الناصر نورَ الدنيا حتى قُتِلَ أبوه، وهو بعدُ لم يبلغ من العمر إلا ثلاثة أسابيع فقط؛ ومن ثَمَّ قام على تربيته جدُّه الأمير عبد الله بن محمد، فربَّاه رحمه الله ليقوم بما لم يستطع هو القيام به، ربَّاه على سعة العلم وقوة القيادة، وحب الجهاد، وحُسن الإدارة؛ ربَّاه على التقوى والورع، ربَّاه على الصبر والحلم وعلى العزة والكرامة، ربَّاه على العدل مع القريب والبعيد، ربَّاه على الانتصار للمظلوم، ربَّاه ليكون عبدَ الرحمن الناصر.

وهي رسالة إلى كل آباء المسلمين وأُولي الأمر منهم: إن لم نكن نحن عبد الرحمن الناصر فليكن أبناؤنا عبد الرحمن الناصر ، وإذا كان كل مولود يُولَد على الفطرة، فأبواه يهوِّدانه أو ينصِّرانه أو يمجِّسانه؛ فما بال تربية أبنائنا اليوم؟! هل نأمرهم

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/ ٣٧٤.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٦/ ٤٦٧، وابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٥٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٨/ ٢٦٥، ١٥/ ٥٦٢، والصفدي: الوافي بالوفيات، ١٨/ ١٣٦.

بالصلاة عند سبع ونضربهم عليها عند عشر؟! هل نُحَفِّظ أبناءَنا القرآن، أم ندعهم يتعلمون اللغات فقط، ويحفظون الأغاني، وينشغلون بالكرتون؟! وتُرَى ما قدوة أولادنا الآن؟ وبمَنْ يتمثَّلون ويُريدون أن يكونوا مثلهم؟! أعباء ضخمة، ولكن: «كُلُّكُمْ رَاعٍ وَكُلُّكُمْ مَسْئُولٌ عَنْ رَعِيَّتِهِ»(١).

والثالثة أنَّ عبد الرحمن الناصر رحمه الله حين تولَّى الحُكم كان على ثقةٍ شديدةٍ بالله عز وجل، وفي الوقت ذاته على ثقةٍ شديدةٍ بنفسه، وأنه قادر على أن يُغَيِّر، فهو يعي قول الله تعالى: ﴿إِنْ يَنْصُرْكُمُ اللهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ وَعَلَى اللهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ﴾ [آل عمران: ١٦٠]. فلم يدخل قلبَه يومًا شكٌّ أو يأسٌ أو إحباطٌ من صعوبة التغيير أو استحالته، أو أنَّه لا أمل في الإصلاح.. فقام وهو ابن اثنين وعشرين عامًا، وحمل على عاتقه مهمَّة ناءت بها السموات والأرض والجبال؛ مهمَّة هي من أثقل المهام في تاريخ الإسلام.

* * *

(١) البخاري: كتاب العتق، باب كراهية التطاول على الرقيق (٢٤١٦) عن عبد الله بن عمر، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضيلة الإمام العادل وعقوبة الجائر (١٨٢٩).

الفصل الثاني

الجهاد السياسي والعسكري لعبد الرحمن الناصر

عبد الرحمن الناصر وتغيير التاريخ

يتولَّى عبد الرحمن الناصر الحُكم ويقوم بأمر الإمارة، فإذا به -وسبحان الله- يُحيل الضعف إلى قوَّة، والذلَّ إلى عزَّة، والفُرقَة إلى وَحْدَة، ويُبَدِّد الظلام بنور ساطع يُشرق في كل سماء الأندلس تحت مجدٍ وسيادةٍ وسلطان.

بعد تَوَلِّي عبد الرحمن الناصر الحُكم -وبهذه المؤهلات السابقة، وبهذه التربية الشاملة لكل مقوِّمَات الشخصية الإسلامية السوِيَّة، وبهذه الثقة الشديدة بالله وبنفسه- أقدم على تغيير التاريخ، فقام بما يلي:

أولاً: إعادة توزيع المهام والمناصب، أو ما يمكن تسميته (تنظيف قُرْطُبَة):

حين تولَّى الحُكمَ لم يكن عبد الرحمن الناصر يملك من بلاد الأندلس سوى قُرْطُبَة وما حولها من القرى[1]، ورغم أنها تُعَدُّ أكبر بلاد الأندلس، وتُمَثِّل مركز ثقل كبير لكونها العاصمة، إلا أنها لم تكن تمثِّل أكثر من عُشْرِ مساحة الأندلس، وبدأ عبد الرحمن الناصر من هذه المساحة الصغيرة يُغَيِّر من التاريخ.

فقام بتغيير البطانة التي حوله -أو فريق العمل بمصطلحاتنا الآن- فعزل مَنْ رآه غير صالح للمنصب الذي هو فيه، وولَّى مَنْ رأى فيهم الكفاءة والمقدرة وحُسن

---

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٨/ ٢٥٦.

تدبير الأمور[١].

ثم أعلى من شأن العلماء، ورفع منزلتهم فوق منزلته نفسه، ورضخ لأوامرهم ونواهيهم، فطبَّق ذلك على نفسه أولاً قبل أن يُطَبِّقه على شعبه، واجتهد قدر طاقته في تطبيق بنود الشريعة.

ولقد وَرَدَ أنه رحمه الله كان يحضر خطبة الجمعة، وكان يخطبها المنذر بن سعيد، وكان من أكبر علماء قُرْطُبَة في ذلك الوقت، وكان شديدًا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، حتى على عبد الرحمن الناصر رحمه الله الخليفة والأمير، وكان عبد الرحمن الناصر قد بنى لنفسه قصرًا كبيرًا، فأسرف المنذر في الكلام، وأسرع في التقريع لعبد الرحمن الناصر لبنائه ذلك القصر.

وحين عاد عبد الرحمن الناصر إلى بيته قال: «والله! لقد تعمَّدني منذر بخطبته، وما عَنى بها غيري، فأَسرَفَ عليَّ، وأَفرَط في تقريعي، ولم يُحْسِن السياسة في وعظي؛ فزعزع قلبي، وكاد بعصاه يقرعني».

وهنا أشار عليه رجل ممن كانوا حوله بعزله عن خطبة الجمعة، فردَّ عليه عبد الرحمن الناصر قائلاً: «أَمِثْلُ منذر بن سعيد في فضله وخيره وعلمه يُعزَل؟! يُعزَل لإرضاء نفسٍ ناكبةٍ عن الرشد، سالكةٍ غيرَ قصد؟! هذا والله لا يكون، وإني لأستحي من الله ألا أجعل بيني وبينه ﷻ في صلاة الجمعة شفيعًا مثل منذر في ورعه وصِدْقِه». وما عزله حتى مات[٢].

وعلى مثل هذه المبادئ وهذه المعاني بدأ عبد الرحمن الناصر رحمه الله يُربِّي أهل قُرْطُبَة، وكان في انصياعه هو قدوة للناس جميعًا.

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٥٨.

(٢) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٠، وابن خاقان: مطمح الأنفس، ص١٠٠، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٥٧١.

ثانيًا: الاتِّجاه إلى الثورات ومحاولة ترويضها:

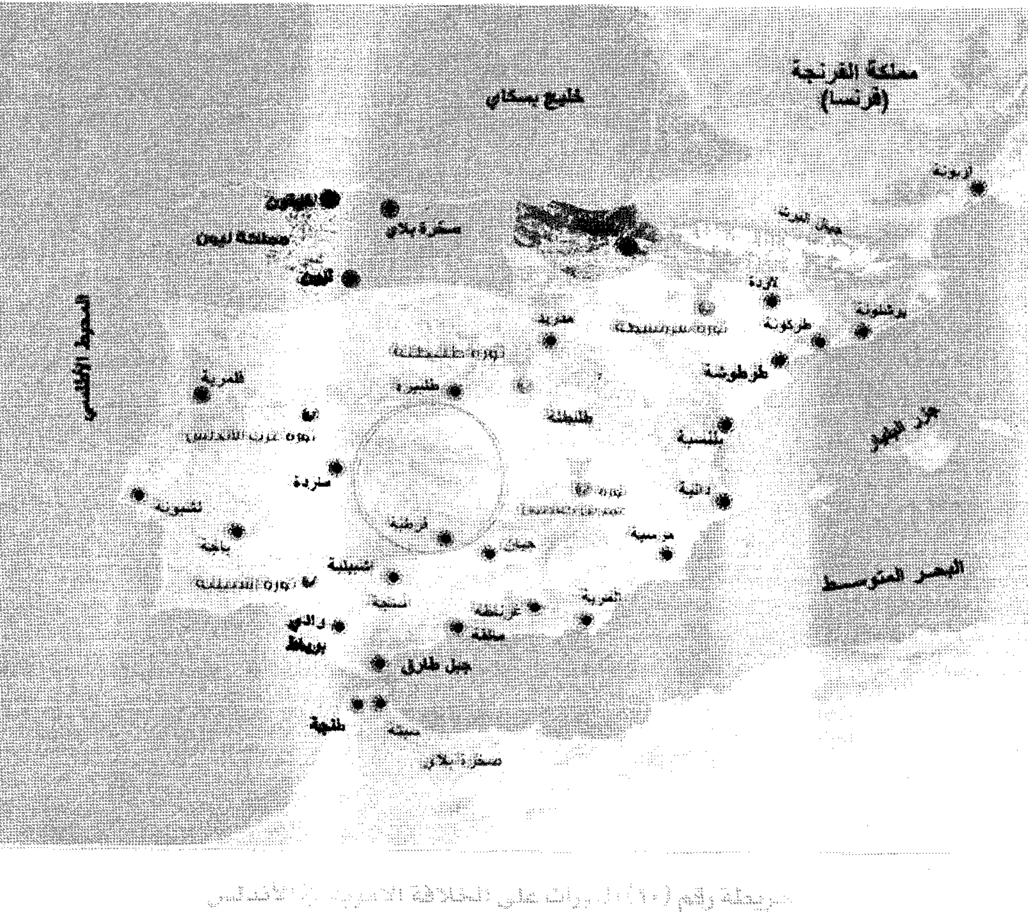
بعد الانتهاء من الشأن الداخلي في قُرْطُبَة وتهيئته تمامًا بدأ عبد الرحمن الناصر رحمه الله يتجه إلى المحيط الخارجي؛ حيث الثورات المتعدِّدة في كل أرض الأندلس، فأرسل حملة يقودها عباس بن عبد العزيز القرشي إلى قلعة رباح، التي كان قد ثار فيها واحد من زعماء البربر يُدعى الفتح بن موسى بن ذي النون، ومعه حليف قوي آخر يُدعى «أرذبلش»، وبعد معارك شديدة هُزم الفتح بن موسى وقُتل أرذبلش، وبعث برأسه إلى قُرْطُبَة حيث علَّقها الناصر على باب السدة لإرهاب الثائرين، وطهرت قلعة رباح وما حولها من الثورة.. كان ذلك في ربيع الآخر من عام (٣٠٠ هـ)، أي بعد شهر واحد من جلوسه على كرسي الملك.

ثم أرسل سرية أخرى في جمادى الأولى إلى الغرب فاستردت مدينة إِسْتِجَة، التي كان يُسيطر عليها أتباع ابن حفصون، فحققت النصر على العصاة، وهدمت أسوار المدينة وقنطرتها الواقعة على نهر شنيل؛ لتعود معزولة لا يمكنها أن تثور مرَّة أخرى.

ثم خرج عبد الرحمن بنفسه قائدًا على حملة عسكرية، فكان في توليه القيادة ما أثار نفوس الجنود بالحماسة والعزم، وتوجَّه بها إلى عُمَر أو صمويل بن حفصون (٢٤٠-٣٠٦هـ=٨٥٥-٩١٩م)[1]؛ وكان لتبكيره إليه ونهوضه إليه بنفسه ثلاثة أسباب:

الأول: أن هذا الرجل لا يختلف اثنان على أنه يستحقُّ القتل؛ وذلك لأنه ارتدَّ عن دين الله عز وجل، وفارق جماعة المسلمين بخروجه عليهم؛ ومن ثَمَّ فقد أصبح قتاله فرضًا على المسلمين.

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ١٥٩.



خريطة رقم ([illegible]) الثورات على الخلافة الأموية في الأندلس

والثاني: أن ابن حفصون كان الثائر الأقوى والتهديد الأكبر من بين الثائرين في الجزيرة، وتركه على حاله ومواجهة صغار الثائرين، يُقَوِّي مركزه، كما يُقَوِّي نفوس الثائرين الآخرين، ويضع صورة الحكم في قُرْطُبَة في حرج شديد، إذا ظهر أنها تتأخَّر عن مواجهته.

والثالث: أنه يستطيع بذلك أن يحفِّزَ أهل قُرْطُبَة الذين كانوا قد ألفوا الثورات في هذه الآونة؛ حيث المعركة في منتهى الوضوح؛ فهي بين المسلمين والمرتدين.

في الطريق للقضاء على ثورة صمويل بن حفصون:

استمرَّ مدى هذه الحملة طيلة ثلاثة أشهر كاملة؛ هي شعبان ورمضان وشوال من سنة (٣٠٠هـ= ٩١٣م) في العام نفسه الذي تولَّى فيه رحمه الله، واستردَّ فيها مدينة جَيَّان، وهي من المدن الحصينة في الأندلس، كما استردَّ فيها زهاء سبعين حصنًا من أمهات المعاقل الثائرة، وهزم فيها جيوش ابن حفصون هزائم منكرة[(١)].

ولكن ما زالت قوة صمويل بن حفصون كبيرة جدًّا؛ فالمدد يأتيه من الشمال من دول النصارى، ويأتيه -أيضًا- من الجنوب من الدولة العبيدية (الفاطمية)، هذا فضلاً عن إمدادات مدينة إِشْبِيلِيَة، التي كان عليها حاكم مسلم من بني حجاج، لكنه كان متمرِّدًا على سلطة قُرْطُبَة، وكان يملك جيشًا مسلمًا كبيرًا.

وفكَّر عبد الرحمن الناصر كثيرًا في كيفية قطع هذه الإمدادات عن صمويل بن حفصون، واهتدى أخيرًا في أن يبدأ بالهجوم على مدينة إِشْبِيلِيَة أكبر مدن الجنوب بعد قُرْطُبَة؛ وذلك بمنطق النزعة الإسلامية التي غلبت عليه؛ حيث أَمَّل إن هو ذهب إلى إِشْبِيلِيَة واستطاع أن يُرغِم حَاكِمَها على الانضمام له، أو الانصياع إليه بالقوة أن ينضم إليه جيش إِشْبِيلِيَة المسلم الكبير، وبذلك تقوى جيوش الدولة

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٦٠- ١٦٣، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/ ٣٧٦.

الأموية، وتقوى شوكته.

وبالفعل -وبعونٍ من الله- كان له ما أمَّل؛ حيث ذهب إلى إِشْبِيلِيَة بعد أقل من عام واحد من ولايته في سنة (٣٠١هـ= ٩١٤م)، واستطاع أن يضمَّها إليه؛ فقويت بذلك شوكته وعظم جانبه، فعاد إلى صمويل بن حفصون بعد أن قطع عنه المدد الغربي الذي كان يأتيه من إِشْبِيلِيَة، واستردَّ منه جبال رُنْدة ثم شَذُونَة ثم قَرْمُونَة[1]، وهي جميعًا من مدن الجنوب.

تعمَّق عبد الرحمن الناصر بعد ذلك ناحية الجنوب حتى وصل إلى مضيق جبل طارق فاستولى عليه، ويكون بذلك -أيضًا- قد قطع الإمدادات والمساعدات التي كانت تأتيه من الجنوب من الدولة العبيدية (الفاطمية) عن طريق مضيق جبل طارق، وسعى عبد الرحمن الناصر إلى أكثر من هذا؛ حيث قطع -أيضًا- طريق الإمدادات التي كانت تأتيه من الدول النصرانية في الشمال عن طريق المحيط الأطلسي، ثم مضيق جبل طارق، ثم البحر الأبيض المتوسط، ثم إنه وجد في البحر مراكب لابن حفصون كانت تأتيه بالمدد من بلاد المغرب العربي فأحرقها؛ وبذلك يكون عبد الرحمن الناصر قد قطع عن صمويل بن حفصون كل طرق الإمدادات والمساعدات التي كانت تمدُّه وتُقَوِّيه[2].

ولم يجد صمويل بن حفصون بُدًّا من طلب الصلح والمعاهدة من عبد الرحمن الناصر على أن يُعطيه اثنين وستين ومائة حصن من حصونه، ولأن البلاد كانت تشهد موجة من الثورات والانقسامات يُريد عبد الرحمن الناصر أن يتفرَّغ لها، فضلاً عن أنه سيضمن في يده اثنين وستين ومائة حصن، وسيأمن جانب عدوِّه؛ فقد قَبِلَ

---

(١) قرمونة أو قرمونية: كورة بالأندلس يتصل عملها بأعمال إشبيلية غربي قرطبة وشرقي إشبيلية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٣٠.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٦٤، ١٦٥، وتاريخ ابن خلدون: ٤/ ١٣٩.

المعاهدة ووافق على الصلح مع صمويل بن حفصون[١].

عبد الرحمن الناصر يُفاجئ الجميع ويتجه نحو الشمال الغربي:

أصبحت قوَّة عبد الرحمن الناصر رحمه الله تضمُّ قُرْطُبَة وإِشْبِيلِيَة وجَيَّان وإِسْتِجَة، وهي جميعًا من مدن الجنوب، إضافة إلى حصون أخرى كثيرة - كما ذكرنا - وكل هذه المساحة كانت تُمَثِّل تقريبًا سُدُسَ مساحة الأندلس الإسلامية في ذلك الوقت، هذه أولاً.

وثانيًا: أن صمويل بن حفصون ما زال يملك حصونًا كثيرة، ويُسيطر سيطرة كاملة على الجنوب الشرقي من البلاد، لكن قُطِعت عنه الإمدادات الخارجية؛ سواء من النصارى أو الدولة العبيدية (الفاطمية) أو إِشْبِيلِيَة، فصار خطره محدودًا بالمقارنة بالحال من قبل.

وثالثًا: كان هناك تمرُّد في طُلَيْطِلَة (تقع في شمال قُرْطُبَة)، ورابعًا: تمرُّد في سَرَقُسْطَة في الشمال الشرقي، وخامسًا: تمرُّد في شرق الأندلس في بَلَنْسِيَة، وسادسًا: تمرُّد في غرب الأندلس يقوده عبد الرحمن الجِلِّيقي.

أي أن الأندلس في عام (٣٠٢هـ= ٩١٥م) كانت مقسمة إلى ستة أقسام؛ قسم واحد فقط في يد عبد الرحمن الناصر، ويضمُّ قُرْطُبَة وإِشْبِيلِيَة وما حولها، بما يُقارب سدس مساحة الأندلس -كما ذكرنا- والخمسة الأخرى مُوَزَّعة على خمسة متمردين، والمتوقَّع - إذًا - أن يحاول عبد الرحمن الناصر من جديد مقاومة أحد مراكز التمرُّد هذه، وبخاصة الأقرب منه.

وإن المرء ليقف متعجِّبًا حين يعلم أن عبد الرحمن الناصر ترك كل هذه التمرُّدات، واتَّجه بصره صوب الشمال الغربي؛ صوب مملكة ليون النصرانية مباشرة،

---

(١) تاريخ ابن خلدون: ٤/ ١٣٩.

فأرسل أحد قادته، فانتصر وغنم وسبى، ثم عاد في العام نفسه، غير أن النصارى أرادوا الانتقام لهزيمتهم، فعادوا لمهاجمة ديار المسلمين، فأُرْسِلَتْ إليهم صائفة في العام التالي، غير أن المسلمين هُزموا فيها، فتجرَّأ النصارى من بعدُ على مهاجمة الثغور، فأرسل عبد الرحمن الناصر إليهم في العام التالي جيشًا قويًّا أوقع بهم هزيمة مريرة[1].

فكأنه أراد أن يُعَلِّم الناس أمرًا ويُرسل إليهم برسالة في منتهى الوضوح كانت قد خَفِيَتْ عليهم؛ مفادها: أن الأعداء الحقيقيين ليسوا المسلمين في الداخل، إنما هم النصارى في الشمال؛ مملكة ليون، ومملكة نافار، وبهذا العمل استطاع عبد الرحمن الناصر رحمه الله إحراج المتمردين إحراجًا كبيرًا أمام شعوبهم، كما استطاع أن يُحَرِّك العاطفة في قلوب الشعوب نحوه، وكذلك تتحرك عواطف الشعوب نحو مَنْ يُدافع عن قضاياها الخارجية، ونحو مَنْ يحارب أعداءها الحقيقيين.

وهذه نصيحة إلى أولياء أمور المسلمين بألا يتهاونوا بعواطف الشعوب، وأن يُقَدِّروها حقَّ قدرها، وأن يستميلوها بالتوجُّه نحو الأعداء الحقيقيين، بدلاً من الصراع مع الجار أو القُطر المسلم، فإذا كانت القضية هي فلسطين، أو الشيشان، أو كشمير، أو غيرها من قضايا المسلمين كانت الوَحْدة والتجمُّع، وكان الانسجام وعدم الفُرقة.

لم يمضِ عامان آخران حتى جاءته هدية من رب العالمين، ألا وهي موت صمويل بن حفصون مرتدًا وعلى نصرانيته في سنة (٣٠٦هـ=٩١٩م)، ذلك الثائر الأخطر في تاريخ الأندلس منذ الفتح، والذي ظلَّت ثورته تؤرِّق بلاط العاصمة الأندلسية ثلاثين عامًا، وكانت هذه بداية النهاية لمعاقل ابن حفصون التي تنازعها

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٦٩.

أولاده فافترقوا، ومنهم مَنِ انحاز إلى الناصر، فسهل على الناصر بعد مجموعة من المعارك الاستيلاء على كل معاقل ابن حفصون وتطهيرها في عام (٣١٦ هـ)[١].

عبد الرحمن الناصر والطريق إلى راية واحدة للأندلس:

لم يلتقط عبد الرحمن الناصر رحمه الله أنفاسه، وقام في سنة (٣٠٨هـ= ٩٢١م) بالتحرُّك نحو نصارى الشمال بجيش كثيف، وفي طريقه نحو الشمال خاف صاحب طُلَيْطِلَة المستقل بها أن يغزوه عبد الرحمن فخرج بجيشه مع الناصر مُظهرا الطاعة، واتجه الجيشان نحو غزو الشمال[٢]، بعدها أصبح الطريق آمنًا نحو الشمال مباشرة؛ حيث سَرَقُسْطَة في الشمال الشرقي وطُلَيْطِلَة في وسط الشمال قد أصبحتا في يده.

وفي العام نفسه (٣٠٨هـ= ٩٢١م) وعمره - آنذاك - ثلاثون سنة فقط، قام عبد الرحمن الناصر على رأس حملة ضخمة جدًّا باتجاه نصارى الشمال، فكانت غزوة موبش الكبرى بين عبد الرحمن الناصر من جهة، وجيوش ليون ونافار مجتمعة من جهة أخرى، واستمرَّت هذه الغزوة طيلة ثلاثة أشهر كاملة، حقق فيها عبد الرحمن الناصر انتصارات ضخمة وغنائم عظيمة، وضمَّ إليه مدينة سالم وكانت تحت يد النصارى[٣].

وبعد أربعة أعوام من غزوة موبش وفي سنة (٣١٢هـ= ٩٢٤م) قام عبد الرحمن الناصر رحمه الله بنفسه بحملة ضخمة أخرى على مملكة نافار، واستطاع في أيام معدوداتٍ أن يكتسحها اكتساحًا، ويضم إلى أملاك المسلمين مدينة بنبلونة عاصمة

(١) انظر التفاصيل عند محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٣٨٣ وما بعدها.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ١٧٧. ونَبَّه ابن عذاري إلى أن طاعة صاحب طليطلة تحتها معصية؛ وبالفعل فقد خرجت طُلَيْطِلَة عن طاعة الناصر، فعاد وأرسل إليها سنة (٣١٨هـ) يُنذر ويتوعَّد، ويحضهم على الدخول في الطاعة، ولكنهم أَبَوْا، فضربِ عليهم الحصار عامين، استغاثوا خلالها بملك ليون، ولكنه لم يستطع أن يفعل لهم شيئًا، وفي النهاية سلَّموا لعبد الرحمن الناصر سنة (٣٢٠هـ).
(٣) لمزيد من التفاصيل: انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٧٥.

نافار، ثم بدأ بعدها يُحَرِّر الأراضي التي كان قد استولى عليها النصارى في عهد ضعف الإمارة الأُموية.

وفي سنة (٣١٦هـ=٩٢٨م) أرسل عبد الرحمن الناصر حملة أخرى إلى شرق الأندلس؛ لقمع التمرد الذي كان هناك، وضَمَّها بالفعل إلى أملاكه، ثم في العام نفسه أرسل حملة أخرى إلى غرب الأندلس فاستطاعت هزيمة عبد الرحمن الجِلِّيقي؛ ومن ثَمَّ ضمَّ غرب الأندلس إلى أملاكه من جديد[1].

وبذلك وبعد ستة عشر عامًا من الكفاح المضني يكون رحمه الله قد وحَّد الأندلس كلها تحت راية واحدة؛ وحَّدها جميعًا ولم يتجاوز عمره آنذاك ثمانية وثلاثين عامًا بعدُ.

عهد جديد.. عهد الخلافة الأموية:

نظر عبد الرحمن الناصر رحمه الله إلى العالم الإسلامي من حوله، فوجد الخلافة العباسية قد ضَعُفت، وكان المقتدر بالله الخليفة العباسي في ذلك الوقت قد قُتِل على يد مؤنس المظفر التركي، وقد تولَّى الأتراك حكم البلاد فِعْليًّا، وإن كانوا قد أجلسوا الخليفة العباسي القادر بالله على كرسي الحُكم.

ثم نظر رحمه الله إلى الجنوب فوجد العبيديين (الفاطميين) قد أعلنوا الخلافة، وسمَّوا أنفسهم أمراء المؤمنين، فرأى أنه - وقد وحَّد الأندلس، وصنع هذه القوة العظيمة - أحق بهذه التسمية وبذلك الأمر منهم؛ فأطلق على نفسه لقب أمير المؤمنين، وسمى الإمارة الأموية بالخلافة الأموية[2].

ومن هنا يبدأ عهد جديد في الأندلس هو عهد الخلافة الأموية، وذلك ابتداء من عام (٣١٦هـ= ٩٢٨م) وحتى عام (٤٠٠هـ= ١٠١٠م)؛ أي: نحو أربع وثمانين

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٩٧، ١٩٨.
(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٩٨، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٥٣.

سنة متصلة، وهو يُعَدُّ (عهد الخلافة الأموية) استكمالاً لعهد الإمارة الأموية، مع فروق في شكليات الحكم وقوة السيطرة والسلطان لصالح الأخير.

عبد الرحمن الناصر يتابع سياسته العسكرية التوسعية:

بعد ثلاث سنوات من إعلان الخلافة الأموية سنة (٣١٩هـ= ٩٣١م) اتجه عبد الرحمن الناصر جنوبًا نحو مضيق جبل طارق، وقام بغزو بلاد المغرب وحارب العبيديين (الفاطميين) هناك، فضم سَبْتَة وطَنْجَة إلى بلاد الأندلس، وتمَّت له بذلك السيطرة الكاملة على مضيق جبل طارق، فبدأ بإمداد أهل السُّنَّة في منطقة المغرب بالسلاح، لكنه لم يشأ أن يمدَّهم بالجنود؛ تحسُّبًا لهجمات ممالك النصارى في الشمال.

وفي سنة (٣٢٣هـ= ٩٣٥م) تَحْدُث خيانة من حاكم مملكة الشمال الشرقي (سَرَقُسْطَة) محمد بن هشام التُّجِيبي؛ حيث تحالف مع مملكة (ليون) النصرانية لحرب عبد الرحمن الناصر، وبكل حزم وقوة يأخذ عبد الرحمن الناصر جيشًا كبيرًا يتصدَّى به لهذه الخيانة ويهاجم مدينة (سَرَقُسْطَة)، وعند أطراف المدينة يهاجمه جيش (سَرَقُسْطَة)، فيغزو عبد الرحمن الناصر قلعة حصينة، ويمسك بقوَّاد هذا الجيش، ويقوم بإعدامهم على الفور أمام أعين الجميع في عمل لا يُوصف إلاَّ بالكياسة والحزم.

وهنا أعلن حاكم (سَرَقُسْطَة) محمد بن هشام التُّجِيبي ندمه وعودته إلى عبد الرحمن الناصر، وكعادة الأبطال الدُّهاة والساسة الحكماء قَبِلَ منه رحمه الله اعتذاره، ثم أعاده حاكمًا على (سَرَقُسْطَة)؛ رابحًا بذلك كل قلوب التجيبيين بعد أن كان قد تمكن منهم، متشبهًا في ذلك برسول الله ﷺ حين قال لأهل مكة بعدما دخلها فاتحًا، وكانوا قد طردوه منها وآذوه هو وأصحابه: «اذْهَبُوا فَأَنْتُمُ الطُّلَقَاءُ»[1].

(١) ابن هشام: السيرة النبوية ٢/ ٤١١، والسهيلي: الروض الأنف ٤/ ١٧٠، وابن القيم: زاد المعاد ٣/ ٣٥٦، وابن كثير: السيرة النبوية ٣/ ٥٧٠، وابن حجر: فتح الباري ٨/ ١٨.

وبمنطق الحزم وقت الحزم والعفو عند المقدرة عَمِلَ عبد الرحمن الناصر؛ فأطلق حُكَّام (سَرَقُسْطَة) بعد أن أعلنوا توبتهم، وأعاد التجيبيين إلى حكمهم؛ وفي سنة (٣٢٦هـ=٩٣٧م) بعث عبد الرحمن الناصر من سَرَقُسْطَة بحملة إلى أرض العدوِّ في الشمال، بقيادة نجدة بن حسين الصقلبي وأمر محمد بن هشام التجيبي بالخروج معه؛ اختبارًا لوفائه بالعهد، فخرج معه محمد، وقامت الحملة بواجبها؛ فاستولت على مدن وحصون، وهزمت النصارى هزيمة كبيرة، وعادت محملة بالغنائم إلى سَرَقُسْطَة[1].

زلَّة بشر وسنن لا تعرفُ النسبَ:

أن تسير الأمور هكذا على الدوام أمر في غاية الصعوبة، فليس هناك بشر لا يُخطئ، ولكل جواد كبوة. هذه ليست مبررات لما سيأتي بقدر ما هي بحث في العلَّة والسبب في محاولةٍ لتجنُّبه وتفاديه ما دام سَلَّمنا أنه من شِيَم البشر؛ ففي سنة (٣٢٧هـ= ٩٣٩م) وبعد سبع وعشرين سنة من بداية عهد عبد الرحمن الناصر كانت قوَّة الجيش الإسلامي قد بلغت شأوًا عظيمًا؛ حيث ناهزت المائة ألف مقاتل، والأندلس آنذاك تحت راية واحدة، أخذ عبد الرحمن الناصر هذا الجيش العظيم متجهًا إلى مملكة (ليون) النصرانية ليحاربهم هناك[2].

وفيما أشبه غزوة حُنَين تدور واحدة من أشرس وأعنف المعارك على المسلمين، سُمِّيَت بموقعة الخندق، وبانتهاء المعركة كان نصف عدد الجيش (خمسون ألفًا) بين القتل والأسر، وفرَّ عبد الرحمن الناصر رحمه الله مع النصف الآخر عائدين بأكبر خسارة وأثقل هزيمة.

وأرجع المؤرخون سبب الهزيمة إلى أن بعض المسلمين كانوا يجدون في قلوبهم

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/ ٤٠٥ وما بعدها.
(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٥٥.

من عبد الرحمن الناصر، فقبعوا للصفوف، وسارعوا في الهرب، وجرُّوا على المسلمين الهزيمة وأوبقوهم[١].

إلا أننا نعتقد أن الأمر ليس بهذه البساطة الظاهرة، ونرى أن الدولة التي بلغت هذا القدر من القوة، وخرج منها هذا الجيش المجهز، وتوالي انتصاراتها السابقة قد يكون أوقع في نفس عبد الرحمن الناصر ما كان قد وقع من قبل في نفس مَنْ هو خير منه؛ حين قالوا: «لن نغلب اليوم من قلة». فأخذ -كما أخذوا- درسًا ربانيًّا قاسيًا.

عبد الرحمن الناصر والعودة إلى سابق عهده:

بعد موقعة سمورة لم يستسلم عبد الرحمن الناصر ﵀، وهو الذي رُبِّيَ على الجهاد والطاعة لربِّه ولرسوله ﷺ، فعَلِمَ مواضع الخلل ومواطن الضعف، ومن جديد تدارك أمره، وقام ومعه العلماء والمربُّون يُحَفِّزون الناس.

ومن جديد أعدُّوا العُدَّة وقاموا بحرب عظيمة على النصارى سنة (٣٢٩هـ=٩٤١م) تلتها حملات مكثفة وانتصارات تلو انتصارات، ظلَّت من سنة (٣٢٩هـ=٩٤١م) إلى سنة (٣٣٥هـ=٩٤٧م) حتى أيقن النصارى بالهلكة، وطلب ملك (ليون) الأمان والمعاهدة على الجزية، يدفعها لعبد الرحمن الناصر عن يدٍ وهو صاغر[٢]، وكذلك فعل ملك نافار فدفعوا جميعًا الجزية ابتداءً من سنة (٣٣٥هـ=٩٤٧م)، وإن لم يمنع هذا من نقض ونشوب بعض الحروب خلال هذه الفترة وحتى آخر عهده ﵀ سنة (٣٥٠هـ=٩٦١م).

علاقة عبد الرحمن الناصر بالشمال الإفريقي:

لم تقتصر الأخطار التي كانت تُهَدِّد الدولة الإسلامية في الأندلس على ما كان في

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٣٧، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/ ٤١٥ وما بعدها.
(٢) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٣٧.

الأندلس نفسها من ثورات أتت على قواها ومواردها، ولا على ما كان يتربَّص بها من القوى الإسبانية النصرانية المتوثِّبة الطامحة للقضاء على المسلمين في الأندلس؛ بل وفي كل بقاع الأرض إن استطاعت إلى ذلك سبيلاً، لم تقتصر الأخطار المحدقة على هذا، وإنما تحالف مع هذه الأخطار وشاركها خطرٌ آخرُ يتربَّص بها في بلاد الشمال الإفريقي، خطرٌ لا يقلُّ طموحًا عن طموح النصارى في الشمال، فهو -أيضًا- يتمنى السيطرة على هذه الجزيرة، وعلى ما فيها من خيرات، ويعلم أنها لن تَدِين له بشكل كامل إلا إذا اعتنقت معتقده، وتخلَّت راغبة أو راهبة عما تعتقد؛ إنه الخطر الشيعي الإسماعيلي، الذي تمثَّل في هذا الوقت في الدولة العبيدية (المعروفة زورًا بالفاطمية).

أُعلن قيام هذه الدولة الخبيثة بالمغرب سنة (٢٩٧هـ)، بعد نجاح أبي عبد الله الشيعي في دعوته، وجذب الأعوان والأنصار لها، وقيامه بمبايعة «عبيد الله المهدي» بالخلافة، وكان ذلك في ظلِّ انشغال الإمارة الأموية في ذلك الوقت بمواجهة الثورات، التي كانت تعصف بالأندلس من الداخل، كما كانت مشغولة بردِّ اعتداءات نصارى الشمال على أرضها، وكانت أضعف -في ذلك الوقت- من أن تُسيطر على هاتين الجبهتين معًا، فكيف إذا فُتحت عليها جبهة ثالثة؟! ثم إن بلاد الشمال الإفريقي لطالما اعتُبِرَت خطَّ الدفاع الأول عن الأندلس؛ لأنها كانت دائمًا قاعدة غزو هذه البلاد.

وكان عبد الرحمن الناصر يعلم بكل هذه الأخطار؛ لقربه من جدِّه الأمير عبد الله، وكان مطلعًا على ما آلت إليه حال الأندلس من ضعف في الداخل والخارج، وما آل إليه حال الأعداء من قوَّة وتمكُّن، ولكنه -ومع علمه بهذا كله- لم يفعل مثل أعمامه وأعمام أبيه، ولم يترك الأمر بالكلية لغيره يتحمَّل أعباءه، وإنما تصدَّر لهذا الأمر، وقام به حقَّ القيام.

فإلى جوار المهامِّ العظيمة التي اضطلع عبد الرحمن الناصر بها منذ تَوَلِّيه الحكم،

إلا إنه ومع ذلك كان منذ اللحظة الأولى يرقب كل ما يحدث في بلاد الشمال الإفريقي بعين الحرص والحذر، وأنقذه وخفَّف عنه في ذلك الوقت أن الدولة العبيدية كانت هي الأخرى مشغولة بتوطيد أركانها في المغرب؛ لأنها ما كانت تستطيع الانطلاق إلى الأندلس أو إلى مصر إلاَّ بعد أن تستقرَّ في المغرب أولاً.

ولكن استقرار هذه الدولة في المغرب سيكون على حساب الأندلس بعد ذلك؛ لذلك لم يستطع عبد الرحمن الناصر أن يصبر حتى يقضي على كل الثورات في الأندلس قضاء مبرمًا، ولا أن يقضي على شوكة نصارى الشمال أولاً، وكذلك لم ينتظر حتى يفرغ العبيديون من أمر المغرب، ثم يأتي دور الأندلس، وإنما سارع هو إلى نقل المعركة إلى أرض المغرب؛ ليشغلهم بالمغرب عن العبور إلى الأندلس، وليستطيع تقوية مركزه في المغرب، فيتمكن من تهديد سلطان العبيديين هناك بعد ذلك، وفي ذلك براعة حربية؛ فهو بذلك يُشَتِّت جهود العبيديين العسكرية والسياسية، ويشغلهم عن الأندلس بالمغرب، ويعاقبهم على مساندتهم ومساعدتهم للثائرين عليه، بأن يُساعد هو -أيضًا- كلَّ مَنْ يسعى للخروج عليهم، ويضمُّه عبد الرحمن الناصر إليه، في حين لا يستطيع العبيديون أنفسهم أن يفعلوا ذلك.

ففي سنة (٣١٩هـ) أرسل الناصر أسطولاً قويًّا حشد له ما استطاع من رجال وعتاد، وأرسله إلى سَبْتَة فاستولى عليها من يد ولاتها بني عصام حلفاء العبيديين، ثم سارع بتحصينها، وإمدادها بالجند والسلاح، والقادة الأكفاء؛ لأنه يعلم جيدًا أن العبيديين لن يركنوا إلى الراحة والدعة، ولن يتخلَّوْا عن سَبْتَة بسهولة؛ ليس لأنها مفتاح الأندلس فحسب، ولكن لأنها إن بقيت في يد الناصر، فإنها ستُهَدِّد دولتهم الناشئة التي لم تستقرّ بعدُ، وقد عرفنا من قبلُ أهمية ميناء سَبْتَة بالنسبة للأندلس، ورأينا كيف أن موسى بن نصير لم يستطع العبور إلى الأندلس إلاَّ بعد أن أَمِن خطر سَبْتَة، وها نحن الآن نعرف أهمية سَبْتَة بالنسبة للمغرب -أيضًا- لذلك لا نعجب

إذا عرفنا إصرار إسبانيا على أن تبقى سَبْتَة ومليلة تحت يدها حتى الآن.

لقد كانت هذه خطوة جريئة حازمة من عبد الرحمن الناصر، أشعرت العبيديين -بلا شكٍّ- وحلفاءهم بالخوف والجزع من هذه القوة الجديدة، التي بدأ نجمها يبزغ في الأندلس، فإلى جوار الثورات التي يعمل هذا الرجل على إخمادها في بلاده، وبالرغم من وجود نصارى الشمال المتربِّصين به وبدولته، إذا به يفتح على نفسه جبهة جديدة في المغرب، وقد كان المنتظر منه أن يُسارع إلى الاستنجاد بهذه الدولة الفتية التي بدأت تظهر في المغرب؛ لتُعينه على أعدائه الكثيرين؛ لذلك فإننا نعتبر أن هذه الخطوة كانت من أكثر خطوات عبد الرحمن الناصر رحمه الله جُرْأة وشجاعة وحزمًا، كما كانت أكثرها دلالة على حُسن سياسته وفهمه الرائع لكيفية سير الأمور.

كان يمكن لعبد الرحمن الناصر أن يركن لهذا التقدم وهذا النصر المهم؛ فلقد شغلهم بسَبْتَة عن الأندلس، إلا أن الرجل كان قد عزم على أن يمضي في طريقه إلى النهاية، وألا تضعف همته أو تفتر، فراسل الحسن بن أبي العيش بن إدريس العلوي حاكم طَنْجَة لينزل له عن طَنْجَة؛ لتكتمل بذلك سيطرته على رأس العدوة، فرفض ابن أبي العيش ذلك، فحاصره أسطول الأندلس، وضيَّق عليه حتى اضطره إلى التسليم[(١)].

وفي سنة (٣١٩هـ) -أيضًا- أرسل إليه موسى بنُ أبي العافية أمير مِكْنَاسَة يحالفه ويدخل في طاعته، ويَعِدُه بالدعوة له في المغرب، وبتقريب أهل المغرب وزعمائهم منه، فتَقَبَّله عبد الرحمن أحسن قبول، وأمدَّه بالمال، وساعده في حروبه في المغرب؛ ليُقَوِّيَ مركزه[(٢)]، وبادر على إثر ذلك زعماء الأمازيغ (البربر) من الأدارسة وزناتة إلى طاعة عبد الرحمن الناصر والدعاء له على المنابر، وامتدَّ نفوذه إلى تاهرت، وفاس.

(١) أبو العباس أحمد الناصري: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ١/ ٢٥٣.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٠٤.

وفي سنة (٣٢٣هـ) أرسل القائم العبيدي جيشًا بقيادة ميسور الصقلبي إلى موسى بن أبي العافية، ودارت بينهما عدة معارك انهزم فيها موسى بن أبي العافية، وهرب إلى الصحراء، ثم استنجد بالناصر فأنجده، وهُزم العبيديون، وعاد لموسى بن أبي العافية ملكه في المغرب وقوي أمره[١]، كما قوي نفوذ الناصر لدين الله هناك؛ حتى إن مَنْ ثاروا على الدولة العبيدية في المغرب كانوا يُراسلونه ويعترفون له بأنه الأحق بالولاية، وكان عبد الرحمن الناصر يصلهم ويُحْسِنُ إليهم[٢].

كل هذا والمعركة دائرة في المغرب، فلمَّا قويت شوكة العبيديين في المغرب، وتغلَّبُوا على ما قام عليهم من ثورات، أقدم المعز لدين الله العبيدي على ما يُشبه جسَّ نبض عبد الرحمن الناصر، فأمر أسطوله بضرب سواحل الأندلس، وبالفعل هاجمت سفن العبيديين ثغر أَلَمِرِيَّة سنة (٣٤٤هـ)، وأحرقت ما فيه من سفن، وخَرَّبت كل ما استطاعت تخريبه، فكان ردُّ عبد الرحمن الناصر عليهم عنيفًا؛ إذ أمر فخرج أسطوله إلى سواحل الدولة العبيدية، وردَّ لهم الصاع صاعين، وعادوا سنة (٣٤٥هـ)[٣]، فعلم العبيديون أنه لا طاقة لهم بالأندلس، فلم يُعيدوا الكَرَّة.

وفي سنة (٣٤٧هـ) اجتاحت قوات العبيديين بقيادة جوهر الصقلي المغرب الأقصى، ودخلت فاس وقتلت عامل عبد الرحمن الناصر عليها، فأسرع عبد الرحمن الناصر بتجريد حملة أندلسية عبرت إلى المغرب، واستطاعت ردَّ العبيديين على أعقابهم[٤].

ثم لم يلبث عبد الرحمن الناصر أن مرض سنة (٣٤٩هـ)، ثم توفي رحمه الله سنة (٣٥٠هـ).

---

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١/ ١٣٦.
(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢١٣.
(٣) انظر ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٢١، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ٤٦.
(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٢٢.

فكره العسكري:

وَرِثَ عبد الرحمن الناصر عن جدِّه مؤسس الدولة الأموية في الأندلس عبد الرحمن الداخل مبادئ أساسية للحرب؛ منها:

مبدأ المباغتة: وقد ظهرت المباغتة في الأعمال القتالية للخليفة الناصر بشكل معقد جدًّا؛ مما يُشير إلى درجة التعقيد التي وصلتها الأعمال القتالية في أيامه، فهو يعتمد أحيانًا على المباغتة الزمنية؛ حيث يعمل على حشد القوات في ظاهر قُرْطُبَة خلال مرحلة مبكرة عمَّا هو معهود في توجيه الصوائف للغزو، وأحيانًا أخرى يلجأ إلى المباغتة المكانية؛ حيث يُضلِّل أعداءه ليظهر في مكان غير متوقَّع من مسرح العمليات؛ بحيث لا يعرف أعداءُ الشمال نوايا الناصر، وإلى أين سيُوَجِّه ثِقَلَ قوات الهجوم، وفي أحيان -أيضًا- تأخذ المباغتة عند الناصر شكل مباغتة على مستوى العمليات، وأحيانًا على المستوى الاستراتيجي، إذ لم يكن التوجُّه إلى عواصم دول الشمال (ليون ونافار) إلا نوعًا من المباغتة الاستراتيجية، كما أن طريقة زجِّ القوات وحجمها كان نوعًا من المباغتة على مستوى العمليات، وكانت مباغتة العمليات والمباغتة الاستراتيجية مميزة بشدَّة تعقيدها لما تُبرِزه متابعة مسيرة الأعمال القتالية؛ حيث تمتزج فيها المباغتة الزمنية بالمكانية بطرق زجِّ القوات لتأخذ شكلاً متقدِّمًا ومتطورًا لمفهوم المباغتة.

الموازنة بين إدارة الحرب وقيادة الأعمال القتالية:

أراد الخليفة الناصر في بداية حكمه إعطاء نموذج للجهاد بنفسه، فكان يقود المعارك بنفسه مدفوعًا بإيمان الشباب وحماسته للحرب، وممارستها بصورة فعلية، إلى جانب توفُّر الرغبة لحشد قوى المسلمين وتوجيهها وإثارة حميتها، وقد حقق نجاحًا رائعًا في هذا المضمار، حتى إذا استقامت له الأمور، لم تَعُدْ هناك حاجة للإقدام على مُجازفةٍ غير محسوبة تضرُّ بالإسلام والمسلمين بأكثر مما تفيدهم، كما

تبدَّى هذا في موقعة الخندق، فكان إمساك الخليفة الناصر بالإدارة العليا للحرب أكثر أهمية من قيادته للأعمال القتالية بنفسه؛ إذ سمح له ذلك بالإشراف على تنظيم الجيوش بصورة مستمرَّة، وإعادة تنظيمها -كُلَّما تطلَّبت الحاجة- وتوجيهها إلى ميادين القتال، وتحديد واجباتها بدقَّة، وتأمين متطلباتها من الإمداد والتموين.

لقد بقيت الأندلس طوال عهد الناصر لدين الله في حرب مستمرَّة ومتواصلة وعلى كافَّة الميادين والجبهات، وكان ذلك يتطلَّب تأمين موارد غير محدودة، وقد أظهرت مسيرة الأعمال القتالية أن قوات المسلمين كانت في تعاظم مستمرٍّ، وأن متطلباتها كانت متوفِّرة، ولم تظهر ولو مجرَّد ظاهرة واحدة تُشير إلى عيب أو خلل في التنظيم الإداري أو في تأمين الإمداد للمقاتلين، وليس ذلك إلا برهان ساطع على تلك الكفاءة العالية، التي ضمنت حشد الموارد الضرورية للقوات، وهو ما يُعْتَبَر في الجيوش القديمة والحديثة مقياسًا لكفاءة الإدارة المشرفة على الحرب، وهكذا فإن تخلِّي الخليفة الناصر عن إدارة القتال قد ساعده على تحقيق واجب أكبر؛ وهو الإدارة الشاملة للحرب، وتأمين متطلَّباتها، وضمان الظروف الموضوعية لتحقيق النصر.

المشهد الصليبي في عهد عبد الرحمن الناصر:

١- مملكة ليون:

بلغت الثورات والفتن الداخلية في الأندلس ذروتها في النصف الأخير من القرن الثالث الهجري (التاسع الميلادي)، وبدَّدت هذه الفتن قوى الأندلس ومواردها، وضعفت الأندلس حتى عن فرض سيطرتها على كثير من أراضيها؛ مما هيَّأ لإسبانيا النصرانية فرصة عظيمة للاستقرار ولتوطيد سلطانها في المناطق الخاضعة لها، وتنمية مواردها، وتقوية جيوشها؛ فلم يأتِ القرن العاشر الميلادي حتى كانت مملكة ليون -التي خَلَفَتْ مملكة جِلِّيقِيَّة، والتي كانت تضمُّ ولاية قشتالة- قد بلغت من القوة والبأس ما يُتيح لها أن تخوض صراعًا عنيفًا مع

الأندلس، وقد بلغ هذا الصراع ذروته في عهد عبد الرحمن الناصر، حتى استطاعت ليون هزيمة عبد الرحمن الناصر في موقعة شنت إشتيبن سنة (٩١٧م)؛ وذلك بالرغم من إنجازات عبد الرحمن الناصر الداخلية، وإخماده للفتن، وإحيائه لقوة الأندلس، ثم توالت غارات ليون على الأراضي الإسلامية عقب هزيمة شنت إشتيبن، حتى وفاة ملكها أردونيو الثاني سنة (٩٢٥م).

أضعف موت أردونيو الثاني مملكة ليون كثيرًا؛ إذ إن أخاه فرويلا -الذي تولَّى بعده- لم يبقَ في الحكم سوى عام واحد ثم مات، ليبدأ بموته نزاع شديد بين سانشو وألفونسو وَلَدَيْ أردونيو، وفاز ألفونسو في هذا الصراع بمعاونة ملك نافار صهره وحميه، ولكن سانشو (أخا ألفونسو) لم ييأس، فتوَّج نفسه ملكًا في شنت ياقب (في أقاصي جِلِّيقِيَّة) وجمع جيشًا جديدًا، ثم زحف على ليون، فحاصرها واستولى عليها، وارتقى العرش مكان أخيه، فعاد ألفونسو إلى الاستعانة بملك نافار، حتى استطاع أن يهزم أخاه، وأن يعود للحكم مرَّة أخرى، فعاد سانشو إلى جِلِّيقِيَّة، وظل مصرًّا على دعواه في الملك، واستمرَّت الحرب الأهلية حتى مات سانشو عام (٩٢٩م)، فاستقرَّ المُلْك لألفونسو الرابع دون منازعة، ولكن هذا الاستقرار لم يدم طويلاً؛ إذ ماتت زوجة ألفونسو الرابع فحزن لفقدها حزنًا عظيمًا، فشعر باليأس وزهد في الدنيا؛ فتنازل عن العرش لأخيه راميرو الثاني، والذي تُطلق عليه المصادر الإسلامية اسم رذمير، أما ألفونسو فإنه اعتكف في دير ساهاجون واعتنق الرهبانية.

لم يُطِقْ ألفونسو الرابع حياة الرهبانية كثيرًا، فترك الدير، ونادى بنفسه ملكًا في حصن شنت منكش، وكان هذا العمل عارًا كبيرًا في نظر الرهبان، فأثاروا عنه شائعات شديدة، حتى اضطر اضطرارًا إلى أن يعود إلى الرهبانية، ولكنه ما لبث أن انتهز فرصة مسير أخيه راميرو إلى دعم ثُوَّار طُلَيْطِلَة فغادر الدير، وزحف مع بعض أنصاره إلى مدينة ليون واستولى عليها، فعاد راميرو بجيشه مسرعًا واستولى على

ليون، وسمل عين أخيه وأبناءَ عمه فرويلا الثلاثة الذين ساعدوا أخاه؛ لكي يطمئن إلى أن أخاه لن يثور عليه مجدَّدًا.

وبهذا استقرَّ المُلْك لـ راميرو، الذي كان صليبيًّا متطرِّفًا، لم يترك وسيلة يمكنه أن يضرَّ بها دولة المسلمين إلاَّ استعملها، فكان يُغير على الأراضي الإسلامية، ويُحَرِّض الثوَّار على عبد الرحمن الناصر، ويُعينهم على ذلك بما يستطيع، وهذا غير المعارك المباشرة التي كان يخوضها بنفسه ضد المسلمين، وقد سبق أن فصلنا أدوار ذلك الصراع العنيف، الذي اضطرم بين راميرو وبين عبد الرحمن الناصر، والذي بلغ ذروته في موقعة الخندق، التي دارت فيها الدائرة على المسلمين تحت أسوار مدينة سمورة سنة (٣٢٧هـ= ٩٣٩م).

السعي لإنشاء مملكة قشتالة:

ولكي نفهم جيدًا تطورات الأحداث في ليون فإن علينا أن نقف أمام سعي قشتالة للانفصال عن جسم مملكة ليون؛ فقد كانت قشتالة في القسم الشرقي من مملكة ليون، وكان سُكَّان هذه المنطقة من البشكنس وأهل ألبة، وكان ملوك الجلالقة قد غزوها وأضافوها إلى مملكتهم، وواجهوا مقاومة عنيفة من زعماء قشتالة، الذين حاولوا قدر استطاعتهم الحفاظ على استقلالهم، ثم ثاروا في عهد أردونيو الثاني، فحاربهم وأخضعهم وأعدم بعضهم، حتى اضطر الباقون إلى الالتزام بطاعته.

استمرَّ الوضع كذلك حتى ظهور الكونت فرنان كونثالث، فحشد الكونت أنصاره وقواته وأعلن الحرب على راميرو الثاني ملك ليون، فهُزِم وأُسِر، ولكن القشتاليين استمرُّوا في الثورة والقتال، وزحفت جموعهم إلى ليون، فاضطر راميرو أن يُطلق سراح فرنان كونثالث شريطة أن يُقسم فرنان يمين الطاعة لملك ليون، وأن يتنازل عن كل أملاكه، وأن يُزوج ابنته أوراكا لأردونيو بن راميرو. ونَفَّذ فرنان كونثالث هذه الشروط، وأُطلق سراحه بالفعل، إلا أن هذا لم يُضعف من آماله

وأحلامه في الاستقلال بقشتالة عن مملكة ليون.

وكان المسلمون في هذه الفترة قد عادوا للإغارة من جديد وبقوة على أراضي ليون، وقام عبد الرحمن الناصر بتجديد مدينة سالم -ثغر الحدود بين الأراضي الإسلامية وقشتالة- سنة (٩٤٦م)، واضطر راميرو أمام هذه الضربات القوية أن يلتزم خطة الدفاع؛ فاستغل فرنان كونثالث هذه الأوضاع الجديدة، فعمل جاهدًا على توطيد مركزه، وضمَّ كل الزعماء القشتاليين تحت لوائه؛ ليسهل عليه الاستقلال بقشتالة بعد ذلك.

عودة لمملكة ليون:

توفي راميرو الثاني في أوائل سنة (٩٥٠م)، وترك مِنْ بعده ولدين كان أكبرهم هو أردونيو، وهو من زوجته الأولى تاراسيا، وسانشو وهو من زوجته الثانية أوراكا أخت غرسية ملك نافار، وكان أردونيو -في العرف الأوربي آنذاك- هو الأحق بالعرش؛ باعتبار أنه الأكبر سنًّا، غير أن أخاه قد طمع في العرش، فاستعان بأخواله من نافار، وجدته طوطة ملكة نافار، كما تحالف مع الكونت فرنان كونثالث الذي يتوق للانفصال بقشتالة؛ ومن ثَمَّ لم يكن همه إلا أن يُضعف مملكة ليون؛ حتى لو كان ملكها هو أردونيو زوج ابنته، ومع ذلك استطاع أردونيو أن يهزم سانشو والمتحالفين معه، واستقرَّ بذلك على العرش.

وكانت غزوات المسلمين تتوالى في هذه الفترة على الأراضي الليونية، فاضطر أردونيو نتيجة هذه الاضطرابات الداخلية أن يطلب عقد صلح مع عبد الرحمن الناصر في أوائل سنة (٩٥٥م)؛ فاشترط عليه الناصر أن يُصلح بعض القلاع الواقعة على الحدود، وأنْ يهدم البعض الآخر.

ثم ما لبث أن توفي أردونيو بعد ذلك بقليل، وخلفه أخوه سانشو في المُلْكِ، فرفض تنفيذ المعاهدة التي عقدها أخوه مع عبد الرحمن الناصر، فبعث الناصر جيشًا

غزا ليون، فاضطر سانشو أن يعقد الصلح، وأن يُقِرَّ ما سبق أن تَعَهَّد به أخوه، وبذلك ساد الهدوء بين الفريقين لفترة.

كان المتوقع أن يسود الهدوء -أيضًا- بين فرنان كونثالث في قشتالة وبين سانشو في ليون؛ إذ وقف فرنان كونثالث في صف سانشو، حينما ثار الأخير على أخيه، ولكن ما حدث كان على خلاف ذلك؛ إذ إنَّ فرنان كونثالث لم يلبث أن انقلب على سانشو، وأصبح يُبادله الخصومة والعداوة، ولم تلبث الأحوال أن ساءت أكثر داخل مملكة ليون عندما ثار الأشراف على سانشو، ونزعوه من العرش، بحجة أنه لم يُفلح في هزيمة المسلمين، وأن بدانته المفرطة تمنعه من ركوب الخيل ومباشرة القتال بنفسه، ففرَّ سانشو إلى جدته طوطة في بنبلونة عاصمة نافار، وقام الأشراف في ليون وقشتالة باختيار ملك جديد هو أردونيو الرابع، والذي كان قد تزوج ابنة فرنان كونثالث بعدما طلقها أردونيو الثالث.

وكان هذا الملك الجديد أحدبًا دميمًا سيئ الخلق، فلقبوه بالرديء، واستنجد سانشو بعبد الرحمن الناصر، وسأله أن يساعده حتى يعود للحكم، واتفقا على أن يُرسل عبد الرحمن الناصر إليه طبيبًا يهوديًّا من قُرْطُبَة ليعالجه من بدانته، وفي سنة (٣٤٧هـ= ٩٥٨م) ذهبت طوطة إلى قُرْطُبَة، ومعها ابنها غرسية سانشيز، الذي كانت تُحْكَم نافار باسمه، كما ذهب معها -أيضًا- سانشو ملك ليون المخلوع، فاستقبلهم عبد الرحمن الناصر بحفاوة بالغة، وعقد السلم مع طوطة وأقرَّ ولدها على نافار، ووعد بمعاونة سانشو على استرداد عرشه، وذلك مقابل تَعَهُّده بأن يُسَلِّم للمسلمين بعض الحصون الواقعة على الحدود، وأن يهدم البعض الآخر؛ ثم أمدَّه عبد الرحمن الناصر بالمال والجند، فغزا ليون، وغزا النافاريون في الوقت نفسه ولاية قشتالة من ناحية الشرق، وانتهت الحرب بانتصار سانشو وجلوسه على العرش مرَّة أخرى، وفرَّ أردونيو إلى فرنان كونثالث في برغش.

ثم توفي عبد الرحمن الناصر بعد ذلك بقليل، ونكث سانشو بعهوده، ولم يُنَفِّذ ما اتفق عليه مع عبد الرحمن الناصر.

٢- مملكة نافار:

نشأت مملكة نافار في القرن التاسع الميلادي، وتولَّى المُلْكَ فيها سانشو غرسية الأول عقب اعتزال أخيه فرتون المُلْكَ في سنة (٩٠٥م)، وكان سانشو قد خاض مع المسلمين حروبًا عديدة أيام الأمير عبد الله، وفي أوائل عهد عبد الرحمن الناصر -ولما توفي سانشو- خلفه ولده غرسية سانشيز وكان طفلاً، فتولى عمه خمينو غرسيس الوصاية عليه أولاً، ثم تولَّتْ أمه الملكة طوطة الوصاية عليه، وظلَّت تحكم باسمه طويلاً حتى بعد أن كبر ونضج، وكانت نافار خلال ذلك ترتبط برباط المصاهرة مع المملكتين النصرانيتين الأخريين؛ فقد كان أردونيو الثالث ملك ليون متزوجًا من أوراكا ابنة الملكة طوطة، وأخت غرسية، وكان فرنان كونثالث كونت قشتالة متزوجًا من ابنة أخرى لطوطة، فكانت طوطة تحتل لذلك مقامًا ملحوظًا في الممالك الثلاث، وقد وقفت نافار -كما ذكرنا- إلى جانب سانشو عندما نشبت الحرب بينه وبين أخيه أردونيو على تولِّي العرش بعد وفاة أبيهما راميرو الثاني، ثم وقفت إلى جانبه ثانية بعدما خلعه أشراف ليون.

ثم اضطربت العلائق بين نافار وبين قشتالة، ونشبت بينهما حرب شديدة هُزم فيها الكونت فرنان كونثالث، وأُسر في نافار مدة طويلة ضعفت فيها شوكة نافار، ولزمت السكينة حينًا[1].

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص٥٨٠، وما بعدها بتصرف.

الفصل الثالث

النهضة الحضارية في عهد الناصر



ما سبق كان من التاريخ السياسي والعسكري لعبد الرحمن الناصر رحمه الله، وواقع الأمر أن جهده لم يكن كلُّه موجهًا للجيوش والحروب فقط، بل إنه كان متكاملاً ومتوازنًا رحمه الله في كل أموره؛ فقد قامت في عهده نهضة حضارية كبرى هي الأروع بين مثيلاتها في ذلك الوقت، استهلَّها رحمه الله بإنشاء هياكل إدارية عظيمة، وأَكْثَرَ من الوزارات والهيئات، وجعل لكل أمر مسئولاً، ولكل مسئول وزارة كبيرة تضمُّ عمالاً كثيرين وكتبَة، وهذه نُبذَة عن أهم جوانب الحياة الحضارية في عصره:

الجانب المعماري:

كان من أهم ما يُمَيِّز الناحية المعمارية في عهد عبد الرحمن الناصر تلك المدينة العظيمة التي أنشأها وأطلق عليها اسم مدينة الزهراء، وكانت مدينة الزهراء على طراز رفيع جدًّا، وقد استجلب لها عبد الرحمن الناصر رحمه الله موادَّ من القسطنطينية وبغداد وتونس ومن أوربا، وقد صُمِّمت على درجات مختلفة؛ فكانت هناك درجة سفلى؛ وهي للحراس والكَتَبَة والعمال، ثم درجة أعلى وهي للوزراء وكبار رجال الدولة، ثم أعلى الدرجات في منتصف المدينة وفيها قصر الخلافة الكبير[1].

وفي مدينة الزهراء أنشأ عبد الرحمن الناصر قصر الزهراء؛ ذلك القصر الذي لم

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٣١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٣٨، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٤.

يُبْنَ مثله حتى ذلك الوقت؛ فقد بالغ في إنشائه حتى أصبح من معجزات زمانه، فكان الناس يأتون من أوربا ومن كل أقطار العالم الإسلامي كي يشاهدوا قصر الزهراء، يقول المقري في نفح الطيب: «لما بنى الناصر قصر الزهراء المتناهي في الجلالة والفخامة، أطبق الناس على أنه لم يُبن مثله في الإسلام ألبتة، وما دخل إليها قطُّ أحد من سائر البلاد النائية والنحل المختلفة؛ من ملك وارد أو رسول وافد، وتاجر جهبذ -وفي هذه الطبقات من الناس تكون المعرفة والفطنة- إلاَّ وكلهم قَطَعَ أنه لم يَرَ له شبهًا، بل لم يسمع به، بل لم يتوهم كون مثله؛ حتى إنه كان أعجب ما يؤمله القاطع إلى الأندلس في تلك العصور النظر إليه، والتحدث عنه، والأخبار عن هذا تتسع جدًّا، والأدلة عليه تكثر، ولو لم يكن فيه إلا السطح الممرد المشرف على الروضة المباهي بمجلس الذهب والقبة، وعجيب ما تضمَّنه من إتقان الصنعة وفخامة الهمة وحسن المستشرف، وبراعة الملبس والحلة ما بين مرمر مسنون، وذهب موضون، وعمد كأنما أُفرغت في القوالب، ونقوش كالرياض، وبرك عظيمة محكمة الصنعة، وحياض وتماثيل عجيبة الأشخاص، لا تهتدي الأوهام إلى سبيل استقصاء التعبير عنها، فسبحان الذي أقدر هذا المخلوق الضعيف!»[١].

وهذه مدينة قُرْطُبَة قد اتسعت جدًّا في عهد عبد الرحمن الناصر، وبلغ تعداد سكانها نصف مليون مسلم[٢]، وكانت بذلك ثاني أكبر مدينة في تعداد السكان في العالم بأسره بعد بغداد المدينة الأولى، والتي كان تعداد سكانها يبلغ مليونين[٣].

يصف ابن عذاري قُرْطُبَة في هذه الفترة فيقول: «ومما قيل في آثار مدينة قُرْطُبَة وعظمها حين تكامل أمرها في مدة بني أمية -رحمهم الله تعالى-: إن عدة الدور التي بداخلها للرعية دون الوزراء وأكابر أهل الخدمة مائة ألف دار وثلاثة عشر ألف

(١) المقري: نفح الطيب، ١/ ٥٦٦.
(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٤٣٦.
(٣) طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، ص١٩٨.

دار؛ ومساجدها ثلاثة آلاف؛ وعدة الدور التي بقصر الزهراء أربعمائة دار؛ وذلك لسكنى السلطان وحاشيته وأهل بيته...»[١].

وينقل المقري عن ابن حيان قوله: «إن عدة المساجد عند تناهيها في مدَّة ابن أبي عامر ألف وستمائة مسجد، والحمامات تسعمائة حمام، وفي بعض التواريخ القديمة كان بقُرْطُبَة في الزمن السالف ثلاثة آلاف مسجد وثمانمائة وسبعة وسبعون مسجدًا؛ منها: بشقندة ثمانية عشر مسجدًا، وتسعمائة حمام، وأحد عشر حمامًا، ومائة ألف دار، وثلاثة عشر ألف دار للرعية خصوصًا، وربما نصف العدد أو أكثر لأرباب الدولة وخاصتها... إلخ»[٢].

وهذا -أيضًا- مسجد قُرْطُبَة قد وسَّعه رحمه الله حتى أصبح آية من آيات الفن المعماري، وكان محرابه عبارة عن قطعة رخام واحدة على شكل محارةٍ[٣].

لكل هذا وغيره من مظاهر الحضارة أُطلِقَ على قُرْطُبَة في ذلك العصر «جوهرة العالم»[٤].

الجانب الاقتصادي:

كانت البلاد في عهده رحمه الله تعيش في رخاء منقطع النظير، فكثرت الأموال؛ حتى بلغت ميزانية الدولة ستة ملايين دينارٍ ذهبيٍّ، كان يقسمها ثلاثة أقسام كجدِّه عبد الرحمن الداخل رحمه الله: ثلثًا للجيش، وثلثًا للبناء والمعمار والمرتبات وما إلى ذلك، والثلث الأخير للادِّخار لنوائب الزمن[٥].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٣٢.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٥٤٠.

(٣) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٣٧٨.

(٤) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي ص٣١٤.

(٥) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٣١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٣٨.

ونمت الزراعة نموًّا مزدهرًا؛ فتنوَّعت أشجار الفواكه والمزروعات من قصب السكر والأرز والزيتون والكتان، وأوجد مزارع خاصة لتربية دودة القز، كما نَظَّم أقنية الري وأساليب جرِّ المياه، وجعل تقويمًا للزراعة لكل موسم (ومنها انتقلت الزراعة إلى أوربا)[1].

كان من اهتماماته -أيضًا- استخراج الذهب والفضة والنحاس، وكذلك صناعة الجلود وصناعة السفن وآلات الحرث، وكذلك صناعة الأدوية، وقام رحمه الله بإنشاء أسواق كثيرة متخصصة لعرض وتداول مثل هذه البضائع، فكان هناك -على سبيل المثال- سوق للنحاسين، وأخرى للحوم، بل كان هناك -أيضًا- سوق للزهور[2].

الجانب الأمني:

وكانت خُطَّة الشرطة من أهم المناصب الإدارية المتعلقة بضبط النظام والأمن، وكانت قبل عهد الناصر تنقسم إلى مرتبتين، الشرطة العليا، والشرطة الصغرى، ولكنها منذ سنة (٣١٧هـ) في عهد الناصر لدين الله قُسِّمت بحسب أهميتها إلى ثلاث مراتب: الشرطة العليا، والشرطة الوسطى، والشرطة الصغرى، كما قَسَّم خطة المظالم (أي المحاكم) إلى خطتين عام (٣٢٥هـ)، وكانت قبل عهد الناصر خطة مفردة تتضمن العرض والمظالم، وجعل العرض خطة مستقلَّة بذاتها، وكذلك المظالم أضحت خطة مستقلة[3].

الجانب العلمي:

في عهده رحمه الله ازدهر العلم والتعليم بصورة ملحوظة، وقد اهتمَّ كثيرًا بمكتبة

---

(١) طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، ص٢٠٠.

(٢) السابق نفسه.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/ ٦٨٥.

قُرْطُبَة؛ تلك التي كانت قد تأسَّست قبل ذلك الوقت، فزاد كثيرًا في حجمها حتى بلغ عدد الكتب فيها أربعمائة ألف كتاب، وهو زمن لم تظهر فيه الطباعة بعدُ، وإنما كانت عن طريق النسخ اليدوي، الذي كان وظيفة النسَّاخين، فإذا أراد واحد من الناس أن يمتلك كتابًا ما عليه إلا أن يذهب إلى نَسَّاخ؛ فيذهب النساخ بدوره إلى مكتبة قُرْطُبَة فينسخ له ما يُريد[1].

وبأثر من هذا الجوِّ العلمي الزاهر، أوردت المصادر التاريخية وكتب التراجم والطبقات عددًا كبيرًا من الأسماء التي نبغت في هذه الفترة؛ فمنهم:

حسان بن عبد الله بن حسان (٢٧٨-٣٣٤هـ=٨٩١-٩٤٦م):

من أهْل إسْتِجَة، وقد وُصف بأنه كان نَبيلاً في الفقه، وحافِظًا للرأي، ومُعْتنيًا بالحديث والآثار، ومتصرِّفًا في علم اللغة والإعراب، والعَروض ومَعَاني الشِّعر، مع بصره بالفرض وعِلم العَدد، ولمكانته العلمية قيل عنه: لم يَكُن في إسْتِجَة قبْله ولا بعده مِثله[2].

محمد بن عبد الله الليثي (ت٣٣٩هـ= ٩٥١م):

من أهل قُرْطُبَة، وكان يشغل منصب «قاضي الجماعة» في قُرْطُبَة، تتلمذ على شيوخ بالأندلس، ثم رحل إلى مكة، ثم إلى مصر، ثم إلى تونس، وكان حافظًا للرأي، مُعْتَنِيًا بالآثار، جامعًا للسنن، متصرفًا في علم الإعراب، ومعاني الشعر، وكان شَاعِرًا مطبوعًا، وقد ولاه عبد الرحمن الناصر رحمه الله قضاء إِلْبِيرة وبَجَّانة، ثم قضاء الجماعة بقُرْطُبَة في شهر ذي الحجة سنة (٣٢٦هـ)، وكان كثيرًا ما يخرج إلى الثُّغور، ويتصرَّف في إصلاح مَا ضعف فيها، فاعتلَّ في آخر خرجاته إلى هُناك،

---

(١) طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، ص٢٠١.

(٢) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص١١٦.

ومات في حصن مجاور لطُلَيْطِلَة فدُفن فيها[١].

السياسة الخارجية :

ذاع صيت عبد الرحمن الناصر رحمه الله في الدنيا كلها، ورضيت منه ممالك الشمال بأن تعطيه العهد والجزية، وقد جاءت السفارات من كل أوربا تطلب ودَّه، فجاءت من ألمانيا وإيطاليا وفرنسا وإنجلترا، بل جاءت من أقصى شرق أوربا[٢] من بيزنطة، وهي بعيدة جدًّا عن عبد الرحمن الناصر لكنها جاءت تطلب ودَّه وتُهدي إليه الهدايا، وأشهرها كان جوهرة ثمينة وكبيرة، كان يضعها عبد الرحمن الناصر في وسط قصره، الذي يقع في مدينة الزهراء، «وكانت من تحف قصر اليونانيين بعث بها صاحب القسطنطينية إلى الناصر مع تحف كثيرة سنية»[٣].

وهكذا كان عزُّ الإسلام ومجده متمثلاً في عهد عبد الرحمن الناصر رحمه الله، حتى أصبح -بلا منازع- أعظم ملوك أوربا في القرون الوسطى، وهذا ما جعل إسبانيا سنة (١٩٦٣م) تحتفل -وهي على نصرانيتها- بمرور ألف سنة ميلادية على وفاة عبد الرحمن الناصر؛ لأنه كان أعظم ملوك إسبانيا على مرِّ العصور، فلم يستطيعوا أن يُخفوا إعجابهم بهذا الرجل الذي رفعهم في العالمين، الذي كانت الأندلس في عهده - وبلا جدال - أقوى دولة في العالم.

عبد الرحمن الناصر.. الإنسان :

مَنْ يقرأ أو يسمع مثل ما سبق يجول في خاطره أن مثل هذا الرجل لم يكن يعرف إلاَّ طريقًا واحدًا، هو طريق العظمة والجدية التامَّة، طريق العزَّة وعدم الخنوع، وهذا وإن كان صحيحًا إلاَّ أن مَنْ ينظر إلى شخص عبد الرحمن الناصر رحمه الله

(١) ابن الفرضي: تاريخ علماء الأندلس، ص٥٨، ٥٩.
(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٣٦٦.
(٣) المصدر السابق، ١/ ٥٤١.

-الذي ظلَّ يحكم البلاد من سنة (٣٠٠هـ= ٩١٣م) إلى سنة (٣٥٠هـ= ٩٦١م) نصف قرن كامل- لَيَرَى العَجَبَ العُجاب؛ فقد كان رحمه الله مع كل هذا السلطان وهذا الصولجان دائمَ الذِّكْر لربه ﷻ سريع الرجوع إليه.

حدث ذات مرَّة قحط شديد في الأندلس، فأرسل الناصر رسولاً من عنده يدعو القاضي منذر بن سعيد بإمامة الناس في صلاة الاستسقاء، فقال منذر للرسول: ليت شعري ما الذي يصنعه الخليفة سيدنا؟ فقال له: ما رأينا قط أخشع منه في يومنا هذا؛ إنه منتبذ حائر منفرد بنفسه، لابس أخس الثياب، مفترش التراب، وقد رمد به على رأسه وعلى لحيته، وبكى واعترف بذنوبه، وهو يقول: هذه ناصيتي بيدك، أتراك تُعَذِّب بي الرعية وأنت أحكم الحاكمين؟! لن يفوتك شيء مني. قال الحاكي: فتهلَّل وجه القاضي منذر عندما سمع قوله، وقال: يا غلام؛ احمل المطر معك؛ فقد أذن الله تعالى بالسقيا، إذا خشع جبار الأرض، فقد رحم جبار السماء. وكان كما قال، فلم ينصرف الناس إلاَّ عن السقيا»[1].

وكان يقول الشعر -أيضًا- ومن شعره في أمر بنائه مدينة الزهراء: [الكامل]

هِمَمُ الْمُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا ... مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ الْبُنْيَانِ

إِنَّ الْبِنَاءَ إِذَا تَعَاظَمَ شَأْنُهُ ... أَضْحَى يَدُلُّ عَلَى عَظِيمِ الشَّانِ[2]

قالوا عن عبد الرحمن الناصر..

قال عنه الذهبي: كان شجاعًا شهمًا محمود السيرة، لم يزل يستأصل المتغلِّبين حتى تم أمره بالأندلس، واجتمع في دولته من العلماء والفضلاء ما لم يجتمع في دولة

(١) انظر: ابن خاقان: مطمح الأنفس، ص١٠٣، والذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٥/ ٤٤٤، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٥٧٣.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٥٧٥.

غيره، وله غزوات عظيمة ووقائع مشهورة، قال ابن عبد ربه: قد نَظَمتُ أُرجوزة ذكرتُ فيها غزواته. قال: وافتتح سبعين حصنًا من أعظم الحصون، ومدحه الشعراء[(١)].

وقال عنه الصفدي: ولم يكن بعد عبد الرحمن الداخل أجزل منه - أي الناصر - في الحروب، وصحة الرأي، والإقدام على المخاطرة والهول، حتى نال البُغيَة... فرتب الجيوش ترتيبًا لم يُعهَدْ مثلُه قبله، وأكرم أهل العلم، واجتهد في تخيُّر القضاة، وكان مُبَخَّلاً لا يُعطي ولا يُنفق إلاَّ فيما رآه سدادًا[(٢)].

وها هو ذا يُتَوَفَّى رحمه الله في رمضان سنة (٣٥٠هـ= ٩٦١م) عن اثنين وسبعين عامًا، وقد وجدوا في خزانته ورقة كان قد كتبها بخط يده، عدَّ فيها الأيام التي صَفَتْ له دون كدر؛ فقال: «في يوم كذا من شهر كذا في سنة كذا صفا لي ذلك اليوم». فعدُّوها فوجدوها أربعة عشر يومًا فقط[(٣)].

* * *

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٥/ ٢٣٧.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١٨/ ١٣٧.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٣٢، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٧٩.

الفصل الرابع

الحكم المستنصر بن عبد الرحمن الناصر

الحكم بن عبد الرحمن الناصر (٣٠٢-٣٦٦هـ= ٩١٤-٩٧٦م) وعصر النهضة:

استخلف عبدُ الرحمن الناصر من بعده ابنَه الحَكَمَ، الذي تولَّى من سنة (٣٥٠هـ= ٩٦١م) إلى سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م)، وتلقب بالمستنصر بالله، وكان يوم تولَّى في نحو السابعة والأربعين من عمره[1]، وكان أبوه يُقَرِّبُه ويعتمد عليه في كثير من الأمور؛ فكان ذا خبرة بشئون الحُكم والسياسة، وكان عبد الرحمن الناصر قد استطاع توطيد أركان الدولة، والقضاء على الفتن، وهو ما يَسَّر للحكم المستنصر فيما بعدُ أن يَصِلَ بالأندلس في عهده إلى أعلى درجات الرقي الحضاري، وأن تحدُث في عهده نهضة علمية وحضارية غير مسبوقة.

يقول عنه ابن الخطيب: «وكان رحمه الله عالمًا فقيهًا بالمذاهب، إمامًا في معرفة الأنساب، حافظًا للتاريخ، جمَّاعًا للكتب، مميِّزًا للرجال من كل عالم وجيل، وفي كل مِصرٍ وأوان، تجرَّد لذلك وتهمم به؛ فكان فيه حجة وقدوة وأصلاً يُوقف عنده»[2]. ويقول عما وصلت إليه الأندلس في عهده من الرقي والتحضر: «وإليه انتهت الأبهة والجلالة، والعلم والأصالة، والآثار الباقية، والحسنات الراقية»[3].

وقد أنشأ الحكم بن عبد الرحمن المكتبة الأموية، تلك التي تُعَدُّ أعظم مكتباتِ

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ٢/ ١٩٤.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٤١.
(٣) المصدر السابق، ص٤٢.

العصور الوسطى على الإطلاق، وكانت تُنافس مكتبة قُرْطُبَة ومكتبة بغداد، وقد دفع آلاف الدنانير لجلب أعظم الكتب إليها من كل مكان في العالم، وكان له عمَّال وظيفتهم الوحيدة هي جمع الكتب من مشارق الأرض ومغاربها من بلاد المسلمين ومن غير بلاد المسلمين، فإذا جاءوا بكتاب في الفلك أو الطب أو الهندسة أو غيرها من أي بلد غير إسلامي تُرجِمَ على الفور وضُمَّ إلى المكتبة الأموية، وقد وسَّع الحَكم بن عبد الرحمن الناصر في المكتبة كثيرًا، وجعل لها أَرْوِقَةً عظيمةً حتى تستوعب كثرة الحضور من المسلمين.

وكان رحمه الله يشتري الكتب مهما بالغ الناس في أسعارها، وقد أحضر في مكتبته هذه النسخةَ الأولى من كتاب الأغاني للأصفهاني[1] (وهو كتاب في الأدب) وأصفهان هذه الآن من مدن إيران، فأين إيران من إسبانيا الآن؛ فالرجل لم تكن تقف أمامه التخوم ولا الحدود!

وكَثُرَ النَّسخُ في عصره، حتى قال ابن خلدون: «وجمع بداره الحذاق في صناعة النسخ، والمهرة في الضبط، والإجادة في التجليد، فأوعى من ذلك كله، واجتمعت بالأندلس خزائن من الكتب لم تكن لأحد من قبله ولا من بعده، إلاَّ ما يُذكر عن الناصر العباسي ابن المستضيء»[2].

ومن مآثره أنه رَتَّب معلمين ومربين يُعَلِّمون أولاد الفقراء والضعفاء، وأنفق على أجورهم من بيت المال، وبلغت دور التعليم هذه سبعًا وعشرين؛ ثلاثة منها حول جامع قُرْطُبَة، وباقيها في ضواحي المدينة[3].

كما أنشأ رحمه الله جامعة قُرْطُبَة، التي كان مقرها في المسجد الجامع الكبير، وتدرس

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٦، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٨٦.
(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٦.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٤٠.

في حلقاتها مختلف العلوم، وكان يُدَرِّس الحديث أبو بكر بن معاوية القرشي، ويملي أبو علي القالي ضيف الأندلس دروسه عن العرب قبل الإسلام، وعن لغتهم وشعرهم وأمثالهم، وكان ابن القوطية يُدَرِّس النحو، وكان يُدَرِّس باقي العلوم أساتذة من أعلام العصر، وكان الطلبة يُعَدُّون بالآلاف[١].

ولهذا نقرأ في عصره عن أسماء كثير من العلماء؛ منهم:

أبو بكر الزُّبيدي (٣١٦-٣٧٩هـ= ٩٢٨-٩٨٩م):

نزيل قُرْطُبَة، ونسبته إلى زُبيد، وهي قبيلة كبيرة باليمن، كان واحد عصره في علم النحو وحفظ اللغة، وكان أخبرَ أهل زمانه بالإعراب والمعاني والنوادر إلى علم السير والأخبار، ولم يكن بالأندلس في فنه مثله في زمانه، وله كتب تدلُّ على وفور علمه؛ من أشهرها: «مختصر كتاب العين»، وكتاب «طبقات النحويين واللغويين بالمشرق والأندلس» من زمن أبي الأسود الدؤلي إلى زمن شيخه أبي عبد الله النحوي الرَّبَاحي، وكتاب «الأبنية في النحو» ليس لأحد مثله.

وقد اختاره الحَكَم لتأديب ولده وولي عهده هشام، فكان الذي علمه الحساب والعربية، وتولَّى قضاء إِشْبِيلِيَة وخُطة الشرطة، وكان كثير الشعر؛ فمن ذلك قوله في أبي مسلم بن فهر: [الطويل]

أَبَا مُسْلِمٍ إِنَّ الْفَتَى بِجَنَانِهِ ... وَمِقْوَلِهِ لا بِالْمَرَاكِبِ وَاللُّبْسِ

وَلَيْسَ ثِيَابُ الْمَرْءِ تُغْنِي قُلامَةً ... إِذَا كَانَ مَقْصُورًا عَلَى قِصَرِ النَّفْسِ

وَلَيْسَ يُفِيدُ الْعِلْمَ وَالْحِلْمَ وَالْحِجَا ... أَبَا مُسْلِمٍ طُولُ الْقُعُودِ عَلَى الْكُرْسِي[٢]

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٢/ ٥٠٧. (وهذا وصف المستشرق الإسباني رينهارت دوزي).

(٢) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٤/ ٣٧٢، ٣٧٣.

ابن القوطية:

وهو أبو بكر محمد بن عمر بن عبد العزيز بن إبراهيم بن عيسى بن مزاحم، وقد أوردنا اسمه الكامل لأن له حكاية طريفة، فجده الأخير عيسى بن مزاحم هو الذي تزوج من سارة القوطية حفيدة يُليان الذي مهد للمسلمين فتح الأندلس وساعد فيه.

لما مات يُليان ترك ولدين هما إيفا وسيزبوت، ولم يلبث أن مات إيفا وقد أنجب ولدين وسارة، لكن العم سيزبوت اغتصب نصيب أبيهم، فبادرت سارة بالسفر مع أخويها إلى الخليفة الأموي هشام بن عبد الملك في دمشق، فأنصفها وقضى لها برد ميراث أبيها، وفي دمشق تزوجت سارة من عيسى بن مزاحم، وأنجبت منه إبراهيم وإسحاق، ثم كان من نسل إبراهيم صاحبنا المؤرخ أبو بكر الذي عُرِفَ -لهذا- بلقبه «ابن القوطية»[1].

كان من أعلم أهل زمانه باللغة العربية، يروي الحديث والفقه والأخبار والنوادر، وكان من أكثر الناس رواية للأشعار، وإدراكًا للآثار، وكان مضطلعًا بأخبار الأندلس، عارفًا بسير أمرائها وأحوال فقهائها وشعرائها، يُملي ذلك عن ظهر قلب، وكانت كتب اللغة أكثر ما تُقرأ عليه وتُؤخذ عنه، وطال عمره فسمع الناس منه طبقة بعد طبقة، وروى عنه الشيوخ والكهول؛ وكان قد لقي مشايخ عصره بالأندلس وأخذ عنهم، وأكثر من النقل من فوائدهم، وصنف الكتب المفيدة في اللغة؛ منها: كتاب «تصاريف الأفعال»، وهو الذي فتح هذا الباب، وكتاب «المقصور والممدود»، جمع فيه ما لا يُحَدُّ ولا يُوصف، ولقد أعجز به مَنْ يأتي بعده، وفاق مَنْ تَقَدَّمه، وكان الأديب الكبير العلامة اللغوي أبو علي القالي يُبالغ في تعظيمه، حتى قال له الحكم المستنصر: مَن أنبل مَنْ رأيته ببلدنا هذا في اللغة؟ فقال

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ١/ ٦١.

القالي: محمد ابن القوطية.

وكان مع هذه الفضائل من العُبَّاد النسَّاك، جيد الشعر، صحيح الألفاظ، واضح المعاني، حسن المطالع والمقاطع، حكى الأديب الشاعر يحيى بن هذيل التميمي أنه توجَّه يومًا إلى ضيعة له بسفح جبل قُرْطُبَة، فصادف أبا بكر ابن القوطية في الطريق، قال: فلمَّا رآني عرج عَلَيَّ واستبشر بلقائي، فقلتُ له على البديهة مداعبًا له: [البسيط]

مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا مَنْ لا شَبِيهَ لَهُ ... وَمَنْ هُوَ الشَّمْسُ وَالدُّنْيَا لَهُ فَلَكُ

قال: فتبسم وأجاب بسرعة:

مِنْ مَنْزِلٍ يُعْجِبُ النُّسَّاكَ خُلْوَتُهُ ... وَفِيهِ سَتْرٌ عَلَى الْفُتَّاكِ إِنْ فَتَكُوا

قال: فما تمالكتُ أَنْ قَبَّلْتُ يده؛ إذ كان شيخي، ومجدتُه ودعوتُ له[1].

علاقة الحكم المستنصر بالشمال الإفريقي:

مات عبد الرحمن الناصر لدين الله بعد خمسين سنة من الحُكم، تمكَّن فيها من توطيد حُكم بني أمية، وإقرار قواعد حُكمهم في الأندلس، بعدما كادت تغيب شمسهم فيها، وينهار بنيان الإسلام في الأندلس كلها؛ بعد أن عصفت الفتن بالبلاد، واستبدَّ كل زعيم بولايته، وتحالف مَن استطاع منهم مع نصارى الشمال المتربِّصين، فأنعم الله على هذه الأُمَّة في ذلك الوقت بعبد الرحمن الناصر، الذي استطاع بالجهاد والمثابرة والمجالدة إعادة البلاد إلى الوحدة، فعادت للأندلس قوتها التي تمكنت بها من التصدي لنصارى الشمال وإخضاعهم، كما تمكنت من إخضاع بلاد الشمال الإفريقي لسلطان عبد الرحمن الناصر.

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٤/ ٣٦٨-٣٧٢.

غير أن عبد الرحمن الناصر لم يسعَ للسيطرة على بلاد الشمال الإفريقي سيطرة تامَّة، ولم تكن تعني له بلاد الشمال الإفريقي أكثر من أنها البوابة الجنوبية للأندلس، ولم يُحَفِّزه إلى بسط سيطرته عليها إلاَّ قيام الدولة العبيدية الخبيثة في هذه البلاد، ومعرفته بأنها لا بُدَّ أن تسعى للسيطرة على بلاد الأندلس، والقضاء على بني أمية وعلى ملكهم فيها؛ ولذلك سارع إلى بلاد الشمال الإفريقي لتكون «منطقة حاجزة» في المقام الأول، ثم يستغلها بعد ذلك في إضعاف الدولة العبيدية كلما عَنَّت الفرصة.

وكان حُكَّام الشمال الإفريقي في ذلك الوقت مثل معظم حكام المسلمين آنئذٍ؛ كلُّ ما يهمهم هو أن يبقَوْا حُكَّامًا، فإن استطاعوا بعد ذلك توسيع ملكهم فعلوا، كما كانت تغلب عليهم العصبية لعرقهم ولقومهم، فأراد عبد الرحمن الناصر استغلال صفاتهم هذه، فاكتفى منهم بالخروج على سلطان العبيديين، والدخول في طاعته، وإن كان يعلم جيدًا، أنهم لن يدخلوا في طاعته إلاَّ خوفًا من بطشه، واحتماءً به من بطش العبيديين بهم، وتوطيدًا لسلطانهم في بلادهم، كما كان يعلم أنهم متى استطاعوا الاستقلال بعيدًا عن الاثنين فعلوا؛ لذلك لم يكن سلطان عبد الرحمن الناصر مستقرًّا في هذه البلاد، وكان يعتمد في الأساس على هؤلاء الأمراء الذين دخلوا في طاعته رغبًا أو رهبًا.

وكان الحكم المستنصر على علم بكل هذا، ولم يكن يجهل منه شيئًا؛ ولذلك سعى لأن يُبقي على هذه التحالفات قوية مع هؤلاء الحكام، وبخاصة أن قوة الدولة العبيدية كانت في زيادة مستمرَّة في ذلك الوقت.

وفي سنة (٣٦٠هـ) استطاع حلفاء الحكم المستنصر في شمال إفريقيا الانتصار على زيري بن مناد الصنهاجي عامل المعز لدين الله العبيدي، واستطاعوا قتله وقطعوا رأسه ورءوس كبار رجاله، وذهبوا بها إلى الحكم المستنصر في قُرْطُبَة ففرح

بذلك فرحًا عظيمًا، واحتفل بهم، وأجزل لهم العطاء[١].

فعزم العبيديون على الانتقام، وعلى أن يُعيدوا فرض سيطرتهم على هذه المناطق مجدَّدًا، وجرَّدوا لذلك جيشًا قويًّا سنة (٣٦١هـ)، كان على رأسه يوسف بن زيري بن مناد الصنهاجي الشهير ببلقين، وهو ابن القائد الذي قتله أتباع الحكم المستنصر، فاجتمع أتباع الحكم المستنصر، وقامت حرب زَبُون[٢] بين الفريقين، دارت فيها الدائرة على أتباع المستنصر، وكانت زناتة من أتباع المستنصر في شمال إفريقيا، فلما أيقن محمد بن الخير أمير قبيلة زناتة بالهزيمة، اتكأ على سيفه فذبح نفسه؛ أنفة من أن يقع أسيرًا في يد عدوه، فكانت هزيمة شديدة لأتباع الحكم المستنصر، وانتصارًا ساحقًا لبلقين، الذي لم يتوانَ بعد هذا عن قتل أبناء زناتة وتخريب بيوتهم، ومطاردتهم، وخضعت لبلقين معظم المناطق التابعة للحكم المستنصر في شمال إفريقيا، وقد حاول دخول سَبْتَة، ولكنه لم يستطع لشدَّة تحصينها ومناعتها[٣].

وهذا الموقف من محمد بن الخير أوضح دليل على ما كان يُسيطر على هؤلاء القوم في ذلك الوقت من عصبية جاهلية لأقوامهم، وحُبٍّ للمناصب والسلطان، ويُؤَكِّد ذلك -أيضًا- هذا الانتقام الأعمى الذي قاده بلقين ضد قبيلة زناتة.

وكان حسن بن قنون الحسني أمير الأدارسة ممن استسلم لبلقين، وتحوَّل عن طاعة الحكم المستنصر إلى طاعة العبيديين، وأصبح يدعو لهم على منابر طَنْجَة بدلاً من الحَكم، فلمَّا علم الحَكم بما حدث واستشعر اقتراب الخطر من الأندلس إلى درجة أن طَنْجَة قد دخلت في طاعة العبيديين، بادر الحَكم فأرسل جيشًا قويًّا إلى سَبْتَة؛ لتكون قاعدته التي يتجه منها للسيطرة على بلاد الشمال الإفريقي كاملة،

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٤٢.

(٢) حرب زَبُون تَزْبِنُ الناس؛ أي: تَصْدِمهم وتدفعهم. ابن منظور: لسان العرب، مادة زبن ١٣/ ١٩٤، والمعجم الوسيط ١/ ٣٨٨.

(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٤٣.

وأوصى قائد الجيش بالجدِّ والاجتهاد في محاربة ابن قنون، وأمره إن نصره الله تعالى ألا يفعل مثل بلقين، بل يأخذ بالعفو والصفح، وإصلاح البلاد، واستصلاح الرعية، وأن يستعين في ذلك بمَنْ يدخل في طاعة بني أمية، ودارت المعارك بين جنود الأندلس، وجنود حسن بن قنون، وهُزم حسن بن قنون، وفرَّ هو ورجاله عن طَنْجَة تاركين خلفهم أموالهم وأمتعتهم، ودخلت طَنْجَة في طاعة الحكم المستنصر، وأعطاها قادة الحكم المستنصر الأمان، وأرسلوا بالبشرى إلى قُرْطُبَة، ثم طارد الجيشُ الأندلسي فلول ابن قنون فهزموه مرَّة أخرى، وألجئوه هو ومَنْ معه من رجاله إلى جبلٍ حصين، فتبعه الجنود، ودارت بينهما معارك أخرى انهزم على أثرها، وهرب تاركًا أمتعته خلفه، ثم توالت فتوحات الأندلسيين في شمال إفريقيا.

ولكن حسن بن قنون لم ييأس، فأعاد تنظيم قواته، وقابل الجيش الأندلسي بعد أشهر قليلة، ودارت بين الفريقين معركة شديد في فحص مهران في ربيع الأول سنة ٣٦٢هـ، قُتل في هذه المعركة قائد الجيش الأندلسي محمد بن قاسم، وهُزم الجيش الأندلسي وقُتل منه حوالي خمسمائة فارس، وألف راجل، وعادت فلول الجيش الأندلسي إلى سَبْتَة، وأرسلت إلى الحكم المستنصر تطلب الغوث والمدد[(١)].

وعلم حسن بن قنون أن الحكم المستنصر لن يتوانى عن إمداد مَنْ بقي من الجيش الأندلسي، وتوجيهه إليه، وكان يعلم ما وصلت إليه الأندلس من القوة والرخاء في هذا الوقت، وأنه لن يستطيع أن يثبت أمام الحكم المستنصر، فأراد أن يستغلَّ هذا النصر الذي أحرزه بطلب الصلح وتقديم الطاعة وتبادل الرهائن، ولكن الحكم المستنصر لم ينخدع بهذا؛ وعلم أنه لا يُريد الصلح، وإنما يُريد استغلال هزيمة الأندلسيين، ليُرَتِّب قواته ويُعيد الكَرَّة من جديد بمجرَّد أن يشعر في نفسه بالقدرة على ذلك، وأن حسن بن قنون هذا لو كان يُريد الصلح، لصالح من البداية،

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٤٥، ٢٤٦.

ولما قاوم الأندلسيين كل هذه المقاومة برغم الهزائم الشديدة التي جرت عليه، فكان مما أرسله المستنصر إلى عبد الرحمن بن يوسف بن أرمطيل قائد ثغر أصيلا في المغرب، ردًّا على ما أبداه الحَسن من رغبة في الإنابة والصلح: «وكيف يذهب الآن هذا المذهب، وهو في طغيانه مستمرٌّ، وفي دينه مستبصر، ولكم في كل أيامه محاربٌ، هذا هو الضلال، والمحال عين المحال، وسبب الخبال، وقد رأى أمير المؤمنين تأمين جميع الناس لديه غيره، وغير مَنْ أصرَّ إصراره، وتمادى تماديه، إلى أن يحكم الله عليه، ويفتح فيه»[1].

وبالفعل دخل في الطاعة؛ بسبب هذه السياسة الحكيمة سبعون رجلاً ممن كانوا مع حسن بن قنون من قبيلة مصمودة، ودخلوا إلى قُرْطُبَة في أول جمادى الآخرة من العام نفسه (٣٦٢هـ)؛ ليُعلنوا دخولهم في طاعة الحكم المستنصر.

أمَّا حسن بن قنون فقد جهَّز له الحكم المستنصر جيشًا قويًّا، وجعل على رأسه واحدًا من أفضل قوَّاده، وأكثرهم شجاعة وشهامة، وهو غالب بن عبد الرحمن، وأمدَّه بالمال والجند وأرسله في رمضان من العام نفسه إلى بر العدوة قائلاً له: «سِرْ يا غالب مَسِيرَ مَنْ لا إذن له في الرجوع إلاَّ حيًّا منصورًا أو ميتًا معذورًا»[2]. فلمَّا نما ذلك إلى علم حسن بن قنون، وكان في البصرة (إحدى مدن المغرب الآن) تركها، ولجأ بأهله وأمواله إلى قلعة حجر النسر المنيعة القريبة من سَبْتَة، ثم دَارَ قتالٌ شديد بينه وبين الجيش الأندلسي بقيادة غالب بن عبد الرحمن، واستمرَّت المعارك أيامًا، واستمال غالب رؤساء الأمازيغ (البربر) -المنضمين لحسن والمدافعين عنه- بالمال، فانشقُّوا عنه، وبقي حسن بن قنون على عناده، وتحصَّن بالقلعة فضرب غالب حوله الحصار، وضيَّق عليه، حتى أشرف على الهلاك هو وأهله، فأرسل يطلب الأمان،

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٤٦٩.
(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢١٨.

فأمَّنه غالب وتسلَّم منه الحصن، وعَمِل غالب على تطهير المغرب من الخارجين عن طاعة الحكم المستنصر، وأرسل إليه الخليفة بالأموال؛ ليستميل بها قبائل الأمازيغ (البربر)، ودخل مَنْ بقي من حكام الشمال الإفريقي في طاعة الخليفة المستنصر لدين الله، واستقرَّ الأمر في بلاد الشمال الإفريقي للحكم المستنصر.

وفي سنة (٣٦٤هـ) عاد القائد غالب بن عبد الرحمن في موكب عظيم إلى الأندلس، ومعه حسن بن قنون وشيعته من بني إدريس الحسنيون، ودخلوا على الخليفة المستنصر فَوَفَّى لهم بعهدهم، وأجزل لهم الأعطيات والهدايا ليتألَّفهم، وكان قد أعدَّ لهم دُورًا في قُرْطُبَة، فأُنزِلوا فيها، وعَيَّن سبعمائة من حاشيتهم في ديوانه، مبالغة في الإحسان إليهم.

واستمرَّ الحسن وذووه في ذلك حوالي عامين، ولكن الحسن بن قنون هذا كان لجوجًا سيئ الخُلق، وكانت نفقاتهم الكثيرة قد ثقلت على الخلافة، فضاق به الخليفة فأمر بترحيلهم إلى المشرق، وبالفعل رحلوا إلى مصر، واستقبلهم العزيز بالله العبيدي، وأحسن إليهم، ووعدهم بالعون والنصرة حتى يعود إليهم ملكهم في المغرب[1].

المشهد الصليبي في عهد المستنصر:

١- مملكة ليون واستقلال قشتالة:

كان سانشو ملك ليون قد لجأ مع جدته طوطة ملكة نافار إلى عبد الرحمن الناصر ليُساعده على اعتلاء عرش ليون من جديد، بعدما عزله أشراف ليون عن الحكم، ووَلَّوا بدلاً منه ابن عمه أردونيو الرديء -كما ذكرنا من قبل- وقد أحسن الناصر استقبالهم، ووعدهم بالمساعدة، وأرسل طبيبًا يهوديًّا إلى سانشو ليُعالجه من

---

(١) انظر: ابن عذاري، البيان المغرب، ٢/ ٢٤٤، وتاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢١٩.

بدانته المفرطة، وكذلك أمدَّ سانشو بالمال والرجال؛ ليُساعدوه على أن يعود لعرشه، في مقابل تسليم بعض الحصون على حدودهم مع الأراضي الإسلامية، وأن يهدموا حصونًا أخرى، وبالفعل عاد سانشو إلى الحُكم بمساعدة عبد الرحمن الناصر، وهرب أردونيو الرابع (الرديء) إلى برغش في قشتالة.

ثم توفي عبد الرحمن الناصر بعد ذلك بقليل، ونكث سانشو بوعوده التي قطعها لعبد الرحمن الناصر، فلم يهدم الحصون التي اتفقا على هدمها، كما لم يُسَلِّم المسلمين ما اتفق على تسليمه لهم من حصون أخرى، ولم يكن هذا ذكاء من سانشو؛ إذ إن أردونيو الرابع لم يزل على قيد الحياة، وسيحاول هو الآخر أن يعود إلى العرش كما حاول سانشو، فلم يكن من الصواب أن يُعادي سانشو المسلمين، بأن يتنكَّر لعهوده معهم على هذا النحو.

وبالفعل استغلَّ أردونيو هذا التطور الجديد في علاقة ليون مع المسلمين، وذهب إلى الحكم المستنصر يستنجد به، ويطلب التحالف معه؛ ليساعده على أن يعود إلى عرشه، فأحسن الحكم استقباله، ووعده بالنصرة والمساعدة، فلمَّا علم سانشو بما عزم عليه الخليفة الحكم المستنصر من مساعدة خصمه وعدوِّه، أرسل إلى الخليفة المستنصر وفدًا من أشراف ليون وأحبارها يعرض عليه أن يعترف بطاعته، وأن يقوم بتنفيذ ما تعهَّد به لعبد الرحمن الناصر من قبل، فيهدم الحصون التي كان يجب أن يهدمها ويُسَلِّم المسلمين الحصون الأخرى.

ولكن أردونيو ما لبث أن توفي، فعاد سانشو ونكث بعهوده التي كان قد قطعها على نفسه، فعزم المستنصر على تأديبه، وبدأ يستعدُّ لمواجهة ليون عسكريًّا، فخاف النصارى من أثر ذلك عليهم، وقرَّرُوا أن يتحدوا لمواجهة المسلمين، وكان الكونت فرنان كونثالث قد أعلن قبل ذلك بقليل استقلاله بقشتالة عن ليون، وكانت العداوة قائمة بينه وبين سانشو ملك ليون، ولكن خوفهم من المسلمين أرغمهم على

أن يتَّحدوا معًا لمقاومة الضربة الإسلامية القادمة، وبالفعل تحالف سانشو مع فرنان كونثالث أمير قشتالة، ومع غرسية سانشيز ملك نافار، ومع كونت بَرْشُلُونَة، وتأهَّبوا جميعًا لصدِّ الهجوم الإسلامي الوشيك.

وخرج الحكم على رأس صائفة عام (٣٥٢هـ= ٩٦٣م) معلنًا الجهاد، فاجتاحت الجيوش الإسلامية أراضي قشتالة ومَزَّقت جيوشها شَرَّ ممزَّق في موقعة شنت إشتيبن، وأرغمت فرنان كونثالث، وسانشو على طلب الصلح، ثم اجتاحت الجيوش الإسلامية غربي مملكة نافار؛ عقابًا لملكها على نكثه بعهوده مع المسلمين وإغارته على أراضيهم، ثم توالت غارات المسلمين على أراضي قشتالة ما بين سنتي ٩٦٣م، و٩٦٧م.

وقد تسببت الصراعات الداخلية على الحُكم في مملكة ليون، والصراعات الخارجية مع المسلمين وغيرهم في ضعف سلطان ليون في الداخل والخارج، فكثرت ثورات الزعماء والأشراف على سانشو، وكان من أشدِّ هؤلاء الثوار من الأشراف الكونت جوندسالفو سانشيز حاكم جِلِّيقِيَّة، وكان قد استطاع أن يُوَطِّد استقلاله في المنطقة الواقعة بين نهري منيو ودويرة، وأن يبسط حكمه على ثلاث قواعد مهمة؛ هي: لاميجو وبازو وقُلُمْرِيَة، الواقعة فيما وراء دويرة شمالي البرتغال، فسار سانشو لقتاله، ولكنه حينما عبر نهر منيو بقواته وجد الزعيم الثائر قد أرسل إليه يعرض عليه التسليم والدخول في طاعته، ثم دعاه إلى لقائه، فقبل سانشو وذهب إليه، فغدر به حاكم جِلِّيقِيَّة بأن دعاه إلى مأدبة طعام، وقدَّم إليه فاكهة مسمومة، فأكل منها سانشو، وسرعان ما شعر بآثار السمِّ تسري في جسده، فحُمل في الحال إلى ليون، وهو يلفظ أنفاسه الأخيرة، ودُفن بها سنة (٩٦٦م).

وتولَّى من بعد سانشو ابنه راميرو الثالث، وكان طفلاً في الخامسة من عمره، فتولَّت الوصاية عليه عمته الراهبة إلبيرة، ولكن ذلك لم يَرُقْ لمعظم أشراف ليون،

فأبوا الاعتراف بسلطانه، ونشبت نتيجة لذلك عددٌ من الثورات المحلية، وأعلن كثير من الزعماء الأقوياء الانفصال عن العرش، وكان مَثَلُ فرنان كونثالث في الانفصال بقشتالة أقوى مشجِّع لهم على ذلك، وكانت أخطر الثورات هي ثورة جوندسالفو سانشيز قاتل سانشو؛ حيث استمرَّ على استقلاله بحكم جِلِّيقِيَّة، وحكم القواعد الثلاثة المهمة لاميجو وبازو وقُلُمْرِيَة، الواقعة فيما وراء نهر دويرة.

وفي خلال ذلك توفي الكونت فرنان كونثالث أمير قشتالة عام (٩٧٠م)، وخلفه على قشتالة ابنه غرسية فرناندز، كما توفي غرسية سانشيز ملك نافار، وخلفه ابنه سانشو غرسية الثاني.

وقد تسبَّبت هذه الأحداث والاضطرابات الداخلية في الممالك النصرانية في أن تلتزم هذه الممالك الهدوء تجاه المسلمين حينًا من الزمن دون أن تحاول الاعتداء عليهم؛ بل اتجه الملوك والأمراء النصارى إلى تحسين علاقاتهم بالمسلمين؛ فتوالت زياراتهم وسفاراتهم على الحكم المستنصر يطلبون منه الصلح والمهادنة.

فوفد أمير جِلِّيقِيَّة، وأمير أشتوريش، ثم وفدت رُسل غرسية ملك نافار، وهم جماعة من القوامس (الكونتات) والأساقفة يسألون الصلح، فأجابهم الحكم إلى ما طلبوا، وأرسل أمير بَرْشُلُونَة كذلك بسفارة إلى الحكم في شعبان سنة ٣٦٠هـ=يونيو ٩٧١م؛ لتجديد المودَّة والصداقة، وكان مع السفارة ثلاثون أسيرًا مسلمًا كانوا محتجزين في بَرْشُلُونَة، كما وفدت الراهبة إلبيرة الوصية على ملك ليون تطلب السلم، فاستقبلها الحكم استقبالاً حافلاً، وأجابها إلى ما تطلب من السلم، كما وفدت سفارات أخرى من غرسية فرناندز أمير قشتالة، وفرنان لينيز أمير شلمنقة.. وغيرهم.

وكانت هذه السفارات في معظمها لطلب السلم والمودَّة مع الحكم المستنصر،

وأحيانًا كانت لتقديم الطاعة وطلب العون.

٢- استقلال قشتالة:

كان عبد الرحمن الناصر قد تدخَّل لإعادة سانشو إلى العرش -كما ذكرنا- فاستغلَّ فرنان كونثالث هذا الصراع على الحُكم داخل مملكة ليون، وأعلن استقلاله بقشتالة عن مملكة ليون، وسعيًا منه إلى توسيع أملاكه وتوطيد حكمه أخذ يُغِيرُ على أراضي المسلمين من وقت لآخر؛ حيث كان نزوله إلى ميدان مقاومة المسلمين ومحاولة إضعافهم سبيلاً -في ذلك الوقت- إلى تدعيم هيبته في نفوس النصارى، واجتذاب عطفهم ومحبتهم، كما أنه بذلك يُوَطِّد سلطانه في مواجهة ملك ليون، الذي لم يَعُدْ إلى هذا المكان إلاَّ بدعمٍ من عبد الرحمن الناصر العدوِّ اللدود للنصارى الإسبان.

ومنذ ذلك الوقت بدأت قشتالة تحتلُّ مكانها في تاريخ الكفاح بين إسبانيا النصرانية وإسبانيا المسلمة، وتغدو -بالرغم من نشأتها المتواضعة- شيئًا فشيئًا أعظم الممالك النصرانية رقعة، وأوفرها قوة ومنعة، وأشدها مراسًا في محاربة المسلمين، وإنهاك قواهم.

٣- مملكة نافار:

كانت العلاقات قد اضطربت بين قشتالة وبين نافار في آخر حياة عبد الرحمن الناصر، ودارت رحى حرب شديدة بين الطرفين انتهت بهزيمة قشتالة، وأَسْرِ قائدها الكونت فرنان كونثالث، فلما توفي عبد الرحمن الناصر، وتولَّى من بعده ابنه الحكم المستنصر، طالب ملك نافار بتسليمه فرنان كونثالث، إلاَّ أن ملك نافار رفض أمر الحكم، بل زاد فأطلق فرنان كونثالث من أسره.

ثم اتحدَّ النصارى لمواجهة المسلمين عسكريًّا، بعدما رفض سانشو تنفيذ ما

تعهَّد به للمسلمين، ودخلت الجيوش الإسلامية غرب نافار وعاشت فيها -كما تقدَّم- وظلَّ غرسية سانشيز في الحُكم حتى سنة (٩٧٠م)، واستمرَّت أُمُّه الملكة طوطة محتفظة بإشرافها عليه، ومشاركتها الفعلية في الحكم حتى وفاتها سنة (٦٩٠م)[1].

جهاد الحكم بن الناصر وتوسعاته:

ظنَّت الممالك الإسبانية النصرانية في الشمال أن وفاة عبد الرحمن الناصر ستؤثِّر كثيرًا على الأندلس، وأن الأندلس لن يكون بعد وفاة عبد الرحمن الناصر كما كان قبل وفاته، وربما ظنُّوا أن هذه الثورات التي استطاع عبد الرحمن الناصر إخمادها في أول عهده، لن تلبث أن تعود من جديد بعد موته؛ لذلك استهانوا بالحكم المستنصر، فهو في بداية عهده، وهو في أمسِّ الحاجة لاستقرار أحوال بلاده في هذه الفترة؛ حتى يقوى مُلكه، أو هكذا ظنُّوا، فسارع سانشو - كما ذكرنا - إلى نقض العهد الذي كان بينه وبين عبد الرحمن الناصر، ثم عاد ونقض عهده مع المستنصر، في حين أبت نافار تسليم فرنان كونثالث زعيم قشتالة، الذي هاجم الثغور الإسلامية أكثر من مرَّة، فرأى الحكم أنه لا بُدَّ من تأديب نصارى الشمال؛ على كل ما فعلوا ويفعلون، وبالفعل أعَدَّ جيشًا قويًّا وغزا به الممالك النصرانية في الشمال سنة (٣٥١هـ)، وفتح حصونًا كثيرة، وقتل وغنم وسبى، ثم رجع ظافرًا[2].

ثم عاد وجَهَّز جيشًا قويًّا في العام التالي سنة (٣٥٢هـ) أرعب النصارى، وحملهم - رغم ما بينهم من عداوات- على الاتحاد لمواجهة القوات الإسلامية، ثم غزا الحكم بهذا الجيش الممالك الصليبية الثلاث في الشمال، ومزَّق به جيوشهم شَرَّ ممزق، واضطرهم إلى طلب الصلح والإذعان للمسلمين[3]، بل وتمسكوا -على عادة

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٥٩٤، بتصرف.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٣٤.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٣٦، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٤، ١٤٥.

الأمم الضعيفة التي لا تملك الدفاع عن نفسها- بعلاقات السلام مع الحكم المستنصر، وظَلَّت وفودهم تأتي من عام إلى آخر تطلب تجديد الصلح مع الحكم المستنصر، أو تطلب منه التحالف معه في مقابل الدخول في طاعته[١].

غزو الفايكنج لسواحل الأندلس:

استطاع الحكم المستنصر بهذه الهمة العالية أن يطأ أرض نصارى الشمال، وأن يُخضعهم، وأن يحملهم على اليأس من أن ينالوا منه شيئًا، وهذا ما اضطرهم إلى الحفاظ على حالة السلم بينهم وبين الحكم المستنصر، ولكن هذه الحالة من الرخاء والسلام لم تستمرّ طويلاً، بل لعلَّ هذا الرخاء قد أغرى أقوامًا آخرين بالأندلس؛ فهجمت على السواحل الغربية للأندلس سنة (٣٥٥هـ) عصابات الفايكنج الذين هاجموا الأندلس من قبلُ في عهد عبد الرحمن الأوسط، واستطاع عبد الرحمن الأوسط رَدَّهم عن الأندلس مهزومين، وشرع في تحصين إِشْبِيلِيَة -كما ذكرنا من قبل- ولكن يبدو أن حالة الرخاء التي وصل إليها المجتمع في ذلك الوقت قد أنستهم هذه الهزائم القديمة، وأغرتهم بأن يُعيدوا الكَرَّة من جديد، فهاجموا السواحل الأندلسية الغربية بثمانية وعشرين مركبًا، وبدءوا يعيثون فيها فسادًا؛ فخرج إليهم المسلمون ودارت بينهم معارك شديدة، قُتل فيها عدد من الطرفين، وأَرسلت هذه المناطق رسائل إلى الحكم المستنصر في قُرْطُبَة، تُخبره بما حدث وتطلب منه العون والنجدة، فسارع بأمر الأسطول بالتحرُّك إلى نجدة المسلمين، وبالفعل دارت بين الأسطول وبينهم معارك شديدة هزمهم المسلمون فيها، وحطموا عددًا من مراكبهم، واستطاعوا رَدَّهم عن السواحل الأندلسية خائبين خاسرين، بعدما خَلَّصُوا مَنْ معهم من أسرى المسلمين، وظَلَّت سفنهم -التي بقيت لهم بعد هذه المعركة- تجوب المياه الغربية للأندلس فترة، لم يجرءوا فيها على مهاجمة الأندلس، ثم

---

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٥.

اختفوا بعد ذلك[1].

وبعد ذلك شُغل الحكم المستنصر بأمر الشمال الإفريقي، وإخضاعه لسلطانه، وبين هذا وذاك كان الحكم مهتمًّا بنشر العلم والتعليم، وإقامة هذا الصرح الحضاري العظيم في الأندلس، حتى توفي سنة (٣٦٦هـ) بعدما أخذ البيعة لابنه هشام، وهو لا يزال طفلاً.

* * *

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٣٩، وتاريخ ابن خلدون: ١/ ٢٤٦.

الفصل الخامس

هشام المؤيد بن الحكم وبداية الدولة العامرية



الحكم بن عبد الرحمن الناصر وكبوة الجواد:

بالرغم من أن الحكم المستنصر كان من أفضل حكَّام الأندلس إلاَّ أنه في آخر عهده قد أخطأ خطأً جسيمًا؛ فقد أُصيب في آخر أيامه بالفالج (بالشلل)، فقام باستخلاف أكبر أولاده هشام بن الحكم وعمره آنذاك أحد عشر عامًا فقط[1]، استخلفه على بلاد الأندلس وفوقها بلاد النصارى في الشمال ومن تحتها الدولة العبيدية (الفاطمية) في الجنوب، وكل ممالك أوربا متربِّصة للكيد لهذه القوة العظيمة وهزيمتها.

وهي بلا شكٍّ زلَّة خطيرة من الحكم بن عبد الرحمن الناصر؛ إذ كان عليه أن ينتقي مَنْ يستخلفه لهذه المهمة الجسيمة، ويُوَلِّي رجلاً آخر من بني أمية؛ يستطيع أن يقوم بأعباء حُكم دولة قوية، كثيرة الأعداء متسعة الأطراف، ومترامية الأبعاد كدولة الأندلس.

وقد توفي الحكم بن عبد الرحمن الناصر رحمه الله سنة (٣٦٦هـ=٩٧٦م)، مستخلفًا على الحُكم من بعده ابنه الطفل الصغير هشام بن الحكم، وكان في القصر حزبان قويان؛ هما: الفتيان الصقالبة من جهة، ومن الجهة الأخرى الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، ومعه قائد الشرطة القوي والناظر على شئون الخليفة ومتولي أمره محمد بن

---

(١) ذكر ابن عذاري في البيان المغرب ٢/ ٢٥٣ أنه بلغ إحدى عشرة سنة وثمانية أشهر، في حين ذكر ابن الخطيب في أعمال الأعلام ص٤٤ أنه تولَّى وهو ابن عشر سنين، وقال المقري في نفح الطيب ١/ ٣٩٦ أنه تولى وهو ابن تسع سنين.

أبي عامر، ومن وراء هذا الحزب أم الخليفة صبح البشكنسية، التي كانت أقوى شخصية في هذا الحزب في تلك اللحظة، وهي بشكنسية الأصل (نافارية)، وكانت أحب نساء الحكم إليه وأحظاهن عنده.

مؤامرة الفتيان الصقالبة:

كان من عادة أمراء بني أمية الاستكثار من الفتيان الصقالبة، والاعتماد عليهم في أعمال القصر وأمورهم الخاصة، وقد سار عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم المستنصر على هذا النهج، فزاد عدد الفتيان الصقالبة في عهدهم، وبلغ عدد العاملين منهم في القصر فقط في نهاية عهد الحكم المستنصر أكثر من ألف فتى، فاتَّسع نفوذهم، وأصبحوا قوة لا يُستهان بها لكثرتهم، ولقُربهم من الخليفة، ولاعتماد الخليفة عليهم في أعمال مهمة كحراسته شخصيًّا، وما إلى ذلك من أعمال تمرَّسُوا فيها بمرور الوقت دون غيرهم، حتى ظنُّوا أن المُلْكَ بأيديهم، وأن لا غالب لهم.

وكان كبير الفتيان الصقالبة الفتى فائق، ويليه في المرتبة والمكانة الفتى جؤذر، فلما مات الحكم المستنصر كتم هذان الفتيان خبر موته، وضبطوا أمور القصر وسَيَّرُوها كأنْ لم يحدث شيء، وعقدا العزم على صرف أمر الخلافة عن هشام بن الحكم لصغر سِنِّه، ولمعرفتهم أن الحاكم الفعلي سيكون حزب المصحفي وابن أبي عامر وصبح، فعزموا على نَقْلِ الخلافة إلى أخي الحكم المستنصر المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، فيكون لهما نتيجةً لذلك فضل على المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، ويَتَّسع نفوذهما ونفوذ أتباعهما.

جلس الفتيان فائق وجؤذر يضعان الخطة لتنفيذ فكرتهما، فأشار جؤذر بقتل الحاجب المصحفي، فبذلك يتمُّ لهم الأمر، فلم يرض فائق بهذا، وأشار بأن يأتوا بالحاجب فيُخَيِّروه بين الموافقة أو القتل، فأرسلا إلى جعفر الحاجب، ونعوا إليه

الحكم المستنصر، وأخبراه بما ينويان به من صرف الأمر إلى المغيرة أخي الحكم لصغر سن هشام، فأدرك الحاجب التهديد الكامن وراء الكلام، فأظهر الموافقة وقال: هذا والله! أَسَدُّ رأي وأوفق عمل؛ والأمر أمركما، وأنا وغيري فيه تبع لكما، فاعزما على ما أردتما، واستعينا بمشورة المشيخة؛ فهي أنفى للخلاف، وأنا أسير إلى الباب (أي القصر)، فأضبطه بنفسي، وأنفذا أمركما إليَّ بما شئتما.

وبادر بالفعل إلى ضبط أبواب القصر لكي لا ينتشر الخبر، ثم سارع إلى طلب كبار رجال الدولة من العرب والبربر، وكان منهم محمد بن أبي عامر، كما أمر بإحضار أتباعه وشيعته، ونعى إليهم الخليفة، وأخبرهم بخطة الفتيان الصقالبة في تحويل أمر الخلافة إلى المغيرة بن عبد الرحمن الناصر بدلاً من هشام بن الحكم، ثم عَرَّفهم أضرار ذلك فقال: «إن حَبَسْنَا الدولة على هشام، أَمِنَّا على أنفسنا، وصارت الدنيا في أيدينا، وإن انتقلت إلى المغيرة اسْتَبْدَل بنا، وطلب شفاء أحقاده». فأشاروا عليه بقتل المغيرة بن عبد الرحمن، ولكن لم يجرؤ أحد منهم على التقدُّم لتنفيذ هذا الأمر.

فلما رأى ابن أبي عامر ذلك، سارع هو بتنفيذ هذه المهمة؛ حرصًا منه عليهم، واتباعًا لجعفر بن عثمان، فأُعجبوا به، وزاد تقديرهم له، وقال له جعفر: أنت أحقُّ بتولِّي كِبْرَه لخاصَّتك بالخليفة هشام ومحلك من الدولة. ثم أرسل معه فرقة من الجنود فذهبوا من فورهم إلى دار المغيرة بن عبد الرحمن الناصر، فأحاطوا بالدار من جميع جوانبها، ودخل عليه ببعض هؤلاء الجنود، ولم يكن قد علم بخبر وفاة أخيه، فنعاه ابن أبي عامر إليه، وأخبره بأن الوزراء قد خشوا أن يخرج المغيرة على بيعة هشام، فأرسلوه إليه ليمتحنه، وليتأكَّد من صدق ولائه لابن أخيه، وبقائه على بيعته، فذُعِر المغيرة ثم استرجع عليه، واستبشر بملك ابن أخيه، وقال: «أَعْلِمْهم أني سامع مطيع وافٍ ببيعتي؛ فتوثَّقُوا مني كيف شئتم». وأقبل يستلطف ابن أبي عامر،

ويناشده الله في دمه، ويسأله المراجعة في أمره، حتى رقَّ له ابن أبي عامر، فأرسل إلى جعفر المصحفي يصف له أمر المغيرة، ويطمئنه بأنه سامع مطيع، وكان جعفر وأصحابه قد عزموا على التخَلُّص من المغيرة أيًا كان موقفه؛ مبالغة في تأمين الخلافة، فلما رأى جعفر رغبة ابن أبي عامر في ترك المغيرة حيًّا، أرسل إليه بلومه على التأخير، ويقول له: غررتنا من نفسك؛ فانْفُذْ لشأنك أو فانصرف نرسل سواك.

فعلم ابن أبي عامر أن لا سبيل لنجاة المغيرة، واستفزَّت كلمات جعفرٍ ابنَ أبي عامر، فأمر بالمغيرة فقُتل خنقًا أمام حريمه، ثم عَلَّقُوا جثمانه على هيئة المشنوق، ليقولوا مِنْ بعدُ: إنه قتل نفسه لَمَّا أكرهوه على الركوب لابن أخيه لمبايعته. وكانت سنه يوم قُتل سبعًا وعشرين سنة[١].

هل كان المغيرة طرفًا في مؤامرة الفتيان الصقالبة؟

حتى باعتبار أن الحكم المستنصر أخطأ حين عهد بولاية العهد لابنه الصغير، ففي عُرْفِ ذلك الزمان أن الولد قد تمت له بيعة شرعية، وأن الخروج على هذه البيعة هو خروج على الوالي الشرعي، ولقد كان المغيرة فتى بني أمية ومن المؤهلين لتولي الخلافة، ووردت عبارة لابن بسام في الذخيرة تُفيد بأنه كان يتأهَّب للانقلاب على ابن أخيه، قال: «وكان فتى القوم كرمًا ورجلة، وممن أُشير نحوه بالأمر بأسباب باطنة، فأخذ له أهبته»[٢].

كما بدا في كلمة المصحفي: «وإن انتقلت إلى المغيرة اسْتَبْدَل بنا، وطلب شفاء أحقاده»، أن له عداوة سابقة مع المصحفيين، وهم رجال دولة الحكم، فهذا دليل آخر على أن الرجل لم يكن بعيدًا عن صراعات القصر وأطرافه.

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٩٥ وما بعدها، بتصرف.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ٥٨.

ونحن لا نتوقَّع أن يكون الفتيان الصقالبة من السذاجة بحيث إنهم يُدَبِّرون لصرف الأمر إلى المغيرة إلاَّ لو كانوا على سابق اتفاق معه، فليس من طبائع الأمور أنهم سيدبرون لهذا الأمر دون أن يتم تواصل مع الرجل الذي يُريدون تنصيبه خليفة؟

ولهذا، فنحن نميل إلى القول بأن المغيرة كان ينوي الانقلاب على ابن أخيه، إلاَّ أن المصحفي -وقد كان يملك أمر الدولة- كان أسرع إليه من خبر وفاة أخيه الحكم، فوصل إليه ابن أبي عامر ومجموعته وهو آمن.

لا شَكَّ أن مصلحة المصحفي كانت في تصفية المغيرة وإغلاق هذا الملف كله؛ فيضمنون انتهاء مؤامرة الصقالبة، وانتهاء الرجل القوي الذي قد ينازع بعدئذٍ في منصب الخلافة، ويقود الخروج على ابن أخيه، ولا شَكَّ أن المغيرة حين رأى ابن أبي عامر ومجموعته أيقن بالهلاك، فحاول بكل ما أطاق استنقاذ نفسه، ولا شَكَّ -أيضًا- أن المصحفي حين بلغه رجاء ابن أبي عامر ألا يقتل المغيرة لأنه أعلن الطاعة قدَّر في رأسه هذا المعنى، وأنه لو تُرِكَ المغيرة حيًّا فإنه سيكون أشد نقمة على المصحفي وجماعته بعد هذا الموقف؛ فلقد كانوا على وشك قتله، فرأي المصحفي أن يُغلق هذا الباب كله، وأرسل إلى ابن أبي عامر الذي صَدَعَ بالأمر وما كان له -في هذه اللحظة- أن يفعل إلاَّ هذا، ولو لم يرضَ به.

وتميل بعض التحليلات الأخرى إلى أن المغيرة لم يكن على علم بمؤامرة الصقالبة، ولا كان ينوي الخروج؛ إذ لم تبدُ من بادرة نحو هذا، وأن مقتله لم يكن إلاَّ نتيجة مؤامرات لم يكن هو طرفًا فيها، ولكن كانت مصلحة المصحفي في قتله ليصفو له الأمر.

عاد ابن أبي عامر إلى جعفر يُبَشِّره بتصفية المغيرة، ففرح بذلك، وقرَّب ابن أبي

عامر إليه، فلمّا بلغ الأمر لفائق وجؤذر سُقِطَ في أيديهم، وأخذا يتلاومان، ثم أرسلا إلى جعفر يعتذران إليه، ويقولان له: إنَّ الجزع أذهلنا عمَّا أرشدك الله إليه، فجزاك الله عن ابن مولانا خيرًا، وعن دولتنا وعن المسلمين. وأظهرا له القبول والاستبشار، فأظهر الحاجب جعفر -أيضًا- لهما قبول عذرهما، وعدم التثريب عليهما، غير أن العداوة قد استعلنت بين الطرفين: الصقالبة من جهة، وحزب هشام من جهة أخرى، فبقي الحاجب جعفر على حذر شديد من الصقالبة كلهم، ونَشَرَ بينهم العيون والجواسيس، وظلَّ في انتظار الفرصة المناسبة لتمزيقهم وتشتيت جمعهم، وهو ما حدث بالفعل بعد ذلك.

بلغ المصحفي أن فائقًا وجؤذرًا يتآمران مع بعض أتباعهما من الصقالبة في داخل القصر وخارجه؛ لتنحية هشام عن الملك، فشدَّد الحاجب الرقابة على الصقالبة، وأمر بسدِّ الباب المخصَّص لهم في القصر، وأن يكون دخولهم وخروجهم من بعدُ من باب السدَّة مع باقي الناس، ثم تفاهم مع ابن أبي عامر على أن يُلحق بعضهم بحاشيته، فاستجاب له ابن أبي عامر، فانتقل خمسمائة منهم إلى حاشية ابن أبي عامر، فعمل ابن أبي عامر على استرضائهم، وقويت بهم شوكته من بعدُ.

فشعر مَنْ بقي من الصقالبة بأن أمرًا ما يُحاك ضدَّهم، فسَعَوْا للضغط على الحاجب جعفر، فأعلن الفتى جؤذر رغبته في الاستعفاء من عمله، وكان يظنُّ أن له مكانة في القصر، وأنه لا يمكن الاستغناء عنه، إلاَّ أن استقالته قد قُبلت بالفعل في رسالة واضحة لِمَنْ بقي منهم، أنهم لا يُمَثِّلون الأهمية الكبيرة التي يظنونها لأنفسهم، فزاد تذمُّرهم وسخطهم على الدولة، وكان أكثرهم جسارة في ذلك فتى اسمه دري، وكان جاهلاً متمردًا، فحرَّك الحاجب جعفرٌ المصحفي رجلَه القوي الذكي ابنَ أبي عامر للتخلص منه، فأوعز ابن أبي عامر لمن تحت قيادة الفتى دري بأن يشتكوا جوره وظلمه لهم؛ لكي يُخَلِّصهم منه، فسارعوا إلى ذلك.

ورفع الحاجب جعفر أمر ذلك إلى هشام المؤيد، فأمر بجمع دري والمتظلمين منه والتحقيق معهم، فاستدعاهم ابن أبي عامر إلى دار الوزارة للتحقيق معهم، فلما أقبل دري على دار الوزارة، أحسَّ بالشرِّ فَهَمَّ بالرجوع فاعترضه ابن أبي عامر وقبض عليه، فأساء دري إليه وتشاجر معه، وجذبه من لحيته، فقُبِض عليه ثم حُمِلَ إلى داره، وقُتل في تلك الليلة، ثم عمد إلى باقي الفتيان الصقالبة فأمرهم بمغادرة القصر إلى دورهم، وأن يلزموها ولا يخرجوا منها، فلما تمَّ له ذلك، اشتدَّ في مطاردتهم، وأخذ أموالهم؛ حتى لا يُفَكِّروا في العودة إلى التآمر على الدولة، ونفى فائقًا إلى الجزائر الشرقية (جزر البليار حاليًا) فبقي بها حتى مات، وبذلك استأصلوا شوكة الفتيان الصقالبة، وأَمِنُوا مكرهم(١).

محمد بن أبي عامر :

هو محمد بن عبد الله بن عامر بن أبي عامر بن الوليد بن يزيد بن عبد الملك المعافري، وكان جدُّه عبد الملك المعافري من العرب الفاتحين الذين دخلوا الأندلس مع طارق بن زياد رحمه الله، فنزل بالجزيرة الخضراء في جنوب الأندلس، واستقرَّ بها، وكان والد المنصور (عبد الله بن عامر) من أهل الدين والعفاف والزهد في الدنيا والقعود عن السلطان، وقد مات في مدينة طَرَابُلُس الغرب وهو عائد من أداء فريضة الحج، وأمه هي بُرَيْهَة بنت يحيى من قبيلة بني تميم العربية المعروفة.

نشأ محمد بن أبي عامر في هذا البيت نشأة حسنة، وظهرت عليه النجابة منذ نعومة أظافره، وقد سار على خطى أهله وسَلَكَ سبيل القضاء؛ فتعلَّم الحديث والأدب، ثم سافر إلى قُرْطُبَة ليُكمل تعليمه، وكان ذا طموح كبير وهمة عالية وذكاء وقَّاد، وعمل كاتبًا للقاضي محمد بن إسحاق بن السليم؛ الذي رأى من نبوغه ما

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٩٥، وما بعدها بتصرف.

جعله يوصي به عند الحاجب جعفر بن عثمان المصحفي، وكان من تصاريف القدر أن وَلدت صبح البشكنسية -جارية الخليفة الحكم المستنصر- ولدها الأول عبد الرحمن فطلب الحكم المستنصر وكيلاً لولده عبد الرحمن، يقوم على ولده ويرعاه، فرشَّح الحاجب المصحفي هذا الفتى النابه محمدَ بن أبي عامر لذلك، وأثنى عليه عند الحكم المستنصر، فولاه الحكم المستنصر وكالة ابنه عبد الرحمن بالفعل سنة (٣٥٦هـ).

وقد أُعجب الحكم المستنصر بأخلاق محمد بن أبي عامر، وذكائه ونباهته وحُسن تصرُّفه، كما بهره هذا النبوغ العلمي الذي يحوزه ذلك الشاب، ولقد كان الحكم -كما سبق- عالمًا وخبيرًا بالأنساب ومؤرخًا، فلا شَكَّ أن هذا كان من أهم أسباب تقريبه لابن أبي عامر وحبِّه إيَّاه.

توفي عبد الرحمن طفلاً صغيرًا، ثم لم يلبث أن ولدت صبح ولدها الثاني هشامًا، فتولَّى وكالته -أيضًا- ابن أبي عامر سنة (٣٥٩هـ)، ولم يلبث أن تدرَّج في المناصب العليا، فعُيِّنَ أمينًا لدار السكة، وكُلِّفَ بالنظر على الخزانة العامة وخُطة المواريث، ثم أصبح قاضيًا لإِشْبِيلِيَة ولبلة، ثم عَيَّنه مديرًا للشرطة الوسطى، ثم ولاَّه الأمانات بالعدوة، فاستصلحها واستمال أهلها، ثم عينه الحكم قاضي القضاة في بلاد الشمال الإفريقي، وأمر عماله وقوَّاده هناك ألا يقطعوا أمرًا إلاَّ بمشورته، ثم عينه الحكم المستنصر ناظرًا على الحشم وهو في مرض موته.

ومن المدهش في أمر محمد بن أبي عامر أنه لم يتولَّ عملاً إلاَّ وأداره ببراعة وكفاءة فاقت براعة سالفيه، رغم أنه دونهم في السنِّ والخبرة، وأنه كانت تزيد عليه المناصب والتكاليف فيستطيع أن يجمع بينها مهما اختلفت وتكاثرت ويُبْدي -بعد كل هذا- مهارة فائقة في الإدارة والتصرف، رغم أن الدولة كانت في عصرها الذهبي؛ أي أن الأعمال كانت في الغاية من التفنن والدقة، وتتطلب خبرة وإتقانًا.

وكان مما ساعد محمد بن أبي عامر على أن يصل إلى هذه المراتب العالية بهذه السرعة -بجانب هذه المواهب النادرة- أنه استطاع استمالة «صبح البشكنسية» أمَّ هشام المؤيد، وجارية الحكم المستنصر، بحُسن خدمته لها ولابنها، وسعة بذله في الهدايا التي كان يُهديها دائمًا إليها، فأتاها بأشياء لم يُعهد مثلها؛ حتى لقد صاغ قصرًا من فضة وقت ولايته السكة، وصرف فيه مالاً جسيمًا، حتى جاء بديعًا، لم ترَ العيون أعجب منه ولا أحسن، ثم حُمل إليها من دار ابن أبي عامر؛ ليُشاهده الناس جميعًا، في مشهد لم يُعهد ولم يُرَ مثله من قبلُ.

على أن الحكم المستنصر لم يكن غائبًا عن هذا كله، فيُحكى أن الحكم المستنصر ظنَّ أن محمد بن أبي عامر يُتلف مال السكة (وزارة المالية) المؤتَمن عليه، فأمره الحكم بأن يُحضر المال الذي عنده ليراه بنفسه، ويتأكَّد من كماله، ويُقال: إن ابن أبي عامر كان قد استهلك بعضًا من هذه الأموال؛ ولذلك ذهب إلى الوزير ابن حدير ليُسلفه المال الناقص -وكان صديقًا له- فأسلفه ابنُ حدير المال الناقص، فعرف الحكم أنه قد أساء به الظنَّ، وزاد إعجابُ الحكم بأمانة ابن أبي عامر وحُسن تدبيره، ورفع قدره عنده، وبمجرَّد أن تأكَّد الحكم من عدم نقصان المال، أعاد ابن أبي عامر إلى الوزير ابن حدير مالَه، وهو مع هذا كله يُحسن معاملة الحاجب (رئيس الوزراء) جعفر بن عثمان المصحفي ويُداريه[١]، ويطلب منه دائمًا النصح والمشورة[٢].

محمد بن أبي عامر ونواة الدولة العامرية:

بعد وفاة الحكم المستنصر، وبعد القضاء على مؤامرة الصقالبة، ثم على قوة الصقالبة ونفوذهم في القصر، صفا الحال لحزب هشام بن الحكم المؤيد بالله، وهذا

(١) داري: أي لاينه ورفق به، وأحسن صحبته واحتماله له؛ لئلاً ينفر منه. ابن منظور: لسان العرب، مادة درى ١٤/ ٢٥٤.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٥٦، وما بعدها بتصرف.

الحزب -كما سبق وقلنا- متمثِّل في الحاجب المصحفي، وأم الخليفة الصغير صبح البشكنسية، وهي الشخصية القوية في القصر، التي كانت أحب نساء الحكم إليه وأحظاهن عنده. ثم محمد بن أبي عامر الشخصية القوية التي تتولَّى العديد من الأعمال، والتي يتكئ عليها جعفر المصحفي في كل عمل مهم، وهو كذلك متصل بصبح باعتباره كان وكيلاً لولدها هشام -الذي هو الخليفة الآن- ثم تولَّى النظر على شئون الخاصة.

وتذكر المصادر التاريخية أن حبًّا عظيمًا نشأ بين صبح وبين محمد بن أبي عامر، وأن هذا الحب كان ذا سهم كبير -بجانب كفاءة ابن أبي عامر- في ترقيه في مناصب الدولة، ثم في الأمور التي ستأتي فيما بعد، والحقُّ أن أمرًا كهذا لا يمكن القطع به على سبيل اليقين، وإن لم يكن مستبعدًا، فصبح شابَّة جارية كانت عند الخليفة الذي كان في مرحلة الكبر، بينما ابن أبي عامر شاب يشتعل ذكاء وحسنًا، ومقدرة على تصريف الأمور، ثم هو يتقرَّب إليها بين الحين والحين بالهدايا الفاخرة.

إلاَّ أن كل هذا لا يدفعنا للتيقُّن من وجود هذا الحب، فضلاً عن أن ندخل فيما حرَّم الله -كما فعل البعض- فنتوقَّع ما وراء هذا مما يُجاوز الحلال إلى الحرام؛ ذلك أن كل ما حدث وما سيأتي يمكن أن يُفَسَّر في إطار المصلحة المشتركة؛ ابن أبي عامر لا عصبة له ولا عائلة يتكئ عليها، فلا بُدَّ له من وجود هشام في منصب الخليفة؛ ليبقى هو في مكانته من الدولة، وصبح جارية بشكنسية فلو لم يكن ولدها في منصب الخليفة لما كان لها شأن يُذْكَر، إلى جانب ما رُكِّب في الأُمِّ من غريزة حب الولد، التي تجعلها تجاهد ما استطاعت ليكون ولدها هو الخليفة سيد البلاد.

ففي هذه اللحظة من تاريخ الأندلس كان في المشهد ثلاث شخصيات قوية: المصحفي الذي يتكئ على عصبته «المصحفيين»، وابن أبي عامر يتكئ على صبح والخليفة ومواهبه الفائقة، وصبح التي تتكئ على ولدها الخليفة وعلى ولاء محمد بن

أبي عامر. ثم نُضيف إلى هؤلاء شخصية قوية رابعة ألا وهي شخصية فارس الأندلس الكبير وصاحب التاريخ الجهادي الزاهر غالب الناصري.

وكان غالب الناصري لا يحب المصحفي، ولا يراه أهلاً لأن يكون شيخَ الموالي دونه؛ ذلك أن المصحفي ليس له سابقة جهاد ولا تاريخ، كما أنه معروف بالبخل، ولم يَتَرَقَّع في مناصب الدولة إلاَّ لأنه كان -قديمًا- مُعَلِّمًا ومُرَبِّيًا للخليفة الحكم لَمَّا كان ولي العهد، فلمَّا تولى الحكم الخلافة عَهِدَ إليه بمنصب الحجابة.

ثم وقع بالأندلس حادث خطير؛ إذ ما أن علم نصارى الشمال بوفاة الحكم المستنصر، وجدوا الفرصة سانحة لنقض كلَّ ما كان بينهم وبينه من عهود ومواثيق، وشرعوا يُهاجمون الثغور الإسلامية هجمات عنيفة، بغرض الثأر من المسلمين وإضعافهم؛ فلا يجدون فرصة لاستجماع قواهم من جديد، ولا يجد حاكمهم الجديد -أيضًا- الفرصة لتوطيد مُلكه؛ فيستطيع من بعدُ أن يُوَجِّه لهم الضربات العنيفة التي اعتادوها في عهد الحكام الأقوياء؛ ومن هنا فقد اشتدَّت هجمات نصارى الشمال على الثغور الإسلامية، بل وتخطّوها حتى كادت حملاتهم تصل إلى قُرْطُبَة عاصمة الخلافة الإسلامية في الأندلس.

وكأنَّ ضعف الخليفة الصغير قد انسحب على رجال الدولة جميعًا، فلم يُقدم أحد على كفاح النصارى وردِّهم، ولا يجدون أحدًا يتقدَّم لهم؛ فغالب الناصري في مدينة سالم -وهي إحدى الثغور- يقول بأنه لا يستطيع ترك المدينة؛ وإلاَّ هوجمت. وبعض التحليلات تقول بأنه لم يشأ الخروج لملاقاة العدوِّ ليُحْرِج المصحفي، ويُثَبِّت قدره ومكانته في الدولة.

والمصحفي متردد خائر الرأي، ليس له عزيمة، ولا يدري ماذا يفعل، وهو يجبن عن الخروج لملاقاة العدوِّ، بل بلغ به الأمر -بالرغم من قوة الجيش الذي تركه

الحكم المستنصر، ووفرة المال والسلاح والعتاد- أن أمر أهل قلعة رباح بقطع سدِّ نهرهم؛ ظنًّا منه أن هذا قد يُنجيهم من ضربات النصارى المتلاحقة.

وهكذا بدت هذه الدولة القوية وكأنها ستعاني وتسقط جراء خلافات رجالها، وصغر سن خليفتها، وضعف وتردُّد حاجبها ومتولِّي إدارتها.

وهنا.. نهض للأمر محمد بن أبي عامر، الذي أَنِف من تصرُّف المصحفي، ووجد فيها إعلانًا بالضعف والصغار، وكأن البلاد قد خلت من الرجال، فلا يجدون رجلاً يقود الجيوش القوية الموجودة بالفعل، فيلجئون إلى هذه الخطة الدفاعية الذليلة التي تضرُّ، وقد لا تنفع، فعرض محمد بن أبي عامر على الحاجب جعفر المصحفي أن يقوم بتجهيز الجيش للجهاد في سبيل الله، ولكن لم يجد المصحفي رجلاً يقود الجيش، فلقد جبنوا، فضلاً عن استحالة أن يقوم هو بنفسه بقيادة الجيش؛ فليست له خبرة بالجهاد من قبل، فبادر لهذه القيادة ابن أبي عامر، وقام باختيار مَنْ يخرج معه من الرجال، واحتاج في تجهيزه للجيش لمائة ألف دينار، فاستكثر ذلك بعض الحاضرين، فقال له محمد بن أبي عامر: «خُذْ ضِعْفَها، وامض! وليحسنْ غَنَاؤُك». فبُهت المعترض وسكت.

بروز نجم محمد بن أبي عامر:

استعدَّ ابن أبي عامر لهذه الغزوة أفضل استعداد، وقاد الجند، وأخذ معه المال، وسار في رجب سنة (٣٦٦هـ) إلى الشمال، وهرب من أمامه جيش النصاري، ثم استطاع الاستيلاء على حصن الحامة وربضه، وعاد إلى قُرْطُبَة بعد اثنين وخمسين يومًا من خروجه إلى الغزو محملاً بالسبي والغنائم، ففرح الناس بذلك فرحًا عظيمًا، وزاد حبُّهم وتقديرهم له؛ إذ استطاع بشجاعته وإقدامه رفع الذلِّ والعار عنهم، وكذلك أحبه الجنود الذين كانوا معه؛ لِمَا رأوا من كثرة جوده، وكرم عشرته، وشجاعته في الحرب، فأحبوه والتفُّوا حوله، وزاد هو إحسانًا إليهم.

وهكذا انتهت الغزوة الأولى لصالح المسلمين عامة، ولصالح ابن أبي عامر خاصة، ولم تفتر همة ابن أبي عامر بعد هذه الغزوة؛ بل سارع بهمة عالية إلى استغلال آثارها على كافَّة المستويات، وكانت هجمات النصارى التي تتابعت على الأندلس عقب موت الحكم، وسكوت غالب عن مواجهتها قد أضعفت مركز غالب بن عبد الرحمن وقَلَّلَتْ من شأنه.

وعرف ابن أبي عامر ما في نفس غالب من العداوة للمصحفي، وبأنه يرى نفسه فوقه، ويُغضبه أن يكون المصحفي في الحجابة وفي مراتب الدولة، وهو الذي بلا تاريخ ولا سابقة، فسعى ابن أبي عامر للدفاع عن غالب عند الخليفة الصغير وأُمِّه، فرُفع بذلك قدره، وأُعطيَ لقب ذي الوزارتين، وأصبح هو وابن أبي عامر المسئولَيْنِ عن الإعداد للصوائف؛ فهو المسئول عن جيش الثغر، وابن أبي عامر المسئول عن جيش الحضرة (أي الجيش المكلف بالدفاع عن قُرْطُبَة)، وفي عيد الفطر من العام نفسه (٣٦٦هـ) اتجه ابن أبي عامر بالجيش إلى الشمال، واجتمع ابن أبي عامر بغالب بن عبد الرحمن في مدينة مجريط (مدريد الآن)، واتجها بالجيش إلى قشتالة، وفتحا حصن مُولَة، وغنموا وسبوا كثيرًا، وكان غالب ورجاله قد أبلوا أحسن البلاء، حتى كانوا سببًا في هذا الفتح.

وكان غالب قد أحب ابن أبي عامر لما رآه من مواهبه، أو لما رأى من سعيه للدفاع عنه ورَفْع قدره عند الخليفة وأمه، ودوره في أن يُلَقَّب بذي الوزارتين، أو لما كان من العداوة بينه وبين للمصحفي؛ فمن ثَمَّ رأى أن ابن أبي عامر أحق بالحجابة من المصحفي.

أيًّا ما كان الأمر، لسبب مما سبق أو لكل هذه الأسباب معًا، فلقد توطَّدت العلاقة بين غالب الناصري ومحمد بن أبي عامر، إلى الحدِّ الذي تنازل فيه غالب عمَّا أبلاه وجنوده في الفتح، فنُسب ذلك كله إلى ابن أبي عامر، فأرسل الرسائل إلى قُرْطُبَة تُشيد

بما كان منه ومن بطولته وجهاده، وعظم الفتح الذي تمَّ على يديه، ثم اتفقا على عزل المصحفي، ذلك الحاجب الضعيف المتردِّد الرأي، وقال غالب لمحمد بن أبي عامر: «سيظهر لك بهذا الفتح اسم عظيم وذِكْر جليل، يشغلهم السرور به عن الخوض فيما تُحدثه من قصة، فإيَّاك أن تخرج عن الدار حتى تعزل ابن جعفر عن المدينة وتتقلدها دونه!»؛ لأن ابن جعفر المصحفي كان متوليًا لقُرْطُبَة العاصمة، وعَزْل هذا الوالي أول طريق عزل المصحفي عن الحجابة.

عاد ابن أبي عامر إلى قُرْطُبَة ومعه الغنائم والسبي، فاستمال بهذا الفتح الكبيرِ العامةَ والخاصةَ، وعَرفوا فيه حُسن النقيبة، وبُعد الهمة، فما كاد يصل ابن أبي عامر إلى قُرْطُبَة حتى أمر الخليفة في اليوم نفسه بعزل محمد بن جعفر المصحفي عن مدينة قُرْطُبَة، وتولية ابن أبي عامر المدينة، فأظهر ابن أبي عامر في حُكم المدينة كفاءة منقطعة النظير؛ حتى إن ابن عذاري المراكشي يصف ما قام به بالنسبة إلى فعل ابن المصحفي فيقول: «فضبط محمد المدينة ضبطًا أنسى أهل الحضرة (أي قُرْطُبَة) مَنْ سلف من أفراد الكُفَاة[1] وأُولي السياسة، وقد كانوا قبله في بلاء عظيم، يتحارسون الليل كله، ويُكابدون من روعات طُرَّاقه ما لا يُكابد أهل الثغور من العدوِّ. فكشف الله ذلك عنهم بمحمد بن أبي عامر وكفايته، وتنزُّهه عما كان يُنسب لابن جعفر؛ فسدَّ باب الشفاعات، وقمع أهل الفسق والزعارات[2]، حتى ارتفع البأس، وأَمِنَ الناس، وأمنت عادية المتجرِّمين من حاشية السلطان؛ حتى لقد عثر على ابن عم له يعرف بعسقلاجة؛ فاستحضره في مجلس الشرطة وجلده جلدًا مبرحًا كان فيه حمامه[3]؛ فانقمع الشرُّ في أيامه جملة»[4].

(١) الكُفاة: الخدم الذين يقومون بالخدمة؛ جمع كافٍ. ابن منظور: لسان العرب، مادة كفى ١٥/ ٢٢٦.
(٢) الزعارات: جمع زعارة: وهي الشراسة وسوء الخلق. ابن منظور لسان العرب، مادة زعر (٤/ ٣٢٣).
(٣) أي مات من الجلد، وكان قد جلده في حد شرب الخمر.
(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٦٦.

ولما رأى الحاجب جعفر المصحفي ما آل إليه أمر ابن أبي عامر من القوة، وما بدا من تضعضع قوته وانحسار نفوذه، بادر إلى استمالة غالب، فخطب ابنة غالب لابنه، وما أن علم ابن أبي عامر بالأمر، حتى أرسل إلى غالب يُناشده العهد، ويخطب ابنة غالب لنفسه، وسانده في ذلك أهل دار الخلافة، فخرج طلب خطبة أسماء إلى ابن أبي عامر من قصر الخلافة في الزهراء، وبهذا كان الميزان كله في صالح ابن أبي عامر، فوافق غالب على تزويج ابنته أسماء له، وتم عقد القران بالفعل في المحرم سنة (٣٦٧هـ)، وعندها أيقن المصحفي بالنكبة، وكفَّ عن اعتراض ابن أبي عامر في شيء، وانفضَّ الناس عن المصحفي، وأقبلوا على ابن أبي عامر إلى أن صار المصحفي يغدو إلى قصر قُرْطُبَة ويروح وهو وحده وليس بيده من الحجابة سوى اسمها.

وبعد أن تمَّ عقد قران ابن أبي عامر على أسماء ابنة غالب، خرج ابن أبي عامر في غزوته الثالثة، فخرج إلى طليطلة في غرَّة صفر ٣٦٧هـ، واجتمع مع صهره غالب، ونهضا معًا إلى الشمال النصراني، فافتتحا حصن المال، وحصن زنبق، ودخلا مدينة شلمنقة، واستولوا على أرباضها، ثم عاد ابن أبي عامر بالغنائم والسبي، وبعدد كبير من رءوس النصارى، بعد أربعة وثلاثين يومًا من خروجه، فزادت حفاوة الخليفة به، وقلده خُطَّة الوزارتين للتسوية بينه وبين صهره، ورفع راتبه إلى ثمانين دينارًا في الشهر، وهو راتب الحجابة في ذلك الوقت، ثم زُفت أسماء بنت غالب إلى محمد بن أبي عامر في ليلة النيروز من قصر الخليفة في عرس لا مثيل له في الأندلس، ثم قلَّده الخليفة خُطَّة الحجابة إلى جانب جعفر المصحفي، ثم تغيَّر الخليفةُ على جعفر وسخط عليه، وأمر بعزله هو وأولاده وأقاربه عن أعمالهم في الدولة، والقبض عليهم، فسارع محمد بن أبي عامر إلى محاسبتهم حتى استصفى كل أموالهم، ومزَّقهم كل ممزق، وأيقن جعفر المصحفي بأنه هالك لا محالة، فحاول استرضاء ابن أبي عامر إلاَّ

أن ذلك لم يُجْدِ شيئًا، حتى توفي سنة (٣٧٢هـ) في سجنه، وقيل: قُتل. وقيل: دست إليه شربة فيها سُمّ[١].

ويُعلِّق ابن حيان على ما آل إليه أمر جعفر المصحفي فيقول: «وكانت لله عند جعفر في إيثاره هشامًا بخلافته، واتباع شهوة نفسه وحظِّ دنياه، وتسرُّعه إلى قتل المغيرة لأول وهلة، دون قصاص جريرة استدركته دون إملاء، فسُلط عليه مَنْ كان قدر أن يتسلط على الناس باسمه»[٢].

الدولة العامرية (٣٦٦-٣٩٩هـ= ٩٧٦-١٠٠٩م):

استقرَّ الأمر لمحمد بن أبي عامر؛ فلقد أضحى الحاكم الفعلي لبلاد الأندلس؛ فهو الحاجب القوي، الذي يسوس البلاد والعباد، ويغزو صيفًا وشتاءً فينتصر في كل معاركه مع النصارى، بينما الخليفة الذي كان صغيرًا يكبر على مهل، ولا يدري من حال مملكته شيئًا.

وقبض الحاجب محمد بن أبي عامر على أَزِمَّة السلطان في الدولة، وصار إليه الأمر والنهي والتولية والعزل، وإخراج الجيوش للجهاد، وتوقيع المصالحات والمعاهدات، حتى عُرِفَ ذلك العهد بعهد الدولة العامرية.

والدولة العامرية هي ذروة تاريخ الأندلس، وأقوى فتراتها على الإطلاق، ففيه بلغت الدولة الإسلامية الغاية في القوَّة، فيما بلغت الممالك النصرانية أمامها الغاية من الضعف، وقد بدأت فترة هذه الدولة فعليًّا منذ سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م)، منذ أن تولى محمد بن أبي عامر أمر الوصاية على هشام بن الحكم، وظَلَّت حتى سنة (٣٩٩هـ= ١٠٠٩م)؛ أي: أنها استمرَّت ثلاثًا وثلاثين سنة متصلة، وتُعَدُّ الدولة العامرية مندرجة

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٦٤، بتصرف.

(٢) انظر: ابن بسام: الذخيرة ٧/ ٦٥.

في فترة الخلافة الأموية؛ لأن الخليفة ما زال قائمًا، وإن كان مجرَّد صورة.

محطات في الدولة العامرية:

من الأهمية بمكان -ونحن نناقش فترة محمد بن أبي عامر- أن نتذكر أنه بلا عصبة، أي ليست وراءه عائلة يتقوى بها، وتتعصب له على نحو ما كان مهيَّأ للعائلات الكبيرة؛ كبني أمية وبني العباس في المشرق، وغيرهم من العائلات الأقل، ولنتذكر أن عامل «العصبية» هذا هو الذي كان يحكم كل العالم إلى ما قبل أن تنشأ الجمهوريات الحديثة، فكان لا بُدَّ للملك أو الحاكم أن تكون له عصبة ترفعه وتحميه ويتكئ عليها.

وحين دخل عبد الرحمن الداخل إلى الأندلس استفاد من تناحر العصبيات العربية الكائنة فيها، فحاول التحالف مع القيسية، ثم تحالف مع اليمنية وبهم انتصر، ولقد كان الداخل بعيد النظر حين علم أنه إن أراد إقامة دولة للإسلام فلا بُدَّ له من أن يقضي على العصبيات، وأن يتخذ لنفسه رجالاً لا عصبية لهم، فأكثر رحمه الله من اتخاذ الموالي، الذين صار لهم الشأن الأكبر في عهد الإمارة الأموية، بينما تراجعت رجالات العرب، وابتعدت عنهم المناصب، وصاروا في الدولة في مكانة تشريفية؛ يحضرون المجالس ويُقَدَّمون في المناسبات، وما إلى ذلك.

وكذلك -أيضًا- فعل عبد الرحمن الناصر؛ فلقد أكثر من الاعتماد على البربر الذين عبروا إلى الأندلس من عدوة المغرب، ونستطيع أن نقول بأن نجاح الدولة الأندلسية كان من أهم أسبابه اختفاء العرب ذوي العصبيات من مناصب الحكم.

وكذلك فعل ابن أبي عامر؛ فلقد كان البربر عُدَّته ورجاله، ولقد استكثر منهم، وضمهم إليه واستقوى بهم، وكان ابن أبي عامر قد تولى قضاء عدوة المغرب في أيام الحكم المستنصر، وساهم بذكائه وحسن سياسته في جعل أهم قبائل البربر المغربية -

وهم بني برزال، وزعيمهم جعفر بن حمدون- يتخلَّوْن عن تحالفهم مع العبيديين (الفاطميين)، وينحازون بالولاء إلى قُرْطُبَة عاصمة الأمويين، وكان من نتائج هذا أن فقد العبيديين (الفاطميين) المغرب الذي خلص من بعد للأمويين[١].

فالآن نحن أمام رجل ذكي موهوب، حسن السياسة، يتولَّى حكم الأندلس فعليًّا باسم الخليفة الغلام هشام المؤيد بالله، وصحيح أن الأندلس قد خلت من الرجال الأقوياء، الذين يبلغون منافسته في الحكم -اللهم إلا فارس الأندلس العظيم غالبًا الناصري، وهو صهره الآن وعلاقتهما طيبة وبينهما تحالف- إلاَّ أن هذه السياسة تجعله في خطر من بني أمية، الذين يرون الملك باسمهم، ولكن فعليًّا ليس بأيديهم، وكذلك المصحفيين الذين نُكبوا وزالت سطوتهم بزوال الحاجب جعفر المصحفي.

وبعد قليل سيظهر في الأفق خصم شديد الخطر عظيم الذكاء، إنها صبح، أُمُّ الخليفة هشام، والتي سترى أن الخلافة تخرج من بين يدي ولدها، وأن ابن أبي عامر يُسيطر بنفسه على الأمور.

في ظلِّ هذه الظروف، نفهم هذه المحطات التي حدثت بالدولة العامرية؛ وهي:

١. إنشاء مدينة الزاهرة:

كما أنشأ عبد الرحمن الناصر رحمه الله مدينة الزهراء في الشمال الغربي من مدينة قُرْطُبَة؛ لتكون مركزًا لخلافته، قام محمد بن أبي عامر بإنشاء مدينة ملوكية جديدة في شرق قُرْطُبَة سمَّاها مدينة الزاهرة أو مدينة العامرية، بدأ في بنائها عام (٣٦٨هـ)، وانتقل إليها بعد اكتمال بنائها في (٣٧٠هـ)، نقل إليها الوزارات ودواوين الحُكم، وأنشأ له قصرًا كبيرًا هناك، حتى أصبحت مدينة الزاهرة أو مدينة العامرية هي

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٨، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٧.

المدينة الأساسية في الأندلس وبها قصر الحُكم[(١)].

وكان إنشاء هذه المدينة يُحقِّق هدفين مهمين؛ الأول: هو الابتعاد عن مناطق الخطر والمؤامرات حيث مواطن الأمويين، وحيث قصر الخليفة وأمه، ومن غير المأمون أن تُدَبَّر عليه مؤامرة بيد الأمويين أو مواليهم أو بعض فتيان القصر. والثاني: هو ترسيخ وتثبيت شأنه في الدولة، وخطوة على طريق الانفراد بشئون الدولة وإدارتها.

٢. قدوم جعفر بن حمدون:

استدعى ابن أبي عامر (في عام ٣٧٠ هـ) فارس المغرب وزعيم بني برزال جعفر بن حمدون، وقد ذكرنا أنه قد كانت بينهما صلة قديمة منذ كان ابن أبي عامر قاضيًا في المغرب، فنزل جعفر إلى الأندلس وقربه ابن أبي عامر ورفع من قدره، ولا شَكَّ أن في هذه الخطوة تقوية لمركز وقوة ابن أبي عامر، فجعفر فارس كبير وشخصية قوية، ثم هو زعيم البربر الذين سيزداد ولاؤهم لابن أبي عامر بنزول زعيم منهم في كنفه، وأن يصير من رجال الدولة وفرسانها.

إلاَّ أن هذا النزول وهذه النتائج لم تكن بالتي تغيب عن ذهن فارس الأندلس غالب الناصري، والذي رأى في وجود جعفر منافسة له، بل وربما تحديًا، يُثبت أن الدولة تستطيع الاستغناء عنه بغيره، وأنه لم يَعُدِ الوحيد المختص بجهاد العدوِّ، ولم يَعُد الدِّعامة التي يُستند إليها في مهمات الحرب الجليلة.

ولا شَكَّ أن ابن أبي عامر استفاد من درس الماضي القريب؛ حين كان المصحفي في الحجابة، وثار العدو بثغور الأندلس فلم ينهض إليهم غالب لإحراج المصحفي ولإثبات مكانته من الدولة، فأحب أن يتجنَّب تكرار هذه الأزمة، وتورد بعض الروايات أن غالبًا كان بالفعل «يستطيل على ابن أبي عامر بأسباب الفروسية، ويُباينه

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٥، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٨، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٥٧٨.

بمعاني الشجاعة، ويعلوه من هذه الجهة التي لم يتقدَّم لابن أبي عامر بها معرفة»[(١)].

ومن ثَمَّ ساء الجوُّ بين غالب وابن أبي عامر.. ووقع حادث خطير:

٣. تمرد غالب الناصري:

خرج المنصور إلى غزوة من غزواته في الصوائف إلى قشتالة، فدعاه غالب الناصري إلى وليمة أقامها بمدينة «أنتيسة» وعزم عليه في حضورها، ولما ذهب ابن أبي عامر جرى بينهما نقاش واحتدَّ حتى «سبَّه غالب وقال له: يا كلب؛ أنت الذي أفسدت الدولة، وخربت القلاع، وتحكمت في الدولة. وسل سيفه فضربه»[(٢)]. ولولا أن أحد الحاضرين أعاق يده فانحرفت ضربة السيف لكانت الضربة قد قتلت ابن أبي عامر، ولكن أصابته بشجٍّ في رأسه.

ولحسن حظِّه استطاع ابن أبي عامر أن يُلقي بنفسه من فوق القلعة، وأن ينجو من هذا المأزق الخطير بما فيه من إصابات، ثم عاد إلى قُرْطُبَة وقد استُعلنت بينهما العداوة.

جهز ابن أبي عامر جيشًا من قُرْطُبَة ثم سار به إلى ملاقاة غالب الناصري، وهنا وقع الفارس العظيم في خطأ قاتل، كان أسوأ خاتمة لحياة اتصلت ثمانين عامًا حافلة بالجهاد، لقد اتصل غالب الناصري براميرو الثالث ملك ليون، وطلب منه النجدة ضد جيش قُرْطُبَة، فأمده راميرو بجزء من جنده.

ويستطيع المرء أن يتخيَّل السعادة التي حازها راميرو حينما يجد الفارس الكبير الذي أذله وبلاده كثيرًا في موقف المستنجد به، ولعلَّه أمَّل في أن يكون هذا بداية تحالف طويل بينهما.

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٨.

(٢) المقري: نفح الطيب، ٣/ ٩١.

من عجائب القدر:

التقى الجيشان؛ جيش قُرْطُبَة يقوده ابن أبي عامر في القلب وعلى الميمنة فارس المغرب -الذي صار فارس المغرب والأندلس- جعفر بن حمدون، وعلى الميسرة الوزير أحمد بن حزم (والد الإمام الكبير ابن حزم) وغيره من الرؤساء، أمام جيش غالب الناصري ومعه جيش ليون.

ومع أن غالبًا الناصري كان قد بلغ الثمانين إلاَّ أنه هجم على الميمنة فغلبها ومزَّقها، ثم عاد وهجم على الميسرة فغلبها ومزَّقها، وما هو إلاَّ أن واجه القلب، وفيه ابن أبي عامر. وإنه من المثير حقًّا أن نشاهد هذا اللقاء بين الرجلين اللذين لم يُهزما حتى الآن، واللذين ستكون هزيمة أحدهما هي الأولى -وربما الأخيرة- في حياته، فيختم بها سجل تاريخه.

رفع غالب صوته قائلاً: «اللهم إن كنتُ أصلح للمسلمين من ابن أبي عامر فانصرني، وإن كان هو الأصلح لهم فانصره». ثم حدث أعجب ما يمكن أن يُتصور في هذا الموقف، ولولا أنه وصل إلينا من رواية صحيحة ثابتة لما صدقه أحد من المؤرخين[1]، لقد مشى غالب بفرسه إلى خارج الجيشين، فَظَنَّ الناس أنه يُريد الخلاء، ثم طال غيابه، فذهب بعض جنوده للبحث عنه فوجدوه ميتًا بلا أثر ولا ضربة ولا رمية، فعادوا بالبشرى إلى ابن أبي عامر.

وأراد الله أن يموت الرجلان ولم ينهزم أحدهما، ولعلَّه استجاب ﷻ إلى دعاء غالب، فأبقى للمسلمين مَنْ هو أصلح لهم[2]، إلاَّ أن هذا الحادث المفاجئ أسفر عن تطور لم يتوقَّعْه أحد؛ إذ انحاز جيش غالب المسلم إلى جيش قُرْطُبَة فوقع جيش ليون في المأزق الكبير!

(١) رواه الإمام الكبير ابن حزم عن أبيه الوزير شاهد العيان. ابن حزم: رسائل ابن حزم ٢/ ٩٤، ٩٥. (رسالة نقط العروس).

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٦٤.

بقي أن نذكر -قبل أن نتجاوز قصة تمرُّد غالب الناصري- أن بعض المؤرخين يتوقَّع أن من أسباب تمرُّد غالب الناصري ما قد يكون تحريضًا من صبح أم الخليفة الفتى، التي بدأت ترى أن الملك يذهب من بين يدي ولدها.

٤. غزو الممالك النصرانية:

استدار جيش ابن أبي عامر -الذي انحاز إليه جيش غالب- ليواجها جيش ليون، لتبدأ غزوات الممالك النصرانية، التي استمرَّت بعدئذٍ سبعة وعشرين عامًا، وانتهت جميعها بالظفر للمسلمين.

قصد ابن أبي عامر إلى مدينة سمورة -التابعة لمملكة ليون- ليُعاقب ملكها راميرو الثالث، وحاصرها واستولى على ما حولها، وفرت أمامه الجيوش، حتى طلب راميرو المساعدة من غرسية صاحب قشتالة، وسانشو ملك نافار، وعقدوا تحالفًا ثلاثيًّا، وسارت الجيوش المتحالفة إلى لقاء جيش المسلمين فهُزموا شرَّ هزيمة، ثم زحف الجيش الإسلامي في خطوة بالغة الشجاعة إلى مدينة ليون عاصمة المملكة، ووصلوا فعلاً إلى أبوابها، إلاَّ أن نزول الشتاء والثلوج دفعا بالجيش إلى الرجوع دون إكمال فتح المدينة، فعاد الجيش إلى قُرْطُبَة، وكان ابن أبي عامر يحمل معه مفاجأة:

٥. الحاجب المنصور:

بعد عودة الجيش الإسلامي إلى قُرْطُبَة مُكلَّلاً بهذا الظفر الكبير؛ القضاء على تمرُّد غالب الناصري، ثم هزيمة جيش ليون، ثم هزيمة جيوش النصارى المتحالفة، ثم الوصول إلى أبواب ليون، قام محمد بن أبي عامر (في سنة ٣٧١هـ=٩٨٢م) باتخاذ لقب ملوكي، فلَقَّب نفسه بالحاجب المنصور، وقد كانت الألقاب من قبلُ عادة الخلفاء، ثم أصبح يُدعى له على المنابر مع الخليفة هشام بن الحكم، ثم نُقش اسمه على النقود وعلى الكُتب والرسائل[1].

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٧٩.

ومن ذلك التاريخ عُرِف محمد بن أبي عامر بهذا اللقب: الحاجب المنصور (Al manzor).

كان عهد المنصور بن أبي عامر في الذروة من القوة والكفاءة، فعلى المستوى الخارجي جهاد دائم، يخرج المنصور مرتين في العام فينتصر، وعلى المستوى الداخلي فاض الأمن والرخاء، وبلغت الحضارة والمدنية آفاقها السامقة.

وكانت الدولة العامرية تحت السلطان الكامل للحاجب المنصور، ويختفي تمامًا ذكر الخليفة هشام، الذي ظلَّ حبيس قصره الفاخر في الزاهرة، لا يتولَّى من أمر الملك شيئًا؛ لذا تختلف الروايات التاريخية إلى حدِّ التضارب في حاله؛ فمن رواياتٍ تذكر أنه كان منصرفًا للعبادة مقبلاً على العلم كثير الإنفاق على المحتاجين[١]، إلى رواياتٍ أخرى تقول بأنه كان منصرفًا إلى اللهو والعبث ومجالسة الجواري والاهتمام بالتفاهات[٢]، إلى روايات أخرى تصفه بالذكاء والحكمة والمروءة[٣]، إلاَّ أنه كان مغلوبًا على أمره، ليس بيده شيء يمكنه به استرجاع ملكه في ظلِّ السيطرة الكاملة والشاملة للمنصور على مقادير الأمور.

بعد التمهيدات السابقة وفي الطريق نحو عهد جديد قام المنصور بن أبي عامر في سنة (٣٨١هـ=٩٩١م) بأمر لم يُعهد من قَبْلُ في تاريخ الأندلس؛ بل في تاريخ المسلمين، حيث عهد بالحجابة من بعده لابنه عبد الملك بن المنصور، وكان المشهور والمتعارف عليه أن يكون العهد بالخلافة، وأن يكون من الخليفة نفسه، ثم بعد خمس سنوات أي في سنة (٣٨٦هـ= ٩٩٦م) اتخذ لنفسه لقب الملك الكريم[٤].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٥٣.
(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، ١/ ١٩٤، ١٩٥.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان ٤/ ٣٧٣.
(٤) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٩٣، ٢٩٤.

الفصل السادس

الجهاد السياسي والعسكري للحاجب المنصور

تولَّى محمد بن أبي عامر الحُكم منذ سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م) وحتى وفاته رحمه الله في سنة (٣٩٢هـ= ١٠٠٢م)، وقد قضى هذه المدَّة في جهاد دائم لا ينقطع مع ممالك النصارى في الشمال، مع حسن إدارة وسياسة على المستوى الداخلي، حتى صارت الأندلس في عهده في ذروة مجدها(١).

أولاً: كان مجاهدًا:

غزا محمد بن أبي عامر في حياته أربعًا وخمسين غزوة، لم يُهزم أبدًا في واحدة منها، بل كان الأغرب من ذلك هو أن يصل في فتوحاته إلى أماكن في مملكة ليون وفي بلاد النصارى لم يصل إليها أحدٌ من قبلُ، بل لم يصل إليها الفاتحون الأوائل؛ مثل: موسى بن نصير وطارق بن زياد، فقد وصل الحاجب المنصور إلى منطقة الصخرة؛ تلك المنطقة التي لم تُفتح من قِبَل المسلمين من قبلُ، واستطاع رحمه الله أن يغزو النصارى في عقر دارهم، وها هو ذا قد وصل إلى خليج بسكاي والمحيط الأطلسي في الشمال، وفي كل هذه الغزوات لم تنكسر له فيها راية، ولا فلَّ له جيش، ولا أُصيب له بعث، ولا هلكت سرية(٢).

وكان من المتعارف عليه قبل ذلك أن الجهاد في الصوائف فقط، إلاَّ أن الحاجب المنصور كانت له في كل عام مرتان يخرج فيهما للجهاد في سبيل الله، عُرفت هاتان

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٣٠١، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٨، والمقري: نفح الطيب ١/ ٣٩٨.
(٢) انظر تفصيل ذلك عند ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٩٤، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤١٣.

المرتان باسم الصوائف والشواتي.

وكانت أعظم هذه الغزوات قاطبة غزوة «شانت ياقب»، وشانت ياقب هو النطق العربي في ذلك الوقت لـ «سانت يعقوب» أي القديس يعقوب، وكانت هذه المدينة في أقصى الشمال الغربي من شبه الجزيرة الأيبيرية، وهي منطقة على بعدها الشديد عن أهل الأندلس في ذلك الوقت كانت شديدة الوعورة؛ ولذلك لم يصل إليها فاتح مسلم قبل المنصور بن أبي عامر، هذا بالإضافة إلى أن هذه المدينة على وجه التحديد كانت مدينة مقدسة عند النصارى، فكانوا يأتونها من مختلف بقاع الأرض ليزوروا قبر هذا القديس؛ حتى إن ابن عذاري المراكشي قال: إنها «أعظم مشاهد النصارى الكائنة ببلاد الأندلس وما يتصل بها من الأرض الكبيرة، وكانت كنيستها عندهم بمنزلة الكعبة عندنا؛ فبها يحلفون، وإليها يحجون من أقصى بلاد رومة وما وراءها»[(١)].

وكان ملوك نصارى الشمال كلما هاجم ابن أبي عامر عواصمهم فروا إلى هذه المنطقة القاصية الوعرة؛ يحتمون فيها من بأس المسلمين؛ ولهذا قرَّر ابن أبي عامر أن يذهب إلى هذه المدينة، وأن يحطم أسوارها وحصونها؛ ولِيُعْلِمَ هؤلاء أن ليس في شبه الجزيرة كلها مكان يمكنهم أن يحتموا فيه من بطش ابن أبي عامر.

وقصة هذه المدينة هي ما يُقال عن يعقوب صاحب هذا القبر، من أنه كان أحد حواريِّي سيدنا عيسى ابن مريم عليه السلام الاثني عشر، وأنه كان أقربهم إليه عليه السلام؛ حتى سموه أخاه عليه السلام للزومه إيَّاه، فكانوا يُسَمُّونه أخا الرب -تعالى الله عمَّا يصفون علوًّا كبيرًا - ومنهم مَنْ يزعم أنه ابن يوسف النجار، وتقول الأسطورة أن صاحب هذا القبر كان أسقف بيت المقدس، وأنه جاب الأرض داعيًا إلى عقيدته حتى وصل إلى

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٩٤.

تلك الأرض البعيدة، ثم إنه عاد إلى أرض الشام، وقُتل بها، فلما مات نقل أصحابه رفاته إلى آخر مكان بلغه في رحلته الدعوية.

وفي صائفة سنة (٣٧٨هـ) -وهي غزوته الثامنة والأربعون- قاد ابن أبي عامر قواته متجهًا بها نحو الشمال قاصدًا شانت ياقب، وفي الوقت نفسه بدأ الأسطول الأندلسي الذي أعده المنصور لهذه الغزوة تحرُّكَه من الموضع المعروف بقصر أبي دانس غربي الأندلس، وفي الطريق انضم إلى المنصور ابن أبي عامر عدد كبير من أمراء نصارى الإسبان؛ نزولاً على ما بينه وبينهم من معاهدات تُوجب عليهم أن يشتركوا معه في المعارك، ثم اتجه إلى شانت ياقب مخترقًا الطرق الجبلية الوعرة، حتى وصل إلى هذه المدينة، بعد فتح كل الحصون والبلاد التي في طريقه، وغنم منها وسبى، ثم وصل ابن أبي عامر إلى مدينة شانت ياقب ولم يجد فيها إلاَّ راهبًا بجوار قبر القديس يعقوب، فسأله عن سبب بقائه، فقال: أؤانس يعقوب. فأمر بتركه وعدم المساس به، وأمر بتخريب حصون هذه المدينة وأسوارها وقلاعها، وأمر بعدم المساس بقبر القديس يعقوب، ثم تعمق حتى وصل إلى ساحل المحيط دون أن يقف أمامه شيء، وكرَّ راجعًا، بعدما أنعم على مَنْ كان معه من أمراء النصارى بالمال والكساء كلٍّ على حسب قدره، ثم كتب إلى المسلمين يُبَشِّرهم بالفتح[1].

وهذه صور مشرقة من حياته الجهادية:

١ - يُسَيِّر جيشًا جرارًا لإنقاذ نسوة ثلاث:

جاء عن الحاجب المنصور في سيرة حروبه أنه سَيَّر جيشًا كاملاً لإنقاذ ثلاث من نساء المسلمين كنَّ أسيرات لدى مملكة نافار؛ ذلك أنه كان بينه وبين مملكة نافار عهد، وكانوا يدفعون له الجزية، وكان من شروط هذا العهد ألاَّ يأسروا أحدًا من

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٩٤، وما بعدها.

المسلمين أو يستبقوهم في بلادهم، فحدث ذات مرَّة أن ذهب رسول من رسل الحاجب المنصور إلى مملكة نافار، وهناك وبعد أن أدَّى الرسالة إلى ملك نافار أقاموا له جولة، وفي أثناء هذه الجولة وجد ثلاث نسوة من نساء المسلمين في إحدى كنائسهم فتعجَّب لوجودهن، وحين سألهن عن ذلك قلن له: إنهن أسيرات في ذلك المكان.

وهنا غضب رسول المنصور غضبًا شديدًا، وعاد إلى الحاجب المنصور وأبلغه الأمر، فما كان من المنصور إلاَّ أن سيَّر جيشًا جرارًا لإنقاذ النسوة، وحين وصل الجيش إلى بلاد نافار دُهش ملك نافار، وقال: نحن لا نعلم لماذا جئتم، وقد كانت بيننا وبينكم معاهدة على ألاَّ نتقاتل، ونحن ندفع لكم الجزية. وبعزَّة نفس في غَيْرِ كبرٍ ردُّوا عليه: إنكم خالفتم عهدكم، واحتجزتم عندكم أسيرات مسلمات. فقالوا: لا نعلم بهن. فذهب الرسول إلى الكنيسة وأخرج النسوة الثلاث، فقال ملك نافار: إن هؤلاء النسوة لا نعرف بهن؛ فقد أسرهن جندي من الجنود وقد تمَّ عقاب هذا الجندي. ثم أرسل برسالة إلى الحاجب المنصور يعتذر فيها اعتذارًا كبيرًا، ويخبره بأنه قد هدم هذه الكنيسة، فعاد الحاجب المنصور إلى بلده ومعه النسوة الثلاث[1].

٢- يقطع النصارى عليه الطريق، فيُملي شروطه عليهم:

ومما ذُكر عن الحاجب المنصور -أيضًا- أنه رحمه الله وهو في جهاده لفتح بلاد النصارى كان قد عبر مضيقًا في الشمال بين جبلين، ونكاية فيه فقد نصب له النصارى كمينًا كبيرًا، فتركوه حتى عبر بكل جيشه، وحين همَّ بالرجوع وجد طريق العودة قد قُطع عليه، ووجد المضيق وقد أُغلق تمامًا بالجنود.

فما كان من أمر الحاجب المنصور إلاَّ أن عاد مرَّة أخرى إلى الشمال واحتلَّ مدينة من مدن النصارى هناك، ثم أخرج أهلها منها وعسكر هو فيها، ووزَّع ديارها على

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٩٧، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٠٣.

جنده، وتحصَّن وعاش فيها فترة، ثم اتخذها مركزًا له يقود منه سير العمليات العسكرية، فأخذ يُرسل منها السرايا إلى أطراف ممالك النصارى، ويأخذ الغنائم ويقتل المقاتلين من الرجال، ثم يأتي بهؤلاء المقاتلين ويرمي بجثثهم على المضيق الذي احتلَّه النصارى ومنعوه من العودة منه.

وهنا ضجَّ النصارى وذهبوا مغاضبين إلى قوَّادهم يعرضون عليهم أن يفتحوا له الباب؛ حتى يعود إلى بلده مرَّة أخرى، أو يجدوا حلاًّ لهم في هذا الرجل، فاستجابوا لهم وعرضوا على الحاجب المنصور أن يُخَلُّوا بينه وبين طريق العودة ويعود من حيث أتى، فما كان من المنصور إلاَّ أن رفض هذا العرض، وردَّ عليهم متهكِّمًا أنه كان يأتي إليهم كل عام مرتين صيفًا وشتاءً، وأنه يريد هذه المرَّة أن يمكث بقية العام حتى يأتي موعد المرَّة الثانية، فيقوم بالصوائف والشواتي من مركزه في هذه البلاد بدلاً من الذهاب إلى قُرْطُبَة ثم العودة منها ثانية.

لم يكن مفرٌّ أمام النصارى سوى أن يطلبوا منه الرجوع إلى بلده ومالوا إلى السلم، فراسلوه في ترك الغنائم والجواز إلى بلاده، فقال: أنا عازم على المقام. فتركوا له الغنائم، فلم يجبهم إلى الصلح، فبذلوا له مالاً ودوابَّ تحمل له ما غنمه من بلادهم، فأجابهم إلى الصلح، وفتحوا له الدرب[1].

٣- يجمع ما علق على ثيابه من غبار ليُدفن معه في قبره:

مقتديًا بحديث رسول الله ﷺ: «... وَلاَ يَجْتَمِعُ غُبَارٌ فِي سَبِيلِ اللهِ وَدُخَانُ جَهَنَّمَ»[2]. فكان من عادة الحاجب المنصور رحمه الله في جهاده وبعد كل معركة أن

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ٣٦٩.

(٢) الترمذي: كتاب فضائل الجهاد، باب في فضل الغبار في سبيل الله (١٦٣٣) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وقال: حديث حسن صحيح. والنسائي (٣١٦٤)، وابن ماجة (٢٧٧٤)، وأحمد (١٠٥٦٧)، والحاكم (٧٦٦٧)، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه.

ينفض ثوبه، ويأخذ ما يخرج منه من غبار ويضعه في قارورة، ثم أمر في نهاية حياته أن تُدفن معه هذه القارورة؛ وذلك حتى تشهد له يوم القيامة بجهاده ضد النصارى[١].

ولقد كان من أهم مميزات جهاد الحاجب المنصور أنه كان يبدأ بالهجوم، ويحاول إجهاض المؤامرات في مهدها، ولا ينتظر للدفاع مثلما كان حال مَنْ سبقه[٢].

ثانيًا: اهتمامه بالجوانب الحضارية في البلاد:

من الجوانب الوضَّاءة في حياة محمد بن أبي عامر أو الحاجب المنصور -أيضًا- اهتمامه الكبير بالجانب المادي والحضاري في البلاد؛ فقد أسَّس مدينة الزاهرة على أحسن ما يكون -كما ذكرنا- وزاد كثيرًا في مساحة مسجد قُرْطُبَة، حتى أضاف إليه ضعف مساحته الأصلية، وكان يشتري هذه المساحات ممن يقطنون حول المسجد، وذلك بالمبلغ الذي يرضونه[٣].

وقد ذُكر في ذلك أنه كانت هناك سيدة وحيدة تسكن في بيت فيه نخلة بجوار المسجد، وقد أبت هذه السيدة أن تبيع بيتها هذا إلاَّ إذا أتى لها الحاجب المنصور بمنزل فيه نخلة كالذي تملكه، فأمر الحاجب المنصور بشراء بيت لها فيه نخلة كما أرادت، حتى ولو أتى ذلك على بيت المال، ثم أضاف بيتها إلى حدود المسجد[٤].

زاد الحاجب المنصور كثيرًا في المسجد بعد ذلك، حتى أصبح ولفترة طويلة من الزمان أكبر من أي مسجد أو كنيسة في العالم، وهو ما يزال إلى الآن موجودًا في إسبانيا، ولكنه -وللأسف- حُوِّل إلى كنيسة بعد سقوط الأندلس، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله!

---

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٧/ ١٦، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٠٩.
(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٥٤٠.
(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ٢٨٧.
(٤) المقري: نفح الطيب، ١/ ٥٤٦.

وكذلك كانت العلوم والتجارة والصناعة وغيرها من الأمور قد ازدهرت كثيرًا في حياة الحاجب المنصور، وقد عمَّ الرخاء وامتلأت خزانة الدولة بالمال، ولم يَعُدْ هناك فقراء تمامًا، كما كان الحال أيام الحكم بن عبد الرحمن الناصر أو أيام عبد الرحمن الناصر نفسه.

وحتى البلاد التي فتحها المنصور من بلاد النصارى اهتم بتعميرها وعمارتها؛ حتى صارت الجزيرة الأندلسية كلها متصلة العمران، عامرة زاهرة خضرة نضرة(١).

ثالثًا: عدم وجود ثورات عليه طيلة عهده:

كان من اللافت للنظر -أيضًا- في حياة الحاجب المنصور أنه ورغم طول فترة حكمه -التي امتدَّت من سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م) وحتى سنة (٣٩٢هـ= ١٠٠٢م)- لم تقم عليه أي ثورة، أو تمرُّد في عهده على طول البلاد واتساعها واختلاف أمزجتها، اللهم إلاَّ ما ذكرناه من قبل عن النزاع بينه وبين غالب الناصري.

فقد كان الحاجب المنصور رجلاً قويًّا، محكِمًا للأمن والأمان في البلاد، كما كان عادلاً مع الرعية؛ ومما جاء في ذلك ما ترويه بعض الروايات من أنه جاءه يومًا رجلٌ بسيط من عامَّة الشعب، يبغي مظلمة عنده، وقال له: إن لي مظلمة وإن القاضي لم يُنصفني فيها. وحين سمع منه مظلمته أتى بالقاضي مستوضحًا منه الأمر، وكيف أنه لم يُنصف الرجل في مظلمته، فقال له القاضي: إن مظلمته ليست عندي، وإنما هي عند الوسيط (بمكانة نائب رئيس الوزراء في زمننا)، فأحضر الحاجب المنصور الوسيطَ وقال له: اخلع ما عليك من الثياب (يقصد ثياب التميز والحُكم)، واخلع سيفك، ثم اجلس هكذا كالرجل البسيط أمام القاضي. ثم قال للقاضي: الآن انظر في أمرهما. فنظر القاضي في أمرهما، وقال: إن الحقَّ مع هذا الرجل البسيط، وإن

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٨١ م، وابن الكردبوس: نصٌّ في وصف الأندلس، من منشورات المعهد المصري للدراسات الإسلامية في مدريد ١٣/ ١٢.

العقاب الذي أقضيه هو كذا وكذا على الوسيط. فما كان من الحاجب المنصور إلاَّ أن قام بإنفاذ مظلمة الرجل، ثم قام إلى الوسيط فأقام عليه أضعاف الحدِّ الذي كان قد أوقعه عليه القاضي، فتعجَّب القاضي، وقال للمنصور: يا سيدي؛ إنني لم آمر بكل هذه العقوبة. فقال الحاجب المنصور: إنه ما فعل هذا إلا لقُرْبِه مِنَّا؛ ولذلك زدنا عليه الحدَّ؛ ليعلم أن قربه منا لن يمكِّنه من ظلم الرعيَّة[1].

المشهد الصليبي في عهد المنصور بن أبي عامر:

مملكة قشتالة:

شُغل المسلمون بعد وفاة الحكم المستنصر لبعض الوقت بشئونهم الداخلية، فظنَّ النصارى -كالعادة- أن الوقت قد حان لأن يضربوا بكل عهود السلم التي كانت بينهم وبين الحكم المستنصر عُرض الحائط، وأن يعودوا إلى الإغارة على أراضي المسلمين، فأغار القشتاليون على الأراضي الإسلامية، وتوغَّلوا فيها جنوبًا، وعاثوا فيها فسادًا، فهبَّ ابن أبي عامر لردِّهم ومعاقبتهم، فغزا أراضي قشتالة في أوائل سنة (٣٦٦هـ = ٩٧٧م)، ثم غزاها ثانية، واقتحم مدينة شلمنقة في العام التالي، وبدأت بذلك سلسلة الغزوات الشهيرة المتوالية على الممالك النصرانية في الشمال، والتي استغرقت طيلة حياة ابن أبي عامر.

مملكة ليون:

أمَّا مملكة ليون، فقد أقدم الملك راميرو الثالث، على معاونة القائد غالب الناصري ببعض قواته في خروجه على المنصور، فعزم ابن أبي عامر على عقاب راميرو على هذا التحدِّي، وسار إليه في جيش لمحاربته، فتحالف راميرو الثالث مع أمير قشتالة غرسية فرناندز ومع ملك نافار سانشو غرسية، والتقى الجمعان؛

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ٢٨٩.

المنصور بن أبي عامر من جهة والجيوش النصرانية المتحدة من جهة أخرى، وهزمهم المسلمون في موقعة شنت منكش سنة (٣٧١هـ= ٩٨١م).

وبعد هزيمة راميرو الثالث في هذه المعركة؛ ادَّعى أشراف ليون أنه لم يعد صالحًا لتولِّي أمر المملكة، فقرَّروا خلعه، وتولية ابن عمه برمودو بدلاً منه، ولكن راميرو لم يُذعن لهذا القرار، فحشد أنصاره وخاض حربًا مع ابن عمه، فهُزِم وفرَّ إلى مدينة أسترقة، ثم حاول أن يلجأ بعد ذلك إلى المنصور بن أبي عامر، وأن يستعين به لاسترداد عرشه، ولكن القَدَرَ لم يُمهله؛ إذ توفي بعد ذلك بقليل، وخلا الجوُّ لبرمودو.

ولكن برمودو نفسه لم يستطع الاطمئنان على ملكه؛ وبخاصة أن عددًا من الأشراف عارضوا حكمه، فخشي أن يُفعل به مثلما فُعل بابن عمه، فلجأ إلى المنصور بن أبي عامر يستمدُّ منه العون والتأييد في مقابل أن يعترف بطاعته، وأن يُؤَدِّيَ إليه الجزية، فأجابه المنصور إلى طلبه، وأرسل إليه بقوَّة من الجند، نزلت مدينة ليون عاصمة المملكة؛ لتحمي برمودو، وبذلك أصبحت ليون تابعة للمسلمين.

ولكن هذا الوضع لم يَرُقْ لبرمودو؛ فبمجرَّد أن شعر باستقراره على العرش، وبازدياد نفوذه وقوته، قرَّر أن يغدر بالمسلمين ويتخلَّص من تبعيته لابن أبي عامر، فهاجم الحامية الإسلامية، واستخلص من يدها مدينة ليون، فهبَّ المنصور لحربه، وسار إلى مدينة ليون واقتحمها، ومزَّق قوى النصارى، ثم استمرَّ يغزو أراضي ليون تباعًا، ويُوقع الهزائم المتتالية ببرمودو، حتى اضطر برمودو إلى طلب الصلح، والعودة إلى طاعة ابن أبي عامر عام (٩٩٥م).

ولم يُعَمَّر برمودو طويلاً بعد ذلك فمات عام (٩٩٩م)، وخلفه ابنه ألفونسو الخامس، وكان طفلاً، فعُيِّن أحد أشراف ليون -وهو الكونت منديث كونثالث- وصيًّا على الملك الصغير.

مملكة نافار:

تولَّى سانشو غرسية الثاني عرش نافار بعد موت أبيه غرسية سانشيز، وكانت نافار قد اتسعت رقعتها عندئذٍ، فصارت تشمل عدَّة ولايات، غير ولاية نافار الأصلية؛ مثل: ولايات كانتبريا، وسوبرابي، وربا جورسيا، ونمت مواردها وقواها، حتى بدأ سانشو غرسية في مهاجمة الأراضي الإسلامية، فكان ردُّ المنصور بن أبي عامر على ذلك عنيفًا؛ فغزا مملكة نافار وتوغَّل فيها حتى دخل عاصمتها بنبلونة عام (٩٨٧م).

وخلف سانشو في الحُكم ولده غرسية سانشيز الثالث، فلم يدم حكمه سوى خمسة أعوام، وقد غزا المنصور بن أبي عامر نافار في عهده مرَّة أخرى عام (٩٩٩م)، وقد مات غرسية بعد هذه الغزوة بعام، وتولَّى بعده ابنه سانشو الثالث الملقب بالكبير[١].

لقد كان المشهد الصليبي في أيام المنصور وبأثر من جهاده في غاية الضعف والتمزُّق.

❊ ❊ ❊

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٥٩٨، بتصرف.

الفصل السابع

أثرى عهود الأندلس قاطبة (الحاجب المظفر بن المنصور)



توفي المنصور بن أبي عامر وهو في أوج قوته، والأندلس قد بلغت من القوة والعظمة ما لم تَصِلْ إليه من قبلُ في أي عصر من العصور، إلى جوار ما كان فيه أعداؤها من الضعف الشديد، وكذلك كان الحال داخل الأندلس نفسها؛ فالخليفة الأموي هشام المؤيد بالله كان رجلاً ضعيفًا، في حين كانت قوة العامريين قد بلغت شأوًا بعيدًا، ومع ذلك فبمجرد أن مات المنصور بن أبي عامر سارع ابنه عبد الملك إلى قُرْطُبَة، قبل أن يطرأ أي أمر لم يكن قد استعدَّ له من قبل، ليستصدرَ مرسومًا من الخليفة بتوليته الحجابة بعد أبيه، وكان أبوه قد عَهِدَ له بالحجابة من بعده -كما ذكرنا- وتمت توليته الحجابة كما أراد يوم الاثنين لثلاث بقين من رمضان (٣٩٢هـ)، وبقي في الحكم سبع سنين إلى أن مات سنة (٣٩٩هـ)[١].

وسار عبد الملك المظفر على نهج أبيه في سياساته الداخلية والخارجية، وفي غزوه الدائم للأراضي النصرانية في الشمال، حتى قال عنه المقري التلمساني في نفح الطيب: «جرى على سنن أبيه في السياسة والغزو، وكانت أيامه أعيادًا دامت مدَّة سبع سنين، وكانت تسمى بالسابع تشبيهًا بسابع العروس، ولم يزل مِثْلَ اسمه مظفَّرًا إلى أن مات سنة تسع وثلاثمائة في المحرم، وقيل: سنة ثمان وتسعين»[٢].

وقد أُعجب به المسلمون وأحبوه حبًّا عظيمًا، فأثنوا عليه أجمل الثناء، فكان من

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٣.
(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٣.

ذلك ما نقله ابن الخطيب: «قالوا: كان عبد الملك أسعد مولود وُلِدَ بالأندلس على نفسه وأبيه وغيرهما؛ فجدَّد الألقاب، واقتفى الرسوم، فقد ذُكر أن المنصور توفِّي عن ألقاب عديدة من ألقاب الطبقات من بابه من الفقهاء والعلماء والكتاب والشعراء والأطباء والمنجمين؛ فلم يكونوا أوفر عددًا ولا أسنى أرزاقًا منهم في أيامه، مع عدم التلبُّس بشيء من أمرهم؛ إذ كان مُقْتَصِرًا على شأنه في التجنُّد والعمل بالسلاح؛ حفظًا للرسوم، والتماسًا لجميل الذِّكْر، وحرصًا على التزيُّد والشفوف على غيره، وكان مثلاً في الحياء والشجاعة؛ إذ كان عند الحياء والحشمة بكرًا عزيزة، وفي مواقِفِ الكريهة أسدًا وَرْدًا، لا يقوم له شيء إلاَّ حطمه»[1].

وقد زاد من حُبِّ المسلمين له وإعجابهم به أنه ابتدأ عهده بأن أسقط عن المسلمين سدس الجباية التي كانت عليهم[2]، فتعلَّقت به قلوب الرعية وآمالها، ووجدت فيه العزاء عن فقدان أبيه، وبخاصة أنَّ أباه كان يعتمد عليه دائمًا في حياته، ويُكَلِّفه بالمهام الجسام؛ كقيادة الجيوش وما إلى ذلك.

وكان من عادة نصارى الشمال -كما رأينا- أنه متى مات حاكم الأندلس -وبخاصة إذا كان قويًّا- ضربوا بالمعاهدات والمواثيق عُرض الحائط، وأخذوا يُهاجمون الثغور والأراضي الإسلامية بهدف الثأر من المسلمين وإضعافهم، وسلب ما يمكن سلبه، وهم بهذا -أيضًا- يُضعفون موقف الحاكم الجديد، الذي يسعى لتوطيد ملكه، رأينا هذا عند تولِّي الناصر لدين الله، كما رأيناه عند تولِّي المستنصر وابنه هشام المؤيد، ولكنهم هذه المرَّة لم يفعلوا ذلك، وربما كان ذلك بسبب الضربات القوية المؤثِّرة التي وجهها لهم المنصور بن أبي عامر في حياته.

ولم يكتفِ الحاجب المظفر بهذه الموادعة؛ إذ إنهم لو وادعوا اليوم، فلن يوادعوا

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٨٤.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٨٤.

غدًا إذا اجتمعت لهم قوتهم، ثم ربما يظنون به الضعف والجبن عن لقائهم، ومن هنا بدأ الحاجب المظفر يُجَهِّز لغزو نصارى الشمال، واجتهد في الإعداد؛ حتى إن أهل العدوة قد سمعوا بهذه الغزوة، فتوافدوا إلى الأندلس للمشاركة فيها، وفيهم جماعة كبيرة من أمرائهم وزعمائهم وفقهائهم، وقد أحسن الحاجب المظفر استقبالهم، وأغدق لهم العطاء، فقبل بعضهم وتحرَّج البعض الآخر.

وخرج الحاجب المظفر من الزاهرة بجنده ليلة ١١ شعبان سنة ٣٩٣هـ في مشهد مهيب، وسار حتى وصل مدينة سالم، فانضمت له قوة من قشتالة، نزولاً على ما كان بين قشتالة والمنصور بن أبي عامر من معاهدات، ثم سار إلى إمارة بَرْشُلُونَة، ودارت بينه وبين نصارى بَرْشُلُونَة حرب شديدة، هُزموا فيها هزيمة نكراء، واستولى المسلمون على عدد من حصون بَرْشُلُونَة، وهدموا حصونًا أخرى، وغنموا وسبوا، وعمل الحاجب المظفر على إسكان المناطق المفتوحة بالمسلمين، فنهى الجنود عن تدمير البيوت وهدمها، وأمر بنقل المسلمين لعمارة هذه الأرض، وجعل لمن يسكنها منهم راتبًا شهريًّا يتقاضاه من بيت المال، وقضى الحاجب المظفر عيد الفطر بأرض بَرْشُلُونَة، واحتفل به مع جنوده ورجاله في بسائطها، ثم أمر بإرسال رسالتين للتبشير بالفتح؛ إحداهما إلى الخليفة هشام المؤيد، والثانية لتُقْرَأ على المسلمين كافة في قُرْطُبَة، ثم في باقي الولايات.

وجاء في الرسالتين أن عدد السبي بلغ ٥٥٧٠، وأن عدد الحصون التي اقتحمت عَنْوة ستة حصون، وعدد الحصون التي أخلاها العدوُّ فخُرِّبت ودُمِّرت ٨٥ حصنًا، وذكر أسماء هذه الحصون كلها في الرسالتين، ثم أَذِنَ للمتطوعين معه للجهاد بالعودة إلى ديارهم وبلدانهم؛ إذ إن الهدف الذي خرجوا من أجله قد انتهى؛ فعاد المتطوعون إلى بلادهم مسرورين فرحين بنصر الله[(١)].

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٤.

وفي السنة التالية لهذه الغزوة (٣٩٤هـ) -وفي دلالة واضحة على ما وصلت إليه قوة الدولة وهيبتها في عهده- احتكم إليه قادة الممالك النصرانية[١]، وفي ذلك ينقل ابن عذاري المراكشي عن المؤرخ الفقيه أبي مطرف محمد بن عون الله (وهو من معاصري هذه الحوادث) قوله: «وانتهى المظفر عند ملوك الأعاجم في دولته إلى منزلة عظيمة، مثل منزلة والده المنصور، وأحلُّوه محلَّه في الإصغاء له والتعظيم؛ لجلاله والهيبة من سخطه والطلب لمرضاته، حتى صار أعاظمهم يحتكمون إليه فيما شجر بينهم؛ فيفصل الحُكم فيهم، ويرضون بما قضاه ويقفون عنده»[٢].

وتوالت غزوات الحاجب المظفر رحمه الله على أراضي النصرانية في الشمال، وكانت غزوته الخامسة سنة (٣٩٧هـ)، وفيها اتجه بجيشه إلى مملكة قشتالة، فاتحدت جميع الممالك والقوى النصرانية ضده، ودارت بين الفريقين معركة شديدة، نصر الله فيها المسلمون نصرًا عظيمًا، وكان قد بلغ الناسَ في الأندلس خبرُ اتحاد الممالك النصرانية ضد جيش المسلمين، فأشفقوا على الجيش الإسلامي، وخافوا عاقبة ذلك، وكان أهل العساكر المشاركين في الغزوة هم أكثر الناس خوفًا، فلما وردهم خبرُ انتصار المسلمين، كان فرحهم بذلك فرحًا عظيمًا، وعلى أثر هذه الغزوة تلقّب عبد الملك بالحاجب المظفر بالله[٣].

ثم خرج بعد ذلك في شاتية سنة (٣٩٨هـ) -وكانت هذه هي شاتيته الوحيدة- وقد خرج فيها إلى قشتالة، ودارت بينه وبين نصارى قشتالة معارك عنيفة استمرَّت عدَّة أيام، انتهت بنصر عظيم للمسلمين[٤]، وكانت هذه هي غزوته قبل الأخيرة؛ لأنه خرج إلى غزو قشتالة في صائفة العام نفسه (٣٩٨هـ)، ولكنه مرض مرضًا

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ١٠، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٨١.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ١٠.
(٣) المصدر السابق، ٣/ ١٤.
(٤) المصدر السابق، ٣/ ٢١.

شديدًا في مدينة سالم في شمال الأندلس، فتفرَّق عنه كثير من الجنود المتطوعين معه، ففشل مشروع الغزو، وعاد إلى قُرْطُبَة[١]، ثم عاد وشعر ببعض التحسن فتحامل على نفسه وبدأ يتأهَّب إلى غزو قشتالة من جديد، وخرج بالفعل متحاملاً على نفسه في شاتية عام (٣٩٩هـ) يقصد قشتالة، إلاَّ أن الحركة قد آذته وزادت مرضه، فلم يَعُدْ يستطيع الغزو، فعادوا به محمولاً على محفَّة، وتوفي رحمه الله في الطريق إلى قُرْطُبَة في صفر عام (٣٩٩هـ)[٢].

أشهر العلماء في الدولة العامرية:

أحمد بن عبد الله بن ذكوان (٣٤٢-٤١٣هـ= ٩٥٣-١٠٢٢م):

أبو العباس أحمد بن عبد الله بن هرثمة بن ذكوان بن عبيدوس بن ذكوان، قاضي الجماعة بقُرْطُبَة وخطيبها، وُلِدَ سنة (٣٤٢هـ= ٩٥٣م)، ولاَّه المنصور بن أبي عامر القضاء، وكان من خاصته يُلازمه في رحلاته وغزواته، ومحلُّه منه فوق محلِّ الوزراء، يُفاوضه المنصور في تدبير المُلْكِ وفي سائر شئونه. كذلك كان معه المظفر وشنجول ولدي المنصور بعد وفاة أبيهما، وتوفي المظفر فزاد أخوه عبد الرحمن في رفع منزلته وولاَّه الوزارة بالإضافة إلى قضاء القضاة، وكان عظيم أهل الأندلس ورئيسهم، وأقربهم من الدولة وأعلاهم محلاًّ، توفي سنة (٤١٣هـ)[٣].

ابن جلجل (٣٣٢- بعد ٣٧٧هـ= ٩٤٣- بعد ٩٨٧م):

أبو داود سليمان بن حسان، الشهير بابن جلجل، كان طبيبًا ماهرًا، وكان إمامًا في معرفة الأدوية المفردة، لا سيما بكتاب ديسقوريدس، الذي عُرِّب في بغداد في خلافة المتوكل العباسي، وبقيت منه ألفاظ كثيرة يونانية لم تُعَرَّب ولا عُرفت، ويحكي

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٢٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٢٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٨٩.

(٣) النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٨٥، والذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٨/ ٣١٢.

ابن جلجل قصة هذا الكتاب فيقول: «انتفع الناس بما عُرِّب منه، فلما كان في دولة الناصر عبد الرحمن بن محمد صاحب الأندلس، كاتبه أرمانوس صاحب القسطنطينية قبل الأربعين وثلاثمائة وهاداه بنفائس، فكان منها كتاب ديسقوريدس مصور الحشائش بالتصوير العجيب، والكتاب باليوناني، ومنها كتاب هروشيش، وهو تاريخ عجيب في الأمم والملوك باللسان اللطيني (اللاتيني). وكان بالأندلس مَنْ يتكلَّم به، ثم كاتبه الناصر وسأله أن يبعث إليه برجل يتكلم باليوناني واللطيني، ليُعَلِّم له عبيدًا؛ حتى يُترجموا له، فبعث إليه براهب يُسَمَّى نقولا، فوصل قُرْطُبَة في سنة أربعين، ونشر من كتاب ديسقوريدس ما كان مجهولاً، وكان هناك جماعة من حُذَّاق الأطباء، فأُحْكم الكتاب، وقد أدركتُهم، وأدركتُ نقولا الراهب وصحبتُهم، وفي صدر دولته (أي: المستنصر) مات نقولا الراهب».

ومن كُتب ابن جلجل «تاريخ الأطباء والفلاسفة»، وله تذييل وزيادات على كتاب ديسقوريدس مما لم يعرفه ديسقوريدس[١].

المجريطي إمام الرياضيين في الأندلس (٣٣٨-٣٩٨هـ= ٩٥٠-١٠٠٧م):

هو الفيلسوف الرياضي الفلكي أبو القاسم مسلمة بن أحمد بن قاسم بن عبد الله المجريطي، وُلِدَ في مدينة مجريط (مدريد) سنة (٣٣٨هـ= ٩٥٠م)، كان إمام الرياضيين بالأندلس، وأوسعهم إحاطة بعلم الأفلاك وحركات النجوم[٢].

برع في علوم كثيرة، وله كتابان رجع إليهما ابن خلدون هما: (رتبة الحكيم): وهو أهم مصدر لدراسة الكيمياء في الأندلس، و(غاية الحكيم): وهو كتاب موسوعي تُرجم إلى اللاتينية في القرن الثالث عشر الميلادي... وفي هذا الكتاب بحوث تهتم بدراسة تاريخ الحضارة في أقدم عصورها، وتاريخ مستنبطات الأمم الشرقية العريقة في القدم

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٢٧/ ٢١٣.
(٢) الزركلي: الأعلام، ٧/ ٢٢٤.

من أنباط وأقباط وسريان وهنود.. وغيرهم، ومكتشفاتهم وجهودهم في تَقَدُّم العمران، وفي هذا الكتاب -أيضًا- بحوث في الرياضيات والكيمياء، وعلم السحر، وعلم الحيل، والتاريخ الطبيعي، وتاريخ المنشأ، والبيئة[١]، وله زيج قيل فيه: لم يُؤَلَّف في الأزياج مثل زيج مسلمة -أي: المجريطي- وزيج ابن السمح[٢].

ومن مؤلفاته أيضًا:

- روضة الحدائق ورياض الخلائق.
- ثمار العدد: وهو في الحساب ويُعرف بالمعاملات.
- اختصار تعديل الكواكب من زيج البتاني.
- كتاب الأحجار.

ولقد قال إدوارد فنديك صاحب كتاب (اكتفاء القنوع بما هو مطبوع): توجد مجموعة أخرى تسمى بالرسائل الجامعة ذات الفوائد النافعة، وتُعْرَف -أيضًا- باسم (رسائل إخوان الصفا) للحكيم المجريطي القرطبي... وهي على نمط رسائل إخوان الصفا، ولكنها لم تُطبع ولم تشتهر كالأولى[٣]، ولعلَّ هذا هو ما جعل خير الدين الزركلي صاحب الأعلام يقول: ذهب بعض المؤرخين إلى أنه مؤلف (رسائل إخوان الصفا)، ولم يَثْبُت ذلك[٤]، وقد توفي في مدينة مجريط (مدريد) سنة (٣٩٨هـ= ١٠٠٧م).

ابن الفرضي (٣٥١-٤٠٣هـ= ٩٦٢-١٠١٣م):

الإمام الحافظ، البارع الثقة، أبو الوليد عبد الله بن محمد بن يوسف بن نصر الأزدي، المعروف بابن الفرضي، مؤرخ حافظ أديب، وُلِدَ بقُرْطُبَة سنة (٣٥١هـ= ٩٦٢م)، أَلَّف في (أخبار شعراء الأندلس)، وكتاب في (المؤتلف والمختلف)، وفي (مشتبه النسبة).

(١) انظر: محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، ٥/ ١١١.
(٢) المقري: نفح الطيب، ٢/ ١٧٦.
(٣) إدوارد فنديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع ص١٨٤.
(٤) الزركلي: الأعلام، ٧/ ٢٣١.

وكان من تلاميذه الإمام المعروف أبو عمر بن عبد البر، وهو من أئمة المذهب المالكي الكبار، ووصفه بقوله: كان فقيهًا حافظًا، عالمًا في جميع فنون العلم في الحديث والرجال، أخذتُ معه عن أكثر شيوخي، وكان حسن الصحبة والمعاشرة.

وقال عنه شيخ مؤرخي الأندلس ابن حيان: لم يُرَ مثله بقُرْطُبَة في سعة الرواية، وحفظ الحديث، ومعرفة الرجال، والافتنان في العلوم والأدب البارع، وجمع من الكتب أكثر ما يجمعه أحد في علماء البلد، وكان حسن البلاغة والخطِّ.

ومما يُذكر عنه قول الحميدي: حدثنا علي بن أحمد الحافظ، أخبرني أبو الوليد بن الفرضي قال: تعلَّقتُ بأستار الكعبة، وسألت الله تعالى الشهادة، ثم فكَّرت في هول القتل، فندمت، وهممت أن أرجع، فأستقيل الله ذلك، فاستحييت. يقول الحافظ علي: فأخبرني مَنْ رآه بين القتلى، ودنا منه، أنه سمعه يقول بصوت ضعيف: «لاَ يُكْلَمُ أَحَدٌ فِي سَبِيلِ اللهِ، وَاللهُ أَعْلَمُ بِمَنْ يُكْلَمُ فِي سَبِيلِهِ، إِلاَّ جَاءَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَجُرْحُهُ يَثْعَبُ، اللَّوْنُ لَوْنُ دَمٍ، وَالرِّيحُ رِيحُ مِسْكٍ»[1]. كأنه يُعيد على نفسه الحديث، ثم قضى على إثر ذلك رحمه الله وله شعر جيد منه: [الطويل]

أَسِيرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفٌ ... عَلَى وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفُ

يَخَافُ ذُنُوبًا لَمْ يَغِبْ عَنْكَ غَيْبُهَا ... وَيَرْجُوكَ فِيهَا فَهْوَ رَاجٍ وَخَائِفُ

وَمَنْ ذَا الَّذِي يَرْجُو سِوَاكَ وَيَتَّقِي ... وَمَا لَكَ فِي فَصْلِ الْقَضَاءِ مُخَالِفُ

فَيَا سَيِّدِي لا تُخْزِنِي فِي صَحِيفَتِي ... إِذَا نُشِرَتْ يَوْمَ الْحِسَابِ الصَّحَائِفُ[2]

أبو القاسم الزهراوي الجراح العظيم:

ولنا مع هذا الرجل وقفة أطول قليلاً؛ إذ يُعَدُّ خلف بن عباس الزهراوي

---

(١) الحديث رواه البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب من يجرح في سبيل الله عز وجل (٢٦٤٩)، ومسلم: كتاب الإمارة، باب فضل الجهاد والخروج في سبيل الله (١٨٧٦) عن أبي هريرة رضي الله عنه، واللفظ له.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٧/ ١٧٧.

(ت ٤٢٧هـ= ١٠٣٦م) من العلماء الأعلام في الأندلس، وفي التاريخ الإسلامي كله، كان لكتابِهِ (التصريف لمن عجز عن التأليف) الفضل في أن أصبح من كبار جرَّاحي العرب المسلمين، وأستاذ علم الجراحة في العصور الوسطى وعصر النهضة الأوربية حتى القرن السابع عشر، ومن خلال دراسة كُتُبِهِ تبيَّن أنه أوَّل من وصف عملية تفتيت الحصاة في المثانة، وبَحَثَ في التهاب المفاصل، وفي السلِّ.. وغيرها[(١)].

والزهراوي -المعروف في أوربا باسم (Abulcasis = أبو القاسم)- هو أول مَنْ تمكَّن من اختراعِ أُولى أدوات الجراحة؛ كالمشرط والمقصِّ الجراحي، كما وضع الأسس والقوانين للجراحة، التي من أهمِّها ربط الأوعية لمنع نزفها، واخترع خيوط الجراحة؛ فكان أَحَد العلماء الأعلام الذين سعدت بهم الإنسانية.

وقد وُلِدَ أبو القاسم الزهراوي في مدينة الزهراء، ونُسب إليها، كان طبيبًا فاضلاً خبيرًا بالأدوية المفردة والمركبة، جيد العلاج، وله تصانيف مشهورة في صناعة الطب، وأفضلها كتابه الكبير المعروف بالزهراوي، ولخلف بن عباس الزهراوي من الكتب كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف)، وهو أكبر تصانيفه وأشهرها، وهو كتاب تامٌّ في معناه[(٢)].

كان الزهراوي يمارس بنفسه فنَّ الجراحة بدلاً من أنْ يُوكل ذلك -كما كانت العادة- للحجَّامين أو الحلاقين، فمارس الجراحة وحذق فيها وأبدع، حتى صار عَلَمًا من أعلام طبِّ الجراحة، لدرجة أنه لا يكاد يُذكر اسمه إلاَّ مقترنًا مع الطب الجراحي[(٣)]، وقد حلَّ مبحث الزهراوي في الجراحة خاصة محلَّ كتابات القدماء، وظلَّ العمدة في فنِّ الجراحة حتى القرن السادس عشر، وباتت أفكاره حدثًا تحوُّليًّا

---

(١) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ١/ ٣٣٣، وشوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية، ص٥١٣.

(٢) ابن أبي أصيبعة: طبقات الأطباء، ٣/ ٢٤٦، والزركلي: الأعلام، ٢/ ٣١٠.

(٣) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس.. إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية، ص٣١، وجلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، ص٣٣١، ٣٣٢، وعلي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، ص٣٦٢.

في طرق العلاجات الطبية؛ حيث هيَّأ للجراحة قُدرة جديدة في شفاء المرضى أذهلت الناس في عصره وبعد عصره، وقد ساعدت آلاته الجراحية التي اخترعها على وضع حجر الأساس للجراحة في أوربا [١].

وقد وصف الزهراوي هذه الآلات والأدوات الجراحية التي اخترعها بنفسه للعمل بها في عملياته، ووصف كيفية استعمالها وطرق تصنيعها؛ منها: جِفت الولادة، والمنظار المهبلي المستخدم حاليًا في الفحص النسائي، والمحقن أو الحقنة العادية، والحقنة الشرجية، وملاعق خاصة لخفض اللسان وفحص الفم، ومقصلة اللوزتين، وجفت وكلاليب خلع الأسنان، ومناشير العظام، والمكاوي والمشارط على اختلاف أنواعها، وغيرها الكثير من الآلات والأدوات التي أصبحت النواة التي طُوِّرَتْ بعد ذلك بقرون لتُصبح الأدوات الجراحية الحديثة [٢]!

يقول كامبل في كتابه (الطب العربي): «كانت الجراحة في الأندلس تتمتع بسمعة أعظم من سمعتها في باريس أو لندن أو أدنبره؛ ذلك أن ممارسي مهنة الجراحة في سَرَقُسْطَة كانوا يُمنحون لقب طبيب جراح، أمَّا في أوربا فكان لقبهم حلاق جراح، وظلَّ هذا التقليد ساريًا حتى القرن العاشر الهجري» [٣].

وكتابه (التصريف لمن عجز عن التأليف) هو في الحقيقة موسوعة كثيرة الفائدة، تامَّة في معناها، لم يُؤَلَّف في الطب أجمع منها، ولا أحسن للقول والعمل، وتُعتبر من أعظم مؤلفات المسلمين الطبية، وقد وصفها البعض بأنها دائرة معارف، ووصفها آخرون بأنها ملحمة كاملة، وليس من الغريب أن تُصبح هذه الموسوعة المصدر الأساسي لجراحي الغرب حتى القرن السابع عشر، وتظلَّ المرجع الكبير لدارسي الطب في جامعات أوربا؛ مثل جامعة سالرنو ومونبلييه في القرن السادس عشر

(١) جلال مظهر: حضارة الإسلام، ص٣٣٢.
(٢) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص١٧٦.
(٣) نقلاً عن جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، ص٣٣٦.

والسابع عشر الميلاديين، والحقيقة التي ينبغي ألاَّ تُغْفل -أيضًا- أن الجراحين الذين عُرفوا في إيطاليا في عصر النهضة وما تلاه من قرون قد اعتمدوا اعتمادًا كبيرًا على كتاب (التصريف لمن عجز عن التأليف) للزهراوي[١]. ويقول عالم وظائف الأعضاء الكبير هالّر: «كانت كتب أبي القاسم المصدر العام الذي استقى منه جميع مَنْ ظهر من الجراحين بعد القرن الرابع عشر»[٢].

والزهراوي هو أوَّل مَنْ جعل الجراحة علمًا قائمًا على التشريح، وأوَّل من جعله علمًا مستقلاً، وقد استطاع أن يبتكر فنونًا جديدة في علم الجراحة، وأن يُقَنِّنها[٣]، وهو أوَّل مَنْ وصف عملية القسطرة، وصاحب فكرتها والمبتكر لأدواتها، وهو الذي أجرى عمليات صعبة في شقِّ القصبة الهوائية، وكان الأطباء قبله -مثل: ابن سينا والرازي- قد أحجموا عن إجرائها لخطورتها، وابتكر الزهراوي -كذلك- آلة دقيقة جدًّا لمعالجة انسداد فتحة البول الخارجية عند الأطفال حديثي الولادة؛ لتسهيل مرور البول، كما نجح في إزالة الدم من تجويف الصدر، ومن الجروح الغائرة كلها بشكل عام. والزهراوي -كذلك- هو أول مَنْ نجح في إيقاف نزيف الدم أثناء العمليات الجراحية؛ وذلك بربط الشرايين الكبيرة، وسبق بهذا الربط سواه من الأطباء الغربيين بستمائة عام! والعجيب أن يأتي مِنْ بعده مَنْ يَدَّعي هذا الابتكار لنفسه، وهو الجراح إمبراطور باري عام (١٥٥٢م).

وهو -أيضًا- أول من صنع خيطانًا لخياطة الجِرَاح، واستخدمها في جراحة الأمعاء خاصة، وصنعها من أمعاء القطط، وأول من مارس التخييط الداخلي بإبرتين وبخيط واحد مُثَبَّتٍ فيهما؛ كي لا تترك أثرًا مرئيًّا للجِرَاح، وقد أطلق على

(١) عامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص٢٢١.
(٢) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٩٠.
(٣) علي عبد الله الدفاع: رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية، ص٢٦٥، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات، ص١٠٦.

هذا العمل اسم (إلمام الجروح تحت الأدمة)، وهو أوَّل من طبَّق في كل العمليات التي كان يُجريها في النصف السفلي للمريض رفع حوضه ورجليه قبل كل شيء؛ ممَّا جعله سبَّاقًا على الجرَّاح الألماني (فريدريك تردلينوبورغ) بنحو ثمانمائة سنة، الذي نُسب الفضل إليه في هذا الوضع من الجراحة؛ ممَّا يُعَدُّ اغتصابًا لحقٍّ حضاري من حقوق الزهراوي المبتكر الأول لها(١).

كما يُعَدُّ الزهراوي أول رائد لفكرة الطباعة في العالم؛ فلقد خطا الخطوة الأولى في صناعة الطباعة، وسبق بها الألماني يوحنا جوتنبرج بعدَّة قرون، وقد سَجَّل الزهراوي فكرته عن الطباعة ونفَّذَها في المقالة الثامنة والعشرين من كتابه الفذِّ (التصريف)؛ ففي الباب الثالث من هذه المقالة، ولأول مرَّة في تاريخ الطب والصيدلة يصف الزهراوي كيفية صنع الحبوب (أقراص الدواء)، وطريقة صنع القالب الذي تُصَبُّ فيه هذه الأقراص أو تُحَضَّر، مع طبع أسمائها عليها في الوقت نفسه باستخدام لوح من الأبنوس أو العاج مشقوق نصفين طولاً، ويُحْفَر في كل وجه قدر غِلَظِ نصف القرص، وينقش على قعر أحد الوجهين اسم القرص المراد صنعه مطبوعًا بشكل معكوس، فيكون النقش صحيحًا عند خروج الأقراص من قالبها؛ وذلك منعًا للغشِّ في الأدوية، وإخضاعها للرقابة الطبية.

وفي ذلك يقول شوقي أبو خليل: «ولا ريب أن ذلك يُعطي الزهراوي حقًّا حضاريًّا لكي يكون المؤسس والرائد الأول لصناعة الطباعة، وصناعة أقراص الدواء؛ حيث اسم الدواء على كل قرص منها، هاتان الصناعتان اللتان لا غنى عنهما في كل المؤسسات الدوائية العالمية، ومع هذا فقد اغْتُصِبَ هذا الحقُّ وغفل عنه كثيرون»(٢).

وكذلك يُعَدُّ الزهراوي أَوَّل مَنْ وصف عملية سَلِّ العروق من الساق لعلاج

---

(١) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية، ص٣٥، وعامر النجار: في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية، ص١٦٢.

(٢) شوقي أبو خليل: علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية، ص٣٢، ٣٣.

دوالي الساق والعرق المدني، واستخدمها بنجاح، وهي شبيهة جدًّا بالعملية التي نمارسها في الوقت الحاضر، والتي لم تُستخدم إلاَّ منذ حوالي ثلاثين عامًا فقط، بعد إدخال بعض التعديل عليها[١]، وللزهراوي إضافات مهمَّة جدًّا في علم طب الأسنان وجراحة الفكَّيْنِ، وقد أفرد لهذا الاختصاص فصلاً خاصًّا به[٢].

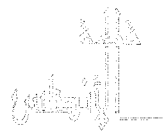
وكان مرض السرطان وعلاجه من الأمراض التي شغلت الزهراوي، فأعطى لهذا المرض الخبيث وصفًا وعلاجًا بقي يُستعمل خلال العصور حتى الساعة، ولم يزد أطباء القرن العشرين كثيرًا على ما قدَّمه علامة الجراحة الزهراوي[٣].

وإن ما كتبه الزهراوي في التوليد والجراحة النسائية ليُعتبر كنزًا ثمينًا في علم الطب؛ ولقد ابتكر آلة خاصة لاستخراج الجنين الميت فسبق الدكتور فالشر بنحو تسعمائة سنة في وصف ومعالجة الولادة الحوضية، وهو أول مَن استعمل آلات خاصة لتوسيع عنق الرحم، وأول مَنِ ابتكر آلة خاصة للفحص النسائي لا تزال إلى يومنا هذا[٤].

ويحكي جوستاف لوبون عن الزهراوي فيصفه بقوله: «أشهر جراحي العرب، ووصف عملية سحق الحصاة في المثانة على الخصوص؛ فعُدَّت من اختراعات العصر الحاضر على غيرِ حقٍّ...»[٥]. وجاء في دائرة المعارف البريطانية أنه أشهر مَنْ ألَّف في الجراحة عند العرب (المسلمين)، وأول من استعمل ربط الشريان لمنع النزيف[٦].

***

(١) محمد كامل حسين: الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، ص١٤٢، ١٤٣.
(٢) المصدر السابق، ص٢٠١.
(٣) انظر: الدفاع: رواد علم الطب، ص٢٦٤.
(٤) انظر: كمال السامرائي: الأمراض النسائية في الطب العربي القديم، مجلة المهن الطبية، العدد١ - ١٩٦٤م، ومحمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين، ص١٦٣ وما بعدها.
(٥) جوستاف لوبون: حضارة العرب، ص٤٩٠، ٤٩٢.
(٦) الزركلي: الأعلام، ٢/ ٣١٠.



الفصل الثامن

سقوط الدولة العامرية

من خَلْف ستار الخلافة الأموية ظلَّ الحاجب المنصور يحكم الأندلس ابتداءً من سنة (٣٦٦هـ= ٩٧٦م) وحتى وفاته رحمه الله سنة (٣٩٢هـ= ١٠٠٢م)، وقد استخلف على الحجابة من بعده ابنه عبد الملك بن المنصور، فتولَّى الحجابة منذ قُتل والده وحتى وفاته سنة (٣٩٩هـ= ١٠٠٩م) أي سبع سنوات متصلة، سار فيها على نهج أبيه في تولِّي حُكم البلاد، فكان يُجاهد في بلاد النصارى كل عام مرَّة أو مرَّتين، كل هذا وهو -أيضًا- تحت غطاء الخلافة الأموية.

في هذه الأثناء وعند بداية ولاية عبد الملك بن المنصور أمر الحجابة كان الخليفة هشام بن الحكم قد بلغ من العمر ثمانية وثلاثين عامًا، ومع ذلك فلم يطلب الحُكم، ولم يحاول قط أن يُعمل نفوذه وسلطانه في بلاد الأندلس، فكان قد تعوَّد على حياة الدعة واستماع الأوامر من الحاجب المنصور ومن تلاه من أولاده.

تولِّي عبد الرحمن بن المنصور وانتهاء الدولة العامرية:

في سنة (٣٩٩هـ= ١٠٠٩م) توفي الحاجب المظفر، فتولَّى أمر الحجابة من بعده أخوه عبد الرحمن بن المنصور؛ حيث كان أولاد بني عامر يتملَّكُون زمام الأمور في البلاد، وأخذ -أيضًا- يُدير الأمور من وراء الستار، لكنه كان مختلفًا عن أبيه وأخيه، فإضافة إلى أن أُمَّه كانت بنت ملك نافار وكانت نصرانية، فقد كان عبد الرحمن بن المنصور شابًّا ماجنًا فاسقًا، شَرَّابًا للخمر، فعَّالاً للزنا، كثير

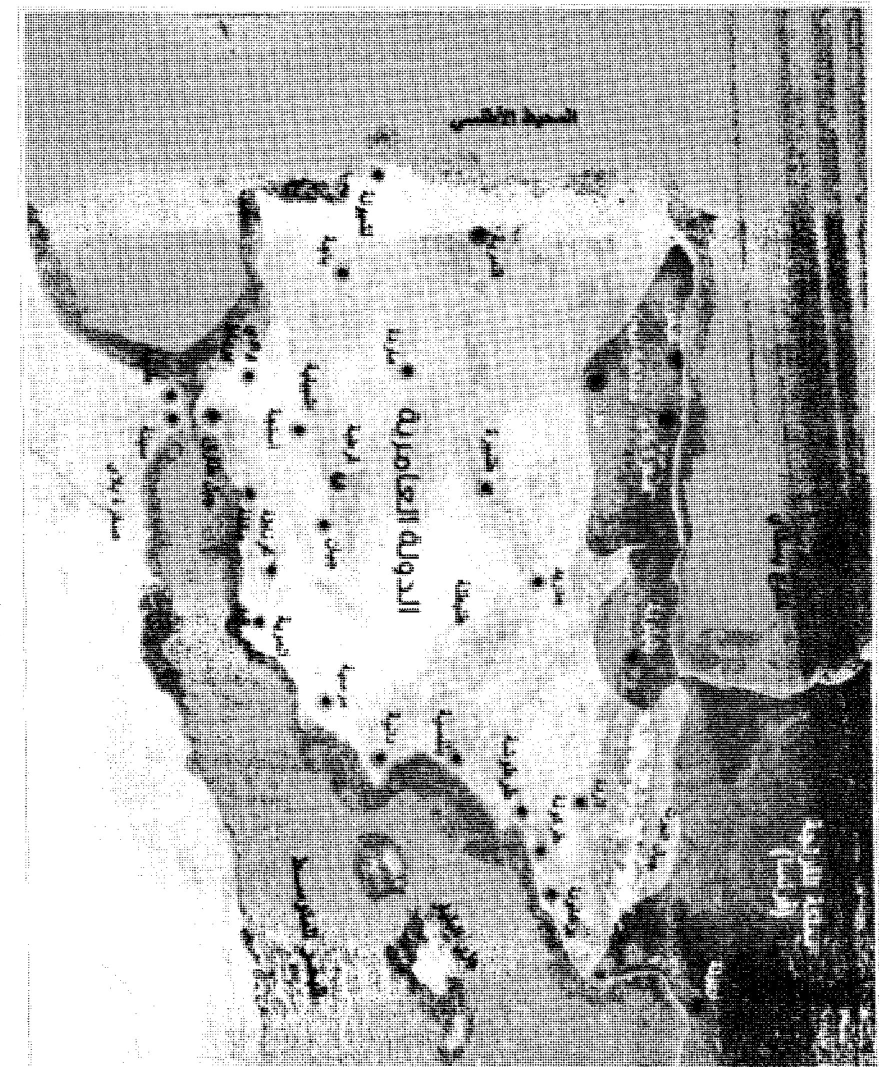
المنكرات، فكرهه الناس في الأندلس[(١)].

وفوق ذلك فقد قام عبد الرحمن بن المنصور بعمل لم يُعهد من قَبْلُ عند العامريين، وهو أنه أجبر الخليفة هشام بن الحكم في أن يجعله وليًّا للعهد من بعده، وبذلك لن يُصبح الأمر من خَلْفِ ستار الخلافة الأموية كما كان العهد حال تولِّي والده محمد بن أبي عامر، أو أخيه عبد الملك بن المنصور، فكان أن ضجَّ بنو أمية لهذا الأمر، وغضبوا وغضب الناس أجمعون، لكن لم تكن لهم قدرة على القيام بأي ردِّ فعل؛ خاصة وأن عبد الرحمن بن المنصور قد جعل جميع الولايات في أيدي العامريين وفي يد البربر، الذين هم أتباع العامريين منذ أيام الحاجب المنصور[(٢)].

ومع كل هذا الفسق وهذا المجون الذي كان يعيشه عبد الرحمن بن المنصور إلاَّ أن الشعب كان قد تعوَّد حياة الجهاد، والخروج كل عام إلى بلاد النصارى، فلمَّا خرج عبد الرحمن بن المنصور على رأس جيش من الجيوش إلى الشمال، انتهز الناس الفرصة وأرادوا أن يُغَيِّرُوا من الأمر، فذهبوا إلى هشام بن الحكم في قصره وخلعوه بالقوَّة، وعَيَّنُوا مكانه رجلاً من بني أمية اسمه محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر (من أحفاد عبد الرحمن الناصر)، وما أن طار الخبر إلى عبد الرحمن حتى بدأت الجموع التي معه تنفضُّ من حوله شيئًا فشيئًا، فلمَّا دخل إلى قُرْطُبَة كان الناس قد انفضوا عنه وانحازوا إلى محمد بن هشام الذي تلقَّب بـ«المهدي»، ثم ما لبث أن أرسل إليه المهدي جماعة قبضوا عليه وقتلوه وأرسلوا إليه برأسه[(٣)].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٣٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٦٦.
(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٩٤، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٩، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٦.
(٣) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٩٦، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٤٩، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٦.



خريطة رقم (١١) حدود الدولة العامرية

وتقول بعض الروايات أنه التجأ إلى دَيْر فأعطاه أحد رهبانه طعامًا وشرابًا، ثم عثر عليه رجال بني أمية سكران، فأظهر الخوف والجزع، وادعى دخوله في طاعة المهدي، فلم يشفع له ذلك فقتلوه[١].

واشتعلت الثورات في الأندلس، فكأنَّ مقتل عبد الرحمن بن المنصور واشتعال الفتن والثورات في الأندلس كانا بميعاد، فمنذ أن قُتِلَ عبد الرحمن بن المنصور العامري انفرط العقد تمامًا في البلاد، وبدأت الثورات تكثر والمكائد تتوالى، وبدأت البلاد تُقَسَّم.

* * *

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٧٢.

الفصل التاسع

الفتنة وسقوط الخلافة الأموية



بعد خلع هشام بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر وولاية محمد بن هشام بن عبد الجبار بن عبد الرحمن الناصر، الذي تلقَّب بالمهدي، انفرط العقد تمامًا في الأندلس، فلم يكن يملك المهدي من لقبه إلاَّ رسمه، إذ كان فتى لا يُحسن قيادة الأمور، وليس له من فن الإدارة شيء، فكان من أول أعماله في الحُكم ما يلي:

أولاً: ألقى القبض على كثير من العامريين ونفاهم إلى أطراف البلاد، وانتهك العامريين حتى بلغ في انتهاكهم وانتهاب أموالهم أن ترحَّم الناس على أيام العامريين، وهدم الزاهرة وأباح انتهابها، فنهض السفهاء يتسابقون حتى هُدمت الزاهرة وتُركت خرابًا كأن لم تغن بالأمس[1].

ثانيًا: فصل سبعة آلاف من الجند، وهو عدد كبير، فتغيرت عليه قلوب هؤلاء[2].

ثالثًا: أساء إلى البربر حتى بدأ العامة يتطاولون عليهم، وقد كانوا في ذلك الوقت أولو قوة وعصبية، كما كانوا حديثي عهد بالسلطان، ثم إنهم كانوا قد انفضُّوا عن شنجول حينما رأوا سوء سياسته، وساعدوا خصومه، ولكن ورغم ذلك كله، لم تكن نفوس بني أمية قد صفت من ناحيتهم؛ إذ كانوا عماد الدولة العامرية التي أخذت منهم سلطانهم، فأساءوا إليهم، وكان المهدي يُظهر سخطه لهم

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٦٣، وما بعدها.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٧٨.

ولا يُخفيه، حتى وصل به الحال إلى أن أعلن أن مَنْ قتل بربريًّا فسينال جائزة، فسارع أهل قُرْطُبَة إلى قتل البربر وهتك أعراضهم! وكان البربر قبل حدوث هذا يستعدُّون للثورة عليه؛ لما كان منه من عداوة، فلمَّا حدث ما حدث زاد حنقهم وغيظهم وحماستهم على الثورة عليه[١].

أثار هذا الفعل غير الحصيف من قِبَل المهدي غضبًا عارمًا لدى البربر والعامريين، بل وعند الأمويين أنفسهم، الذين لم يعجبهم هذا القتل وذاك التشريد، وهذه الرعونة في التصرُّف، فبدأ يحدث سخط كبير من جميع الطوائف على المهدي، ولم يكن ليقف الأمر عند هذا الحدِّ؛ فقد تجمَّع البربر وانطلقوا إلى الشمال، وهناك أتوا بسليمان بن الحكم بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فنصَّبُوه عليهم ولقَّبُوه بالمستعين أمير المؤمنين، وبدأ يحدث الصراع بين سليمان بن الحكم هذا ومِنْ ورائه البربر وبين المهدي في قُرْطُبَة، وكان البربر من قبل قد فكروا في مناصرة هشام بن سليمان بن عبد الرحمن الناصر، فقبض المهدي عليه وعلى أخيه وقتلهما، ففر ابن أخيهما سليمان بن الحكم إلى البربر بظاهر قُرْطُبَة، فبايعوه ولقبوه المستعين بالله[٢].

بين المهدي وسليمان بن الحكم وحدث غريب:

وجد سليمان بن الحكم ومَنْ معه من البربر أن قوتهم ضعيفة، ولن تقوى على مجابهة قوات المهدي، فقاموا بعمل لم يُعهد على الأمويين من قبلُ في بلاد الأندلس.. استعانوا بملك قشتالة.

وكانت مملكة قشتالة هذه هي أحد جزأي مملكة ليون في الشمال الغربي، بعد أن كان قد نشبت فيها (مملكة ليون) حرب داخلية، وانقسمت على نفسها في سنة

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٨٠،٧٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١١٣، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٥٠.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٥٠.

(٣٥٩هـ= ٩٧٠م) إلى قسمين، فكان منها قسم غربي؛ وهو مملكة ليون نفسها، وقسم شرقي وهو مملكة قشتالة، وكلمة قشتالة تحريف لكلمة كاستولَّة، وتعني - أيضًا- قلعة باللغة الإسبانية، فحُرِّفَتْ في العربية إلى قشتالة، وكانت قد بدأت تكبر نسبيًّا في أول عهد ملوك الطوائف؛ فاستعان بها سليمان بن الحكم والبربر على حرب المهدي.

وبين المهدي من ناحية وسليمان بن الحكم والبربر وملك قشتالة من ناحية أخرى دارت موقعة كبيرة، هُزم فيها المهدي أو محمد بن هشام بن عبد الجبار، وتولَّى سليمان بن الحكم مقاليد الحكم في بلاد الأندلس، وبالطبع كانت فرصة من السماء لملك قشتالة لضرب الأندلسيين بعضهم ببعض، ووضع قاعدة لجيشه وجنده في أرض الأندلس، تلك البلاد التي طالما دفعت الجزية كثيرًا للمسلمين من قبلُ[1].

وفي فترة مدتها اثنتان وعشرون سنة يتولَّى حكم المسلمين في الأندلس ثلاثة عشر خليفة متتاليين، بدأت هذه الفترة بهشام بن الحكم سنة (٣٥٩هـ= ٩٧٠م)، ثم المهدي، ثم سليمان بن الحكم بن عبد الرحمن الناصر الذي تولَّى الحُكم، (وكان قد استعان بملك قشتالة) وذلك في سنة (٤٠٠هـ= ١٠١٠م).

بين المهدي وسليمان بن الحكم وحدث أغرب:

وتدور الأحداث بعد ذلك، حيث يفرُّ المهدي -الذي انهزم أمام سليمان بن الحكم أو المستعين بالله- إلى الشمال حيث طُرْطُوشة، وفي طُرْطُوشة -وحتى يرجع إلى الحُكم الذي انتزعه منه سليمان بن الحكم، والذي لم يبقَ فيه غير شهور قليلة- فكَّر المهدي في أن يتعاون مع أحد أولاد بني عامر الذين كانوا أعداءه منذ قليل.

كان المهدي قد قابل في طُرْطُوشة رجلاً من موالي بني عامر يُدْعَى الفتى

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٩١، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٥٠، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٨.

واضح، وكان واضح قد بايع للمهدي بمجرَّد أن اعتلى كرسي الخلافة، ففر إليه المهدي في طليطلة، لَمَّا خاف القتل في قُرْطُبَة. وقد أقنع المهدي بأنه سيتعاون معه ليُعيده إلى المُلْكِ من جديد، ويبقى هو على الوزارة كما كان في عهد الدولة العامرية من قبل، وهذا ما وافق قبولاً لدى المهدي، فقَبِلَ عرض الفتى واضح، وبدءا يتعاونان معًا لتنفيذ مخطَّطِهما ذلك.

في بداية الأمر وجد الفتى واضح والمهدي أنهما لن يستطيعا أن يصمدا أمام قوة كبيرة مثل التي يملكها سليمان بن الحكم والبربر ومعهما ملك قشتالة، فهداهما تفكيرهما في الاستعانة بأمير بَرْشُلُونَة، وبَرْشُلُونَة هذه كانت ضمن مملكة أراجون، التي تقع في الشمال الشرقي للأندلس، والتي كان يدفع حاكمها الجزية لعبد الرحمن الناصر ولابنه وأيضًا للحاجب المنصور، فلما حدثت هذه الهزَّة في بلاد المسلمين انخلعت من هذه العباءة، وقامت من جديد، فكان أن استعان بجيشها المهدي والفتى واضح في حرب سليمان وملك قشتالة.

وقد وافق أمير بَرْشُلُونَة على أن يساعدهم؛ لكن على شروط؛ هي:

أولاً: مائة دينار ذهبية له عن كل يوم في القتال.

ثانيًا: دينار ذهبي لكل جندي عن كل يوم في القتال، وقد تطوَّع الكثير لحرب المسلمين، فكان عدد الجيش كبيرًا.

ثالثًا: أَخْذ كل الغنائم من السلاح إن انتصر جيش بَرْشُلُونَة مع المهدي والفتى واضح.

رابعًا: أَخْذ مدينة سالم، التي تمثِّل الثغر الشمالي الذي طالما انطلق منه الجهاد ضد الممالك النصرانية.

وهي بلا شكٍّ شروط قبيحة ومخزية، ولا ندري كيف يُوافق مسلم على مثلها؟!

حتى إن وصف ابن عذاري لما حدث يدلُّ على مدى قبحه، قال: ووافق الرومَ على إدخالهم مدينة سالم وتسليمها لهم، فأخلاها ممَّنْ كان فيها من المسلمين، وأنزلها الكافرين؛ ليُقاتلوا معه البربر حماية للفاجر ابن عبد الجبار، فدخل الإفرنج مدينة سالم قاعدة الثغر الأوسط وملكوها، فأول ما دخلوا من المدينة الجامع... وضربوا فيه الناقوس وحوَّلوا قبلته... ثم شرطوا على واضح أن يلتزم لكل رجل منهم دينارين في كل يوم، وما يقوم به من الشراب واللحم.. وغير ذلك، ويجري على القومس (الكونت) في كل يوم مائة دينار، وما يقوم به من الطعام والشراب.. وغير ذلك، وعلى أنَّ لهم كل ما حازوه من عسكر البربر من سلاح وكُراع[١] ومال، وأن نساء البربر ودماءهم وأموالهم حلال لهم، لا يحول أحد بينهم وبينهم، وشرطوا عليه شروطًا كثيرة غير هذه فالتزم ذلك كله لهم»[٢].

وبدأت بالفعل موقعة كبيرة جدًّا في شمال قُرْطُبَة بين المهدي (محمد بن هشام بن عبد الجبار) ومعه الفتى واضح العامري ومعهم أمير بَرْشُلُونَة من جهة، وسليمان بن الحكم الخليفة الملقَّب بالمستعين بالله ومعه البربر من جهة أخرى، انتصر فيها المهدي ومَنْ معه، وانهزم سليمان بن الحكم، وفرَّ ومَنْ بقي معه من البربر، وسُلِّمَت مدينة سالم لأمير بَرْشُلُونَة، ومِثْلُها الغنائم، وتولَّى المهدي الحُكم من جديد في قُرْطُبَة[٣].

الفتى واضح وعودة هشام بن الحكم الخليفة المخلوع:

لم يتراجع المهدي عن سياسته التي أشعلت الفتنة، وظلَّ على تتبُّعه للبربر وقتلهم وانتهاكهم بمساعدة الصليبيين، كذلك البربر لم يكن أمامهم إلاَّ أن يُقاوموا ويشنوا الغارات على قُرْطُبَة، حتى ضجَّ أهل قُرْطُبَة، وأغروا الفتى واضح العامري،

---

(١) الكُرَاعُ: السلاح، وقيل: هو اسم يجمع الخيل والسلاح. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كرع ٨/ ٣٠٦.
(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٩٤.
(٣) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٩٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١١٥.

وهو حاجب المهدي، بأن يقتله فإنه هو سبب ما نزل من الفتن، وأعان على ذلك أن المهدي كان -وسط هذه الأجواء- منشغلاً بملذاته.

ولا نستبعد أن واضحًا -أيضًا- لم تصفُ نفسه تجاه المهدي؛ فهو الذي شتَّت العامريين وأذهب دولتهم؛ ومن ثَمَّ فما هو إلا قليل حتى انقلب واضح على المهدي فقتله، وبدأ هو في تولِّي الأمور، كان الفتى واضح أذكى من عبد الرحمن بن المنصور، هذا الذي طلب ولاية العهد من هشام بن الحكم قبل ذلك، فقد رفض أن يكون هو الخليفة؛ حيث اعتاد الناس أن يكون الخليفة أمويًّا وليس عامريًّا؛ ومن ثَمَّ فإذا فعل ذلك فسيضمن ألاَّ تحدث انقلابات عليه، وأيضًا يكون محلَّ قبول لدى جميع الطوائف.

ومن هنا فقد رأى الفتى واضح أن يُنَصِّب خليفة أمويًّا ويحكم هو من ورائه، وبالفعل وجد أن أفضل مَنْ يقوم بهذا الدور ويكون أفضل صورة لخليفة أموي هو هشام بن الحكم الخليفة المخلوع من قبل، هذا الذي ظلَّ مجرَّد اسم طيلة ثلاث وثلاثين سنة أيام المنصور محمد بن أبي عامر، ثم عبد الملك بن المنصور، ثم في يد عبد الرحمن بن المنصور على التوالي.

وعاد هشام بن الحكم -الذي كان ملقَّبًا بالمؤيد بالله- من جديد إلى الحُكم، لكن زمام الأمور كانت في يد الفتى واضح[1].

سليمان بن الحكم وأعمال يتأفف من ذكرها التاريخ:

كان سليمان بن الحكم لم يُقتل بعدُ وما زال في البلاد يُدَبِّر المكائد؛ يُريد أن يعود إلى الحُكم من جديد، ولم يجد أمامه إلاَّ أن يعود مرَّة أخرى إلى ملك قشتالة (المرَّة

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٩٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١١٤، وتاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥١، والمقري: نفح الطيب ١/ ٤٢٨.

الأولى كان قد ساعده على هزيمة المهدي والوصول إلى الحُكم)؛ ليعرض عليه من جديد أن يكون معه ضدَّ الفتى واضح وهشام بن الحكم حتى يصل إلى الحُكم.

ويبدو أن مكيدة سليمان هذه وصلت إلى بلاط قُرْطُبَة، ولا نستبعد أن يكون الذي أوصلها هو ملك قشتالة نفسه، فما كان من هشام بن الحكم وواضح العامري إلاَّ أن نزلوا الملك قشتالة عن مائتي حصن من الحصون الشمالية، التي كان قد افتتحها الحَكم والمنصور والمظفر بن المنصور، فتوسَّعت قشتالة كثيرًا حتى أصبحت حدودها أكبر من حدود مملكة ليون، بالرغم من أنها كانت جزءًا صغيرًا منفصلاً عن مملكة ليون، وعظمت بذلك البلاد النصرانية في الشمال[١].

وإنها لكارثة كبيرة قد حَلَّت بديار الإسلام؛ فقد حدثت كل هذه الأحداث من القتل والمكائد والصراعات والاستعانة بالنصارى ثم دخولهم بلاد المسلمين، كل ذلك في ثلاث سنوات فقط.

وفي سنة (٤٠٣هـ= ١٠١٢م) -عندما كان هشام بن الحكم على الحُكم- قام سليمان بن الحكم ومن معه من البربر بعملٍ لم يحدث في تاريخ المسلمين من قبل وحتى هذه اللحظة؛ فقد هجموا على قُرْطُبَة وعاثوا فيها فسادًا وقتلاً واغتصابًا للنساء، ثم من جديد يتولَّى سليمان بن الحكم (المستعين بالله) الحكم في بلاد الأندلس، وفَرَّ هشام بن الحكم أو قُتل، فلم يُعرف مصيره على وجه اليقين، وكان مقرُّ الحُكم آنذاك هو قُرْطُبَة، لكن البلاد كانت مفكَّكة تمامًا، وقد فرَّ العامريون إلى شرق الأندلس في منطقة بلنسية وما حولها[٢].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٤/ ١٥١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١١٧، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٨.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ١١٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١١٨، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٥١، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٢٩.

البربر والانقلاب على سليمان بن الحكم وتأجج الصراعات:

من سنة (٤٠٣هـ= ١٠١٢م) ظلَّ سليمان بن الحكم يتولَّى الحُكم، وكان غالبية جيشه من البربر، وبعد عام واحد من تولِّيه يثور حاكم مدينة سبتة المغربية، ويدَّعي علي بن حمود -وقد كان من البربر- أنه وصلت إليه رسالة على لسان هشام بن الحكم المؤيد بالله (الخليفة المخلوع مرتين) تُوصي إليه بالخلافة من بعده[1]، وبعض الروايات تقول بأن البربر -الذين هم عماد جيش سليمان المستعين بالله- أرادوا الانقلاب عليه وألَّفوا هذه الرسالة على لسان هشام، وبعثوا بها إلى علي بن حمود، فثار علي بن حمود في سبتة، واتصل ببعض مَنْ يُناصره في الأندلس، ثم عبر إليها، وفي سنة (٤٠٧هـ= ١٠١٦م) وقعت المعركة بين علي بن حمود، وبين سليمان المستعين بالله، فانتصر علي بن حمود، وتولى الحكم في قُرْطُبَة وقَتَل سليمان وأخاه وأباهما الحكم؛ كي يضمن ألاَّ يثور عليه أحد، ثم تولَّى الحُكم في بلاد وتَسَمَّى بالناصر بالله[2].

واستقرَّ الأمر لعلي بن حمود، فبدأ بذلك عهد الدولة الحمودية في قُرْطُبَة، وقام بتعيين أخيه القاسم بن حمود على إِشْبِيلِية في سنة (٤٠٧هـ= ١٠١٦م)، وأصبح البربر هم الخلفاء الذين يتملَّكُون الأمور في قُرْطُبَة وما حولها.

لم يرضَ العامريون الذين فرُّوا إلى شرق الأندلس بهذا الوضع، فما كان منهم إلاَّ أن بحثوا عن أموي آخر وهو عبد الرحمن بن محمد بن عبد الله، أحد أحفاد عبد الرحمن الناصر، ثم بايعوه على الخلافة، وقد تلقَّب بالمرتضي بالله[3].

سار العامريون ومعهم المرتضي بالله إلى غَرْنَاطة كمقدمة للتوجُّه إلى قُرْطُبَة،

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ١١٦.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٢١.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٣٠.

ولكن -وكما هي العادة في زمن الفتنة- وقع أمر عجيب، فقد فوجئ خيران العامري بقوة شخصية المرتضي، وأيقن أنه لن يكون أبدًا صورة خليفة كما كان هشام المؤيد بالله، فكان أن انقلب عليه سرًّا فتحالف مع الحموديين، فلما نشبت المعركة بين المرتضي ومعه خيران العامري وبين زاوي بن زيري -والي غَرْنَاطة البربري- انهزم خيران، فانهزم جيش المرتضي، ثم أدركه بعض فتيان خيران فقتلوه.

وكان من العجيب -أيضًا- ما حدث قبل ذلك بقليل؛ إذ تآمر ثلاثة فتيان من الصقالبة موالي بني أمية بالخليفة الجديد علي بن حمود فقتلوه في الحمام، وعلى الفور راسل البربر المتغلبون على قُرْطُبَة أخا عليٍّ المقتول القاسم بن حمود، الذي كان حاكمًا لإِشْبِيلِيَة من قِبَل أخيه الذي قُتل.

لكن ما لبث الحال أن تطور -أيضًا- فلقد ثار على القاسم ابن أخيه يحيى بن علي بن حمود في سَبْتَة، ورأى أنه الخليفة الطبيعي بعد وفاة أبيه، واجتمع حوله نفر من البربر، وسار في جموعه إلى قُرْطُبَة، فانسحب أمامه عمه القاسم واتجه إلى إشبيلية، ثم كان من أعجب العجب أن تصالح كل منهما مع الآخر، فرضي كل منهما أن يكون الآخر خليفة، وفي ذلك يقول ابن حزم: «وهذا أمرٌ لم يُسمع في الدنيا بأشنع منه، ولا بأدلَّ على إدبار الأمور: يحيى بقُرْطُبَة والقاسم بإشبيلية»[1].

غير أن الأمور لم تهدأ؛ فكلما نُصِّب حاكم في قُرْطُبَة ثار عليه القرطبيون إن كان من البربر، أو لم يستطع ضبط الأمور إن كان أمويًّا، لقد انتهى عهد الرجال الأقوياء من بني أمية، ولم يبقَ إلاَّ ضعيف الرأي والعزم، وقامت بعد ذلك صراعات كثيرة، واستمرَّ الوضع على هذا الحال حتى سنة (٤٢٢هـ= ١٠٣١م).

---

(١) ابن حزم: رسائل ابن حزم، ٢/ ٩٢.

انتهاء عهد الخلفاء والأمراء وتولِّي مجلس شورى للحكم:

في محاولة لحلِّ هذه الأزمة التي تمرُّ بها البلاد، وفي محاولة لوقف هذه الموجة من الصراعات العارمة، اجتمع العلماء وعلية القوم من أهل قُرْطُبَة، وذلك في سنة (٤٢٢هـ= ١٠٣١م)، ووجدوا أنه لم يَعُدْ هناك من بني أمية مَنْ يَصْلُح لإدارة الأمور؛ وكان زعيم هذا الأمر قاضي قُرْطُبَة البارز وصاحب التاريخ والخصال أبا الحزم بن جهور، فلقد كان أبو الحزم هذا من علماء القوم، كما كان يشتهر بالتقوى والورع ورجاحة العقل، وظلَّ الحال على هذا الوضع ما يقرب من ثلاث سنوات.

كوَّن ابن جهور مجلسًا للشورى لإدارة البلاد، لكن حقيقة الأمر أن أبا الحزم بن جهور لم يكن يُسيطر هو ومجلس الشورى الذي معه إلا على قُرْطُبَة فقط من بلاد الأندلس، أمَّا بقية البلاد والأقاليم الأخرى فقد ضاعت السيطرة عليها تمامًا، وبدأت الأندلس بالفعل تُقَسَّم بحسب العنصر إلى دويلات مختلفة؛ ليبدأ ما يُسَمَّى بعهد دويلات الطوائف، أو عهد ملوك الطوائف[1].

وقد ذكرنا -سابقًا- أن مساحة الأندلس كانت ستمائة ألف كم، فإذا طرحنا منها ما أخذه النصارى في الشمال؛ فإن النتيجة هي أربعمائة وخمسون ألف كم (أقل من نصف مساحة مصر) مقسمة إلى اثنتين وعشرين دولة؛ كلٌّ منها لها مقومات الدولة المتكاملة من رئيس وجيش ووزارات وعملة وسفراء، فتفتَّتَ المسلمون في الأندلس تفتُّتًا لم يُعهد من قبلٍ في تاريخهم، وفقدوا بذلك عنصرًا مهمًّا جدًّا من عناصر قوتهم وهو الوحدة، فكان الهبوط على أشدِّ ما يكون، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٩٥.

الفصل العاشر

وقفة مع أسباب السقوط

كان رأي بعض الباحثين أن سبب سقوط الدولة العامرية؛ ومن ثَمَّ سقوط الخلافة الأموية هو تولِّي عبد الرحمن بن المنصور الحُكم، ذلك الفاسق الماجن الذي أسقط بني أمية وأحدَث هذه الاضطرابات الكثيرة في البلاد.

وحقيقة الأمر أنه ليس من سنن الله ﷻ أن تهلك الأمم لمجرَّد ولاية رجل فاسق لشهور معدودات، فلم يمكث عبد الرحمن بن المنصور في الحكم إلا أقلَّ من عام واحد، ومهما بلغ أمره من الفحش والمجون فلا يمكن بحال أن يُؤَدِّيَ إلى مثل هذا الفشل الذريع، والسقوط المدوِّي للبلاد، فلا بدَّ إذًا أن تكون هناك أسباب وجذور أخرى. كانت قد [illegible]، من قبل وتزايدت مع مرور الزمن، حتى وصلت أوجها في فترة عبد الرحمن بن المنصور؛ ومن ثَمَّ كان هذا التفتُّت وذلك الانهيار.

وكما رأينا -سابقًا- في تحليلنا لأسباب ضعف الإمارة الأموية، وكيف كانت لهذا الضعف أسباب وجذور تمتدُّ إلى عهد قوة الإمارة الأموية ذاتها، فإن هناك ثلاثة أسباب رئيسة لسقوط الدولة الأموية؛ ومن ثَمَّ الدولة العامرية؛ نذكرها فيما يلي:

السبب الأول: انتشار الترف والإسراف.

ويرجع هذا إلى زمن عبد الرحمن الناصر ذاته، ذلك الرجل الفذُّ الذي اتَّسم عصره بالبذخ والترف الشديدين، وكثرة إنفاق الأموال في زخرفة الدنيا؛ ومن ثَمَّ انشغال الناس بتوافه الأمور، وكانت الدنيا هي المهلكة، وليس أدلّ على ذلك من

قصر الزهراء، الذي أنشأه عبد الرحمن الناصر، وكان آية في الروعة والجمال، وأعجوبة من أعاجيب الزمان في ذلك الوقت؛ فقد كان على اتساعه وكبر حجمه مبطَّنًا من الداخل بالذهب، بل كان سقفه -أيضًا- مبطَّنًا بخليط من الذهب والفضة، بأشكال تخطف الأبصار وتبهر العقول[1]، ومع أن عبد الرحمن الناصر لم يكن مُقَصِّرًا في الإنفاق على أي شأن من شئون الدولة؛ مثل: الإنفاق على التعليم، أو الجيش.. أو غيره، إلا أنَّ فِعْلَه هذا يُعَدُّ نوعًا من البذخ والترف المبالغ فيه؛ أَدَّى في النهاية إلى أن تتعلَّق القلوب بالدنيا وزخرفها.

ومما جاء في ذلك أن القاضي المنذر بن سعيد ﷺ دخل على عبد الرحمن الناصر في قصره وكان على هذا الوصف السابق، فقال له عبد الرحمن الناصر: ما تقول في هذا يا منذر (يُريد الافتخار)؟! فأجابه المنذر ودموعه تقطر على لحيته قائلاً: ما ظننت أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ على ما آتاك الله من النعمة، وفَضَّلَكَ على كثير من عباده تفضيلاً حتى يُنْزِلَك منازل الكافرين.

فقال عبد الرحمن الناصر: انظر ما تقول، كيف أنزلني الشيطان منازل الكافرين؟! فردَّ عليه المنذر: أليس الله تعالى يقول في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْلا أَنْ يَكُونَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً لَجَعَلْنَا لِمَنْ يَكْفُرُ بِالرَّحْمَنِ لِبُيُوتِهِمْ سُقُفًا مِنْ فِضَّةٍ وَمَعَارِجَ عَلَيْهَا يَظْهَرُونَ﴾ [الزخرف: ٣٣].

فقد ذكر الله ﷻ السُّقُف التي من فضة في هذه الآية على سبيل التعجيز؛ يعني: لولا أن يكفر الناس جميعًا بسبب ميلهم إلى الدنيا، وتركهم الآخرة لأعطيناهم في الدنيا ما وصفناه؛ لهوان الدنيا عند الله ﷻ، لكنَّا لم نجعله، إلاَّ أن عبد الرحمن الناصر فعله، وجعل لقصره سقفًا من فضة.

وهنا وجم عبد الرحمن الناصر بعدما سَقطت عليه تلك الكلمات كالصخر، ثم

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ١/ ٥٦٦.

بدأت دموعه رحمه الله تنساب على وجهه، وقام على الفور ونقض ذلك السقف، وأزال ما به من الذهب والفضة، وبناه كما كانت تُبْنَى السُّقُف في ذلك الزمن، إلاَّ أن مظهر الترف -لكثرة الأموال ومع مرور الوقت- يعود ويبرز من جديد، حتى أصبح الإنفاق في لا شيء، وقد قال الله سبحانه وتعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَنْ نُهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيرًا﴾ [الإسراء: ١٦][1].

السبب الثاني: توسيد الأمر لغير أهله:

إضافة إلى الترف والإسراف فقد كان توسيد الأمر لغير أهله من أهم الأسباب التي أَدَّت إلى سقوط الدولة العامرية والخلافة الأموية، ولقد تجَسَّد هذا العامل واضحًا جليًّا حين ولَّى الحكم بن عبد الرحمن الناصر ابنه أمور الحُكم في البلاد، وهو ما زال طفلاً لم يتجاوز الثانية عشرة سنة بعدُ، فأذن بهذا زوال الدولة الأموية؛ إذ تولَّى الحُكم رجال لم يملكوا عصبة الأمويين، فلئن كان منهم مقتدورن موهوبون كما كان المنصور وابنه، فلم يكن هذا متوفرًا فيمن بعدهم.

وقد حذَّرنا رسول الله ﷺ من توسيد الأمر لغير أهله حين أجاب السائلَ عن أمارات ووقت الساعة بقوله: «فَإِذَا ضُيِّعَتِ الأَمَانَةُ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ». قال: كيف إضاعتها؟ قال: «إِذَا وُسِّدَ الأَمْرُ إِلَى غَيْرِ أَهْلِهِ فَانْتَظِرِ السَّاعَةَ»[2].

وهكذا إذا تولَّى مَنْ لا يستحقُّ منصبًا من المناصب، فلا بُدَّ وأن تحدث الهزَّة في البلاد ويحدث الانهيار، فما البال وما الخطب إذا كان هذا المنصب هو منصب الخليفة أعلى مناصب الدولة؟! فقد ضُيِّعَت الأمانة، ووُسِّد الأمر لغير أهله، فكان لا بدَّ أن تقع الأندلس وتسقط الخلافة الأموية والدولة العامرية.

(١) أبو الحسن النباهي: تاريخ قضاة الأندلس، ص٧٢.

(٢) البخاري: كتاب العلم، باب من سئل علمًا وهو مشتغل في حديثه فأتم الحديث ثم أجاب السائل (٥٩) عن أبي هريرة رضي الله عنه، وأحمد (٨٧١٤)، والبيهقي (٢٠١٥٠).

الفصل الحادي عشر

مدينة قرطبة جوهرة العالم

إتمامًا للفائدة رأينا أن نقف بالقارئ على وصف لمدينة قُرْطُبَة عاصمة الأندلس الفاخرة الباهرة في أيام روعتها ومجدها.

«إن قُرْطُبَة التي فاقت كل حواضر أوربا مدنيةً أثناء القرن العاشر (الميلادي) كانت في الحقيقة محطَّ إعجاب العالم ودهشته، كمدينة فينيسيا في أعين دول البلقان، وكان السياح القادمون من الشمال يسمعون بما هو أشبه بالخشوع والرهبة عن تلك المدينَة التي تحوي سبعين مكتبة، وتسعمائة حمام عمومي؛ فإن أدركت الحاجة حُكَّام ليون، أو النافار، أو برشلونة إلى جرَّاح، أو مهندس، أو معماري، أو خائط ثياب، أو موسيقي فلا يتَّجهون بمطالبهم إلا إلى قُرْطُبَة»[1]. هذا هو وصف أحد الغربيين لمدينة قُرْطُبَة الأندلسية في القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، وهو جون براند ترند.

فامتدادًا لحضارة إسلامية إنسانية -علمًا، وقِيَمًا، ومجدًا- بزغ نجم مدينة قرطبة، كشاهدٍ حيٍّ على ما وصلت إليه حضارة المسلمين وعزِّ الإسلام في ذلك الوقت من التاريخ، وهو منتصف القرن الرابع الهجري (العاشر الميلادي)، يوم أن كانت أوربا تغطُّ في جهل عميق.

قرطبة.. ذلك الاسم الذي طالما كان له جرس مُعَيَّنٌ، ووقع خاصٌّ في الأذن الإسلامية، بل وفي أذن كل أوربي آمن بالنهضة والحضارة الإنسانية، يقول المقري:

(١) جون براند ترند: إسبانيا والبرتغال، دراسة منشورة بكتاب تراث الإسلام بإشراف أرنولد، ص٢٧.

قال بعض علماء الأندلس: [البسيط]

بِـأَرْبَعٍ فَاقَـتِ الأَمْصَـارَ قُرْطُبَـةٌ ... مِـنْهُنَّ قَنْطَـرَةُ الْـوَادِي وَجَامِعُهَـا

هَاتَـانِ ثِنْتَـانِ وَالزَّهْـرَاءُ ثَالِثَـةٌ ... وَالْعِلْـمُ أَعْظَـمُ شَيْءٍ وَهْـوَ رَابِعُهَـا[1]

وستتعرف على قرطبة.. المدينة الجميلة.. من خلال النقاط التالية:

- لمحة جغرافية وتاريخية
- بعض مظاهر الحضارة في قرطبة
- قرطبة.. المدينة العصرية
- قرطبة في عيون العلماء والأدباء

لمحة جغرافية وتاريخية:

هي مدينة تقع على نهر الوادي الكبير، في الجزء الجنوبي من إسبانيا، وقد أرَّخت لها موسوعة المورد الحديثة فقالت: «أسسها القرطاجيون فيما يُعتقد، وخضعت لحكم الرومان والقوط الغربيين»[2]. وقد قام بفتحها القائد الإسلامي الشهير طارق بن زياد، وذلك سنة (٩٣هـ= ٧١١م). ومنذ ذلك العهد بدأت مدينة قرطبة تخطُّ لنفسها خطًّا جديدًا، وملمحًا مهمًّا في تاريخ الحضارة؛ فبدأ نجمها في الصعود كمدينة حضارية عالمية، لا سيما في عام (١٣٨هـ= ٧٥٦م)، عندما أسس عبد الرحمن الداخل (صقر قريش) الدولة الأموية في الأندلس، وذلك بعدما سقطت في دمشق على أيدي العباسيين.

وفي عهد عبد الرحمن الناصر (أول خليفة أموي في الأندلس) ومن بعده ابنه

---

(١) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ١/ ١٥٣.

(٢) موسوعة المورد الحديثة (١٩٩٥م).

الحكم المستنصر، بلغت قرطبة أوج ازدهارها، وقمة ريادتها وحضارتها؛ خاصةً أنه اتخذها عاصمة لدولته الفتية، ومقرًّا له كخليفة للمسلمين في العالم الغربي، وقد جعل منها منبرًا للعلوم والثقافة والمدنية، حتى غدتْ تُنَافس القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية البيزنطية في قارتها، وبغدادَ عاصمة العباسيين في المشرق، والقيروانَ والقاهرةَ في إفريقيا، حتى أطلق عليها الأوربيون: «جوهرة العالم».

وقد شمل اهتمام الأمويين بقرطبة اهتمامهم كذلك بنواحي الحياة المختلفة فيها؛ من زراعة وصناعة، وبناء الحصون، ودور الأسلحة.. وغيرها، وقد شقُّوا الترع، وحفروا القنوات، وأقاموا المصارف، وجلبوا للأندلس أشجارًا وثمارًا لم تكن تُزْرَع فيها.

بعض مظاهر الحضارة في قرطبة:

في السطور التالية نَتَعَرَّفُ على بعض مظاهر الرقي والحضارة التي تميَّزَتْ بها الأندلس عامَّة، ومدينة قرطبة خاصَّة؛ لنقف على الإسهامات الإسلامية في مسيرة الإنسانية.

١) قنطرة قرطبة:

كان من المعالم المهمَّة في قرطبة (قنطرة قرطبة)، والتي تقع على نهر الوادي الكبير، وقد عُرفت باسم: (الجسر)، وأيضًا: (قنطرة الدهر)، وكان طولها أربعمائة متر تقريبًا، وعرضها أربعين مترًا، وارتفاعها ثلاثين مترًا!

وقد شهد لها ابن الوردي والإدريسي بأنها «القنطرة التي عَلَتِ القناطرَ فَخْرًا في بنائها وإتقانها»[1].

---

(١) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب ص١٢، والإدريسي: نزهة المشتاق ٢/ ٥٧٩.

كان عدد أقواسها سبع عشرة قوسًا، بين كل قوس والآخر اثنا عشر مترًا، وسعة القوس الواحد اثنا عشر مترًا، وكان عرضها حوالي سبعة أمتار، وارتفاعها عن سطح ماء النهر بلغ خمسة عشر مترًا[1].

إن هذه الأبعاد كانت لقنطرة بُنِيَت في بداية القرن الثاني الهجري (١٠١هـ)؛ أي منذ ألف وأربعمائة عام، على يد السمح بن مالك الخولاني الذي كان والي الأندلس من قِبَل عمر بن عبد العزيز، أي في وقت لم يكن فيه الناس يعرفون من وسائل الانتقال إلاَّ الخيل والبغال والحمير، ولم تكن وسائل وأساليب البناء على المستوى المتطور حينئذٍ؛ مما يجعل هذه القنطرة بهذا الشكل واحدة من مفاخر الحضارة الإسلامية.

٢) مسجد قرطبة:

يُعتبر الجامع الكبير من أهم معالم قرطبة وآثارها الباقية إلى اليوم، وهو يُسمى بالإسبانية (Mezquita) (وتنطق: ميتكيتا)، وهي تحريف لكلمة (مسجد)، وقد كان أشهر مسجد بالأندلس (على اعتبار أنه الآن كاتدرائية)، ومن أكبر المساجد في أوربا! وقد بدأ بناءَه عبد الرحمن الداخل سنة (١٧٠هـ= ٧٨٦م)، ومن بعده ابنه هشام الأول، وكان كل خليفة جديد يُضيف لهذا الجامع ما يزيد في سعته وتزيينه؛ ليكون أجمل المساجد في مدينة قرطبة، ومن أكبر المساجد وقت وجوده.

وفي وصف لهذا الجامع يقول صاحب الروض المعطار: وبها (بقرطبة) الجامع المشهور أمره الشائع ذكره، من أَجَلِّ مساجد الدنيا كبرَ مساحة، وإحكامَ صنعة، وجمالَ هيئة، وإتقانَ بنية، تَهَمَّم به الخلفاء المروانيون، فزادوا فيه زيادة بعد زيادة، وتتميمًا إثر تتميم؛ حتى بلغ الغاية في الإتقان، فصار يحار فيه الطرف، ويعجز عن

(١) المقري: نفح الطيب ١/ ٤٨٢٠.

حُسْنِه الوصف، وليس في مساجد المسلمين مثله تنميقًا وطولاً وعرضًا؛ طوله مائة باع[١] وثمانون باعًا، ونصفه مسقَّف ونصفه صحن بلا سقف، وعدد (أقواس) مسقَّفه أربع عشرة قوسًا، وسَوَارِي مسقفه بين أعمدته وسَوَارِي قببه صغارًا وكبارًا مع سَوَارِي القبلة الكبرى وما يليها ألف سارية، وفيه مائة وثلاث عشرة ثُرَيَّا للوقيد، أكبر واحدة منها تحمل ألف مصباح، وأقلُّها تحمل اثني عشر مصباحًا، وجميع خشبه من عيدان الصنوبر الطرطوشي[٢]، ارتفاع الجائزة[٣] منه شبر في عرض شبر إلاَّ ثلاثة أصابع، في طول كل جائزة سبعة وثلاثون شبرًا، وبين الجائزة والجائزة غلظ الجائزة، وفي سقفه من ضروب الصنائع والنقوش ما لا يُشبه بعضها بعضًا، قد أُحكم ترتيبها وأُبدع تلوينها بأنواع الحمرة، والبياض، والزرقة، والخضرة، والتكحيل؛ فهي تروق العيون، وتستميل النفوس بإتقان ترسيمها ومختلفات ألوانها. وسِعَة كل بلاط من بلاط سقفه ثلاثة وثلاثون شبرًا، وبين العمود والعمود خمسة عشر شبرًا، ولكل عمود منها رأس رخام وقاعدة رخام.

ولهذا الجامع قِبْلَةٌ يعجز الواصفون عن وصفها، وفيها إتقان يبهر العقول تنميقها، وفيها من الفسيفساء المُذَهَّب والبِلَّوْر مما بعث به صاحب القسطنطينية العظمى إلى عبد الرحمن الناصر لدين الله... وفي جهتي المحراب أربعة أعمدة: اثنان أخضران، واثنان زُرْزُوريَّان[٤]، لا تُقَوَّم بمال، وعلى رأس المحراب خَصَّة[٥] رخام

---

(١) القياسات القديمة كانت بوحدات الشبر والذراع والباع، والشبر يساوي ٢٣ سنتيمترًا تقريبًا، والذراع يساوي نصف متر تقريبًا. انظر: محمد رواس قلعجي وحامد صادق قنيبي: معجم لغة الفقهاء ١/ ٢٥٦، ٢/ ٤٨.

(٢) نوع من أنواع الخشب.

(٣) الجائزَةُ من البيت: سهم البيت، أي الخشبة التي تَحْمِل خشب البيت. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة جوز ٥/ ٣٢٦.

(٤) الزُّرْزُورُ: طائر من رتبة العصفوريات وهو أكبر قليلاً من العصفور، له ريش بنفسجي مائل إلى الخضرة، أو بريق أرجواني فاتح، أو هو حَجَرٌ أبيض رِخْوٌ، ومنه خَمْرِي أو أَصْفَرَ، وله بريق معدني. ابن منظور: لسان العرب، مادة زرر ٤/ ٣٢١.

(٥) لعل المقصود كتلة رخام.

قطعة واحدة مسبوكة منمَّقة بأبدع التنميق من الذهب واللاَّزَوَرْدِ وسائر الألوان، واستدارت على المحراب حظيرة خشب بها من أنواع النقش كل غريب، ومع يمين المحراب المنبر الذي ليس بمعمور الأرض مثله صنعةً؛ خشبه أبنوس، وبَقْس، وعود المجمر، يقال: إنه صُنِعَ في سبع سنين، وكان صناعة ستة رجال غير مَنْ يخدمهم تصرفًا!

وعن شمال المحراب بيت فيه عدد وطُسُوت[1] ذهب وفضة وحسك[2]، وكلها لوقيد الشمع في كل ليلة سبع وعشرين من رمضان، وفي هذا المخزن مصحف يرفعه رجلان لثقله؛ فيه أربع أوراق من مصحف عثمان بن عفان ﷺ الذي خَطَّه بيمينه، وفيه نقطة من دمه، ويُخْرَجُ هذا المصحف في صبيحة كل يوم، يتولَّى إخراجه قَوْمٌ من قَوَمة الجامع، وللمصحف غشاء بديع الصنعة منقوش بأغرب ما يكون من النقش، وله كرسيٌّ يُوضَعُ عليه، فيتولَّى الإمام قراءة نصف حِزبٍ فيه، ثم يُرْفَعُ إلى موضعه.

وعن يمين المحراب والمنبر باب يُفْضِي إلى القصر، بين حائطي الجامع في ساباط[3] مُتَّصِل، وفي هذا الساباط ثمانية أبواب، منها أربعة تنغلق من جهة القصر، وأربعة تنغلق من جهة الجامع، ولهذا الجامع عشرون بابًا مصفَّحة بصفائح النحاس وكواكب[4] النحاس، وفي كل باب منها حلقتان في غاية الإتقان، وعلى وجه كل باب منها في الحائط ضروب من الفصِّ المُتَّخَذِ من الآجُرِّ الأحمر المحكوك، وأنواع شتَّى وأصناف مختلفة من الصناعات والتنميق.

(١) جمع طَسْت وهو من الآنية. ابن منظور: لسان العرب، مادة طست، ٢/ ٥٨.

(٢) الحَسَكُ: من أدوات الحرب، ربما أُخذ من حديدٍ فأُلقي حول العسكر، وربما أُخذ من خشب فنصب حوله. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة حسك، ١٠/ ٤١١.

(٣) السَّاباطُ: سَقيفةٌ بين حائطين أو بين دارين، ومن تحتها طريق نافذ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة سبط، ٧/ ٣٠٨.

(٤) كواكب جمع كوكب: المسمار. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة كوكب، ١/ ٧٢٠، والزبيدي: تاج العروس، ٤/ ١٥٨.

وللجامع في الجهة الشمالية الصومعة (المئذنة) الغريبة الصنعة، الجليلة الأعمال، الرائقة الشكل والمثال، ارتفاعها في الهواء مائة ذراع بالذراع الرشاشي[١]؛ منها ثمانون ذراعًا إلى الموضع الذي يقف عليه المؤذن، ومن هناك إلى أعلاها عشرون ذراعًا، ويصعد إلى أعلى هذا المنار بدرجين: أحدهما من الجانب الغربي، والثاني من الشرقي، إذا افترق الصاعدان أسفل الصومعة لم يجتمعا إلاَّ إذا وصلا الأعلى، ووجه هذه الصومعة مُبَطَّن بالكَذَّان[٢] منقوش من وجه الأرض إلى أعلى الصومعة، بصنعة تحتوي على أنواع من التزويق والكتابة.

وبالأوجه الأربعة الدائرة من الصومعة صَفَّان من قِسِيّ (أقواس) دائرة على عقد الرخام، وبيت له أربعة أبواب مغلقة يبيت فيه في كل ليلة مُؤَذِّنان، وعلى أعلى الصومعة التي على البيت ثلاث تفاحات ذهبًا واثنتان من فضة وأوراق سَوْسَنِيَّة، تَسَعُ الكبيرة من هذه التفاحات ستين رطلاً من الزيت، ويخدم الجامع كله ستُّونَ رجلاً، وعليهم قائم ينظر في أمورهم[٣].

وبقريبٍ من ذلك يصفه ابن الوردي في كتابه (خريدة العجائب وفريدة الغرائب). وقد كانت ساحته تملؤها أشجار البرتقال والرمان؛ ليأكل منها الجائعون والقادمون إلى المدينَة من شتى البقاع! ومما يحزن له القلب وتَدمع له العين أن هذا المسجد العظيم المهيب قد تَحَوَّل عقب سقوط الأندلس إلى كاتدرائية، وأصبح تابعًا للكنيسة، مع احتفاظه باسمه، وتَحَوَّلَتْ مئذنته الشاهقة إلى برج تُنصب فوقه أجراس الكنيسة لإخفاء طابعها الإسلامي، كما لا يزال يعلو جدرانه المنيعة نقوشٌ قرآنية تعكس عبقرية فنيَّة نادرة، وهو الآن من أشهر المواقع التاريخية في العالم كله.

---

(١) الذراع الرشاشي: هو ثلاثة أشبار. انظر: الحِميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ١/ ٥٥.

(٢) الكذّان: الحجارة الرَّخْوة النَّخِرة. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادَّة كذذ، ٣/ ٥٠٥، ومادَّة كذن، ١٣/ ٣٥٧.

(٣) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ١/ ٤٥٦، ٤٥٧.

٣) جامعة قرطبة:

لم يقتصر دور مسجد قرطبة على العبادة فقط، وإنما كان -أيضًا- جامعة علميَّة تُعَدُّ من أشهر جامعات العالم آنذاك، وأكبر مركز علمي في أوربا، ومن خلاله انتقلت العلوم العربية إلى الدول الأوربية على مدى قرون، وكان يُدرس في هذه الجامعة كل العلوم، وكان يُختار لها أعظم الأساتذة، وكان طلاب العلم يَفِدُون إليها من الشرق والغرب على السواء؛ مسلمين كانوا أو غير مسلمين. وقد احْتَلَّتْ حلقات الدرس والعلم أكثر من نصف المسجد، وكان للشيوخ راتبٌ جيد ليتفرَّغُوا للدرس والتأليف، وكذلك خُصِّصَتْ أموال للطلاب، ومكافآت ومعونات للمحتاجين؛ وهو الأمر الذي أثرى الحياة العلميَّة بصورة ملحوظة في ذلك الوقت وفي تلك البيئة، واستطاعت قرطبة أن تُخْرِجَ للمسلمين وللعالم الجمَّ الغفير من العلماء، وفي جميع مجالات العلوم، وكان منهم: الزهراوي (٣٢٥-٤٠٤هـ= ٩٣٦-١٠١٣م) أشهر جَرَّاح، وطبيب، وعالم بالأدوية وتركيبها، وهناك -أيضًا- ابن باجه، وابن طفيل، ومحمد الغافقي (أحد مُؤَسِّسِي طبّ العيون)، وابن عبد البر، وابن رشد، والإدريسي، وأبو بكر يحيى بن سعدون بن تمام الأزدي، والقاضي القرطبي النحوي، والحافظ القرطبي، وأَبو جعفر القرطبي، وغيرهم كثير.

قرطبة.. المدينة العصرية:

للحال التي رأينا، وللحياة التي شاهدنا لا غَرْوَ أن تُصْبِحَ قرطبة (منتصف القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي)، وكأنها مدينة عصرية، تُضارع المدن العالمية في الألفية الثالثة! وكيف العجب وقد انتشرت المدارس لتعليم الناس، وانتشرت المكتبات الخاصَّة والعامَّة، حتى صارت هي أكثر بلاد الله كُتبًا، وحتى غَدَتْ مركزًا ثقافيًّا ومجمعًا علميًّا لكل العلوم وفي شتى المجالات، وقد كان الفقراء يَتَعَلَّمُون في مدارس بالمجَّان على نفقة الحُكَّام أنفسهم؛ ولذا فليس عجيبًا أن نعلم أن جميع أفراد

الشعب كان قد عرف القراءة والكتابة، ولم يُوجَدْ في قرطبة شخص واحد لا يجيد القراءة والكتابة[1]، في حين لم يَكُنْ يعرفها أرفع الناس في أوربا، باستثناء بعض رجال الدين!

وجدير بالذكر أن هذه النهضة العلمية والحضارية في مدينة قرطبة في ذلك الوقت، واكبها -أيضًا- نهضة إدارية؛ وذلك من خلال عدد من المؤسسات والنُّظُمِ الرائدة في الحكم؛ منها: الإمارة والوزارة، وقد تطوَّرَتْ أنظمة القضاء والشرطة والحِسْبة، وغيرها، وواكبتها -أيضًا- نهضة صناعية عظيمة؛ إذ تطوَّرت فيها الصناعة كثيرًا، واشتهرت صناعات مثل: صناعة الجلود، وصناعة السفن، وآلات الحرث، والأدوية.. وغيرها، وكذلك استخراج الذهب والفضة والنحاس![2]

أمَّا إذا نظرنا إلى الحياة المدنية والعصرية فيها، فنراها مُقَسَّمَة إلى خمس مدن، وكأنها خمسة أحياء كبرى، يقول المقري: «وبين المدينَة والمدينَة سور عظيم حصين حاجز، وكل مدينة مستقلَّة بنفسها، وفي كل منها من الحمامات، والأسواق، والصناعات... ما يكفي أهلها»[3].

كما تميزت قرطبة -كما يذكر ذلك ياقوت في معجم البلدان- بأسواقها الممتلئة بكافَّة السلع، وكان لكل مدينة سوقٌ خاصٌّ بها[4].

ومن المقري نذكر بعض إحصائيات عن عمران قرطبة:

المساجد: انتهت مساجد قرطبة أيام عبد الرحمن الداخل إلى ٤٩٠ مسجدًا، ثم زادت بعد ذلك إلى ٣٨٣٧ مسجدًا.

---

(١) محمد ماهر حمادة: المكتبات في الإسلام، ص٩٩.
(٢) القلقشندي: صبح الأعشى، ٥/ ٢١٨.
(٣) المقري: نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، ١/ ٥٥٨.
(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤/ ٣٢٤.

البيوت الشعبية: ٢١٣٠٧٧ بيتًا.

بيوت النخبة: ٦٠٣٠٠ بيت.

الحوانيت (المتاجر وما شابه): ٨٠٤٥٥ حانوتًا.

الحمامات العامة: ٩٠٠ حمام.

الأرباض (الضواحي): ٢٨ ضاحية[١].

وهذه الأرقام كانت تزيد وتنقص باختلاف الأحوال السياسيَّة، وباختلاف روايات المؤرخين، غير أنها اختلافات على «مدى» الفخامة والجلالة والجمال، لا على أصل وجودها وتحقُّقِهَا.

وكان عدد سكان قرطبة في عهد الدولة الإسلامية زُهاء خمسمائة ألف نسمة![٢] والجدير بالذكر أن عدد سكان قرطبة حاليًا يبلغ ٣١٠,٠٠٠ نسمة تقريبًا![٣].

قرطبة في عيون العلماء والأدباء:

وقد طَرَقَ قرطبة في حدود سنة (٣٥٠هـ= ٩٦١م) ابن حوقل، التاجر الموصلي، فقال يَصِفُها: «وأعظم مدينة بالأندلس قرطبة، وليس لها في المغرب شبيهٌ في كثرة الأهل وسعة الرقعة، ويقال: إنها كأحد جانبي بغداد، وإن لم تكن كذلك فهي قريبة منها. وهي حصينة بسور من حجارة، ولها بابان مشرعان في نفس السور إلى طريق الوادي من الرصافة، والرصافة مساكن أعالي البلد مُتَّصِلَة بأسافله من رُبُضِهَا[٤]، وأبنيتها مشتبكة محيطة من شرقيها وشماليها وغربها وجنوبها، فهو إلى واديها، وعليه

(١) المقري: نفح الطيب، ١/ ٥٤٠ وما بعدها.
(٢) محمد عبد الله عنان: الآثار الأندلسية الباقية في إسبانيا والبرتغال، ص١٩.
(٣) موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.
(٤) الرُّبُض: جماعة الشجر الملتفّ. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ربض، ٧/ ١٤٩.

الرصيف المعروف بالأسواق والبيوع، ومساكن العامَّة برُبُضِها، وأهلها متموِّلون[١] مُتَخَصِّصُون»[٢].

بل إن سكان قرطبة قد تميَّزوا خاصَّة بأنهم أشراف الناس وعلماؤهم، وأرفعهم مكانةً! يقول في ذلك الإدريسي: «ولم تخلُ قرطبة قَطُّ من أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وتُجَّارها مياسير لهم أموال كثيرة وأحوال واسعة، ولهم مراكب سَنِيَّة وهممٌ عَلِيَّة»[٣].

ويقول الحِميري: «قرطبة: قاعدة الأندلس، وأُمُّ مدائنها، ومستقرُّ خلافة الأمويين بها، وآثارهم بها ظاهرة، وفضائل قرطبة ومناقب خلفائها أشهر من أن تُذْكَر، وهم أعلام البلاد وأعيان الناس، اشتهروا بصحَّة المَذْهَبِ، وطيب المكسب، وحُسن الزيِّ، وعلوِّ الهمَّة، وجميل الأخلاق، وكان فيها أعلام العلماء وسادات الفضلاء»[٤].

ويصفها ياقوت -أيضًا- فيقول: «مدينة عظيمة بالأندلس وَسَط بلادها، وكانت سريرًا لمَلِكِهَا وقصبتها[٥]، وبها كانت ملوك بني أمية، ومَعْدِن الفضلاءِ، ومنبع النبلاءِ من ذلك الصُّقْع[٦]»[٧].

ويحكي أبو الحسن بن بسَّام عنها قوله: «كانت منتهى الغاية، ومركز الراية، وأُمَّ القرى، وقرارة أهل الفضل والتُّقَى، ووطن أُولِي العلم والنُّهى، وقلب الإقليم، وينبوعَ

---

(١) تَمَوَّلَ الرجل: صار ذا مالٍ. انظر: الرازي: مختار الصحاح، مادة مول، ص٦٤٢.
(٢) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤/ ٣٢٤.
(٣) الإدريسي: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، ٢/ ٥٧٥.
(٤) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، ص٤٥٦.
(٥) قَصَبَةُ البَلَد: مَدِينَتُه، ووسطه. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة قصب، ١/ ٦٧٤، والزبيدي: تاج العروس، ٤/ ٤٣.
(٦) الصُّقْع: ناحية الأرض. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة صقع، ٨/ ٢٠١.
(٧) انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤/ ٣٢٤.

مُتَفَجّر العلوم، وقبة الإسلام، وحضرة الإمام، ودار صوب العقول، وبستان ثمرة الخواطر، وبحر دُرَرِ القرائح؛ ومن أفقها طلعت نجوم الأرض وأعلام العصر، وفرسان النظم والنثر؛ وبها انتشأت التأليفات الرائقة، وصُنِّفَتِ التصنيفات الفائقة؛ والسبب في ذلك -وتبريز القوم قديمًا وحديثًا هنالك على مَنْ سواهم- أن أُفُقَهُم القرطبيّ لم يشتمل قطُّ إلاَّ على أهل البحث والطلب لأنواع العلم والأدب. وبالجملة فأكثر أهل بلاد هذا الأفق -يعني قرطبة خاصةً والأندلس عامَّة- أشراف عرب المشرق افتتحوها، وسادات أجناد الشام والعراق نزلوها؛ فبقي النسل فيها بكل إقليم، على عرقٍ كريم، فلا يكاد بلد منها يخلو من كاتب ماهر، وشاعر قاهر»[1].

ويَصِفُها وأَهْلَهَا ابن الوردي في خريدة العجائب فيقول: «وأهلها أعيان البلاد، وسراة الناس في حسن المآكل والملابس والمراكب وعلو الهمَّة، وبها أعلام العلماء وسادات الفضلاء، وأجِلاَّء الغزاة وأمجاد الحروب». ثم قال بعد أن وصف مسجدها وقنطرتها: «ومحاسن هذه المدينَة أعظم من أن يحيط بها وصف»[2].

كانت هذه هي إحدى مُدُن الحضارة الإسلاميَّة التي ساهمت في تَقَدُّم مسيرة الإنسانية، ودفع عجلتها إلى الأمام. والحقيقة أن قرطبة ليست الوحيدة في ذلك، ولو كان حديثنا عن بغداد، أو دمشق، أو القاهرة، أو البصرة، أو غيرها وغيرها، لكان على الدرجة نفسها من العجب أو أشدَّ، ولا غَرْوَ! فهذه حضارة المسلمين، أعظم حضارات الدنيا، ودُرَّة الجبين في تاريخ الإنسانية الطويل.

* * *

---

(١) أبو الحسن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، ١/ ٣٣.

(٢) ابن الوردي: خريدة العجائب وفريدة الغرائب، ص١٢.

الباب السادس

عصر ملوك الطوائف



هذه فترة من أصعب فترات التاريخ الأندلسي قاطبة، وأكثرها تعقيدًا وتشابكًا، فعلى الرغم من قِصَر مدتها -التي لا تتجاوز القرن الواحد- إلا أنها تتسم بالأحداث المتعاقبة والأطماع المتزايدة، والفُرْقَة والتنازع الشديدين؛ فغدت الأندلس كحبَّات العِقد المتناثرة، التي لا يجمعها رابط عرق ولا دين، وكانت هذه الأحداث جديرة بأن تجعل القرن الخامس الهجري من القرون المظلمة في تاريخ الأندلس كله، فمنذ إعلان إلغاء الخلافة الأموية في الأندلس بدأت الأندلس بالفعل تُقسَّم بحسب العنصر إلى دويلات مختلفة، ليبدأ ما يُسَمَّى بعهد دويلات الطوائف، أو عهد ملوك الطوائف.

الفصل الأول

ملــــوك الطوائــــف

كيف تكونت ممالك الطوائف:

استحالت الأندلس بعد أن كانت كتلة موحدة إلى أشلاء ممزقة ورقاع متناثرة، وولايات ومدن متباعدة متخاصمة، يُسيطر على كل منها حاكم سابق استطاع أن يحافظ على سلطته المحلية خلال الانهيار، أو متغلِّبٌ من الفتيان الصقالبة أو القادة ذوي السلطان السابق، أو زعيم أسرة محلي من ذوي الجاه والعصبية، وسيطر البربر من جانبهم على أراضي المثلث الإسباني الجنوبي، وما كان منه بيد الدولة الحمودية، وأنشئوا هنالك إمارات عدَّة، ما لبثت أن نزلت إلى ميدان الصراع العام، الذي شمل هذه المنطقة، وهكذا قامت على أنقاض الدولة الأندلسية الكبرى دول عديدة هي دول الطوائف، وذلك منذ أوائل الربع الأول من القرن الخامس حتى الفتح المرابطي، زهاء سبعين عامًا، قضتها جميعًا في سلسلة لا نهاية لها من المنازعات الصغيرة، والخصومات والحروب الأهلية، وكادت بتنابُذها وتفرُّقها ومنافساتها تمهِّد لسقوط الأندلس النهائي[1].

وقد ذكرنا -سابقًا- أن مساحة الأندلس تقسمت إلى اثنتين وعشرين دولة؛ فتفتَّت المسلمون في الأندلس تفتُّتًا لم يُعهد من قبل في تاريخهم، وفقدوا بذلك عنصرًا مهمًّا جدًّا من عناصر قوتهم وهو الوحدة، فكان الهبوط على أشدِّ ما يكون، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٢/ ٦٧٦، ٦٧٧.

عهد ملوك الطوائف:

في ذلك العهد قُسِّمَتْ فيه بلاد الأندلس إلى سبع مناطق رئيسة؛ هي كما يلي:

أولاً: بنو عَبَّاد: وهم ينتمون إلى العرب من بني لخم، وقد أخذوا منطقة إِشْبِيلِيَة.

ثانيًا: بنو زيري: وهم من البربر، وقد أخذوا منطقة غَرْنَاطَة، وكانت إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة في جنوب الأندلس.

ثالثًا: بنو جهور: وهم الذين كان منهم أبو الحزم بن جهور زعيم مجلس الشورى، وقد أخذوا منطقة قُرْطُبَة وسط الأندلس.

رابعًا: بنو الأفطس: وهم من البربر، استوطنوا غرب الأندلس، وأسسوا هناك إمارة بَطَلْيُوس[1] الواقعة في الثغر الأدنى.

خامسًا: بنو ذي النون: وهم من البربر، استوطنوا المنطقة الشمالية، التي فيها طُلَيْطِلَة وما فوقها (الثغر الأوسط).

سادسًا: بنو عامر: وهم أولاد بني عامر، الذين هم عرب معافريون من العرب اليمانية، استوطنوا شرق الأندلس، وكانت عاصمتهم بَلَنْسِيَة.

سابعًا: بنو هود: وهؤلاء أخذوا منطقة سَرَقُسْطَة (الثغر الأعلى)، تلك التي تقع في الشمال الشرقي.

وهكذا قُسِّمَتْ بلاد الأندلس إلى سبعة أقسام شبه متساوية، كل قسم يضمُّ إما عنصرًا من العناصر، أو قبيلة من البربر، أو قبيلة من العرب، بل إنَّ كل قسم أو

---

(١) بطليوس: مدينة كبيرة بالأندلس من أعمال ماردة على نهر آنة غربي قرطبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٤٤٧.

منطقة من هذه المناطق كانت مُقَسَّمة إلى تقسيمات أخرى داخلية، حتى وصل عدد الدويلات الإسلامية داخل أراضي الأندلس عامة إلى اثنتين وعشرين دويلة، وذلك رغم وجود ما يقرب من خمس وعشرين بالمائة من مساحة الأندلس في المناطق الشمالية في أيدي النصارى.

وفيما يلي ذكر لحال أشهر تلك الدويلات:

أولاً: بنو جهور في قرطبة:

قصة الدولة:

لما غادر يحيى بن علي الحمودي قُرْطُبَة بعد أن ترك حامية بربرية فيها -وذلك في المحرم من عام ٤١٧هـ متجهًا إلى مَالَقَة- ثار أهل قُرْطُبَة على الحامية البربرية، وقتلوا ألفًا منهم، واجتمع أمرهم على ردِّ الأمر إلى بني أمية، وكان عميدهم في ذلك الوزير أبا الحزم جهور بن محمد، الذي أرسل إلى أهل الثغور والمتغلِّبين هنالك على الأمور، وعرض عليهم الأمر فقبلوه، وأجمعوا على مبايعة هشام بن محمد بن عبد الملك بن الناصر لدين الله، وكان مقيمًا في منفاه بالبُونت[1] عند أبي عبد الله محمد بن عبد الله بن قاسم الفهري المتغلِّب بها، فبايعوه في شهر ربيع الأول سنة ٤١٨هـ، وتلَقَّب بالمعتدِّ بالله، وبقي على ذلك خليفة يُخطب له في قُرْطُبَة وهو في منفاه.

ثم عزم على القدوم إلى قُرْطُبَة عصبةِ المُلْكِ والخلافة، وذلك بعد سنتين من مبايعته، فقدمها في ذي الحجة ٤٢٠هـ، ولبث فيها سنتين حتى أساء السيرة، وتعرَّض وزراؤه لظلم الرعية، فثار أهل قُرْطُبَة عليه، فخلعوه وخرج هو وأهله وخدمه في ذي الحجة ٤٢٢هـ، واجتمع أهل قُرْطُبَة وأجمعوا أمرهم على إلغاء الخلافة الأموية، والتخلُّصِ نهائيًّا من بني أمية وإجلائهم خارج قُرْطُبَة، وكان

(١) حصن من حصون بلنسية.

عميدهم في ذلك الوزير أبا الحزم جهور بن محمد، وغدت قُرْطُبَة بلا خلافة ترفعها ولا خليفة يجمعها.. وانتهى عهد الخلافة الأموية في بلاد الأندلس إلى الأبد، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وبذلك انفرط عِقد الأندلس منذ تلك اللحظة؛ فالخلافة وإن كانت ضعيفة إلا أنها رمز لجمع الكلمة وتوحيد الصفِّ، إذا وَجَدَتْ مَنْ يحمل رسالتها الخالصة وأَخَذَهَا بِحَقِّها، ولكن تلك سُنَّة الله في بناء الدول وانحدارها، وما أشبه الليلة بالبارحة! فمنذ أن أُلغيت الخلافة العثمانية وحال المسلمين كما نرى: رقاع متناثرة، ودول متناحرة، لا يجمعهم إلا القومية والعصبية الجاهلية.

وبدأت أنظار القرطبيين تتجه صوب الوزير الحازم المعروف برأيه وحسن تدبيره وصلاح سيرته؛ ليتولى أمور قُرْطُبَة بعد طرد الأمويين والحموديين من قُرْطُبَة، وهكذا اختير الوزير أبي الحزم بن جهور رئيس الجماعة وكبير قُرْطُبَة، اختيارًا شرعيًّا شوريًّا؛ للاضطلاع بتلك المهمة الخطيرة، وذلك في منتصف ذي الحجة عام ٤٢٢هـ، ولبيان حال خلافة هشام المعتدِّ وعزله يقول ابن عذاري: افْتُتِحَتْ بيعته بإجماع وخُتِمَتْ بفُرْقَة، وعُقدت برضًا وحُلَّتْ بكراهية[(١)].

ومن هذا التاريخ بدأت دولة بني جهور بقُرْطُبَة.

الوزير أبو الحزم بن جهور:

ينتمي أبو الحزم بن جهور إلى بيت عريق من بيوت الشرف والوزارة في بلاد الأندلس منذ أن دخلها الأمير الأموي عبد الرحمن بن معاوية (الملقب بصقر

---

(١) انظر تفاصيل ذلك في ابن حزم: رسائل ابن حزم الأندلسي، ٢/ ٢٠٣، والحميدي: جذوة المقتبس، ١/ ٢٧، وابن بسام: الذخيرة، ٢/ ٦٠٢، وابن الأبار: الحلة السيراء، ٢/ ٣٠، ٣١، وابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ١٤٥-١٥٢، ١٨٥، ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص١٣٨، ١٣٩، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٢٠، ٢١.

قريش)، وظَلَّت في عقبهم إلى أن آلت إليه وفي ولده من بعده، فهو أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور بن عبيد الله بن أحمد بن محمد بن الغمر بن يحيى بن عبد الغافر بن يوسف بن بخت بن أبي عبدة الفارسي.

كان جدُّه يوسف بن بخت بن أبي عبدة من الفرس وهو مولى عبد الملك بن مروان، وكان قد دخل الأندلس مع طالعة بلج بن بشر، وكان من كبار موالي بني أمية في قُرْطُبَة قبل دخول عبد الرحمن بن معاوية إليها، ولما دخلها كان من أنصاره، وولي وزارته وحجابته، وكان ذا دين وفضل وخير، كما تولَّى القيادة والحجابة في عهد هشام الرضي بن عبد الرحمن بن معاوية، ومن بعده للحكم الربضي[1]، وظلَّت الوزارة في عقب يوسف بن بخت بن أبي عبدة الفارسي، فوليها حفيده عبد الملك بن جهور للأمير عبد الله بن محمد وأمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر[2]، وتولَّى ولده جهور بن عبد الملك الوزارة في عهد الناصر أيضًا[3]، كما وَلِيَ أبو الوليد محمد بن جهور بن عبد الملك الخزانة لعبد الرحمن الناصر[4]، وولي الوزارة في عهد المنصور بن أبي عامر، ثم تولَّى أبو الحزم جهور بن محمد بن جهور الكتابة لعبد الرحمن المنصور المعروف بشنجول، وهو آخر مَنْ تَوَلَّى الدولة العامرية.

وأبو الحزم جهور عاش الفتنة، وراقب الأحداث والتقلُّبات التي عانتها الخلافة في قُرْطُبَة، حتى آلت لعلي بن حمود الذي استوزره، ثم شهد ما حدث بين يحيى بن علي الحمودي وعمه القاسم بن حمود وتبادُل الخلافة بينهما، ثم خروج علي بن حمود من قُرْطُبَة إلى مَالَقَة على نحو ما ذكرنا، وكان هو زعيم الثورة القرطبية على

---

(١) انظر: الحميدي: جذوة المقتبس، ٥/ ١٨٨، وابن الأبار: الحلة السيراء، ٢/ ٣٠، وابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ١٨٥، ١٨٦، والمقري: نفح الطيب، ٣/ ٤٥.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس، ٧/ ٢٨٢، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٣٥٦.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٥٩.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، ٢/ ١٩٧.

بني حمود، ثم استقدامه هشام المعتدّ، ثم ثورة أهل قُرْطُبَة التي تزعَّمَها على هشام المعتد وطرده هو وبني أمية والمروانية كلهم من قُرْطُبَة، وبقيت قُرْطُبَة بلا حاكم أو خليفة، وهنا اتجهت أنظار أهل الرأي والمشورة في قُرْطُبَة إلى صاحب الزعامة الشعبية وحُسن التدابير في الوزارة والحكم، وكان هو أبو الحزم جهور بن محمد؛ فهو كبير الجماعة ورئيس مجلس الشورى وزعيم قُرْطُبَة، فأصبح هو رئيس الحكومة القرطبية بإجماع أهلها ورؤسائها وأهل الرأي فيها.

وللوزير الكاتب الفتح بن خاقان وصف عجيب، وبيانٌ جليل لقدر هذه العائلة ومنزلة أبي الحزم منهم في مقال فريد نذكره لحسن سجعه وجمال تعبيره، يقول فيه: «وبنو جَهْوَر أهل بيت وزارة، اشتهروا كاشتهار ابن هُبَيْرة في فَزارة، وأبو الحَزْم أمجدهم في المكرمات، وأنجدهم في الملمَّات، ركب مُتُون الفتون فَرَاضها، ووقع في بحور المِحَن فَخَاضها، مُنْبَسِطٌ غيرُ مُنْكمش، لا طائش اللِّسانِ ولا رَعِش، وقد كان وزر في الدولة العامرية فَشَرُفَتْ بجلاله، واعترفتْ باستقلاله، فلمَّا انقرضت وعاقت الفتنُ واعترضت، تخلَّى عن التدبير مُدَّتها، وخلَّى لخلافه تدبير الخلافة وشدَّتها، وجعل يُقْبِل مع أولئك الوزراء ويُدْبِر، وينهلُ الأمر معهم ويُدَبِّر، غير مُظْهِر للانفراد، ولا مقصِّر في ميدان ذلك الطِّرَاد، إلى أن بلغت الفتنة مداها، وسوَّغت ما شاءت رَدَاها، وذهب مَنْ كان يَخِدُ[1] في الرئاسة ويخبُّ[2]، ويسعى في الفتنة ويَدِبُّ، ولمَّا ارتفع ذلك الوبال، وأدبر ذلك الإقبال، راسَلَ أهلَ التقوى مستمدًّا بهم، ومعتمدًا على بعضهم؛ تحيُّلاً منه وتمويهًا، وتَدَاهِيًا على أهل الخلافة وذَويها، وعَرَضَ عليهم تقديم المعتدّ هشام، وأومض منه لأهل قُرْطُبَة برق

(١) وَخَد يَخِد: أسرع ووسَّع الخَطْو. ابن منظور: لسان العرب، مادة وخد، ٣/ ٤٥٣، والزبيدي: تاج العروس، ٩/ ٢٧٧، والمعجم الوسيط، ٢/ ١٠١٩.

(٢) الخَبَب: ضرب من العدو، أي الإسراع في المشي. ابن منظور: لسان العرب، مادة خبب، ١/ ٣٤١، والزبيدي: تاج العروس، ٢/ ٣٢٨.

خُلَّبٍ[١] يُشَام[٢]، بعد سرعة التياثها[٣]، وتعجيل انتكاثها، فأنابوا إلى الإجابة، وأجابوا إلى استرعائه الوزارة والحِجَابة، وتوجَّهوا مع ذلك الإمام، وألُّموا بقُرْطُبَة أحسنَ إلمام، فدخلوها بعد فتن كثيرة، واضطرابات مستثيرة، والبلد مُقْفِر، والجلد مُسْفِر، فلم يبقَ غيرُ يسير حتى جبذ واضطرب أمره فخُلِعَ، واخْتُطِفَ من المُلْكِ وانْتُزِعَ، وانقضت الدولة الأموية، وارتفعت الدولة العَلوية، واستولى على قُرْطُبَة عند ذلك أبو الحزم، ودبَّرها بالجِدِّ والعزم، وضبطها ضبطًا أَمَّنَ خائفها، ورفع طارق تلك الفتنة وطائفها، وخلا له الجوُّ فطار، واقتضى اللُّبَانَات[٤] والأوطار[٥]، فعادت له قُرْطُبَة إلى أكمل حالاتها، وانجلى به نوء استجلالاتها، ولم تزل به مشرقة، وغصون الأمل فيها مورقة إلى أن تُوُفِّيَ سنة ٤٣٥هـ»[٦].

ومن هنا وبعد أن انفرد أبو الحزم بن جهور بالحُكم بلا منازع ينازعه، ولا خليفة ينادي بالحكم دونه، ماذا عن سياسته في إدارة الأمور وتسيير البلاد؟

---

(١) البَرْقُ الخُلَّب: السحاب الذي يبرق ويرعد ولا مطر معه، ولا غيث فيه، كأنه خادع يومض حتى تطمع بمطره ثم يُخْلِفُك، ويقال لمن يَعِدُ ولا يُنْجز وعْدَه: إنما أنت كَبَرْق خُلَّب. الجوهري: الصحاح، باب الباء فصل الخاء ١/ ١٢٢، وابن منظور: لسان العرب، مادة خلب ١/ ٣٦٣، والمعجم الوسيط ١/ ٢٤٨.

(٢) شامَ السحاب والبرق شَيْمًا: نظر إليه أين يقصد وأين يُمْطر، وقيل: هو النظر إليهما من بعيد. الجوهري: الصحاح، باب الميم فصل الشين، ٥/ ١٩٦٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة شيم، ١٢/ ٣٢٩، والمعجم الوسيط، ١/ ٥٠٤.

(٣) الالتياث: الاختلاط والالتفاف والالتباس وصعوبة الأمر وشدته. الجوهري: الصحاح، باب الثاء فصل اللام، ١/ ٢٩١، وابن منظور: لسان العرب، مادة لوث، ٢/ ١٨٥، والزبيدي: تاج العروس، باب الثاء المثلثة، فصل اللام، ٥/ ٣٤٥، ٣٤٦.

(٤) اللُّبانات: الحاجات من غير فاقة، ولكن من هِمَّةٍ، فهو أخصُّ وأعلى من مطلق الحاجة، يقال: قضى فلان لبانته. ابن منظور: لسان العرب، مادة لبن، ١٣/ ٣٧٢، والزبيدي: تاج العروس، باب النون فصل اللام، ٣٦/ ٩٢، والمعجم الوسيط، ٢/ ٨١٤.

(٥) الأوطار جمع الوطر: وهو الحاجة لك فيها هَمٌّ وعِنايةٌ، فإذا بلغتها فقد قضيت وطرك وأربك. الزبيدي: تاج العروس، باب الراء فصل الواو، ١٤/ ٣٦٤.

(٦) الفتح بن خاقان الإشبيلي: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، ١/ ٣٤-٣٦.

حكومة أبي الحزم بن جهور:

تقف حكومة قُرْطُبَة في ذلك الوقت موقف الفريد والنادر بين ممالك الأندلس، التي تشعَّبت بها الطرق بعد إلغاء الخلافة الأموية؛ فالسياسة التي اتَّبعها أبو الحزم بن جهور بعد اختياره حاكمًا لقُرْطُبَة تنمُّ على بُعْدِ سياسته ودهائه؛ فهي حكومة من نوع خاصٍّ، فأبو الحزم بن جهور يحكم دولة على أنقاض الخلافة الأموية، تبسط سلطانها على رقعة متوسطة من الأندلس، تمتدُّ شمالاً حتى جبل الشارات (سييرا مورينا)، وشرقًا حتى منابع نهر الوادي الكبير، وغربًا حتى قرب إِسْتِجَة، وجنوبًا حتى حدود ولاية غَرْنَاطَة، وتشمل من المدن عدا قُرْطُبَة جَيَّان وأُبَّذَة وبَيَّاسَة والمدور وأَرْجُونَة وأندوجر[1].

وهو رجل خبر السياسة والدهاء بحُكم اشتغاله بالوزارة والكتابة وملازمة الخلفاء والمتسلِّطين على الخلافة، فعَرَّفته التجارِب أن التسلُّط والاستبداد طريق الزوال القريب، فابتكر نظامًا سياسيًّا شوريًّا، أقرب إلى النظام الديمقراطي في وقتنا الحاضر، فلم ينفرد بالسياسة ولا بتدبير الأمور، بل شكَّل مجلسًا شوريًّا وزاريًّا من الوزراء وأهل الرأي والمشورة والقيادة بقُرْطُبَة، وجعلهم أهل رأيه، لا يصدر عن رأي إلا بهم، ولا بسياسة إلا بتدبيرهم، وسمَّى نفسه (أمين الجماعة)، وكان إذا سُئِلَ قال: «ليس لي عطاء ولا منع، هو للجماعة وأنا أمينهم». وإذا رابه أمر أو عزم على تدبير، أحضرهم وشاورهم فيُسرعون إليه، فإذا علموا مراده فَوَّضُوا إليه بأمرهم؛ وإذا خُوطب بكتاب لا ينظر فيه إلا أن يكون باسم الوزراء، كما أنه اتبع سياسة أخرى كانت أشدَّ ذكاء ودهاء؛ فهو لم يُفارق رسم الوزارة، ولم ينتقل من دور الوزارة إلى قصور الخلفاء والأمراء، بل دَبَّرَها تدبيرًا لم يُسبق إليه، وجعل نفسه ممسكًا للموضع إلى أن يجيء مستحقٌّ يُتَّفق عليه، فيُسَلِّم إليه، ورتَّب البوابين

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٢١، ٢٢.

والحشم على أبواب تلك القصور على ما كانت عليه أيام الخلافة، ولم يتحوَّل عن داره إليها، وجعل ما يرتفع من الأموال السلطانية بأيدي رجال رَتَّبهم لذلك، وهو المشرف عليهم[1].

إضافة إلى هذا الدهاء السياسي الذي اتبعه أبو الحزم بن جهور فقد كان من أشدِّ الناس تواضعًا وعفَّة وصلاحًا، وأنقاهم ثوبًا، وأشبههم ظاهرًا بباطن، وأولاً بآخرَ، لم يختلف به حال من الفتاء إلى الكهولة، ولم يُعْثَر له قطُّ على حال يدلُّ على ريبة؛ جليسُ كتابٍ منذ درج، ونَجِيُّ نظرٍ منذ فهم، مشاهدًا للجماعة في مسجده، خليفة الأئمة متى تخلَّفُوا عنه، حافظًا لكتاب الله قائمًا به في سرِّه وجهره، متقنًا للتلاوة، متواضعًا في رفعته، مشاركًا لأهل بلده، يزور مرضاهم ويُشاهد جنائزهم[2].

فنظام الحُكم الذي اتَّبعه الوزير ابن جهور يدلُّ على بُعد نظره وحُسن سياسته وتدبيره، وقد عُرِفَتْ هذه الحكومة التي كوَّنها ابن جهور بحكومة الجماعة والشورى، والباعث الحقيقي لدى الوزير ابن جهور لتكوين ذلك النظام من الحُكم ربما يكون خفيًّا، فيمكن أن يكون الأمر ضربًا من الذكاء والدهاء السياسي، يجمع به كلمة الشعب حوله وأصحابَ الرأي فيه، يَتَّقي بهم منافسيه، ويكونون له عونًا يستند إليهم عند الحاجة، ويمكن أن نُرجعه إلى حُبِّه للشورى وإقامة العدل وجمع كلمة المسلمين، وخاصَّة بعد أن انفرط عقد الخلافة وبالتالي انفرط عقد الأندلس كلها.

وعلى كلٍّ فإنها كانت بلا ريب نموذجًا بديعًا من حُكم الشورى، أو حكم

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ١/ ٢٨، وابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٢، ٦٠٣، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٠، ٣١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٨٦، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٢، ٢٣، وطقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٤٣٣.

(٢) ابن حزم: رسائل ابن حزم ٢/ ٢٠٤، والحميدي: جذوة المقتبس ١/ ٢٩، وابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٣، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٨٦.

الأقلية الأرستقراطية في عصر سادت فيه نزعة الرئاسة الفردية والحُكم المطلق، وكان من أبرز مزاياها أن يستطيع الرئيس أن يتنصَّل من المسئولية، وأن يستظلَّ بلواء الجماعة إذا ما ساءت الأحوال، وأن يُحْرِزَ الثناءَ وجميل الذِّكْر إذا حسنت العواقب[1].

السياسة الداخلية:

تولَّى أبو الحزم جهور حكومة قُرْطُبَة والبلاد تعيش حالة توتر أمني؛ فالبلاد تعيش بلا خليفة يحكمها، أو خليفة يلتفُّ الناس حوله، فكانت البلاد مسرحًا للعابثين من محترفي النهب والسرقة، كما شهدت فسادًا اقتصاديًّا؛ حيث غلت الأسعار، وتدهورت التجارة، وعمَّ الاستغلال، وارتفعت الضرائب والمكوس، ونُهِبَت الأموال العامة من مختلسي أموال الدول، وعاشت كذلك تدهورًا علميًّا وفكريًّا فليست هناك حكومة تعتني بالعلماء والأدباء والشعراء، وتُنفق عليهم من الأموال ما هو كفيل بإبداعهم وتفوقهم، فكان النظام الجديد الذي ابتكره أبو الحزم بن جهور كفيلاً بأن يقف أمام هذه التحديات.

سلك الوزير ابن جهور مسلك الحاكم المصلح، باتخاذ إجراءات إصلاحية في البلاد؛ لعل أوَّلها القضاء على الانفلات الأمني وأحداث الشغب، التي قد تعصف بالبلاد، وأن يُوَطِّد دعائم الأمن والنظام، فعامل البربر الثائرين عليه بخفض الجناح والرفق في المعاملة، حتى حصل على سلمهم ومحبَّتهم، كما فَرَّق السلاح على البيوت والمحلات؛ حتى إذا دهم أمرٌ في ليلٍ أو نهارٍ كان سلاح كل واحد معه، كما جعل أهل الأسواق جندًا، وهذه السياسة كفيلة بأن تجعل البلاد بلد أمن وسلام، بل وأصبحت قُرْطُبَة ملجأ أمنٍ للفارِّين والمنفيين من الأمراء المخلوعين عن عروشهم،

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٢.

فقُرْطُبَة في أيامه حريًا يأمن فيه كل خائف من غيره[١].

كما عمل أبو الحزم ابن جهور على إصلاح الفساد الاقتصادي؛ فقضى على كل أنواع البذخ والترف، وعمل على حفظ الأموال العامة؛ وخاصة الأموال السلطانية من السرقة، فقد جعل عليها رجالاً يثق بقدرتهم وأمانتهم، وجعل نفسه مشرفًا عليهم[٢]، كما عمل على خفض الضرائب والمكوس، وعمل على تشجيع المعاملات التجارية؛ فوزَّع الأموال على التجار؛ لتكون بيدهم دَيْنًا عليهم، يستغلُّونها ويحصلون على ربحها فقط، وتُحْفَظ لديهم، ويُحَاسَبُون عليها من وقت لآخر، وكانت النتيجة أن عمَّ الرخاء قُرْطُبَة، وازدهرت الأسواق، وتحسَّنت الأسعار، وغلت الدور، وعاد النماء بعد الكساد[٣].

ونتيجةً لهذه السياسة الحكيمة التي اتبعها الوزير أبو الحزم بن جهور شهدت قُرْطُبَة ازدهارًا سياسيًّا واقتصاديًّا، كان دافعًا إلى إصلاح القضاء من ناحية؛ حيث عمَّ العدل بين الناس، وأَمِنَ الناس على حقوقهم، ومن ناحية أخرى عملت هذه السياسة على الازدهار الثقافي والفكري، وهذا الانقلاب الإيجابي الذي أحدثته حكومة ابن جهور أثارت دهشة مؤرِّخ الأندلس ابن حيان، وهو أحد من عاشوا وشاهدوا ذلك التحوُّل بقوله: «فعَجِبَ ذو التحصيل للَّذي أَوَى إليه في صلاح أحوال الناس من القوَّة ولما تعتدل حال، أو يهلك عدوٌّ، أو تَقْوَ جباية، وأمر الله تعالى بين الكاف والنون»[٤]. وابن حيان نفسه في موضع آخر يذكر أن ابن جهور لم يكن لينسى نفسه أمام هذا الرخاء، الذي نعمت به قُرْطُبَة في ظلِّ حكومته، فيقول:

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ١/ ٢٩، وابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٣، ٦٠٤، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٢، ٣٣، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٨٦، ١٨٧.

(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ١/ ٢٨، ٢٩، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٢.

(٣) الحميدي: جذوة المقتبس ١/ ٢٨، ٢٩، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٢، ٣٣، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٣.

(٤) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٨٧.

«ولم يخلُ مع ذلك من النظر لنفسه وترقيحه[١] لمعيشته، حتى تضاعف ثراؤه، وصار لا تقع عينه على أغنى منه، حاطَ ذلك كلَّهُ بالبخل الشديد والمنع الخالص، اللذين لولاهما ما وَجَدَ عائِبُه فيه طعنًا، ولكَمُلَ لو أن بشرًا يكمُل»[٢].

السياسة الخارجية:

موقفه من دعوة ظهور هشام المؤيد في إشبيلية:

كان للوزير ابن جهور موقفًا خاصًّا من دعوة القاضي أبي القاسم بن عباد متملِّك إِشْبِيلِيَة بظهور الخليفة هشام المؤيد في إِشْبِيلِيَة سنة (٤٢٦هـ=١٢٣٥م)[٣]؛ وذلك ليدحض دعوة يحيى بن علي الحمودي في الخلافة من ناحية، وليُكْسِبَ الشرعية السياسية لحُكم البلاد من ناحية أخرى، فبعد أن أخذ القاضي ابن عباد البيعة لهشام من أهل إِشْبِيلِيَة وأعيانها، بعث بالكُتب إلى أنحاء الأندلس لأخذ البيعة للخليفة الشرعي للبلاد، فلم يعترف به أحدٌ سوى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بَلَنْسِيَة، والمُوَفَّق العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية، وصاحب طُرْطُوشة[٤].

أما الوزير أبو الحزم بن جهور فإنه أرسل الرسل ليتبيَّن حقيقة الأمر، ولما ظهر له كذبها رفض هذا الادعاء؛ إلا أن أهل قُرْطُبَة مالت نفوسهم إلى الخليفة هشام المؤيد، وكادت تقوم ثورة ضدَّ ابن جهور، فزوَّر الشهادة؛ فَصَحَّت عنده الشهادة به، فبايعه وخطب له؛ بيد أن بيعته كانت لغرض الدنيا ودفع دعوى الحموديين في الخلافة، ومطامعهم في أملاكها على نحو ما أراد ابن عباد، غير أن ابن جهور تراجع عن طاعته، خاصة أن القاضي ابن عباد طلب منه أن يدخل في طاعته باسم الخليفة

(١) التَّرْقِيح: إصلاح المعيشة، وترقيح المال إصلاحه والقيام عليه. الجوهري: الصحاح، باب الحاء فصل الراء ١/ ٣٦٦، وابن منظور: لسان العرب، مادة رقح ٢/ ٤٥١.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٣، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٨٦.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٧-٢٠٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٣، ١٥٤.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٥.

هشام، فرفض ابن جهور وأعلن تَبَرُّؤَه من دعوته[١].

دعوته للسلام وفض المنازعات بين الأمراء:

كانت سياسة الوزير أبي الحزم بن جهور سببًا مباشرًا في إقرار السلام والأمان والازدهار في قُرْطُبَة؛ وهذا ما جعلها موضع ثقة ملوك الطوائف الأخرى في بلاد الأندلس، وكانت الهيبة ورجاحة العقل صفتين تميَّزَ بهما الوزير ابن جهور، وهذا ما جعله موضع الوسيط العدل لفضِّ المنازعات والخصومات بين الأمراء المتنازعين، فحين كاد الصراع أن يحتدم بين المعتضد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة والمظفر بن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس، حيث هاجم المعتضد بن عباد مدينة لَبْلَة الواقعة غربي إِشْبِيلِيَة، فاستغاث صاحبها ابن يحيى بالمظفر بن الأفطس لنجدته، فتحرَّك له، وأرسل جماعة من البربر لمهاجمة إِشْبِيلِيَة، وأرسل الوزير ابن جهور رسله ليُنْذرهم من رَحَى فتنةٍ تعصف ببلاد الأندلس، ويدعوهم إلى السلم وفضِّ النزاع، وهي السياسة نفسها التي اتبعها ابنه أبو الوليد محمد بن جهور بين المعتضد بن عباد والمظفر بن الأفطس كذلك، على نحو ما سنذكره في موضعه إن شاء الله.

وكان لهذا النصح المتكرِّر من الوزير جهور وابنه أبي الوليد محمد أَثَرٌ في إنقاذ الأندلس من فتنة هوجاء عاصفة[٢].

وفاة الوزير ابن جهور:

وهكذا عاشت قُرْطُبَة في ظلِّ حكومة الجماعة آمنة من الفتنة، فضلاً عن ذلك الازدهار الاقتصادي والأمن السياسي، وظلَّ الوزير ابن جهور حاكمًا لقُرْطُبَة حتى وافته المنية في صفر، وقيل: المحرم سنة ٤٣٥هـ. وقد أجمع أهل قُرْطُبَة على تقديم ابنه

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٣٣-٣٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٠٩-٢١٣.

أبي الوليد محمد بن جهور حاكمًا عليهم[1].

ويجدر بنا هنا أن نذكر قصيدة لابن حيان يرثي بها أبا الحزم بن جهور، ويمدح فيها أبا الوليد بن جهور يقول: [الطويل]

أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ ... وَأَنْ قَدْ كَفَانَا فَقْدَهَا الْقَمَرُ الْبَدْرُ

وَأَنَّ الْحَيَا إِنْ كَانَ أَقْلَعَ صَوْبُهُ ... فَقَدْ فَاضَ لِلآمَالِ فِي إِثْرِهِ الْبَحْرُ

إِسَاءَةُ دَهْرٍ أَحْسَنَ الْفِعْلَ بَعْدَهَا ... وَذَنْبُ زَمَانٍ جَاءَ يَتْبَعُهُ الْعُذْرُ

فَلا يَتَهَنَّ الْكَاشِحُونَ فَمَا دَجَا ... لَنَا اللَّيْلُ إِلاَّ رَيْثَمَا طَلَعَ الْفَجْرُ

وَإِنْ يَكُ وَلَّى جَهْوَرٌ فَمُحَمَّدٌ ... خَلِيفَتُهُ الْعَدْلُ الرِّضَا وَابْنُهُ الْبَرُّ

لَعَمْرِي لَنِعْمَ الْعِلْقُ[2] أَتْلَفَهُ ... فَبَانَ وَنِعْمَ الْعِلْقُ أَخْلَفَهُ الدَّهْرُ[3]

أبو الوليد محمد بن جهور:

قام أبو الوليد محمد بن جهور يقتفي خطى والده في سياسته، وأقرَّ لأول ولايته الحُكَّام وأُولي المراتب على ما كانوا عليه أيام أبيه، وأخذ بسياسة الحزم على نحو ما كان عليه أبوه، وأقرَّ الأمن والنظام[4].

وكان من محاسن دولته أن قرَّب إليه مؤرِّخ الأندلس أبا مروان بن حيان، وجعله من خاصَّته في ديوان السلطان، وفي ذلك يقول ابن حيان: «وكنتُ ممَّن جَادَتْهُ سماءُ الرئيس الفاضل أبي الوليد الثرَّة، وكَرُم فيَّ فعلُه ابتداءً من غير مسألة،

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٣، ، وابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق الدكتور شوقي ضيف ١/ ٥٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٨٧، ٢٣٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٨.

(٢) العِلْق: النفيس من كل شيء، لتَعَلُّق القلب به. الجوهري: الصحاح، باب القاف فصل العين ٤/ ١٥٣٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة علق ١٠/ ٢٦١، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٢٢.

(٣) ابن بسام: الذخيرة، ١/ ٣٩٢.

(٤) المصدر السابق، ٢/ ٦٠٥.

فأقْحَمَني في زمرة العصابة المُبَرِّزَة الخَصل، مع كلال الحدِّ وضعف الآلة؛ واهتدى لمكان خِلَّتي، وقد ارتشف الدهرُ بُلالتي[(١)]، بأن قلَّدني إملاءَ الذِّكْر في ديوان السلطان المطابق لصناعتي، اللائِّق بتحرُّفي، براتب واسع، لولا ما أخذ عليَّ كَتْم ما أسداه لجهدتُ في وصفه، وإلى الله تعالى أفزع في إجمال المكافأة عني برحمته»[(٢)]. ومن محاسنه كذلك أن قرَّب إليه شاعر الأندلس الكبير أبا الوليد بن زيدون، وجعله وزيره، وقَدَّمه إلى النظر على أهل الذمَّة لبعض الأمور المعترضة، وجعله لسان دولته وسفيرًا له إلى أمراء الممالك الأندلسية، وظلَّ كذلك إلى أن سخط عليه فأودعه السجن، ثم فرَّ ابن زيدون إلى دولة المعتضد بن عباد بإِشْبِيلِيَة وأصبح وزيره الأول[(٣)].

الفتنة القاضية:

بقيت الأمور على ما هي عليه من الاستقرار والأمان حينًا، ويبدو أن أبا الوليد محمد بن جهور أتعبته السياسة وأثقلت كاهله، وكان له ولدان، عبد الرحمن أكبرهما، وعبد الملك أصغرهما، ولكن عبد الملك تميَّز عن أخيه بشهامته، فلما عزم أبو الوليد على ترك السياسة وأمورها عقد الأمر لابنه عبد الملك الأصغر، وأنشد يقول: [الكامل]

وَإِذَا الْفَتَى فَقَدَ الشَّبَابَ سَمَا لَهُ ... حُبُّ الْبَنِينِ وَلا كَحُبِّ الأَصْغَرِ

وقد نصحه بعض خواصِّه بتقديم عبد الرحمن، إلا أنه أصرَّ على تقديم عبد الملك، وقدَّمه للناس، وطلب منهم البيعة له، فظَلَمَ وأساء السيرة، واستبدَّ بالسلطة

(١) البُلالة: الإساءة والعيب. الجوهري: الصحاح، باب اللام فصل الباء ٤/ ١٦٤٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة بلل ١١/ ٦٣.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٥.
(٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ١/ ٦٣، ٦٤، وابن بسام: الذخيرة، ١/ ٣٣٧، ٣٣٨.

من دون الجماعة، واستباح أموال المسلمين، وسلَّط عليهم أهل الفساد، وأهمل الأمور الشرعية، وشرع في المعاصي والفسوق، وعمَّ الخوف محلَّ الأمان، وتعاظمت قوَّته بتجبُّره، وتسمَّى بذي السيادتين (المنصور بالله الظافر بفضل الله)، وخُطب له على المنابر، فخالف سيرة أبيه وجدِّه، وفي سنة ٤٤٠هـ عَهِد عبد الملك بأمور الحُكم إلى وزير أبيه أبي الحسن إبراهيم بن يحيى المعروف بابن السقَّاء، فضبط الأمن وأعاد النظام، وساد العدل بين الناس، وكان المعتضد بن عباد يُراقب الأمور عن كثب؛ ينتظر الفرصة السانحة للانقضاض على قُرْطُبَة، فلما وجد ما حَلَّتْ به تحت يَدَيْ ذلك الوزير القوي ابن السقاء، ورأى أن ذلك يحُول بينه وبين حلمه في امتلاك قُرْطُبَة؛ عَمِلَ على الوقيعة بين عبد الملك بن جهور وبين وزير أبيه ابن السقاء، فدسَّ إلى عبد الملك مَنْ جَسَّره[1] على الفتك بابن السقاء، وحذره من طمعه واستئثاره بالسلطة دونه، وإلى ابن السقاء مَنْ ألقى في روعه حُبَّ المُلْكِ، وكان عبد الملك ضعيفَ العقل سيِّئ الرأي، فقتل وزيره في كمين دبَّره له سنة (٤٥٥هـ= ١٠٦٣م)[2].

وبعد أن قُتل الوزير ابن السقاء انفرد عبد الملك بالسلطة لنفسه، فتجبَّر وأساء، فلما وجد أخوه الأكبر عبد الرحمن ذلك طمع في السلطة، وزعم أنه أحقُّ بالولاية من أخيه، فطفقا يستميلُ كلٌّ منهما طائفةً من الجند، ويتقرَّب للرعية، وبدأت بوادر الفوضى تعمُّ قُرْطُبَة، فلما وجد أبو الوليد بن جهور ذلك خاف سوء العاقبة عليه وعلى ولديه، فعمد إلى تقسيم السلطة عليهما وذلك سنة (٤٥٦هـ=١٠٦٤م)؛ فجعل إلى أكبرهما عبد الرحمن النظر في أمر الجباية، والإشراف على أهل الخدمة ومشاهدتهم في مكان مجتمعهم، والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمِّنة للحلِّ

(١) يُجسِّره: يُشَجِّعه ويجعله يتطاول ويتجرَّأ. الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الجيم ٢/ ٦١٣، ٦١٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة جسر ٤/ ١٣٦، والمعجم الوسيط ١/ ١٢٢.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٨، ٦٠٩، ٧/ ٢٤١-٢٤٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٥١.

والعقد، وجميع أبواب النفقات، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند، والإشراف على أعطياتهم، وتجريدهم في البعوث، والتقوية لأولادهم وجميع ما يخصهم، ورضيا الأخوان بذلك، إلا أن عبد الملك تغلب على أخيه فسجنه وحكم عليه بالإقامة الجبرية في بيته، واستبدَّ بالأمر دونه، وأطلق العِنان وتسلَّط هو والسوقة من رعيته بين الناس بالأذى، فما كان من أهل قُرْطُبَة إلا أن انصرفوا عن بني جهور[١].

كانت هذه السياسة -التي اتبعها عبد الملك بن جهور في قُرْطُبَة- كفيلة بإسقاط حكمه، خاصَّة وأن حاشيته عاثت في الأرض فسادًا ونهبًا وسرقة؛ مما أثار أهل قُرْطُبَة، وبدأت مظاهر الانحلال السابقة للسقوط الأزلي لدولة بني جهور في قُرْطُبَة، خاصة وأن قُرْطُبَة محلُّ أنظار الممالك المجاورة لها؛ سواء بني عباد في إِشْبِيلِيَة، أو بني ذي النون في طُلَيْطِلَة، وعقب الاضطرابات التي شهدتها قُرْطُبَة عام ٤٦٢هـ أغار صاحب طُلَيْطِلَة المأمون يحيى بن ذي النون على قُرْطُبَة، فاستغاث عبد الملك بن جهور بالمعتمد بن عباد[٢]، وكانت تلك الاستغاثةَ الأخيرة من بني جهور، والتي أعقبها سقوط حُكمهم إلى الأبد في قُرْطُبَة على نحو ما سنذكره في موضعه، إن شاء الله.

علماء في بلاط قرطبة:

شكَّلت النهضة العلمية والأدبية -التي تمتَّعت بها الأندلس في فترة الطوائف- بُعْدًا حضاريًّا على الرغم من الفوضى السياسية الصارخة، التي عمت الأرجاء الأندلسية زهاء قرن من الزمان؛ لذلك ما فتئت كلُّ مملكة من ممالك الطوائف أن جعلت لها حاضرة تستقطب بها العلماء والفقهاء في شتَّى جوانب العلوم النظرية والتجريبية.

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٦، ٦٠٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٥٨، ٢٥٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٩-٦١١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٦٠، ٢٦١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩-١٥٢.

وكانت قُرْطُبَة عاصمة الخلافة المنصرمة تُمَثِّل حاضرة العلوم، ليس في الأندلس فحسب، بل في العالم كله، وكانت مكتبتها شعلةَ علمٍ، تأتي إليها البعثات الغربية لتستضيء بنورها من ظلمات الجهل الذي غرقت فيها أوربا قرونًا من الزمان.

وقد نبغ في قُرْطُبَة العديد من الشعراء والعلماء في شتَّى فروع المعرفة، وكان لهم بلا شكٍّ دور بارز في تسيير أمور المملكة سياسيًّا وعلميًّا في آن واحد؛ ويقف على رأس هؤلاء العلماء الإمام المؤرخ الفقيه الفيلسوف ابن حزم الأندلسي، وقاضي قضاة الأندلس يونس بن عبد الله بن مغيث، ومؤرخ الأندلس الأوحد أبو مروان بن حيان، وتلميذه أبو عبد الله الحميدي، وغيرهم كثير، وسوف نقف على بعض لمحات من حياة بعضهم.

١- ابن حزم الأندلسي (٣٨٤-٤٥٦هـ=٩٩٤-١٠٦٤م):

الإمام الكبير أبو محمد علي بن أحمد بن سعيد بن حزم الفارسي الأصل، ثم الأندلسي القُرْطُبِيُّ اليَزِيدِيُّ، مولى الأمير يزيد بن أبي سفيان بن حرب، الأموي الظَّاهِرِيُّ، وكان جدُّه خلف بن مَعْدَانَ هو أول من دخل الأندلس في صحابة عبد الرحمن الداخل، وُلِدَ في قُرْطُبَة، وتعلَّم فيها وتربَّى على شيوخها، وتَفَقَّهَ أَوَّلاً للشافعي، ثُمَّ أَدَّاهُ اجْتِهَاده إلى القول بنفي القياس كُلِّه جَلِيِّه وَخَفِيِّه، والأَخْذ بظاهر النصِّ وعمومِ الكتاب والحديث، كان مفسِّرًا محدِّثًا، فقيهًا مؤرِّخًا، شاعرًا مربِّيًا، عالمًا بالأديان والمذاهب؛ لذلك يُعَدُّ رحمه الله من أكبر علماء الإسلام فقهًا وعلمًا وتصنيفًا.

كان ابن حزم الأندلسي سياسيًّا بارعًا، ووزيرًا ماهرًا، وكان بيته بيت وزارة؛ إذ وزر أبوه للمنصور بن أبي عامر، وقد عاش ابن حزم أمور الفتنة في قُرْطُبَة، وناصر المرتضى الأموي على الحموديين، ولكنه أُسِرَ وكان ذلك في منتصف سنة ٤٠٩هـ، ثم أُطلق

سراحه من الأسر، فعاد إلى قُرْطُبَة، ثم ولي الوزارة للمستظهر ثم قُتل المستظهر وسُجِنَ ابن حزم، ثم عُفِي عنه، ثم تولَّى الوزارة أيام هشام المعتد فيما بين (٤١٨هـ-٤٢٢هـ)، وقد عاصر ابن حزم ملوك الطوائف وهي في أوج اختلافها، وكان يحمل عليهم ويُؤَلِّب الفقهاء ضدَّهم، ومن ثَمَّ أُحْرِقَت كُتبه في إِشْبِيلِيَة بأمر من المعتضد بن عباد.

ونظرًا لجهوده العلمية والسياسية فقد نال ثناء العلماء، الذين عرفوا شمائله وعلوَّ همته؛ قال الأمير أبو نصر بن ماكولا: كان فاضلاً في الفقه حافظًا في الحديث، مصنِّفًا فيه، وله اختيار في الفقه على طريقة الحديث، روى عن جماعة من الأندلسيين كثيرة، وله شعر ورسائل[1].

وقال الحميدي: كان حافظًا عالمًا بعلوم الحديث وفقهه، ومستنبطًا للأحكام من الكتاب والسُّنَّة، متفننًا في علوم جمَّة، عاملاً بعلمهن، زاهدًا في الدنيا بعد الرئاسة التي كانت له ولأبيه من قبله من الوزارة وتدبير الممالك، متواضعًا ذا فضائل جمَّة[2].

وقال الحافظ الذهبي: ابن حزم الأوحد البحر، ذو الفنون والمعارف. وله رحمه الله العديد من التصانيف، أشهرها: طوق الحمامة، والمحلى في الفقه، والفصل في الملل والأهواء والنحل، والناسخ والمنسوخ، وله أيضًا: رسالة في الطب النبوي، وكتاب حدِّ الطب، وكتاب اختصار كلام جالينوس في الأمراض الحادَّة، وكتاب في الأدوية المفردة.

بيد أن آراء ابن حزم في ملوك الطوائف جعلته موضع اضطهاد ومطاردة منهم، وظلَّ حاله معهم من بلد إلى بلد حتى استقرَّ به المقام في لَبْلَة حيث أصله الأول، وبها مات[3].

---

(١) ابن ماكولا: الإكمال ٢/ ٤٥١.
(٢) الحميدي: جذوة المقتبس ٨/ ٣٠٨.
(٣) انظر ترجمته في: الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٨٤-٢١٢.

٢- أبو مروان ابن حيان (٣٧٧-٤٦٩هـ=٩٨٧-١٠٧٦م):

الإمام الإخباري المؤرخ، أبو مروان حيان بن خلف بن حسين بن حيان القرطبي الأموي بالولاء، وقد كان أبوه وزيرًا للمنصور بن أبي عامر، وقد عاصر ابنُ حيان أحداث الأندلس في فترة الطوائف، فكان أبلغ من كتب فيها، كما كان ابن حيان وزيرًا للوليد بن جهور في قُرْطُبَة، ومِنْ خاصَّته، وقد عايش ابن حيان سقوط دولتهم، كما كان بارعًا في الآداب، وهو صاحب لواء التاريخ بالأندلس، وأفصح الناس فيه، كان لا يتعمَّد كذبًا فيما يحكيه من القصص والأخبار، من كُتبه: المقتبس في تاريخ الأندلس، والمتين في تاريخ الأندلس أيضًا[١].

ثانيًا: بنو عباد في إشبيلية:

تُعَدُّ مملكة إِشْبِيلِيَة أهمَّ دول الطوائف كلها، وأعظمها شأنًا وأقواها عدَّة وشكيمة، فمع تفوُّقها العسكري والسياسي وموقعها الجغرافي، فقد علا فيها شأن العلم والعلماء، والأدب والأدباء؛ وهذا ما جعل ملوكها أشهر الملوك، وشعراءها أفحم الشعراء.

وإذا كنا سنتحدَّث عن مملكة إِشْبِيلِيَة فيجدر بنا أن نتحدث عن بني عبَّاد الذين صنعوا من إِشْبِيلِيَة مملكة تَفَوَّقت على دول الطوائف الأندلسية، واستطاعت التغلُّب على قُرْطُبَة، وأسقطوا حكم الحموديين فيها، وعلا كعبهم[٢] في بلاد الأندلس حتى خطب ودَّهم أمراؤها وأعيانها.

النسب والانتماء:

بنو عباد من العرب الداخلين إلى الأندلس، وهم ينتمون إلى لخم، وكان قد

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ٣٧٠-٣٧٢.

(٢) علا كعبهم؛ أي: ازدادوا علوًّا وشرفًا وظَفَرًا وحظًّا. ابن منظور: لسان العرب، مادة كعب ١/ ٧١٧، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٩٠.

دخل رهط من اللخميين بلاد الأندلس، كان منهم عطاف بن نُعيم وهو جدُّ العباديين، دخل الأندلس مع طالعة بلج بن بشر القشيري، وهو لخمي النسب صريحًا، وأصله من عرب حمص بأرض الشام، ولما دخل الأندلس نزل بقرية قرب إِشْبِيلِيَة، وقد تناسل ولده بها مدَّة من الزمان، ثم انتقلوا إلى حمص (وهي إِشْبِيلِيَة)، وكان جند الشام يسمون إِشْبِيلِيَة حمص؛ لقوة الشبه بينها وبين حمص الشام، من حيث الطبيعة والإقليم[1].

وبنو عباد قيل: إنهم ينتمون إلى النعمان بن المنذر بن ماء السماء. فهم لخميون أصليون، وكانوا بنسبهم يفتخرون على غيرهم، ويمتدحهم بذلك شعراؤهم، وفي ذلك يقول شاعرهم ابن اللبانة: [الخفيف]

مِنْ بَنِي الْمُنْذِرِينَ وَهْوَ انْتِسَابٌ ... زَادَ فِي فَخْرِهِ بَنُو عَبَّادِ[2]

فِتْيَةٌ لَمْ تَلِدْ سِوَاهَا الْمَعَالِي ... وَالْمَعَالِي قَلِيلَةُ الأَوْلادِ[3]

وكانت لأسرة بني عباد مكانة وحظوة لدى خلفاء وأمراء بني أمية؛ خاصة الحكم المستنصر، وابنه هشام المؤيد، وحاجبه المنصور محمد بن أبي عامر، فكانت فيهم الإمامة والخطابة والقضاء[4].

وخير مَنْ أجاد وأبلغ في وصفهم وبيان حالهم الوزير الكاتب الفتح بن خاقان الإشبيلي في قوله: هذه بقيةٌ منتماها في لَخْم، ومرتماها إلى مَفْخَرٍ ضَخْم، وجَدُّهم

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء، ٢/ ٣٤، ٣٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٢، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٣-٣٣.

(٢) في حاشية الحلة السيراء كتب ما يلي: في الأصل:

من بني المنذر بن ماء السماء ... وهو انتساب زاد في فخره بنو عباد

وهو واضح الانكسار، وقد صوبه دوزي على هذا النحو، وهو صحيح.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء، ٢/ ٣٥.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٣، ١٩٤، ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٢.

المنذر بن ماء السماء، ومَطْلعهم من جوِّ تلك السماء، وبنو عباد ملوك أَنِسَ بهم الدهر، وتنفَّس منهم عن أَعْبَق الزهر، وعمَرُوا ربع المُلْك، وأمروا بالحياة والهلك، ومُعْتَضِدُهم أحد من أقام وأَقْعَد، وتبوَّأ كاهلَ الإرهاب واقْتَعد(١)، وافترش من عِرِّيسته(٢)، وافترس من مكائد فريسته، وزاحم بِعَوْد(٣)، وهَزَّ كُلَّ طَوْد، وأخْمَلَ كل ذي زيٍّ وشارة وخَتَل بوحي وإشارة، ومعتمدهم كان أجود الأملاك، وأحد نيِّرات تلك الأفلاك»(٤).

القاضي ذو الوزارتين أبو الوليد إسماعيل بن عباد:

وقد سطع نجم بني عباد في إِشْبِيلِيَة منذ سقوط حكم العامريين واعتلال الخلافة الأموية ثم سقوطها، وذلك أواخر القرن الرابع وأوائل القرن الخامس الهجريين، ونتج عن ذلك توالي الفتن وكثرة الانقلابات، وقد تألَّق نجم بني عباد في أعقاب الفتنة، على يد جدهم أبي الوليد إسماعيل بن عباد، وقد استطاع بحكمة ودهاء أن يجمع خيوط السياسة في يده، ويجمع حوله أعيان ورؤساء إِشْبِيلِيَة؛ لمكانته في نفوس أهلها، فقد ولي الشرطة لهشام المؤيد، ثم ولي الإمامة والخطابة بالجامع الأعظم، كما ولاَّه المنصور بن أبي عامر قضاء إِشْبِيلِيَة، وظلَّ بها يرقب الأحداث على كثب، ويعمل ليوم ينفرد فيه بالسلطة لنفسه وولده من بعده كما انفرد غيره بممالكهم، ويستأثر بحُكم مدينة من أعظم مدن الأندلس(٥).

---

(١) اقتعد: ركب واتخذها قعودًا له. الجوهري: الصحاح، باب الدال فصل القاف ٢/ ٥٢٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة قعد ٣/ ٣٥٧، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٤٨.

(٢) العِرِّيسة: الشجر الملتف يكون مأوى للأسد. الجوهري: الصحاح، باب السين فصل العين ٣/ ٩٤٨، وابن منظور: لسان العرب، مادة عرس ٦/ ١٣٤، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٩٢.

(٣) العَوْدُ: الجمل المُسِنُّ وفيه بقية، وفي المثل: زاحِمْ بعَوْد أو دَعْ. أي: استعن على حربك بأهل السنِّ والمعرفة؛ فإنَّ رأي الشيخ خير من مَشْهَدِ الغلام. الجوهري: الصحاح، باب الدال فصل العين ٢/ ٥١٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة عود ٣/ ٣١٥، وانظر: أبو الفضل أحمد بن محمد الميداني: مجمع الأمثال ١/ ٣٢٠.

(٤) الفتح بن خاقان الإشبيلي: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس ١/ ٢٢، ٢٣.

(٥) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٤.

كان أبو الوليد إسماعيل بن عباد عميد الأسرة وكبيرها؛ وكان يتمتَّع بصفات الزعامة ومؤهلات القيادة، فكان يُنفق مِنْ ماله وآوى كثيرين ممن فروا من قُرْطُبَة عند احتدام الفتنة، وكان معلومًا بوفور العقل وسبوغ العلم والدهاء وبُعد النظر[1]، واستطاع أن يحمي مدينة إِشْبِيلِيَة من سطوة البرابرة النازلين حولها «بالتدبير الصحيح، والرأي الرجيح، والنظر في الأمور السلطانية»[2].

وهكذا استتبَّ الأمر في يد القاضي ذي الوزارتين إسماعيل بن عباد، ثم لما مرض ندب الأمر من بعده لابنه أبي القاسم محمد ليشغل القضاء، واقتصر هو على تدبير الرأي في إِشْبِيلِيَة، وظلَّ كذلك إلى أن أتاه أجله سنة ٤١٤هـ[3].

القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد:

هو المؤسس الفعلي لدولة بني عباد، أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن محمد بن إسماعيل بن قريش بن عباد بن عمرو بن أسلم بن عمرو بن عطاف[4].

كان سلطان الحموديين في ذلك الوقت يتردَّد بين قُرْطُبَة وإِشْبِيلِيَة، فلما قُتل علي بن حمود في أواخر سنة ٤٠٨هـ تولَّى الخلافة من بعده أخوه القاسم بن حمود، وبعد سلسلة من الصراعات الداخلية على السلطة بين القاسم بن حمود وابن أخيه يحيى بن علي، ترك القاسم بن حمود قُرْطُبَة وقصد إِشْبِيلِيَة سنة ٤١٢هـ، وهناك بُويع له وتلقَّب بالمستعلي، ثم عاد ثانية إلى قُرْطُبَة في ذي الحجة سنة ٤١٣هـ، وجُدِّدَتْ له البيعة. وكان القاسم بن حمود وهو في إِشْبِيلِيَة قد قَدَّم القاضي ابن عباد على قضاء إِشْبِيلِيَة[5]، وكان القاضي

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء، ٢/ ٣٥، ٣٦.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٢.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٢.
(٤) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٣.
(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٣.

ابن عباد يشعر من جانبه أن استمرار سلطان الحموديين يُهدِّد رئاستهم ويُنذر بالقضاء عليها، فلمَّا استدعى المستعلي ليتولى الخلافة ثانية في قُرْطُبَة، اجتمع رأي أهل إِشْبِيلِيَة على ثلاثة من الزعماء؛ هم: القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل، والفقيه أبو عبد الله الزبيدي، والوزير أبو محمد عبد الله ابن مريم، فكانوا يحكمون في النهار بالقصر، وتنفذ الكتب تحت أختامهم الثلاثة، إلا أن القاضي ابن عباد استطاع أن ينفرد بالسلطة لنفسه.

ثم حدث أن ثار أهل قُرْطُبَة على القاسم بن حمود ففرَّ إلى إِشْبِيلِيَة وطلب فتح أبوابها له، إلا أن زعماء المدينة وعلى رأسهم القاضي أبو القاسم ابن عباد اتفقوا على إغلاق أبوابها، وأخرجوا وَلَدَ القاسم المستعلي ومَنْ فيها من أهله، واتَّفق أهل إِشْبِيلِيَة اتِّقاء عدوان القاسم المستعلي على أن يُؤَدُّوا له قدرًا من المال وينصرف عنهم، وتكون له الخطبة والدعوة ولا يدخل بلدهم، ولكن يُقَدِّم عليهم مَنْ يحكمهم ويفصل بينهم، فقدَّم عليهم القاضي ابن عباد، وبذلك انفرد ابن عباد بإِشْبِيلِيَة، وأصبحت رئاسته عليها شرعية وفعلية[1].

وبعد أن أصبحت إِشْبِيلِيَة ولاية شرعية للقاضي أبي القاسم بن عباد؛ فهو قاضيها وحاكمها معًا، راح يسعى لتوطيد حُكمه وتوسيعه، وهذا لا يكون إلا بحاشية مخلصة له وبجنود يتفانون في خدمته والدفاع عنه؛ فأكثر من شراء الرجال الأحرار والعبيد، واقتناء أنواع السلاح والعُدَّة والعتاد، إلى أن ساوى ملوك الطوائف، وزاد على أكثرهم بكثافة سلطانه وقوة جيشه وعتاده، ولم يكن القاضي ابن عباد على غفلة من تدبير الحموديين والبرابرة ضدَّه؛ فهو يعلم تربُّصهم به، وطموحهم في امتلاك إِشْبِيلِيَة ثانية، كما أن طموح القاضي أبي القاسم بن عباد لم

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ١/ ٢٤-٣٢، وابن بسام: الذخيرة ١/ ٤٨١-٤٨٥، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٥، ١٩٦، ٣١٤، ٣١٥، ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٣٣، ١٥٣، والمقري: نفح الطيب ١/ ٤٣٢، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٣، ٣٤.

تكن على حدود إِشْبِيلِيَة فقط؛ بل اتجه للتوسُّع خارج حدود مملكته ناحية الغرب؛ للارتباط الإقليمي بين إِشْبِيلِيَة وغرب الأندلس، إضافة إلى خلوِّها من المنافسين الأقوياء[١].

وكان من أشهر أعمال القاضي أبي القاسم بن عباد أثناء ولايته إعلانه ظهور الخليفة هشام المؤيد، وتجديد البيعة له خليفة بإِشْبِيلِيَة، وأنه قد عثر عليه حيًّا وذلك سنة (٤٢٦هـ=١٠٣٥م)، ولم تكن هذه الخطوة التي خطاها القاضي ابن عباد عبثًا؛ فهو كان يرمي من ناحية إلى دحض دعوى الحموديين بالخلافة؛ وذلك بظهور الخليفة الشرعي، ومن ناحية أخرى يُريد أن يُضفي الشرعية على حُكمه وتدبيره وتوسعاته خارج حدود إِشْبِيلِيَة؛ فهو يتوسَّع بأمر الخليفة الشرعي للأندلس كلها.

وقصة هشام المؤيد هذا يكتنفها الغموض، وتضاربت الروايات في شأنه واختلفت في تحديد مصيره، والروايات الأندلسية يظهر منها أن القاضي ابن عباد أظهر شخصًا زعم أنه هشام المؤيد، وتُظهر الروايات أن هذا الرجل يُشبه هشامًا المؤيد شبهًا كبيرًا، وأنَّ هذا الدعيَّ كان اسمه خلف الحصري، وتذكر الروايات أن هشامًا المؤيد لما فرَّ من الفتنة كتم أمره، واستقرَّ بقرية من قرى إِشْبِيلِيَة، وعمل مؤذِّنًا بأحد مساجدها، ولما وصل أمره إلى القاضي ابن عباد جمع ولده وخاصَّته وخدمه وعبيده، وقَبَّلُوا الأرض بين يديه، وألبسوه لباس الخلافة، وخُوطب بالخلافة، وبايعه الناس، ونودي في المدينة: يا أهل إِشْبِيلِيَة؛ اشكروا الله على ما أنعم به عليكم؛ فهذا مولاكم أمير المؤمنين هشام قد صرفه الله عليكم، وجعل الخلافة ببلدكم؛ لمكانه فيكم، ونقلها من قُرْطُبَة إليكم، فاشكروا الله على ذلك[٢].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ١٥، ١٦، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٧، ٣٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٦، ١٩٧، ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٣، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٥.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٧-٢٠٠، ولسان الدين ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٤.

وبعد أن أخذ القاضي ابن عباد البيعة لهشام بإِشْبِيلِيَة بعث بالكُتب إلى أنحاء الأندلس لأخذ البيعة للخليفة الشرعي للبلاد، فلم يعترف به أحدٌ سوى الوزير أبي الحزم بن جهور، مع علمه بكذب دعوى ابن عباد، ولكن بيعته كانت لغرض الدنيا ودفع دعوى الحموديين في الخلافة ومطامعهم في أملاكها على نحو ما ذكرنا سابقًا[1].

وبهذا قامت دولة بني عباد بإِشْبِيلِيَة، والذي يُعَدُّ القاضي أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد هو المؤسس الحقيقي لها، والتي كان لها شأن كبير بين ملوك الطوائف في الأندلس، وقد عظم مُلْك ابن عباد وقويت شوكته إلى أن تُوُفِّيَ سنة (٤٣٣هـ=١٠٤٢م).

وللقاضي ابن عباد مقطوعة شعرية تشير إلى رغبة قديمة في الحكم، تقول: [الطويل]

وَلا بُدَّ يَوْمًا أَنْ أَسُودَ عَلَى الْوَرَى ... وَلَوْ رُدَّ عَمْرٌو للزَّمَانِ وَعَامِرُ

فَمَا الْمَجْدُ إِلاَّ فِي ضُلُوعِيَ كَامِنٌ ... وَلا الْجُودُ إِلاَّ مِنْ يَمِينِيَ ثَائِرُ

فَجَيْشُ الْعُلا مَا بَيْنَ جَنْبِيَ جَائِلٌ ... وَبَحْرُ النَّدَى مَا بَيْنَ كَفِّيَ زَاخِرُ[2]

المعتضد بالله ابن عباد:

عندما تُوُفِّيَ القاضي أبو القاسم ولي من بعده ابنه أبو عمرو عباد بن محمد، وتلقَّب أوَّلاً بفخر الدولة، ثم تلقَّب بالمعتضد بالله، وقد تميَّز المعتضد هذا بذكائه السياسي وتفوُّقه العسكري، ولَمَّا مَلَكَ إِشْبِيلِيَة وأعمالها جرى على سنن أبيه في إيثار الإصلاح وحُسْنِ التدبير وبسط العدل، وظلَّ على ذلك مدَّة يسيرة، ثم بدَا له أن

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٨-٢٠١.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٨.

يستبدَّ بالأمور وحده، وكان شخصية قوية، كان صارمًا قاسي القلب، ذكيًّا داهية سريع البديهة[١]، حتى قال عنه المؤرخ ابن بسام: «رجل لم يثبتْ له قائمٌ ولا حصيدٌ، ولا سَلِمَ عليه قريبٌ ولا بعيدٌ، جبَّارٌ أَبْرَمَ الأمور وهو متناقض، وأسدٌ فَرَسَ الطُّلَى[٢] وهو رابض، متهوِّر تتحاماه[٣] الدهاة، وجبَّارٌ لا تَأمَنُه الكماة[٤]، متعسِّف[٥] اهتدى، ومُنْبَتٌّ قطع فما أبقى، ثار والناسُ حربٌ، وكلُّ شيءٍ عليه إِلْب[٦]، فكفى أقرانَهُ وهم غيرُ واحد، وضبَط شانَه بين قائم وقاعد، حتى طالت يدُه، واتَّسع بلدُه، وكثر عديدُه وعُدَدُه... جبَّارًا من جبابرة الأنام، شَرَّدَ به مَنْ خلْفَه... حَرْبُهُ سمٌّ لا يُبطئ، وسهم لا يُخطئ، وسلْمُهُ شرٌّ غيرُ مأمون، ومتاعٌ إلى أدنى حين»[٧].

وقال عنه مؤرخ الأندلس ابن حيان: «ذو الأنباء البديعة، والحوادثِ الشنيعة، والوقائعِ المُبيرة[٨]، والهمَم العليَّة، والسطوة الأبيَّة... حُمِلَ عليه على مرِّ الأيام، في باب فَرْطِ القسوة وتجاوُز الحدود، والإبلاغ في المُثْلَةِ، والأخذ بالظِّنَّةِ، والإخْفَار[٩]

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص١٥١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٥.

(٢) الطُّلى: الأعناق، مفردها الطُّلاة: وهي العنق أو صفحته. ابن منظور: لسان العرب، مادة طلي ١٥/ ١٠، والمعجم الوسيط ٢/ ٥٦٤.

(٣) تحاماه الناس؛ أي: توقَّوْه واجتنبوه. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل الحاء ٦/ ٢٣٢١، وابن منظور: لسان العرب، مادة حما ١٤/ ١٩٧، والمعجم الوسيط ١/ ٢٠٠.

(٤) الكُماة مفردها الكميّ: الشجاع المقدام الجريء المحمي بسلاحه ودرعه. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل الكاف ٦/ ٢٤٧٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة كمي ١٥/ ٢٣١، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٩٩.

(٥) المتعسِّف: الظالم الجائر والسائر على غير هدى ولا علم. الجوهري: الصحاح، باب الفاء فصل العين ٤/ ١٤٠٣، وابن منظور: لسان العرب، مادة عسف ٩/ ٢٤٥، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٠٠، ٦٠١.

(٦) الإلْب: القوم يجتمعون على عداوة إنسان. ابن منظور: لسان العرب، مادة ألب ١/ ٢١٥، والمعجم الوسيط ١/ ٢٣.

(٧) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٢٤، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٣٩، ٤٠.

(٨) المبيرة: المهلكة التي تُسرف في الإهلاك. ابن منظور: لسان العرب، مادة بور ٤/ ٨٦، والزبيدي: تاج العروس، باب الراء فصل الباء ١٠/ ٢٥٣.

(٩) الإخفار: نقض العهد والغدر به. الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الخاء ٢/ ٦٤٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة خفر ٤/ ٢٥٣، والمعجم الوسيط ١/ ٢٤٦.

للذمَّة، حكاياتٌ شنيعة لم يبدُ في أكثرها للعالم بصدقها دليلٌ يقومُ عليها، فالقول ينساغ في ذكرها؛ ومهما بَرِئ من مغبَّتها فلم يَبْرَأْ من فظاعة السطوة وشدَّة القسوة، وسوء الاتِّهام على الطاعة»[١].

بدأ المعتضد عهده بالقوَّة والصرامة، فبطش بوزراء أبيه، ثم انتقل للامتلاك على إمارات غربي الأندلس الصغيرة، واستطاع بقوَّته وتفوُّقه العسكري أن يُسيطر عليها ويضمَّها إلى أملاكه، فانتزع لَبْلَة من ابن يحيى اليحصبي، وقضى على دولته سنة (٤٤٥هـ=١٠٥٣م)[٢]، كما أنه انتزع جزيرة شَلْطِيش وولبة من بني البكري، وقضى على دولتهم سنة (٤٤٣هـ=١٠٥١م)[٣]، وفي السنة نفسها انتزع شَنْتَمَرِيَّة الغرب من بني هارون وقضى على دولتهم[٤]، وأخرج القاسم بن حمود من الجزيرة الخضراء[٥]، وهكذا توسَّعت مملكة إِشْبِيلِيَة كثيرًا على حساب الطوائف المغلوبة على أمرها!

ولما فرغ المعتضد من إمارات الغرب اتجه إلى الإمارات البربرية في الجنوب؛ وهي: إمارة بني يفرن في رُنْدة، وبني دمّر في مورور، وبني خزرون في شَذُونة وأركش، وبني برزال في قَرْمُونة؛ وذلك ليتفرَّغ بعدها للشمال والشرق، واستطاع بذكائه وخديعته أن يُسيطر على تلك الإمارات ويضمَّها لأملاكه؛ إذ دبَّر لهم حيلة قتلهم فيها جميعًا؛ ففي سنة (٤٤٥هـ=١٠٥٣م) دبَّر المعتضد كمينًا لأولئك الأمراء، فدعاهم إلى زيارته بإِشْبِيلِيَة، فلبَّى الدعوة ثلاثة؛ صاحب رُنْدة، وصاحب مورور،

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٢٤، ٢٥، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٤٠، ورَحِم واشِجة: مشتبكة متصلة متآلفة. الجوهري: الصحاح، باب الجيم فصل الواو ١/ ٣٤٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة وشج ٢/ ٣٩٨، والمعجم الوسيط ٢/ ١٠٣٣.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٤٠، ٣٠٠، ٣٠١.

(٣) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٢٣٣-٢٣٥.

(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٩٨، ٢٩٩.

(٥) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٣٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٤٠-٢٤٣.

وصاحب أركش، فاستقبلهم أحسن استقبال ثم أمر بالقبض عليهم، وتكليبهم، واستولى على أمتعتهم وسلاحهم، ثم أمر بإدخالهم الحمام، وأشعل النار فيه، فهلكوا جميعًا، ويُقال: إنه أبقى على ابن أبي قرة صاحب رُنْدة، وهلك الآخران؛ وبذلك امتلكت مملكة إِشْبِيلِيَة في عهد المعتضد مساحة شاسعة تشمل المثلَّث الجنوبي من الأندلس[١].

وأما قَرْمُونة وأصحابها بني برزال فبينهم وبين المعتضد شأن كبير، فما زال المعتضد يُرهقها بغاراته منذ أيام محمد بن عبد الله البرزالي حليفه بالأمس، ولكن البرزالي صمد أمامه حتى وفاته سنة ٤٣٤هـ، ثم بُويع لابنه المستظهر عزيز بن محمد، وقد انتظمت أحوالها معه ورخت أسعارها، وعمَّ الأمن والرخاء، حتى جدَّد المعتضد غاراته عليها، فما زالت الحروب على أُوَارها[٢] بينهما، حتى استسلم المستظهر أمام جبروت المعتضد، وخرج من قَرْمُونة وحلَّ بإِشْبِيلِيَة، ومَلَكَها المعتضد سنة (٤٥٩هـ=١٠٦٧م)[٣].

وفي عهد المعتضد وقعت أشرس الفتن الأندلسية وأقواها وقعًا في النفوس، تلك الفتنة التي اشتعل أوارها بينه وبين بني الأفطس أصحاب بَطَلْيُوس لولا حماية الله للمسلمين ثم تدخُّل القاضي جهور وابنه أبي الوليد لفضِّها والتحذير من عواقبها، وهو ما سنُفَصِّله في موضعه إن شاء الله.

تعرَّض المعتضد بن عباد لمآسٍ كثيرة خلال فترة حكمه، التي لا تهدأ عواصفها معه، ففي سنة (٤٥٠هـ=١٠٥٨م) تعرَّض المعتضد لمؤامرة كادت أن تفتك به

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٣٨-٤٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٩٤-٣٠١، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٤٥-٤٨.

(٢) أوار الشيء: شدته، ويوم ذو أُوارٍ؛ أي: ذو سَمُوم وحرٍّ شديد. ابن منظور: لسان العرب، مادة أور ٤/ ٣٥، والمعجم الوسيط ١/ ٣٢.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٣١١، ٣١٢.

وبمُلْكِه كله، وكانت هذه المؤامرة شديدة الوقع على نفسه، وقد عبَّرت عن شدة بأسه في تعامله مع مثل تلك الظروف؛ إذ تآمر عليه ابنُه وولي عهده إسماعيل ووزيره البزلياني؛ لأسباب شخصية وتملُّكِ الحقد في قلب الابن على أبيه والوزير على سيده، ولكن يبدو أن المعتضد كان شديد الحيطة فيمن حوله، فاكتشف المؤامرة التي دَبَّرها ابنه مع الوزير البزلياني وقتلهما[١].

كان المعتضد بن عباد شديد الطموح والاعتداد بنفسه، وعدم تقيُّده بغيره؛ لذلك عزم على قطع الخطبة للمدعو هشام المؤيد، فقطعها سنة (٤٥١هـ=١٠٥٩م)، ونعى هشام المؤيد إلى رجال دولته وأهل مملكته.

وقد عَلَّق المؤرِّخُون الأندلسيون وغيرهم شماتة وحزنًا على هشام، فقالوا: «صارت هذه الميتة لحامل هذا الاسم الميتة الثالثة، وعساها تكون -إن شاء الله- الصادقة، فكم قُتِلَ! وكم مات! ثم انتفض عنه التراب»[٢]. وقال بعضهم فيه: [الرجز]

ذَاكَ الَّـذِي مَـاتَ مِـرَارًا وَدُفِـنْ فَـانْتَفَضَ الـتُّرْبُ وَمُزِّقَ الْكَفَـنْ[٣]

فقد أعلن محمد بن هشام المهدي الأموي وفاة هشام المؤيد، ودُفن بمحضر من الفقهاء والعلماء في شعبان سنة (٣٩٩هـ=١٠٠٩م)، ثم ظهر بعد عام على يد الفتى واضح، وتولَّى الخلافة، ثم تُوُفِّيَ قتيلاً على يد سليمان المستعين أو ولده محمد بن سليمان سنة (٤٠٣هـ=١٠١٢، ١٠١٣م)، ودُفن خُفية، ولما دخل علي بن حمود قُرْطُبَة، بحث عن هشام فلم يجده فأعلن وفاته، ودعا لنفسه بالخلافة سنة (٤٠٧هـ=١٠١٦م)، ثم جاء القاضي ابن عباد سنة (٤٢٦هـ=١٠٣٥م)، فأظهر

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٤٤-٢٤٩.
(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٥٢.
(٣) البيت لمتنبي الأندلس أبي طالب عبد الجبار، انظر: ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ١/ ٩٤٠.

الدعوة الهاشمية ودعا له وأخذ البيعة له؛ وذلك دفعًا لدعوى ابن حمود بالخلافة، وليُضفي على نفسه الشرعية كما ذكرنا قبل ذلك[١].

ومع سطوة المعتضد بن عباد السياسية وبراعته العسكرية، إلا أنه كان يتمتَّع بثراء علمي وثقافي واسع، وكان بلاطه بلاطَ العلماء والفقهاء، وقد اشتهرت إِشْبِيلِيَة في عصره بالعلم والشعر والفن؛ فقصدها الشعراء من كل جانب في الأندلس، حتى أصبح بلاطه الملكي محلًّا بالشعراء ورجال العلم في الأندلس كلها، ومن أشهرهم الشاعر الأديب الوزير ابن زيدون، الذي لحق بالمعتضد إثر نكبته مع بني جهور فقصد إِشْبِيلِيَة، فأكرمه المعتضد وقَرَّبه إليه، وجعله وزيره ولسان دولته، وكان منهم وزيره وكاتبه البزلياني، الذي كان «أحد شيوخ الكُتَّاب، وجهابذة أهل الآداب»[٢]. هذا فضلاً عن أن المعتضد كان شاعرًا[٣].

تُوُفِّيَ المعتضد بن عباد بعد أن توسَّعت دولته، وعظم ملكه، وهو يبلغ من العمر ٥٧ سنة، وذلك في جمادى الآخرة سنة (٤٦١هـ=١٠٦٩م)، وفيه يقول ابن القطَّان المؤرخ: «كان ذا سطوة كالمعتضد العباسي ببغداد، وكان ذا سياسة ورأي، يُدَبِّر مُلكه من داره، وكان يغلب عليه الجود؛ فلم يُعْلَم في نظرائه أبذل منه للمال»[٤].

المعتمد بن عباد:

تُوُفِّيَ المعتضد وآل حُكم مملكة إِشْبِيلِيَة إلى ابنه أبي القاسم محمد بن عباد، وتلقَّب بالظافر بحول الله والمؤيد بالله والمعتمد على الله، وكان المعتمد يوم أن جلس على كرسي والده فتًى في ريعان شبابه في الثلاثين من عمره، كان مولده سنة ٤٣١هـ أو ٤٣٢هـ[٥].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٤٩، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٥٢.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٢٤.
(٣) الحميدي: جذوة المقتبس رقم (٦٧٢)، ص٢٩٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٨٥.
(٤) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٨٤.
(٥) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٥٣.

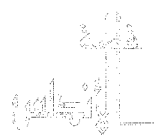
كان المعتمد رحمه الله فارسًا شجاعًا، وشاعرًا ماضيًا، مشكور السيرة في رعيته، تَلَقَّب بالمعتمد؛ لشدة حبه لجاريته اعتماد[١]، وكان المعتمد من الملوك الفضلاء، والشجعان العقلاء، والأجواد الأسخياء المأمونين، عفيف السيف والذيل، مخالفًا لأبيه في القهر والسفك والأخذ بالظنِّ، ردَّ جماعة مِمَّنْ نفاهم أبوه، وأحسن السيرة، إلا أنه كان مولعًا بالخمر، منغمسًا في اللذات، عاكفًا على البطالة، مخلدًا إلى الراحة؛ فكان ذلك سبب عطبه وأصل هلاكه[٢]، وكان شاعرًا رائع الشعر، وشغوفًا بالأدب وعلومه[٣].

ويُعَدُّ عصر المعتمد في الأندلس من أشهر عصور الطوائف على الإطلاق، وكان أول عمل تضلَّع له المعتمد بن عباد أن تدخَّل وبصورة مباشرة في شئون قُرْطُبَة؛ ليحسم الخلاف ويُحَقِّق حلم آبائه في تملُّكها، وهذا ما حدث له بالفعل سنة (٤٦٢هـ=١٠٧٠م)، وكانت بينه وبين المأمون بن ذي النون (ملك طليطلة) مساجلات، وألعاب سياسية تحت الستار على نحو ما سنُبَيِّنُه في موضعه إن شاء الله.

كان المعتمد بن عباد على عِلْم بما تُضمره له القبائل البربرية في الأندلس وخاصة في غَرْنَاطَة، صاحبة المساجلات العسكرية الشرسة مع إِشْبِيلِيَة، وبالتالي سَيَّر المعتمد قوَّاته ناحية غَرْنَاطَة للسيطرة على ممتلكاتها وضَمِّها لنفسه، واستطاع ضمَّ جَيَّان أهمَّ قواعد غَرْنَاطَة الشمالية سنة (٤٦٦هـ=١٠٧٤م)، كما استطاع أن يستولي على معظم أراضي طُلَيْطِلَة الجنوبية الشرقية من المعدن شرقًا حتى قونقة، واستولى على مُرْسِيَة وبَلَنْسِيَة من يحيى القادر بن ذي النون[٤].

ولم يقنع المعتمد بن عباد بما تحت يديه؛ إذ طمع في ضمِّ غَرْنَاطَة، وهنا اصطدم

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غَرْنَاطَة ٢/ ١٠٩.
(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٥٤.
(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص١٥٨.
(٤) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٦٠، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٧١.



بعبد الله بن بُلُقِّين حاكمها، ودارت بينهما حروب ونزاعات، استنصر فيها المعتمد بن عباد بالنصارى على أخيه المسلم، مقابل ما يدفعه من جزية باهظة أثقلت كاهله وكاهل غيره من ملوك الطوائف، على نحو ما سنُبَيِّنُه في الصراع بين إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة، إن شاء الله.

كما أن المعتمد بن عباد وقع في خصومات مع بني ذي النون أصحاب طُلَيْطِلَة، انتهت بسقوط طُلَيْطِلَة في يد ملك النصارى ألفونسو السادس، ليدفع المعتمد بن عباد ثمن خيانته واستهتاره بدينه وبدماء المسلمين، وتعاونه مع النصارى ضدَّ ملوك الطوائف، والتي جاءت بالوبال عليه وعلى الأندلس؛ إذ هاجم النصارى ممالك الأندلس وأولها إِشْبِيلِيَة وفرضوا عليها الحصار، وانتهى الأمر باستدعاء المرابطين من المغرب العربي.

ولقد استطاع المعتمد بن عباد أن يُؤَسِّس أعظم مملكة للطوائف، تمتدُّ في قلب النصف الجنوبي من شبه الجزيرة الأندلسية، من غرب ولاية تُدْمِير شرقًا حتى المحيط الأطلنطي، ومن ضفاف وادي يانة جنوبًا حتى أراضي الفرنتيرة[١].

وفاقت شهرة المعتمد على الله الأدبية والشعرية شهرته في السياسة والمُلْكِ؛ فقد كان له في الأدب باعٌ، ينظم وينثر، وفي أيامه نفقت سوق الأدباء[٢]، فتسابقوا إليه وتهافتوا عليه، وشعره مدوَّن موجود بأيدي الناس، ولم يكُ في ملوك الأندلس قبله أشعر منه ولا أوسع مادة[٣]، ومحاسن المعتمد في أشعاره كثيرة، وخصوصًا مراثيه لأبنائه وتفجُّعه لزوال سلطانه ومنها: [مجزوء الكامل]

---

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٧١.

(٢) نَفَقت سوقهم ونَفَق مالُه: نقص وقلَّ، وقيل: فني وذهب. الجوهري: الصحاح، باب القاف فصل النون ٤/ ١٥٦٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة نفق ١٠/ ٣٥٧.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٥٥.

قَـــالُوا الْخُضُـــوعُ سِيَاسَـــةٌ فَلْيَبْـــدُ مِنْـــكَ لَهُـــمْ خُضُـــوعُ

وَأَلَـــذُّ مِـــنْ طَعْـــمِ الْخُضُـــو عِ عَـــلَى فَمِـــي السُّـــمُّ النَّقِيـــعُ

إِنْ تَسْـــتَلِبْ عَنِّـــي الـــدُّنَا مُلْكِـــي وَتُسْـــلِمُنِي الْجُمُـــوعُ

فَالْقَلْـــبُ بَـــيْنَ ضُـــلُوعِهِ لَمْ تُسْـــلِمِ الْقَلْـــبَ الضُّـــلُوعُ

لَمْ أُسْـــتَلَبْ شَرَفَ الطِّبَـــا عِ، أَيُسْـــلَبُ الشَّرَفُ الرَّفِيـــعُ؟

قَـــدْ رُمْـــتُ يَـــوْمَ نِـــزَالِهِمْ أَلاَّ تُحَصِّـــنَنِي الـــدُّرُوعُ

وَبَـــرُزْتُ[1] لَـــيْسَ سِـــوَى الْقَمِيـــصِ عَـــلَى الْحَشَـــا شَيْءٌ دَفُـــوعُ

وَبَـــذَلْتُ نَـــفْسِي كَـــيْ تَسِيـــلَ إِذَا يَسِـــيلُ بِهَـــا النَّجِيـــعُ

أَجَـــلِي تَـــأَخَّرَ لَمْ يَكُـــنْ بِهَـــوَايَ ذُلِّي وَالْخُشُـــوعُ

مَـــا سِرْتُ قَـــطُّ إِلَى الْكُـــمَا ةِ وَكَـــانَ مِـــنْ أَمَـــلِي الرُّجُـــوعُ

شِـــيَمُ الأُلَى أَنَـــا مِـــنْهُمُ وَالأَصْـــلُ تَتْبَعُـــهُ الْفُـــرُوعُ[2]

وكانت وفاة المعتمد على الله بأغمات في المغرب إِثْر نكبته مع المرابطين؛ جزاء تعاونه مع النصارى ضد ابن تاشفين، وذلك في ذي الحجة سنة (٤٨٨هـ=١٠٩٥م)، وقد رثى نفسه بهذه الأبيات، وأمر أن تُكتب على قبره: [البسيط]

قَبْرَ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي حَقًّا ظَفِرْتَ بِأَشْلاءِ ابْنِ عَبَّادِ

بِالْحِلْمِ بِالْعِلْمِ بِالنُّعْمَى إِذَا اتَّصَلَتْ بِالْخِصْبِ إِنْ أَجْدَبُوا بِالرِّيِّ لِلصَّادِي

---

(١) بَرُزَ بَرازَةً: سَبَق بعد تمام. الجوهري: الصحاح، باب الزاي فصل الباء ٣/ ٨٦٤، وابن منظور: لسان العرب، مادة برز ٥/ ٣٠٩، والمعجم الوسيط ١/ ٤٩.

(٢) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢/ ٥٣، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٦٥، ٦٦، والذهبي: تاريخ الإسلام ٣٣/ ٢٧١، ٢٧٢.

بِالطَّاعِنِ الضَّارِبِ الرَّامِي إِذَا ... بِالْمَوْتِ أَحْمَرَ بِالضِّرْغَامَةِ الْعَادِي
بِالدَّهْرِ فِي نِقَمٍ بِالْبَحْرِ فِي نِعَمٍ ... بِالْبَدْرِ فِي ظُلَمٍ بِالصَّدْرِ فِي النَّادِي
نَعَمْ هُوَ الْحَقُّ فَاجَانِي عَلَى قَدَرٍ ... مِنَ السَّمَاءِ وَوَافَانِي لِمِيعَادِ
وَلَمْ أَكُنْ قَبْلَ ذَاكَ النَّعْشِ أَعْلَمُهُ ... أَنَّ الْجِبَالَ تَهَادَى فَوْقَ أَعْوَادِ
فَلا تَزَلْ صَلَوَاتُ اللهِ نَازِلَةً ... عَلَى دَفِينِكَ لا تُحْصَى بِتَعْدَادِ[1]

وهكذا انتهت حياة ملك ملوك الطوائف، وهكذا انتهت مملكة إِشْبِيلِيَة إلى الأبد.

علماء في بلاط إشبيلية:

تمتعت إِشْبِيلِيَة بمكانة علمية واسعة النطاق؛ بقدر ما كانت تتمتَّع به من مكانة سياسية وعسكرية، وقد كان بنو عباد في إِشْبِيلِيَة أعظم ملوك الطوائف اعتناءً بالأدب قدر اعتنائهم بالسياسة، وكان بلاط إِشْبِيلِيَة مسرحًا رائعًا للشعراء والأدباء والفقهاء؛ إذ كان المعتضد شاعرًا أديبًا، فضلاً عن أن شهرة المعتمد الشعرية ربما فاقت شهرته السياسية، وقد اجتمع في بلاد بني عباد فحول شعراء الطوائف، وقد اعتنَوْا بهم وقَدَّمُوهم، واتخذوهم ندماء ووزراء، ولعلَّ أشهرهم ابن زيدون وابن اللبانة وابن عمار الوزير الفارس، وكان من أشهر كُتَّاب الدولة البزلياني كاتب المعتضد، الذي قال فيه ابن بسام: «أحد شيوخ الكُتَّاب، وجهابذة أهل الآداب»[2].

ثالثًا: بنو الأفطس في بطليوس:

في الثغر الأدنى من بلاد الأندلس تَكَوَّنت مملكة بَطَلْيُوس؛ وهي مملكة تُمَثِّل

---

(١) ابن بسام: الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة ٢/ ٥٧، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٢٢٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٦٤، والإحاطة في أخبار غرناطة ٢/ ١١٩، ١٢٠.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٢٤.

بُعْدًا مهمًّا في الصراع بين ممالك الطوائف؛ نظرًا لأهميتها الجغرافية الخاصة؛ فهي من ناحية تقع في الشمال من مملكة إِشْبِيلِيَة، ولا يفصل بينهما إلا سلسلة جبال الشارات أو سييرا مورينا، ومن ناحية أخرى فهي تشمل رقعة واسعة تمتدُّ من غرب مملكة طُلَيْطِلَة عند مثلث وادي يانة، وغربًا حتى المحيط الأطلسي، كما تشمل بَطَلْيُوس (Badajoz) المدينة المهمة من مدن المملكة فهي العاصمة، وتُعَدُّ المنطقة الوسطى للمملكة، إضافة إلى أنها تشمل المنطقة الغربية لبلاد الأندلس؛ أي: تشمل كل دولة البرتغال الحالية تقريبًا، حتى مدينة بَاجَة (beja) في الجنوب، وبالتالي فهي تشمل مدن مهمة؛ مثل: مَارِدَة (Mérida) ولَشْبُونَة (lispon) وشَنْتَرِين (Santarém) وقُلُمْرِيَة (Coimbra)، وغيرها.

ابتداء دولتهم:

ظهرت مملكة بَطَلْيُوس وأحدثت تغييرًا فعليًّا في عصر الطوائف على يد بني مسلمة، أو بني الأفطس على ما هو مشهور في كُتب التاريخ الأندلسي، فقد كانوا سادتها نيفًا وسبعين سنة.

وقصة الدولة تبدأ عند احتدام الفتنة في أواخر عهد الحكم المستنصر بالله، حيث كان يحكم المنطقة الغربية لبلاد الأندلس (البرتغال) فتى يُسَمَّى سابور العامري أو الفارسي؛ أحد صبيان فائق الخادم مولى الحكم المستنصر، وظلَّ حاكمًا على البلاد ثلاث عشرة سنة، فلمَّا اشتدَّت أحداث الفتنة وطمع كل طامع بما تحت يده من البلاد، استبدَّ سابور وأعلن انفصاله واستقلاله، وكان فارسًا شجاعًا، إلا أنه افتقد الخبرة في شئون الحُكم والإدارة وأنواع المعارف، فاستوزر عبد الله بن محمد بن مسلمة الأفطس، ورمى إليه بأمور البلاد، فدبَّر أعماله، فما لبث أن صار الأفطس هو الحاكم الفعلي في البلاد، فلما مات سابور سنة (٤١٣هـ=١٠٢٢م)، ترك ولدين صغيرين لم يبلغا الحلم؛ هما: عبد الملك وعبد العزيز، فأعلن الأفطس استقلاله، واستبدَّ بالأمور

من دون الولدين الصغيرين، وضبط أمور مملكته وتلقَّب بالمنصور، وصارت المملكة له ولأعقابه من بعده.

عبد الله بن محمد بن الأفطس:

عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، أصله من مِكْنَاسة المغربية، من قوم متواضعين غير أنه كان من أهل المعرفة التامَّة، والعقل والدهاء والسياسة؛ لذلك لم يكن غريبًا عليه - وقد دانت له المملكة - أن يعمل على توطيد مملكته وتنظيم شئونها، وتقوية جيشه، وبناء الأسوار بما يضمن له حماية المملكة من أي عدوان خارجي؛ خاصة وأن القدر وضعه بين خصمين لدودين، يتحيَّنان الفرص بين الحين والآخر للانقضاض على خصميهما؛ وهما: بنو عباد في إِشْبِيلِيَة، وبنو ذي النون في طُلَيْطِلَة.

وكان ابن الأفطس يرقب تحرُّكات القاضي أبي القاسم بن عباد بكل حذر وحيطة، خاصة وأن دولة القاضي ابن عباد أضحت في قوة؛ لذلك تزايدت مخاوفه حتى أصبحت حقيقة بمهاجمة ابن عباد مدينة بَاجَة إثر اندلاع الثورة فيها سنة ٤٢١هـ، وأُسر فيها محمد بن عبد الله بن الأفطس ثم أُطلق سراحه، ثم عاد الصدام بينهما مرة أخرى سنة (٤٢٥هـ=١٠٣٤م)، وكانت الغلبة هذه المرَّة لقوات ابن الأفطس، وكانت محنة شنيعة لبني عباد، ثم توقَّف السجال بين الطرفين بسبب انشغال بني عباد بحروبهم ضد البربر، التي أسفرت عن محنة أشد من سابقتها سنة ٤٣١هـ؛ إذ تجمَّع البربر في غَرْنَاطَة وقَرْمُونَة ومَالَقَة ضد قوات ابن عباد وهزمته هزيمة منكرة، وقُتل إسماعيل ابن القاضي أبي القاسم بن عباد، على نحو ما سنفصِّله في موضعه إن شاء الله[1].

---

(١) ابن بسام: الذخيرة، ٣/ ٢٠-٢٢، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٠١-٢٠٣.

وعلى النحو الآخر كان عبد الله بن الأفطس مشغولاً بالقضاء على ثورة ابني سابور (عبد العزيز وعبد الملك) في لَشْبُونَة؛ إذ طمع عبد العزيز في استرداد مُلْكِ أبيه، فأعلن الثورة في لَشْبُونَة، ولم تَطُلْ ثورته لوفاته، فخلفه من بعده أخوه عبد الملك، ويبدو أنه لم يكن على قدر الكفاءة والسياسة والإدارة، فلم يقنع به أهل لَشْبُونَة؛ فكاتبوا سرًّا ابن الأفطس أن يبعث لهم واليًا من عنده، فسيَّر لهم جيشًا عليه ولده محمد، ودخل المدينة دون مقاومة تُذكر؛ إذ تواطأ أهل البلد ضده مع ابن الأفطس، فلم يفق عبد الملك حتى وجد نفسه محاطًا بالعساكر والجند، فأذعن بالتسليم، وطلب السلامة له ولأهله ولماله، فأُعطي ما طلب، وتركوه يسير حيث يشاء، فترك لَشْبُونَة وقصد قُرْطُبَة، فلما قرب منها استأذن الوزير ابن جهور في الدخول فأذن له، فدخل قُرْطُبَة ونزل بدار أبيه سابور، وظلَّ بها إلى أن مات(١).

وهكذا ظلَّ عبد الله بن الأفطس يعمل على تقوية دولته وتوسعتها وإحكام السيطرة عليها، إلى أن مات في جمادى الأولى سنة (٤٣٧هـ=١٠٤٥م)، وخلفه من بعده ابنه محمد الملقب بالمظفر(٢).

المظفر محمد بن الأفطس:

المظفر سيف الدولة أبو بكر محمد بن عبد الله بن مسلمة المعروف بابن الأفطس، خلف والده بعد وفاته سنة ٤٣٧هـ، وكان المظفَّر مثل أبيه بعيد النظر والسياسة، فعمل على توطيد مُلْكه في بَطَلْيُوس وما حولها، وإقرار النظام في أنحاء المملكة؛ ليتسنَّى له مراقبة الأحداث الخارجية؛ سواء ما يُخَبِّؤُه القدر له من ملوك الطوائف، أو ما يُدَبِّرُه النصارى له في الشمال، واستطاع بحنكته وشجاعته أن يُقيم

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٧.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٩٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٣.

ملكًا ضاهى فيه مُلْك بني عباد في إِشْبِيلِيَة، ومُلْك بني ذي النون في طُلَيْطِلَة، ولم يكن ذلك إلا بدماء جُنده التي أُهدرت في ساحات الحرب بينه وبين ابن عباد، وخاصة في المعارك العنيفة بينهما حول لَبْلَة ويَابرَة الواقعتين بين مملكة إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس، وكانت المعارك بينهما شنيعة، كما كانت سجالاً بين الطرفين، وكاد كل منهما يُفني الآخر، لولا تدخُّل الوزير أبي الحزم جهور وابنه أبي الوليد بن جهور صاحب قُرْطُبَة على نحو ما سنفصِّله إن شاء الله[١].

وما كان المظفر لينتهي - ولو إلى حين - من خصمه العنيد المعتضد بالله بن عباد حتى وقع عرضة لهجمات المأمون بن ذي النون صاحب طُلَيْطِلَة ودارت بينهما معارك طاحنة[٢].

لم يكن النصارى في الشمال لِتغيب عنهم تلك الأحداث المؤسفة في بلاد المسلمين؛ لأنهم يتحيَّنون الفرصة بين الحين والآخر للقضاء على الإسلام في الأندلس، فما أن استتبَّ الأمر لفرناندو الأول بن سانشو ملك قشتالة وليون، حتى هاجمت قوَّاته المنطقة الشمالية والغربية لمملكة بَطَلْيُوس -أي: شمال البرتغال حاليًا- ودارت بينهما حروب كانت الغلبة فيها للنصارى، وضاعت الثغور الغربية في أيدي فرناندو، ولعلَّ أعظمها وأفدحها سقوط قُلُمْرِيَة (Coimbra) سنة (٤٥٦هـ = ١٠٦٤م)، وإجبار ابن الأفطس على دفع الجزية للنصارى[٣] على نحو ما سنفصِّله ضمن حلقات تطوُّر المشهد الصليبي في عهد ملوك الطوائف.

وهكذا ظلَّ المظفر بن الأفطس يتقلَّب من حال إلى حال، لا يكاد يُغمض جفنيه عن حرب في الجنوب أو الشمال أو الشرق أو الغرب، وظلَّ كذلك حتى وافته المنية

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢١٠-٢١٢.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٨٣.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٨، ٢٣٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٤.

سنة (٤٦٠هـ=١٠٦٧م)، وخَلَفه ابنه يحيى على بَطَلْيُوس وتلقَّب بالمنصور[١].

وقبل أن يتطرَّق بنا الحديث عن فترة المنصور يحيى وأخيه المتوكل عمر، يجدر بنا أن نذكر جانبًا من الجوانب المضيئة في حياة المظفر ﵀، وهو الجانب الفكري والنشاط العلمي الذي خلفه في بَطَلْيُوس.

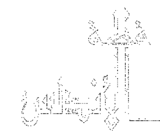
فمع شدَّة المظفر وبأسه واستحكام قوته في الحروب والنزاعات، إلا أنه كان أديب ملوك عصره، شغوفًا بالعلم والثقافة ومجالسة العلماء، وشراء الكتب وجمعها، حتى أصبح ﵀ حكاية زمانه في العلم، كما كان ﵀ يُحضر العلماء للمذاكرة فيُفيد ويستفيد[٢]، وله التصنيف الرائق والتأليف الفائق، المترجم بـ(التذكرة) والمشتهر اسمه بـ(كتاب المظفر)، وهو في مائة مجلد، وقيل: في خمسين مجلد. وقيل: في عشرة أجزاء. يشتمل على علوم وفنون من مغازٍ وسِيَرٍ، ومَثَلٍ وخَبَرٍ، وجميع ما يختصُّ به علم الأدب، فكان موسوعة علمية وتاريخية وأدبية عظيمة؛ جمعت بين الآداب المتخيَّرة، والطرائف المستملحة، والنكت البديعة، والغرائب الملوكية واللغات الغربية، وقد ألف المظفر هذه الموسوعة بنفسه، ولم يستعن فيه بأحد من العلماء إلا بكاتبه أبي عثمان سعيد بن خيرة[٣].

فأيُّ علم وثقافة! وأيُّ همَّة وعزيمة امتلكها المظفر بن الأفطس! وأين وقت الفراغ الذي كفله لنفسه ليكتب هذا السفر العظيم، وهذا ما حدا بابن حزم أن

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦٠، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٩٧، وذكر الدكتور حسين مؤنس في تحقيقه للحلة السيراء أن المظفر بن الأفطس توفي سنة (٤٥٦هـ=١٠٦٣م)، وأيَّد ذلك في حاشية ٢/ ٩٧، في ذِكْر تسلسله لحكام بني الأفطس، اعتمادًا على عملة عثر عليها الباحث الإسباني بريتوبيبس باسم ابنه وخليفته يحيى المنصور، مؤرَّخة في سنة ٤٥٦هـ.

(٢) المقري: نفح الطيب ٣/ ٣٨٠، ٣٨١.

(٣) ابن حزم وابن سعيد والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها ص٣٥، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص١٢٨، وابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠، ٤/ ٦٤٠، ٦٤١، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٦، ٢٣٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٣، ١٨٤.



يفتخر به على ملوك الأندلس جميعًا، ويجعله فضيلة من فضائل الأندلس على مرِّ التاريخ، بقوله: وهل لكم ملك أَلَّف في فنون الأدب كتابًا في نحو مائة مجلدة مثل المظفر بن الأفطس ملك بَطَلْيُوس، ولم تشغله الحروب ولا المملكة عن همَّة الأدب[١].

ومن شعره: [الوافر]

أَنِفْتُ مِنَ الْمُدَامِ[٢] لأَنَّ عَقْلِي ... أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ أُنْسِ الْمُدَامِ

وَلَمْ أَرْتَحْ إِلَى رَوْضٍ وَزَهْرٍ ... وَلَكِنْ لِلْحَمَائِلِ وَالْحُسَامِ

إِذَا لَمْ أَمْلِكِ الشَّهَوَاتِ قَهْرًا ... فَلَمْ أَبْغِي الشُّفُوفَ عَلَى الأَنَامِ

وكان يقول: مَنْ لم يكن شعره مثل شعر المتنبي والمعري فليسكت[٣].

المنصور يحيى بن الأفطس:

تُوُفِّيَ المظفر بن الأفطس سنة ٤٦٠هـ، وخلفه ابناه يحيى وعمر، أما يحيى فخلف أباه ومَلَك بَطَلْيُوس وأعمالها سنة ٤٦٠هـ، وتلقَّب بالمنصور، وكان أخوه عمر بيَابرَة (Evora) (بلدة في جنوب البرتغال حاليًا) حاكمًا عليه وما إليها من كور وبلدات، وما كاد المنصور يحيى لينعم بمُلْكِ أبيه ومملكته الواسعة، حتى ثار عليه أخوه عمر حاكم يَابرَة، واشتدَّ النزاع بينهما، وبلغ أشدَّه سنة (٤٦١هـ=١٠٦٨م)، وكانت تلك الفتنة فرصة لألفونسو بن فرناندو ملك قشتالة ليشنَّ هجومه على بلاد المسلمين، وينتزع أموالهم وديارهم، واشتعلت الحرب الأهلية بمملكة بَطَلْيُوس وأصبحت على أشدِّها، وتفاقم الأمر فالتجأ عمر إلى المعتمد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة، ومال أخوه يحيى المنصور إلى المأمون بن ذي النون صاحب طُلَيْطِلَة، وما زال الأمر

(١) ابن حزم وابن سعيد والشقندي: فضائل الأندلس وأهلها ص٣٥.

(٢) المدام: أي الخمر.

(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٤.

سجالاً، وكادت نار الفتنة تأكل كل شيء، إلا أن الله وقى المسلمين شرها بموت يحيى المنصور فجأة سنة (٤٦١هـ=١٠٦٨م)، وانفرد عمر بالأمر كله دون منازع، ودخل بَطَلْيُوس وجعل ابنه العباس على يَابرَة، وتلقَّب بالمتوكل على الله[١].

المتوكل على الله بن الأفطس:

كان المتوكِّل عالي القدر، مشهورًا بالفضل، مثلاً في الجلالة والسرور، من أهل الرأي والحزم والبلاغة، وكانت مدينة بَطَلْيُوس في مُدَّته دار أدب وشعر، ونحوٍ وعلمٍ[٢]. ولم تكن شهرة المتوكل على الله بن الأفطس شهرةَ سياسةٍ أو دهاء، أو حروب وشجاعة وإغارة، وإنما كانت شهرته شهرة أديب وشاعر وبليغ؛ فقد جمع رحمه الله فوق شجاعته علمًا وأدبًا وبلاغة؛ فكان المتوكل بن الأفطس في حضرة بَطَلْيُوس كالمعتمد بن عباد في حضرة إِشْبِيلِيَة، فكم أُحْيِيَت الآمال بحضرتهما، وشُدَّت الرحالُ إلى ساحتهما[٣].

كما وصفه المراكشي بعد مدحه لأبيه المظفر بقوله: وكان لابنه المتوكل قدم راسخة في صناعة النظم والنثر مع شجاعة مفرطة وفروسية تامَّة، وكان لا يُغِبُّ[٤] الغزو، ولا يشغله عنه شيء[٥].

وقد نَقَلَتْ لنا كُتب التاريخ والتراجم جملة من أشعاره وأخباره، تنمُّ على سعة علم المتوكل بن الأفطس وثقافته وقوَّة بلاغته شعرًا ونثرًا؛ وتتجلى فيها الرُّوح

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٤/ ٦٥٠، ٦٥١، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٩٧، ٩٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٤.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٩٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٥.

(٣) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ١/ ٣٦٤.

(٤) أَغَبَّ القومَ: جاءَ يومًا وترك يومًا، وأَغَبَّ عَطاؤُه: إذا لم يأتنا كلَّ يوم. والمقصود: لا يترك الغزو. الجوهري: الصحاح، باب الباء فصل الغين ١/ ١٩٠، ١٩١، وابن منظور: لسان العرب، مادة غبب ١/ ٦٣٤، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٤٢.

(٥) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص١٢٨.

الدينية التي كانت ملازمة له وظاهرة في أقواله وأفعاله، وأَمَّا عن نثره رحمه الله فهو أشفُّ من شعره، وإنَّه لطَبَقة تتقاصر عنها أفذاذ الكُتَّاب، ونهاية من نهاية الآداب[1].

ودولة المتوكل بن الأفطس لم يَعْلُ ذِكْرُها بين ملوك الطوائف بالعلم والثقافة فقط، بل كذلك بانتشار العدل والمساواة بين الناس، وإيثاره الشريعة وتقديمه للعلماء، أمَّا عن الجانب السياسي من حياة المتوكل بن الأفطس فلعلَّ أشهر الأحداث السياسية في عهده دخوله طُلَيْطِلَة سنة (٤٧٢هـ=١٠٧٩م)، وذلك بعد هروب حاكمها القادر بالله يحيى بن ذي النون إثر ثورة عليه، وظلَّ المتوكل حاكمًا على طُلَيْطِلَة يُدَبِّرُ أمرها وشئونها، ثم خرج منها بعودة القادر بالله مرَّة أخرى مستعينًا بالنصارى، وقد عاد المتوكل إلى بَطَلْيُوس بعد أن حصل على أموال وذخائر ابن ذي النون، بيد أن طُلَيْطِلَة لم تنعم كثيرًا في يد القادر بالله؛ إذ سقطت طُلَيْطِلَة في يد النصارى سنة (٤٨٧هـ=١٠٨٥م)، على نحو ما سنُفَصِّله في موضعه إن شاء الله.

وبعد سقوط طُلَيْطِلَة بدأ ألفونسو ملك قشتالة يُعِدُّ عُدَّته للقضاء على ملوك الطوائف واحدًا إثر آخر، وهنا لاح في الأُفق الخطر، وعلى الفور تحرَّكت النخوة والغَيْرة على الدين؛ فانتدب المتوكل قاضيه أبا الوليد الباجي ليطوف بملوك الطوائف؛ يدعوهم إلى الوحدة ولَمِّ الشعث ومدافعة العدوِّ، ولما لم يستنصره أحدٌ انتهى به الأمر إلى ذلك القرار الخطير، الذي شاء القدر أن يكون نقطة تحوُّل في حياة الأندلس وفي تاريخها، ونعني استدعاء المرابطين[2]، على نحو ما سنُفَصِّلُه في المشهد الصليبي وعلاقته بملوك الطوائف، إن شاء الله.

محنة بني الأفطس:

وقد دامت أيامُ المتوكل بن الأفطس إلى أن تغلَّب المرابطون على الأندلس، فبعد

---

(١) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ص٤٥، ٤٦، وابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غَرْنَاطَة ٤/ ٤٥، ٤٦.
(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٩١.

أن حاصر سير بن أبي بكر إِشْبِيلِيَة وأسقطها (٤٨٤هـ=١٠٩١م)، قام المتوكل بن الأفطس بما لم يكن متخيلاً من مثله؛ لقد راسل ألفونسو السادس، ومكَّنه من لَشْبُونَة وشَنْتَرِين وشَنْتَرَة؛ وذلك ليستعين به على المرابطين، فلما رأى الناسُ منه ذلك انحرفوا عنه، فلما كانت أوائل سنة (٤٨٨هـ=١٠٥٩م) راسلوا سير بن أبي بكر قائد المرابطين، فدخل بَطَلْيُوس وحاصرها، واعتصم المتوكل ومَنْ معه بقَلعة بَطَلْيُوس لمناعتها، ولم يتمكَّن ألفونسو من معاونة حليفه المسلم المتوكل، وقد استطاع المرابطون دخول بَطَلْيُوس بسهولة، وأعملوا فيها السيف والقوَّة، وقبض سير بن أبي بكر على المتوكل وعلى ابنيه العباس والفضل، وأُخِذَ بهم إلى إِشْبِيلِيَة، وعلى مقربة منها قيل له: تأهَّب للموت. فسأل أن يُقَدَّم ابناه، فقدَّمُوهما قبله رغبة منه أن يحتسبهما عند الله ولينال أجرهما، فقُدِّمَا عليه فقتلا، وقام بعدهما كي يُصَلِّيَ ركعتين فطعنوه بالرماح؛ وقد اختلط كلامه في صلاته، حتى فاضت نفسه وغربت شمسه[1].

وكان للمتوكل ابن اسمه المنصور بعث به إلى حصن منتانجش على مقربة من حدود قشتالة؛ ليمتنع فيه، فلمَّا علم بما جرى القدر به في أبيه وإخوته، سار بأهله إلى ملك قشتالة ليحتمي به، وأقام بأرضه، وقيل بأنه اعتنق النصرانية[2].

وهكذا التاريخ يُعَلِّمُنَا.. وهكذا انتهت محنة بني الأفطس.. وهكذا انتهت مأساة المتوكل على الله.. وهكذا تمَّت للمرابطين السيطرة على غرب الأندلس.. وهكذا دفع المتوكل بن الأفطس ثمن موالاته للنصارى من دون المؤمنين، وتلك زلَّة لم يغفرها له التاريخ، مع حُسن سيرته وشيوع عدله وعلمه.. ولكنها الدنيا وشهوة

(١) ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب ص٢٦، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص١٢٨، وابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ١٠٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٥، ١٨٦، والإحاطة في أخبار غَرْنَاطَة ٤/ ٤٦، ٤٧.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٦، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٦٩.

السلطان، وصدق الله إذ يقول:

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾ [المائدة: ٥١].

علماء في بلاط بطليوس:

كانت بَطَلْيُوس في ظلِّ بني الأفطس حاضرة من حواضر العلم والأدب والفقه في فترة ملوك الطوائف، وكان يتسابق إليها العلماء والشعراء؛ ينهلون من عطايا ملوكها، وخاصة المظفر والمتوكل، وقد اعتنى بنو الأفطس عناية فائقة بالأدب والشعر خاصة، ولعلَّ أشهر شعرائهم الوزير الشاعر الأديب ابن عبدون، الذي يُعَدُّ من أشهر وزراء الطوائف وشعرائهم، وهو عظيم مُلْكِ بني الأفطس ونظيم سلكهم، وقد رثا دولتهم بكلمات اشتملت على كل مَلِك قُتل، وأشارت إلى مَنْ غُدر منهم وخُتِلَ، تُكبرها المسامع ويعتبر بها السامع[1]، كما أنه قد نبغ في بلاط بَطَلْيُوس العديد من الفقهاء والعلماء الأجلاَّء، الذين قالوا الحقَّ وجهروا به، وسَعَوْا في درأ الصدع والفتنة والصلح بين ملوك الطوائف، ويأتي على رأسهم أبو الوليد الباجي، والعالم الفقيه ابن عبد البر المالكي القرطبي الأصل، وغيرهم كثير، هذا فضلاً عن أن المظفر بن الأفطس كان من كبار أدباء عصره، ويكفي أنه صاحب كتاب المظفر الذي عدَّه ابن حزم مفخرة من مفاخر الأندلس، كما كان ابنه المتوكل بن الأفطس أديبًا شاعرًا عالمًا، وكانت مدينة بَطَلْيُوس في مُدَّته دار أدب وشعر، ونحوٍ وعلمٍ[2].

(١) الفتح بن خاقان: قلائد العقيان ٣٧-٤٠، وابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب ص٢٧-٣٣، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ١٢٩-١٤٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٦، ١٨٩، والإحاطة في أخبار غَرْنَاطَة ٤/ ٤٧-٥١.

(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٩٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٥.

أبو الوليد الباجي (٤٠٣-٤٧٤هـ=١٠١٢-١٠٨١م):

هو أبو الوليد سليمان بن خلف بن سعد بن أيوب بن وارث، الأندلسي الباجِيُّ، أصله من بَطَلْيُوس ومولده في بَاجَة، ارتحل في طلب العلم والفقه بين الحجاز وبغداد ودمشق والموصل وأصبهان، فأخذ علم الحديث والفقه والكلام، ثم عاد إلى الأندلس بعد ثلاث عشرة سنة بعلم غزير، حَصَّله مع الفقر والتقنُّع باليسير، ثم ولي القضاء، حدَّث عنه ابن عبد البر وابن حزم والحميدي والطرطوشي وابنه أبو القاسم بن سليمان، وقد أجمع العلماء على أنه أحد أئمة المسلمين في المشرق والمغرب، وكان أبو الوليد الباجي من المقرَّبين إلى المتوكل بن الأفطس ينصحه ويُذَكِّره، كما أنه كان من العلماء العاملين، الذين يحملون هموم دعوتهم ودينهم، وكانت تشغله دائمًا أحوال الأندلس والتفرُّق والتنازع بين ملوك الطوائف واستقوائهم بالنصارى، وكان ألفونسو السادس قد شدَّد غاراته على أراضي المسلمين، وأثقل أمراءهم بالجزية، بل إنه لم يقنع بها، فلما رأى الباجي ذلك أعدَّ عُدَّته من الإيمان، وشحذ همَّته لقول الحقِّ لهؤلاء الأمراء، وأجهد رحمه الله نفسه في دعوة ملوك الطوائف إلى الاتحاد ونبذ الفُرقة والتشاحن، ولكن لم يُصْغِ أحد إلى دعوته، وحَسْبُه أنه قد أعذر إلى ربه، ومات رحمه الله ولم يَرَ حُلْمَه في اجتماع كلمة المسلمين.

صنَّف أبو الوليد الباجي كتبًا كثيرة؛ منها: كتاب (المنتقى)، و(إحكام الفصول في أحكام الأصول)، و(التعديل والتجريح فيمن روى عنه البخاري في الصحيح).. وغير ذلك[١].

ابن عبد البر (٣٦٨-٤٦٣هـ=٩٧٨-١٠٧١م):

أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي المالكي،

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٩٨، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٢/ ٤٠٨، ٤٠٩، والصفدي: الوافي بالوفيات ١٥/ ٢٢٩، ٢٣٠.

الإمام العلامة، حافظ المغرب، ولد بقُرْطُبَة وبها تعلَّم على يد كبار رجالها وفقهائها، قال عنه الإمام أبو الوليد الباجي: لم يكن بالأندلس مثل أبي عمر بن عبد البر في الحديث. وقال عنه أيضًا: أبو عمر أحفظ أهل المغرب. فارق ابن عبد البر قُرْطُبَة وجال في غرب الأندلس مدةً، ثم تحوَّل إلى شرق الأندلس، وله رحلات كثيرة فيها، وقد استقرَّ به الأمر في بَطَلْيُوس غرب الأندلس؛ فتولَّى قضاء لَشْبُونَة وشَنْتَرِين للمظفر بن الأفطس، ثم رحل إلى شاطبة وبها تُوُفِّيَ.

من تصانيفه: (الدرر في اختصار المغازي والسير)، و(العقل والعقلاء)، و(الاستيعاب)، و(بهجة المجالس وأنس المجالس)، و(التمهيد) [1].

رابعًا: بنو ذي النون في طليطلة:

أهمية طليطلة (الثغر الأوسط):

منذ أن دخل الفتح الإسلامي لبلاد الأندلس وطُلَيْطِلَة (Toledo) تُمَثِّل عين الاهتمام من الولاة والأمراء، وكانت تُعْرَف بالثغر الأوسط، ويبدو الطابع الجهادي في التسمية واضحًا ذا معنى مهمٍّ وخطير؛ إذ إنها تُمَثِّلُ الحاجز الشمالي الأوسط للدولة الإسلامية في الأندلس ضدَّ غارات الممالك النصرانية المتاخمة؛ ومن هنا فأهميتها تكمن في أمرين:

الأول: الموقع الجغرافي المهم؛ إذ هو موقع إستراتيجي خطير عسكريًّا وسياسيًّا؛ وهذا ما جعلها موضع الاهتمام من كلا الطرفين الإسلامي والإسباني النصراني.

الثاني: المساحة الواسعة والشاسعة لطُلَيْطِلَة وأعمالها (من الكور والمقاطعات) في قلب الأندلس؛ فهي تمتدُّ شرقي مملكة بَطَلْيُوس (الثغر الأدنى)، من قُورِيَة وترجالة (TRUJILLO) نحو الشمال الشرقي، حتى قلعة أيوب وشَنْتَمَرِيَّة الشرق،

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء ١٨/ ١٥٣-١٥٦.

وتُمثِّل الجنوب الغربي لمملكة بني هود في سَرَقُسْطَة (الثغر الأعلى)، وتمتدُّ جنوبًا إلى الغرب حتى حدود مملكة قُرْطُبَة، وتمتدُّ شمالاً إلى الشرق فيما وراء نهر تاجة متاخمة لحدود مملكة قشتالة[1]، وهذا الموقع الخطير يجعلها من ناحية في وضع الصدام العسكري المسلح مع ممالك الطوائف الأندلسية القوية ذات المطامع التوسعية، خاصة بني الأفطس في بَطَلْيُوس (الثغر الأدنى)؛ إذ تُمثِّل طُلَيْطِلَة لها الجانب الشرقي نحو الشمال، وبني هود في سَرَقُسْطَة (الثغر الأعلى)؛ إذ تُمثِّل طُلَيْطِلَة لها الجانب الجنوب الغربي، وبني جهور في قُرْطُبَة؛ إذ تُمثِّل طُلَيْطِلَة لها الجانب الشمالي نحو الغرب، ومن ناحية أخرى فهي موضع عدوان مستمرٍّ وغارات متواصلة من الممالك النصرانية؛ إذ تُعَدُّ طُلَيْطِلَة الخطوة الأولى والأهم للسيطرة على ملوك الطوائف الأندلسية في القبضة النصرانية، وهو ما تمَّ بالفعل على نحو ما سنُبَيِّنُه في موضعه إن شاء الله.

بنو ذي النون الأصل والتاريخ:

ذَكَر أصحابُ التاريخ أن بني ذي النون أسرة بربرية من قبائل هوارة، واسم جدهم الأكبر هو زنون، فتصحف الرسم بطول المدَّة ومُضيِّ الزمن، فصار (ذو النون)، وهو اسم شائع في قبائل البربر، وهم من أسرة - على حدِّ تعبير ابن عذاري المراكشي وابن الخطيب- لم يكن لها نباهة ولا رئاسة إلا في زمن الدولة العامرية؛ في فترة المنصور بن أبي عامر وولده من بعده حتى حدوث الفتنة ونكبة الخلافة[2].

وهناك بعضُ الروايات التاريخية تُوَضِّح أن لهذه الأسرة دورًا منذ أيام الإمارة الأموية ثم الخلافة، وقد استحكم أمرهم زمن الدولة العامرية والفتنة، فابن حيان

---

(١) انظر: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٩٥، بتصرف.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٦، ١٧٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦١، ٦/ ١٤١.

يذكر جدهم ذي النون في أيام الأمير محمد بن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨-٢٧٣هـ=٨٥٢-٨٨٦م)، فقد خَلَّفَ عنده خَصِيًّا بحصن أُقْلِيش (Ucles) فعالجه حتى برئ. وكان ذلك سبيلاً لتوثيق العلاقة بينهما، فولاَّه الأمير حكم أُقْلِيش وشَنْتَمَرِيَّة (Santa Maria) [١]، ومن هنا برز نجم بني ذي النون على مسرح الأحداث، وخاصة في زمن الحكم المستنصر، وقد طمع بنو ذي النون في الاستقلال ولهم في ذلك محاولات؛ منها: محاولة الفتح بن موسى بن ذي النون بقلعة رباح سنة ٣٠٠هـ زمن الخليفة الناصر لدين الله، فأرسل له حملة عسكرية بقيادة عباس بن عبد العزيز فأخضعته [٢].

ثم علا كعب بني ذي النون خاصة في دولة المنصور بن أبي عامر وولده من بعده؛ ففيها قادوا الجيوش وتَوَلَّوُا الأعمال والبلاد، وظهر منهم عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون، وكان قد مَلَك شَنْتَمَرِيَّة كلها، وملكها من بعده ابنه إسماعيل، فلما كانت نكبة الخلافة الأموية وانتهاء عهد الدولة العامرية وقعت الفتنة، فلحق إسماعيل بالثغر وجمع إليه بني عمه، وخطب لسليمان المستعين الملقب بالظافر، فأعطاه سليمانُ ولاية إقليم أُقْلِيش، ثم أخذ يتوسَّع على الممالك المجاورة له، حتى عظمت قوَّته، وانقاد له قوَّاد الثغور؛ فاستقامت له الأمور، فمنحه سليمان الظافر الوزارة ولقَّبه بناصر الدولة، فلما اضطرمت الفتنة أَعلن إسماعيل بن عبد الرحمن بن ذي النون استقلاله، فكان أَوَّلَ الثوار والمفارقين للجماعة، وأخذ يتوسَّع على حساب غيره ويجبي الأموال، وقد وصفه ابن حيان بالبخل قائلاً: «وكان من البخل بالمال، والكَلَفِ بالإمساك، والتقتير في الإنفاق، بمنزلةٍ لم يكن عليها أحدٌ من ملوك عصره، لم يرغب في صنيعة، ولا سارع إلى حسنة، ولا جاد بمعروف، فما

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٤٢، وابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ٢/ ١١، ١٢.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٢/ ١٥٩.

أُعْمِلَتْ إليه مَطِيَّة، ولا حَمَلَتْ أحدًا نحوه ناقة، ولا عَرَّج عليه أديبٌ ولا شاعر، ولا امتدحه ناظمٌ ولا ناثر، ولا استُخْرِجَ من يده درهم في حقٍّ ولا باطل، ولا حَظِيَ أحدٌ منه بطائل، وكان مع ذلك سعيد الجدِّ، تنقاد إليه دُنياه، وتَصْحَبُه سعادتُه، فينالُ صعابَ الأمور بأهون سعيه، وهو كان فَرَطَ الملوك في إيثار الفُرقة؛ فاقتدى به مَنْ بعده... فصار جرثومة النفاق، وأوَّلَ مَنِ استنَّ سُنَّة العصيان والشقاق، ومنه تفجَّر ينبوعُ الفتن والمحن، فتبارك مَنْ أَمْلَى له، ولم يرضَ له عقوبةَ الدنيا مثوبة»[1].

بنو ذي النون في طليطلة:

الظافر إسماعيل بن ذي النون (٤٢٧-٤٣٥هـ=١٠٣٦-١٠٤٣م):

عندما وقعت الفتنة وانهارت السلطة المركزية بالأندلس أضحت طُلَيْطِلَة بلا حاكم أو والٍ يتولَّى أمورها، ويضبط أمنها، ومن ثَمَّ آلت إدارة البلاد إلى قاضيها أبي بكر يعيش بن محمد بن يعيش الأسدي، وبقي في حُكم طُلَيْطِلَة إلى أن عُزِلَ وسار إلى قلعة أيوب، وظلَّ بها إلى أن تُوُفِّيَ سنة ٤١٨هـ[2]، ثم تولَّى من بعده عبد الرحمن بن متيوه، فضبط أمور طُلَيْطِلَة، وظلَّ كذلك إلى أن وافته المنية، فتولَّى من بعده ابنه عبد الملك بن عبد الرحمن بن متيوه، فأساء السيرة في أهلها، واضطربت الأمور وعَمَّت الفوضى، فاجتمع زعماء طُلَيْطِلَة على أن يرسلوا إلى حاكم شَنْتَمَرِيَّة عبد الرحمن بن ذي النون، الذي وَطَّد ابنه إسماعيل أمور البلاد، وكانت هذه فرصة ذهبية لابن ذي النون، وعلى الفور أرسل لهم ابنه إسماعيل بن ذي النون، فاستولى على طُلَيْطِلَة ودخلها سنة (٤٢٧هـ=١٠٣٦م)، وتلقَّب بالظافر، وبدأ يتوسَّع في مُلكه الجديد، واستعان في تدبير أمور البلاد بكبير الجماعة وشيخ البلدة أبي بكر ابن الحديدي؛ فهو

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٤٢، ١٤٣.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ٣/ ٩٨٧، ترجمة رقم (١٥٣٢)، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦١، وذكر أن القاضي يعيش توفي سنة ٤٢٧هـ.

شيخها والمنظور إليه بها من أهل العلم والعقل، والدهاء وحسن النظر، فضلاً عن كونه محبوبًا من أهل طُلَيْطِلَة، فكان الظافر إسماعيل لا يقطع أمرًا دونه، ويُشاوره في مهمات أموره وشئون دولته، ولم تَطُلْ مدَّة ولاية الظافر إسماعيل؛ إذ وافته المنية سنة (٤٣٥هـ=١٠٤٣م)، وخلف من بعده ابنه يحيى بن إسماعيل الملقب بالمأمون(١).

المأمون يحيى بن إسماعيل:

تُوُفِّيَ الظافر إسماعيل وملك من بعده ابنه يحيى الملقب بالمأمون، وذلك سنة (٤٣٥هـ=١٠٤٣م)، وسار المأمون على سُنَّة أبيه في تسيير أمور مملكته المترامية الأطراف، فأقام بين الناس بالعدل، وكانت السياسة التي انتهجها المأمون في بداية عهده سبيلاً لاتساع مملكته.

لم يكن عهد المأمون عهد هدوء واستقرار، وإنما كان عهد تنازع وفراق بينه وبين ملوك الطوائف الأخرى، وكان من شدَّة هذا التنازع والفراق أن ظهرت الخسَّة والنذالة، واستعانوا بالنصارى بعضهم على بعض، وضعفت قوَّة الأطراف المتنازعة، وهذا ما حدا بالنصارى أن يُغِيرُوا على أملاك المسلمين، ولا يجدون رادعًا يردعهم، ولا قوَّةً تطاردهم؛ فنُهِبَت البلاد، وسُرقت الأموال، وسُبيت النساء، وقُتل الأطفال والرجال، وحكام الطوائف يتنازعون على أعراض زائلة، فخسروا دينهم ودنياهم، وما أشبه الليلة بالبارحة!

فعلى الرغم من اتساع مُلك المأمون بن ذي النون إلا أنه شغل خلال فترة حكمه الثلاث والثلاثين بالتخاصم مع ملوك الطوائف الآخرين، وخاصة عدوَّه اللدود سليمان المستعين بن هود صاحب سَرَقُسْطَة، والمعتضد بن عباد صاحب

---

(١) انظر تفصيل الأحداث في: ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٩٤٥، وابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ٢/ ١١، ١٢، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٦، ٢٧٧، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦١، وفيه توفي الظافر إسماعيل سنة ٤٢٩هـ.

إِشْبِيلِيَة ومن بعده ابنه المعتمد، وابن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس.

بيد أن حروب المأمون الأشد شراسة كانت مع سليمان بن هود؛ خاصة أنها حروب على المناطق الحدودية بينهما، ولعلها كذلك الأشدَّ وقعًا على الإسلام والمسلمين؛ إذ استعان كلٌّ منهما على أخيه بالنصارى أصحاب قشتالة، الذين عاثوا في أراضي المسلمين تحت سمعهم وأبصارهم، على نحو ما سنُبَيِّنُه إن شاء الله.

ومن أشهر الأعمال التي قام بها المأمون بن ذي النون دخوله في طاعة هشام المؤيد بالله (أو شبيهه على وجه الدقة) التي دعا إليها المعتضد بن عباد؛ وذلك طمعًا في نصرته ضد عدوِّه سليمان بن هود، وبالفعل قَبِلَ المعتضد الأمر ووعده بالتناصر والتظافر ضد خصمه، وأُخذت البيعة لهشام المؤيد المزعوم في طُلَيْطِلَة، وأُعلن له بالدعاء على المنابر، ولكن يبدو أن المأمون ذهب به الطمع الخائب كل مذهب، وغرَّه الأمل واتَّبع الباطل، واشتغل عنه المعتضد بحروبه ضد ابن الأفطس، ولم ينل من ابن عباد أي شيء، وعاد من بيعته بخفي حنين[1].

وكان من أهمِّ أعمال المأمون -كذلك- الاستيلاء على بَلَنْسِيَة وأعمالها سنة (٤٥٧هـ=١٠٦٥م)؛ حيث كانت تحت حكم عبد الملك بن عبد العزيز حفيد المنصور بن أبي عامر، وكان صهرًا للمأمون حيث تزوَّج ابنته عقب وفاة أخيه زوجها الأول، فأهانها وأساء عشرتها، وكان سيئ السيرة، منهمكًا في الشراب والخلاعة، مع نقصٍ في المروءة والانحطاط في مهاوي اللذات الوضيعة، وكان ذلك سبيلاً لزوال مُلكه، على ما جنت يداه، وهو ما حدث بالفعل، فلمَّا علم المأمون بحال ابنته مع عبد الملك بن عبد العزيز حقد عليه، وأضمر الشرَّ له.

وهناك في استيلاء المأمون على بَلَنْسِيَة روايتان؛ الأولى: أن المأمون قدم على عبد

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٨، ٢٧٩.

الملك بن عبد العزيز بن أبي عامر من طُلَيْطِلَة على سبيل الزيارة، وهناك استقبله صاحب بَلَنْسِيَة أحسن استقبال هو وغلمانه وعبيد القصر، فأقام المأمون عنده أيامًا، ثم دبَّر لعبد الملك مكيدة ذات ليلة، فقبض عليه وعلى ابنه وأخرجهما ليلاً إلى شَنْتَمْرِيَّة، وقيل: إلى قلعة أُقْلِيش. وبعدها تملَّك المأمون شرق الأندلس دون كلفة ولا مشقَّة ولا دماء، والرواية الثانية تقول: إن المأمون استعان بملك قشتالة على صهره صاحب بَلَنْسِيَة، فاستولى عليها واعتقل عبد الملك وابنه، وكان ذلك في شهر ذي الحجة سنة ٤٥٧هـ، وقيل: سنة (٤٥٨هـ=١٠٦٥م)[١].

وأمام توسُّعات المأمون كانت قُرْطُبَة محلَّ نظره منذ زمن، وكان يتحيَّن الفرص للانقضاض عليها، وهو ما حدث بالفعل حينما اضطربت الأمور عقب تولِّي عبد الملك بن جهور أمورها وأساء السيرة بين أهلها، فأغار المأمون عليها عام ٤٦٢هـ، فاستغاث عبد الملك بن جهور بالمعتمد بن عباد، وكانت تلك نهاية بني جهور في قُرْطُبَة[٢]، على نحو ما سنذكره في فصل التناحر بين ملوك الطوائف إن شاء الله.

مع كل هذه الحروب والنزاعات التي شهدتها فترة حُكم المأمون، إلا أنه يُعَدُّ أطول ملوك الطوائف عهدًا؛ فقد دام مُلكه ثلاث وثلاثين سنة، واتَّسعت رقعة مُلكه حتى ملك بَلَنْسِيَة وأعمالها في شرق الأندلس، وعظمت خزائن المأمون حتى قصده الشعراء والعلماء، وأكثر المأمون من تشييد القصور الفخمة، والمجالس الباهرة، ومن أشهرها مجلسه المسمى «المكرم»، ونحن ننقل هنا وصفه؛ ليرى القارئ الكريم مدى الرغد الذي ورثه ملوك الطوائف من عصر الأمجاد، فأضافوا إليه وتفننوا وأبدعوا، ثم نسوا الله فأنساهم أنفسهم، فصارت هذه الذخائر مطمعًا

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ١٢٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٦٦، ٢٦٧، ٣٠٣، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠١، ١٠٢.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٩-٦١١، وابن عذاري: البيان المغرب، ٣/ ٢٦٠، ٢٦١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩-١٥٢.

للنصارى يحوزونها بافتراق المسلمين وتناحرهم، بل استطاعت ممالك الأندلس أن تظلَّ قرنًا تموِّل الممالك النصرانية بما تدفعه من جزية[١].

هذا وصف مجلس المكرم كما يورده ابن حيان ناقلاً له على لسان ابن جابر شاهد العيان: «وكنتُ ممن أذهَلَتْه فتنةُ ذلك المجلس، وأغربُ ما قيَّدَ لَحْظِي من بهيِّ زُخْرفه - الذي كاد يَحبس عيني عن الترقي عنه إلى ما فوقَه- إزارُه الرائع الدائر بأسِّه حيثُ دار، وهو مُتَّخَذٌ من رفيعِ المَرْمَرِ الأبيض المسنون، الزَّاريةِ صفحاتُه بالعاجِ في صِدْقِ الملاسةِ ونَصاعةِ التلوين، قد خُرِّمَتْ في جُثمانه صُوَرٌ لبهائمَ وأطيار وأشجار ذات ثمار، وقد تعلَّق كثيرٌ من تلك التماثيل المصوَّرة بما يليها من أفنان أشجار وأشكالِ الثمر ما بين جانٍ[٢] وعابث[٣]، وعَلق بعضُها بعضًا بين مُلاعبٍ ومُثاقف، تَرنو إلى مَنْ تأمَّلها بألحاظ عاطف، كأنها مُقْبِلَةٌ عليه، أو مُشيرة إليه، وكلُّ صورة منها مُنفردةٌ عن صاحبتها، مُتميِّزةٌ من شكلها، تَكادُ تُقَيِّد البصرَ عن التعلِّي إلى ما فوقها. قد فَصَل هذا الإزارَ عمَّا فوقه كِتَابُ نَقْشٍ عريضُ التقدير، مُخَرَّمٌ محفور، دائرٌ بالمجلسِ الجليلِ من داخله، قد خَطَّه المِنْقَارُ أبين من خطِّ التزوير، قائمُ الحروفِ بديعُ الشكل، مُسْتبينٌ على البُعْدِ، مرقومٌ كلُّه بأشعارٍ حِسان، قد تُخيِّرتْ في أماديح مُخْتَرِعِهِ المأمون. وفوقَ هذا الكتابِ الفاصلِ في هذا المجلس بُحورٌ منتظمة من الزجاج الملوَّن، المُلَبَّسِ بالذهب الإبريز[٤]، وقد أُجريت فيه أشكالُ حيوانٍ وأطيار، وصورُ أنعامٍ وأشجار، يُذهل الألبابَ ويُقَيِّد الأبصار. وأرضُ هذه البحار مَدحوَّة من أوراق الذهب الإبريز، مُصَوَّرَةٌ بأمثال تلك التصاوير من الحيوانِ والأشجارِ بأتقنِ تصويرٍ وأبدع تقدير.

(١) بدرو شلميطا: صورة تقريبية للاقتصاد الأندلسي، منشور في: سلمى الخضراء الجيوسي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ٢/ ١٠٦٠.

(٢) الثمر الجاني: الثَّمر الذي تستطيع أخذه وجنيه ما دام طَرِيًّا رطبًا. ابن منظور: لسان العرب، مادة جني ١٤/ ١٥٣، والمعجم الوسيط ١/ ١٤١.

(٣) الثمر العابث: الجاف، أو هو المختلط الجاف والرطب. ابن منظور: لسان العرب، مادة عبث ٢/ ١٦٦.

(٤) ذَهَب إِبْرِيز: الخالص. ابن منظور: لسان العرب، مادة برز ٥/ ٣٠٩، والمعجم الوسيط ١/ ٢.

ثم قال: ولهذه الدار بُحَيْرَتان، قد نُصَّتْ[1] على أركانها صُوَرُ أسودٍ مَصوغَةٌ من الذهب الإبريز أحكمَ صياغة، تتخيَّل لمتأمِّلها كالحةَ الوجُوه[2] فاغرةَ[3] الشُّدوق[4]، ينساب من أفواهها نحو البُحيرتين الماءُ هَوْنًا كرَشِيش القَطْر أو سُحَالَة اللُّجَين[5]. وقد وُضع في قعر كلِّ بحيرة منهما حوضُ رخام يُسمَّى المَذْبَح، محفورٌ من رفيع المرمر، كبيرُ الجِرْم[6]، غريبُ الشكل، بديعُ النقش؛ قد أُبرزتْ في جَنبَاتِه صُوَرُ حيوانٍ وأطيارٍ وأشجار، وينحصرُ ماؤهما في شَجَرَتَيْ فضَّة عاليتي الأصلين، غَريبتي الشكل، مُحكمتي الصَّنْعة، قد غُرِزَتْ كل شجرة منها وَسَطَ كل مَذبحٍ بأدقِّ صناعة، يترقَّى فيهما الماءُ من المذبحين، فيَنْصَبُّ من أعالي أفنانها انصباب رذاذ المطر أو رَشَاش التندية، فتحدُثُ لِمَخْرَجِه نَغماتٌ تُصبي النفوس، ويرتفعُ بذرْوَتها عمودُ ماء ضخم مُنضغط الاندفاع، ينساب من أفواهها ويُبَلِّل أشخاصَ أطيارها وثمارها، بألسنةٍ كالمبارد الصقيلة، يُقيِّد حُسْنها الألحاظَ الثاقبةَ، ويدع الأذهانَ الحادَّةَ كليلة»[7].

والواقع أنه لم يكن ببلاط المأمون بن ذي النون للشعر والأدب دولة زاهرة، كما كان الشأن في إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس، بيد أننا نجد أكابر شعراء العصر وعلمائه يعيشون

(١) نصَّ: رفع ووضع على المِنَصَّة؛ أي: على غاية الشهرة والظهور. ابن منظور: لسان العرب، مادة نصص ٧/ ٩٧، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٢٦.

(٢) كالحة الوجوه: مكشرة عابسة. الجوهري: الصحاح، باب الحاء فصل الكاف ١/ ٣٩٩، وابن منظور: لسان العرب، مادة كلح ٢/ ٥٧٤، والمعجم الوسيط ٢/ ٧٩٥.

(٣) فغر: فتح في انتفاخ. الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الفاء ٢/ ٧٨٢، وابن منظور: لسان العرب، مادة فغر ٥/ ٥٩، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٩٦.

(٤) الشدوق جمع الشِّدْق: وهو جانب الفم. انظر: الجوهري: الصحاح، باب القاف فصل الشين ٤/ ١٥٠٠، وابن منظور: لسان العرب، مادة شدق ١٠/ ١٧٢، والمعجم الوسيط ١/ ٤٧٦.

(٥) سحالة اللجين: ما سقط من الفضة كالبرادة. الجوهري: الصحاح، باب اللام فصل السين ٥/ ١٧٢٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة سحل ١١/ ٣٢٧، والمعجم الوسيط ١/ ٤٢٠.

(٦) الجِرْم: الجسد. الجوهري: الصحاح، باب الميم فصل الجيم ٥/ ١٨٨٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة جرم ١٢/ ٩٠، والمعجم الوسيط ١/ ١١٨.

(٧) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٣٢، ١٣٤.

في ظلِّ المأمون، وكان من هؤلاء شاعره ابن أرفع رأسه[1]، صاحب الموشحات المشهورة، والعلامة الرياضي ابن سعيد مؤلف تاريخ العلوم المسمَّى «طبقات الأمم»، وكان يُلقي دروسه في المسجد الجامع، والعلامة النباتي ابن بصال الطليطلي[2].

ويجدر بنا ونحن على مشارف الانتهاء من حياة المأمون بن ذي النون أن نذكر أن ابن حيان المؤرخ الأندلسي الكبير لم يجد مَنْ يُهدي كتابه (التاريخ الكبير) سوى للمأمون؛ إذ قال في مفتتحه: «وكنتُ اعتقدتُ الاستئثار به لنفسي، وخَبْأَهُ لولدي، والضنَّ بفوائده الجمَّة... إلى أن رأيتُ زفافه إلى ذي خطبة سَنِيَّة أتتني على بُعْدِ الدار، أكرم خاطبٍ وأسنى ذي همَّة، الأمير المؤثَّل[3] الإمارة المأمون ذي المجدين، الكريم الطرفين، يحيى بن ذي النون[4]»[5].

القادر بالله يحيى حفيد المأمون:

مات المأمون بن ذي النون مسمومًا بقُرْطُبَة -في حادث سنفصل ظروفه بعد قليل إن شاء الله- وخلفه من بعده حفيده يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذي النون وذلك سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، وتلقَّب بالقادر بالله، وكان القادر بالله سيئ الرأي،

---

(١) ابن أرفع رأسه: هو أبو بكر محمد بن أرفع رأسه الطليطلي، شاعر المأمون بن ذي النون، وله موشحات مشهورة يغنى بها في بلاد المغرب. ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ٢/ ١٨.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٦.

(٣) المؤثَّل؛ أي: المجموع ذو الأصل، والدائم. ابن منظور: لسان العرب، مادة أثل ١١/ ٩.

(٤) يقول د. محمود مكي (وهو من المتخصصين في دراسة تاريخ الأندلس): «والحق أننا لا نعرف كيف فعل ابن حيان لكي يُقَدِّم إلى المأمون هذه «الهدية» من تاريخه، وهو الذي وصف مساوئ أسلاف ابن ذي النون ومفاسد حكمهم ما لا نعتقد أنه يعجب هذا الأمير أو ينال منه أدنى قبول. والأعجب من ذلك في هذا التناقض هو ما نراه في فقرات أخرى ينقلها ابن بسام كتب بها ابن حيان إلى المعتمد بن عباد يهنئه بفتح قرطبة وظهوره على المأمون بن ذي النون... والغريب هنا هو أن ابن حيان يرمي المأمون بن ذي النون بأسوأ التهم، مع أنه هو الذي أهدى إليه من قبل تاريخه وطرزه باسمه». (مقدمة تحقيق د. مكي لقطعة من المقتبس ص٣٩).

(٥) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٥٧٨.

قليل الخبرة والتجارِب، مع أنه يحكم مملكة عظيمة وطَّدها له جدُّه المأمون، وكان المأمون قبل وفاته قد قَسَّم وظائف دولته وعهد بها إلى وزيراه: ابن الفرج وابن الحديدي، فجعل أمور الجند لابن الفرج، وأمور المشورة والرأي إلى ابن الحديدي، وأخذ عليهما المواثيق والعهود بحُسن الإدارة والنصح، إلا أن القادر بالله وقع تحت تأثير العبيد والخدم ونساء القصر، وطائفة من قرناء السوء وبطانة الشرِّ، ظلُّوا وراءه حتى أوغروا صدره من ابن الحديدي؛ يسعون للفتك به والتخلُّص منه، ولم يكن القادر ليتخلَّص من ابن الحديدي دون تُهَمَة بيِّنة وخيانة ظاهرة؛ حتى يقنع أهل طُلَيْطِلَة بالأمر، فدبَّر مكيدة؛ وهي أن يستظهر جماعة كان جدُّه المأمون قد أودعهم السجن بإيعاز من ابن الحديدي، فأطلق القادر سراحهم ودعاهم إلى مجلسه، ودعا ابن الحديدي إليه أيضًا، فلما حضر ابن الحديدي ورآهم، أيقن بالهلاك، وأسرع إلى القادر يستجيره منهم، إلا أن القادر غادر مجلسه، فتمكَّنُوا منه وقتلوه، وأمر بنهب دور ابن الحديدي، وكان ذلك في أوائل ذي الحجة سنة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م) [(١)].

لم ينعم القادر بالله منذ أن فتك بابن الحديدي بالأمان؛ إذ صار أعوان الأمس أعداء اليوم، وإذا بمن أوغروا صدره على ابن الحديدي ينقلبون عليه ويكيدون له الدسائس، فلم ينسوا أن المأمون جدَّ القادر هو من أودعهم السجن، وكاد يفتك بهم.

وهكذا بدأت الهموم والمتاعب والثورات تنهال عليه؛ فابن هود صاحب سَرَقُسْطَة يُرهقه بغاراته من ناحية، وأبو بكر بن عبد العزيز صاحب بَلَنْسِيَة استغلَّ الفوضى واستبدَّ بالأمر، وأعلن الثورة والاستقلال، والنصارى يُغيرون على أملاكه، وكادوا أن ينتزعوا قونقة منه، إلاَّ أنه افتداها بمبلغ كبير من المال.

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٥٠-١٥٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٩، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٧.

ومن ناحية أخرى أعلن أعوان الأمس الثورة الداخلية للإطاحة به، وفعلاً هرب القادر من طُلَيْطِلَة إلى حصن وَبْذَة، وهنا وجد أهل طُلَيْطِلَة أنفسهم بلا أمير أو حاكم، فاستقدموا المتوكل بن الأفطس ليحكم البلاد سنة (٤٧٢هـ=١٠٧٩م)، وظلَّ المتوكل حاكمًا عليه، إلى أن عاد القادر مرَّة أخرى بمعونة ألفونسو ملك قشتالة، وحاصرت قوَّات النصارى طُلَيْطِلَة، وهذا ما اضطر المتوكل بن الأفطس إلى أن يخرج منها بعد أن أخذ ما استطاع من أموال القادر وخزائنه، ونجحت قوَّات ألفونسو الدخول إلى طُلَيْطِلَة وإعادة القادر، ودخل القادر طُلَيْطِلَة في حمى النصارى وجنودهم، وكانت هذه العلاقة المشئومة سببًا في سقوط طُلَيْطِلَة..

فيا ليت حُكَّام المسلمين يعون الدرس، ويعتمدون على ربهم، ولا يتَّكلون إلى عدوِّهم؛ فهذا جزاء الخائنين، وصدق الله إذ يقول: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ ۞ وَيَقُولُ الَّذِينَ آمَنُوا أَهَؤُلاءِ الَّذِينَ أَقْسَمُوا بِاللهِ جَهْدَ أَيْمَانِهِمْ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ فَأَصْبَحُوا خَاسِرِينَ﴾ [المائدة: ٥١- ٥٣].

علماء في بلاط طليطلة:

الواقع أنه لم يكن ببلاط طُلَيْطِلَة للشعر والأدب دولة زاهرة كما كان الشأن في إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس، إلا أنها شهدت دولة زاهرة في علوم الحياة: الرياضيات والطبِّ والنبات والزراعة، ومع هذا حرص المأمون على جمع الشعراء حوله، وكان منهم شاعره ابن أرفع رأسه صاحب الموشحات المشهورة، وكان ذلك سبيلاً إلى علوِّ شأن طُلَيْطِلَة كما كان في إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس، ومن مشاهير علماء طُلَيْطِلَة في ذلك الوقت ابن بصال العالم النباتي الشهير، وابن وافد الطبيب، والعلامة الرياضي ابن سعيد

مؤلف تاريخ العلوم المسمى (طبقات الأمم)، والزرقالي، وعلامة طُلَيْطِلَة صاعد الأندلسي الطليطلي.

صاعد الأندلسي: (٤٢٠-٤٦٢هـ=١٠٢٩-١٠٧٠م):

هو القاضي أبو القاسم صاعد بن أحمد بن عبد الرحمن بن صاعد، الأندلسي التغلبي القرطبي الطليطلي، المالكي، أصله من قُرْطُبَة، يُعَدُّ علامة التاريخ في عصره، وكان من أهل المعرفة والذكاء، والرواية والدراية من تلاميذ الإمام ابن حزم، وهو أول مفكر عربي حاول تفسير طبائع البشر وفقًا لتغيُّرات المناخ، وقد ولي قضاء طُلَيْطِلَة للمأمون بن ذي النون، وبقي فيها إلى أن مات.

أشهر كتبه كتاب (طبقات الأمم) الذي ألفه سنة (٤٦٠هـ=١٠٦٧م)، حاول فيه استكمال دراسة أستاذه ابن حزم الظاهري عن دور الأندلس في إنتاج العلوم، والتعريف بأهم الشخصيات الفكرية التي برزت في مختلف العهود الإسلامية، إلا أن دراسته اختلفت عن رسالة ابن حزم في (مراتب العلوم)؛ فهو لم يكتفِ بأخبار الكاتب، بل حاول التعريف بعصره وظروفه وبيئته، وبسبب شمولية الكتاب وَضَع مقدمة تحليلية للتعريف بتاريخ العلوم وتطور الأفكار واتصال الثقافات ببعضها من المشرق إلى المغرب وانتهاء بالأندلس وعصره، فجاءت دراسته تاريخية حاول من خلالها الردَّ على مسألتين: مجرى التطور، وصلة حلقات التطور ببعضها.

وحتى تكون إجابات صاعد واضحة في معالمها كان لا بد له من تجاوز حدود الأندلس والابتعاد عنها جغرافيًّا، والغوص في عمق الزمن إلى عهود سابقة على ظهور الديانات السماوية، واضطر بسبب المستجدات وتغيير خطة كتابه، أن يُعيد قراءة مراتب العلوم كونيًّا في سياق رؤية عالمية للتطوُّر الفكري وصولاً إلى العرب وظهور الإسلام والفتوحات الكبرى.

فرضت خطَّة الكتاب على صاعد أن يقوم بمراجعة شاملة وسريعة لتاريخ الأفكار ودور الأمم في صنعها وصلاتها ببعضها، كذلك حاول قدر الإمكان التعريف بالأمَّة والتعريف بأفكارها، ثم التعريف بأعلامها؛ حتى يربط حلقات التطوُّر في مجرى زمني هادف.

من كتبه: (جوامع أخبار الأمم من العرب والعجم)، و(صوان الحكم) في طبقات الحكماء، و(مقالات أهل الملل والنحل)، و(إصلاح حركات النجوم)، و(تاريخ الأندلس)، و(تاريخ الإسلام) [1].

ابن وافد (٣٨٧-٤٦٧هـ = ٩٩٦-١٠٧٤م):

هو الوزير أبو المطرف عبد الرحمن بن محمد بن عبد الكبير بن وافد بن مهند اللخمي الطليطلي، ولد بطُلَيْطِلَة ونشأ بها، وعاش في كنف بني ذي النون هناك، وهو أحد أشراف أهل الأندلس، وذوي السلف الصالح منهم، والسابقة القديمة فيهم، اعتنى رحمه الله بالطب والأدوية المفردة، وألَّف كتابه (الأدوية المفردة)، الذي قال عنه القاضي صاعد الأندلسي: وتمهَّر بعلم الأدوية المفردة حتى ضبط منها ما لم يضبطه أحد في عصره، وألَّف فيها كتابًا جليلاً لا نظير له، جمع فيه ما تضمن كتاب ديسقوريدس وكتاب جالينوس المؤلفان في الأدوية المفردة، ورتبه أحسن ترتيب.

ولابن وافد في الطب نظريته الشهيرة؛ إذ كان لا يرى التداوي بالأدوية ما أمكن التداوي بالأغذية أو ما كان قريبًا منها، فإذا دعت الضرورة إلى الأدوية فلا يرى التداوي بمركَّبها ما أمكن التداوي بمفردها، فإن اضطر إلى المركَّب منها لم يُكثر التركيب، بل اقتصر على الأقل ما يمكنه منه.

---

(١) ابن بشكوال: الصلة ترجمة رقم (٥٤٥) ١/ ٣٧٠، والمقري: نفح الطيب ٣/ ١٨٢، والزركلي: الأعلام ٣/ ١٨٦، وموقع معرفة على الرابط: www.marefa.org.

ولابن وافد من الكتب: كتاب (الأدوية المفردة)، و(الوساد في الطب)، و(مجربات في الطب)، و(تدقيق النظر في علل حاسة البصر)، وكتاب (المغيث)[١].

خامسًا: بنو هود في سرقسطة

سرقسطة.. الموقع الجغرافي والأهمية العسكرية:

تُعَدُّ مملكة سَرَقُسْطَة من أهمِّ وأخطر الممالك الإسلامية في بلاد الأندلس؛ وخاصة في عصر ملوك الطوائف، واكتسبت الأهمية من أمرين:

الأول: اتساع المساحة الجغرافية لسَرَقُسْطَة؛ إذ هي تشمل في الجغرافيا الأندلسية مدينة سَرَقُسْطَة (Zaragoza) وأعمالها، تُطِيلَة[٢] (Tudela)، ووَشْقَة (Huesca)، وبَرْبُشْتَر (Barbastro)، ولارِدَة (Lareda)، وإِفْرَاغة[٣] (Braga)، وطَرَّكُونة[٤] (Tarragona)، وطُرْطُوشة (Tortosa)، وتشغل المنطقة الواسعة الخصبة التي يخترقها نهر إبره (EbroRiver)، من مصبِّه عند مدينة طُرْطُوشة، حتى مدخله عند مدينة قَلَهُرَّة[٥] في ولاية نافار، ويخترقها فرعها الشمالي الكبير نهر سجري والأفرع الصغيرة الممتدة منه نحو بَرْبُشْتَر ووَشْقَة، وفرعه الجنوبي خالون حتى قلعة أيوب (Calatayud) ودَرَوْقَة، ففي هذه المنطقة الشاسعة التي تكثر فيها الوديان اليانعة والمواقع الإستراتيجية، كانت تقوم مملكة سَرَقُسْطَة[٦].

---

(١) ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٢٣١، ٢٣٢.

(٢) تُطِيلَة: مدينة بالأندلس في شرقي قرطبة، شريفة البقعة غزيرة المياه كثيرة الأشجار والأنهار، اختطت في أيام الحكم بن هشام بن عبد الرحمن بن معاوية. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٢/ ٣٣.

(٣) إفراغة: مدينة بالأندلس من أعمال ماردة كثيرة الزيتون. ياقوت الحموي: معجم البلدان ١/ ٢٢٧.

(٤) طَرَّكُونة: بلدة بالأندلس متصلة بأعمال طرطوشة، وهي مدينة قديمة على شاطئ البحر، منها نهر علان يصب مشرقًا إلى نهر إبره، وهو نهر طرطوشة، وهي بين طرطوشة وبرشلونة بينها وبين كل واحدة منهما سبعة عشر فرسخًا، وطركونة -أيضًا- موضع آخر بالأندلس من أعمال لبلة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٢.

(٥) قَلَهُرَّة: مدينة من أعمال تطيلة في شرقي الأندلس. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٤/ ٣٩٣.

(٦) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٦٥.

ثانيًا: الموقع العسكري والسياسي الخطير؛ إذ هي حائط الصدِّ الأول والأهم لبلاد الأندلس من هجمات الممالك النصرانية الإسبانية؛ فهي تقع بين مملكة قطلونية من الشرق، ومملكة نافار أو نبرة من الشمال الغربي، ومملكة قشتالة من الجنوب الغربي؛ لذلك فهي في جهاد دائم؛ إذ لم يَكُفُّ النصارى عن هجماتهم على بلاد الإسلام في الأندلس منذ الفتح الإسلامي لها؛ لذلك أَطلق عليها المسلمون (الثغر الأعلى).

بنو تجيب في سرقسطة:

استولى بنو تُجيب -وهم أسرة عربية- على إقليم سَرَقُسْطَة، وعلا كعبهم فيها خلال حُكم المنصور بن أبي عامر، حينما أقرَّ يحيى بن عبد الرحمن التجيبي على الثغر الأعلى، وذلك سنة (٣٩٧هـ=٩٨٩م)، واستمرَّ فيها إلى أن توفي سنة (٤٠٨هـ=١٠١٧م)، وخلفه ابنه المنذر بن يحيى التجيبي، الذي يُعَدُّ أقوى حكام بني تُجيب في الأندلس، وكان من بُعْدِ نظره أنه رأى أن يُهادن النصارى إلى حين؛ ليأمن غاراتهم وعواقب هجماتهم على بلاد الأندلس، فوطد علاقاته مع رامون أمير بَرْشُلُونَة، وسانشو الكبير (شانجة) ملك نافار، وولده فرناندو الأول ملك قشتالة، وألفونسو الخامس ملك ليون، وقد بالغ المنذر في علاقاته معهم، فعقد حفلاً في قصره لعقد المصاهرة بين سانشو ورامون، حضره أهل الملتين من فقهاء المسلمين وقساوسة النصارى، فسخط الناس عليه واتهموه بالخيانة؛ بيد أن الناس لم يُدركوا بعدُ هذه السياسة الحكيمة من المنذر إلاَّ بعد وفاته؛ إذ عادت هجمات النصارى عليهم بعد أن ركن النصارى للدعة ومسالمة المسلمين[(١)].

وهذه السياسة هي التي يلجأ إليها أصحاب الممالك الصغيرة والدويلات الممزقة، وهي سياسة تُنشئها وتُغَذِّيها شهوة حُبِّ السلطة؛ فإنها شهوة تُغَيِّب العقل؛

(١) ابن بسام: الذخيرة ١/ ١٨٠-١٨٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٧٥-١٧٧.

إذ لو كان أمراء الممالك الصغيرة يُعْمِلُون عقولهم ويتنازلون عن شهوة السلطان، إذًا لسعوا نحو الوحدة والاتحاد وآثروا جمع الكلمة، بدلاً من هذه الفرقة التي تأتي بالضعف فلا يصير أمام أحدهم إلاَّ أن يبذل من ماله أو من مبادئه لأعدائه ما يحفظ به نفسه منهم، ثم ليتحالف معهم وينتصر بهم على إخوانه.

استطاع المنذر بن يحيى أن يُقيم دولته القوية في الثغر الأعلى بسَرَقُسْطَة وأعمالها، وتلقَّب بألقاب السلاطين! فتلقَّب بالمنصور والحاجب ذي الرئاستين!! واستمرَّ في حكم سَرَقُسْطَة حتى سنة ٤١٤هـ، وخلفه من بعده ابنه المظفر يحيى بن المنذر حتى توفي عنها سنة (٤٢٠هـ=١٠٢٩م)، ثم خلفه من بعده ابنه المنذر الثاني بن يحيى، الذي تلقَّب بالحاجب معزِّ الدولة، وكانت على يديه نهاية عهد بني تُجيب بسَرَقُسْطَة؛ إذ توفي مقتولاً على يد ابن عمٍّ له يُسَمَّى عبد الله بن حكيم سنة (٤٣٠هـ=١٠٣٩م)، ثم دعا لنفسه، ولكن يبدو أن أهل سَرَقُسْطَة ثاروا عليه لسوء خلقه، وهمُّوا بقتله فخرج فارًّا بنفسه، وبقي أهل سَرَقُسْطَة دون أمير يُسَيِّر شئونهم؛ فبعثوا لسليمان بن هود حاكم لارِدَة، فدخل سَرَقُسْطَة واجتمع الناس عليه، فكان ذلك بداية عهد بني هود بسَرَقُسْطَة، في المحرم سنة (٤٣١هـ= سبتمبر ١٠٣٩م)[(١)].

بنو هود في سرقسطة:

سليمان المستعين بن هود:

اجتمعت كلمة أهل سَرَقُسْطَة على سليمان بن هود كأمير عليهم وتلقَّب بالمستعين بالله وذلك في المحرم سنة ٤٣١هـ، ومنذ هذا التاريخ بسط بنو هود سلطانهم على الثغر الأعلى لبلاد الأندلس، وكان سليمان بن هود يملك سَرَقُسْطَة

(١) انظر تفصيل الأحداث في: ابن بسام: الذخيرة ١/ ١٨٥-١٨٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٧٨-١٨٠، ٢٢١، ٢٢٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٠، ١٧١، وفيه يذكر ابن الخطيب أن أهل سرقسطة هم من ثار على المنذر بن يحيى وصرفوا طاعته إلى سليمان بن هود، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦٣.

وأعمالها ما عدا طُرْطُوشة، التي كانت بيد الفتيان العامريين، ولعلَّ أشهر الأعمال السياسية والعسكرية في حياة سليمان بن هود ما كان بينه وبين المأمون بن ذي النون صاحب طُلَيْطِلَة، واستعانة كل منهما على أخيه بالنصارى (حكام نافار وقشتالة)، وظلَّ النصارى يُذكون نار الفتنة بين المسلمين، وكادت الفتنة تأتي على أراضي المسلمين، إلاَّ أن الله وقى المسلمين شرَّها بموت سليمان المستعين بن هود سنة (٤٣٨هـ=١٠٤٦م)[1]، وذلك على نحو ما سنُبَيِّنُه في موضعه إن شاء الله.

المقتدر بالله أحمد بن هود:

قبيل وفاة سليمان بن هود قسم أعمال دولته على أبنائه الخمسة؛ فولَّى ابنه أحمد بن سليمان سَرَقُسْطَة، وولَّى يوسف لارِدَة، وولَّى محمدًا قلعة أيوب، وولَّى لُبًّا مدينة وَشْقَة، وولَّى المنذر تُطِيلَة[2]، ويبدو أن هذا العمل كان عملاً سلبيًّا؛ إذ زرع العداوة والشقاق والتناحر بين الإخوة، فما أن تُوُفِّيَ والدهم حتى استبدَّ كلٌّ منهم بما تحت يده من أعمال والده، ولكن يبدو أن أحمد بن سليمان كان أسعدهم حظًّا، وأقواهم ذكاء وحيلة؛ إذ ظلَّ يتحايل على إخوته على ملكهم جميعًا، فسجنهم، وبسط سلطانه على سلطانهم، غير لارِدَة؛ إذ وقف أخوه يوسف الملقب بحسام الدولة، أمام أطماعه واستطاع أن يحمي لارِدَة من أخيه.

وليس ذلك فحسب، بل وقفت العامة مع أخيه يوسف ضدَّه؛ لما رَأَوْا من بشاعة أفعاله ونكاله بإخوته، وتلقَّب يوسف بالمظفر، وكادت البلاد أن تقع تحت نير الحرب الأهلية بين الأخوين: أحمد المقتدر ويوسف المظفر، ولكن أحمد المقتدر استطاع أن يتغلَّب على أخيه يوسف بالغدر والخيانة والاستهتار بدماء المسلمين؛ إذ استعان بالنصارى على أخيه، واستطاع بقوتهم أن يضمَّ لارِدَة وتُطِيلَة (أعمال

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٧-٢٨٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٧، ١٧٨.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٢٢، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧١.

سَرَقُسْطَة) إلى أملاكه، فعظم مُلْكُه، وقويت شوكته[١]، كما استطاع أن يضمَّ طُرْطُوشة إلى أملاكه بعد تغلُّبه على الفتى نبيل العامري سنة (٤٥٢هـ=١٠٦٠م)[٢]، كما استطاع أن ينتزع دانية من صهره علي إقبال الدولة بعد أن حاصرها وضيَّق عليها، وذلك سنة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م)[٣]؛ وبذلك أضحت سَرَقُسْطَة أكبر ممالك الطوائف من حيث المساحة.

مأساة بربشتر :

إن من أعظم المحن -إن لم تكن أعظمها- ما حدث للمسلمين في بَرْبُشْتَر (Barbastro)؛ إذ كان الخطب بها أكبر من أن يوصف؛ حيث هاجم النورمانديون المدينة سنة (٤٥٦هـ=١٠٦٤م) وفتكوا بأهلها، وأبادوا المسلمين بأبشع صور الإبادة في التاريخ، ولم يُبادر المقتدر أحمد بن هود لإنجاد المدينة؛ لأنها من أعمال أخيه يوسف المظفر، وقد وصف ابن حيان المحنة بكلمات من الدماء لِمَا حلَّ بالمسلمين هناك، يقول بعد أن ذكر تخاذل المقتدر عنها: «فأقام العدوُّ عليها أربعين يومًا، ووقع فيما بين أهلها تنازع في القوت لقلَّتِه، واتصل ذلك بالعدوِّ فشدَّد القتالَ عليها والحصر لها، حتى دخل المدينة الأولى في خمسة آلاف مُدَرَّع، فدهش الناس وتحصَّنوا بالمدينة الداخلة، وجرت بينهم حروب شديدة، قُتِلَ فيها خمسمائة إفرنجي، ثم اتُّفِقَ أن القناة التي كان الماء يجري فيها من النهر إلى المدينة تحت الأرض في سَرَب موزون انهارت وفسدت، ووقعت فيها صخرة عظيمة سَدَّت السَّرَب بأسره؛ فانقطع الماء عن المدينة، ويئس مَنْ بها من الحياة، فلاذوا بطلب الأمان على أنفسهم خاصة دون مال وعيال، فأعطاهم العدوُّ الأمان، فلمَّا خرجوا نكث بهم وغدر، وقُتل الجميع إلا

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٢٢، ٢٢٣.
(٢) المصدر السابق ٣/ ٢٥٠.
(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٢٨.

القائد ابن الطويل والقاضي ابن عيسى في نفر من الوجوه، وحصل للعدوِّ من الأموال والأمتعة ما لا يُحْصَى، حتى إن الذي خصَّ بعضَ مُقَدَّمي العدوِّ لحصنه - وهو قائد خيل رومة- نحو ألف وخمسمائة جارية أبكارًا، ومن أوقار[1] الأمتعة والحلي والكسوة خمسمائة جمل، وقُدِّر مَنْ قُتل وأُسر بمائة ألف نفس، وقيل: خمسون ألف نفس. ومن نوادر ما جرى على هذه المدينة لَّما فسدت القناة وانقطعت المياه أن المرأة كانت تقف على السور وتُنادي من يقرب منها أن يعطيها جرعة ماء لنفسها أو ولدها، فيقول لها: أعطيني ما معك. فتعطيه ما معها من كسوة وحلي وغيره».

ويُكمل ابن حيان قائلاً: «وكان السبب في قتلهم أنه خاف مَنْ يَصِلُ لنجدتهم وشاهد من كثرتهم ما هاله، فشرع في القتل -لعنه الله تعالى- حتى قتل منهم نيِّفًا وستة آلاف قتيل، ثم نادى الملك بتأمين مَنْ بَقِيَ، وأمر أن يخرجوا، فازدحموا في الباب إلى أن مات منهم خلق عظيم، ونزلوا من الأسوار في الحبال للخشية من الازدحام في الأبواب، ومبادرة إلى شرب الماء، وكان قد تحيَّز في وسط المدينة قدر سبعمائة نفس من الوجوه، وحاروا في نفوسهم، وانتظروا ما ينزل بهم، فلمَّا خلت ممَّنْ أُسر وقُتل وأُخرج من الأبواب والأسوار، وهلك في الزحمة، نُودي في تلك البقية بأن يُبادر كلٌّ منهم إلى داره بأهله وله الأمان، وأُرهقوا وأُزعجوا، فلما حصل كل واحد بمن معه من أهله في منزله، اقتسمهم الإفرنج -لعنهم الله تعالى- بأمر الملك، وأخذ كل واحد دارًا بمن فيها من أهلها، نعوذ بالله تعالى.

وكان من أهل المدينة جماعة قد عاذوا برءوس الجبال، وتحصنوا بمواضع منيعة، وكادوا يهلكون من العطش، فأمَّنهم الملك على نفوسهم، وبرزوا في صور الهلكى من العطش، فأطلق سبيلهم، فبينما هم في الطريق إذ لقيتهم خيل الكفر ممن لم

---

(١) أوقار جمع وِقْر: وهو الحِمْل الثقيل، وعَمَّ بعضهم به الثقيل والخفيف. الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الواو ٢/ ٨٤٨، وابن منظور: لسان العرب، مادة وقر ٥/ ٢٨٩.

يشهد الحادثة، فقتلوهم إلا القليل ممن نجا بأجله.

وكان الفرنج -لعنهم الله تعالى- لما استولوا على أهل المدينة يفتضُّونَ البكر بحضرة أبيها، والثَّيِّب بعين زوجها وأهلها، وجرى من هذه الأحوال ما لم يشهد المسلمون مثله قط فيما مضى من الزمان، ومَنْ لم يرضَ منهم أن يفعل ذلك في خادم أو ذات مهنة أو وخش أعطاهن خَوَله وغلمانه يعيثون فيهن عيثه[1]، وبلغ الكَفَرة منهم يومئذ ما لا تلحقه الصفة على الحقيقة، ولَمَّا عزم ملك الروم على القفول إلى بلده تخيَّر من بنات المسلمين الجواري الأبكار والثيبات ذوات الجمال، ومن صبيانهم الحسان ألوفًا عدَّة، حملهم معه ليهديهم إلى مَنْ فوقه، وترك من رابطة خيله ببَرْبُشْتَر ألفًا وخمسمائة، ومن الرجَّالة ألفين[2].

وقد صوَّر الفقيه ابن العسال فجيعة المسلمين هذه فقال: [الكامل]

هَتكُوا بِخَيْلِهِمُ قُصُورَ حَرِيمِهَا ... لَمْ يَبْقَ لا جَبَلٌ وَلا بَطْحَاءُ

جَاسُوا خِلالَ دِيَارِهِمْ فَلَهُمْ بِهَا ... فِي كُلِّ يَوْمٍ غَارَةٌ شَعْرَاءُ

كَمْ مَوْضِعٍ غَنِمُوهُ لَمْ يُرْحَمْ بِهِ ... طِفْلٌ وَلا شَيْخٌ وَلا عَذْرَاءُ

وَلَكَمْ رَضِيعٍ فَرَّقُوا مِنْ أُمِّهِ ... فَلَهُ إِلَيْهَا ضَجَّةٌ وَبُغَاءُ

وَلَرُبَّ مَوْلُودٍ أَبُوهُ مُجَدَّلٌ[3] ... فَوْقَ التُّرَابِ وَفَرْشُهُ الْبَيْدَاءُ

وَمَصُونَةٍ فِي خِدْرِهَا مَحْجُوبَةٍ ... قَدْ أَبْرَزُوهَا مَا لَهَا اسْتِخْفَاءُ

وَعَزِيزِ قَوْمٍ صَارَ فِي أَيْدِيهِمُ ... فَعَلَيْهِ بَعْدَ الْعِزَّةِ اسْتِخْذَاءُ

---

(١) أي أن الإفرنجي إذا وجد خادمة أو غير ذات جمال تكبر أن يهتكها هو فكان يعطيها لخدمه وغلمانه يهتكونها.

(٢) المقري: نفح الطيب ٤/ ٤٤٩-٤٥١. وانظر مآسي المسلمين في: ابن بسام: الذخيرة ٥/ ١٨١-١٨٩، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٢٥-٢٢٧.

(٣) المجدَّل: الصريع، أو الملقى بالأرض. ابن منظور: لسان العرب، مادة جدل ١١/ ١٠٣.

لَـوْلا ذُنُـوبُ الْمُسْـلِمِينَ وَأَنَّهُـمْ رَكِبُـوا الْكَبَـائِرَ مَـا لَهُـنَّ خَفَـاءُ

مَا كَانَ يُنْصَرُ لِلنَّصَارَى فَارِسٌ أَبَـدًا عَلَـيْهِمْ فَالـذُّنُوبُ الـدَّاءُ

فَشِرَارُهُـمْ لا يَخْتَفُـونَ بِشَرِّهِـمْ وَصَلاحُ مُنْتَحِلِي الصَّلاحِ رِيَاءُ(١)

ونحن لَنْ نُعَقِّب على الحادثة بل نترك ابن حيان يُعَقِّب عليها بنفسه؛ لنتبيَّن الأسباب التي أدَّت إلى وقوع تلك الكارثة بالمسلمين، يقول ابن حيان: قد غَرْبَلَ (زماننا هذا) أهليه أشدَّ غربلة، فسَفْسَفَ أخلاقهم، واجتثَّ أعراقهم، وسفَّه أحلامَهُم، وخبَّثَ ضمائرهم، فاحتوى عليهم الجهلُ، واقتطعهم الزَّيْفُ، وأركستهم الذنوب، ووَصَمَتْهُمُ العيوبُ، فليسوا في سبيل الرشد بأتقياء، ولا على معاني الغيِّ بأقوياء، شاءٌ من الناس هامل، يُعَلِّلون نفوسهم بالباطل، من أدلِّ الدلائل على فرط جهلهم بشأنِهم، اغترارهم بزمانهم، وبعادهم عن طاعةِ خالقهم، ورفضهم وصيَّةَ رسوله نبيهم ﷺ، وذهولهم عن النظر في عاقبة أمرهم، وغفلتهم عن سدِّ ثغرهم، حتى لظلَّ عدوُّهم الساعي لإطفاء نورهم يتبحبحُ عِرَاصَ ديارهم، ويستقرئُ بسائِطَ بقاعهم، يقطعُ كلَّ يومٍ طرَفًا منهم، ويبيدُ أمَّةً، ومَنْ لدينا وحوالينا من أهل كلمتنا صُموتٌ عن ذكرهم، لهاةٌ عن بثِّهم، ما إن يُسْمَعُ عندنا في مسجد من مساجدنا وَمَحفلٍ من محافلنا مذكِّرٌ بهم أو داعٍ لهم، فضلاً عن نافرٍ إليهم أو مواسٍ لهم، حتى كأنْ ليسوا منَّا، أو كأنَّ فتقَهُمْ ليس بمفضٍ إلينا، قد بخلنا عليهم بالدعاء، بُخْلنا بالغَنَاء، عجائبُ مُغْرِبَة فاتتِ التقدير، وعرضت للتغيير، فلله عاقبةُ الأمور، وإليه المصير(٢).

طار نبأ الفجيعة في بلاد الأندلس كلها، واهتزت لها القلوب، وتزلزت النفوس، فأسرع المقتدر بن هود- الذي لحقه العار والمذلة لأنه ترك المدينة ولم

---

(١) الحميري: صفة جزيرة الأندلس ١/ ٤٠، ٤١.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٥/ ١٨٨، ١٨٩.

ينجدها باعتبارها من أملاك أخيه يوسف- فأعلن الجهاد، ونادى بالنفير العامِّ في بلاد الأندلس، فاجتمع له كثير من المتطوِّعة، وبعث له المعتمد بن عباد خمسمائة فارس من إشبيلية، فسار في جمادى الأولى سنة (٤٥٧هـ=١٠٦٥م)، وضربوا الحصار على المدينة، ودارت معركة شرسة مع النصارى قُتل فيها منهم ألف فارس وخمسمائة راجل، ودخل بخمسة آلاف سبية من سبايا النصارى سَرَقُسْطَة، وعادت المدينة إلى أملاك المسلمين بعد أن دامت في يد النصارى تسعة أشهر[١].

يبدو أن علاقة المقتدر مع ممالك النصارى كانت صافية؛ بيد أنه كان يستعين بهم في تصرُّفاته العسكرية، وخططه السياسية التوسعية، وكان يستعين بأحدهم على الآخر.

يقول الأستاذ محمد عبد الله عنان نقلاً عن دوزي في تاريخه لمسلمي إسبانيا: «وكان المقتدر بن هود من أعظم ملوك الطوائف في زمانه، وكان يُحيط نفسه بشيء من العظمة والأبهة، وكان بلاطه من أعظم قصور الطوائف وأفخمها، وكان يُحيط نفسه بطائفة من أشهر العلماء والكُتَّاب في عصره؛ ومنهم: العلامة الفقيه أبو الوليد الباجي، ووزيره أبو المطرف بن الدباغ، بل كان المقتدر نفسه من علماء عصره، وكان يشغف بدراسة الفلسفة والرياضيات والفلك، وقد كتب كتبًا في الفلسفة والرياضيات»[٢].

وهكذا استطاع المقتدر أحمد بن هود أن يُكَوِّن مملكة مترامية الأطراف، ويُوَطِّد حكمه فيها، إلى أن تُوُفِّيَ سنة (٤٧٥هـ=١٠٨١م) متأثِّرًا بعضة كلب[٣]، بعد أن دام حكمه ٣٥ سنة.

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٥/ ١٨٩، ١٩٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٢٧، ٢٢٨، والحميري: الروض المعطار ص٩١، وصفة جزيرة الأندلس ١/ ٤١، والمقري: نفح الطيب ٤/ ٤٥٤.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٨٣.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٢٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧١، ١٧٢، وهنا يذكر ابن الخطيب وابن عذاري أن المقتدر قتل رجلاً صالحًا، كان يعظه ويُذَكِّره بالله، فسلط الله عليه كلبًا، فأصابه بكَلَب، وقد كان المقتدر ينبح كما ينبح الكلاب، وظلَّ كذلك حتى مات. نعوذ بالله من سوء الخاتمة.

يوسف المؤتمن بن هود:

يبدو أن المقتدر ارتكب نفس الخطأ الذي ارتكبه والده من قبل؛ بتقسيم مملكته بين ولديه، فخصَّ ابنه الأكبر يوسف المؤتمن بسَرَقُسْطَة وأعمالها، وخصَّ ابنه الأصغر المنذر بلارِدَة وطُرْطُوشة ودانية ومنتشون، وكما حدث بين أولاد سليمان بن هود من قبل حدث بين أولاد المقتدر من بعد؛ فقد طمع كلٌّ من الأخوين بما في يد أخيه، فاستعان كل منهما بحليفٍ من النصارى على أخيه، فارتمى يوسف المؤتمن في أحضان السيد القمبيطور، وجيشه من المرتزقة القشتاليين، وارتمى المنذر في أحضان سانشو ملك أراجون ورامون أمير بَرْشُلُونَة، وتعرَّض المنذر وحلفاؤه لهزيمتين قاسيتين عند قلعة المنار القريبة من لارِدَة سنة (٤٧٥هـ=١٠٨٢م)، وأُسر فيها أمير بَرْشُلُونَة رامون، والثانية عند أحواز موريلا على مقربة من طُرْطُوشة، برز فيهما السيد القمبيطور كحليف مخلص ليوسف المؤتمن[(١)].

وقد حاول المؤتمن أن ينتزع بَلَنْسِيَة لما تتمتع به من موقع جغرافي، إلا أن حاكمها أبا بكر بن عبد العزيز لاحظ ما ينويه المؤتمن، فأسرع وسدَّ باب طمع المؤتمن بن هود، بأن زوَّج ابنته لأحمد المستعين بن يوسف المؤتمن، وحملها لزوجها أحمد إلى سَرَقُسْطَة، وكان بناؤها في ليلة ٢٧ من رمضان سنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م)[(٢)].

لم تكن شهرة يوسف المؤتمن في قدرته العسكرية وطموحاته التوسعية فقط، بل

---

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٨٥، ٢٨٦، والقمبيطور: اسمه رودريغو دي فيغار، من مواليد قرية فيغار قرب برغش، أما تلقبه بالسيد، فهي تحريف لكلمة السيد العربية، وقد أطلقها المسلمون الذين خدم بينهم وحارب معهم، وأما وصفه القمبيطور، فمعناها المحارب الشجاع، فنظرًا لبسالته وشغفه بالقتال، اتخذت الأساطير القشتالية من أعماله عناصر لبطولته، ورفعته إلى مرتبة بطل إسبانيا القومي، وقد خرج هذا الفارس عن كل مبادئ الدين والإنسانية، فتارة يؤجر نفسه لأمراء المسلمين وتارة لأمراء النصارى، ويتدخَّل بشكل مباشر في الثورات والحروب في الممالك النصرانية والإسلامية. انظر: طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٤٥٤.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٣٠٤، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٨٦.

كذلك في كفاءته العلمية والفكرية، وكان مثل أبيه المقتدر عالمًا بالرياضيات والفلك، وله فيها تآليف؛ مثل: رسالة الاستكمال والمناظر، وقد تُرجمت رسالته الاستكمال في القرن الثاني عشر الميلادي إلى اللاتينية، وقد وُصفت رسالته هذه أنها ترتفع من حيث قيمتها العلمية إلى مستوى إقليدس والمجيسطي[١]، كما كان المؤتمن محبًّا لمجالسة العلماء والشعراء[٢].

لم تَدُم مدَّة حُكم المؤتمن أكثر من أربعة أعوام؛ إذ وافته المنية سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، وهي السنة التي استولى فيها النصارى على طُلَيْطِلَة من يد القادر بن ذي النون، كانت وفاة المؤتمن بن هود نهاية لتوسعاته، وخلفه في الحُكم ابنه أحمد المستعين[٣].

أحمد المستعين بن هود:

تُوُفِّيَ يوسف المؤتمن وخلفه ابنه أحمد المستعين، الذي يُعْرَفُ بالمستعين الأصغر[٤]، وأول ما واجهه هو صدُّ غارات النصارى، والوقوف أمام أطماع ألفونسو في انتزاع سَرَقُسْطَة، فما أن أسقط ألفونسو طُلَيْطِلَة سنة (٤٧٨هـ =١٠٨٥م)، حتى وجَّه قوَّاته ناحية سَرَقُسْطَة حاضرة المستعين، وضرب الحصار عليها، واستمات المستعين بكل ما يملك من أجل الدفاع عن مدينته وأملاكه أمام الهجوم القشتالي العنيف، وطرق المستعين كل الأبواب من أجل دفع ألفونسو، وعرض عليه المال الكثير، ولكن النصارى رفضوا؛ فالمدينة هي هدفهم ولا هدف غيرها، وأصرَّ ألفونسو على أخذ المدينة، وأذاع عُمَّالُه في أنحاء سَرَقُسْطَة أنه ما جاء

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦٣، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٨٦.
(٢) ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب ٢/ ٤٣٧.
(٣) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٨، ابن الأبار: الحلة السيراء ٢٤٨، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦٣.
(٤) ابن سعيد المراكشي: المغرب في حلى المغرب ٢/ ٤٣٧.

إلا للمصلحة العامة، وما جاء إلا ليُطَبِّق القرآن وتعاليمه السمحة، ولن يجبي منهم من الضرائب إلا ما يُجيزه الشرع الحكيم، وأنهم سوف يكونوا موضع عنايتهم ورعايتهم، كما كان الوضع مع إخوانهم في طُلَيْطِلَة، واستمرَّ الحصار القشتالي على سَرَقُسْطَة دون فائدة، ثم جاء النبأ العظيم بقدوم المرابطين لإنقاذ الأندلس سنة (٤٧٩هـ=١٠٨٦م)، فما أن علم ألفونسو بذلك النبأ حتى بعث مسرعًا إلى المستعين أنه يقبل الجزية التي عرضها، فأجابه المستعين، وكان ألفونسو على علم بأن المستعين لن يدفع إليه درهمًا واحدًا[1].

بعد انتصار القوات الأندلسية المرابطية المتحدة على النصارى في الزَّلاَّقَة في (رجب ٤٧٩هـ= أكتوبر ١٠٨٦م) ضعفت قوَّة قشتالة، ولم تَعُدْ تُشَكِّل خطرًا على سَرَقُسْطَة، فاستغلَّ المستعين هذه الفرصة وأخذ يتحيَّن الفرص للانقضاض على بَلَنْسِيَة حلم آبائه من قبله، وطرق في ذلك الوسائل النبيلة والنذيلة، وقد كُلِّلَتْ كلُّ محاولاته بالفشل؛ خاصة أنه اعتمد على النصارى المرتزقة بزعامة القمبيطور، الذي شاءت الأقدار أن تئول بَلَنْسِيَة إلى أملاك القمبيطور، بعد أن حاصرها بجنوده ونصب عليها المجانيق، حتى أكل المسلمون الكلاب والجيف والفئران، بل وأكل الناس من مات من إخوانهم المسلمين، ولما طال الحصار ولم يجد أهل بَلَنْسِيَة من يُنجدهم سقطت المدينة في يد القمبيطور سنة ٤٨٨هـ، ولم تزل بَلَنْسِيَة في أيدي النصارى حتى استردَّها المرابطون سنة ٤٩٥هـ[2].

وهكذا فشلت كل المحاولات التي اتخذها المستعين، وفجأة توالت المخاطر على المستعين من كل جانب؛ إذ وقع بين خطرين قد يقضيان على أحلامه، بل وملكه وحياته إذا أساء التصرُّف معهما؛ الخطر الأول: قادم من الشمال متمثلاً في جيرانه

---

(١) نقلاً عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٨٧.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٣٠٣-٣٠٦.

النصارى، والخطر الثاني: زاحف من الجنوب متمثلاً في قوة المرابطين الجديدة، التي تهدف إلى وحدة واحدة تجمع الأندلس كلها، وظلَّ المستعين يتحاين التحالف بين هذا وذاك، حتى قُتِلَ في معركة بلتيرة أو فالتيرا أمام ألفونسو المحارب ملك أراغون في (رجب ٥٠٣هـ= يناير ١١١٠م) [١]، كما أنه خسر مدينة وقشة إثر هزيمته الكبيرة أمام بيدور الأول بن شانجة راميرو بعد أن حاصرها، واحتدم القتال بين المستعين وبيدور من طلوع الشمس حتى غروبها، وخسر المسلمون أكثر من ١٢ ألفًا من الجنود، وقُتِلَ المستعين، وذلك في ذي القعدة (٤٨٩هـ=١٠٩٦م) [٢].

نهاية بني هود:

مات المستعين بن هود وخلف من بعده ابنه عبد الملك الملقب بعماد الدولة، وبايعه أهل سَرَقُسْطَة شريطة ألاَّ يُحَالِف النصارى وألاَّ يستعين بهم، ولكن يبدو أن الأمور سارت على عكس ما أراد الشعب؛ إذ استعان عبد الملك بالنصارى، فغضب الناس وتحرَّكت الحمية في قلوبهم، وبعثوا إلى المرابطين الذين استجابوا لندائهم بعد أن أفتى الفقهاء بذلك، فدخلها المرابطون سنة ٥٠٣هـ، وانتهى بذلك حكم بني هود في سَرَقُسْطَة، وآلت إلى المرابطين، ولكن تداعت الأمور وسقطت المدينة في يدي النصارى في رمضان (٥١٢هـ=١١١٢م) [٣].

ويجب ألاَّ ننسى في نهاية حديثنا عن بني هود في سَرَقُسْطَة أن نذكر دور سَرَقُسْطَة المسلمة في ترويج رُوح التبادل التجاري والمهني بين المشرق والمغرب؛ فقد كانت مملكة سَرَقُسْطَة بسيطرتها على جزء كبير من البحر المتوسط، وثغريها الكبيرين

---

(١) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٢٤٨، وابن عذاري: البيان المغرب ٤/ ٥٥، وانظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٤، ويذكر ابن الخطيب أن المستعين استشهد في جهاده ضد النصارى سنة ٥٠١هـ، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٩١.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٢.

(٣) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٢٤٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦٣.

طَرَّكُونة وطُرْطُوشة، تستقبل شطرًا كبيرًا من تجارة المشرق وتجارة الأندلس والمغرب، وتعمل على تصريفها إلى الأمم الأوربية، عن طريق ثغور فرنسا وإيطاليا، وكان بنو هود يجنون من وراء ذلك كله أرباحًا طائلة، كان لها بعيد الأثر في دفع غارات النصارى، من خلال دفع الإتاوات الوفيرة لملوك النصارى، مقابل اتقاء عدوانهم أطول وقت ممكن(١).

علماء في بلاط سرقسطة:

كانت سَرَقُسْطَة في عهد بني هود كغيرها من حواضر العلم في الأندلس آنذاك؛ إذ تُساوي في مكانتها العلمية إِشْبِيلِيَة حاضرة بني عباد، وبَطَلْيُوس حاضرة بني الأفطس، وطُلَيْطِلَة حاضرة بني ذي النون؛ فقد نبغ فيها علماء أجلاء؛ كابن باجة الفيلسوف، والطرطوشي الفقيه، وإسماعيل بن خلف القارئ، فضلاً عن المكانة العلمية التي تمتَّع بها كلٌّ من المقتدر أحمد بن هود وابنه المؤتمن يوسف؛ فقد نبغا في الفلسفة والرياضيات والفلك.

الطُّرْطُوشيُّ (٤٥١-٥٢٠هـ=١٠٥٩-١١٢٦م):

هو أبو بكر محمد بن الوليد بن محمد بن خلف بن سليمان بن أيوب الفهري الطُّرْطُوشيُّ(٢) الأندلسي الفقيه المالكي، وكان أبو بكرٍ يُعْرَف في وقته بابن أبي رَنْدَقَة(٣).

وقد وُلِدَ سنة (٤٥١هـ=١٠٥٩م) في مدينة طُرْطُوشة الأندلسية، وقد لازم القاضي أبا الوليد الباجي بسَرَقُسْطَة، وأخذ عنه مسائل الخلاف، ثم حجَّ، فسمع

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٩٦.
(٢) الطرطوشي بضم الطائين، هكذا ضبطه المقرّي، وكذا الزبيدي، انظر: المقري: نفح الطيب، ٢/ ٨٧، والزبيدي: تاج العروس، ١٧/ ٢٤٣.
(٣) انظر: ابن بشكوال: الصلة، ٢/ ٨٣٨ (١٢٧٧)، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٤٩٠.

بالحجاز ثم رحل للعراق وسمع بالبصرة وببغداد ثم رحل إلى بيت المقدس ثم استقر بالإسكندرية[١].

قال عنه تلميذه إبراهيم بن مهديٍّ بن قلينًا: كان شيخنا أبو بكرٍ زهده وعبادته أكثر من علمه[٢]، وقال ابن بشكوال: كان إمامًا عالمًا عاملاً، زاهدًا ورعًا، دَيِّنًا متواضعًا، متقشفًا متقللاً من الدنيا، راضيًا منها باليسير، أخبرنا عنه القاضي الإمام أبو بكر محمد بن عبد الله المعافري ووصفه بالعلم والفضل والزهد في الدنيا، والإقبال على ما يعنيه. قال القاضي أبو بكر: وكان كثيرًا ما ينشدنا: [الرمل]

إِنَّ لله عِبَادًا فُطُنَا ... طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا

فَكَّرُوا فِيهَا فَلَمَّا عَلِمُوا ... أَنَّهَا لَيْسَتْ لِحَيٍّ وَطَنَا

جَعَلُوهَا لُجَّةً وَاتَّخَذُوا ... صَالِحَ الأَعْمَالِ فِيهَا سُفُنَا[٣]

وأشهر مؤلَّفات الطُّرطُوشيُّ هو كتاب (سراج الملوك)، الذي يتناول سياسة المُلك وتدبير أمور الرعية. وللطرطوشي عدد آخر من الكتب؛ منها: مختصر تفسير الثعالبي، وشرح لرسالة الشيخ ابن أبي زيد القيرواني في الفقه المالكي، والكتاب الكبير في مسائل الخلاف، وكتاب الفتن، وكتاب الحوادث والبدع أو بدع الأمور ومحدثاتها، وكتاب بِرُّ الوالدين، ورسالة العدة عند الكروب والشدة، وسراج الهدى، وكتاب في تحريم جبن الروم، والمختصر في فروع المالكية.

عاش الطُّرطُوشيُّ ٦٩ سنة، وتوفي في الإسكندرية سنة (٥٢٠ هـ= ١١٢٦ م) رحمه الله[٤].

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٤٩٠، وما بعدها، بتصرف.
(٢) المصدر السابق، ١٩/ ٤٩٢.
(٣) انظر: ابن بشكوال: الصلة، ٢/ ٨٣٨، وما بعدها، والمقري: نفح الطيب، ٢/ ٨٧.
(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٤/ ٢٦٤.

سادسًا: الطوائف الأخرى في بلاد الأندلس:

تُعَدُّ الطوائف التي ذكرناها آنفًا هي الأقوى في عصر ملوك الطوائف، وإن اختلفت من حيث الامتداد الزمني والمكاني، ولكن ليست هذه الطوائف هي كل الطوائف التي شَكَّلت حلقة التاريخ الأندلسي في تلك الحقبة الزمنية القصيرة، التي لا تتجاوز القرن الواحد، وإنما هناك الكثير من الإمارات الأخرى، التي لا تعدو أن تكون أُسَرًا متغلِّبَة على بعض المدن، ليست لها أطماع توسُّعية، ولم يكن لها شأن كبير في سير الأحداث؛ بيد أنها كانت محلَّ نزاع بين الطوائف الأخرى الأقوى، ومن هذه الطوائف:

أسرة بني زيري في غَرْنَاطَة، في الفترة من (٤٠٣-٤٨٣هـ=١٠١٣-١٠٩٠م).

أسرة بني طاهر في مُرْسِيَة، في الفترة من (٤٢٩-٤٧١هـ=١٠٣٨-١٠٧٨م).

أسرة بني برزال في قَرْمُونة، في الفترة من (٤٠٤-٤٥٩هـ=١٠١٣-١٠٦٧م).

أسرة بني يفرن في رُنْدة، في الفترة من (٤٠٦-٤٥٧هـ=١٠١٥-١٠٦٥م).

أسرة بني دمَّر في مورور، في الفترة من (٤٠٣-٤٥٨هـ=١٠١٣-١٠٦٦م).

أسرة بني خزرون في أركش، في الفترة من (٤٠٢-٤٦١هـ=١٠١١-١٠٦٨م).

مملكة أَلمَرِيَّة في عهد الفتيان العامريين، في الفترة من (٤٠٥-٤٣٣هـ= ١٠١٤-١٠٤١م).

مملكة أَلمَرِيَّة في عهد بني صمادح، في الفترة من (٤٣٣-٤٨٤هـ=١٠٤١-١٠٩١م).

مملكة دانية والجزائر في عهد الفتيان العامريين، في الفترة من (٤٠٠-٤٦٨هـ=١٠٠٩-١٠٧٦م).

مملكة دانية والجزائر في عهد بني هود، في الفترة من (٤٦٨-٤٨٣هـ=١٠٧٦-١٠٩١م).

مملكة بَلَنْسِيَة في عهد الفتيان العامريين، في الفترة من

(٤٠٠-٤٧٨هـ=١٠٠٩-١٠٨٥م).

إمارة شَنْتَمَرِيَّة الشرق في عهد بني رزين، في الفترة من

(٤٠٣-٤٩٧هـ=١٠١٢-١١٠٤م).

إمارة شَنْتَمَرِيَّة الغرب في عهد بني هارون، في الفترة من

(٤١٧-٤٤٣هـ=١٠٢٦-١٠٥١م).

إمارة بالبُونت في عهد عبد الله بن قاسم، في الفترة من

(٤٠٠-٤٩٥هـ=١٠٠٩-١١٠٢م).

دولة لَبْلَة في عهد بني يحيى، في الفترة من (٤١٤-٤٤٥هـ=١٠٢٣-١٠٥٣م).

إمارة بَاجَة وشِلْب[1] في عهد بني مزين، في الفترة من

(٤٣٢-٤٥٥هـ=١٠٤١-١٠٦٣م).

إمارة ولبة وجزيرة شَلْطِيش في عهد بني البكري، في الفترة من

(٤٠٣-٤٤٣هـ=١٠١٢-١٠٥١م).

ويجدر بنا -وقد ذكرنا بقية طوائف الأندلس- أن نذكر الدور العلمي والحضاري التي ساهمت به هذه الممالك، فقد نبغ في ظلِّها العديدُ من علماء الأندلس وفقهائها، ففي دانية والجزائر -مثلاً- نبغ العالم اللغوي الكبير أبو الحسن ابن سيده، وكان إمامًا في اللغة وآدابها، وُلِدَ بمُرْسِيَة وانتقل إلى دانية، وانقطع لمجاهد العامري، وله كتابه الشهير (المخصص)، وكتاب (المحكم والمحيط الأعظم)، وكان مجاهد العامري صاحب دانية والجزائر من علماء عصره، عارفًا بالأدب وعلوم القرآن،

---

(١) شِلب: مدينة بغربي الأندلس، بينها وبين باجة ثلاثة أيام، وهي غربي قرطبة. ياقوت الحموي: معجم البلدان ٣/ ٣٥٧.

قالوا عنه: «فتى أمراء دهره وأديب ملوك عصره»، وكان أبو عبد الرحمن بن طاهر صاحب مُرْسِيَة، من علماء عصره، وفي مَيُورْقَة نبغ الحافظ الحميدي صاحب ابن حزم، وهو مؤرخ الأندلس وعالمها في عصره، وله كتاب (جذوة المقتبس في ذكر ولاة الأندلس).

تلك هي ممالك الطوائف أُسَرٌ متغلِّبَة وأخرى مغلوبة، ليس لهم من الأمر إلا دفع الجزية للنصارى الكافرين، والتسلُّط على أراضي إخوانهم المسلمين، وليس لديَّ أبلغ تعبير أقوله في وصف حال تلك الممالك وأصحابها، بقدر ذكري لما قاله الوزير العالم الأديب لسان الدين بن الخطيب؛ إذ يقول: «وذهب أهل الأندلس من الانشقاق والانشعاب والافتراق إلى حيث لم يذهب كثيرٌ من أهل الأقطار، مع امتيازهم بالمحلِّ القريب، والخطَّة المجاورة لعُبَّاد الصليب، ليس لأحدهم في الخلافة إرثٌ، ولا في الإمارة سَبَب، ولا في الفروسية نَسَب، ولا في شروط الإمامة مُكْتَسَب، اقتطعوا الأقطار، واقتسموا المدائن الكبار، وجَبَوُا العَمالات والأمصار، وجنَّدُوا الجنود، وقدَّموا القضاة، وانتحلوا الألقاب، وكَتَبَتْ عنهم الكُتَّاب الأعلام، وأنشدهم الشعراء، ودُوِّنَتْ بأسمائهم الدواوين، وشَهِدَتْ بوجوب حقِّهم الشهود، ووقفت بأبوابهم العلماء، وتوسَّلت إليهم الفضلاء، وهم ما بين مجبوب، وبربري مجلوب، ومجنَّد غير مَحْبُوب، وغُفْلٍ ليس في السُّراة بمَحْسُوب، ما منهم مَنْ يرضى أن يُسَمَّى ثائرًا، ولا لحزب الحقِّ مُغَايرًا، وقُصارى أحدهم أن يقول: «أُقيمُ على ما بيدي، حتى يتعيَّن مَنْ يستحقُّ الخروجَ به إليه.

ولو جاءه عمر بن عبد العزيز لم يُقْبِلْ عليه، ولا لقي خيرًا لديه؛ ولكنَّهم استوفوا في ذلك آجالاً وأعمارًا، وخلفوا آثارًا، وإن كانوا لم يُبالوا اغترارًا، من معتمدٍ ومعتضد ومرتضى وموفَّق ومُسْتكْفٍ ومستظهر ومستعين ومنصور وناصر ومتوكل، كما قال الشاعر: [البسيط]

مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ ... أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ
أَلْقَابُ مَمْلَكَةٍ فِي غَيْرِ مَوْضِعِهَا ... كَالْهِرِّ يَحْكِي انْتِفَاخًا صُورَةَ الأَسَدِ[1]

إلى هنا ننتهي من ذِكْر ممالك الطوائف ونشأتها وأشهر الأسر الحاكمة في تلك الفترة، وننتقل في الفصل القادم إلى الحديث عن الفرقة والتناحر بين تلك الممالك الأندلسية.

* * *

(١) ابن الخطيب. أعمال الأعلام



أ.د راغب السرجاني



الطبعة الأولى

١٤٣٢هـ - ٢٠١١م

رقم الإيداع: ٢٠١٠/٢٤٨١٠

بطاقة الفهرسة

فهرسة أثناء النشر إعداد الهيئة المصرية العامة

السرجاني، راغب.

قصة الأندلس / تأليف/راغب السرجاني

القاهرة : مؤسسة اقرأ للنشر والتوزيع والترجمة، ٢٠١٠

(٨٠٠ص)، ٢٤ سم تدمك: ٦-٨٠٦-٤٤١-٩٧٧-٩٧٨

١ - الأندلس — تاريخ

أ. العنوان ٩٥٣,٠٧١

مركز السلام للتجهيز الفني

عبد الحميد عمر

٠١٠٦٩٦٢٦٤٧

مؤسسة اقرأ

للنشر والتوزيع والترجمة

١٠ ش أحمد عمارة - بجوار حديقة الفسطاط

القاهرة ت: ٢٥٣٢٦٦١٠ محمول:٠١٠٥٢٢٤٢٠٧ - ٠١٢٦٣٤٤٠٤٣

الفصل الثاني

الفرقة والتناحر بين ملوك الطوائف



رأينا كيف تَكَوَّنت ممالك الطوائف في الأندلس، وكيف أضحى صرح الخلافة الشامخ إلى بنيان متصدِّع الأركان، متناثر الأشلاء، ولو أن هؤلاء المتغلبين سكنوا إلى ما تغلَّبُوا عليه، ورضوا به من غير طمع ولا جشع، وتحلَّوْا بالنخوة الإسلامية لهان الأمر علينا، ولسكن الناس إلى ما آلت إليه الأندلس المسلمة، ولكن يبدو أن هؤلاء الثائرين ومن هم على شاكلتهم قد آثروا الفتنة والشقاق والفراق، واستحلُّوا دماء المسلمين بأرخص الأثمان، فباعوا دينهم وخسروا دنياهم، مقابل أن يتغلَّب على أخيه في الدين، وربما أخيه من أمه وأبيه، بل ربما استعان على أبيه وأخيه وعمه وأهله جميعًا.

وتَكَوَّنت في سبيل النوازع الشخصية أحزابُ المصالح وتكتلات المصالح، وسرعان ما تتصدَّع تلك الأحزاب وتتفكَّك، وينقلب صديق الأمس إلى عدوِّ اليوم والغد والمستقبل، وقد سلك هؤلاء المتغلِّبُون المتحكِّمُون في أراضي المسلمين في الأندلس كل السبل غير الشرعية، التي تُعَبِّر عن النذالة والخسَّة التي تمتَّع بها معظمهم، فاستعانوا بالخيانة والغدر، كما استعانوا بالنصارى على بعضهم البعض، ورضوا بالذلَّة والمهانة في دفع الجزية والإتاوات مقابل النيل برضا الممالك النصرانية الإسبانية، وهكذا أضحت الأندلس مسرحًا للصراعات بين المتخاصمين والمتنابذين؛ تلك الصراعات التي شَكَّلَتْ قصَّةَ مأساةٍ عاشتها أمَّة الإسلام ما يقارب القرن من الزمان.

أولاً: الصراع بين إشبيلية وبطليوس

اتسمت الحروب والنزاعات بين هاتين المملكتين بالشراسة والقوَّة؛ ربما عاد ذلك إلى التقارب الحدودي الشديد بينهما، إضافة إلى الأطماع التوسُّعية التي اتَّسم بها أصحابها، وهذا يجعلنا نستقرئ الأحداث قبل وقوعها، فكلٌّ من القاضي أبي القاسم بن عباد وعبد الله بن مسلمة الأفطس يسعى لتوسعة ممتلكاته وتحصين دولته، وانتهاز الفرص بأسرع وسيلة ممكنة، وكان ذلك إيذانًا باشتعال الحرب بين المملكتين في أي وقت، وهو ما حدث بالفعل.

كان أول صدام عسكري قام به القاضي ابن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة هو قتاله مع عبد الله بن مسلمة الأفطس صاحب بَطَلْيُوس حول بَاجَة، المدينة التي أصابتها الفتنة والاضطراب إثر إلغاء الخلافة واستئثار كل ثائر بإمارته، ومعلوم أن بَطَلْيُوس تمثِّل الحدَّ الشمال الغربي لإِشْبِيلِيَة، وكان كلٌّ من ابن عباد والأفطس يستعين بالبربر في حروبه وتوسُّعاته، وكان القاضي ابن عباد على علاقة وطيدة بمحمد بن عبد الله البرزالي صاحب قَرْمُونة، وقد وصف ابن حيان البرزالي بقوله: «وكان ابن عبد الله بقَرْمُونة قطب رحى الفتنة، كثيرًا ما يُحَرِّض القاضي ابن عباد على الخروج إلى بلد ابن الأفطس وإلى قُرْطُبَة، فيعمَّا الجهات كلها تدويخًا؛ كلما آبا من جهة صارَا إلى سواها، حتى أثَّرَا آثارًا قبيحة»[1].

ولا يخفى عليك أن علاقة ابن عباد بالبرزالي هي علاقة مصالح متبادلة لا أكثر! وهذا النوع من المصالح لا يدوم، فدعائمه ليست على كتاب الله ولا على سُنَّة رسوله، وسرعان ما يتحوَّل الصديق إلى عدوٍّ، وهو ما حدث بالفعل؛ إذْ حاول ابن عباد أن ينتزع قَرْمُونة من حليفه البرزالي، وكاد له ذلك لولا تدخُّل البربر

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٢٠.

واختراقهم أراضي إِشْبِيلِيَة، وكانت مقتلة عظيمة قُتِلَ فيها إسماعيل ابن القاضي ابن عباد، وذلك سنة (٤٣١هـ=١٠٣٩م)[١].

تمثِّل قَرْمُونة الحصن الشمالي الشرقي لإِشْبِيلِيَة، فمن المصلحة العامة لابن عباد أن يكون على علاقة حسنة مع جاره، ومن ناحية البرزالي فمن مصلحته أن يُوَطِّدَ علاقته بابن عباد ليستعين به على قتال ابن حمود الطامع في إمارته؛ ومن ثَمَّ بعث القاضي ابن عباد لحليفه البرزالي يستعين به في السيطرة على بَاجَة، وأرسل عبد الله الأفطس ابنه محمد المظفر إلى بَاجَة، ويبدو أن ابن الأفطس أسرع إلى بَاجَة قبل الحليفين، وتملَّك المدينة، فأرسل القاضي ابن عباد ابنه إسماعيل على رأس جيش إلى بَاجَة، ومعه قوَّة من صاحب قَرْمُونة محمد بن عبد الله البرزالي، وفرض ابن عباد الحصار على بَاجَة وبداخلها ابن الأفطس، وجاء ابن طيفور صاحب مِيرْتُلَة بمددٍ لابن الأفطس، فاضطرم القتال بين الفريقين، وكانت مذبحة مهيبة، قُتل فيها من جيش ابن الأفطس الكثير، وأُسر منهم الكثير كذلك، وكان من بين الأسرى محمد بن الأفطس، وأخ لابن طيفور صُلِبَ بإِشْبِيلِيَة سنة ٤٢١هـ، وأُرسل ابن الأفطس إلى قَرْمُونة ليكون بجوار البرزالي، ثم أطلق سراحه، وكان محمد بن عبد الله البرزالي عرض على ابن الأفطس يوم أطلقه أن يجتاز على القاضي ابن عباد ليشركه في المنِّ عليه بفكِّه، فأبى ابن الأفطس ذلك وقال: مُقامي في أسرك أشرف عندي من تحمُّل منَّته، فإما انفردت باليد عندي وإلا أبقيتني على حالي. فأُعجب ابن عبد الله البرزالي بمقاله، ونافس في إسداء اليد عنده لكمال خصاله، وأكرم تشييعه، وبعث به إلى بَطَلْيُوس[٢].

هدأت الأمور بين المملكتين قليلاً، ولم ينسَ ابن مسلمة الأفطس تلك الهزيمة

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ٣/ ٣١.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ١٩-٢٢.

الثقيلة، التي أُسِرَ فيها ابنه محمد، وكاد أن يُقتل، وظلَّ ينتظر ذلك اليوم الذي يثأر فيه لنفسه ولابنه، ومرَّت أربعة أعوام، وبعث القاضي ابن عباد ابنه إسماعيل بجيش توغَّل شمالاً في أراضي ابن الأفطس، وهنا كَمَنَ ابن الأفطس لابن عباد، وأغلق عليه طريق رجوعه، وكانت مقتلة عظيمة في جيش إِشْبِيلِيَة، لم ينجُ منها إلا قليل، وفرَّ إسماعيل بن عباد إلى لَشْبُونَة وتحصن بها، وكانت حادثة شنيعة لبني عباد سنة (٤٢٥هـ=١٠٣٤م)[1].

مرَّت السنون ومات القاضي ابن عباد سنة (٤٣٣هـ=١٠٤٢م)، وخلفه ابنه عبَّاد المعتضد بالله، كما مات أيضًا عبد الله بن مسلمة الأفطس سنة (٤٣٧هـ=١٠٤٥م)، وخلفه ابنه محمد المظفر، وهكذا مات الآباء وهم يحملون خصومات شنيعة جاءت بالويلات على المسلمين.

ولكن السؤال: هل نسي الأبناء أحقاد آبائهم، أم ساروا على نهجهم؟

والحقيقة المرَّة التي حفظها التاريخ أن الأبناء ساروا أشدَّ مما كان في عهد آبائهم، فلم ينسَ المعتضد بن عباد مأساة والده في سنة ٤٢٥هـ، كما لم ينسَ المظفر عداوة إِشْبِيلِيَة، وكان شعار كليهما ﴿إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَى أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَى آثَارِهِمْ مُقْتَدُونَ﴾ [الزخرف: ٢٣].

عادت الحرب أشدَّ ما كانت عليه، واضطرمت المعارك بين المعتضد والمظفر؛ إذ حاول المعتضد أن ينتزع لَبْلَة من صاحبها ابن يحيى، الذي عجز عن صدِّ جيوش إِشْبِيلِيَة، فاستغاث بالمظفر صاحب بَطَلْيُوس، الذي كان في غنًى عن هذه الفتنة، وخرج المظفر لإغاثة ابن يحيى، واستغلَّ فرصة غياب المعتضد عن إِشْبِيلِيَة فبعث بجماعة من البرابرة فعاثوا فيها، وعاث المعتضد في بَطَلْيُوس وأعمالها، وكادت أن

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٢٢.

تكون فتنة يذهب فيها الإسلام والمسلمون من كلا الإمارتين، فتدخَّل الوزير أبو الوليد بن جهور مسرعًا؛ عملاً بقول الله تعالى: ﴿وَإِنْ طَائِفَتَانِ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ اقْتَتَلُوا فَأَصْلِحُوا بَيْنَهُمَا فَإِنْ بَغَتْ إِحْدَاهُمَا عَلَى الأُخْرَى فَقَاتِلُوا الَّتِي تَبْغِي حَتَّى تَفِيءَ إِلَى أَمْرِ اللهِ﴾ [الحجرات: ٩]. وجهد ابن جهور جهده في صرفهم، وأرسل ثقات رسله إلى عامَّتهم، وراح يضرب لهم الأمثال، ويُخَوِّفهم من سوء العاقبة والمآل، حتى صار فيهم كمؤمن آل فرعون وعظًا وتذكرة، يجد منهم الأطواد الراسية، ويرقي الحيات المتصامة، واستنَّ القومُ في ميدان الغِيِّ، وكانت مقتلة عظيمة وفتنة بربرية، اتسمت بالقوة والعنفوانية، وعاث كلٌّ منهما في أراضي الآخر، وكانت الهزيمة على ابن الأفطس أولاً، لكنه استأنف الكرَّة، واستطاع هزيمة المعتضد هزيمة قاسية، قُتِلَ فيها كثير من جنده، وكان ذلك سنة (٤٣٩هـ=١٠٤٧م)[1].

ثم كانت سنة (٤٤٢هـ=١٠٥٠م) حيث تطوَّرت الحوادث، وتفاقم الأمر، وساء التفاهم بين المظفر بن الأفطس وابن يحيى حليف الأمس، فقد خان المظفر حليفه ابن يحيى، ورفض أن يَرُدَّ لابن يحيى ودائعه التي ائتمنه عليها من مال وذخائر، كان ابن يحيى جعلها عند المظفر أيام هجوم المعتضد بن عباد على لَبْلَة، ولما ساء الأمر بينهما هاجم المظفر بن الأفطس لَبْلَة، فهرع ابن يحيى للمعتضد بن عباد يطلب نجدته، فأرسل له جيشًا قويًّا، فتك بابن الأفطس ومزَّق جيشه شرَّ ممزَّق، واحتزَّ من رءوسهم نحو مائة وخمسين، وأفنى حماة رجاله.

ثم جهز المعتضد جيشًا آخر من إِشْبِيلِيَة بقيادة ابنه إسماعيل ووزيره ابن سلام، فتوجَّه ناحية بَطَلْيُوس وأعمالها، فعاث شمالاً في أراضي ابن الأفطس حتى مدينة يَابرَة، وعلى الناحية الأخرى جمع المظفر بن الأفطس رجاله واستدعى حليفه

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٣٣، ٣٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٠٩، ٢١٠، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٨٤.

إسحاق بن عبد الله البرزالي، فبعث له بجيش عليه ابنه العزُّ، واجتمع الفريقان من غير أهبة ولا استعدد، ودارت حرب طاحنة، دارت دائرتها على ابن الأفطس، وحزَّ رأس العزِّ بن إسحاق وبعث به إلى إِشْبِيلِيَة، مع رأسٍ لعمٍّ ابن الأفطس، ولم يجد ابن الأفطس إلاَّ الفِرَار والنجاة بنفسه، فلجأ إلى يَابرَة تحت كنف صاحبها عبد الله بن الخزَّاز، وقد قُدِّرَ عدد مَنْ قُتِلَ في هذه الموقعة بثلاثة آلاف على أقلِّ تقدير[(١)].

وفي أواخر سنة ٤٤٢هـ (حيث لم تجف دماء المسلمين في يَابرَة، ولم يتنفَّس ابن الأفطس الصعداء من هول هزيمته وصدمته في يَابرَة) جهَّز المعتضد بن عباد جيشه وعاث في أراضي ابن الأفطس قتلاً وتشريدًا ونهبًا، وحرقًا في الأراضي والمزارع، فعمَّت المجاعة في البلاد، وفتح المعتضد حصونًا وبلدانًا، والمظفر لا يستطيع أن يَرُدَّ، ولم يملك إلا أن اعتصم بحصنه بَطَلْيُوس، ولم يُخْرِج من خيله فارسًا، وجعل يشكو إلى حلفائه، فلا يجد ظهيرًا ولا نصيرًا، واشتدَّ البأس على المظفر بن الأفطس، وكادت أن تكون نهايته، إلاَّ أن الوزير أبا الوليد بن جهور تَدَخَّل درءًا للفتنة، وسعيًا في الصلح بين هذين المتخاصمين، حتى تمَّ له ذلك في ربيع الأول (٤٤٣هـ=١٠٥١م)[(٢)].

وهكذا انتهت القطيعة بين إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس، بعد أن كادت تُفْنِي كل شيء، ويبدو أن المعتضد والمظفر لم يرجعَا إلى نحو ما كانا عليه من الحروب والنزاعات، وإنما بحث كل منهما عن عدوٍّ هو أضعف منه ينال من لحمه، وينهش من مُلْكِهِ.

ثانيًا: الصراع بين إشبيلية وغرناطة:

وقفت مملكة غَرْنَاطَة حجر عثرة أمام أطماع إِشْبِيلِيَة زمنًا طويلاً، فمع ما كان

(١) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٣٤، ٣٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٤، ٢٣٥.
(٢) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٣٥، ٣٦، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢١١-٢١٣.

يتمتَّع به البلاط الإشبيلي من قوَّة عسكرية وأدبية على يد بني عبَّاد، كان البلاط الغرناطي يتمتَّع كذلك بقدر كبير من القوة العسكرية على يد بني زيري، الذين وقفوا أمام كل محاولة لاستئصال البربر في الأندلس، واستطاعوا أن يبسطوا نفوذهم بقوَّة على الإمارات الجنوبية الأندلسية، وكان هذا بلا شكٍّ نذيرًا باشتعال الحروب بين بني عباد وبني زيري؛ إذ يقف كلٌّ منهما في سبيل توسُّعات الآخر.

والغريب أن أوَّل اشتباك بين إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة لم يكن في أيٍّ من البلدين، وإنما كان في إِسْتِجَة، إذ سَيَّر القاضي أبو القاسم بن عباد جيشًا بقيادة ابنه إسماعيل؛ لانتزاع قَرْمُونة من محمد بن عبد الله البرزالي حليفه بالأمس، فحاصر ابن عباد قَرْمُونة ثم نهض إلى حصار حصن أشذونة وإِسْتِجَة، فلم يجد البرزالي إلا أن يستنجد بإخوانه البربر، فأرسل إلى إدريس المتأيد الحمودي وقبائل صنهاجة، فأمدَّه إدريس بعسكر يقوده ابن بَقَنَّةَ أحمد بن موسى مُدَبِّر دولته، وخرج باديس بن حبوس صاحب غَرْنَاطَة، ودار بينهم قتالٌ شرسٌ، انتهى بمقتل إسماعيل بن عباد، وحُمل رأسه إلى إدريس الحمودي في سنة (٤٣١هـ=١٠٣٩م)[1].

وقد اتَّسمت عَلاقة بني عباد بإِشْبِيلِيَة بالعدائية مع باديس بن حبوس في غَرْنَاطَة، وكانا كلٌّ من الطرفين يتسابق إلى أطماع الآخر يحول بينه وبينها، ويقف أمامه حجر عثرة في سبيل تحقيقها، واتَّسمت توسُّعاتها بأنها ذات اتجاه واحد ومصلحة واحدة؛ ولذلك فهم في صراع دائم؛ وكان الصراع على أشُدِّه بين المعتضد بن عباد وباديس بن حبوس يتمثَّل في انتزاع مَالَقَة والجزيرة الخضراء، أو أملاك الحموديين السالفة دولتهم.

فقد استطاع المعتضد أن يُسيطر على الجزيرة الخضراء سنة (٤٤٦هـ=

(١) الحميدي: جذوة المقتبس ١/ ٣٠، ٣١، وعبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص١١٣، ١١٤، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٩.

١٠٥٤م)[(١)]، وأنهى بذلك دولة بني حمود في الجزيرة، وبقي له مَالَقَة التي استطاع باديس أن يستوليَ عليها سنة (٤٤٩هـ=١٠٥٧م) [(٢)]، وكان أهل مَالَقَة قد سئموا من حُكم البربر، فتاقت نفوسهم إلى التخلُّص منه، فبعثوا إلى المعتضد بن عباد سرًّا يستحثُّونه على افتتاح مَالَقَة، فاستجاب لهم المعتضد، وسَيَّرَ لهم حملة بقيادة ابنيه جابر ومحمد المعتمد، وضربوا الحصار على مَالَقَة، وكادت أن تسقط، إلاَّ أن باديس صاحب غرناطة أسرع إلى نجدتهم، حتى فوجئ به جيش إشبيلية الذي كان على وشك النصر، فكانت معركة قاسية على جند إِشْبِيلِيَة، وفرَّ ابنا عباد جابر والمعتمد يجرَّان أذيال الهزيمة إلى رُنْدة، وكان ذلك سنة (٤٥٨هـ=١٠٦٦م) [(٣)].

لم ييأس المعتضد بن عباد من هزيمته أمام باديس بن حبوس في انتزاع مَالَقَة، فوجَّه قوَّاته إلى الإمارات البربرية الصغيرة الواقعة في الشمال والشرق من إِشْبِيلِيَة؛ وهي إمارات: رُنْدة، وقَرْمُونة، وأركش، وشَذُونة، ومورور، وقد استطاع المعتضد أن يُسيطر على إمارات ثلاثة؛ هي: قَرْمُونة، ورُنْدة، ومورور كما أوضحنا.

وما يعنينا هنا هو إمارتي أركش وشَذُونة التي يُسيطر عليها بني يرنيان؛ إذ اتجه أمير أركش محمد بن خزرون إلى باديس بن حبوس وعرض عليه أن يُعطيه حصن أركش مقابل أن يُقطعهم أرضًا بغَرْنَاطَة ينزلون بها، ويكونون تحت كنفه وفي دولته، فوافق باديس بن حبوس، وأرسل إليهم أن يأتوا بأموالهم وأهليهم وذويهم ومتاعهم، فخرجوا بذلك كله فكانوا نحوًا من خمسمائة دابة، وكان معهم جماعة من بني برزال أعداء المعتضد، وكان المعتضد يرقب عن كثب كل هذه التحرُّكات، فكَمَن لهم كمينًا، ودارت حرب شرسة بين الطرفين مُزِّقَ فيها البربر كل ممزَّق، وقُتل

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٤٣.
(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥٥، ٦/ ١٨٠.
(٣) ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٤٩، ٥٠، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٣-٢٧٥، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٣٢.

محمد بن خزرون، وبذلك ردَّ المعتضدُ على هزيمته في مَالَقَة، وانتزع أركش وبلاد شَذُونة من باديس بن حبوس[1].

تُوُفِّيَ المعتضد بن عباد سنة (٤٦١هـ=١٠٦٩م)، وخلفه في الحُكم ابنه المعتمد على الله محمد، وكان المعتمد ذا طموح، ولم يكن ينسى ما كان بين أبيه وبين باديس، وظلَّ يتحيَّن الفرصة تلو الأخرى ليقتنص من غَرْنَاطَة ما يقدر، وكان يُراقب الأحداث في غَرْنَاطَة عن كثب، وكان المعتمد بن عباد مثل آبائه وأجداده يتوجَّس خوفًا من تنامي قوَّة البربر في الأندلس؛ وخاصَّة قاعدتهم الأقوى غَرْنَاطَة؛ إذ هي مهبطهم الأول إلى الأندلس عندما يأتون من وراء البحار من عُدوة المغرب، إضافة إلى هذا فإن النزعة العنصرية بين العرب والبربر كانت على أشدِّها في إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة.

وكانت سياسة باديس بن حبوس في مجملها ذات نزعة عنصرية واضحة للبربر؛ فمن ناحية يتقوَّى بهم ضدَّ ممالك الأندلس، ومن ناحية يتقوَّوْن به ضدَّ عدوان الآخرين عليهم، وهو ما رأيناه في أحداث قَرْمُونة ومَالَقَة وأركش وجَيَّان وغيرها من ممالك البربر الجنوبية والشرقية في الأندلس، وكانت هذه النزعة العنصرية متملِّكة في دم باديس بن حبوس، حتى أعمته عن الصواب في كثير من قراراته؛ ففي سنة (٤٧٥هـ=١٠٦٥م) قام أحد الفرسان ويُسَمَّى ابن يعقوب باغتيال أبي نصر بن أبي نور أمير رُنْدة البربرية بتدبيرٍ من المعتضد بن عباد، فلما سمع باديس بن حبوس بالخبر قام للحادثة وقعد، وهاج من داء عصبيته ما قد سكن، وشقَّ أثوابه... وهجر شرابه الذي لا صبر له عنه[2]، وفكر في قتل رعاياه الأندلسيين من العرب في غَرْنَاطَة، وأخذ قراره بقتلهم جميعًا في المسجد الجامع بغَرْنَاطَة يوم الجمعة، وشاور

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧١- ٢٧٣.

(٢) المَلاذُّ جمع مَلَذٍّ: وهو موضع اللذة وكل ما يُشتهى من الأشياء. ابن منظور: لسان العرب، مادة لذذ ٣/ ٥٠٦، المعجم الوسيط ٢/ ٨٢٢.

وزيره اليهودي يوسف بن إسماعيل بن نغرانة، مدبِّر دولته الذي لا يقطع أمرًا دونه، فحذَّره الوزير من العواقب الوخيمة لذلك الأمر، إلا أنه لم يستمع لنُصح وزيره، وحشد جنده، ولكنَّ الله خَيَّب تدبيره، فقد سبقه ابن نغرانة الذي أرسل بعض النساء خفية إلى دور الأندلسيين العرب وحذَّرهم من الحضور إلى المسجد يوم الجمعة، وهكذا فشل تدبيره، ثم عدل عن قراره بعد أن اقتنع بنصح وزرائه من صنهاجة[1].

لذلك فالعداوة متبادلة بين العرب في إِشْبِيلِيَة وعلى رأسهم المعتضد وابنه المعتمد (إذ من المعلوم أن بني عباد من لَخْم العربية)، وبين البربر في غَرْنَاطَة وما حولها وعلى رأسهم باديس بن حبوس ووزرائه من صنهاجة، وهذه العداوة الشديدة تُنْذِر بحروب دموية وأكثر شراسة من غيرها؛ إذ هي قومية في المقام الأول، وهكذا استُحِلَّتْ دماء المسلمين بين عرب وبربر، ولم يَعُدْ للإسلام بينهم نصيب، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

وحدث في سنة (٤٦٥هـ=١٠٧٣م) أن تُوُفِّي باديس بن حبوس، وملك من بعد حفيده عبد الله بن بُلُقِّين، وكان صبيًّا صغيرًا لا يملك من أمره شيئًا، وتولَّى أمور دولته الوزير سماجة الصنهاجي، واستبدَّ بالأمر، وكان رجلاً قويًّا حاسمًا، مرهوب العقاب، شديد السطو، كما جعل عبد الله بن بلقين أخاه تميمًا على مَالَقَة[2]، وقد أدرك المعتمد أن هذه فرصته ليتوسَّع على حساب غَرْنَاطَة، فحشد جنده واتجه إلى مدينة جَيَّان، وانتزعها من يد ابن بلقين سنة (٤٦٦هـ=١٠٧٤م)، وكانت هذه ضربة قاضية لعبد الله بن بلقين؛ إذ تُعَدُّ جَيَّان أخطر قاعدة عسكرية لمملكة غَرْنَاطَة الشمالية، ثم توجَّه المعتمد بن عباد بقوَّاته إلى غَرْنَاطَة وفرض عليها الحصار، وابتنى

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٣١٣، ٣١٤، وابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة ١/ ٤٣٦-٤٣٨، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٤٠.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٣٣، ٢٣٤.

الحصون ليُرهق المدينة بغاراته عليها، ولكنه فشل ورفع الحصار لحصانة المدينة وشدة بأس وزيرها سماجة الصنهاجي(١).

رأى الأمير عبد الله بن بلقين أنه لا قِبَل له بمقاومة جُند المعتمد بن عباد إذا عاود الكرة عليه وأغار على غَرْنَاطَة، وفكَّر ابن بلقين وقدَّر، ثم ﴿فَكَّرَ وَقَدَّرَ﴾ [المدثر: ١٨]، ﴿ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ﴾ [المدثر: ٢٠]! إذْ قاده تفكيره إلى أن بعث وزيره سماجة الصنهاجي إلى مَنْ؟! إلى ملك قشتالة ألفونسو السادس؛ يستعين به على المعتمد بن عباد، وتعهَّد له بدفع جزية مقدارها عشرون ألف دينار، وبالطبع وافق ألفونسو، وخرج عبد الله بن بلقين بجند غَرْنَاطَة وجند النصارى القشتاليين، وأغار على أراضي إِشْبِيلِيَة، وعاث فيها فسادًا، واستطاع أن يستردَّ حصن قَبْرَة الواقع في جنوب غربي جَيَّان(٢).

وحدث في عام (٤٦٧هـ=١٠٧٥م) أن سار ألفونسو السادس ملك قشتالة إلى إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة ومعه وزيره ومستشاره المستعرب الكونت سنندو (ششنند)؛ ليُطالب بدفع الجزية المفروضة عليهما، ويبدو أن الأمير عبد الله بن بلقين، رفض دفع الجزية؛ معبرًا عن عزَّته، وأنه لا يخش ضرًّا من ألفونسو، إلا أن المعتمد بن عباد لم ينسَ هزيمته عند حصن قَبْرَة، فانتهز الفرصة، وأخذ يُؤَلِّبُ ألفونسو على ابن بلقين، وبعث إليه بوزيره ابن عمار، فوقَّع معه حلفًا واتفاقًا؛ خلاصته أن يتعاون الفريقان مسلمو إِشْبِيلِيَة مع نصارى قشتالة ضد مسلمي غَرْنَاطَة، وأن تكون المدينة ذاتها لابن عباد، وأن يكون سائر ما فيها من الأموال لملك قشتالة، وأن يُؤَدِّي ابن عباد فوق ذلك جزية قدرها خمسون ألف دينار، وظهر أثر ذلك الحلف على الفور؛ إذ عمد النصارى إلى تخريب بسائط غَرْنَاطَة، وبدأ ابن عمار بتنفيذ الخطة أيضًا، فقام

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص٢٣٤، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٤٢.
(٢) نقلاً عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٦٣، ١٤٢، ١٤٣.

بإنشاء حصن على مقربة من غَرْنَاطَة، وحاول من خلاله أن يؤثِّر على أهل المدينة بغاراته، ولكنه لم ينل منها مأربًا، وحدث أن انتزع المأمون بن ذي النون قُرْطُبَة منه سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، فاضطر أن يُخْلِيَ الحصن الذي احتلَّتْه جنود غَرْنَاطَة فيما بعد.

ثم حرَّض ابن عمار ألفونسو مرَّة أخرى على غزو غَرْنَاطَة، ومنَّاه بسهولة افتتاحها وضعف جندها، عندئذ رأى الأمير عبد الله بن بلقين أنه يذهب بنفسه إلى ألفونسو، وأن يتفاهم معه، وأسفرت المفاوضات بينهما عن تعهُّد ابن بلقين بأداء الجزية السنوية وقدرها عشرة آلاف مثقال من الذهب، وأن يُسَلِّم الحصون الواقعة جنوب غربي جَيَّان، وما أن انتهى الاتفاق حتى باع ألفونسو الحصون لابن عباد جزاء صداقته له[1]!

هدأت الأمور نوعًا ما بين إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة، ومضت عشرة أعوام وفي سنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م) حدث أن تطوَّرت الأمور في مَالَقَة، وثار تميم بن بلقين أخو الأمير عبد الله بن بلقين، وأعلن استقلاله عن غَرْنَاطَة وتلقَّب بالمنتصر بالله، فتوجَّه إليه الأمير عبد الله وأخضعه لسلطانه، ولكن خشي الأمير عبد الله أن يحالف أخوه تميمٌ المعتمدَ بن عباد؛ فهادنه وأعطاه حُكم مَالَقَة ونواحيها الغربية، وحدث في الوقت نفسه أن ثار كباب بن تميت حاكم أرشذونة وأنتقيرة، فسار إليه الأمير عبد الله وأخضعه لسلطانه، ثم تمَّ الصلح وعَقْد المهادنة بين المعتمد بن عباد والأمير عبد الله بن بلقين، وسُوِّيت بين الفريقين سائر وجوه النزاع من حدود وغيرها، وكان ذلك أواخر سنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م)[2].

---

(١) انظر هذه الحوادث في مذكرات الأمير عبد الله بن بلقين المسماة بالتبيان ص٦٩، ٧٠، نقلاً عن عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٤٢، ١٤٣.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٤٤، ١٤٥ بتصرف.

وما هي إلاَّ أيام حتى سقطت طُلَيْطِلَة في يد ألفونسو السادس في (صفر ٤٧٨هـ= مايو ١٠٨٥م)، فما كان من الأمير عبد الله وابن عباد إلا أن أرسلا رسلهما إلى يوسف بن تاشفين يستنقذونه مما داهمهم من النصارى، وما حلَّ بأراضي المسلمين بالأندلس! فأين كان هؤلاء عندما استحلُّوا دماءهم بأيديهم، واستعانوا بالنصارى على بعضهم!

ثالثًا: الصراع بين إشبيلية وقرطبة

بدأ الصراع بين إِشْبِيلِيَة وقُرْطُبَة مبكِّرًا منذ أن بدأت أحداث الفتنة في بلاد الأندلس، وسنلاحظ دائمًا أن إِشْبِيلِيَة في ظلِّ بني عباد هي الطامع الذي لا يقنع إلاَّ بامتلاك ما في يد الآخرين، وكانت قُرْطُبَة محلَّ نظر بني عباد منذ أن استقلَّ القاضي أبو القاسم بن عباد بإِشْبِيلِيَة سنة (٤١٤هـ=١٠٢٣م)، وظَلَّت عينه على قُرْطُبَة؛ إذ تُمثِّل قُرْطُبَة مدينة الأندلس الأولى، ومحلَّ الخلافة المنصرمة، وإليها تهفو نفوس الأندلسيين من كل حدب وصوب، وكان أهل قُرْطُبَة وعلى رأسهم حاكمها الوزير جهور على علم بكل ذلك، وما يُخفيه ابن عباد وغيره من طمع فيها.

وكان من أشهر أعمال القاضي أبي القاسم بن عباد أثناء ولايته -على نحو ما ذكرنا في الفصل السابق- دعوته بظهور الخليفة هشام المؤيد وذلك سنة (٤٢٦هـ=١٠٣٥م)، ولم تكن نية ابن عباد من وراء ذلك إلا دحضًا لدعوى الحموديين بالخلافة؛ فالخليفة الشرعي قد بان وظهر، ومن ناحية أخرى إضفاء للشرعية السياسية في تدبيره وحكمه لإِشْبِيلِيَة؛ فهو يتوسَّع بأمر الخليفة الشرعي للأندلس كلها، الذي لا يملك من أمره شيئًا، وإنما الأمر والتدبير لابن عباد، الذي يُمْلِي عليه ما يُريد، والحقيقة أن هذا لم يكن خافيًا على ملوك الطوائف وخاصة الوزير ابن جهور حاكم قُرْطُبَة.

وبعد أن أخذ القاضي ابن عباد البيعة للمدعوِّ هشام المؤيد بإِشْبِيلِيَة، أرسل رسله إلى أمراء الأندلس يطلب منهم أخذ البيعة والنزول على حكم الخليفة الشرعي، بيد أنه لم يعترف به أحدٌ، سوى عبد العزيز بن أبي عامر صاحب بَلَنْسِيَة، والموفق العامري صاحب دانية والجزائر الشرقية وصاحب طُرْطُوشة[1]، وما يعنينا هنا هو موقف الوزير ابن جهور؛ إذ إن موقفه يهم ابن عباد والوزير نفسه؛ فابن عباد يعلم ثقل قُرْطُبَة في الأندلس، ويعلم ثقل الوزير ابن جهور ومكانته بين ملوك الطوائف، وسيطرته على قُرْطُبَة فاتحة له في السيطرة على الأندلس كلها، وأما الوزير ابن جهور فمع علمه بكذب الدعوة وافترائها، فهو يُريد أن يتخذها ذريعة لدفع دعوى الحموديين، الذين أرهقوه بغاراتهم على قُرْطُبَة محلِّ خلافتهم المزعومة، وامتلاكه لقوَّة ابن عباد سبيل لهذا الدفع.

بيد أن أهل قُرْطُبَة مالت نفوسهم إلى الخليفة هشام المؤيد، وأعلنوه إمامًا للجماعة في الأندلس، ورفض ابن جهور في بادئ الأمر، وكادت أن تقوم ثورة ضدَّه في قُرْطُبَة، فأرسل رسله للوقوف على صحَّة ما يدَّعيه ابن عباد، ويبدو أنه باع دينه بعرض من الدنيا، وزوَّر شهادته، وأثبت صحَّة دعوى ابن عباد؛ ليدفع الحموديين عن قُرْطُبَة، وليُرْضِيَ أهل قُرْطُبَة ويدفعهم عنه، وأخذ ابن جهور البيعة لهشام المؤيد المزعوم، وخطب له في مساجد قُرْطُبَة وجامعها.

يبدو أن الوزير ابن جهور تراجع عن بيعته وأعلن كذب هذه الدعوة، وكان ذلك إيذانًا بالحرب بينه وبين ابن عباد، الذي جمع جيشه واتجه صوب قُرْطُبَة لإسقاطها بالقوَّة، وفرض الحصار على قُرْطُبَة أوائل (٤٢٧هـ=١٠٣٦م)، وأمر ابن جهور بسدِّ أبواب المدينة أمامه، ولم يجد القاضي ابن عباد جدوى من الحصار،

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٠، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٥.

فجمع جيشه وجرَّ أذيال خيبته أمامه ووراءه إلى إِشْبِيلِيَة[(١)].

هدأت الأمور نوعًا ما بين إِشْبِيلِيَة وقُرْطُبَة، وانشغل كلٌّ من القاضي ابن عباد والوزير ابن جهور في توطيد مملكتيهما وحروبهما الأخرى، ومرَّت السنوات وتُوُفِّيَ القاضي ابن عباد، وملك من بعده المعتضد سنة (٤٣٣هـ=١٠٤٢م)، كما تُوُفِّيَ الوزير ابن جهور، وملك من بعده ابنه الوزير أبو الوليد محمد بن جهور سنة (٤٣٥هـ=١٠٤٤م)، وسارت الأمور هادئة، ولكن يبدو أن أبا الوليد آثر الراحة، فقدَّم ولده الأصغر عبد الملك على ولده الأكبر عبد الرحمن، وسيطر عبد الملك بن جهور على مقاليد قُرْطُبَة، وكانت بين عبد الملك والمعتضد صداقة ووُدٌّ، ولا يخفى علينا أنها صداقة مصالح، كما لا يخفى علينا أن المعتضد فاغر فاه على قُرْطُبَة يُريد أن ينتزعها، فكانت الصداقة تمهيدًا لما يُريد.

على كل حال سيطر عبد الملك بن جهور على قُرْطُبَة، إلاَّ أنه أساء السيرة، وسار بين الناس بالمعاصي، وعَمَّت الفوضى البلاد، فلما رأى ذلك أوكل أمور قُرْطُبَة سنة ٤٤٠هـ إلى وزيره ابن السقاء؛ فضبط الأمور، وسار بين الناس بالعدل والحقِّ، وعاد الأمن والأمان مرَّة أخرى، وساد الاستقرار، وتقوَّت قُرْطُبَة بعد أن أصابها الضعف، والمعتضد بن عباد يُراقب الأمور عن كثب، وقُرْطُبَة كانت بين قاب قوسين أو أدنى منه؛ فعمد إلى الوقيعة بينه وبين وزيره وأوغر صدره عليه، حتى فتك به بكمين كمنه له، وكانت محنة الوزير ابن السقاء سنة (٤٥٥هـ=١٠٦٣م)[(٢)].

وهكذا تدخَّل المعتضد بقوَّة في شئون قُرْطُبَة، واستطاع أن يفتك بالوزير القوي ابن السقاء، وبذلك انفرد عبد الملك بالسلطة؛ فتجبَّر وأساء السيرة بين الرعية،

---

(١) انظر التفاصيل في: ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ١٩٠، ١٩٨، ١٩٩، ٢٠١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥٥.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٨، ٦٠٩، ٧/ ٢٤١، ٢٤٥، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٢، ٢٣٣، ٢٥١.

وعَمَّت الفوضى ثانية، وهنا تدخَّل الوزير أبو الوليد بن جهور وعمد إلى تقسيم السلطة بين الولدين، وذلك عام (٤٥٦هـ=١٠٦٤م)، فجعل إلى أكبرهما عبد الرحمن النظر في أمر الجباية، والإشراف على أهل الخدمة ومشاهدتهم في مكان مجتمعهم، والتوقيع في الصكوك السلطانية المتضمِّنة للحَلِّ والعقد، وجميع أبواب النفقات، وجعل إلى عبد الملك النظر في الجند، والتولِّي لعرضهم، والإشراف على أعطياتهم، وتجريدهم في البعوث، والتقوية لأولادهم، وجميع ما يخصُّهم، ورَضِيَ الأخوان بذلك، إلا أن عبد الملك تَغَلَّب على أخيه؛ فسجنه وحكم عليه بالإقامة الجبرية في بيته، واستبدَّ بالأمر دونه، وانصرف الناس عنه[١].

لم تَخْفَ هذه الأحداث على المعتضد لحظة واحدة؛ فهو يُراقبها عن كثب، كما أنها لم تَخْفَ على ملوك الطوائف الآخرين، وخاصَّة المأمون بن ذي النون صاحب طُلَيْطِلَة، ويمكن أن نقول: إن قُرْطُبَة كانت موضع صراع عنيف وسريع في الوقت نفسه بين إِشْبِيلِيَة وطُلَيْطِلَة؛ إذ إن قُرْطُبَة في المنتصف بينهما وعلى الحدود الجانبية لكلٍّ منهما، فلِمَنْ يا ترى تنتهي به الأحداث فيُحكم قبضته على قُرْطُبَة؟!

هذا ما ستوضحه السطور القادمة..

عَمَّتِ الفوضى أرجاء قُرْطُبَة وانفلتت الأمور من يد عبد الملك بن جهور، وكانت هذه فرصة ذهبية لمن يُريد الانقضاض على قُرْطُبَة، ويبدو أن المأمون بن ذي النون قد أعدَّ لقُرْطُبَة عُدَّتها، وكان هو كذلك يُراقب الأحداث عن كثب، فجهَّز جيشه وأسرع ناحية قُرْطُبَة وأغار عليها سنة (٤٦٢هـ=١٠٧٠م)، ولم يجد عبد الملك بن جهور مَنْ يستغيث به سوى صاحب إِشْبِيلِيَة، وهو حليفه وصديقه المعتمد بن عباد؛ إذ تُوُفِّيَ المعتضد بالله سنة (٤٦١هـ=١٠٦٩م)، وعلى الفور أرسل له المعتمد

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/٦٠٦، ٦٠٧، وابن عذاري: البيان المغرب ٣/٢٥٨، ٢٥٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩.

سرية مُكَوَّنة من أربعة آلاف، عليها قائداه خلف بن نجاح ومحمد بن مرتين، ووصل الجيش الإشبيلي إلى قُرْطُبَة، ونزلوا في ربضها الشرقي، واستطاعوا أن يَرُدُّوا جيش ابن ذي النون عنها.

ويبدو أن المعتمد بن عباد دبَّر مكيدته مسبقًا، وعزم على الاستيلاء على قُرْطُبَة، وأعطى أوامره لقائديه بذلك، كما يبدو أن الظروف في قُرْطُبَة قد هيَّأت له أمر السيطرة عليها؛ إذ عَمَّت الفوضى وانتشر الفساد، وكره أهل قُرْطُبَة عبد الملك بن جهور، فأرسلوا إلى القائدين ابن مرتين وخلف بن نجاح أن يقبضوا على عبد الملك بن جهور، وأن تكون المدينة في طاعة المعتمد بن عباد، فاجتمعت الخطتين معًا، خطة المعتمد المسبقة وخطة أهل قُرْطُبَة، ودُبِّرَت المكيدة على أحسن وجه؛ إذ تظاهر قائدا الجيش الإشبيلي بالانصراف والعودة، وذهب القائدان ومن معهما إلى وداع عبد الملك بن جهور بباب المدينة، وهنا اقتحم الجيش الإشبيلي الأبواب وملك المدينة، وسار الجنود في قُرْطُبَة سلبًا ونهبًا وسرقة وفسادًا، ودخلت قُرْطُبَة في طاعة المعتمد بن عباد، وكان ذلك في شعبان (٤٦٢هـ=١٠٧٠م)، وقد اعْتُقِلَ عبد الملك بن جهور وأهله وأخوه عبد الرحمن وأُرسلوا إلى إِشْبِيلِيَة مراعاة للحزم.

وأما الشيخ القعيد أبو الوليد بن جهور فقد نُفِيَ إلى جزيرة شَلْطِيش، وكان مما حُفِظَ عنه قوله: اللهم كما أجبت الدعاء علينا فأجبه لنا. فمات بعد أربعين يومًا من نكبته وسقوط دولته[(١)].

ومنذ ذلك التاريخ ارتبط اسم قُرْطُبَة بإِشْبِيلِيَة، وجعل المعتمد بن عباد عليها ابنه المعتمد الحاجب سراج الدولة الملقب بالظافر، ووزيره محمد بن مرتين، وأقام الظافر ملكًا على قُرْطُبَة باسم أبيه، وظلَّ المأمون صاحب طُلَيْطِلَة يتحين الفرص

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٢/ ٦٠٩-٦١١، وابن عذاري: البيان المغرب: ٣/ ٢٦٠، ٢٦١، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٤٩-١٥٢.

للسيطرة على قُرْطُبَة، وتمَّ له ذلك سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٤م) إثر مكيدة دبَّرها المأمون مع رجل يُسَمَّى بحَكم بن عُكَّاشة ضد الظافر بن المعتمد؛ حيث دخل ابن عكاشة على الظافر بن المعتمد وقتله وحزَّ رأسه، واستولى على أبواب المدينة برجاله، كما قَتَل ابنَ مرتين وهو غارق في شرابه ولهوه.

ودخل المأمون قُرْطُبَة في موكب عظيم في جمادى الآخرة سنة ٤٦٧هـ، وما لبث المأمون أن اعتلَّ بقُرْطُبَة ومات بها، وحُمِلَ تابوته إلى طُلَيْطِلَة في ذي القعدة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، وما لبثت قُرْطُبَة أن عادت إلى حوزة المعتمد بن عباد مرَّة أخرى؛ إذ دخلها بجنده بعد أن راسله أهل قُرْطُبَة، وتغلَّب على ابن عكاشة، وحزَّ رأسه ثأرًا لابنه الظافر، واستخلف المعتمد عليها ابنه الفتح الملقب بالمأمون، وكان ذلك في ذي الحجة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)[1].

رابعًا: الصراع بين طليطلة وسرقسطة:

كانت الخصومة بين طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة شرسة، كما تلطخت بالخيانة وموالاة النصارى على بعضهم، وتمكينهم من أراضي المسلمين، ويمكننا أن نقول: إن هذه الخصومة تُعَدُّ الأسوأ في تاريخ الأندلس، مأساةٌ حقًّا أن يسحق النصارى المسلمين، ويعيشوا في بلادهم تحت إشراف حُكَّام مسلمين، وفي أراضي المسلمين!

إنها أحداثٌ تزرف منها العيون، ويقشعر القلب من ذكرها، ويسيل القلم حسرة من كتابتها!

كان النزاع على أشُدِّه بين المأمون بن ذي النون صاحب طُلَيْطِلَة وبين سليمان المستعين بن هود صاحب سَرَقُسْطَة، وكانت تلك فتنة هوجاء عصفت بالمسلمين،

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٥١، ١٥٢، ١٥٨، ١٥٩، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٥٩، ابن بسام: الذخيرة ٣/ ٢٦٨-٢٧٢.

وزالت هيبتهم عند النصارى؛ فمعلوم أن سَرَقُسْطَة تمثِّل من الناحية الجغرافية الجانب الشمالي الشرقي لطُلَيْطِلَة، وكانت سلسلة المدن والقلاع والحصون التي تمتدُّ بين الثغر الأعلى (سَرَقُسْطَة)، وبين الثغر الأوسط (طُلَيْطِلَة)، من قلعة أيوب وحتى وادي الحجارة هي موضع الاحتكاك والتنازع بين الخصمين[١].

وعلى الرغم من أن وادي الحجارة من أعمال طُلَيْطِلَة، إلاَّ أن هناك بعضًا من أهلها مالوا إلى سليمان بن هود في سَرَقُسْطَة، وكانت هذه فرصة لابن هود أن ينفث في رُوح الفرقة بين أهلها؛ ليتسنَّى له السيطرة عليها بسهولة، وهو ما حدث بالفعل، فما زالت رُوح الفُرقة تتزايد بين أهلها المشتَّتين، بين طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة، حتى بعث سليمان بن هود جيشًا عليه ابنه أحمد وليَّ عهده، ودخل وادي الحجارة بتدبيرٍ من شيعته، وكان ذلك سنة (٤٣٦هـ=١٠٤٤م)، وما أن علم المأمون بذلك حتى هرع إلى وادي الحجارة، ودارت بينه وبين أحمد بن هود معارك طاحنة، سالت فيها كثير من الدماء، وكانت الغلبة فيها لابن هود، وفرَّ المأمون وتتبَّعه أحمد بن هود بجيشه، وحاصره في مدينة طَلَبِيرَة، الواقعة على نهر التاجة غرب طُلَيْطِلَة، وبعث أحمد لأبيه سليمان بن هود يُعْلِمه بالخبر، فأمره بترك المأمون والرجوع إلى سَرَقُسْطَة، ورفع الحصار عن طَلَبِيرَة، وبذلك نجا المأمون من موت مُؤَكَّد[٢]!

كانت هزيمة منكرة بلا شكٍّ للمأمون بن ذي النون، إلاَّ أنه لم ييأس وغلبه الجنوح إلى الغلبة والأنفة، ويا ليت أنفته كانت على نصارى الإسبان! وإنما كانت أنفته على مسلمي سَرَقُسْطَة، الذين استهان بدمائهم، وجعلهم عرضة لجنوده وللنصارى، كما سنرى!

لم يَهُنْ المأمون ولم يَلِنْ له عزم، ولم تأخذه الراحة حتى يأخذ بثأره من سليمان بن

---

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٩٨.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٧، ٢٧٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص ١٧٧، ١٧٨.

هود، فماذا يفعل المأمون؟ وقد أنهكته الهزيمة وأخذت منه جُلَّ جيشه وعسكره، فَكَّر المأمون بن ذي النون ووجد ضالته في الاستعانة بالنصارى على أخيه المسلم، والتجأ إلى فرناندو الأول ملك قشتالة يستعين به، مقابل أن يدفع له الجزية، فاستجاب فرناندو للطلب، ونِعْمَ ما يطلبه المأمون!

وعلى الفور ولم تمضِ أيام حتى كانت خيل النصارى تعيث فسادًا في بلاد سليمان بن هود؛ قتلاً ونهبًا وسرقة، وليس لهم رادع يردعهم! فأين جيوش سليمان بن هود؟! وأين عنجهيَّته وجبروته؟ أم أن قوَّته على المسلمين! أم أنه: [الكامل]

أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الحُرُوبِ نَعَامَةٌ فَرْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ[1]

لقد فرَّ سليمان بن هود وتبعه جنوده، وتحصَّنوا بحصونهم، وتركوا رعيتهم لسيوف النصارى!

كان مصابًا عظيمًا للمسلمين في سَرَقُسْطَة؛ إذ كان ذلك الهجوم في وقت الحصاد، فقام النصارى بحصده وحمله، ولم يكتفوا بذلك بل خربوا الزروع والأراضي، وحملوا ما شاء لهم أن يحملوه إلى بلادهم، وكانت فرصة للمأمون أن يثأر لهزيمته، فأغار على بلاد ابن هود ونهب منها ما شاء.

ولم يكتفِ المأمون بذلك فقط، بل عزم على عقد تحالفات أخرى مع ملوك الطوائف؛ يستعين بهم على ابن هود، وعرض المأمون على المعتضد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة صداقته وتحالفه، واستمرَّت المفاوضات بينهما، وقَبِلَ المعتضد بالله ذلك الحلف وتلك النصرة، على أن يعترف المأمون بالدعوة الهاشمية، ويُبايع للمدعو هشام المؤيد، وتكون له الدعوة في مساجد طُلَيْطِلَة، ووافق المأمون بن ذي النون، مع أن أباه إسماعيل بن ذي النون قد رفضها من قبلُ، ولكنها المصالح!

(١) البيت لعمران بن حطان السدوسي.

ويبدو أن المأمون خرج من ذلك الحلف خاسرًا خائبًا؛ إذ انشغل المعتضد عنه بقتال ابن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس، فلم ينلْ منه ما يُريد، وعاد بتحالفه بخُفَّيْ حنين![1].

أما ابن هود فإنه وقع في تلك السقطة التي وقع فيها المأمون، وذهب إلى النصارى يستعين بهم -أيضًا- على المأمون، وبعث إلى فرناندو ملك قشتالة بالهدايا والتحف، وأغراه في طُلَيْطِلَة، فاستجاب فرناندو ولبَّى دعوته، وبعث بسراياه فعاثت في أراضي طُلَيْطِلَة فسادًا وتخريبًا، حتى وصلت إلى وادي الحجارة، وقلعة النهر (قلعة هنارس).

لم ييأس المأمون من المعركة والتمس مساعدة غرسية ملك نافار، وهو أخو فرناندو ملك قشتالة وكانت بينهما عداوة، وبعث المأمون إلى غرسية بالأموال والتحف يستنصره على ابن هود، فأغارت قوات غرسية على أراض سَرَقُسْطَة المتاخمة له فيما بين تُطِيلَة ووَشْقَة، وافتتح قلعة قلبرة أو قَلَهُرَّة من ثغر تُطِيلَة سنة (٤٣٧هـ=١٠٤٥م)، والتي فتحها المنصور بن أبي عامر، وعاثت فيها قوات النصارى تخريبًا.

وهكذا استباح النصارى في قشتالة ونافار بلادَ المسلمين في طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة، بمساعي ابن هود وابن ذي النون المشئومة الذميمة، وانهارت خطوط الدفاع، وساءت أحوال المسلمين، فاضطر أهل طُلَيْطِلَة إلى أن يبعثوا كبراءهم إلى سليمان بن هود؛ طلبًا للصلح، وحفظًا لأراضي المسلمين من ظفر النصارى بها، واستحواذهم عليها، وتظاهر كلٌّ من سليمان بن هود والمأمون بالقبول والمصالحة، ثم غدر سليمان بن هود بما كان عاهد عليه أهل طُلَيْطِلَة والمأمون، ويبدو أن كلاًّ منهما لم يكن مستعدًا لقبول الصلح؛ فالعداوة بينهما ملأت القلوب!

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٨، ٢٧٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٨.

لم يمضِ كثير من الوقت حتى خرج سليمان بن هود بجنوده، ومعه طالعة من حلفائه النصارى متجهًا إلى مدينة سالم من أعمال طُلَيْطِلَة، ولم تصمد حاميتها أمامه، وقتل منهم الكثير، وبسط نفوذه على الحصون التي انتزعها منه المأمون، وكان معه في ذلك كله عبد الرحمن بن إسماعيل بن ذي النون، وهو أخو المأمون، وجعل يدُلُّه على عورات المأمون وثغراته، ولما علم المأمون بالحادثة أسرع ليستردَّ المدينة ويُدافع عنها، وانتهز فرناندو حليف ابن هود غياب المأمون، فبعث سراياه فعاثت في أراضي طُلَيْطِلَة خرابًا وتقتيلاً؛ حتى يئس أهلها، وبعثوا إلى فرناندو يطلبون الصلح والمهادنة، فطلب منهم أموالاً كثيرة، واشترط عليهم شروطًا لم يقدروا عليها، وقالوا له: لو كنا نقدر على هذه الأشياء وهذه الأموال لأنفقناها على البرابرة واستدعيناهم لكشف ما نحن فيه من المعضلة.

فردَّ عليهم فرناندو (ويا ليته لم يَرُدّ) قائلاً: «أمَّا استدعاؤكم البرابرة، فأمر تكثرون به علينا، وتهدِّدوننا به، ولا تقدرون عليه، مع عداوتهم لكم، ونحن قد صمدنا لكم ما نبالي من أتانا منكم، فإنما نطلب بلادنا التي غلبتمونا عليها قديمًا في أوَّل أمركم؛ فقد سكنتموها ما قُضِيَ لكم، وقد نصرنا الآن عليكم برداءتكم، فارحلوا إلى عُدوتكم (يقصد عُدوة المغرب)، واتركوا لنا بلادنا؛ فلا خير لكم في سكناكم معنا بعد اليوم، ولن نرجع عنكم، أو يحكم الله بيننا وبينكم»[1].

وهكذا لم يجد أهل طُلَيْطِلَة قبولاً لِمَا عرض عليهم من الصلح، وعلى الجانب الآخر كان غرسية وجنوده حلفاء المأمون يعيثون في أراضي ابن هود فسادًا وتخريبًا، ودامت هذه الفتنة الهوجاء بين هذين الأميرين المشئومين على المسلمين لمدة ثلاث سنوات (٤٣٥-٤٣٨هـ=١٠٤٣-١٠٤٦م)، ولم تنتهِ إلاَّ بموت سليمان المستعين بن

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٨٢.

هود صاحب سَرَقُسْطَة؛ إذ تنفَّس المأمون بن ذي النون الصعداء[(١)].

طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة.. سليمان بن هود والمأمون بن ذي النون.. إنهما نموذج صارخ لتلك الحروب والخصومات التي عاشتها أمَّة الإسلام، وعانت ويلاتها في تلك الفترة المشئومة على المسلمين فترة ملوك الطوائف.

هدأت الأمور نوعًا ما بين المملكتين؛ إذ انشغل أولاد سليمان الخمسة في النزاع على أملاك أبيهم، وقد استطاع المقتدر بالله أحمد بن هود أن يتغلَّب على إخوته، وأن يُكَوِّنَ مملكة من أعظم ممالك الطوائف، بعد أن ضمَّ طُرْطُوشة إلى أملاكه سنة (٤٥٢هـ=١٠٦٠م)[(٢)]، كما انتزع دانية من صهره علي إقبال الدولة بعد أن حاصرها وذلك سنة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م)[(٣)]؛ وبذلك أضحت سَرَقُسْطَة أكبر ممالك الطوائف مساحة وأعظمها قوَّة.

كما بدأ المأمون يتوسَّع على حساب الممالك الصغيرة الأخرى، واستطاع أن يُكَوِّنَ مملكة قوية مترامية حتى وصلت إلى بَلَنْسِيَة شرقًا، وما لبث المأمون إذ وافته المنية بعد ثلاث وثلاثين عامًا، وذلك بقُرْطُبَة سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، وخلفه حفيده يحيى القادر على أملاك طُلَيْطِلَة وأعمالها.

لم يكن يحيى القادر على مقدار الكفاءة السياسية والعسكرية التي كانت عند جدِّه المأمون؛ إذ كان سيئ الرأي، قليل الخبرة والتجارِب، فوقع تحت تأثير العبيد والخدم ونساء القصر، وطائفة من قرناء السوء وبطانة الشرِّ، ظلُّوا وراءه حتى أوغروا صدره من مدبِّر دولته ابن الحديدي، فقتله في أوائل ذي الحجة

(١) انظر تفاصيل ذلك في، ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٧٧-٢٨٣، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٨، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٩٨-١٠١.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٥٠.

(٣) المصدر السابق ٣/ ٢٢٨.

(٤٦٨هـ=١٠٧٦م) -على نحو ما فصَّلْنَا- وسرعان ما انقلب عليه أعوان الأمس، وصاروا يُؤَلِّبُون العامَّة عليها، وانهالت عليه الضغوط من كل جانب، وكانت هذه فرصة للمقتدر بن هود أن يُغير على طُلَيْطِلَة وأعمالها، وفعلاً كثَّف المقتدر غاراته واستعان بالنصارى في ذلك، ولم يستطع يحيى القادر بن ذي النون أن يَرُدَّ عليه، وظلَّ الأمر هكذا حتى استطاع المقتدر بن هود أن ينتزع منه مدينة شَنْتَبَرِيَّة[1].

تطوَّرت الأحداث كثيرًا في كلٍّ من طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة؛ إذ تصاعد الخطر النصراني على بلاد المسلمين، وبدأ ألفونسو السادس يُسَدِّد ضرباته القوية على ممالك الطوائف المختلفة، حتى أضعفها وأنهكها؛ مرَّة بالجزية، ومرَّة بالغارات المتتالية، والواقع أن أحوال يحيى القادر في طُلَيْطِلَة كانت تُنذر بالخطر ووقوع النكبة؛ إذ اندلعت الثورة ضدَّه في طُلَيْطِلَة وهرب منها إلى حصن وَبْذَة سنة ٤٧٢هـ، إلا أنه استطاع أن يعود على حراب ألفونسو مرَّة أخرى، والتي أعقبتها زواله وخروجه ذليلاً من طُلَيْطِلَة؛ إذ وقعت النكبة وسقطت في يد ألفونسو في صفر (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، وخرج القادر يحيى إلى بَلَنْسِيَة تحت الحماية القشتالية في شوال (٤٧٨هـ=١٠٨٦م).

وعاث النصارى قتلاً وتخريبًا في المسلمين وديارهم تحت سمعه وبصره، ولم يُحَرِّك ساكنًا، وأمام هذه التطوُّرات الخطيرة يصل الخبر إلى بَلَنْسِيَة بالعبور المرابطي، فيهرع النصارى في بَلَنْسِيَة إلى ألفونسو لنجدتهم من الاتحاد الأندلسي المرابطي، وتكون معركة الزَّلاَّقة وينتصر المسلمون في (رجب ٤٧٩هـ=أكتوبر ١٠٨٦م)، ويتنفَّس أهل بَلَنْسِيَة الصعداء، بخروج النصارى وانتصار المسلمين، وهكذا انتقلت دولة القادر بن ذي النون من طُلَيْطِلَة إلى بَلَنْسِيَة.

---

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٧.

وعلى الجانب الآخر تُوُفِّيَ المقتدر أحمد بن هود سنة (٤٧٥هـ=١٠٨١م)، بعد ٣٥ سنة حاكمًا على سَرَقُسْطَة، بيد أن أبناء المقتدر يوسف والمنذر اقتتلا فيما بينهما على عرش أبيهما، واستعان كلٌّ منهما بالنصارى على أخيه، فارتمى يوسف المؤتمن في أحضان السيد القمبيطور، وجيشه من المرتزقة القشتاليين، وارتمى المنذر في أحضان سانشو ملك أراجون ورامون أمير بَرْشُلُونَة، وانتهت الفتنة بتغلُّب يوسف المؤتمن بن هود على مملكة سَرَقُسْطَة، وانحصر سلطان المنذر في لارِدَة وطُرْطُوشة، وبدأت أطماع يوسف تَتَّجه صوب بَلَنْسِيَة، إلا أنه فشل في انتزاعها من يد حاكمها أبي بكر بن عبد العزيز، إلاَّ أنَّ ابن عبد العزيز أحسَّ بالخطر، ودارت بينهما مفاوضات انتهت بالتقارب بينهما بالمصاهرة؛ إذ زوَّج أبو بكر ابنته لأحمد المستعين بن يوسف المؤتمن وذلك سنة ٤٧٧هـ، ومات المؤتمن سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، ولم يُحَقِّق حلمه، وخلفه من بعده ابنه أحمد المستعين.

تطوَّرت الأحداث على هذا النحو في المملكتين، وأسفرت معركة الزَّلاَّقة عن انجلاء الحصار القشتالي عن بَلَنْسِيَة ٤٧٩هـ، وتجدَّدت أطماع المستعين بن هود في بقية أملاك طُلَيْطِلَة، وأخذ يتحيَّن الفرص ليقتنصها ويُحَقِّق حلم آبائه، وجاءته الفرصة إذ إن عمه المنذر كان يرقب هو الآخر الفرصة للاستيلاء على بَلَنْسِيَة، وحشد جنوده وفرض عليها الحصار سنة (٤٨١هـ=١٠٨٠م)، وهنا هرع القادر بن ذي النون إلى حليفه أحمد المستعين بن هود، الذي لبَّى دعوته مسرعًا وهو ينوي نية الاستيلاء، مستعينًا في ذلك على القمبيطور وجنوده المرتزقة، وما أن اقترب المستعين ومَنْ معه من مرتزقة القمبيطور، حتى أنهى المنذر الحصار وعرض على يحيى صداقته، وهنا ظهرت ألاعيب كلٍّ من القمبيطور والمستعين، وظلَّ كلٌّ منهما يلعب على الآخر، وتفكَّك الحلف بينهما؛ إذ ظهرت النوايا الخفيَّة في سيطرة كلٍّ منهما على بَلَنْسِيَة، وانتهى الأمر أن غدت بَلَنْسِيَة في يد القمبيطور، وكانت مصابًا عظيمًا، ومحنة

جليلة للمسلمين هناك وذلك سنة (٤٨٨هـ=١٠٩٦م)، وبقيت بَلَنْسِيَة في أيدي النصارى حتى استردَّها المرابطون سنة ٤٩٥هـ[١].

عاد المستعين حاملاً أذيال الخيبة من فشل محاولاته في انتزاع بَلَنْسِيَة، إلى أن قُتل في معركة بلتيرة أو فالتيرا أمام ألفونسو المحارب ملك أراجون في (رجب ٥٠٣هـ=يناير ١١١٠م)، وخلفه ابنه عبد الملك الملقَّب بعماد الدولة، والذي كانت نهاية دولة بني هود على يديه؛ فقد دخل المرابطون سَرَقُسْطَة سنة (٥٠٣هـ=١١١٠م)، وكانت آخر ممالك الطوائف سقوطًا في يد المرابطين، وظلَّت في أيديهم إلى أن سقطت في يد ألفونسو الأول ملك أراجون في رمضان (٥١٢هـ =١١١٨م)[٢].

وهكذا انتهت الأحداث بين مملكتي طُلَيْطِلَة وسَرَقُسْطَة، والتي كان الاعتماد فيها واضحًا على جند النصارى والمرتزقة، والذي كان له بعيد الأثر في تدهور الأوضاع حتى سقوط المملكتين.

* * *

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٣٠٣-٣٠٦، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٢٩، ٢٨٧.
(٢) ابن الأبار: الحلة السيراء ٢/ ٢٤٨، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٤/ ١٦٣.

الفصل الثالث

المشهد الصليبي.. تطور الحال في الممالك النصرانية

مَرَّت الممالك النصرانية الإسبانية في الشمال خلال القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي بنفس الأطوار التي مرَّت بها الأندلس الإسلامية في الجنوب، فمرَّة في طور القوَّة والنشاط، ومرَّة في طور التفرُّق والنزاع، وطور القوة يأتي من وَحْدة تلك الممالك المتنازِعة فيما بينها، وطور الضعف يأتي من التنازع بينها، فكما رأينا الحال في الأندلس عندما تنازعها ملوك الطوائف، وتقاتلوا فيما بينهم؛ حتى إن الأخ يقتل أباه وأخاه وأهله ليستأثر بالحُكم دونهم، كان هذا هو الوضع -كذلك- في الممالك النصرانية.

ولا نعرف أيًّا من الطرفين أخذ بسُنَّة الآخر!

وفيما يلي في هذه السطور نحاول أن نُلقي بعض الضوء على حال تلك الممالك وعَلاقتها بملوك الطوائف، وكيف تَوَحَّدت تلك الممالك وعادت حركة الاسترداد النصرانية على الأندلس المسلمة؟

أولاً: الممالك النصرانية في الشمال:

انقسمت المملكة النصرانية في الشمال في أواخر القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي إلى ثلاث ممالك؛ هي على النحو التالي:

مملكة نافار أو نبرَّة: وهي أكبر الممالك النصرانية، وكان يحكمها سانشو الكبير.

أما مملكة ليون: فكان يحكمها برمودو الثاني (٩٨٢-٩٩٩م)، وخلفه في الحكم ابنه ألفونسو الخامس، وظلَّ بها حتى تُوُفِّيَ سنة ١٠٢٧م، وذلك خلال إحدى غاراته على أراضي المسلمين في شمال البرتغال، وحاصر مدينة بازو، فأصابه سهم مسموم فقتله، فخلفه ابنه برمودو الثالث.

وأما مملكة قشتالة: وكان يحكمها سانشو غرسية حتى سنة ١٠٢١م، ثم خلفه ابنه غرسية بن سانشو.

وكان بين هذه الممالك تنازع وفرقة، وكان كلٌّ منها -تمامًا كما كان يحدث بين ملوك الطوائف- يترقَّب الفرصة المناسبة للانقضاض على مُلْك الآخرين، وهو ما حدث بالفعل؛ إذ قصد غرسية بن سانشو ملك قشتالة مملكة ليون؛ ليتمَّ عقد زواجه من أخت ملكها برمودو الثالث، فقُتل غِيلة هناك في الكنيسة أثناء مراسم الحفل، وبذلك أصبحت مملكة قشتالة بلا ملك ولا أمير، وكان ذلك سنة ١٠٢٨م، وكان لهذا الحدث أثره الكبير في تغيير الخريطة السياسية في الممالك النصرانية.

كان سانشو الكبير ملك ناڤار (نبرة)، يرقب الأحداث عن كثب، وكانت تلك فرصته الذهبية؛ إذ كان سانشو زوجًا لأخت غرسية القتيل، وبالتالي فهو الوريث الشرعي لميراث زوجته، فجمع قوته واحتلَّ قشتالة، وضمَّها إلى مملكته، ووضع عليها ابنه فرناندو؛ وبذلك أضحت قشتالة ونافار مملكة واحدة.

أضحت إسبانيا مفترقة بين مملكتين، الأولى يحكمها سانشو وولده فرناندو؛ وهي مملكة قشتالة ونافار، والثانية يحكمها برمودو الثالث؛ وهي مملكة ليون.

كانت عين سانشو الكبير على ليون؛ إذ بها تتوحَّد إسبانيا على يديه ويُصبح هو الملك الأوحد للنصارى الإسبان، وكانت وسيلته في ذلك أن توجَّه فرناندو ملك

قشتالة وعقد زواجه على أخت برمودو الثالث ملك ليون، وبالطبع كان ذلك الزواج زواج مصلحة إلى حين، فكما استطاع سانشو أن يتغلَّب على قشتالة بزواجه من أخت غرسية القتيل، أراد فرناندو أن يُخضع ليون بالطريقة ذاتها، ولكن يبدو أن فرناندو استعجل ثمرته فهاجم مملكة ليون وافتتحها لنفسه، ففرَّ برمودو الثالث ليرقب الفرصة لاسترداد عرشه، وقد حاول ذلك مرارًا ولكنه لقي مصرعه على يد صهره، وبذلك توحَّدت ممالك إسبانيا الثلاثة على يد سانشو الكبير، وكان ذلك سنة ١٠٣٧م.

وكان سانشو قُبيل وفاته قد قسَّم مملكته بين أولاده الأربعة؛ فجعل قشتالة وليون وجِلِّيقِيَّة من نصيب ابنه فرناندو، وخصَّ ابنه الأكبر غرسية بنافار، وجعل لابنه راميرو ما تسّمى بمملكة أراغون، واقتطع لابنه كونزالو منطقة صغيرة هي ولايتي سوبرابي وريبا جورسيا، هذا فضلاً عن إمارة بَرْشُلُونَة في شمال شرقي إسبانيا، والتي يحكمها رامون برنجيز الأول.

وكان هذا التقسيم إيذانًا بعودة الفُرقة والتناحر بين الإخوة الأشقاء، وهو ما حدث بالفعل، بعد وفاة سانشو الكبير[١].

ثانيًا: فرناندو وتوحيد الجبهة الصليبية:

اندلعت الحرب الأهلية في إسبانيا النصرانية بين الإخوة الأشقاء، وكانت حربًا دموية وشرسة، استعان أطرافها بالغيلة والخيانة والخديعة.

لم يقتنع راميرو بنصيبه من مملكة أبيه، وطمع في نصيب أخيه غرسية؛ أي: مملكة نافار نفسها، ولم تكن قوَّاته كفيلة بتحقيق أحلامه، فعقد حلفًا مع جاره المسلم ابن هود صاحب سَرَقُسْطَة على أن يُمِدَّه بجنود من عنده، ثم زحف راميرو في قوَّاته

(١) انظر التفاصيل في: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٧٦-٣٧٨.

المتحدة، إلى نافار ومعه حلفاؤه من المسلمين، وضرب حصاره على قلعة تافالا، وعلى عَجَلٍ جمع غرسية جيوشه، وفي جُنح الظلام انقضَّ بقواته على جيش راميرو، وكانت مقتلة عظيمة ومفاجأة، وقُتل كذلك معظم جيش المسلمين المشارك في المعركة، وكان ذلك سنة ١٠٤٢م.

وعلى الجانب الآخر كان غرسية ملك نافار يرى أنه أحقُّ بقشتالة من أخيه فرناندو؛ فهو أكبر إخوته سنًّا، وتملكت الغيرة قلبه من أخيه الأصغر فرناندو، فدبَّر له حيلة ومكيدة يكون فيها مقتل فرناندو؛ إذ دعا غرسية أخاه فرناندو لزيارته في نافار؛ فهو على فراش الموت، ويحبُّ أن يرى أخاه قبل انقطاع حياته، وفعلاً لبَّى فرناندو دعوة أخيه الأكبر، ولكنه فطن إلى حيلته بفعل عيونه، فعاد مسرعًا، وقلبه يمتلئ حقدًا على أخيه، ولم يكن غرسية على علم بأن فرناندو اكتشف حقيقة أمره ومكيدته، وبعث فرناندو برسالة لأخيه غرسية يدعوه لزيارته بقشتالة، فسار إليه وهو مطمئن النفس من أخيه، وما لبث حتى قبض عليه فرناندو واعتقله، ولكنه استطاع الفرار وهو يُضمر لأخيه الانتقام، فكان لا بد من الحرب!

جمع غرسية حشوده مستعينًا في ذلك بحليفه المقتدر بن هود صاحب سَرَقُسْطَة، كما جمع فرناندو حشوده من قشتالة وليون، واشتبك الفريقان عند سهل أتابوركا شرقي برغش، وكانت معركة دامية، انقلبت فيها الموازين على غرسية وحلفائه من المسلمين، وقُتل غرسية بضربة قاضية، فانهار جيشه ولاذ بالفرار، وقصر فرناندو مطاردته على جيش المسلمين، فمُزِّقُوا شرَّ ممزَّق، وكانوا بين أسير وقتيل، ووقع اختيار فرناندو على سانشو بن غرسية ملكًا جديدًا على نافار؛ ليكون وريثًا لأبيه[1].

وهكذا توحَّدت ممالك إسبانيا النصرانية مرَّة أخرى؛ إذ أضحت قشتالة وليون

(١) انظر التفاصيل في: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٧٨-٣٨١.

ونافار وجِلِّيقِيَّة وأراجون تحت قبضة ملك واحد هو فرناندو بن سانشو الكبير.

ثالثًا: فرناندو وحرب الاسترداد الأولى

حقًّا إن التاريخ يُعيد نفسه، وما أشبه أحداث الواقع بالتاريخ.. ففي الوقت الذي كانت إسبانيا النصرانية تنزع نحو الوَحْدَة والقوَّة على يد فرناندو، الذي استطاع بالفعل أن يُكَوِّن جبهة نصرانية صليبية مُوَحَّدة، كانت إسبانيا المسلمة أو الأندلس الإسلامية تصطلي بنيران الفُرقة والتنازُع والتشرذم بين أبناء الدين الواحد، فما أن أُلغيت الخلافة الأموية (عِقد الأمَّة ورمز وَحدتها) وذلك في قُرْطُبَة سنة (٤٢٢هـ=١٠٣١م)، حتى أضحت الأندلس فرقًا ممزَّقة وقطعًا متناثرة، وطوائف متنازعة متقاتلة.

وكان هذا التنازع سبيلاً إلى أن يتقوَّى بعضهم على بعض بتكوين التحالفات والتكتلات والاستعانة بغيرهم؛ ليتقوى بهم على جاره المسلم، وربما كان جاره أباه أو أخاه، وكان لا بدَّ لهذا الحليف أن يكون في موضع قوَّة واتحاد؛ لذلك اتجهت أنظار ملوك الطوائف إلى النصارى الصليبيين، الذين يحملون رُوح الحقد والكراهية للمسلمين.

فكان هذا الاتحاد الذي أحدثه فرناندو بين ممالك إسبانيا الصليبية، وحالة التنازع والفرقة بين ملوك الطوائف سبيلاً إلى تغيير ميزان القوى السياسية والعسكرية في شبه الجزيرة الأيبيرية بشِقَّيْهَا الإسلامي والنصراني، وكانت هذه القوة النصرانية بداية لما يُسَمَّى بحرب الاسترداد الصليبية ضدَّ الممالك الأندلسية المسلمة.

تمركزت سياسة حرب الاسترداد التي تزعَّمها فرناندو الأول[1] ملك قشتالة على أكثر من جهة، وكان يهدف من هذا الأمر إلى إضعاف قوَّة ملوك الطوائف،

(١) فرناندو الأول ملك قشتالة: يُطلق عليه في المصادر العربية (فرذلند ملك الجلالقة).

وإخضاعهم لسلطانه وسيطرته؛ إمَّا من خلال السيطرة على أراضيهم، أو إضعافهم وإرهاق كاهلهم بدفع الجزية والإتاوات، ولم يُوَلِّ فرناندو نظره وقوَّته إلاَّ للممالك الأقوى بين ملوك الطوائف، وكانت هذه الممالك هي طُلَيْطِلَة وإِشْبِيلِيَة وسَرَقُسْطَة وبَطَلْيُوس وغيرها من الممالك الضعيفة.

فما أن انتهى فرناندو من توحيد جبهته الصليبية بعد تغلُّبه على إخوته، حتى وجَّه أمره وقوته إلى بني الأفطس أصحاب بَطَلْيُوس؛ لإخضاع وضمِّ ممتلكاتهم إلى دولته، ومعلوم أن بَطَلْيُوس تُمَثِّل الحدود الشمالية والغربية لدولة الأندلس؛ أي: تشمل دولة البرتغال الحالية بكاملها؛ فهي تضمُّ لَشْبُونَة (lispon)، وشَنْتَرِين (Santarém)، وقُلُمْرِيَة (Coimbra) وغيرها، وفي سنة (٤٤٩هـ=١٠٥٧م) تأهَّب فرناندو الأول وجمع جيوشه وغزا بلاد بَطَلْيُوس، وعبر بقوَّاته نهري دويرة وتورمس، وهاجم الحدود الشمالية لمملكة بَطَلْيُوس، واستطاع أن يُخضع مدينتي بازو ولاميجو الواقعتين في شمال البرتغال، وعاث فيهما فسادًا وتخريبًا، ثم قام بعملية تصفية وتطهير عرقي ضد مسلمي المدينتين الإسلاميتين؛ إذ طرد المسلمين منها واستوطنها بالنصارى[1].

وبعد أن تمَّت السيطرة لفرناندو طلب من المظفر بن الأفطس دفع الجزية والإتاوة، بيد أن المظفر رفض دفع الجزية له، وهذا ما دفع فرناندو أن يُغِيرَ مرَّة أخرى، فبعث بحملة من عشرة آلاف جندي عاثت تخريبًا وقتلاً، ولم تلقَ مقاومة تُذْكَر من جند ابن الأفطس، وظَلَّت قوَّات النصارى تعيث في أراضي المسلمين فسادًا حتى وصلت مدينة شَنْتَرِين، وكان ابن الأفطس على علمٍ بتحرُّكات النصارى، فسبق النصارى إلى شَنْتَرِين، وعَلِمَ أنه لا قِبَلَ له بجيش النصارى، فعرض عليهم الصلح والهدنة، وانتهت المفاوضات على أن يدفع ابن الأفطس

---

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٨٥، ٨٦، ٣٨٣.

الجزية السنوية ومقدارها خمسة آلاف دينار[١].

يبدو أن فرناندو قنع بخضوع بَطَلْيُوس وأصحابها من بني الأفطس، فوجَّه وجهته الثانية ناحية طُلَيْطِلَة، وقد بيَّنَّا -سابقًا- أن فرناندو كان يبعث سراياه لتعيث فسادًا في أراضي طُلَيْطِلَة، أثناء حلفه مع ابن هود في فترة الصراع المحتدم بين سليمان المستعين بن هود وبين المأمون بن ذي النون، كما أن المأمون كان يستعين بغرسية ملك نافار، وكانت جيوش النصارى تعيث في أراضي المسلمين بتحريض من الأميرين المشئومين.

وأدرك فرناندو بعد توحيد جبهته أن لا قِبَل لملوك الطوائف بردِّه؛ إذ هم منهمكون في حرب بعضهم البعض، ففي سنة (٤٥٤هـ=١٠٦٢م) هاجم فرناندو حدود مملكة طُلَيْطِلَة الشمالية الشرقية؛ فأغار على مدينة سالم ووادي الحجارة وقلعة النهر (قلعة هنارس)، وعاث فيها فسادًا وتخريبًا، ولم يكن أمام المأمون إلاَّ أن هرع مسرعًا إلى فرناندو، وجمع معه أطنانًا من الذهب والفضة، وقدم له الهدايا اعترافًا بطاعته، وتعهد بدفع الجزية له[٢].

وبعد أن اطمأن فرناندو إلى ولاء المأمون بن ذي النون، خرج بقوَّات كثيفة سنة (٤٥٥هـ=١٠٦٣م) وأغار على مملكة إِشْبِيلِيَة، وأحرق قراها وخرَّب أراضيها، فلم يجد المعتضد بن عباد بُدًّا من أن يحتذي حذو المأمون صاحب طُلَيْطِلَة، وهرع المعتضد مسرعًا إلى فرناندو وقدَّم له الهدايا؛ معلنًا الولاء والطاعة، كما عرض عليه الصلح والمهادنة والسلم فقَبِلَ منه! وطلب منه أن ينقل رفات القديسة خوستا، التي استشهدت أيام الإمبراطور دقلديانوس ودُفِنَتْ بإِشْبِيلِيَة، فوافق المعتضد بن عباد، وحُمِلَتْ رفات القديسة في احتفال فخم، ونقلت إلى ليون[٣].

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٧، ٢٣٨.

(٢) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠١، ٣٨٣، ٣٨٤.

(٣) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٨٤.

وهكذا استطاع فرناندو أن يُخضع طُلَيْطِلَة وبَطَلْيُوس وإِشْبِيلِيَة تحت قبضته، بإرهاقهم بالجزية والغارات، وكان في كلِّ ذلك يعدُّ عُدَّته وخطته الكبرى للسيطرة على قُلُمْرِيَة من أعمال بَطَلْيُوس، التي فتحها المنصور بن أبي عامر في ٣٧٥هـ، قصد فرناندو قُلُمْرِيَة بجيوشه وفرض عليها الحصار سنة (٤٥٦هـ=١٠٦٤م)، وكان قائدها في ذلك الوقت رجلاً يُسَمَّى راندة، وقد غادر المدينة بعد أن راسل فرناندو سرًّا، وخرج هو وأهله سالمين، ثم توجَّه إلى المظفر بن الأفطس الذي قتله جزاء خيانته وتعاونه مع الصليبيين، ويبدو أن المسلمين حاولوا المقاومة، ولكن نفدت أقواتهم، ولم تلبث المدينة حتى سقطت بعد ستة أشهر من الحصار، بعد حُكم إسلامي دام أكثر من بضع سبعين سنة[1].

لم يَعُدْ أمام فرناندو إلا أنْ يُخْضِعَ مملكة بني هود، التي تُسَمَّى بالثغر الأعلى سَرَقُسْطَة؛ فهي المملكة الوحيدة التي يماطل أصحابها فرناندو في دفع الجزية والإتاوات المفروضة عليهم، كما أنه أراد أن يُخْضِعَ بَلَنْسِيَة لسلطانه، فتوجَّه بقوَّاته سنة (٤٥٧هـ=١٠٦٥م) صوب بَلَنْسِيَة مخترقًا في ذلك حدود سَرَقُسْطَة الجنوبية، وأعمل فيها القتل والتخريب، ونهب الزروع والقرى، كما أنه اجتاح سائر البقاع والحصون؛ وبذلك أرغم المقتدر بن هود على دفع الجزية.

ثم اتجه من فوره ناحية بَلَنْسِيَة وفرض عليها الحصار، ولَمَّا طال الحصار ورأى فرناندو أن حصون المدينة منيعة، ووسائل الدفاع لديها قوية، عزم على الحيلة والمكيدة؛ فتظاهر بالانسحاب والمغادرة، فخرج أهل المدينة فرحين بالنصر متتبِّعين فلول المنهزمين، متزينين بزينة النصر والأُبَّهة، وهنا وفي غفلة من أهل بَلَنْسِيَة وأميرها عبد الملك بن عبد العزيز المنصور، ارتدت القوات الصليبية، وأعملت في أهل بَلَنْسِيَة القتل والأَسْرَ، واستسلمت المدينة لفرناندو، ولكنه أحسَّ بالمرض فآثر

(١) ابن عذاري: البيان المغرب ٣/ ٢٣٨، ٢٣٩، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨٤.

العودة إلى ليون، ولم تمضِ أيام حتى تُوُفِّيَ سنة (٤٥٧هـ= ديسمبر ١٠٦٥م)[(١)].

وهكذا استطاع فرناندو أن يبسط قوَّته على إسبانيا الصليبية وإسبانيا الإسلامية بسلطانه المادي بقوته وجيوشه، والمعنوي بالجزية والإتاوات، التي يُرهق بها ملوك الطوائف.

رابعًا: موت فرناندو والصراع بين ورثته

عمد فرناندو قُبَيْلَ وفاته إلى تقسيم مملكته المتحدة على أبنائه الثلاثة وبنتيه، ويبدو أن فرناندو لم يتعلَّم من درس والده سانشو الكبير عندما قسَّم مملكته المتحدة بين أبنائه، وقد ذاق فرناندو لظى الفُرقة التي كانت بينه وبين إخوته! على كل حالٍ اتَّخذ فرناندو قراره بالتقسيم، وجمع الأساقفة والأشراف في سنة ١٠٦٤م، وانتهى إلى تقسيم الدولة على أبنائه الثلاثة: سانشو الابن الأكبر، وألفونسو، وغرسية، وبنتيه: أوراكا، وإلبيرة.

فخصَّ سانشو بقشتالة وحقوق الجزية من مملكة سَرَقُسْطَة.

وخصَّ ألفونسو بليون وحقوق الجزية من مملكة طُلَيْطِلَة.

وخصَّ غرسية بجِلِّيقِيَّة والبرتغال، وحقوق الجزية من مملكة إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس.

وخصَّ أوراكا بمدينة سَمُّورة الحصينة.

وخصَّ إلبيرة بمدينة تورو وأماكن أخرى على نهر دويرة.

وكان هذا التقسيم سبيلاً إلى اندلاع الشقاق بين الإخوة الأشقاء، وسبيلاً إلى الفُرقة والتنازع بينهم، وهو ما حدث بالفعل.

(١) انظر: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٢٤، ٢٢٥، ٣٨٦، ٣٨٧.

كانت مملكة نافار في ذلك الوقت تحت يد سانشو بن غرسية، كما كانت مملكة أراغون تحت حكم سانشو بن راميرو، وقد طمع سانشو بن فرناندو في ضمِّ المملكتين إلى أملاكه، وقد شعر مَلِكَا أراغون ونافار بنية ملك قشتالة، فكَوَّنَا حلفًا ضده، واستطاعَا أن يصداه عن مملكتيهما في معركة فيانا عام ١٠٦٧م، وبعد عام هاجم سانشو بن فرناندو ملك قشتالة أراضي ليون، وحاول أخوه ألفونسو ردَّه، ولكنه هُزم وتنازل لسانشو عن بعض ممتلكاته عام ١٠٦٨م.

ثم أعاد سانشو كَرَّته على ليون، وهُزم في بادئ الأمر، ولكنه استطاع بحيلة ردريجو ياث (الذي يُعرف بالقمبيطور) أن ينتصر على ألفونسو؛ إذ أغار على جيش ليون ليلاً، ودخل سانشو ليون ظافرًا، واعتقل أخاه ألفونسو وسجنه في يوليو عام ١٠٧١م، ولكنه خرج من معتقله بوساطة أخته أوراكا، وحُدِّدت إقامته في دير ساهاجون، وقد دَبَّرت أخته أوراكا له مكيدة، استطاع بها أن يهرب، والتجأ إلى مملكة طُلَيْطِلَة؛ ليكون في رعاية المأمون بن ذي النون، وقد استقبله المأمون أحسن استقبال، وأكرمه وعاش في كنفه أحسن معيشة.

ويبدو أن ألفونسو لم يكن يقضي منفاه في لهو ولعب وعبث، وإنما كان يتنقل بين جنبات طُلَيْطِلَة، تلك المدينة التي يحلم أن يمتلكها يومًا ما؛ ومما يؤيد ذلك قول الأستاذ بيدال: «كان ملك ليون المخلوع يختلط بالسكان المسلمين ويتريض في جنبات المدينة الحصينة، ويُفكِّر من أيِّ الأماكن وبأيِّ نوع من أدوات الحرب يمكن اقتحامها»[1]. وقضى ألفونسو تسعة أشهر في منفاه معزَّزًا مكرَّمًا، إلى أن شاءت الأقدار وتطوَّرت الأحداث في قشتالة!

لم يقنع سانشو بما تمَّ له من السيطرة على ليون، بل أراد أن ينتزع المُلْكَ من أخيه

(١) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٩١.

غرسية ملك جِلِّيقِيَّة والبرتغال، وقد تمَّ له ذلك، وفرَّ غرسية هاربًا ليكون في حمى المعتمد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة وذلك سنة ١٠٧١م.

لم يَبْقَ لسانشو من مُلْكِ أبيه سوى مُلْكِ أختيه في مدينتي سَمُّورة وتورو، وعقد عزمه على أن ينزع منهما ملكهما، واستطاع فعلاً أن يستوليَ على تورو، ولم تصمد أخته إلبيرة أمامه، ثم توجَّه بجيشه إلى سَمُّورة، فصمدت أمامه كثيرًا، ففرض عليها الحصار، وفي ذات يوم وفد إلى معسكره فارس، وطلب مقابلته؛ ليُنْبِئه عن بعض أحوال المدينة المحصورة، وما كاد الفارس يراه حتى طعنه بحربته فأرداه قتيلاً، وانفضَّ الحصار عن المدينة، بيد أن أخته أوراكا كانت وراء هذه الجريمة، وكان ذلك في أكتوبر سنة ١٠٧٢م.

وهكذا بقيت المملكة بلا ملك يتولَّى شئونها، ولم يبقى من إخوة القتيل سوى ألفونسو اللاجئ في بلاط طُلَيْطِلَة، وغرسية اللاجئ في بلاط إِشْبِيلِيَة، فإلى مَنْ تئول المملكة الواسعة؟!

خامسًا: ألفونسو ملكًا على عرش ليون:

وهكذا قُتل سانشو جزاء طمعه واعتدائه على حقِّ إخوته، فاجتمع الأشراف على استدعاء ألفونسو من طُلَيْطِلَة؛ ليتولَّى الحُكم مكان أخيه، بشرط أن يُقْسِمَ أنه لم يشترك بأي حال في تدبير مقتل أخيه سانشو، فأرسلت أخته أوراكا إليه تستدعيه وتُعْلِمُه بالأمر، وعلى الفور أعلم ألفونسو المأمونَ بن ذي النون بالنبأ، فما كان من المأمون إلا أن أعرب عن سروره وغبطتُه، ووعده بمساعدته بالمال والخيل، ولم يطلب سوى صداقته، وأن يعده أن يساعده ضد إخوانه من المسلمين، فقطع له ألفونسو عهده، وودَّعه المأمون في موكب عظيم إلى حدود مملكته.

ويا لخيبة المأمون! إذ ماذا كان سيفعل لو علم أن ألفونسو هو مَنْ سيُسْقِط

مملكته، ويُهِينُ حفيده القادر!

على كل حالٍ غَدَا ألفونسو ملكًا على عرش ليون وقشتالة، وهكذا عادت المملكة الصليبية وحدة واحدة، كما كانت على عهد سانشو الكبير وفرناندو الأول.

بيد أن غرسية الأخ الآخر لألفونسو طمع في أملاك أخيه وتَمَلَّكَهُ الحسد، فدبَّر له ألفونسو مكيدة بإيعاز من أختهما أوراكا؛ إذ دعا ألفونسو أخاه غرسية للتفاهم، وما كاد يصل غرسية حتى قُبِضَ عليه، وزُجَّ في السجن إلى أن تُوُفِّيَ سنة ١٠٩٠م، وخَلُص عرش المملكة لألفونسو بلا منازع(١).

* * *

(١) انظر التفاصيل في: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٨٩-٣٩٥.

الفصل الرابع

ألفونسو السادس وحرب الاسترداد

كان ألفونسو السادس ملك ليون وقشتالة أقوى ملك نصراني صليبي في ذلك الوقت، ولم ينسَ ألفونسو يومًا عداوة آبائه وأجداده للمسلمين في الأندلس؛ لذلك ليس غريبًا أن يستأنف ألفونسو حرب الاسترداد الصليبية في إسبانيا الإسلامية، بل وتكون أشُدَّها ضراوة وقوَّة وحمية.

وقد اتَّسمت فترة الصراع الإسلامي الصليبي في عهد ألفونسو بالدينية، وكان ذلك بتأييد من البابوية الكنسية؛ لذلك اتَّسم الصراع بالحماسة الشديدة من أجل تحقيق أهداف الكنيسة في القضاء على الإسلام والمسلمين في الأندلس.

أولاً: الإغارة على ممالك الطوائف

حرب الاسترداد الثانية:

عندما اعتلى ألفونسو عرش قشتالة وليون سنة (٤٦٦هـ=١٠٧٢م) كان الصراع على أشدِّه بين إِشْبِيلِيَة وغَرْنَاطَة، وقد سبق وفصلنا كيف استعانت كلتا المملكتين بألفونسو السادس على بعضهما، حتى أرهقهما بالجزية وبما أثاره من تقتيل وتخريب وإفساد باسم تحالفه مع المملكتين.

كانت العَلاقة بين ألفونسو ومملكة سَرَقُسْطَة تسير من سيئ إلى أسوأ، وحدث

أن تُوُفِّيَ يوسف المؤتمن بن هود في السنة نفسها التي سقطت فيها طليطلة بيد ألفونسو (٤٧٨هـ=١٠٨٥م)، فتوجه إلى سَرَقُسْطَة، وضرب الحصار عليها، إلا أن حملته باءت بالفشل؛ إذ جاءت الأنباء إليه بقدوم المرابطين لنجدة إخوانهم بالأندلس، فعاد إلى قشتالة ليُعِدَّ عُدَّته.

أما عن بَلَنْسِيَة فقد كانت تمرُّ بفوضى سياسية تحت حُكم القادر يحيى بن ذي النون، الذي دخلها تحت الحماية القشتالية في شوال (٤٧٨هـ=١٠٨٦م)، فقد تعرَّضت بَلَنْسِيَة لضغط المنذر بن هود صاحب طُرْطُوشة ودانية والجزء الشرقي من مملكة سَرَقُسْطَة، وكانت المدينة تشطر أملاكه، فالتمس المساعدة من كلٍّ مِنْ ألفونسو السادس وأحمد المستعين، الذي هرع إلى القمبيطور، غير أن المصالح تضاربت بين الحليفين، فاضطر المستعين أن يستعين برامون أمير بَرْشُلُونَة، كما استعان القمبيطور بألفونسو السادس، وحدث أن انتصر القمبيطور على رامون، واستولى بذلك على شرقي الأندلس وبَلَنْسِيَة منها، وفرض الجزية عليها، وتعهَّد يحيى بدفع مائة ألف دينار سنويًّا مقابل حمايته له، بيد أن العلاقة ساءت بين القمبيطور وألفونسو السادس، فقبض ألفونسو السادس على زوجة القمبيطور وأولاده، وهاجم بَلَنْسِيَة في الوقت الذي كان فيه القمبيطور في سَرَقُسْطَة؛ لتنظيم الدفاع عنها تجاه خطر المرابطين![1]

وهكذا أضحت ملوك الطوائف كلها تحت نير[2] هجمات النصارى والتي أنهكت قوى ملوك الطوائف وأضعفت قواهم، ونتج عنها أن سقطت طُلَيْطِلَة على نحو ما سنُفَصِّله إن شاء الله.

(١) انظر تفاصيل الأحداث في بلنسية عند: عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٢٣٧-٢٥٢، وطقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٤٧٦، ٤٧٧.

(٢) النير: الخشبة المعترضة فوق عنق الثور لجرِّ المحراث أو غيره. ابن منظور: لسان العرب، مادة نير ٥/ ٢٤٦، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٦٦.

ثانيًا: أخذ الجزية من المسلمين:

إنَّ أشدَّ وأنكى ما كان من أمر ملوك الطوائف في هذه الفترة أنهم كانوا يدفعون الجزية للنصارى، فكانوا يدفعون الجزية لألفونسو السادس، وهم في ذِلَّة ومهانة؛ كانوا يدفعون الجزية حتى يحفظ لهم ألفونسو السادس أماكنهم وبقاءهم على الحُكم في بلادهم.

كانت سياسة ألفونسو السادس التي استعان بها في إنجاح خطته وسيطرته على ممالك الطوائف تعتمد على شقَّيْنِ، الأول: إرهاقهم بالغارات المتواصلة، والثاني: إرهاقهم بالجزية والإتاوات؛ وبذلك تضعف قوى ملوك الطوائف العسكرية والاقتصادية، فلا يقدرون على المدافعة.

وكأنَّ قول الله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ۞ فَتَرَى الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ مَرَضٌ يُسَارِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَى أَنْ تُصِيبَنَا دَائِرَةٌ﴾
[المائدة: ٥١- ٥٢]

قد نزل في أهل الأندلس في ذلك الوقت؛ حيث يَتَعَلَّلون ويتأَوَّلُون في مودَّة وموالاة النصارى بالخوف من دائرة تدور عليهم من قِبَلِ إخوانهم، وهنا يُعَلِّق ﷺ بقوله: ﴿فَعَسَى اللهُ أَنْ يَأْتِيَ بِالْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِنْ عِنْدِهِ فَيُصْبِحُوا عَلَى مَا أَسَرُّوا فِي أَنْفُسِهِمْ نَادِمِينَ﴾ [المائدة: ٥٧] وهو بعينه الذي سيحدث في نهاية هذا العهد كما سنرى، حين يكون النصر فيُسِرُّ هؤلاء في أنفسهم ما كان منهم من موالاة النصارى في الظاهر والباطن، ويندمون حين يفضحهم الله ويُظهر أمرهم في الدنيا لعباده المؤمنين، وذلك بعد أن كانوا مستورين لا يدري أحدٌ كيف حالهم.

وإنها لعبرة وعظة يُصَوِّرُها القرآنُ الكريمُ منهجُ ودستورُ الأُمَّة في كل زمان

ومكان: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا الَّذِينَ اتَّخَذُوا دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ مِنْ قَبْلِكُمْ وَالْكُفَّارَ أَوْلِيَاءَ وَاتَّقُوا اللهَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ﴾ [المائدة: ٥٧].

غير أن الصورة لاح فيها نور من العزَّة والإباء قادم من بَطَلْيُوس، التي أرهقتها غارات ألفونسو، فمع أن كل الممالك وأمراء الطوائف كانوا يدفعون الجزية إلى ألفونسو السادس إلا المتوكل بن الأفطس أمير مملكة بَطَلْيُوس.

وبعد أن أسقط ألفونسو طُلَيْطِلَة سنة (٤٨٧هـ=١٠٨٥م)، وجد نفسه قادرًا على تحدِّي ملوك الطوائف جميعًا، وهنا أرسل ألفونسو السادس للمتوكل بن الأفطس رسالة شديدة اللهجة يطلب فيها منه أن يدفع الجزية، كما كان يدفعها إخوانه من المسلمين في الممالك الإسلامية المجاورة، فرد عليه المتوكل برسالة قوية تثبت ما كان عليه من علم وعزة وإرادة، قال:

«وصل إلينا من عظيم الروم كتاب مُدَّعٍ في المقادير، وأحكام العزيز القدير، يرعد ويبرق، ويجمع تارة ثم يُفَرِّق، ويُهَدِّد بجنوده الوافرة، وأحواله المتضافرة، ولو علم أن لله جنودًا أعزَّ بهم ملَّة الإسلام، وأظهر بهم دين نبينا محمد ﷺ، ﴿أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللهِ وَلا يَخَافُونَ﴾ [المائدة: ٥٤]، بالتقوى يُعرفون وبالتوبة يتضرَّعون، ولئن لمعت من خلف الروم بارقة ﴿فَبِإِذْنِ اللهِ وَلِيَعْلَمَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [آل عمران: ١٦٦]، و﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، ﴿وَلَيَعْلَمَنَّ الْمُنَافِقِينَ﴾ [العنكبوت: ١١].

وأمَّا تعييرك للمسلمين فيما وهن من أحوالهم، وظهر من اختلالهم؛ فبالذنوب المركوبة... ولو اتَّفقت كلمتنا مع سائرنا من الأملاك؛ لعلمتَ أيَّ مصاب أذقناك، كما كانت آباؤك مع آبائنا تتجرَّعه... وبالأمس كانت قطيعة[1] المنصور[2] على

(١) القطيعة: المال المفروض على العدو كل عام، وهي نوع من أنواع الجزية، يضمن بها المهادنة من المسلمين.
(٢) المنصور: هو المنصور بن أبي عامر مؤسس الدولة العامرية.

سلفك، إهداء ابنته إليه[١]، مع الذخائر التي كانت تَفِدُ في كل عام عليه... وأما نحن؛ وإن قلَّت أعدادنا، وعُدِم من المخلوقين استمدادنا، فما بيننا وبينك بحر نخوضه، ولا صعب نروضه، إلاَّ سيوفًا تشهد بحدِّتها رقاب قومك، وجلادًا تبصره في نهارك وليلك، وبالله تعالى وملائكته المسوَّمين، نتقوَّى عليك ونستعين، ليس لنا سوى الله مطلب، ولا لنا إلى غيره مهرب، وما ﴿تَرَبَّصُونَ بِنَا إِلاَّ إِحْدَى الْحُسْنَيَيْنِ﴾ [التوبة: ٥٢]: نصر عليكم فيا لها من نعمة ومِنَّة، أو شهادة في سبيل الله فيا لها من جنة، وفي الله العوض مما به هَدَّدْتَ، وفرج يبتر ما مددت، ويقطع بك فيما أعددت»[٢].

فما كان من ألفونسو السادس إلاَّ أن وجم ولم يُفكِّر، ولم يستطع أن يُرسل له جيشًا؛ فقد غزا كل بلاد المسلمين في الأندلس خلا بَطَلْيُوس، لم يتجرَّأ على أن يغزوها، فكان يعلم أن هؤلاء الرجال لا يقدر أهلُ الأرض جميعُهم على مقاومتهم، فأعزَّ الإسلامُ ورفع من شأن المتوكل بن الأفطس ومَنْ معه من الجنود القليلين حين رجعوا إليه، وبمجرَّد أن لوَّحوا بجهاد لا يرضون فيه إلاَّ بإحدى الحسنيين، نصر أو شهادة.

إلاَّ أن المتوكل صاحب هذه الرسالة، وصاحب العلم والفضل، ختم حياته على أسوأ وأخزى ما يكون الختام؛ إذ هو لما أتى فرجُ الله وتوحَّدت الأندلس استولت عليه شهوة الملك؛ حتى تحالف مع ألفونسو عدوِّه القديم ضد المسلمين، وما أغنى عنه ذلك شيئًا! إذ لقي جزاء خيانته قتلاً في خاتمةٍ ما كان أحسن به أن يتجنبها!

ثالثًا: جرأة مفاجئة:

بعد أن استطاع ألفونسو إسقاط طُلَيْطِلَة في صفر سنة (٤٨٧هـ=١٠٨٥م)، علا وتجبَّر وتسمى بذي الملتين، وراح يستهين بملوك الطوائف، لا يُفَرِّق بين أحد منهم،

(١) لما أجبر أجداده على دفع الجزية، فكان ملك نافار جدُّ ألفونسو السادس قد أرسل ابنته هدية إلى المنصور حتى يأمن جانبه، وهي أمُّ عبد الرحمن بن المنصور الذي انتهت بحُكمه الدولة العامرية.

(٢) الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية، لمؤلف أندلسي من أهل القرن الثامن الهجري، ص٣٦، ٣٧.

وكانت خطوته التالية بعد طُلَيْطِلَة إخضاع إِشْبِيلِيَة لسلطانه، وكان ألفونسو -كما أوضحنا- قد اعتمد في إرهاق إِشْبِيلِيَة على الجزية والغارات المتواصلة، ولكن حدث أمر قلب موازين الأمور في الأندلس..

أرسل ألفونسو سفارة على رأسها وزير يهودي لأخذ الجزية من المعتمد بن عباد، وكان المعتمد قد تأخَّر عن موعد دفع الجزية لانشغاله بغزو ابن صمادح صاحب أَلَمرِيَّة، فغضب ألفونسو وطلب فوق الجزية أن يتسلم بعض الحصون، ثم بالغ في طلباته فطلب أن تلد امرأته جنينها في مسجد قرطبة، وأن تسكن في الزهراء؛ بحجة أن الأطباء أشاروا عليه بنقاء الهواء في الزهراء، كما أن القساوسة أشاروا عليه بهذا الموضع من الجامع، فرفض المعتمد هذه الطلبات، وإذ باليهودي -وهو مجرد رسول- يردُّ على المعتمد بكلام مهين أمام مجلسه ووزرائه[1].

وكعادة النفوس التي قد بقي بها شيء من عوالق الفطرة السوية، أخذت الغيرة المعتمد على الله، وبنخوة كانت مفقودة قام المعتمد على الله فضرب اليهودي وقطع رأسه وصلبه بقُرْطُبَة، واعتقل بقيَّة الوفد.

جُنَّ جنون ألفونسو السادس، وعلى الفور جمع جيشه وأتى بحدِّه وحديده، يُخَرِّب في أراضي إِشْبِيلِيَة، وبعث سراياه فعاثت في أراضي بَاجَة ولَبْلَة، وأحرق كل القرى حول حصن إِشْبِيلِيَة الكبير، ثم عاث في أراض شَذُونة وانحدر غربًا يُخَرِّب ويحرق، ثم فرض الحصار على إِشْبِيلِيَة[2].

حصار إشبيلية:

فرض ألفونسو حصاره على إِشْبِيلِيَة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) بعد أن خرب أعمالها

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٨.

(٢) الحميري: الروض المعطار ص٢٨٨، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٧٣، ٧٤.

حرقًا ونهبًا، ثم بعث برسالة للمعتمد بن عباد مع رجل يُسَمَّى البرهانس، وهي رسالة مِلْؤُها الوعيد والانتقام، يقول له فيها:

«من الإمبراطور ذي المِلَّتَيْنِ الملك أذفونش بن شانجة إلى المعتمد بالله سدَّد الله آراءه، وبصَّره مقاصد الرشاد، قد أبصرتَ تَزَلْزُلَ أقطار طُلَيْطِلَة، وحصارها في سالف هذه السِّنين، فأسلمتم إخوانكم، وعطَّلتم بالدَّعة زمانكم، والحَذِر مَنْ أيقظ بالَهَ قبل الوقوع في الحِبَالة[1]، ولولا عهدٍ سَلَفَ بيننا نحفظ ذِمامه، ونسعى بنور الوفاء أمامه، لنهض بنا نحوكم ناهض العزم ورائده، ووصل رسول الغزو ووارده، لكن الإنذار يقطع الأعذار، ولا يعجل إلاَّ مَنْ يخاف الفَوْت فيما يرومه، وقد حمَّلنا الرسالة إليك السيد البرهانس، وعنده من التسديد الذي يلقى به أمثالك، والعقل الذي يُدَبّر به بلادك ورجالك، مما أوجب استنابته فيما يدقُّ ويجلُّ، وفيما يصلح لا فيما يخلُّ، وأنت عندما تأتيه من آرائك، والنظر بعد هذا من ورائك، والسلام عليك، يسعى بيمينك وبين يديك»[2].

فلمَّا قدم الرسول أحضر المعتمد بن عباد أكابر القوم ووزراءه وفقهاءه، فلمَّا قرأ الكتاب بكى فقيه الأندلس أبو عبد الله بن عبد البرِّ وقال: قد أُبْصِرنا ببصائرنا أنَّ مآل هذه الأموال إلى هذا، وأن مسالمة اللَّعين قوَّة بلاده، فلو تضافرنا لم نصبح في التِّلاف تحت ذلِّ الخلاف، وما بقي إلاَّ الرجوع إلى الله والجهاد.

ثمَّ أخذ المعتمد رسالة ألفونسو وكتب عليها: [الكامل]

الـذُّلُّ تَأْبَـاهُ الْكِـرَامُ وَدِينُنَـا ... لَـكَ مَـا نَـدِينُ بِـهِ مِـنَ الْبَأْسَـاءِ

سُمْنَاكَ سِلْمًا مَـا أَرَدْتَ وَبَعْدَ ذَا ... نَغْزُوكَ فِي الإِصْبَاحِ وَالإِمْسَاءِ

(١) حِبالة: هي ما يصاد بها من أيّ شيء. ابن منظور: لسان العرب، مادة حبل ١١/ ١٣٤.
(٢) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢/ ٢٥، والحلل الموشية، ص٣٨، ٣٩.

اللهُ أَعْـلَى مِـنْ صَـلِيبِكَ فَـادَّرِعْ لِكَتِيبَـةٍ خَطَبَتْـكَ فِي الْهَيْجَـاءِ

سَوْدَاءَ غَابَتْ شَمْسُهَا فِي غَيْمِهَا فَجَرَتْ مَدَامِعُهَا بِفَيْضِ دِمَاءِ

مَـا بَيْنَنَـا إِلاَّ النِّـزَالُ وَفِتْنَـةٌ قَدَحَتْ زِنَادَ الصَّبْرِ فِي الْغَمَّاءِ[١]

فَلَتَقْـدُمَنَّ إِذَا لَقِيـتَ أَسِـنَّةً زُرْقًا تُرَى بِالْوَجْنَةِ الْوَجْنَاءِ[٢]

ثم قال:

«من الملك المنصور بفضل الله المعتمد على الله محمد بن المعتضد بالله، إلى الطَّاغية الباغية أدفونش الذي لَقَّب نفسه ملك الملوك، وتسمَّى بذي المِلَّتَيْنِ، سلام على مَنِ اتَّبع الهُدى، فأول ما نبدأ به من دعواه أنه ذو المِلَّتَيْنِ والمسلمون أحقُّ بهذا الاسم؛ لأنَّ الذي نملكه من نصارى البلاد، وعظيم الاستعداد، ولا تبلغه قدرتكم، ولا تعرفه ملَّتكم، وإنَّما كانت سِنَةٌ سعدٍ اتَّعظ منها مُناديك، وأغفل عن النَّظر السَّديد جميل مُناديك، فركِبنا مركب عجز يشحذ الكيْس، وعاطيناك كئوس دَعَةٍ، قلت في أثنائها: لَيْس. ولم تستحي أن تأمر بتسليم البلاد لرجالك، وإنَّا لنعجب من استعجالك وإعجابك بِصُنْعٍ وافَقَكَ فيه القَدَر، ومتى كان لأسلافك الأخدمين مع أسلافنا الأكرمين يدٌ صاعدة، أو وقفة مساعدة، فاستعدَّ بحربٍ، وكذا وكذا... إلى أن قال: فالحمد لله الذي جعل عقوبة توبيخك وتقريعك بها الموت دونه، والله ينصر دينه ولو كره الكافرون، وبه نستعين عليك»[٣].

طاول المعتمد على الله في التحصُّن، وفي محاولة لبثِّ الهزيمة النفسية في قلوب

---

(١) الغمَّاء: الشديدة من شدائد الدهر. ابن منظور: لسان العرب، مادة غمم ١٢/ ٤٤١، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٦٣.

(٢) الوَجْنَة: ما ارتفع من الخَدَّين للشِّدْق والمَحْجِر. والوجناء: تامة الخَلْق غليظة لحم الوَجْنَةِ صُلْبة شديدة. ابن منظور: لسان العرب، مادة وجن ١٣/ ٤٤٣.

(٣) الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢/ ٢٤-٢٦، وانظر: الحميري: الروض المعطار ص٢٨٨، والحلل الموشية ص٣٨-٤٢.

المسلمين والفتِّ في عضدهم أرسل ألفونسو السادس رسالة قبيحة أخرى إلى المعتمد على الله بن عباد يقول فيها: «كثُر بطول مقامي في مجلسي الذِّبَّان[١]، واشتدَّ علي الحرَّ فأتحِفْنِي من قصرك بمروحة أُرَوِّح بها عن نفسي، وأطرد بها الذباب عني».

يُريد وبكل كبرياء وغرور أن يُخبره أن أكثر ما يُضايقه في هذا الحصار هو الذباب أو البعوض، أمَّا أنت وجيشك وأمتك وحصونك فهي أهون عندي منه.

وبنخوة أخرى أخذ المعتمد على الله بن عباد الرسالةَ وقلبها، وكتب على ظهرها ردًّا وأرسله إلى ألفونسو السادس، ولم يكن هذا الردُّ طويلاً، إنه لا يكاد يتعدَّى السطر الواحد فقط، وما أن قرأه ألفونسو السادس حتى تَمَلَّكهُ الخوف والرعب والفزع وأخذ جيشه، ورجع من حيث أتى..

لم تكن رسالة المعتمد بن عبّاد إلاَّ قوله: قرأت كتابك وفهمت خيلاءك وإعجابك وسأنظر لك في مراوح من الجلود اللَّمْطِيَّة[٢] في أيدي الجيوش المرابطية، تُريح منك لا تروح عليك إن شاء الله[٣].

لم يكن أمام المعتمد على الله غير أسلوب التهديد هذا؛ فقط لوَّح بالاستعانة بالمرابطين، وقد كان ألفونسو السادس يعلم جيدًا مَنْ هم المرابطون، فهو مطَّلِع على أحوال العالم الخارجي، فما كان منه إلاَّ أن أخذ جيشه وانصرف وفضَّ حصار إِشْبِيلِيَة.

وهنا أيقن المعتمد فداحة جرمه وخطأه في دفع الجزية للنصارى، وإغارته على ممالك المسلمين، وقد أيقن أنه لا قِبَلَ له بألفونسو إلاَّ بالمرابطين، وقد استنكر عليه

(١) الذِّبَّان جمع: ذُباب. ابن منظور: لسان العرب، مادة ذبب ١/ ٣٨٠.
(٢) اللمطية: نسبة إلى لمطة وهي قبيلة بأرض المغرب الأقصى. انظر: ياقوت الحموي: معجم البلدان ٥/ ٢٣.
(٣) انظر: الحميري: الروض المعطار، ص ٢٨٨، وصفة جزيرة الأندلس، ص٨٥، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٥٨، السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، ٢/ ٣٨.

بعضهم، وقالوا له: المُلْكُ عَقِيمٌ[1]، والسيفان لا يجتمعان في غمد. فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: رعي الجمال خير من رعي الخنازير[2].

*** *

(١) الملك عقيم: مَثَلٌ يراد به أن المَلِكَ لو نازعه وَلَدُه مُلْكَه لم يلبث أن يُهلكه، فيصير كأنه عقيم لم يُولد له. العسكري: جمهرة الأمثال ٢/ ٢٤٧، والميداني: مجمع الأمثال ٢/ ٣١١.

(٢) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام ٣٢/ ٢٥، والحميري: الروض المعطار ص٢٨٨، والسلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/ ٣٨.

الفصل الخامس

سقوط طليطلة

كان نتيجة زلزال عصر الطوائف هو سقوط طليطلة، ففي سنة (٤٧٨هـ= ١٠٨٥م) سقطت طُلَيْطِلَة، هذا الثغر الإسلامي الأعلى في بلاد الأندلس، تلك المدينة العظيمة التي كانت عاصمة للقوط قبل دخول المسلمين في عهد موسى بن نصير وطارق بن زياد رحمهما الله.

طُلَيْطِلَة التي فتحها طارق بن زياد بستة آلاف؛ فتحها بالرعب قبل مسيرة شهر منها.

طُلَيْطِلَة الثغر الذي كان يستقبل فيه عبد الرحمن الناصر الجزية من بلاد النصارى، ومنه كان ينطلق هو ومَنْ تبعه من الحكَّام الأتقياء لفتح بلادهم في الشمال.

طُلَيْطِلَة المدينة العظيمة الحصينة، التي تحوطها الجبال من كل النواحي عدا الناحية الجنوبية.

فمع قصة سقوط طليطلة:

تعرَّضت مدينة طُلَيْطِلَة لهجمات كثيرة من النصارى في عهد فرناندو الأول وابنه ألفونسو السادس، هذا إضافة إلى غارات ملوك الطوائف المجاورة لها إثر النزاعات المتبادلة بينهم، وكان النصارى على علم بأن طُلَيْطِلَة واسطة العِقد في بلاد

الأندلس، فلو سقطت فمِنَ المؤكَّد أن تسقط قُرْطُبَة وبَطَلْيُوس وغَرْنَاطَة وإِشْبِيلِيَة وهكذا تباعًا.

أولاً: سذاجة المأمون بن ذي النون:

تُرى لو يعلم المأمون بن ذي النون أن ألفونسو هو مَنْ سيُسقط طُلَيْطِلَة، هل كان سيُحسن ضيافته؟!

إنها لسذاجة حقًّا من المأمون، فألفونسو الذي هرب من حرب أهلية مع أخيه سانشو، وأحسن المأمون ضيافته تسعة أشهر كاملة.. وأخذ عليه عهده أن يحفظ طُلَيْطِلَة له ولأبنائه.. وقَبِلَ ألفونسو، وكأنه استخفَّ بعقل ذلك الرجل!

المأمون بن ذي النون يستضيف ابن فرناندو الذي أثقل كاهله وكاهل المسلمين بالجزية والغارات والإتاوات، الآن يستقبل ابنه الذي عمَّا قليل سيُسقط طُلَيْطِلَة!

يبدو أن ألفونسو كان أكبر ذكاءً من المأمون؛ إذ كان ألفونسو يتريَّض في جنبات طُلَيْطِلَة ويأكل من خيراتها، ويُخَالِط أهلها، ويعرف كمائنها ونقاط قوَّتها وضعفها، ويتأمل أسوارها، لقد جعل ألفونسو حياته في طُلَيْطِلَة من منفى إلى مهمة استخباراتية سيحتاج إليها بعد حين.

وما هي إلاَّ أشهر قليلة وأصبح ألفونسو ملكًا على قشتالة سنة ١٠٧٢م، وأخذ يُعِدُّ عُدَّته لإسقاط طُلَيْطِلَة.

ثانيًا: فساد القادر بن ذي النون:

مات المأمون بقُرْطُبَة وخلفه من بعده حفيده يحيى بن إسماعيل بن يحيى بن ذي النون وذلك سنة (٤٦٧هـ=١٠٧٥م)، وتلقَّب بالقادر بالله، وكان القادر بالله سيئ الرأي، فاسد الخُلُق، أحاط نفسه ببطانة سوء، فتحكَّمَت فيه نساء القصر، وسار وراء هوى الغانيات والمغنيات، وما لبثت هذه البطانة السيئة حتى أوغروا صدره

على وزيره الرجل القوي ابن الحديدي، الذي قتله في أوائل ذي الحجة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م)[١].

وما لبث القادر أن جنى عاقبة فساده واعتماده على بطانة السوء، وانهالت عليه الثورات والهموم من كل جانب؛ فالمقتدر بن هود صاحب سَرَقُسْطَة يُرهقه بغاراته من ناحية، وأبو بكر بن عبد العزيز صاحب بَلَنْسِيَة أعلن الثورة والاستقلال، والنصارى من ناحية ثالثة يُغيرون على أعمال مملكته، وكادت قونقة أن ينتزعها منه سانشو راميرو ملك أراجون، لولا أنه افتداها بمبلغ كبير من المال، وحاول القادر أن يجد عونًا ونصيرًا له أمام تلك المتاعب والهموم، فالتجأ إلى ألفونسو السادس ملك قشتالة، يطلب مساعدته، وبالطبع وافق ألفونسو، ولكن في مقابل ماذا؟!

وافق ألفونسو في مقابل أن يتنازل له القادر بن ذي النون عن بعض الحصون القريبة من الحدود، وقد تَسَلَّم منها بالفعل حصون سرية وفتورية وقنالش، كل ذلك إضافة إلى الأموال الباهظة التي اشترطها عليه، والتي يعجز عنه القادر، إلا أنه وافق لحاجته إليه!

ثالثًا: ثورة أهل طليطلة:

في خضمِّ كل هذه الأحداث كان المتآمرون داخل طُلَيْطِلَة يُمَهِّدُون لثورة انقلابية على القادر وأعوانه، وأمام هذه التنازلات المخزية من القادر، واستشراء الفساد في طُلَيْطِلَة اندلعت ضده الثورة الداخلية ونادت بالإطاحة به، وفعلاً هرب القادر من طُلَيْطِلَة إلى حصن وَبْذَة، وأصبح أهل طُلَيْطِلَة بلا أمير ولا حكومة ولا نظام، فاستقدموا المتوكل بن الأفطس ليحكم البلاد سنة (٤٧٢هـ=١٠٧٩م).

---

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٥٠-١٥٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٧٩، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٧.

رابعًا: ألفونسو يعيد القادر على حراب الصليبيين:

انتقل القادر بن ذي النون من ملجئه في وَبْذَة إلى مدينة قونقة، وأرسل إلى ألفونسو يطلب مساعدته، ويُذَكِّره بسالف الودِّ بينه وبين جدِّه المأمون وما كان للمأمون من فضل في عونه وإغاثته، فاستجاب له ألفونسو، وسار معه في سرية من جنوده، فهي فرصة سانحة لألفونسو أن يبسط سلطانه على القادر، إلى أن تحين الفرصة ويبسط سلطانه على المدينة كلها، فعاد القادر مرَّة أخرى بمعونة ألفونسو ملك قشتالة، وحاصرت قوَّات النصارى طُلَيْطِلَة، مما اضطر المتوكل بن الأفطس إلى أن يخرج منها بعد أن أخذ من أسلاب القادر ما شاء؛ من أثاث وفراش وآنية، وسلاح وكتب وغيرها، وبعث بها إلى بَطَلْيُوس، ونجحت قوَّات ألفونسو في الدخول إلى طُلَيْطِلَة وإعادة القادر إليها بعد عشرة أشهر من خروجه منها، ودخل القادر طُلَيْطِلَة في حمى النصارى وجنودهم، ويقال: إن ألفونسو حاصر طُلَيْطِلَة والمتوكل بداخلها، واضطر المتوكل أن يغادرها بالفرار، وكان ذلك في ذي الحجة سنة (٤٧٣هـ=١٠٨٠م)[1].

خامسًا: ألفونسو يحاصر طليطلة:

الواقع أن ألفونسو كان قد أعدَّ عُدَّته للقضاء على طُلَيْطِلَة، ووضع خطته العسكرية التي تُمَهِّد لمشروعه الواسع بالسيطرة على ممالك الطوائف كلها، وكان المعتمد بن عباد صاحب إِشْبِيلِيَة لَمَّا رأى من استفحال أمر ألفونسو وقوَّته فكر كيف يصنع؛ وبدلاً من أن يسلك مسلك الشرفاء الأعزاء فيُساند طُلَيْطِلَة، أو يسارع فيُكَوِّن حلفًا من ملوك المسلمين، إذا به يخشى على نفسه من أن ينساب تيار الغزو القشتالي إلى مملكته، فرأى أن يعقد مهادنة وصلحًا مع ألفونسو يأمن بها على أراضيه، فبعث وزيره ابن عمار ليتفاوض مع ألفونسو، وتمت المعاهدة والاتفاق على ما يلي:

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٦٣، ١٦٤، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٨.

- يُؤَدِّي المعتمد للملك القشتالي الجزية سنويًّا.

- يُسمح للمعتمد بغزو أراضي طُلَيْطِلَة الجنوبية على أن يُسَلِّمَ منها إلى الملك القشتالي الأراضي الواقعة شمالي سيراMORينا (جبال الشارات).

- لا يعترض المعتمد على مشروع ألفونسو القاضي بالاستيلاء على طُلَيْطِلَة.

وهكذا ضحَّى المعتمد بمعقل إسلامي مهمٍّ؛ لكي يفوز بإمارات لم تخضع له بعد، وهذا خطأ سياسي جسيم يُضاف إلى أخطائه، ودلالة على استهتاره نحو أُمَّته ودينه[1].

وفي شوال (٤٧٤هـ=١٠٨٢م) ضرب ألفونسو الحصار على طُلَيْطِلَة، وشدَّد غاراته عليها، وظلَّ على ذلك أربع سنوات كاملة؛ يُخَرِّب في الزروع والأراضي والقرى، وعاش الناس في ضيق وكرب، وليس بين المسلمين مُجِير، ولا حول ولا قوة إلا بالله العظيم!

وفي الوقت الذي تُحاصَر فيه طُلَيْطِلَة كان ملوك الطوائف يُقَدِّمُون ميثاق الولاء والمحبَّة له؛ أي: الجزية والإتاوة، ولم يجرؤ أحد منهم على الاعتراض عليه في ذلك إلاَّ المتوكل بن الأفطس الذي أُخْرِج من طُلَيْطِلَة قبل قليل، وفي الوقت نفسه الذي تُحاصَر فيه طُلَيْطِلَة نجد أن ممالك الطوائف الأخرى تتنازع فيما بينها، أو تَرُدُّ غارات النصارى المتواصلة عليها.

سادسًا: وسقطت طليطلة:

هكذا أضحت طُلَيْطِلَة وحيدة بلا مأوى!

وهكذا أضحت طُلَيْطِلَة تنتظر ساعة الحسرة والسقوط.

---

(١) طقوش: تاريخ المسلمين في الأندلس ص٤٤٣، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١٠٩.

وهكـذا تُركـت طُلَيْطِلَـة المدينـة المنكوبـة لمصـيرها، وفي خريـف سـنة (٤٧٧هـ=١٠٨٤م) اقترب ألفونسو من المدينة، وأحكم الحصار بشدَّة، وضاق الناس ذرعًا، وكان موقف القادر مريبًا، وكأنَّ هناك اتفاقًا بينه وبين النصارى! وحاول أهل المدينة أن يُطيلوا انتظارهم عسى نجدة من المسلمين تنجدهم، ولكن ليس بين مسلمي الأندلس في ذلك الوقت مجير!

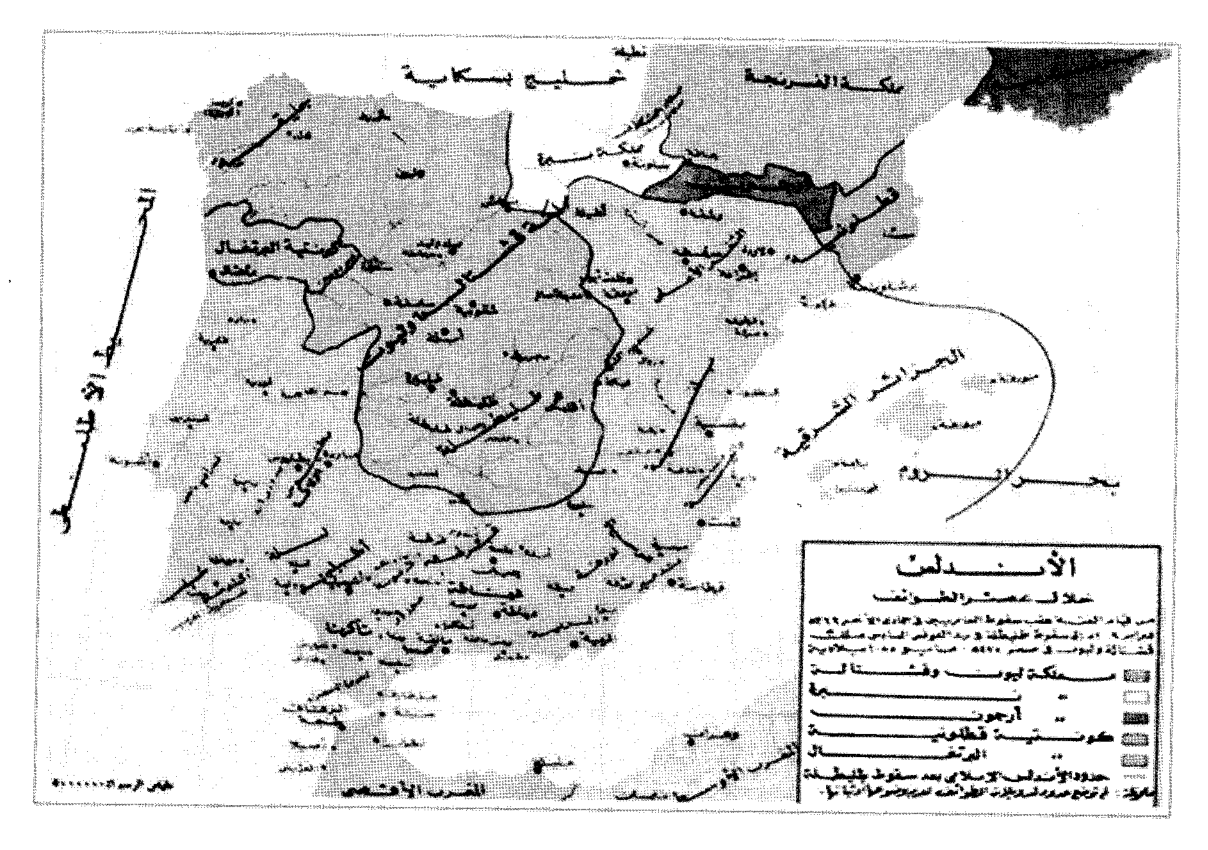
ولما طال الحصار واستحكم على المسلمين وضاق بهم، أرسلوا جماعة من زعمائهم إلى ألفونسو تتحدث عن الصلح والمهادنة، فما كان من ألفونسو إلا أن أهانهم، وسخر منهم واستدعى سفراء ملوك الطوائف، وقد كانوا جميعًا يومئذ لديه يخطبون ودَّه، ويُقَدِّمُون إليه الأموال، وهكذا خرج زعماء طُلَيْطِلَة وقد فقدوا أملهم، عادوا خائبين، وأيقنوا سوء المصير[1].

مضى على الحصار إلى الآن تسعة أشهر، وتحطَّمت كل الآمال المرجوَّة في الصلح والهدنة، وهكذا عرضت المدينة التسليم، بعد أن عجزت عن المقاومة، وبعد أن سَلَّمها ملوك الطوائف ثمنًا لدينهم، وشرفهم وعزَّتهم!

وكان من ضمن شروط التسليم:

- أن يُؤَمَّن أهل المدينة على أنفسهم وأموالهم.
- أن يُغادرها مَنْ يشاء حاملاً أمواله، وأن يُسمح لمن عاد منهم باسترداد أموله.
- أن يُؤَدُّوا الجزية إلى ملك قشتالة على ما كانوا يُؤَدُّونَه لملوكهم من المكوس والضرائب.
- أن يحتفظ المسلمون للأبد بمسجدهم الجامع، وأن يتمتَّعُوا بالحرية التامَّة في إقامة شعائرهم وشريعتهم.

(١) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٦٥-١٦٧، وعنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١١٢، ١١٣.



خريطة رقم (١٢) سقوط طليطلة

- تسليم سائر القلاع والحصون.

وأما بالنسبة للقادر بن ذي النون:

يمكِّنه ملك قشتالة من الاستيلاء على بَلَنْسِيَة، وبالتالي تخضع له القواعد الشرقية كلها[1].

وكانت هذه العلاقة المشئومة بين القادر بن ذي النون وألفونسو السادس ملك قشتالة سببًا في سقوط طُلَيْطِلَة، وخروج القادر المنكود منها ذليلاً هو وأهله، وما أبلغ تعبير ابن بسام في وصف حال القادر عند خروجه! إذ يقول: «وخرج ابن ذي النون خائبًا مما تمنَّاه، شرقًا بعقبى ما جناهُ، والأرض تَضِجُّ من مُقامه، وتستأذنُ في انتقامه، والسماء تودُّ لو لم تُطْلِعْ نَجْمًا إلاَّ كدَرَتْهُ عليه حَتْفًا مبيدًا، ولم تُنْشِئ عارضًا إلا مَطَرَتْهُ عذابًا فيه شديدًا، واستقرَّ بمحَلَّة أذفنوش (ألفونسو) مخفورَ الذِّمَّة، مُذَالَ الحرمة، ليس دونه باب، ولا دونَ حُرمِه سِترٌ ولا حجاب، حدَّثَنِي مَنْ رآه يومئذ بتلك الحال وبيده أصطرلابٌ؛ يرصدُ فيه أيّ وقت يَرْحَل، وعلى أي شيء يعوِّل، وأيّ سبيلٍ يتمثَّل، وقد أطافَ به النصارى والمسلمون، أولئكَ يضحكونَ من فِعله، وهؤلاء يتعجَّبونَ من جهله»[2].

وما أبلغ شماتة ابن الخطيب في القادر وأهله عندما قال: «والطاغيةُ بين يديه يَتَبَحْبَح[3] بيده عنده، واستقرَّ بها شرَّ استقرار، واقتضاه الطاغيةُ الوَعْد، وسلبه الله النصر والسعد، وهلكت الذمم، واستُؤصلت الرِّمَم، ونُفِّذ عقابُ الله في أهلها جاحدي الحقوق، ومُتَعَوِّدي العقوق، ومُقيمي أسواق الشقاق والنفاق، والمَثَل

(١) عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ١١٣، ١١٤.

(٢) ابن بسام: الذخيرة ٧/ ١٥٦-١٦٩.

(٣) التَّبَحْبُح: التمكن في الحلول والمُقامِ والنفقة. ابن منظور: لسان العرب، مادة بحح ٢/ ٤٠٦، والمعجم الوسيط ١/ ٣٩.

السائر في الآفاق»[١].

وفي صفر (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) دخل ألفونسو السادس ملك قشتالة طُلَيْطِلَة، وهكذا سقطت طُلَيْطِلَة وخرجت من قبضة الإسلام، وغدت عاصمة للنصرانية، وحاضرة لمملكة قشتالة، التي يتربَّع على عرشها ألفونسو السادس.

وبسقوط طُلَيْطِلَة اهتزَّ العالم الإسلامي في الشرق والغرب، يُصَوِّره الشاعر ابن عسَّال بقوله: [البسيط]

يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ حُثُّوا مَطِيَّكُمُ ... فَمَا الْمُقَامُ بِهَا إِلاَّ مِنَ الْغَلَطِ

الثَّوْبُ يُنْسَلُ مِنْ أَطْرَافِهِ وَأَرَى ... ثَوْبَ الْجَزِيرَةِ مَنْسُولاً مِنَ الْوَسَطِ

مَنْ جَاوَرَ الشَّرَّ لاَ يَأْمَنْ بَوَائِقَهُ ... كَيْفَ الْحَيَاةُ مَعَ الْحَيَّاتِ فِي سَفَطٍ[٢]

وهي صورة عجيبة ينقلها ذلك الشاعر (إعلام ذلك الوقت) المحبَّط، حتى كأنَّه يدعو أهل الأندلس جميعًا بكل طوائفه ودويلاته إلى الهجرة والرحيل إلى بلاد أخرى غير الأندلس؛ لأن الأصل الآن هو الرحيل، أما الدفاع أو مجرَّد البقاء فهو ضرب من الباطل أو هو (الغلط) بعينه، ولقد سانده وعضَّد موقفه هذا أن من الطبيعي إذا ما انسلَّت حبة من العِقد -مثلاً- فإن الباقي لا محالة مفروط، فما الحال إذا كان الذي انسلَّ من العِقد هو أوسطه (طُلَيْطِلَة) أوسط بلاد الأندلس، فذاك أمر ليس بالهزل، بل وكيف يعيشون بجوار هؤلاء (الحيَّات) إن هم رضوا لهم بالبقاء؟! فما من طريق إلا الفرار وشدِّ الرِّحَال.

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام ص١٨١.

(٢) الصفدي: وفيات الأعيان ٥/ ٢٨، والمقري: نفح الطيب ٤/ ٣٥٢. والسَّفَط: وعاء يوضع فيه الطيب. المعجم الوسيط ١/ ٤٣٣.

سابعًا: استدعاء المرابطين:

وعلى إثر سقوط طُلَيْطِلَة، بدأ ألفونسو يُعِدُّ عُدَّته، ويتجهَّز للهجوم على الممالك الأخرى، لا سيما إِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس وسَرَقُسْطَة وما حولهما، وبدأ ألفونسو يستخدم سياسة الاستهزاء والاستهتار بزعماء الأندلس، وتسمَّى بذي الملتين، وتطوَّر الأمر أن حاصر إِشْبِيلِيَة على نحو ما ذكرنا، حتى كان ما كان من فكرة الاستنجاد بالمرابطين.

إلاَّ أن ما يدلُّك على فساد الحكام في ذلك الوقت هو أن بعضهم رفض فكرة المعتمد، وراسله في أن يعود عن قرار الاستنجاد بالمرابطين، وخوَّفوه من أن نزول المرابطين إلى الجزيرة قد يُغريهم بحكمها بأنفسهم، وحقًّا إن شهوة الملك هذه تُذهب الدين والعقل والمروءة وسائر الصفات الكريمة، فما أكثر الحسرات التي يعانيها القارئ في تاريخ الأندلس وهو يقرأ أخبار هذه الفئة التي سكنتها شهوة الحكم الصوري الضعيف الهش، الذي لا يتماسك أمام العدوِّ، ولا يتوسَّع إلاَّ على حساب دماء المسلمين، ويرضى بالذلِّ ودفع الجزية، ويسكت عن إخوانه المحاصرين والمقتولين، ولا يُبصر أن الدور سيأتي عليه، فلا يرضى حتى بالنجدة تعبر إليه لاحتمال أن تحوز الملك دونه! أيُّ فسادٍ في الدين هذا، بل في العقل، بل في الفطرة السوية؟!

إلاَّ أن الله ألهم المعتمد بهذه العزيمة والإصرار، وقال كلمته الخالدة التي صارت مثلاً: «رَعْيُ الجمال خير من رَعْيِ الخنازير». ومعناه أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيرًا يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزَّقًا للأذفونش أسيرًا له يرعى خنازيره في قشتالة. وقال لعُذَّاله ولوَّامه: يا قوم؛ إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شكٍّ، ولا بُدَّ لي من إحداهما، أما حالة الشكِّ فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا

يفعل، فهذه حالة شكٍّ، وأما حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أُرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطتُ الله تعالى، فإذا كانت حالة الشكِّ فيها عارضة، فلأي شيء أدع ما يُرضي الله وآتي ما يُسخطه؟ فحينئذ قصر أصحابه عن لومه»[١].

والحق أن المعتمد -أيضًا- لم يترك من حسنات في سيرته إلاَّ هذه الخطوة، ثم جهاده وصبره في معركة الزلاقة الذي سيأتي بيانه، أما قبل هذا القرار وبعده فهو ليس إلا واحدًا من ملوك الطوائف، سكنته شهوة السلطان؛ حتى أذهبت عنه كل أثر من عقل أو فضيلة، وسنراه كيف سيقاتل المسلمين المرابطين بما لم يفعل مثله مع النصارى.

ولكن لا نسبق الأحداث؛ فأمام الحالة الإيمانية والجهادية العالية التي كان عليها المعتمد بن عباد تحرَّكت النخوة في قلوب الأمراء الآخرين، فقام المتوكِّل بن الأفطس صاحب بَطَلْيُوس وعبد الله بن بلقين صاحب غَرْنَاطَة، فوافقوا المعتمد بن عباد في رأيه، وبذلك اجتمعت الحواضر الكبرى في الأندلس على استدعاء المرابطين، وتقدَّمت الوفود تلو الوفود إلى المغرب العربي؛ يقول الحميري: «وكان يوسف بن تاشفين لا يزال يَفِدُ عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيستمع إليهم ويُصغي إلى قولهم، وترقُّ نفسه لهم»[٢].

فمن هم المرابطون؟ وما صفاتهم؟ ومن يكون يوسف بن تاشفين؟

هذا حديثنا في الباب القادم إن شاء الله.

* * *

(١) المقري: نفح الطيب ٤/ ٣٥٩.

(٢) الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار ١/ ٢٨٨، ٢٨٩.





الباب السابع
عصر المرابطين



في بداية عهد جديد من عهود الأندلس ودورة أخرى من دورات التاريخ بعد هذا الضعف وذاك السقوط، كانت رسالة المعتمد على الله إلى ألفونسو السادس - التي أثارت الرعب والفزع في قلبه بمجرَّد أن قرأها، فأخذ جيشه وعاد إلى قشتالة - كانت تلك الرسالة هي مهد ذلك العهد وبداية تلك الدورة الجديدة.

تُرى مَنْ هم المرابطون؟ إنهم أبطال مجاهدون، لا يهابون الموت، أقاموا دولة إسلامية امتلكت كل مقوماتِ القوَّة، تربَّعت على المغرب العربي وما تحته.

الفصل الأول

نظرة على تاريخ المغرب

قبيلة جُدَالة وأصل المرابطين:

في أعماق صحراء موريتانيا، وبالتحديد في الجنوب القاحل، حيث الصحراء الممتدَّة، والجدب المقفر، والحرُّ الشديد، وحيث أناس لا يُتْقِنُون الزراعة ويعيشون على البداوة.. في هذه المناطق كانت تعيش إحدى القبائل الأمازيغية (البربرية) الكبيرة، والتي تُدْعَى قبيلة صنهاجة، كانت هذه القبائل مجوسية تعيش في الصحراء بعيدًا عن أي عمران؛ حتى إن الرجل منهم ربما يُعَمَّر دهرًا طويلاً ويموت دون أن يرى في حياته خبزًا، فضلاً عن أن يتذوَّقه، وظلُّوا هكذا حتى انتشر فيهم الإسلام في القرن الثالث الهجري.

ومع ابتعادهم في أعماق الصحراء في أقصى المغرب فقد استمروا على جهالتهم وبداوتهم فكأن لم يعرفوا الإسلام وتعاليمه وكأنه لم يدخل بلادهم، ثم اجتمعوا كلهم حول مَلِك واحد، ثم مات ملكهم وخلفه حفيده، ثم ابن حفيده الذي ثار عليه الصنهاجيون فقتلوه، واختلف أمرهم، وصاروا طوائف عديدة، ثم اجتمعوا بعد فترة أخرى حول ملك آخر كان من لمتونة (وهي قبيلة كبيرة من صنهاجة)، واسمه ابن تيفاون اللمتوني.

غير أنه لم يُعَمَّر طويلاً، فقد مات في إحدى المعارك، فخلفه صهره يحيى بن إبراهيم الجدالي، الذي كان من قبيلة جدالة (وتنطق الجيم مثل الكاف الفارسية أو الجيم القاهرية)، التي هي -أيضًا- قبيلة كبيرة من صنهاجة مثلها مثل لمتونة، فصار

يحيى بن إبراهيم رئيس صنهاجة.

ومن أَعْجَبُ ما يرويه المؤرخون عن الجهل التام بتعاليم الإسلام ذلك الذي ساد الناس في هذا الزمن، أن يُخرج «أحدهم ابنه وابنته لرعي السوام، فتأتي البنت حاملاً من أخيها، فلا يُنكرون ذلك، وكان من دأبهم الإغارة بعضهم على بعض ويقتل بعضهم بعضًا»[١]، وانتشر بينهم الزنا، ومصادقة الرجل للمرأة المتزوجة بعلم زوجها وحضوره[٢]. وكان الرجل منهم يتزوج ما يشاء من النساء بلا عدد؛ حتى إن يحيى هذا -رئيسهم- كان متزوِّجًا من تسع نسوة، فهم لا يعرفون من الإسلام لا صلاة ولا زكاة ولا شرائع، اللهم إلا الشهادتين فحسب[٣].

لقد كانت هذه الأوضاع أشد وطأةً مما نحن عليه الآن، فلننظر كيف يكون القيام، ولنتدبَّر تلك الخطوات المنظَّمة التي سار أصحابها وَفق منهج رسول الله ﷺ في بناء الدولة وإصلاح أحوال الأُمَّة.

يحيى بن إبراهيم يحمل هَمَّ المسلمين:

أراد يحيى الجدالي أن يحج، وكان الحج في هذا الزمان يعني -أيضًا- رحلة في طلب العلم، فاستخلف ابنه إبراهيم وسار إلى الشرق، وفي طريق عودته ذهب إلى القيروان، وقابل هناك أبا عمران موسى بن عيسى الفاسي، وهو شيخ المالكية في مدينة القيروان، وكان المذهب المالكي هو المنتشر في بلاد الشمال الإفريقي وإلى عصرنا الحاضر، كما كان هو المذهب السائد في بلاد الأندلس آنذاك، قابل يحيى بنُ إبراهيم أبا عمران الفاسي، ذلك العالم الكبير الذي يقول عنه الحميدي: فقيه القيروان، إمام في وقته، دخل الأندلس، وله رحلة إلى المشرق وصل فيها إلى العراق،

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣١/ ٨٢.
(٢) علي الصلابي: دولة المرابطين، ص١٥.
(٣) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ص١٢٤.

وسمع بالقيروان وبمصر وبمكة وكان مكثرًا عالمًا[١]. كما وصفه الحميري في الروض المعطار بالفقيه الإمام المشهور بالعِلْم والصلاح[٢].

ونقل ابن فرحون صاحب الديباج المذهب في معرفة أعيان علماء المذهب (المالكي) أنه كان من أحفظ الناس وأعلمهم؛ جمع حفظ المذهب المالكي إلى حديث النبي ﷺ، ومعرفة معانيه، وكان يقرأ القرآن بالسبع ويُجَوِّده، مع معرفته بالرجال وجرحهم وتعديلهم، أخذ عنه الناس من أقطار المغرب والأندلس، واستجازه مَنْ لم يَلْقَه، وله كتاب التعليق على المدونة، كتابٌ جليل لم يُكْمَل، وغير ذلك[٣].

لا نشكُّ في أن يحيى سمع من الفقيه أبي عمران ما أدهشه وأيقظه، وعرَّفه بأن قومه يعيشون في جاهلية كبرى، ولا نشكُّ كذلك في أن يحيى -وهو الزعيم الحريص على أهله وقومه- حمل الهم الكبير لما اكتشفه من حقيقة الحال، وما هو إلا أن أخبر يحيى شيخه أبا عمران بأنه من قوم لا يعرفون شيئًا عن أمور دينهم، فعامَّة الناس لا يعرفون إلاَّ الشهادتين، وقليل من الخاصة مَنْ يُصَلُّون، وأنَّ لا علم لهم من العلوم ولا مذهب لهم من المذاهب؛ لأنهم منقطعون في الصحراء، لا يذهب إليهم إلاَّ بعض التجار الجهَّال، وأن فيهم أقوامًا يرغبون في تَعَلُّم العلم، والتفقُّه في الدين، لو وجدوا إلى ذلك سبيلاً. فاختبره الفقيه حتى تأكد من حقيقة هذه الفاجعة[٤].

فعرض الفقيه ذلك على طلابه فأَبَوْا، فأرسله إلى أحد فقهاء بلاد المغرب ويُدعى وجاج بن زلو اللمطي، وكان من طلابه، وكان قد تَفَقَّه وجلس للتدريس، فرحل إليه يحيى الجدالي، فأرسل معه الفقيه وجاج واحدًا من ألمع وأذكى تلاميذه وهو عبد الله بن ياسين.

---

(١) الحميدي: جذوة المقتبس، ١/ ٣٣٨، باختصار.
(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٤٣٥.
(٣) ابن فرحون: الديباج المذهب، ٢/ ٣٣٧، ٣٣٨.
(٤) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب ص١٢٢ وما بعدها.

الفصل الثاني

عبد الله بن ياسين وتأسيس دعوة المرابطين

تُرى مَنْ هو هذا الشيخ؟!

كان عبد الله بن ياسين - الزعيم الأول للمرابطين، وجامع شملهم، وصاحب الدعوة الإصلاحية فيهم، (ت٤٥١هـ=١٠٥٩م)- من فقهاء المالكية.

كان من حُذَّاق الطلبة الأذكياء النبهاء النبلاء، من أهل الدين والفضل، والتقى والورع والفقه، والأدب والسياسة، مشاركًا في العلوم[(١)]، قال الذهبي: «كان عالمًا قوي النفس، ذا رأي وتدبير»[(٢)]. أي ذا شخصية قوية له علم وبصر بالأمور وله قدرة على حسن التصرف. وها هو ذا يَقبل القيام بهذه المهمَّة الكبيرة، التي أحجم عنها أقرانه من تلاميذ الفقيه وجاج، وفضَّل أن يُغَوِّر في الصحراء.

عبد الله بن ياسين ومهمَّة الأنبياء:

اتَّجه الشيخ عبد الله بن ياسين صَوْب الصحراء الكبرى، مخترقًا جنوب الجزائر وشمال موريتانيا حتى وصل إلى الجنوب منها، حيث قبيلة جُدَالة، وحيث الأرض المجدِبة والحرُّ الشديد، وفي أناةٍ شديدة، وبعدما هالَه أمر الناس في ارتكاب المنكرات أمام بعضهم البعض، ولا يُنْكِر عليهم مُنْكِر، بدأ يُعَلِّم الناسَ؛ يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر، وكان الناس في جهل مطبق يصفه القاضي عياض

(١) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٢٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٧.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٣١/ ٨٠.

رحمه الله بقوله: كان الدين عندهم قليلاً، وأكثرهم جاهلية، ليس عند أكثرهم غير الشهادتين، ولا يعرف من وظائف الإسلام سواهما[١].

ولكن ثار عليه زعماء القوم وأصحاب المصالح، فهم أكبر مستفيد مما يحدث، فبدأ الناس يجادلونه ويصدُّونه عمَّا يفعل، ولم يستطع يحيى بن إبراهيم الجُدالي زعيم القبيلة أن يحميه.

لم يقنط الشيخ عبد الله بن ياسين، وحاول المرَّة تلو المرَّة، فضربوه وأهانوه، ثم هَدَّدُوه بالطرد من البلاد أو القتل، إلا أن موقف الشيخ لم يَزْدَدْ إلاَّ صلابة، ومرَّت الأيام وهو يدعو ويدعو، حتى طردوه بالفعل، ولسانُ حالهم: دعك عنا، اتركنا وشأننا، ارجع إلى قومك فعَلِّمهم بدلاً منا، دع هذه البلاد تعيش كما تعيش فليس هذا من شأنك. وكأني أراه رأي العين وهو يقف خارج حدود القبيلة وبعد أن طرده الناس، تنحدر دموعه على خدِّه، ويقول مشفقًا على قومه: ﴿يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦].

يُريد أن يُغَيِّر ولا يستطيع، أنْفُسٌ تتفلَّتُ منه إلى طريق الغواية والانحراف عن النهج القويم، ولا سبيل إلى تقويمها، حزَّ في نفسه أن يُولَد الناس في هذه البلاد فلا يجدون مَنْ يُعَلِّمهم ويُرْشِدهم، فأراد أن يبقى، ولكن كيف يبقى؟ أيَدخل جُدَالة من جديد؟ إذًا سيقتلونه، فلو كان في مقتله صلاح لهم فأهلاً بالموت، لكن هيهات ثم هيهات!

عبد الله بن ياسين ونواة دولة المرابطين:

جلس رحمه الله يُفكِّر ويمعن النظر، فهداه ربُّه عز وجل، فما كان منه إلاَّ أن تعمَّق في الصحراء ناحية الجنوب بعيدًا في أعماق القارة الإفريقية، حتى وصل إلى جزيرة

(١) القاضي عياض: ترتيب المدارك، ٢/ ٦٤.

يُرَجَّح أنها تقع في منحنى نهر (النيجر)، على مقربة من مدينة تنبكتو، فمن هنا بدأ أمر المرابطين[١]، يصف ابن خلدون هذه الجزيرة بقوله: «يحيط بها النيل[٢]، ضَحْضَاحًا[٣] في الصيف، يخاض بالأقدام، وغمرًا[٤] في الشتاء يُعْبَر بالزوارق»[٥].

صنع عبد الله بن ياسين خيمة بسيطة، وكان من الطبيعي أن يكون في جُدَالة بعض الناس- وخاصَّة من الشباب- الذين تحرَّكت قلوبهم وفطرتهم السويَّة لهذا الدين، فحين علموا خبر شيخهم في مقرِّه البعيد هذا، نزلوا إليه من جنوب موريتانيا ولم يتجاوز عددهم في بادئ الأمر سبعة نفر من جدالة، على رأسهم الأمير يحيى بن إبراهيم الجدالي[٦]، الذي ترك قومه ومكانته فيهم ونزل مع الفقيه، وتضيف بعض المصادر أن معهم اثنين من كبار قبيلة لمتونة؛ هم: يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر[٧]!

وفي خيمته وبصبر وأناة شديدين أخذ الشيخ عبد الله بن ياسين يُعَلِّمهم الإسلام كما أنزله الله ﷻ على نبيِّه محمد ﷺ، وكيف أنَّ الإسلام نظام شامل متكامل، يُنَظِّم كل أمور الحياة.

بداية المرابطين، وتربية على منهج الرسول الكريم ﷺ:

مع كثرة الخيام وازدياد العدد إلى الخمسين، فالمائة، فالمائة وخمسين، فالمائتين،

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٠٢.

(٢) المقصود هنا فرع من نهر النيجر، ولا علاقة له بالنيل الذي في مصر والسودان، وقد كان يُعرف هذا النهر في ذلك الوقت باسم النيل.

(٣) الضحضاح: الماء القليل وقريب القعر يكون في الغدير وغيره. انظر: الجوهري: الصحاح، باب الحاء فصل الضاد ١/ ٣٨٥، وابن منظور: لسان العرب، مادة ضحح ٢/ ٥٢٤، والمعجم الوسيط ١/ ٥٣٤.

(٤) الغَمْر: الماء الكثير الذي يعلو ويغطي الأماكن. انظر: الجوهري: الصحاح، باب الراء فصل الغين ٢/ ٧٧٢، وابن منظور: لسان العرب، مادة غمر ٥/ ٢٩، والمعجم الوسيط ٢/ ٦٦١.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٣

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٢٥، وابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٢٧، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٨.

(٧) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٣.

أصبح من الصعب على الشيخ توصيل علمه إلى الجميع، فقسَّمهم إلى مجموعات صغيرة، وجعل على كلٍّ منها واحدًا من النابغين، وهو منهج رسول الله ﷺ حين كان يجلس ﷺ مع صحابته في مكة يُعَلِّمهم الإسلام، وفي بيعة العقبة الثانية حين قسم الاثنين والسبعين رجلاً من أهل المدينة المنورة إلى اثني عشر قسمًا، وجعل على كل قسم (خمسة نفر) منهم نقيبًا عليهم، ثم أرسلهم مرَّة أخرى إلى المدينة المنورة حتى قامت للمسلمين دولتهم.

وهكذا -أيضًا- كان منهج الشيخ عبد الله بن ياسين، حتى بلغ العدد في سنة (٤٤٠هـ=١٠٤٨م)، بعد أربعة أعوام فقط من بداية دعوته ونزوحه إلى الجزيرة إلى ألف نفس مسلمة، ﴿نَصْرٌ مِنَ اللهِ وَفَتْحٌ قَرِيبٌ وَبَشِّرِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ [الصف: ١٣].

فبعد أن طُرد الرجل وأُوذي في الله وضُرب وهُدِّد بالقتل، إذا به ينزل بمفرده إلى أعماق الصحراء حتى شمال السنغال وحيدًا طريدًا شريدًا، ثم في زمن لم يتعدَّى أربع سنوات يتخرَّج من تحت يديه ألف رجل على أفضل ما يكون من فهم الإسلام وفقه الواقع.

يروي ابن أبي زرع فيصف هذه المرحلة من حياة المرابطين بقوله: «فدخلاها (الجزيرة) ودخل معهما سبعة نفر من كدالة، فابتنيا بها رابطة، وأقام بها مع أصحابه يعبدون الله تعالى مدة من ثلاثة أشهر، فتسامع الناس بأخبارهم، وأنهم يطلبون الجنة والنجاة من النار، فكثر الوارد عليهم والتوابون، فأخذ عبد الله بن ياسين يُقرئهم القرآن ويستميلهم إلى الآخرة، ويُرَغِّبهم في ثواب الله تعالى، ويُحَذِّرهم أليم عذابه، حتى تمكَّن حُبُّه منهم في قلوبهم، فلم تمر عليهم أيام حتى اجتمع له من تلاميذه نحو ألف رجل من أشراف صنهاجة، فسماهم المرابطين للزومهم رابطته، وأخذ هو يُعَلِّمهم الكتاب والسنة والوضوء والصلاة والزكاة، وما فرض الله عليهم من ذلك، فلما تفقهوا في ذلك وكثروا قام فيهم خطيبًا، فوعظهم وشَوَّقهم إلى الجنة، وخَوَّفهم

من النار، وأمرهم بتقوى الله والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأخبرهم بما في ذلك من ثواب الله تعالى وعظيم الأجر، ثم دعاهم إلى جهاد مَنْ خالفهم من قبائل صنهاجة، وقال لهم: يا معشر المرابطين؛ إنكم جمع كثير، وأنتم وجوه قبائلكم ورؤساء عشائركم، وقد أصلحكم الله تعالى وهداكم إلى صراطه المستقيم، فوجب عليكم أن تشكروا نعمته عليكم، وتأمروا بالمعروف، وتنهوا عن المنكر، وتجاهدوا في سبيل الله حقَّ جهاده. فقالوا: أيها الشيخ المبارك؛ مُرْنَا بما شئت تجدنا سامعين مطيعين، ولو أمرتنا بقتل آبائنا لفعلنا. فقال لهم: اخرجوا على بركة الله، وأنذروا قومكم، وخَوِّفُوهم عقاب الله، وأبلغوهم حجته، فإن تابوا ورجعوا إلى الحقِّ وأقلعوا عمَّا هم عليه فخلوا سبيلهم، وإن أَبَوْا من ذلك وتمادوا في غيهم ولَجُّوا في طغيانهم، استعنَّا بالله تعالى عليهم، وجاهدناهم حتى يحكم الله بيننا، وهو خير الحاكمين. فسار كل رجل منهم إلى قومه وعشيرته، فوعظهم وأنذرهم ودعاهم إلى الإقلاع عمَّا هم بسبيله، فلم يكن منهم من يقبل ولا يرجع، فخرج إليهم عبد الله بن ياسين، فجمع أشياخ القبائل ورؤساءهم وقرأ عليهم حجة الله، ودعاهم إلى التوبة، وخَوَّفهم عقاب الله، فأقام يُحَذِّرهم سبعة أيام وهم في كل ذلك لا يلتفتون إلى قوله، ولا يزدادون إلا فسادًا، فلمَّا يئس منهم قال لأصحابه: قد أبلغنا الحجة وأنذرنا، وقد وجب علينا الآن جهادهم، فاغزوهم على بركة الله تعالى»[(١)].

معنى المرابطين:

أصل كلمة الرباط هي ما تُربط به الدابَّة، ثم قيل لكل أهل ثغر يدفع عمَّنْ خلفه رباط، فكان الرباط هو ملازمة الجهاد[(٢)]، وروى البخاري بسنده عن سهل بن سعدٍ الساعديِّ ﵁ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «رِبَاطُ يَوْمٍ فِي سَبِيلِ اللهِ خَيْرٌ مِنَ الدُّنْيَا

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٢٥، وما بعدها، والسلاوي: الاستقصا ٢/ ٨.
(٢) انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة ربط ٧/ ٣٠٢.

وَمَا عَلَيْهَا...» الحديث[1].

ولأن المرابطين أو المجاهدين كانوا يَتَّخِذُون خيامًا على الثغور يحمون فيها ثغور المسلمين، ويُجاهدون في سبيل الله؛ فقد تَسَمَّى الشيخ عبد الله بن ياسين ومَنْ معه ممن كانوا يُرابطون في خيام على نهر السنغال بجماعة المرابطين، وعُرفوا في التاريخ بهذا الاسم.

كما تُطْلِق عليهم بعض المصادر الملثَّمِينَ، فيُقال: أمير الملثمين، ودولة الملثمين. ويرجع سببُ هذه التسمية كما يذكر ابن خلّكان في (وفيات الأعيان) إلى أنهم: «قوم يتلثَّمُون ولا يكشفون وجوههم؛ فلذلك سَمَّوْهُم الملثَّمين، وذلك سُنَّة لهم يتوارثونها خلفًا عن سلفٍ، وسبب ذلك على ما قيل: أن (حِمْيَرَ) كانت تتلثَّم لشدَّة الحرِّ والبرد، يفعله الخواصُّ منهم، فكثر ذلك حتى صار يفعله عامَّتُهم. وقيل: كان سببه أن قومًا من أعدائهم كانوا يقصدون غفلتهم إذا غابوا عن بيوتهم، فيطرقون الحي، فيأخذون المال والحريم، فأشار عليهم بعض مشايخهم أن يبعثوا النساء في زيِّ الرجال إلى ناحية، ويقعدوا هم في البيوت ملثَّمين في زيِّ النساء، فإذا أتاهم العدوُّ ظنُّوهم النساء فيخرجون عليهم، ففعلوا ذلك، وثاروا عليهم بالسيوف فقتلوهم، فلزموا اللثام تبرُّكًا بما حصل لهم من الظفر بالعدوِّ»[2].

وقال ابن الأثير في سبب اللثام: وقيل كان سبب اللثام لهم أن طائفة من لمتونة خرجوا غائرين على عدوٍّ لهم، فخالفهم العدوُّ إلى بيوتهم، ولم يكن بها إلاَّ المشايخ والصبيان والنساء، فلـمَّا تحقَّق المشايخ أنه العدوّ، أمروا النساء أن يلبسن ثياب الرجال ويتلثَّمن ويُضَيِّقْنَه حتى لا يُعْرَفْنَ، ويلبسن السلاح، ففعلن ذلك، وتقدَّم

---

(١) البخاري: كتاب الجهاد والسير، باب فضل رباط يوم في سبيل الله (٢٧٣٥)، والترمذي (١٦٦٤)، وأحمد (٢٢٩٢٣)، والبيهقي (١٧٦٦٥).

(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١٢٩.

المشايخ والصبيان أمامهن، واستدار النساء بالبيوت، فلما أشرف العدوُّ؛ رأى جمعًا عظيمًا فظنَّه رجالاً، فقال: هؤلاء عند حرمهم يقاتلون عنهن قتال الموت والرأي أن نسوق النعم ونمضي، فإن اتبعونا قاتلناهم خارجًا عن حريمهم. فبينما هم في جمع النعم من المراعي إذ قد أقبل رجال الحي، فبقي العدوُّ بينهم وبين النساء، فقتلوا من العدوِّ فأكثروا، وكان من قتل النساء أكثر، فمن ذلك الوقت جعلوا اللثام سُنَّة يُلازمونه، فلا يُعرف الشيخ من الشاب، فلا يُزيلونه ليلاً ولا نهارًا، ومما قيل في اللثام: [الكامل]

قَوْمٌ لَهُمْ دَرْكُ الْعُلا فِي حِمْيَرٍ ... وَإِنِ انْتَمَوْا صِنْهَاجَةً فَهُمُ هُمُ

لَمَّا حَوَوْا إِحْرَازَ كُلِّ فَضِيلَةٍ ... غَلَبَ الْحَيَاءُ عَلَيْهِمُ فَتَلَثَّمُوا(١)

إنَّ مَنْ يقرأ عن الشيخ عبد الله بن ياسين والمرابطين الذين كانوا معه قراءة عابرة، يظنُّ أنهم جماعة من الناس اعتزلوا قومهم ليعبدوا الله بعيدًا عن ضوضاء العمران ومشاكل الناس فحسب، ولم يكن الأمر كذلك على الإطلاق؛ بل كان هذا الاعتزال جزءًا من خطة كبيرة، يتمُّ تنفيذها خطوة بعد خطوة، بفهم سليم وعمق في التفكير، ودقَّة في التخطيط، وبراعة في التنفيذ.

عندما وصل عدد المرابطين إلى ألف، بعثهم الشيخ ابن ياسين إلى أقوامهم لينذروهم، ويطلبوا إليهم الكف عن البدع والضلالات، واتباع أحكام الدين الصحيح، ففعلوا ما أُمروا به، ودعا كل قومه إلى الرشد والهدى ومجانبة التقاليد المنافية للدين، فلم يُصْغِ لهم أحد من أقوامهم، فخرج إليهم عبد الله بن ياسين بنفسه، واستدعى أشياخ القبائل ووعظهم، وحذَّرهم عقاب الله، ونصحهم باتباع أحكامه، فلم يلقَ منهم سوى الإعراض والتحدي، فعندئذٍ قرر عبد الله وصحبه

(١) ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٣٣١، والبيتان نُسِبَا لأبي محمد بن حامد الكاتب، انظر: السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى ٢/ ٤.

إعلان الحرب على أولئك المخالفين[١].

وبالفعل بدءوا يستعدُّون لغزو البلاد والقبائل المحيطة بهم، وأرسلوا يُنذرون ويُعذرون، ثم بدأت غزواتهم بالفعل للقبائل والبلاد، ففتحوا الكثير منها، وأخضعوا القبائل المحيطة بهم، وتسامع بهم فقهاء بعض البلاد الأخرى، فأرسلوا إليهم ليُخَلِّصُوهم من حكامهم الطغاة.

يحيى بن عمر اللمتوني والمرابطون:

استشهد أمير المرابطين يحيى بن إبراهيم الجدالي في إحدى الغزوات المرابطية، والأمير يحيى هو الرجل الذي بدأ به أمر المرابطين، وهو أحد السبعة الذين انعزلوا مع الشيخ ابن ياسين في الرباط بعد أن أُخرج من أراضي جدالة في أول الأمر، فعرض عبد الله بن ياسين الزعامة على جوهر الجدالي ولكن جوهرًا زهد فيها وأعرض عنها، فما كان من عبد الله بن ياسين إلا أن اتخذ قرارًا حكيمًا وبعيد النظر حقًّا، ألا وهو صرف الزعامة إلى يحيى بن عمر اللمتوني[٢]، وقد كان هو وأخوه فقط من قبيلة لمتونة -ثاني القبائل الكبرى في المنطقة- مع السبعة من جدالة، الذين انحازوا إلى الرباط مع الشيخ ابن ياسين في أول الأمر.

وفي الحقيقة نحن لا نستبعد أن يكون الشيخ ابن ياسين قد اتفق مع جوهر الجدالي -زعيم جدالة بعد يحيى- على التنازل عن الرئاسة ليحيى بن عمر اللمتوني؛ لِمَا في تولِّيه الرئاسة على قوم غالبيتهم من جدالة[٣] من معانٍ تربوية تقاوم ترسبات العصبيات القديمة، كذلك لما في هذا من مصلحة الدعوة وجذب اللمتونيين، فلقد

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٠٢، ٣٠٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٣٢٨.

(٣) سبق أن ذكرنا أن لمتونة وجدالة كانتا القبيلتين القويتين والكبريين في هذه المنطقة من المغرب الأقصى، ويمكن تقريب الصورة لدى القارئ باستحضاره ما كان بين الأوس والخزرج قبل الإسلام.

كان يحيى وأبو بكر من زعماء لمتونة، لكنهما تركا هذه الزعامة لِما آمنا به من دعوة الشيخ عبد الله بن ياسين. ولقد كان لا بُدَّ من عرض الأمر أولاً على جدالي فيتركها لئلاً يظن الجداليين ظنًّا سيئًا بالطريقة التي جعلت لمتونيًّا زعيمًا عليهم؛ إن آثار التعصب القبلي والعائلي لا تزول في سنوات قليلة، وكان لا بُدَّ من مراعاتها في مثل هذه القرارات الفارقة، ولقد شهد التاريخ أن الشيخ ابن ياسين قد نجح بالفعل في هذا القرار الفارق، وصار يحيى بن عمر اللمتوني زعيمًا للمرابطين.

كان هذا في سنة (٤٤٥هـ=١٠٥٣م)، وبالفعل وبتأثير من هذا القرار وكذلك بازدياد نطاق الجهاد المرابطي، الذي تساقطت أمامه الإمارات والقبائل الصغيرة والمتناثرة، اتسعت دولة المرابطين ودخل في سلطانها الآلاف من الناس.

وفي مثال لحُسن الختام وبعد قليل من دخول قبيلة لَمْتُونة في جماعة المرابطين يستشهد زعيمهم الشيخ يحيى بن عمر اللمتوني في إحدى غزواتهم سنة (٤٤٧هـ=١٠٥٥م)، ثم يتولَّى من بعده أخوه الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني.

وقد دخل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني بحماسة شديدة مع الشيخ عبد الله بن ياسين، وبدأ أمرهم يقوى وأعدادهم تزداد، وبدأ المرابطون يصلون إلى أماكن أوسع حول المنطقة التي كانوا فيها في شمال السنغال، فبدءوا يتوسعون حتى وصلت حدودهم من شمال السنغال إلى جنوب موريتانيا، وأدخلوا معهم جُدَالة، فأصبحت جُدَالة ولَمْتُونة -وهما القبيلتان الموجودتان في شمال السنغال وجنوب موريتانيا- جماعة واحدةً تمثِّل جماعة المرابطين.

ثم تنتهي قصة المؤسس الكبير والاسم الخالد الشيخ عبد الله بن ياسين باستشهاده في حرب برغواطة التي كانت -كما يقول المؤرخون- على غير ملة الإسلام، في سنة (٤٥١هـ=١٠٥٩م) بعد أن أمضى أحد عشر عامًا من تربية الرجال على الجهاد.

الفصل الثالث

يوسف بن تاشفين وتأسيس دولة المرابطين



أبو بكر بن عمر اللمتوني (٤٨٠هـ=١٠٨٧م) وزعامة دولة المرابطين

بعد الشيخ عبد الله بن ياسين يتولَّى الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني زعامة جماعة المرابطين، وقد جُمعت له الزعامة الدينية والسياسية، فلقد كان من علماء المرابطين، وفي خلال سنتين من زعامته لهذه الجماعة الناشئة يكون قد ظهر في التاريخ ما يُعرف بدويلة المرابطين، وأرضها آنذاك شمال السنغال وجنوب موريتانيا، وهي بعدُ لا تكاد تُرى على خريطة العالم.

وفي سنة (٤٥٣هـ=١٠٦١م) بعد سنتين من تولِّي الشيخ أبي بكر بن عمر اللمتوني زعامة المرابطين، يَسْمَع بخلاف قد نشب بين جدالة ولمتونة وأصبح فتنة، ومن المؤرخين من يقول: إن الفتنة كانت بين مسوفة ولمتونة. فتوجَّه أبو بكر بن عمر اللمتوني بقسم من المرابطين ليحلَّ الخلاف بين المتصارعين هناك، تاركًا زعامة المرابطين لابن عمِّه يوسف بن تاشفين.

وبعد أن استطاع أبو بكر بن عمر اللمتوني أن يحلَّ الخلاف ويطفئ نار الفتنة التي اشتعلت، إذا به يتوجه إلى السودان -وهي المناطق الجنوبية للمغرب العربي- ليدعو أهل هذه المناطق إلى الإسلام، ولقد وجد قبائل وثنية لا تعبد الله بالكلية، وجدها تعبد الأشجار والأصنام وغير ذلك، ووجد قبائل لم يصل إليها الإسلام قط.

أقبل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني بسبعة الآلاف الذين معه يُعَلِّمُونهم

الإسلام ويُعَرِّفُونهم دين الله، وبصبرٍ شديدٍ ظلَّ أبو بكر بن عمر اللمتوني يدعوهم إلى الإسلام، فدخل منهم جمع كثير وقاومه جمع آخر؛ ذلك أن أهل الباطل المستفيدين من وجود الأصنام لا بُدَّ أن يحافظوا على مصالحهم؛ فالتقى معهم في حروب طويلة.

ظلَّ الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني يتوسَّع في دعوته، ويتنقل من قبيلة إلى قبيلة، وفي سنة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م) وبعد خمس عشرة سنة كاملة من تركه جنوب موريتانيا وهو زعيم على دويلة المرابطين، يعود ﷺ بعد مهمَّة شاقَّة في سبيل الله ﷻ يدعو إلى الله على بصيرة، فيدخل في دين الله مَنْ يدخل، ويحارب مَنْ صدَّ الناس عن دين الله ﷻ حتى يَرُدَّه إلى الدين، أو يَصُدَّه عن صَدِّه.

لقد كان أبو بكر بن عمر من أعظم قادة المرابطين، وأتقاهم وأكثرهم ورعًا ودينًا، وحبًّا للشهادة في سبيل الله، وساهم في توحيد بلاد المغرب، ونشر الإسلام في الصحارى القاحلة وحدود السنغال والنيجر، وجاهد القبائل الوثنية حتى خضعت وانقادت للإسلام والمسلمين، ودخل من الزنوج أعداد كبيرة في الإسلام، وساهموا في بناء دولة المرابطين الفتيَّة، وشاركوا في الجهاد في بلاد الأندلس، وصنعوا مع إخوانهم المسلمين في دولة المرابطين حضارة متميِّزة[١].

يوسف بن تاشفين (٤٠٠-٥٠٠هـ= ١٠٠٩-١١٠٦م) ومهام صعبة

يصفه الذهبي في (سير أعلام النبلاء) فيقول: كان ابن تاشفين كثير العفو، مقرِّبًا للعلماء، وكان أسمر نحيفًا، خفيف اللحية، دقيق الصوت، سائسًا، حازمًا، يخطب لخليفة العراق[٢].

(١) الصلابي: دولة المرابطين، ص٦٣.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٢٥٣.

ووصفه ابن الأثير في (الكامل) بقوله: كان حليمًا كريمًا، دَيِّنًا خَيِّرًا، يُحِبُّ أهل العلم والدين، ويحكِّمهم في بلاده، ويبالغ في إكرام العلماء والوقوف عند إشارتهم، وكان إذا وعظه أحدُهم خشع عند استماع الموعظة، ولان قلبُه لها، وظهر ذلك عليه، وكان يُحِبُّ العفو والصفح عن الذنوب العظام[1].

ولم تكن دولة المرابطين التي تركها الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني في يد ابن عمه يوسف بن تاشفين قد استقرت بعد؛ لذا أوصى أبو بكر خليفته على الدولة بقتال بني يفرن وزناتة ومغراوة؛ وهم القوى الثلاث الرئيسة التي تُناوئ المرابطين[2].

نظر يوسف بن تاشفين في شمال موريتانيا (المنطقة التي تعلوه) وفي جنوب المغرب العربي فرأى من حال البربر -الذين يعيشون في هذه المنطقة وبالتحديد في سنة (٤٥٣هـ=١٠٦١م) - أمورًا عجيبة؛ منها:

أولاً: قبيلة غمارة:

هي من قبائل البربر وقد وُجِد فيها -قبل أكثر من مائة عام من ذلك الوقت- رجلاً يُدعى حاميم بن منِّ الله يَدَّعي النبوة، والغريب أنه لم يُنكر نبوة رسول الله ﷺ، بل قال: إنه نبي على دين الإسلام. ثم أخذ يُشرِّع للناس شرعًا جديدًا، وهم يَتَّبِعُونه في ذلك، ويظنُّون أن هذا هو الإسلام[3].

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٩٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص٢٣٢، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢.

(٣) ظهر هذا الرجل- وكان اسمه حاميم- سنة ٣١٣هـ، وأرسل إليه عبد الرحمن الناصر رحمه الله مَنْ قتله سنة (٣١٥هـ)، ويذكر المؤرخون أن أتباعه عادوا إلى الإسلام بعد قتله، على أن ابن خلدون يذكر أن قد تنبَّأ بعده رجل آخر من غمارة، ولم يذكر تاريخ ذلك، وأنهم حتى أيام ابن خلدون كانوا يمارسون السحر، وقد ذكروا الكثير من بدع حاميم هذا.

وقد فرض حاميم بن منِّ الله على قبيلته صلاتين فقط في اليوم والليلة؛ إحداها في الشروق والأخرى في الغروب، وبدأ يُؤَلِّف لهم قرآنًا بالبربرية، ووضع عنهم الوضوء، ووضع عنهم الطُّهر من الجنابة، كما وضع عنهم فريضة الحج، وحرَّم عليهم أكل بيض الطيور، وأحلَّ لهم أكل أنثى الخنزير، وأيضًا حرَّم أكل السمك حتى يُذبح[(١)]، وإنه لخلطٌ وسَفه بَيِّنٌ خاصة حين يَدَّعِي أنَّه من المسلمين، كما أنه من العجب أن يَتَّبِعَه الناس على هذا الأمر، ويعتقدون أن هذا هو الإسلام[(٢)].

قبيلة برغواطة:

هي قبيلة أخرى من قبائل البربر في تلك المنطقة، على رأسها كان رجل يُدعى صالح بن طريف بن شمعون[(٣)]، وقد ادَّعى -ذلك الذي لم يكن بصالح- النبوة، وفرض على الناس خمس صلوات في الصباح وخمسًا في المساء، وفرض عليهم وضوء المسلمين نفسه، بالإضافة إلى غسل السُّرَّة وغسل الخاصرتين، كما حرم عليهم الزواج من بنات أعمامهم، وجوَّز لهم الزواج بأكثر من أربعة، ومع كل هذا فقد كان يَدَّعي أنه من المسلمين[(٤)].

وكان الأمير على برغواطة أيام ظهور المرابطين أبا حفص عبد الله من أحفاد صالح بن طريف، وقد بدأ المرابطون بحربهم في أيام الشيخ عبد الله بن ياسين وقد قُتل الشيخ في حروبهم، فلما مات أوصى المرابطين باستكمال حربهم وبألاَّ يَهِنُوا في حربهم أو يجبنوا، وبمجرَّد أن واراه أبو بكر بن عمر عاد لحرب برغواطة، ولم يتركهم الأمير أبو بكر إلاَّ

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٩٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٩٨، ٩٩، وتاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢١٦، والسلاوي: الاستقصا، ١/ ١٤٨، ٢٤٩.

(٣) ظهر صالح بن طريف هذا في أيام هشام بن عبد الملك وادعى النبوة كأبيه، وشمعون هذا ليس هو جده الأدنى، وإنما يقولون: إن أباه كان يهوديًّا من حصن برباط بالأندلس، وأنه من ولد شمعون بن يعقوب عليه السلام.

(٤) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٢، وتاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٠٧، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٨.

بعد أن هزمهم شرَّ هزيمة.

قبيلة زناتة:

كانت قبيلة زناتة من القبائل السُّنِّيَّة في المنطقة، وقد تفشَّى فيهم الظلم، فكانوا يسلبون وينهبون مَنْ حولهم، والقوي فيهم يأكل الضعيف، ويجمل حالهم قول السلاوي: «استبد أمراء الأطراف وملوك زناتة بالمغرب كلٌّ بما في يده، وعُدم الوازع، وتصرَّفوا في الرعايا بمقتضى أغراضهم وشهواتهم»[(١)].

وكذلك كانت الحروب قد بدأت بين المرابطين والزناتيين من أيام عبد الله بن ياسين، وقد استطاع المرابطون فرض سيطرتهم على الكثير من مناطق زناتة في عهد عبد الله بن ياسين أيام يحيى بن عمر وأخيه أبي بكر، وظلَّ أبو بكر على حرب زناتة وبطونها، وفرض سيطرته على أراضيهم بعد موت الشيخ ابن ياسين، وقد أوصى أبو بكر يوسفَ باستكمال حربهم، وألاَّ يتوقَّف عن ذلك.

كان من هذا القبيل الكثير والكثير الذي يكاد يكون قد مرق من الدين بالكلية، وقد كانت هناك قبيلة أخرى تعبد الكبش وتتقرَّب به إلى ربِّ العالمين، وبالتحديد في جنوب المغرب، تلك البلاد التي فتحها عقبة بن نافع ثم موسى بن نصير رضي الله عنهما[(٢)].

يوسف بن تاشفين وصناعة الدولة

شقَّ ذلك الوضع كثيرًا على يوسف بن تاشفين رحمه الله، فأخذ جيشه -الذي كان قد بلغ أربعين ألفًا[(٣)]- وانطلق إلى الشمال وحاربته كل القبائل الأخرى في المنطقة، حتى حاربته قبيلة زناتة السُّنِّيَّة، وبمرور الأيام بدأ الناس يَتَعَلَّمُون منه الإسلام،

---

(١) السلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٢.
(٢) العبادي: دراسات في تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٩١، نقلاً عن الصلابي: دولة المرابطين، ص٥٩.
(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٨

ويدخلون في جماعته المجاهدة[1].

وبعد رجوع الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني في سنة (٤٦٨هـ=١٠٧٦م) وبعد خمس عشرة سنة من الدعوة - كما ذكرنا - في جنوب السنغال وأدغال إفريقيا، يرى يوسفَ بن تاشفين رحمه الله الذي كان قد تركه على شمال السنغال وجنوب موريتانيا فقط في سنة (٤٥٣هـ=١٠٦١م) يراه أميرًا على السنغال بكاملها، وموريتانيا بكاملها، والمغرب بكاملها، والجزائر بكاملها، وتونس بكاملها، وعلى جيش يصل إلى مائة ألف فارسٍ غير الرجَّالة، يرفعون راية واحدة ويحملون اسم المرابطين.

وجد أبو بكر بن عمر اللمتوني كذلك أن هناك مدينة قد أُسست على التقوى لم تكن على الأرض مطلقًا قبل أن يغادر، وتلك هي مدينة مَرَّاكُش، والتي أسسها الأمير يوسف بن تاشفين، وكان أول بناء له فيها هو المسجد الذي بناه بالطين والطوب اللبن، تمامًا كما فعل رسول الله ﷺ، وكان يحمل بنفسه الطين مع الناس تشبُّهًا -أيضًا- بالرسول ﷺ[2]، وهو الأمير على مائة ألف فارسٍ[3].

وكذلك وجد الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني رجلاً قد أسس دولة لم تُعرف في المنطقة منذ سنوات وسنوات، ثم هو بعد ذلك يراه زاهدًا متقشِّفًا ورعًا تقيًّا، عالمًا بدينه، طائعًا لربه، فقام الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني بعملٍ لم يحدث إلاَّ في تاريخ المسلمين فقط، حيث قال ليوسف بن تاشفين: أنت أحقُّ بالحكم مني؛ أنت الأمير، فإذا كنتُ قد استخلفتُك لأجلٍ حتى أعود، فإنك تستحقُّ الآن أن تكون أميرًا على هذه البلاد، أنت تستطيع أن تجمع الناس، وتستطيع أن تملك البلاد وتنشر الإسلام أكثر من ذلك، أمَّا أنا فقد ذقت حلاوة دخول الناس في الإسلام، فسأعود مرَّة

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٣٤، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٣.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٨، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٥.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٣٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٧.

أخرى إلى أدغال إفريقيا أدعو إلى الله هناك.

أبو بكر بن عمر اللمتوني رجل الجهاد والدعوة

نزل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني رحمه الله مرَّة أخرى إلى أدغال إفريقيا يدعو من جديد، فأدخل الإسلام في غينيا بيساو جنوب السنغال، وفي سيراليون، وفي ساحل العاج، وفي مالي، وفي بوركينا فاسو، وفي النيجر، وفي غانا، وفي داهومي، وفي توجو، وفي نيجيريا وكان هذا هو الدخول الثاني للإسلام في نيجيريا؛ حيث دخلها قبل ذلك بقرون، وفي الكاميرون، وفي إفريقيا الوسطى، وفي الجابون.

فكانت أكثر من خمس عشرة دولة إفريقية قد دخلها الإسلام على يدِ هذا المجاهد البطل الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني رحمه الله، هذا الرجل الذي كان إذا دعا إلى الجهاد في سبيل الله - كما يذكر ابن كثير في البداية والنهاية - كان يقوم له خمسمائة ألف مقاتل؛ أي: نصف مليون من المقاتلين الأشداء، غير مَنْ لا يقومون من النساء والأطفال، وغير بقية الشعوب في هذه البلاد من أعداد لا تُحْصَى قد هداها الله على يديه.

وما من شَكٍّ أنه كلما صَلَّى رجل صلاة في النيجر أو في مالي أو في نيجيريا أو في غانا، وكلما فعل أحد منهم من الخير شيئًا أُضيف إلى حسنات الشيخ أبو بكر بن عمر اللمتوني ومَنْ معه رحمهم الله.

ويذكره الحافظ ابن كثير في البداية والنهاية، فيقول: «أبو بكر بن عمر أمير الملثَّمِينَ، كان في أرض فرغانة، اتَّفَقَ له من الناموس[1] ما لم يَتَّفق لغيره من الملوك، كان يركب معه إذا سار لقتال عدوٍّ خمسمائة ألف مقاتل، كلٌّ يعتقد طاعته، وكان

(١) الناموس: صاحب سرِّ الخير، وصاحب سر المِلك، أو الرجل الذي يطلعه على سِرِّه وباطن أمره ويخصه بما يستره عن غيره، ابن منظور: لسان العرب، مادة نمس ٦/ ٢٤٣.

يُقيمُ الحدود ويحفظ محارم الإسلام، ويحوط الدين، ويسير في الناس سيرة شرعية، مع صحَّة اعتقاده ودينه، وموالاة الدولة العباسية، أصابَتْه نُشَّابَةٌ في بعض غزواته في حلقه فقتلتْه...»[١]. ثم ها هو ذا رحمه الله وبعد حياة طويلة متجرِّدة لله عز وجل يستشهد في إحدى فتوحاته في سنة (٤٨٠هـ=١٠٨٧م).

دولة المرابطين ويوسف بن تاشفين أمير المسلمين وناصر الدين

كانت بداية حديثنا عن تاريخ المرابطين هي سنة (٤٤٠هـ=١٠٤٨م) وكانت البداية برجل واحد فقط هو الشيخ عبد الله بن ياسين، والآن بعد ثمانٍ وثلاثين سنة فقط، وتحديدًا في سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) يُصبح يوسف بن تاشفين رحمه الله زعيم هذه الدولة العظيمة، ويُسَمِّي نفسه: أمير المسلمين وناصر الدين، وحين سُئِل لماذا لا تتسَمَّى بأمير المؤمنين؟ أجاب: «حاشا لله أن نتسمَّى بهذا الاسم، إنما يتسمى به خلفاء بني العباس؛ لكونهم من تلك السلالة الكريمة؛ لأنهم ملوك الحرمين: مكة، والمدينة، وأنا رجلهم، والقائم بدعوتهم»[٢].

كان العباسيون في هذه الفترة لا يملكون سوى بغداد فقط، وكان يوسف بن تاشفين يُريد للمسلمين أن يكونوا تحت راية واحدة، ولم يُرِد رحمه الله أن يشقَّ عصا الخلافة، ولا أن ينقلب على خليفة المسلمين، وكان يتمنَّى أن لو استطاع أن يضمَّ قوَّته إلى قوَّة الخليفة العباسي هناك، ويُصبح رجلاً من رجاله في هذه البلاد؛ فقال مجمِّعًا مؤمِّلاً: وأنا رجلهم في هذا المكان. وهذا هو الفقه الصحيح، والفهم الشامل للإسلام.

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ١٦٥.

(٢) مجهول: الحلل الموشية ص٢٩. وبعض المصادر -كابن أبي زرع في روض القرطاس ولسان الدين بن الخطيب في أعمال الأعلام والإحاطة- تذكر أنه اتخذ هذا اللقب بعد نصر الزلاقة في سنة ٤٧٩هـ.

الفصل الرابع

الأندلس تستعين بالمرابطين

في سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) -كما ذكرنا- كانت قد سقطت طُلَيْطلَة، ومنذ سقوطها في ذلك التاريخ لم تَعُدْ إلى المسلمين، ثم حوصرت إِشْبِيلِيَة؛ مع أنها كانت تقع في الجنوب الغربي للأندلس وبعيدة عن مملكة قشتالة النصرانية التي تقع في الشمال، ثم كاد المعتمد على الله بن عباد أن يحدث معه مثلما حدث مع بَرْبُشْتَر أو بَلَنْسِيَة لولا أن مَنَّ الله عليه بفكرة الاستعانة أو التلويح بالاستعانة بالمرابطين.

ويبدو أن فكرة الاستعانة بالمرابطين كانت فكرة شعبية خرجت أول ما خرجت من العلماء والمشايخ، وتلقاها العامة بالقبول والتأييد، ثم صارت مطلبًا عامًّا، ونداء متكررًا يجد الدعم الشعبي، ويوحى به عند الأمراء، ومن الواضح -أيضًا- أنها بدأت من قبل سقوط طليطلة بأعوام، ولو أن ملوك الطوائف امتلكوا مثل هذا الوعي الشعبي لكانوا قد منعوا سقوط طليطلة، وما لحقهم من الذل قبلها وبعدها.

يُورد النويري أنه قد «بلغ مشايخ قُرْطُبَة ما جرى، فاجتمعوا بالفقهاء وقالوا: هذه مدائن الأندلس قد غلب عليها الفرنج، ولم يبقَ منها إلاَّ القليل، وإن استمرَّت الأحوال على ما نرى عادت نصرانيةً كما كانت. ثم ساروا إلى القاضي عبد الله بن محمد بن أدهم، فقالوا له: ألا تنظر إلى ما فيه المسلمون من الصَّغَار والذلة، وإعطائهم الجزية إلى الفرنج بعد أن كانوا يأخذونها منهم، وابن عباد هو الذي حمل الفرنج على المسلمين، حتى جرى ما جرى وطلب منه ما طلب، وقد دبَّرنا رأيًا نعرضه عليك. قال: وما هو؟ قالوا: نكتب إلى عرب إفريقية، ونُعلمهم أنهم إن

وصلوا إلينا قاسمناهم في أموالنا، وخرجنا معهم مجاهدين في سبيل الله تعالى. قال: أخاف أن يُخَرِّبُوا الأندلس كما فعلوا بإفريقية ويتركوا الفرنج ويبدءوا بكم، والمرابطون أقرب إلينا وأصلح حالاً. قالوا: فكاتب يوسف بن تاشفين ورغِّب إليه أن يدخل إلينا بنفسه، أو يرسل إلينا قائدًا من قوّاده. قال: أمَّا الآن فقد أشرتم برأي فيه السَّداد. وقَدِمَ المعتمد إلى قُرْطُبَة في أثر ذلك، فدخل عليه القاضي وأعلمه بما دار بينه وبين أهل قُرْطُبَة وما اتفقوا عليه، فقال المعتمد: نِعْمَ ما أشاروا به، وأنت رسولي إليه. فامتنع القاضي واستعفاه، وإنما أراد أن يُقَوِّيَ عزمه على إرساله، فقال: لا أجد لها غيرك.

فسار القاضي وصحبه أبو بكر ابن القصيرة الكاتب إلى أمير المسلمين، فوجداه بسبتة، فأبلغاه الرسالة، وأعلماه بحال المسلمين وما هم عليه من الخوف والجزع من الأذفونش، وأنهم يستنصرون بالله ثم به؛ وأن المعتمد يستنجد به...»[1].

بل نستطيع أن نقول: إن حركة المشايخ والفقهاء قد وصلت إلى يوسف بن تاشفين من قبل هذا، ففي سنة أربع وسبعين وأربعمائة، وفد جماعة من أهل الأندلس على يوسف بن تاشفين، وشَكَوْا إليه ما حلَّ بهم من أعدائهم، فوعدهم بإمدادهم، وإعانتهم، وصرفهم إلى أوطانهم[2].

كما وردت عليه -أيضًا- الرسائل والكتب من أهل «الأندلس، يبثُّون حالهم، ويُحَرِّكونه إلى نصرهم. وفي سنة اثنتين بعدها ورد عليه عبد الرحمن بن أسباط من أَلَمرِيَّة؛ يشرح حال الأندلس»[3].

وكان ممن كتب إليه -قبل ذلك- المتوكل على الله ابن الأفطس صاحب

---

(١) النويري: نهاية الأرب، ٢٣/ ٢٦٦، ٢٦٧، وابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٤٥، ٤٤٦.

(٢) مجهول: الحلل الموشية، ص٣٣.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ٤/ ٣٥٠.

بطليوس يستصرخه حين هاجم العدوُّ بلاده، ولما بلغ خطابه هذا أمير المسلمين يوسف بن تاشفين كتب إليه يَعِدُه بالجواز، والإمداد على العدو[١].

إلاَّ أن يوسف بن تاشفين كانت لديه مشكلتان رئيستان؛ الأولى: أنه لم يُسيطر على سبتة، وهو الميناء المهم الذي يُعَدُّ منفذًا لدخول الأندلس، فقد كان ما يزال يُسيطر عليه البرغواطيين وعليهم زعيمهم سقُّوت البرغواطي. والثانية: أنه ما كان يمكنه العبور إلى الأندلس من دون النزول في أراضي غرناطة أو إشبيلية، فهي أقرب المناطق إلى المغرب؛ لذا فما كان أمام ابن تاشفين إلا أن ينتظر رسالة من المعتمد بن عباد لكي يستطيع أن ينزل إلى الأندلس بأمان ولا يُعتبر محاربًا مهاجمًا لأراضي إشبيلية أو غرناطة.

إلا أن ابن تاشفين -بعد أن وصلته استغاثات الأندلس- وجَّه جهوده إلى فتح سبتة، ففتحها بالفعل، ثم بدأ يستكثر من الأعداد وتجهيز الإمدادات منتظرًا أن تأتيه الرسل من ابن عباد ملك إشبيلية.

ولا شكَّ أن ابن عباد كان يفهم كل هذا ويعلمه؛ ولذلك فإنه لما راسل ابن تاشفين خاطبه خطاب مَنْ يعرف وعوده السابقة للعامة وللمتوكل ابن الأفطس، «منتجزًا وعده في صريخ الإسلام بالعدوة وجهاد الطاغية»[٢].

انتشر في الأندلس الرد الذي كتبه المعتمد إلى ألفونسو والذي يُهَدِّده فيه بالجيوش المرابطية، وما أظهر من العزيمة على جواز يوسف بن تاشفين، والاستظهار به على العدوِّ، فاستبشر الناس، وفرحوا بذلك، وفُتحت لهم أبواب الآمال، وأما ملوك طوائف الأندلس فلمَّا تحقَّقوا عزم ابن عباد وانفراده برأيه في ذلك، اهتمُّوا منه -أي: صاروا مهمومين مما عزم عليه- ومنهم مَنْ كاتبه، ومنهم

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص٣٣.
(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٦.

مَنْ كَلَّمَه مواجهة، وحَذَّرُوه عاقبة ذلك، وقالوا له: المُلْكُ عَقِيمٌ، والسيفان لا يجتمعان في غمد واحد. فأجابهم ابن عباد بكلمته السائرة مثلاً: رعي الجمال خير من رعي الخنازير. ومعناه: أن كونه مأكولاً ليوسف بن تاشفين أسيرًا له يرعى جماله في الصحراء، خير من كونه ممزَّقًا للأذفونش أسيرًا له يرعى خنازيره في قشتالة. وقال لعذَّاله ولُوَّامه: يا قوم؛ إني من أمري على حالتين: حالة يقين، وحالة شكٍّ، ولا بُدَّ لي من إحداهما؛ أما حالة الشكِّ فإني إن استندت إلى ابن تاشفين أو إلى الأذفونش ففي الممكن أن يفي لي ويبقى على وفائه، ويمكن أن لا يفعل، فهذه حالة الشكِّ، وأمَّا حالة اليقين فإني إن استندت إلى ابن تاشفين فأنا أُرضي الله، وإن استندت إلى الأذفونش أسخطتُ الله تعالى، فإذا كانت حالة الشك فيها عارضة، فلأي شيء أدعُ ما يُرضي الله وآتي ما يُسخطه. فحينئذٍ قصر أصحابه عن لومه[1].

وكان ممن وافق ابن عباد على رأيه المتوكل بن الأفطس صاحب بطليوس، وكذلك عبد الله بن بلقين صاحب غَرْنَاطَة، فأصبحت (غَرْنَاطَة وإِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس) الحواضر الإسلامية الضخمة متَّفِقَة على الاستعانة بالمرابطين.

وفور موافقة الأمراء الثلاثة جعلوا منهم سفارة كانت مكونة من قضاة المدن الثلاث: قاضي الجماعة بقرطبة أبو بكر بن أدهم، وقاضي غرناطة أبو جعفر القليعي، وقاضي بطليوس أبو إسحاق بن مُقانا، ثم أضاف المعتمد إليهم وزيره أبا بكر بن زيدون، وأسند إلى القضاة ما يليق بهم من وعظ يوسف بن تاشفين، وترغيبه في الجهاد، وأسند إلى وزيره ما لا بُدَّ منه في تلك السفارة من إبرام العقود السلطانية، وعلى هذا، فقد كان الوفد مكوَّنًا من هؤلاء الأربعة فقط[2].

وكان يوسف بن تاشفين لا يزال يَفِدُ عليه وفود ثغور الأندلس مستعطفين

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٥٩.
(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٨، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٥٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٣٩.

مجهشين بالبكاء، ناشدين الله والإسلام، مستنجدين بفقهاء حضرته ووزراء دولته، فيستمع إليهم ويُصغي إلى قولهم، وترقُّ نفسه لهم[(١)].

وفي سنة (٤٧٨هـ=١٠٨٥م) يستقبل يوسف بن تاشفين الوفد الذي جاء من قِبَل بعض ملوك الطوائف -كما ذكرنا- يطلبون العون والمساعدة في وقف وصدِّ هجمات النصارى عليهم[(٢)]، فأَعَدَّ العُدَّة ﷺ وجهَّز السفن، وبينما يعبر مضيق جبل طارق وفي وسطه يهيج البحر، وترتفع الأمواج، وتكاد السفن أن تغرق، وكما كان قائدًا يقف هنا قدوة وإمامًا، خاشعًا ذليلاً، يرفع يديه إلى السماء ويقول:

«اللهم إن كنت تعلم أن في جوازي هذا خيرًا وصلاحًا للمسلمين فسهِّل علينا جواز هذا البحر، وإن كان غير ذلك فصعِّبْه عليَّ حتى لا أجوزه». فتسكن الريح، ويَعْبُر هو ومَنْ معه[(٣)]، وعند أول وصول له -والوفود تنتظره ليستقبلوه استقبال الفاتحين- يسجدُ لله شكرًا أنْ مكَّنَهُ من العبور، وأن اختاره ليكون جنديًّا من جنوده ﷻ ومجاهدًا في سبيله[(٤)].

يوسف بن تاشفين وقدوة كانت قد افتُقِدَتْ وغُيِّبَتْ

يدخل يوسف بن تاشفين أرض الأندلس، ويدخل إلى إِشْبِيلِيَة والناس يستقبلونه استقبال الفاتحين، ثم يقصد إلى بطليوس حيث كانت على مقربة من الزلاَّقة التي كان قد نزلها ألفونسو السادس، فتوجَّه إليه أمير المسلمين بجيوشه[(٥)].

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٩.

(٢) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٤٤٦.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٣٤، وانظر رسالته إلى تميم بن باديس، نقلاً عن محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٣/ ٤٤٧.

(٤) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٣٢٠.

(٥) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٨/ ٤٤٧، وابن الأبار: الحلة السيراء، ٢/ ١٠٠، وابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١١٦، وتاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٦، والحميري: الروض المعطار، ص٩٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٤، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٣، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦.

واجتمع بالمعتمد بن عباد بإِشْبِيلِيَة، وكان المعتمد قد جمع عساكره أيضًا، وخرج من أهل قُرْطُبَة عسكر كثير، وقصده المطوِّعة من سائر بلاد الأندلس، ووصلت الأخبار إلى ألفونسو فجمع عساكره، وحشد جنوده، وسار من طُلَيْطلَة[1].

وبدأ يلحق بركب يوسف بن تاشفين المجاهدون المتطوعة من قُرْطُبَة وإِشْبِيلِيَة وبَطَلْيُوس، وهكذا حتى وصل الجيش إلى الزَّلاَّقة في شمال البلاد الإسلامية، وعدده يربو على الثلاثين ألف رجل.

ولا نعجب فهذه هي أهمية القدوة وفِعْلِها في المسلمين، وصورتها كما يجب أن تكون، تحرَّكت مكامن الفطرة الطيبة، وعواطف الأُخُوَّة الصادقة، والغَيْرَة على الدين الخاتِم، تلك الأمور التي تُوجَد لدى عموم المسلمين بلا استثناء، وتحتاج فقط إلى مَنْ يُحَرِّكها من سُباتها.

* * *

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦١.

الفصل الخامس
معركة الزَّلاَّقَة

تحرَّك الثلاثون ألف رجل بقيادة يوسف بن تاشفين ليصلوا إلى الزَّلاَّقَة، وهو ذلك المكان الذي دارت فيه موقعة هي من أشهر المواقع الإسلامية في التاريخ.

كان النصارى قد استعدُّوا لقدوم يوسف بن تاشفين فجمعوا عددًا ضخمًا من المقاتلين، بلغ في بعض التقديرات أكثر من ثلاثمائة ألف مقاتل[1]، على رأسهم ألفونسو السادس بعد أن جاءه العون من الممالك النصرانية فرنسا وإيطاليا وغيرها، وقَدِمَ ألفونسو السادس يحمل الصلبان وصور المسيح، وهو يقول: بهذا الجيش أقاتل الجنَّ والإنس، وأقاتل ملائكة السماء. فهو يعرف تمامًا أنها حرب صليبية ضد الإسلام[2].

الرسائل والحرب الإعلامية

وكان ألفونسو السادس من قبل هذا أرسل إلى ابن تاشفين رسالة كلها غرور واستعلاء، وهذا نصها:

باسمك اللهمَّ فاطر السموات والأرض، وصلى الله على السيد المسيح روح الله

(١) تُعَبِّر المصادر التاريخية عن عدد الروم بالعبارات التي تفيد الكثرة والضخامة، وأما مَنْ ذكروا العدد فمنهم من قال: إنهم كانوا ثمانين ألف فارس، ومائتي ألف راجل. ومنهم من قال: إنهم كانوا ثمانين ألف فارس لابسين الدروع دون غيرهم. وهذه هي رواية صاحب الحلل الموشية الذي يعود ويقول بعد ذلك: إنه قُتل في هذه الغزوة من النصارى ثلاثمائة ألف. ومنهم من يقول: إنهم كانوا خمسين ألف مقاتل. ومنهم من يقول: إن أقل تقدير لهم أنهم كانوا أربعين ألف دارع، ولكل دارع أتباع.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٨٩، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٢.

وكلمته، الرسول الفصيح، أما بعدُ: فإنه لا يخفى على ذي ذهنٍ ثاقب، ولا ذي عقل لازب، أنك أمير الملة الحنيفية كما أني أمير الملة النصرانية، وقد علمتَ الآن ما عليه رؤساء أهل الأندلس من التخاذل والتواكل وإهمال الرعية، وإخلادهم إلى الراحة، وأنا أسومهم بحُكم القهر وجلاء الديار، وأسبي الذراري وأُمَثِّل بالرجال، ولا عذر لك في التخلُّف عن نصرهم إذا أمكنتك يد القدرة، وأنتم تزعمون أن الله تعالى فرض عليكم قتال عشرة منَّا بواحد منكم، فالآن خَفَّف الله عنكم، وعلم أن فيكم ضعفًا، ونحن الآن نقاتل عشرة منكم بواحد منا، لا تستطيعون دفاعًا ولا تملكون امتناعًا، وقد حُكِيَ لي عنك أنك أخذتَ في الاحتفال، وأشرفت على ربوة القتال، وتماطل نفسك عامًا بعد عام، تُقَدِّم رِجْلاً وتؤخِّر أخرى، فلا أدري أكان الجُبن أبطأ بك أم التكذيب بما وعد ربُّك، ثم قيل لي: إنك لا تجد إلى جواز البحر سبيلاً لعلَّةٍ لا يسوغ لك التقحُّم معها، وها أنا أقول لك ما فيه الراحة لك، وأعتذر لك وعنك، على أن تفي بالعهود والمواثيق والاستكثار من الرهان، وتُرسل إليَّ جملة من عبيدك بالمراكب والشواني والطرائد والمسطحات، وأجوز بجملتي إليك، وأقاتلك في أعزِّ الأماكن لديك، فإن كانت لك فغنيمة كبيرة جُلبت إليك، وهدية عظيمة مَثَلَتْ بين يديك، وإن كانت لي كانت يدي العليا عليك، واستحقيت إمارة المِلَّتَيْنِ والحُكم على البرَّيْنِ، والله تعالى يُوَفِّقُ للسعادة ويُسَهِّل الإرادة، لا ربَّ غيره، ولا خير إلاَّ خيره، إن شاء الله تعالى[(١)].

فلما تمَّ عبور جيش المرابطين إلى الأندلس أرسل يوسف بن تاشفين برسالة إلى ألفونسو السادس يقول له فيها: بلغنا يا أذفونش أنك دعوت إلى الاجتماع بنا،

---

(١) ذكرت بعض المصادر أن هذه الرسالة إنما أرسلها ألفونسو الثامن إلى يعقوب المنصور الموحدي بعد هذا بحوالي قرن من الزمان، إلا أن التحقيق يؤدي إلى أنها مرسلة من ألفونسو السادس إلى أمير المسلمين يوسف بن تاشفين. انظر: ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ٦، ٧، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٥/ ١٩٨.

وتمنيت أن تكون لك سفن تعبر بها البحر إلينا، فقد عبرنا إليك، وقد جمع الله تعالى في هذه الساحة بيننا وبينك، وسترى عاقبة دعائك ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ [الرعد: ١٤]. وخيَّره يوسف بن تاشفين بين الإسلام والجزية والحرب[١].

تَسَلَّم ألفونسو السادس الرسالة وما أن قرأها حتى استشاط غضبًا و«جاش بحر غيظه، وزاد في طغيانه وكفره، وقال: أبمثل هذه المخاطبة يخاطبني، وأنا وأبي نغرم الجزية لأهل مِلَّته منذ ثمانين سنة؟!» ثم أرسل ليوسف بن تاشفين متوعِّدًا ومُهَدِّدًا: فإني اخترت الحرب، فما ردُّك على ذلك؟ وعلى الفور أخذ يوسف بن تاشفين الرسالة، وقلبها وكتب على ظهرها: الجواب ما تراه بعينك لا ما تسمعه بأُذنك، والسلام على مَنِ اتَّبع الهدى. فلما وقف ألفونسو على هذا الجواب ارتاع له، وعلم أنه بُلي برجل لا طاقة له به[٢].

قال صاحب (الروض المعطار): «ولما تحقق ابن فرذلند[٣] -ألفونسو السادس- جواز يوسف استنفر جميع أهل بلاده وما يليها وما وراءها، ورفع القسيسون والرهبان والأساقفة صلبانهم، ونشروا أناجيلهم، فاجتمع له من الجلالقة والإفرنجة وما يليهم ما لا يُحصى عدده، وجعل يُصغي إلى أنباء المسلمين متغيِّظًا على ابن عباد، حانقًا ذلك عليه، متوعِّدًا له، وجواسيس كل فريق تتردَّد بين الجميع، وبعث -ألفونسو السادس- إلى ابن عباد أن صاحبكم يوسف قد تعنى من بلاد بعيدة وخاض البحور، وأنا أكفيه العناء فيما بقي، ولا أُكَلِّفكم تعبًا، أنا أمضي إليه وألقاكم في بلادكم؛ رفقًا بكم وتوفيرًا عليكم. وقال لأهل ودِّه ووزرائه: إني رأيت

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦، والحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠، والحلل الموشية، ص٥٣، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٢.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٤٤٦، ومجهول: الحلل الموشية، ص٥٣.

(٣) فرذلند: هو التعريب لاسم فرناندو، أول من بدأ بحرب الاسترداد وأخذ الجزية من المسلمين، وابنه هو ألفونسو السادس، والذي يعرب اسمه إلى: الأُفنش ألفونش وأذفونش.

إن أمكنتهم من الدخول إلى بلادي فناجزوني[١] بين جدرها ربما كانت الدائرة عليَّ؛ فيكتسحون البلاد، ويحصدون مَنْ فيها في غداة واحدة، لكن أجعل يومهم معي في حوز بلادهم، فإن كانت عليَّ اكتفوا بما نالوه، ولم يجعلوا الدروب وراءهم إلاَّ بعد أهبة أخرى، فيكون في ذلك صونٌ لبلادي، وجبرٌ لمكاسري، وإن كانت الدائرة عليهم كان مني فيهم وفي بلادهم ما خِفْتُ أنا أن يكون منهم فيَّ وفي بلادي إذا ناجزوني في وسطها[٢].

وفي محاولة ماكرة لخديعة المسلمين أرسل ألفونسو السادس يُحَدِّدُ يوم المعركة، فأرسل أن: غدًا الجمعة، ولا نُحِبُّ مقاتلتكم فيه؛ لأنه عيدكم، وبعده السبت يوم عيد اليهود، وهم كثيرون في محلَّتنا، ونحن نفتقر إليهم، وبعده الأحد عيدنا، فلنحترم هذه الأعياد، ويكون اللقاء يوم الاثنين[٣].

تَسَلَّم يوسف بن تاشفين الرسالة، وكاد ينخدع بها لأنه كان يعتقد أن الملوك لا تغدر[٤]، ولقد كانت هذه أولى جولاته مع النصارى، إلاَّ أن المعتمد بن عباد فهم الخديعة ونبَّه يوسف بن تاشفين إلى ما قد يكون فيها من الغدر[٥].

تجهيز الجيش ورؤيا ابن رُمَيْلَة

بحذر تامٍّ لم يلتفت يوسف بن تاشفين إلى ما جاء في رسالة ألفونسو السادس، وقام بتعبئة الجيش وتجهيزه يوم الخميس، ووضعه على أتمِّ الاستعداد.

إنها لحظة لم يتذوَّقها الأندلسيون منذ سنوات وسنوات في أرض الأندلس،

---

(١) ناجزه: نازله وقاتله. انظر: ابن منظور: لسان العرب، مادة نجز ٥/ ٤١٣، والمعجم الوسيط ٢/ ٩٠٣.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٨، وما بعدها.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦، والحلل الموشية، ص٥٧.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب ١٩٤، ١٩٥.

(٥) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٧.

يقوم جيش مسلم ويستعد لحرب النصارى من بعد سنوات الذل والهزيمة والجزية، ولا شكَّ أنها لحظات تتلقاها قلوب المؤمنين باشتياق، كاشتياقها إلى الشهادة، ويأمر يوسف بن تاشفين بقراءة سورة الأنفال، ويأمر الخطباء بتحفيز الناس على الجهاد، ويمرُّ هو بنفسه رحمه الله على الفصائل ينادي ويقول: طوبى لمن أحرز الشهادة، ومَنْ بقي فله الأجر والغنيمة. وجاء في الروض المعطار: ووعظ يوسف وابن عباد أصحابهما، وقام الفقهاء والعُبَّاد يعظون الناس ويحضُّونهم على الصبر، ويُحَذِّرُونهم الفرار[1].

وفي ليلة الجمعة كان ينام مع الجيش شيخ كبير من شيوخ المالكية في قُرْطُبَة، وهو الفقيه الناسك أبو العباس أحمد ابن رُمَيْلَة القرطبي، والذي قال عنه ابن بشكوال في الصلة: كان معتنيًا بالعلم، وصُحبة الشيوخ، وله شعر حسن في الزهد، وكان كثير الصدقة وفعل المعروف، وكان أبو العباس هذا من أهل العلم والورع والفضل والدين[2].

لم تكن مهمَّة الشيخ يومها هي مجرَّد الجلوس في المسجد، أو إلقاء الدروس، أو تعليم القرآن فقط، فقد كان هذا الشيخ يَفْقَه أمور دينه، ويعلم أن هذا الجهاد هو ذروة سنام هذا الدين، وفي هذه الليلة يرى ابن رُمَيْلَة هذا رسولَ الله ﷺ وهو يقول له: «يَا ابْنَ رُمَيْلَةَ، إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، وَإِنَّكَ مُلاقِينَا».

يستيقظ ابنُ رُمَيْلَة من نومه وهو الذي يعلم أن رؤية الرسول ﷺ في المنام حقٌّ؛ لأن الشيطان لا يتمثَّل به ﷺ؛ ففي البخاري بسنده عن أنسٍ رضي الله عنه قال: قال النَّبيُّ ﷺ: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي؛ فَإِنَّ الشَّيْطَانَ لاَ يَتَخَيَّلُ بِي، وَرُؤْيَا الْمُؤْمِنِ جُزْءٌ مِنْ

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ١/ ١١٨ (١٤٤).

سِتَّةٍ وَأَرْبَعِينَ جُزْءًا مِنَ النُّبُوَّةِ»[١].

يقوم الشيخ فرحًا مسرورًا، لا يستطيع أن يملك نفسه، فقد بشَّره رسول الله ﷺ، وسيموت في سبيل الله، فالحُسْنَيَيْن أمام عينيه، نصر للمؤمنين وشهادة تناله، فيا لها من فرحة! ويا له من أجر!

وعلى الفور يذهب ابن رُمَيْلَة رحمه الله في جنح الليل فيُوقظ قادة المسلمين حتى أيقظ المعتمد بن عباد، وقصَّ عليهم رؤيا رسول الله ﷺ، ولا شك أن هذه الرؤيا قد هزَّت ابن عباد فأرسل بخبرها إلى يوسف بن تاشفين وكلِّ قوَّاد الجيش، وقاموا من شدَّة فرحهم وفي منتصف الليل وأيقظوا الجيش كله على صوت: رأى ابن رُمَيْلَة رسول الله ﷺ يقول له: «إِنَّكُمْ مَنْصُورُونَ، وَإِنَّكَ مُلاقِينَا»[٢].

مخابرات ابن عباد تراقب الموقع:

وكان المعتمد بن عباد يراقب -فيما يراقب- معسكر المرابطين أيضًا «خوفًا عليهم من مكائد ابن فرذلند؛ إذ هم غرباء لا عِلْمَ لهم بالبلاد، وجعل يتولَّى ذلك بنفسه؛ حتى قيل: إن الرجل من الصحراويين -المرابطين- كان يخرج عن طرق محلاتهم لبعض شأنه أو لقضاء حاجته فيجد ابن عباد بنفسه مطيفًا بالمحلَّة بعد ترتيب الكراديس -وهي كتائب الخيل- من خيل على أفواه طرق محلاتهم، فلا يكاد الخارج منهم عن المحلة يُخطئ ذلك من لقاء ابن عباد لكثرة تطوافه عليهم»[٣].

ثم جاء في الليل فارسان من طلائع المعتمد يخبران أنهما أشرفا على محلة ألفونسو وسمعا ضوضاء الجيوش واضطراب الأسلحة، ثم تلاحقت بقية الطلائع محقِّقين

---

(١) البخاري: كتاب التعبير، باب من رأى النبي ﷺ في المنام، (٦٥٩٣) واللفظ له، ومسلم: كتاب الرؤيا، باب قول النبي عليه الصلاة والسلام: «مَنْ رَآنِي فِي الْمَنَامِ فَقَدْ رَآنِي» (٢٢٦٦).

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٥.

(٣) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٤٧، والحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠.

بتحرُّك ألفونسو، ثم جاءت الجواسيس من داخل معسكر ألفونسو يقولون: «استرقنا السمع الساعة، فسمعنا ابن فرذلند يقول لأصحابه: ابن عباد مسعر هذه الحروب، وهؤلاء الصحراويون وإن كانوا أهل حفاظ وذوي بصائر في الجهاد، غير عارفين بهذه البلاد، وإنما قادهم ابن عباد، فاقصدوه واهجموا عليه، وإن انكشف لكم هان عليكم هؤلاء الصحراويون بعده، ولا أرى ابن عباد يصبر لكم إن صدقتموه الحملة». وعند ذلك بعث ابن عباد كاتبه أبا بكر ابن القصيرة إلى يوسف يُعَرِّفه بإقبال ألفونسو ويستحثُّ نُصرته، فمضى ابن القصيرة يطوي الأرض طيًّا حتى جاء يوسف بن تاشفين فعَرَّفه جلية الأمر(١).

الجيش الإسلامي وخطة الإعداد والهجوم

بعد ترتيب الجيش وصلاة فجر يوم الجمعة الموافق ١٢ من شهر رجب ٤٧٩هـ=٢٣ من أكتوبر ١٠٨٦م، نقض ألفونسو السادس عهده، وبدأ بالهجوم في ذلك اليوم؛ إذ الغدر والخيانة ومخالفة العهود هو الأصل عندهم.

ولقد صُدم الجيش الإسلامي، وفوجئ بالفعل -كما ستؤكد الرسالة التي كتبها يوسف بن تاشفين نفسه فيما بعد- وانحطَّ عليه جيش النصارى بكتائب «تملأ الآفاق»، وبدت الصدمة الأولى صدمة هائلة حقًّا!

كان الجيش الإسلامي قد انقسم إلى ثلاث فرق رئيسة:

الأولى: فرقة الأندلسيين وتضم الجيش الأندلسي وعلى رأسه المعتمد بن عباد ومعه ملوك الأندلس؛ ابن صمادح صاحب ألمَرِيَّة، وعبد الله بن بلقين بن حبوس صاحب غرناطة، وابن مسلمة صاحب الثغر الأعلى، وابن ذي النون، وابن الأفطس.. وغيرهم، وقد أمرهم يوسف أن يكونوا مع المعتمد(٢)، كان المعتمد في

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠، والمقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٦٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٥.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٤، ٤٥.

القلب والمتوكل بن الأفطس في ميمنتها، وأهل شرق الأندلس في ميسرتها، وسائر أهل الأندلس الآخرين في مؤخرة هذه الفرقة[(١)]، وقد اختار المعتمد أن يكون في المقدمة وأول مَنْ يصادم الجيش الصليبي[(٢)].

يُريد بذلك أن يغسل عار السنين السابقة وما رآه من ذل وهوان، أو لعله كان يُريد أن يحوز القدر الأعلى من النصر إن تم؛ فيُنسب الأمر له، والله أعلم بالنوايا.

وقيل في روايات أخرى بأن يوسف بن تاشفين خشي ألا يثبت المعتمد بن عباد، وألا يبذل جهده في الحرب، فكان وضعه في المقدمة بطلب من يوسف بن تاشفين[(٣)].

الثانية: فرقة من جيش المرابطين وعلى رأسهم البطل المرابطي الكبير داود ابن عائشة، وكانت هذه الفرقة خلف الجيش الأندلسي.

الثالثة: جيش المرابطين الرئيسي بقيادة يوسف بن تاشفين يختفي خلف أحد التلال على مسافة من الجيش، بحيث لا يُرى هذا الجيش، فيُظَنُّ أن كل جيش المسلمين هو الفرقتان الأوليان: جيش الأندلسيين وجيش المرابطين الذي يقوده داود ابن عائشة[(٤)].

وقد أراد يوسف بن تاشفين من وراء ذلك أن تحتدم الموقعة فتُنْهك قوى الطرفين حتى لا يستطيعا القتال، وكما يحدث في سباق الماراثون فيقوم هو ويتدخَّل بجيشه ليَعدل الكِفَّة لصالح صفِّ المسلمين[(٥)].

---

(١) مجهول: الحلل الموشية ص٥٩.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١١٧.
(٣) ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٤٤٧.
(٤) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٤٧، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٤٦، وابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص٢٤٢، ٢٤٣.
(٥) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١١٨.

لم تكن خطَّة يوسف بن تاشفين رحمه الله جديدة في حروب المسلمين؛ فقد كانت هي الخطة نفسها التي استعملها خالد بن الوليد رضي الله عنه في موقعة الولجة في فتوح فارس، وهي -أيضًا- الخطة نفسها التي استعملها النعمان بن مُقَرِّن رضي الله عنه في موقعة نهاوند في فتوح فارس أيضًا، فكان رحمه الله رجلاً يقرأ التاريخ ويعرف رجالاته ويعتبر بهم.

الزَّلاَّقةُ ومعركة الوجود الإسلامي في الأندلس

لما كان يوم الجمعة الموافق ١٢ من شهر رجب ٤٧٩هـ= ٢٣ من أكتوبر ١٠٨٦م هجم ألفونسو السادس بجيشه الضخم على الجيش الأول للمسلمين (الجيش الأندلسي)، مال ألفونسو السادس على المعتمد بجموعه وأحاطوا به من كل جهة فاستحر القتل فيهم، وصبر ابن عباد -وجيشه الأندلسي- صبرًا لم يُعهد مثله لأحد، واستبطأ يوسف وهو يلاحظ طريقه، وعَضَّته الحرب، واشتدَّ البلاء، وأبطأ عليه الصحراويون، وساءت ظنون أصحابه، وانكشف بعضهم وفيهم ابنه عبد الله، وأُثْخِنَ ابن عباد جراحات وضُرِبَ على رأسه ضربة فلقت هامته حتى وصلت إلى صدغه، وجرحت يمنى يديه، وطُعن في أحد جانبيه، وعُقرت تحته ثلاثة أفراس، كلما هلك واحد قُدِّمَ له آخر، وهو يقاسي حياض الموت يضرب يمينًا وشمالاً، وتَذَكَّر في تلك الحال ابنًا له صغيرًا كان مغرمًا به، كان تركه بإِشْبِيلِيَة عليلاً اسمه المعلى وكنيته أبو هاشم، فقال: [المتقارب]

أَبَا هَاشِمٍ هَشَّمَتْنِي الشِّفَارُ ... فَلِلَّهِ صَبْرِي لِذَاكَ الأُوَارْ[1]

ذَكَرْتُ شَخِيصَكَ تَحْتَ الْعَجَاجِ[2] ... فَلَمْ يُثْنِنِي ذِكْرُهُ لِلْفِرَارِ

---

(١) الأوار: شدَّة الشيء وقوته. ابن منظور: لسان العرب، مادة أور ٤/ ٣٥.

(٢) العجاج: الغبار. الجوهري: الصحاح، باب الجيم فصل العين ١/ ٣٢٧، وابن منظور: لسان العرب، مادة عجج ٢/ ٣١٨.

ثم ما هو إلا أن انضم إليه القسم الأول من جيش المرابطين وقائده داود بن عائشة، وكان بطلاً شهمًا فنَفَّس بمجيئه عن ابن عباد[١].

إلا أن ألفونسو كان قد قسَّم هو الآخر جيشه إلى قسمين، فانهال بالقسم الآخر على جيش المرابطين الذي يقوده داود ابن عائشة بأعداد ضخمة، «فاقتتلوا قتالاً عظيمًا، وصبر المرابطون صبرًا جميلاً، وداسهم اللعين بكثر جنوده حتى كاد يستأصلهم، وكانت بينهم مضاربة تفلَّلت فيها السيوف، وتكسَّرت الرماح، وسارت الفرقة الثانية من عسكر اللعين مع البرهانس وابن رذمير نحو ملحة (لعله يقصد محلة) ابن عباد، فداسوها، واستمرَّت الهزيمة على رؤساء الأندلس إلى جهة بطليوس، ولم يثبت منهم غير ابن عباد وجيشه، فإنهم ثبتوا في ناحية يُقاتلون لم ينهزموا، وقاتلوا قتالاً شديدًا، وصبروا صبر الكرام لحرب اللئام...»[٢]. وبدا المعسكر الإسلامي مرة أخرى في حالة الهزيمة.

وهنا بدأ تحرك الجيش المرابطي الرئيسي الذي يقوده ابن تاشفين، وذلك بعد أن كانت قد أُنهكت قوى الطرفين من المسلمين والنصارى، وبعد طول صبر ينزل يوسف بن تاشفين بالقسم الرئيسي من جيش المرابطين الذين كانوا معه، وهم في كامل قوتهم، فيحاصرون الجيش النصراني.

قسَّم يوسف بن تاشفين الجيش الذي كان معه إلى قسمين: فالأول وقائده سير ابن أبي بكر - في قبائل المغرب وزناتة والمصامدة وغمارة وسائر قبائل البربر- يساعد جيش المسلمين الذي يقوده داود ابن عائشة والمعتمد بن عباد، والقسم الثاني بقيادته هو ومعه باقي قبائل صنهاجة والمرابطين يلتفُّ خلف جيش النصارى، ويقصد

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٧٧، وعبد الواحد المراكشي: المعجب ص١٩٤، ١٩٥، والحميري: الروض المعطار، ص٢٩١، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٦.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٤٧.

مباشرة إلى معسكرهم، «فأضرمها نارًا وأحرقها، وقتل مَنْ كان بها من الأبطال والرجال والفرسان، الذين تركهم ألفونسو بها يحرسونها ويحمونها، وفرَّ الباقون منهزمين نحو ألفونسو، فأقبلت عليهم خيله من محلته فارِّين، وأمير المسلمين يوسف في أثرهم بساقته وطبوله وبنوده، وجيوش المرابطين بين يديه يحكمون في الكفرة سيوفهم، ويروونها من دمائهم، فقال ألفونسو السادس: ما هذا؟! فأُخبر الخبر بحرق محلته ونهبها، وقتل حماتها، وسبي حريمها، فردَّ وجهه إلى قتاله، وصمم أمير المسلمين نحوه، فانتشبت الحروب بينهما، فكانت بينهما حروب عظيمة لم يُسمع قط بمثلها...»[1].

وحين علم النصارى أن المسلمين من ورائهم، وأنهم محاصَرون «ارتاعت قلوبهم، وتجلجلت أفئدتهم، ورأوا النار تشتعل في محلتهم، وأتاهم الصريخ بهلاك أموالهم، وأخبيتهم، فسُقط في أيديهم، فثَنَوْا أعنَّتهم، ورجعوا قاصدين محلتهم، فالتحمت الفئتان، واختلطت الملتان، واشتدت الكَرَّات، وعظمت الهجمات، والحروب تدور على اللعين، وتطحن رءوس رجاله، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للنزال، والترجُّل عن ظهور الخيل، ودخول المعترك، فأمدَّ الله المسلمين بنصره، وقذف الرعب في قلوب المشركين»[2].

وهكذا حوصر جيش النصارى بين الجيش الأندلسي من الأمام، وجيش المرابطين من الخلف، وبالفعل بدأ الاضطراب والتراجع في صفوف النصارى، وقد التفَّ جنود النصارى حول ألفونسو السادس يحمونه، ثم حدثت خلخلة عظيمة في جيشهم.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٧٧، وابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٤٧ وما بعدها.
(٢) مجهول: الحلل الموشية ص٥٩.

يقول الحميري: «فبادر إليه يوسف، وصدمهم بجمعه، فردَّهم إلى مركزهم، وانتظم به شمل ابن عباد، ووجد ريح الظفر، وتباشر بالنصر، ثم صدقوا جميعًا الحملة، فتزلزلت الأرض بحوافر خيولهم، وخاضت الخيل في الدماء، وصبر الفريقان صبرًا عظيمًا، ثم تراجع ابن عباد إلى يوسف، وحمل معه حملة نزل معها النصر، وتراجع المنهزمون من أصحاب ابن عباد حين علموا بالتحام الفئتين فصدقوا الحملة»[١].

تزداد شراسة الموقعة حتى قُبيل المغربِ، ثم ومن بعيدٍ يُشير يوسف بن تاشفين إلى أربعة آلاف فارسٍ من رجال السودان المهرة، وهم حرسه الخاص فيترجلون عن خيولهم، ليقتحموا -فيما يشبه المهمة الخاصة- قلب جيش النصارى وينفذون إلى ملكهم، وبالفعل نفذ أربعة آلاف مقاتل إلى قلب المعمعة، واستطاع أحدهم أن يصل إلى ملك قشتالة، وأن يطعنه بخنجره في فخذه طعنة نافذة[٢].

يصف صاحب الحلل الموشية هذه اللحظات من المعركة بقوله: «واشتدت الكَرَّات، وعظمت الهجمات، والحروب تدور على اللعين، وتطحن رءوس رجاله، ومشاهير أبطاله، وتقذف بخيلهم عن يمينه وشماله، وتداعى الأجناد والحشم والعبيد للنزال، والترجُّل عن ظهور الخيل، ودخول المعترك فأمدَّ الله المسلمين بنصره... وفي أثناء ذلك، تلاقى بالطاغية أذفنش غلام أسود بيده خنجر يدعوه البرابر بالأفطس، قطع جرز درعه، وطعنه في فخذه مع مدار سرجه، فكان أذفنش يقول بعد ذلك: التحق بي غلام أسود فضربني في الفخذ بمنجل أراق دمي. فتخيل له الأفطس أنه منجل لكونه رآه معوجًا»[٣].

---

(١) الحميري: الروض المعطار ص٢٩٠ وما بعدها.

(٢) ابن خلكان في وفيات الأعيان، ٧/ ١١٨، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٧، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٥/ ٣٢٥.

(٣) مجهول: الحلل الموشية ص٦١.

ويقول لسان الدين بن الخطيب: «ولم تزل الكَرَّات بين المحلات تتعاقب، والهجمات سجالاً تداول، والحرب تدور، وأَمَرَ الأميرُ يوسف العبيدَ فترجَّلوا عن الخيل في نحو ألف، ودخلوا المعرك بالمزارق (الرماح القصيرة الخفيفة) لعجز السلاح عن الخيل الدارعة، فأثرت فيها بالطعن، وجعلت ترمح بفرسانها، ولصق منهم بالأذفونش عبد قبض على عنانه، وضربه بخنجر...»[1]. وبقي أثر الطعنة مع ألفونسو بقية عمره، فكان يعرج منها[2].

ثم لجأ ألفونسو إلى تل يحتمي به كان قريبًا من معسكره ومعه نحو الخمسمائة فارس كلهم مكلوم، وأباد القتل والأسر مَنْ عداهم من أصحابهم... ولما جاء الليل تسلل وهو لا يلوي على شيء، وأصحابه يتساقطون في الطريق واحدًا بعد واحد من أثر جراحهم، فلم يدخل طُلَيْطلَة إلا في دون المائة[3]، وبعض الروايات تقول بأن الذين نجوا أقل من الثلاثين[4]. وغنم المسلمون كل ما لهم من مال وسلاح ودواب وغير ذلك[5]. واستشهد من المسلمين فيها حوالي ثلاثة آلاف رجل[6].

وبذلك كانت الزَّلاَّقَة دون مبالغة كاليرموك والقادسية.

كان رأي المعتمد بن عباد أن يواصل الجيش مطاردته لألفونسو المنحسب حتى يقضي عليه نهائيًّا، ولكن ابن تاشفين كان يرى أن الضغط عليهم وإرهاقهم يجعلهم يستبسلون في القتال، فيقاتلون قتال مَنْ لا يرى حياته إلا بموت خصمه، وفي هذا ضرر على المسلمين، لا سيما وأن مطاردة ألفونسو وهو على هذا الحال قد تُوقع في طريقه بعض المسلمين المنسحبين، الذين يتواصل عودتهم إلى الجيش مع انقلاب كفة

---

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٤٣.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٠.

(٣) المصدر السابق، ص٢٩٠ وما بعدها.

(٤) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ١١٧.

(٥) ابن الأثير: الكامل ٨/ ٤٧٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ١١٧.

(٦) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص١٤٨.

المعركة، وهم بالنسبة له أقل قوة وهو أقدر على الإيقاع بهم، فإن انتظروا هـذا اليـوم فتكامل عدد المسلمين برجوع الذين انسحبوا، هان عليهم أن يقاتلوه في اليوم الثاني، وردَّ عليه ابن عباد بقوله: إن فرَّ أمامنا لقيه أصحابنا المنهزمون فلا يعجزون عنه. إلا أن يوسف أصرَّ على الامتناع وقال: الكلب إذا أُرهق لا بُدَّ أن يعضَّ[(١)].

ونحن إذ نقرأ التاريخ الآن نرى أن ابن عباد كان أصوب رأيًا مـن ابـن تاشـفين في هذا الأمر، فلقد استمر ألفونسو يقاتل المسلمين بعـدها عشريـن سنة ولم يضـعف ولم يتوانَ، ويُتوقع أن لو كان قُضي عليه في يوم الزلاقة لكنا نكتب الآن تاريخًا آخر، ولكان المسلمون استطاعوا أن يستعيدوا طُلَيْطلَة مـرة أخـرى.. إلاَّ أنـه لا يسـعنا أن نعترف بأننا نقول الرأي الآن بعدما انتهت الأحداث وانقشعت المعارك، وما نـدري لو كنا في ذلك الموقف ماذا قد يكون الاختيار.

وما أن تنتهي أحداث الزلاقة حتى يصل إلى يوسف بـن تاشـفين نبأ مُفزع مـن بلاده بالمغرب، إنه يحمل مصيبة قد حَلَّت به وبداره، فابنه الأكـبر قـد مـات، فيعجـل هذا برجوع ابن تاشفين إلى المغرب[(٢)].

ابن تـاشفين يـروي أحداث الزلاقة:

لقد تم العثور على وثيقة مهمة عن المعركة، وثيقة كتبها بطل الزلاقة نفسه، أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وقد نقلها الأستاذ محمد عبـد الله عنـان في كتابـه (دولـة الإسـلام في الأنـدلس)[(٣)]، ووصـفها بقـول: «رسـالة كتـب بهـا الأمـير أبـو يعقـوب يوسف بن تاشفين إلى الناصر بدين الله تميم بن المعز بن باديس بالمهدية؛ يصـف فيهـا

---

(١) الحميري: الروض المعطار ص٢٩٠ وما بعدها، ومجهول: الحلل الموشية ص٥٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٥٢، والحلل الموشية، ص٦٦، والحميري: الروض المعطار، ص٢٩٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٧٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٩.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٤٤٦. (منقولة من المخطوط رقم ٤٤٨ الغزيري بمكتبة الإسكوريال Fol. 49R. -53V. وهو مخطوط ناقص من أوله ولا عنوان له).

بلاد الغرب، وجوازه للأندلس للجهاد بها، وهزيمته للأذفنش أمير النصارى في رجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة. وفيها مما يهمنا الآن في هذه الوثيقة، هو شرح أمير المسلمين لأدوار المعركة، يقول:

«فجمعنا عساكرنا وسرنا إليه (ألفونسو السادس)، وصرنا إلى قفل قورية من بلاد المسلمين صرفها الله، فسمع بنا، وقصد قصدنا، وورد وردنا، واحتلَّ بفنائها منتظرًا لنا، فبعثنا إليه نحضه على الإسلام، ودخوله في ملة محمد، أو ضرب الجزية عليه، وإسلام ما كان من المال والبيوت لديه، كما أمرنا الله تعالى وبيَّن لنا في كتابه؛ من إعطاء الجزية عن يد وهم صاغرون، فأبى وتمرَّد، وكفر ونخر، وعَمِل على الإقبال علينا، وحثَّ في الورود علينا، فلحِقَنَا وبيننا وبينه فراسخ، فلمَّا كان بعد ذلك، برزنا عليه أيامًا، فلم يُجِبْنَا، فبقينا وبقوا، ونحن نخرج الطلائع إليه، ونُتابع الوثوب عليه، وبنينا على لقائه يوم الخميس لإحدى عشر ليلة خلت لرجب سنة تسع وسبعين وأربعمائة.

فلما كان يوم الجمعة ثانيه، ورد علينا بكتائب قد ملأت الآفاق؛ وتقلَّبَتْ تَقَلُّب الحتوف للأحداق؛ قد استلموا الدروع للكفاح، وربطوا في سوقهم الألواح، وبطونهم ملأى من الخمر، يُقَدِّرون أن الدائرة علينا تدور، ونحن في أخبيتنا صبيحة اليوم المذكور، كلٌّ مِنَّا سَاهٍ، وجميعنا لاهٍ، فقصد أشدُّهم شوكة، وأصلبُهم عودًا، وأنجدُهم عديدًا، محلةَ المعتمد على الله المؤيد بنصر الله -وَفَّقَهُ الله- عماد رؤساء الأندلس وقطبهم، لا يقدرون عسكرًا إلا عسكره، ولا رجالاً إلا رجاله، ولا عديدًا إلاَّ عديده، وداود من أصحابنا منا إلى إزائه، فهبطوا إليه لفيفًا واحدًا، كهبوط السيل، بسوابق الخيل، فلما كان معه من جنده ومن جميع الطبقات، الذين كانوا يدخرون من قبله الأموال والضياع، استكَّت آذانهم[1]، واضطربت أضلاعهم،

(١) استكَّت آذانهم: أي صُمَّت. ابن منظور: لسان العرب، مادة سكك ١٠/ ٤٣٩.

ودهشت أيديهم، وزلزلت أقدامهم، وطارت قلوبهم، وصاروا كركب الحمير، فَرُّوا يطلبون معقلاً يعصمهم، ولا عاصم إلاَّ الله، ولا هاربًا منه إلاَّ إليه، فلحقوا من بطليوس بالكرامات، لما عاينوا من الأمور المعضلات، وأسلموه (المعتمد) -أيده الله- وحده في طرف الأخبية، مع عدد كثير من الرجالة والرماة، قد استسلموا للقضاء، فوثبوا (الروم) عليه وثب الأسد على الفرائس، يعظمون الكنايس، فحبسهم حينًا وحده مع مَنْ إليه ممن ذكرناه، وبسطوا منهم الأرض، ولم يبقَ من الكل إلاَّ البعض، ولجأ في الأخبية بعد أن عاين المنية، وتَخَلَّصَه اللهُ بنِيَّتِه في المسلمين وبلغه أمنيته، بعد أن وقف وقفة بطل مثله، لا أحد يَرُدُّ عليه، ولا فارس من فرسانه وعبيده يرجع إليه، لا يروعه أحد منهم فيهزم، ولا يهابهم فيسأم.

ثم قَصَدَتْ كتيبَتَهُ (كتيبة ألفونسو) سودًا كالجبل العظيم أو الليل البهيم، عسكر داود وأخبيته، فجالوا فيها جولانًا، وقتلوا من الخلق ألوانًا، واستشهد الكل بحمد الله، وصاروا إلى رضوان الله، ونحن في ذلك كله غافلون، حتى ورد علينا وارد، وقصد إلينا قاصد، فخرجنا من رواء الشعب، كقطع اللهب، بجميع مَنْ معنا، على الخيل المسومة العراب، يتسابقن الطعن والضراب، فلما رأونا، ووقعت أعينهم علينا، ظَنُّوا أن الدائرة فينا ولدينا، وأَنَّا طُعْم أسيافهم، ولقاء رماحهم، فكَبَّرْنَا وكَبَّر الكل معنا، مبتهلين لله وحده لا شريك له، ونهضنا للمنون الذي لا بُدَّ منه، ولا محيص لأحد عنه، وقلنا: هذا آخر يومنا من الدنيا، فلتموتوا شهداء.

فحملوا علينا كالسهام، فثَبَّتَ الله أقدامنا، وقوَّى أفئدتنا، والملائكة معنا، والله تعالى وليُّ النصر لنا، فَوَلَّوْا هاربين، وفَرُّوا ذاهبين، وتساقط أكثرهم بقدر الله تعالى دون طعنة تلحقه، ولا ضربة تُثخنه، وأضعف الرعب أيديهم، فطعَنَّاهم بالسمهرية[1] دون الوخز بالإبر، وضاقت بهم الأرض بما رحبت، حتى إن هاربهم

---

(١) السمهرية: الرماح الصُّلبة. ابن منظور: لسان العرب، مادة سمهر ٤/ ٣٨١.

لا يرى غير شيء إلا ظنه رجلاً، وفتكت فيهم السيوف على رغم الأنوف، فوالله! لقد كانت تقع على الدروع فتفريها، وعلى البيضات فتبريها، وزَرَقَ[١] الرجالة منا على خيلهم الرماحَ، فشَكُّوهم بها فرمحت بهم.

فما كنت ترى منهم فارسًا إلاَّ وفرسه واقف على رأسه لا يستطيع الفرار، الكلُّ يجرُّ عنانه، كأنه مُعْقَل بعقاله، ونحن راكبون على الجواد الميمون، العربي المصون، السابق اللاحق، المعدُّ للحقائق، وما منا إلاَّ مَنْ له جرناز[٢] فيه سيفان، وبيدنا الثالث، عسى أن يحدث من حادث، فصاروا في الأرض مجدلين[٣]، موتى معفَّرين[٤]، وقد تراجع الناس بعد الفرار، وأمنوا من العثار، وتضافروا مع عسكرنا وغيرهم؛ يقطعون رءوسهم، وينقلون بإزاء المحلات، حتى علت كالجبال الراسيات، عدد لا يُقَدَّر، ومدد لا يُحْزَر، والتجريد فيهم، والأيدي متعاودة لبطونهم، واستأصلنا أكابرهم، وحللنا دون أماطيهم وأمانيهم، وما ربك بغافل عما يعمل الظالمون.

وانقطع من عسكرهم نحو ألفي رجل أو أقل، والأذفونش فيهم على ما أخبرنا، قد أُثخنوا جراحًا بإزاء محلاتهم، يرتادون الظلام للهروب في المقام، والله! لقد كان الفرسان والرجَّالة يدخلون محلَّتهم، ويعثرون في أخبيتهم، وينتهبون أزودتهم، وهم ينظرون شزرًا نظر التيوس إلى شفار الجازرين، إلى أن جنَّ الليل وأرخى سدوله، وَلَّوْا هاربين، وأسلموا رحائلهم صاغرين، فكم من دلاص[٥] على البقاع ساقطة، وخيول على البقاع رابضة، ولقد ارتبط كل فارس منا الخمسة الأفراس أو أزيد.

---

(١) زرق: أي ضربها بالأسنَّة، انظر: ابن منظور: لسان العرب مادة زرق ١٠/ ١٣٨.
(٢) هكذا في المصدر.
(٣) المجدَّل: الصريع، أو الملقى بالأرض. ابن منظور: لسان العرب، مادة جدل ١١/ ١٠٣.
(٤) معفَّر: أي تقلَّب في التراب.
(٥) الدِّرع الدِلاص: البرَّاقة، الملساء، اللينة. ابن منظور: لسان العرب، مادة دلص ٧/ ٣٧.

وأمَّا البغال والحمير فأكثر من ذلك، وأما الثياب والمتاع فناهيك، والأسرَّة بأوطية الحرير، والثياب والأوبار عدد ليلهم، ولا يكلُّون في الانتقال، ولا يسأمون من تشريط الأموال، ولحقوا قورية، ومنها إلى حيث ألقت رحلها أم قشعم[1]، فصححنا ضمائرنا، وأخلصنا للمعتمد على الله نياتنا وسرائرنا، ورجعنا بحمد الله غانمين منصورين.

لم يستشهد منا إلاَّ الفرقة التي قَدَّر الله عليها بذلك، وقَدَّرنا أن الكل منهم هلك لقلَّة معرفتهم وجهالتهم بقتال النصارى، وتراميهم للشهادة، قدَّس الله أرواحهم، وكرَّم مثواهم وضريحهم، وجعل الجنة ميعادًا بيننا وبينهم، وفقدنا من أكابرنا نحو عشرين رجلاً ممن شُهدت نجدته في المغرب، وانقلبت خير منقلب. ولحقنا إشبيلية حضرته (المعتمد) عمرت ببقايه، وأقمنا عنده أيامًا، ورفعنا عنه مُوَدِّعين، لا تَوَدُّع قاطع...»[2].

لا نُريد منكم جزاءً ولا شكورًا:

بعد هذه المعركة جمع المسلمون من الغنائم الكثير، لكن يوسف بن تاشفين وفي صورة مشرقة ومشرِّفة من صور الإخلاص والتجرُّد، وفي درس عملي بليغ لأهل الأندلس عامَّة، ولأمرائهم خاصَّة يترك كل هذه الغنائم لأهل الأندلس، ويرجع في زُهدٍ عجيب وورع صادق إلى بلاد المغرب، لسان حاله: ﴿لَا نُرِيدُ مِنْكُمْ جَزَاءً وَلَا شُكُورًا﴾ [الإنسان: ٩].

قال المقري في نفح الطيب: وأقامت العساكر بالموضع أربعة أيام؛ حتى جمعت الغنائم، واستُؤْذِن في ذلك السلطان يوسف، فعفَّ عنها، وآثر بها ملوك الأندلس،

(١) أم قشعم: الحرب، أو المنية. ابن منظور: لسان العرب، مادة قشعم ١٢/ ٤٨٤.
(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٣/ ٤٤٨، وما بعدها.

وعَرَّفهم أن مقصدَه الجهاد والأجر العظيم، وما عند الله في ذلك من الثواب المقيم، فلمَّا رأتْ ملوك الأندلس إيثار يوسف لهم بالغنائم استكرموه، وأحبُّوه وشكروا له ذلك[١].

يعود رحمه الله إلى بلاد المغرب بعد أن جمع ملوك الأندلس وأَمَرَهم بالاتفاق، وإطراح التنابذ والتخاصم؛ حتى لا يُضيعوا بحماقاتهم ثمار هذا النصر[٢]، وعاد يوسف بن تاشفين البطل الإسلامي المغوار وعمره آنذاك تسع وسبعون سنة!

كان من الممكن له رحمه الله أن يُرسل قائدًا من قوَّاده إلى أرض الأندلس، ويبقى هو في بلاد المغرب، بعيدًا عن تخطِّي القفار وعبور البحار، وبعيدًا عن ويلات الحروب وإهلاك النفوس، وبعيدًا عن أرض غريبة وأناس أغرب؛ لكنه رحمه الله وهو الشيخ الكبير يتخطَّى تلك الصعاب، ويركب فرسه، ويحمل رُوحه بين يديه، لسان حاله: أذهبُ إلى أرض الجهاد لعلِّي أموتُ في سبيل الله.

شعاره هو: [الوافر]

إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ ... فَلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ
فَطَعْمُ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ حَقِيرٍ ... كَطَعْمِ الْمَوْتِ فِي أَمْرٍ عَظِيمِ[٣]

لكنه رحمه الله لم يمت هناك، فلا نامت أعين الجبناء.

واستشهد في ذلك اليوم جماعة من الفضلاء والعلماء وأعيان الناس؛ مثل: ابن رميلة صاحب الرؤية المذكورة، وقاضي مَرَّاكُش أبي مروان عبد الملك المصمودي..

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٩.
(٢) انظر: عبد الله بن بلقين: التبيان، ص٣٣٩، نقلاً عن حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين، ص٢٨٢، وسعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين، ص٩٧.
(٣) ديوان المتنبي، ص١٩٥.

وغيرهما، رحمهم الله تعالى(١).

المعتمد على الله بن عباد وشرف الجهاد:

ولما دخل ابن عباد إِشْبِيلِيَة جلس للناس وهُنِّئ بالفتح، وقَرَأت القرَّاء، وقامت على رأسه الشعراء فأنشدوه، يقول عبد الجليل بن وهبون: حضرتُ ذلك اليوم وأعددتُ قصيدة أُنشده إياها، فقرأ القارئ: ﴿إِلاَّ تَنْصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللهُ﴾ [التوبة: ٤٠]. فقلتُ: بُعْدًا لي ولشعري، واللهِ! ما أبقت لي هذه الآية معنى أحضره وأقوم به، وطار ذكر ابن عباد بهذه الوقيعة وشهر مجده، ومالت إليه القلوب، وسالمته ملوك الطوائف، وخاطبوه جميعًا بالتهنئة، ولم يزل ملحوظًا معظَّمًا إلى أن كان من أمره مع يوسف ما كان(٢).

* * *

---

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٦٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٤٨.

(٢) الحميري: الروض المعطار، ص٢٩٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٧٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٥٠.

الفصل الثامن

سقوط ممالك الطوائف

ظلَّ الصراع بين المسلمين والنصارى قائمًا بعد الزلاقة، بل لقد كثر عيث النصارى في بلاد المسلمين، وتخريبهم لها، ولم يستطع حكام الطوائف فعل شيء، بل وصلت الأحوال إلى أن سقطت بلنسية -وهي حاضرة الشرق الأندلسي، ومن أبرز حواضر الأندلس كلها- في يد النصارى. كذلك لم تنته الصراعات بين ملوك الطوائف وما نفَّذوا وصية يوسف بن تاشفين لهم بالاتحاد؛ فاستغاث الناس بأمير المسلمين يوسف بن تاشفين للمرة الثانية، وكذلك فعل المعتمد بن عباد -أيضًا- فمن أجل ذلك كان الجواز الثاني ليوسف بن تاشفين إلى أرض الأندلس.

ويتكرر ما حدث في العبور الأول إذ يقوم المرابطون بنصرة الأندلسيين وهزيمة النصارى في أكثر من موقعة، إلا أنه وفي أثناء حصار حصن لبيط (Aledo) في سنة (٤٨١هـ=١٠٨٨م)، رأى من خداع أمراء الطوائف وشهد عندئذٍ من تمردهم ونفاقهم، وجنوحهم إلى ممالأة النصارى ما أغضبه وأحفظه عليهم، ثم تكررت هذه الأحوال للمرة الثالثة، فعبر ابن تاشفين مرة ثالثة إلى الأندلس في عام (٤٨٣هـ=١٠٩٠م)، فجهز جيوشه ودخل إلى الأندلس.

والواقع يقول أن ابن تاشفين لم يطمع في الأندلس، وتردَّد كثيرًا قبل العبور، وعفَّ عن الغنائم بعد ذلك وتركها للمعتمد ولأمراء الأندلس ولم يأخذ منها شيئًا، ثم يعود في الجواز الثاني بسبب اختلافات ملوك الطوائف، وتحالف بعضهم مع عدوِّ الإسلام، وكان الجواز الثالث لوضع حدٍّ لمهزلة ملوك الطوائف، لقد آن -

وباسم الإسلام- لهذه الدويلات الضعيفة المتناحرة المتحالف بعضها مع الأعداء أن تنتهي[1].

منذ أن انتهى من الجهاد في المرة الثانية، ثبت له بقاء حال أمراء الطوائف على ما هم عليه من تفرُّق وتخاذل، واستعداء للنصارى، وكيف تخلَّف بعضهم عن مشاركته في الجهاد مجاملة للمشركين. بل لمَّا قام بحصار النصارى -عَقِبَ جوازه الثاني في حصن لبيط- تخلَّف بعض رؤساء الشرق عن معاونته، وقالوا: إنَّ طاعته ليست بواجبة؛ لأنه ليس إمامًا شرعيًّا من قريش. وأبشع من ذلك وأشنع أن رسالة قد وقعت في يد يوسف وُجِّهت من بعض ملوك الطوائف إلى العدو، يُشَجِّعه على المقاومة والصمود، وكان جواب يوسف لأولئك الزعماء المتمرِّدِينَ، أنه خادم أمير المؤمنين المستظهر، وأن الخطبة تجري باسمه على أكثر من ألفي منبر، وتُضْرَب السكة باسمه[2].

ورغم دلائل الولاء هذه للخليفة في بغداد، إلا أن مَنْ لا ولاء لهم ولا انتماء من ملوك الطوائف تمسَّحوا الآن في الشرع، الذي ينتهكونه منذ حكموا حتى أذلوا المسلمين وبلادهم، ووضعوها في يد النصارى، وبذلوا لهم الأموال والهدايا، وتحالفوا معهم على إخوانهم المسلمين.

عندئذٍ اعتزم يوسف بن تاشفين أمره في افتتاح ممالك الطوائف، وأخذ يستولي عليها تباعًا، وأرسل إلى بغداد طلبًا للخليفة ليحصل على كتاب منه بتوليته المغرب والأندلس، وكان يهمه -إلى جانب الحصول على المرسوم الخلافي- أن يحصل على سند شرعي يُبَرِّر تصرُّفه نحو أولئك الأمراء، فلما وصل الفقيه أبو محمد العربي وولده أبو بكر إلى بغداد، لقي الإمام أبا حامد الغزالي قطب فقهاء المشرق يومئذٍ،

(١) شوقي أبو خليل: الزلاقة، ص٦٤، ٦٥.
(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/ ٤١-٤٤.

وشرح له أحوال الأندلس، وخلال أمير المسلمين يوسف بن تاشفين، وما اضطلع به من أعمال الجهاد وإعزاز الدين، وما كان عليه أمراء الطوائف من تفرُّق وتخاذل، واستعداء للنصارى، وكيف تخلَّف بعضهم عن مشاركته في الجهاد مجاملة للمشركين. وشرحا له الحال، ثم طلب الفقيه ابن العربي إلى الإمام الغزالي أن يُزَوِّدَه فيما تقدَّم بفتوى تُبَيِّنُ حكم الشرع فيه، وأن يُزَوِّده بكتاب إلى أمير المسلمين، فأفتى الإمام الغزالي بحكم الشرع في موقف ملوك الطوائف، حسبما شرحه ابن العربي للإمام، وعن حقِّ يوسف في الحصول على المرسوم الخلافي بولايته على ما فتحه من الأقطار بسيفه، وقد عاد الإمام الغزالي بعد ذلك، فكتب إلى يوسف كتابًا يعرض فيه بالتفصيل إلى قصة ملوك الطوائف، حسبما رواها له ابن العربي، وإلى ما كانت عليه الأندلس في ظلِّ حكمهم، من التخاذل والذل... ثم يُشير بعد ذلك إلى ما أصدره من فتوى في شأن ملوك الطوائف، وإلى ما كان ابن العربي بصدده من السعي إلى استصدار المرسوم الخلافي بولاية يوسف على جميع بلاد المغرب، وتمكين طاعته، وإلى ما كان يبثُّه ابن العربي من دعاية واسعة للإشادة بحكم يوسف وخلاله؛ سواء في العراق أو في المشاهد الكريمة بأرض الحجاز.

وكذلك حصل ابن العربي من العلامة أبي بكر الطرطوشي -حين مروره على ثغر الإسكندرية، وهو في طريق العودة- على خطاب آخر برسم يوسف، ويُسدي الطرطوشي في كتابه النصح إلى يوسف بأن يحكم بالحق وفقًا لكتاب الله.

وقد توفي الفقيه ابن العربي بثغر الإسكندرية في فاتحة سنة (٤٩٣هـ)، وعاد ابنه أبو بكر إلى الأندلس في العام نفسه، وهو يحمل الرسالتين- رسالة الغزالي ورسالة الطرطوشي- وكذلك مرسوم الخليفة المستظهر إلى عاهل المرابطين[١].

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٨/ ٤٤٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ١٨٧، ١٨٨، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٧٣، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/ ٤١-٤٤.

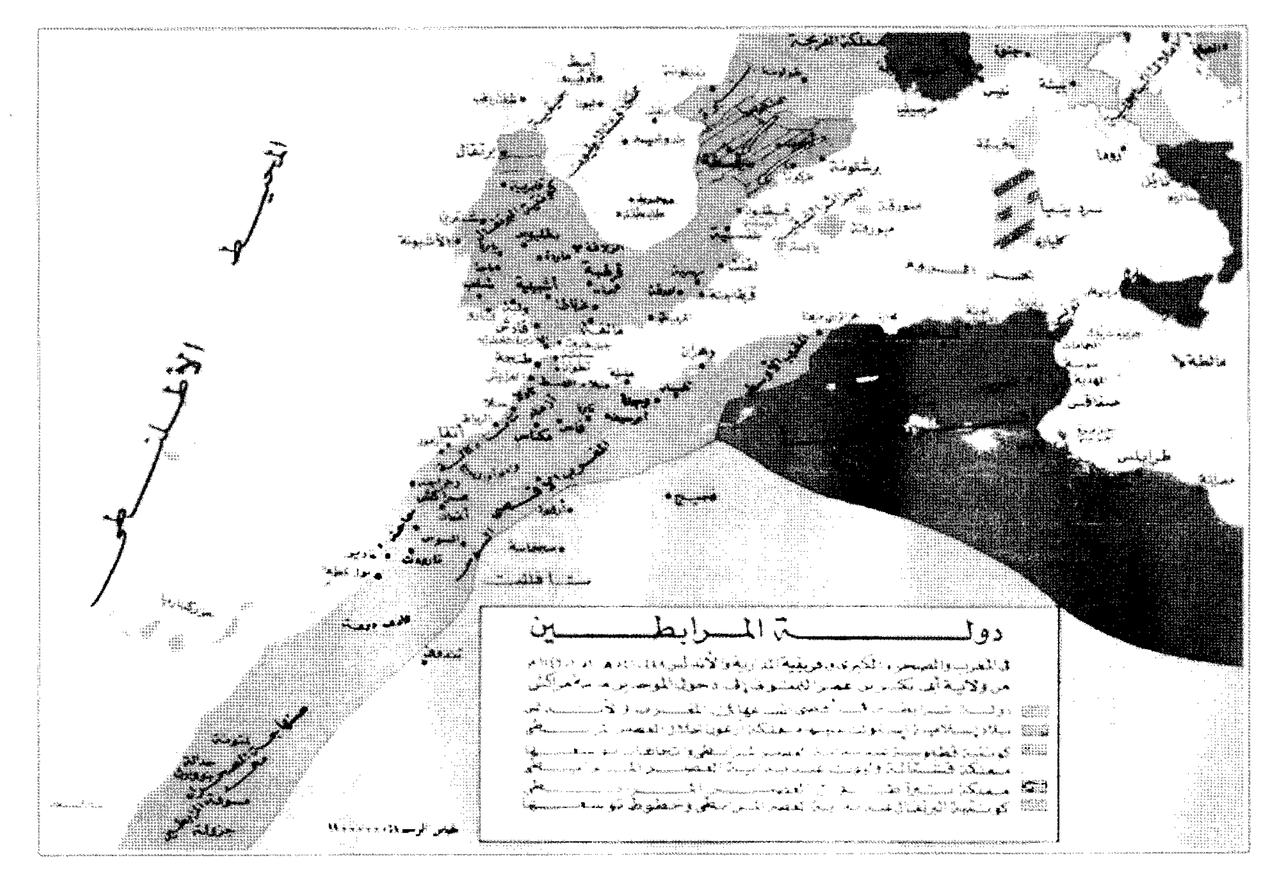
يوسف بن تاشفين ودولة واحدة على المغرب والأندلس:

لم يكن دخول يوسف بن تاشفين الأندلس أمرًا سهلاً، فقد حاربه الأمراء هناك بما فيهم المعتمد على الله بن عباد، ذلك الرجل الذي لم يجد العزَّة إلاَّ تحت راية يوسف بن تاشفين رحمه الله قبل وبعد الزَّلاَّقَة، قام المعتمد على الله بمحاربته وأنَّى له أن يحارب مثله!

استعرت نار الحرب بين المرابطين وملوك الطوائف، وانتهت بضمِّ كل ممالك الأندلس إلى دولة المرابطين، واستطاع أن يضمَّها إلى بلاد المسلمين، وقد أصبح يوسف بن تاشفين الآن أميرًا على دولة تملك من شمال الأندلس وبالقرب من فرنسا وحتى وسط إفريقيا، دولة واحدة اسمها دولة المرابطين.

ولقد ظلَّ هذا الشيخ الكبير يحكم حتى سنة (٥٠٠هـ=١١٠٦م)، وكان قد بلغ من الكبر عتيًّا، وتوفي رحمه الله بعد حياة حافلة بالجهاد، وقد وفَّى تمام المائة[1]؛ منها سبع وأربعون سنة في الحكم، وكان تمام ستين سنة على ميلاد دولة المرابطين، تلك التي أصبحت من أقوى دول العالم في ذلك الزمان.

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٤٥، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٥٦.



خريطة رقم (١٣) دولة المرابطين

الفصل التاسع

الجهاد السياسي والعسكري للمرابطين

حاول المرابطون بعد دخولهم الأندلس تحرير الأراضي الأندلسية، التي أُخذت من المسلمين على مدار السنوات السابقة؛ فحاربوا في أكثر من جبهة، حتى اقتربت حدود دولة المرابطين من فرنسا[١].

كما حاولوا كثيرًا تحرير طُلَيْطلَة، (وكانت كما ذكرنا من قبلُ أنَّها من أكثر وأشدِّ مدن الأندلس حصانة على الإطلاق)؛ لكنهم فشلوا في هذا الأمر، وإن كانوا قد أخذوا معظم القرى والمدن التي حولها.

المرابطون ومواصلة الانتصارات:

بعد موت يوسف بن تاشفين بعام واحد، وفي سنة (٥٠١ هـ=١١٠٧م) وبعد ما يقرب من اثنتين وعشرين سنة من الزَّلاَّقَة، تدور واحدة من أضخم المواقع بين المسلمين وبين النصارى، وهي التي سُمِّيَت في التاريخ بموقعة أُقْلِيش، وقد تولَّى القيادة فيها على المسلمين تميم بن يوسف بن تاشفين، وكان هذا في عهد علي بن يوسف بن تاشفين الذي تولى الدولة خلفًا لأبيه، وتولَّى القيادة على الصليبيين سانشو بن ألفونسو السادس، وانتصر المسلمون -أيضًا- انتصارًا ساحقًا في هذه الموقعة، وقُتل من النصارى ثلاثة وعشرون ألفًا من بينهم سانشو بن ألفونسو وقائد

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٥٤، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٦٠.

جيش النصارى[١]، وقيل عن هذه المعركة بأنها الزلاقة الثانية[٢].

وسانشو هذا هو ابن ألفونسو السادس من زوجته التي كانت قبل ذلك جارية -واسمها زائدة- أعجبت المأمون بن المعتمد بن عباد الذي كان واليًا على قرطبة، فلما انهزم المأمون وفتح المرابطون قرطبة فرَّت هي ومعها ولداها -حفيدا المعتمد- إلى ألفونسو فتنصرت وتزوجها، وأنجب منها ولده سانشو هذا، فهذه عاقبة الطغاة المستبدين!

كان سانشو في الحادية عشرة من عمره، وأرسله أبوه ألفونسو لإثارة حماسة الجند، بعدما أوهنته الشيخوخة ولم يعد قادرًا على قيادة الجيش بنفسه؛ إذ كان قد بلغ الثمانين في ذلك الوقت.

وتوالت انتصاراتُ المسلمين بعد هذه المعركة؛ ففي عام (٥٠٩هـ=١١١٥م) استطاع المسلمون أن يفتحوا جزر البليار، تلك التي كانت قد سقطت من جديد في عهد ملوك الطوائف، وقد أصبح المسلمون يُسيطرون على جزء كبير من أراضي الأندلس تحت اسم دولة المرابطين[٣].

ولقد مرَّت سياسة المرابطين في الأندلس بمراحل ثلاث:

١ - مرحلة التدخُّل من أجل الجهاد وإنقاذ المسلمين، وقد انتهت بانسحاب المرابطين بمجرد انتصار الزَّلاَّقَة.

٢ - مرحلة الحذر من ملوك الطوائف، بعد أن ظلَّ وضعهم وضع التنافر والتحاسد والتباغض بينهم، ولم يُفَكِّرُوا في الاندماج في دولة واحدة، بل فَضَّل بعضهم التقرُّب إلى الأعداء للكيد بالآخرين.

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٥٠، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٦٠.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث ص٢٥٣.

(٣) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٦٢.

٣ - مرحلة ضمِّ الأندلس إلى المغرب؛ فوضعوا حدًّا لمهزلة ملوك الطوائف[١].

مصير ألفونسو السادس:

حزن ألفونسو على وحيده سانشو حزنًا شديدًا، حتى مات بعدها بعشرين يومًا[٢]، وذلك في ٢٩ يونيه سنة ١١٠٩م (ذي الحجة من عام اثنين وخمسمائة[٣])، فحزن القشتاليون قاطبة لوفاته، وقد أسس ألفونسو خلال أربعة وأربعين عامًا من حكم قوي مستنير مجد قشتالة إلى قرون، وكان يلقب بـ «نور إسبانيا ودرعها»، وبلغت قشتالة في عهده من القوة ما لم توهنه بعدئذٍ حرب أهلية ولا تقسيم[٤].

ومن أشهر العلماء في عهد علي بن يوسف:

القاضي أبو بكر ابن العربي (٤٦٨-٥٤٣هـ=١٠٧٦-١١٤٨م):

هو أبو بكر محمد بن عبد الله بن محمد بن عبد الله بن أحمد بن العربي المعافري الإشبيلي الأندلسي المالكي، وُلِدَ في إِشْبِيلِيَة سنة ٤٦٨هـ، تعلَّم في الأندلس ثم ارتحل مع أبيه، فتعلَّم في بغداد ثم في دمشق ثم في بيت المقدس ثم في مكة ثم في مصر، وفي الإسكندرية مات أبوه فدفن هناك، ثم رجع إلى الأندلس في سنة (٤٩١هـ).

ومن أشهر شيوخه الإمام حجة الإسلام أبو حامد الغزالي، والفقيه أبو بكر الشاشي، والعلامة الأديب أبو زكريا التبريزي، والطرطوشي وجماعة آخرين[٥].

وقد نقل إلى الأندلس علمًا كثيرًا وإسنادًا عاليًا، وتخرج على يديه أئمة كثيرون،

---

(١) شوقي أبو خليل: الزلاقة، ص٧٢، والصلابي: دولة المرابطين، ص١٣٦، ١٣٧.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص١٥٩.
(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٥٠.
(٤) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ١/ ١٤٢.
(٥) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٤/ ٢٩٧.

من أشهرهم القاضي عياض، وأبو جعفر بن الباذش[١].

وله مؤلفات كثيرة من أشهرها: العواصم من القواصم، وأحكام القرآن، وأنوار الفجر في التفسير، أتمَّه في ثمانين ألف ورقة، والناسخ والمنسوخ، والقبس، شرح موطأ مالك بن أنس، وعارضة الأحوذي شرح صحيح الترمذي[٢].

يذكره ابن بشكوال فيقول: «الإمام العالم الحافظ المستبحر، ختام علماء الأندلس، وآخر أئمتها وحفاظها... كان من أهل التفنُّن في العلوم والاستبحار فيها والجمع لها، متقدِّمًا في المعارف كلها، متكلِّمًا في أنواعها، نافذًا في جميعها، حريصًا على أدائها ونشرها، ثاقب الذهن في تمييز الصواب منها، ويجمع إلى ذلك كله آداب الأخلاق، مع حسن المعاشرة ولين الكنف، وكثرة الاحتمال، وكرم النفس، وحُسن العهد، وثبات الوعد، واستقضى ببلده فنفع الله به أهله لصرامته وشدَّته، ونفوذ أحكامه، وكان له في الظالمين سَوْرة مرهوبة، ثم صُرِفَ عن القضاء وأقبل على نشر العلم وبثِّه.

وتوفي رحمه الله بالعدوة ودُفِنَ بمدينة فاس في ربيع الآخر سنة ثلاث وأربعين وخمسمائة[٣].

عياض بن موسى بن عياض القاضي (٤٧٦-٥٤٤هـ= ١٠٨٣-١١٤٩م):

هو القاضي الإمام المجتهد اليحصبي، سبتي الدار والميلاد، أندلسي الأصل، وُلِدَ بسَبْتَة في النصف من شعبان عام (٤٧٦هـ).

وقد ألف ابنه القاضي أبو عبد الله محمد كتابًا يَذكر فيه مآثر أبيه، سماه:

---

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٠.
(٢) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ١٩٧، وما بعدها بتصرف.
(٣) ابن بشكوال: الصلة، ٢/ ٨٥٦.

(التعريف بالقاضي عياض)، وقد نَقل عنه الكثير من المؤرخين والعلماء، وكان عمرون (أبو جد القاضي عياض) رجلاً خيارًا من أهل القرآن، وحجَّ إحدى عشرة حجة، وغزا مع المنصور بن أبي عامر غزوات كثيرة، ثم انتقل إلى سَبْتَة وُولد له ابنه عياض، ثم وُلِدَ لعياض ابنه موسى، ثم ولد لموسى القاضي أبو الفضل عياض.

وكان أبوه حافظًا لكتاب الله، مع الحظ الوافر من تفسيره وجميع علومه، وكان من أئمة الحديث في وقته، أصوليًّا متكلمًا، فقيهًا حافظًا للمسائل، نحويًّا أديبًا شاعرًا خطيبًا.

رحل القاضي عياض إلى الأندلس، فدرس بقُرْطُبَة ومُرْسِيَة وغيرهما، ثم عاد إلى سَبْتَة، فكان من علمائها وهو ابن ثلاثين سنة أو أكثر بقليل، ثم جلس للشورى، ثم ولي القضاء، فسار في ذلك حسن السيرة مشكور الطريقة، ثم انتقل إلى غَرْنَاطَة في أول صفر سنة ٥٣١هـ، فتولى القضاء بها، ثم قضاء تادَلة.

وله من المؤلفات كتاب الشفا بتعريف حقوق المصطفى، وإكمال المُعْلِم في شرح مُسلم، والمُسْتَنْبَطَة على الكتب المدوَّنة والمختلطة، وترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك، والإعلام بحدود قواعد الإسلام، والإلماع في ضبط الرواية وتقييد السماع.. وغيرها كثير.

قال ابن بشكوال: جمع من الحديث كثيرًا، وله عنايةٌ كثيرة به واهتمام بجمعه وتقييده، وهو من أهل التفنُّن في العلم والذكاء واليقظة والفهم[1].

وقال الفقيه محمد بن حمادة السبتي: جلس القاضي -يعني القاضي عياضًا- للمناظرة وله نحو من ثمانٍ وعشرين سنة، وولي القضاء وله خمس وثلاثون سنة، كان هَيِّنًا من غير ضعف، صلبًا في الحقِّ... ولم يكن أحدٌ بسَبْتَة في عصره أكثر

(١) ابن بشكوال: الصلة، ٢/ ٦٦٠، ٦٦١.

تواليف منه... وحاز من الرئاسة في بلده والرفعة ما لم يصل إليه أحد قط من أهل بلده، وما زاده ذلك إلاَّ تواضعًا وخشية لله تعالى[١].

وقال عنه القاضي ابن خلكان في (وفيات الأعيان): كان إمام وقته في الحديث وعلومه، والنحو واللغة، وكلام العرب، وأيامهم وأنسابهم[٢].

وقال أبو عبد الله محمد الأمين في كتابه (المجد الطارف والتالد)، يصف مكانة القاضي عياض العلمية، وقدره الرفيع بين علماء الإسلام: «مقام عياض مثل مقام البخاري والأئمة الأربعة... وانظر إلى عياض فلا ترى تأليفًا معتبرًا من تواليف أهل الحديث، ولا أصحاب السير والفقهاء إلاَّ وجدته مشحونًا بكلامه، مع أنه لم يرتحل إلى المشرق»[٣].

وقد توفي رحمه الله بمَرَّاكُش ليلة الجمعة نصف الليلة التاسعة من جمادى الآخرة من سنة (٥٤٤هـ)، ودفن في باب إيلان من داخل السور[٤].

* * *

(١) انظر: الذهبي: تذكرة الحفاظ، ٤/ ٦٨.
(٢) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٣/ ٤٨٣.
(٣) انظر: عبد الحي الكتاني: فهرس الفهارس، ٢/ ٨٠٤.
(٤) انظر: ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٤/ ٢٢٢-٢٣٠، بتصرف.

الفصل الحادي عشر

المرابطون.. الضعف ثم الانهيار

في سنة (٥١٢هـ=١١١٨م) تحدث في داخل بلاد المغرب وفي عقر دار المرابطين ثورة تؤدي بأثر سلبي إلى هزيمتين متتاليتين لهم في بلاد الأندلس، كانت الأولى هزيمة قُتُنْدَة، والثانية هزيمة القُليعة.

المرابطون الهزيمة والانحدار.. وقفة متأنية:

على إثر قيام ثورة في المغرب في عقر دار المرابطين، وعلى إثر هزيمتين متتاليتين لهم في الأندلس من قِبل النصارى، يحق لنا أن نتساءل: لماذا تقوم الثورة في هذا الوقت في دولة المرابطين؟! ولماذا هذا الانحدار وتلك الهزائم المتتالية؟!

وفي تحليلٍ موضوعيٍّ لهذه الأحداث نعود بالتاريخ إلى بداية نشأة دولة المرابطين وقيامها، فمنذ عام (٤٤٠هـ=١٠٤٨م) ولمدة سبعين عامًا تقريبًا، وحتى عام (٥٠٩هـ= ١١١٥م) حيث الانتصارات المتتالية، وحيث العلو والارتفاع، وحيث الأموال والغنائم، والدنيا التي فُتِحَتْ على المسلمين، والتي وصلوا فيها إلى درجة عالية من العزِّ والسلطان والتمكين، فما المتوقَّع بعد ذلك، وما الأحداث الطبيعية التي من الممكن أن تحدث كما سبق ورأينا؟!

لا شكَّ أن الشيء الطبيعي والمتوقَّع حدوثه هو حصول انكسار من جديد للمسلمين، وحدوث فتنة من هذه الدنيا التي فُتحت على المسلمين، وفتنة من هذه

الأموال التي كثرت في أيديهم.

وقد يتساءل البعض: هل من المعقول بعد انتصارات أبو بكر بن عمر اللمتوني، وانتصارات يوسف بن تاشفين وأعماله، وبعد الزَّلاَّقَة، هل من المعقول بعد كل هذا أن يحدث انكسار للمسلمين؟!

وفي معرض الردِّ على هذا نقول: كيف نتعجَّبُ من حدوث هذا الانكسار الذي حدث بعد وفاة يوسف بن تاشفين، ولا نستغربه وقت أن حدث بعد وفاة رسول الله ﷺ متجسدًا في الردَّة الكبيرة التي حدثت بين المسلمين؟! وهو -بلا شكٍّ- أعظم تربية وأقوى أثرًا من يوسف بن تاشفين ومَنْ على شاكلته؛ وخاصة إذا كانت هناك شواهد بَيِّنَة لهذا الانكسار وتلك الرجعة.

شواهد الانكسار وعوامل السقوط في دولة المرابطين:

كدورة طبيعية من دورات التاريخ، ومما لا يُعَدُّ أمرًا غريبًا أو غير متوقَّع، كانت هناك شواهد بَيِّنَة لانكسار وتراجع دولة المرابطين عما كانت عليه قبل ذلك؛ نستطيع أن نُجملها فيما يلي:

أولاً: فتنة الدنيا وإن ظلَّ أمر الجهاد قائمًا:

بالرغم من عدم توقُّف الجهاد، وبالرغم من صولات وجولات علي بن يوسف بن تاشفين، التي كانت له مع النصارى وفي أكثر من موقعة، إلاَّ أن المرابطين كانوا قد فُتنوا بالدنيا، وهو يُعَدُّ شيئًا غريبًا جدًّا، وفي تحليل لمنشأ هذا الشاهد وُجد أن سببه خطأ كبير كان قد ارتكبه المسلمون في دولة المرابطين، وهم عنه غافلون، وليتنا نأخذ العظة والعبرة منه؛ فقد جعلوا جُلَّ اهتمامهم التركيز على جانب واحد من جوانب الإسلام، وتركوا أو أهملوا الجوانب الأخرى، كما نرى من إغفال هذه الجوانب في كتب التاريخ؛ فقد انشغل المرابطون -في أرض الأندلس وفي بلاد

المغرب وما حولها من البلاد- بالجهاد في سبيل الله عن إدارة الحُكم وعن السياسة داخل البلاد، شُغلوا بالأمور الخارجية عن الأمور الداخلية، والإسلام بطبيعته دين متوازن، ونظام شامل لا يُغَلِّب جانبًا على جانب، وقد رأينا مثالاً واضحًا لهذا الأمر في تلك الدولة المتوازنة التي أقامها عبد الرحمن الناصر رحمه الله، في نواحي العلم والجهاد، والاقتصاد والقانون، والعمران والعبادة.. وكل شيء؛ حيث الدولة التي تسدُّ حاجات الروح والجسد، فسادت وتمكَّنَتْ وظلَّت حينًا من الدهر.

ومثلها -أيضًا- كانت بداية دولة المرابطين وإقامة الجماعة المتوازنة على يد الشيخ عبد الله بن ياسين، تلك التي اهتم في قيامها بكل جوانب الحياة وعوامل ومقومات الدولة المتكاملة، التي تعطي كل جانب من مقوِّماتها قدرًا مناسبًا من الجهد والوقت والعمل، فتعلَّمُوا أن يكونوا فرسانًا مجاهدين، ورهبانًا عابدين، كما تعلَّمُوا أن يكونوا سياسيين بارعين، ومتعاونين على منهج صحيح من الإسلام وأصوله، لكن أن يُوَجِّه المسلمون كل طاقاتهم إلى الجهاد في سبيل الله في سَنَة خمسمائة من الهجرة وما بعدها، ثم يتركون أمور السياسة الداخلية وتثقيف الناس وتعليمهم أمور دينهم، فتلك هي قاصمة الظهر.

ثانيًا: كثرة الذنوب رغم وجود العلماء:

كثرت الذنوب والمعاصي في دولة المرابطين؛ سواء أكان ذلك في الأندلس أو في أرض المغرب، وهذا مع وجود العلماء الكثيرين في ذلك الوقت، وكثرة الذنوب كان أمرًا طبيعيًّا خاصَّة بعد أن فُتحت البلاد وكثرت الأموال؛ وذلك لأن معظم الذنوب تحتاج إلى أموال لاقترافها، وأصحاب النفوس الضعيفة، الذين كانوا يقطنون في دولة المرابطين (في المغرب) وكانوا يفكرون في الذنوب لكن لا يقدرون عليها، أما الآن وقد فُتحت الدنيا عليهم وكثرت الأموال في أيديهم، فتحرَّكت هذه النفوس الضعيفة ناحية الذنوب، وبدأت ترتكب من الذنوب والكبائر ألوانًا وأشكالاً.

ولا شكَّ أنه كان هناك الغني الشاكر، لكن الحق أن هذا هو الاستثناء وليس القاعدة، والأصل أن الناس جميعًا يُفتنون بالدنيا، ويقعون في الذنوب إذا كثر المال في أيديهم، يقول ﷻ في معرض قصة نوح ﵇: ﴿فَقَالَ الْمَلأُ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ قَوْمِهِ مَا نَرَاكَ إِلاَّ بَشَرًا مِثْلَنَا وَمَا نَرَاكَ اتَّبَعَكَ إِلاَّ الَّذِينَ هُمْ أَرَاذِلُنَا بَادِيَ الرَّأْيِ وَمَا نَرَى لَكُمْ عَلَيْنَا مِنْ فَضْلٍ بَلْ نَظُنُّكُمْ كَاذِبِينَ﴾ [هود: ٢٧]. والأراذل هم ضعاف الناس وبسطاء القوم وفقراؤهم، وهم الذين اتبعوا نوحًا ﵇، واتبعوا الرسل من بعده، واتبعوا كل الدعاة إلى يوم القيامة؛ ومن هنا فإنَّ كثرة الذنوب أمر طبيعي ومتوقَّع كنتيجة مباشرة لكثرة الأموال، لكن أين العلماء الكثيرون المنتشرون في بلاد الأندلس وبلاد المغرب العربي في ذلك الوقت؟!

كيف يُفتن الناس بالدنيا وراية الجهاد خفَّاقة، وكيف تكثر الذنوب رغم وجود العلماء الأجلاَّء؟!

واقع الأمر أن العلماء هم الذين يقع على عاتقهم العبء الأكبر من هذا التدني وذاك الانحدار؛ إذ نراهم وقد انشغلوا بفرعيات الأمور وأغفلوا أساسياتها؛ لقد طرقوا أمورًا وتركوا أمورًا أولى وأهمَّ منها، أخذوا يُؤَلِّفون المؤلفات، ويعقدون المناظرات، ويُقَسِّمون التقسيمات في أمور لا ينبني عليها كثير عمل، ولا كثير جدوى؛ بينما أغفلوا أمورًا ما يصحُّ لهم أبدًا أن يتركوها أو يُغفلوها، يقول عبد الواحد المراكشي: «ولم يكن يقرب من أمير المسلمين ويحظى عنده إلاَّ مَنْ عَلِمَ الفروع -أعني فروع مذهب مالك- فنفقت في ذلك الزمان كتب المذهب، وعُمِلَ بمقتضاها، ونُبِذَ ما سواها، وكثر ذلك حتى نُسِيَ النظر في كتاب الله وحديث رسول الله ﷺ؛ فلم يكن أحد من مشاهير أهل ذلك الزمان يعتني بهما كل الاعتناء، ودان أهل ذلك الزمان بتكفير كل مَنْ ظهر منه الخوض في شيء من علوم الكلام، وقرر الفقهاء عند أمير المسلمين تقبيح علم الكلام، وكراهة السلف له، وهجرهم مَنْ

ظهر عليه شيء منه، وأنه بدعة في الدين، وربما أدَّى أكثره إلى اختلال في العقائد في أشباه لهذه الأقوال، حتى استحكم في نفسه بغض علم الكلام وأهله، فكان يكتب عنه في كل وقت إلى البلاد بالتشديد في نبذ الخوض في شيء منه، وتوعَّد مَنْ وُجِدَ عنده شيء من كتبه، ولما دخلت كتب أبي حامد الغزالي رحمه الله المغرب أمر أمير المسلمين بإحراقها، وتقدَّم بالوعيد الشديد من سفك الدم واستئصال المال إلى مَنْ وُجِدَ عنده شيء منها، واشتد الأمر في ذلك»[1].

لقد أحرق علي بن يوسف بن تاشفين بالفعل كتب أبي حامد الغزالي، باعتبارها تخالف الإسلام الصحيح، وهو الإمام الذي لقب بحجة الإسلام، وكان سيد فقهاء المشرق، وهو الذي أفتى ليوسف بن تاشفين بحكم الشرع في ملوك الطوائف، فكانت فتواه أقوى ما استند إليه يوسف في إزالة ممالك الطوائف وتوسيع دولة المرابطين!

النتائج التي ترتَّبَتْ على تعمق العلماء في الفروع دون الأصول:

كان اتِّجاه العلماء في ذلك الوقت إلى التعمُّق في الفروع وإهمال الأصول، كمَنْ ترك لُجَّة البحر واتجه إلى القنوات الفرعية، فأنَّى له الوصول؟! وأنَّى لعمله الفائدة المرجوَّة منه؟! فكان -ونتيجة طبيعية لذلك- أن نتج عن هذا القلب الخاطئ، وذاك التعمق في الفروع تلك الأمور الخطيرة التالية:

أولاً: جدال عظيم عقيم بين العلماء والعامة:

وذلك أن العلماء لم يفهموا أو لم يستطيعوا أن يتفهموا حاجة العامة، كما لم تعرف العامة ما يتنطَّع به العلماء، وقد كان نبينا ﷺ -وهو أعلم البشر، وأحكم الخلق- يتكلَّم بالكلمة فيفهمه علماء الصحابة ويفهمه الأعرابي البسيط، كما كان

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٣٦، وما بعدها.

يفهمه الرجل وتفهمه المرأة، والكبير والصغير، كلٌّ على حدٍّ سواء.

ثانيًا: عزلة العلماء عن مجتمعاتهم:

باتجاه العلماء إلى دقائق الأمور من الفروع لم يَعُدْ يشغلهم حال مجتمعاتهم، ولم يعودوا هم يعرفون شيئًا عمَّا يدور فيها، وما يحُلُّ بها من مصائب وذنوب، فتوسَّعت الهوَّة كثيرًا بينهم وبين مجتمعاتهم، وحدثت بذلك عزلة خطيرة لهم في العهد الأخير للمرابطين؛ فكانت الخمور تُباع وتُشترى، بل وتُصنَّع في البلاد ولا يتكلَّم أحد، وكانت الضرائب الباهظة تُفرض على الناس غير الزكاة وبغير وجه حقٍّ، ولا يتكلَّم من العلماء أحد، وكان الظلم من الولاة لأفراد الشعب ولا يتكلم من العلماء أحد، وكانت هناك ملاهي الرقص لا تُستر، بل تُعْلِن عن نفسها في سفور ولا يتكلم من العلماء أحد، وإنه لعجب والله! أن تحدث مثل هذه الأمور في هذا الزمن (من بعد سنة خمسمائة من الهجرة) وتلك الدولة المرابطية، فقد كانت النساء تخرج سافرات بلا حجاب، والعلماء لاهون بالحديث عن المرجئة والمعطِّلة، وغيرها من أمور الجدال العقيمة والفُرْقَة المقيتة، ويعتقدون أن مثل هذه الأمور هي التي يجب أن يُشغَل بها المسلمون، وغيرها هي الأقل أهمية من وجهة نظرهم[(١)].

ثالثًا: أزمة اقتصادية حادة:

كان من بين شواهد الانكسار الأخرى في نهاية دولة المرابطين، وبعد فتنة الدنيا والمال، وغياب الفهم الصحيح لتعاليم الإسلام، وكثرة الذنوب، وجمود الفكر عند العلماء وانعزالهم عن المجتمع، كان فوق كل هذه الأمور أن حدثت أزمة اقتصادية حادة في دولة المرابطين؛ ففي سنة (٥٣٢هـ) وقع السيل العظيم بطنجة، حمل الديار

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤١، وانظر وثائق مرابطية نشرها حسين مؤنس في مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد - العدد ٢ (سنة ١٩٥٤م).

والجدر، ومات فيه خلق عظيم من الناس والدواب[١]. وكذلك فتك الجراد بحقول الأندلس من سنة (٥٢٦هـ) وحتى سنة (٥٣١هـ)، فاشتدت المجاعة وانتشر الوباء في سنة (٥٢٦هـ) بأهل قُرْطُبَة، فكثر الموتى وبلغ مُدُّ القمح ١٥ دينارًا[٢]، وكان قد وقع قبل ذلك بسنة (٥٢٥هـ)، حريق ضخم في سوق الكتانين بقرطبة، واتصالها بسوق البز، كذلك حدث في سنة (٥٣٥هـ) حريق ضخم آخر في سوق مدينة فاس، فاحترقت سوق الثياب والقراقين وغير ذلك من الأسواق إلا البقالون، وأن ذلك كان في أول الليل فتلفت أموال جليلة، وافتقر فيه خلق كثير[٣].

وبعض المصادر تتحدث -أيضًا- عن القحط الذي حلَّ بالبلاد، فيبست الأرض وجفَّ الزرع وهلكت الدواب[٤].

وقد يرى البعض أن هذا من قبيل المصادفة البحتة والعجيبة في الوقت نفسه، لكنها والله! ليست مصادفة؛ بل هي في كتاب الله ﷻ ومن سُنَنِه الثوابت، يقول تعالى في كتابه الكريم: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَى آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِمْ بَرَكَاتٍ مِنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِنْ كَذَّبُوا فَأَخَذْنَاهُمْ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ﴾ [الأعراف: ٩٦].

وهذا كلام نوحٍ ؈ في حديثه لقومه؛ حيث يقول: ﴿فَقُلْتُ اسْتَغْفِرُوا رَبَّكُمْ إِنَّهُ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ السَّمَاءَ عَلَيْكُمْ مِدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُمْ بِأَمْوَالٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَلْ لَكُمْ جَنَّاتٍ وَيَجْعَلْ لَكُمْ أَنْهَارًا ۝ مَا لَكُمْ لاَ تَرْجُونَ للهِ وَقَارًا﴾ [نوح: ١٠-١٣].

فالله ﷻ يبتلي المؤمنين دائمًا بالقحط وبالأزمات الاقتصادية الحادة عندما يبتعدون عن طريقه، وعن نهجه القويم الذي رَسَمَهُ لهم، ومن هنا فلو لوحظ

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، ٤/ ٩٦.
(٢) ابن القطان المراكشي: نظم الجمان، ص٢٢٦، ٢٢٨، ٢٣٠، ٢٣٥، ٢٤٢، ٢٥٠، ٢٥٢.
(٣) المصدر السابق، ص٢٢٢، ٢٦٨.
(٤) انظر: مراجع الغناي: سقوط دولة الموحدين، نقلاً عن الصلابي: دولة المرابطين، ص٢٢٩.

تدهور في الحالة الاقتصادية لأحد البلدان أو المجتمعات، وبدأت الأموال تقلُّ في أيدي الناس، وبدءوا يعملون لساعات وساعات ولا يحصل لهم ما يكفي لسدِّ رمقهم، أو ما يكفي لعيشهم عيشة كريمة، فاعلم أن هناك خللاً في العلاقة بين العباد وربهم ﷻ، وأن هناك ابتعادًا عن منهجه وطريقه المستقيم؛ إذ لو كانوا يُطيعونه لبارك لهم في أقواتهم وأرزاقهم.

وبالطبع سبق وأعقب هذه الأحداث التي وقعت في بلاد المرابطين هزائم متعدِّدَة من قِبل النصارى، فكانت -كما ذكرنا- موقعة قُتُنْدة في سنة (٥١٤هـ=١١٢٠م)، والتي هُزم فيها المسلمون هزيمة منكرة[١]، ومثلها وبعدها -أيضًا- كانت موقعة القُليعة في سنة (٥٢٣هـ=١١٢٩م)، والتي مُني فيها المسلمون -أيضًا- بالهزيمة المنكرة[٢].

* * *

(١) انظر في خبر هذه الموقعة: ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٢٠٦.
(٢) انظر خبر هذه الموقعة: ابن القطان: نظم الجمان، ص١٥٢، وما بعدها.



الباب الثامن

عصر الموحدين



الفصل الأول

محمد بن تومرت وتأسيس دعوة الموحدين

المؤسس محمد بن تومرت (٤٧٣-٥٢٤ هـ= ١٠٨٠-١١٣٠م) وبداية الثورة على المرابطين:

كانت دولة المرابطين تتَّجه بقوَّة نحو هاوية سحيقة وكارثة محقَّقة، وكان لا بُدَّ أن تتحقَّق سُنَّة الله تعالى بتغيير هؤلاء واستبدالهم بغيرهم، وهذا ما تمَّ بالفعل؛ إذ قام سنة (٥١٢هـ= ١١١٨م) رجل من قبائل مصمودة الأمازيغية (البربرية) يُدعى محمد بن تومرت بثورة على المرابطين، وكان محمد بن تومرت صاحب منهج في التغيير والإصلاح مختلف بالكلية عن منهج الشيخ عبد الله بن ياسين رحمه الله.

وقد وُلِدَ محمد بن تومرت هذا سنة (٤٧٣ هـ= ١٠٨٠ م)[١]، ونشأ في بيت متدين في قبيلة مصمودة[٢]، وقد نسب هو نفسه إلى الحسن بن علي بن أبي طالب[٣]، لكن غالبَ الأمر أنه من قبائل الأمازيغ (البربر) في هذه المنطقة، وقد ظلَّ محمد بن تومرت في هذا البيت إلى سنة (٥٠٠هـ= ١١٠٧م)، وكان قد بلغ من العمر آنذاك

---

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٢٠١، فقد قال: «ثم مات المهدي وكان عمره إحدى وخمسين سنة، وقيل: خمسًا وخمسين سنة». وعلى هذا فهو إمَّا مولود في ٤٦٩ أو ٤٧٣هـ، وفي مولده اختلاف كبير غير هذا.

(٢) ابن خلدون تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٣٦.

(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص٢٤٥، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٣٦، ويقول الذهبي في سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٣٩: « المدعي أنه علوي حسني وأنه الإمام المعصوم المهدي».

سبعًا وعشرين سنة، وكان شغوفًا بالعلم، وكانت عادة الطلاب في ذلك الزمن أن يتجوَّلوا في سائر البلاد الإسلامية؛ ليتعلموا من علماء المسلمين في مختلف الأقطار؛ ولهذا فقد سافر محمد بن تومرت في سنة (٥٠٠هـ= ١١٠٧م) إلى قُرْطُبَة وتلقَّى العلم هناك، ولم يكتفِ بذلك بل عاد وسافر إلى بلاد المشرق، فذهب إلى الإسكندرية ثم إلى مكة، حيث أدَّى فريضة الحجِّ، وهناك تتلمذ على أيدي علماء مكة فترة من الزمان، ثم رحل إلى بغداد وقضى فيها عشر سنوات كاملة؛ يتلقَّى العلم على أيدي علماء بغداد جميعهم، وكانت بغداد تموج آنذاك بتيارات مختلفة من علماء السُّنَّة والشيعة والمعتزلة.. وغيرهم الكثير ممن أخذ وتلقَّى على أيديهم العلم.

وذهب محمد بن تومرت بعد ذلك إلى المشرق، وتَذْكُر بعض المصادر أنه تلقَّى العلم على الإمام أبي حامد الغزالي رحمه الله -إلا أن هذا غير صحيح بيقين[1]- وعاد

(١) يقول الأستاذ عبد الله عنان مفندًا هذه المقولة: «ونحن نقف قليلاً عند هذه الرواية، التي يُرَدِّدها كثير من مؤرِّخي المشرق والمغرب؛ إذ متى وأين كان هذا اللقاء؟ وفي أي الظروف؟ لقد خرج ابن تومرت من وطنه في طلب العلم سنة ٥٠٠ أو ٥٠١هـ، وقضى فترة في الأندلس، وفي المهدية، وفي الإسكندرية، ثم سافر لقضاء فريضة الحج، وقصد على إثر ذلك إلى بغداد، وإذًا فيكون من المرجَّح أنه لم يصل إليها قبل سنة ٥٠٤ أو ٥٠٥هـ، وقد كان الإمام الغزالي ببغداد يضطلع بالتدريس في المدرسة النظامية بين سنتي (٤٨٤، ٤٨٨هـ=١٠٩١، ١٠٩٥م)، وفي سنة ٤٨٨هـ غادر العاصمة العباسية في رحلته التأملية الشهيرة التي استطالت حتى ٤٩٩هـ، والتي زار فيها دمشق وبيت المقدس والإسكندرية ومكة والمدينة، وإذًا فيكون من المستحيل ماديًّا أن يكون ابن تومرت -الذي غادر وطنه لأول مرة في سنة ٥٠٠هـ- قد استطاع أن يلتقي بالغزالي في بغداد أو غيرها من المدن التي زارها في خلال رحلته، ثم إنه ليس من المحتمل أن يكون هذا اللقاء قد وقع عند عودة الغزالي؛ ذلك أنه لم يمكث بها سوى فترة يسيرة، ثم رحل منها إلى نيسابور، حيث قام بالتدريس فيها استجابة لدعوة السلطان ملك شاه، ثم غادرها بعد قليل إلى مسقط رأسه طوس، وانقطع بها للعبادة والتأليف حتى توفي في (جمادى الثانية ٥٠٥هـ= ديسمبر سنة ١١١٢م).

ويتضح من ذلك جليًّا بطلان قصة اللقاء بين ابن تومرت والإمام الغزالي من الناحية التاريخية، وفضلاً عن ذلك فإنه يوجد دليل مادي آخر على بطلان هذه القصة أو الأسطورة؛ ذلك أنها تُقرن بواقعة أخرى خُلاصتها أن ابن تومرت حينما لقي الإمام الغزالي، وأخبره بما وقع من إحراق المرابطين لكتابه (إحياء علوم الدين) بالمغرب والأندلس، تغيَّر وجهه، ورفع يده إلى الدعاء، والطلبة يُؤَمِّنُون، فقال: «اللهم مزِّق ملكهم كما مزَّقوه، وأذهب دولتهم كما أحرقوه». وأن ابن تومرت رجا الإمام عندئذ أن يدعو الله أن يكون ذلك على يده، فاستجاب الإمام، ودعا الله بذلك.

=

بعدها إلى الإسكندرية ثم إلى بلاد المغرب العربي[١]، ويصف ابنُ خلدون محمدَ بن تومرت بعد عودته تلك في سنة (٥١٢ هـ= ١١١٨م) وكان قد بلغ من العمر تسعًا وثلاثين سنة، فيقول: أصبح محمد بن تومرت «بحرًا متفجرًا من العلم، وشهابًا واريًا من الدين»[٢]. يعني أنه جمع علومًا كثيرة وأفكارًا جمَّة من تيارات إسلامية مختلفة، وأصبح بالفعل من كبار علماء المسلمين في هذه الآونة.

محمد بن تومرت ونهجه في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر

في طريق عودته من بلاد العراق والشام مكث محمد بن تومرت فترة في الإسكندرية يُكمل فيها تعليمه، وهناك بدأ يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، ومن خلال سيرته ورغم أنه -كما ذكرنا- كان عالِمًا كبيرًا، إلاَّ أنه كان شديدًا غاية الشِّدَّة في إنكار المنكر والأمر بالمعروف، شِدَّة تصل إلى حدِّ التنفير، فكان يَنْفرُ عنه كثير من الناس حينما يأمرهم بالمعروف أو ينهاهم عن المنكر، حتى إنه خرج من الإسكندرية

= وينقض هذه الواقعة من أساسها أن قرار المرابطين بحرق كتاب (الإحياء) قد صدر لأول مرة في سنة ٥٠٣هـ في أوائل عهد علي بن يوسف، وذلك حسبما يخبرنا ابن القطان، أعني بعد أن غادر الغزالي بغداد إلى نيسابور لآخر مرة، وقبيل وفاته بنحو عام، فأين إذًا ومتى كان لقاء ابن تومرت به؟ وكيف نستطيع إزاء هذه المفارقات الزمنية، أن نصدق تلك القصة التي نُسجت حول حرق كتاب الإحياء؟

هي أسطورة إذًا، نُسجت كما نسجت نسبة ابن تومرت إلى آل البيت؛ لتغدو هالة تُحيط بشخصه وسيرته، وتُذكي عناصر الخفاء والقدسية حول شخصه وإمامته، وقد اختير الإمام الغزالي لبطولتها بالذات لتبوُّئه يومئذ أسمى مكانة من العلم والدين والورع في العالم الإسلامي... ومن ثَمَّ فإنا نجد كثيرًا من المؤرخين والمفكرين يرفضون هذه الأسطورة والأخذ بها، فابن الأثير ينفيها بصراحة ويقول لنا: «والصحيح أن ابن تومرت لم يجتمع به (أي: بالغزالي)». ويُبْدِي ابن خلدون ريبة فيها، ويحملها على محمل الزعم، وكذلك يُعاملها لسان الدين بن الخطيب، وكذلك فإن البحث الحديث يُنكرها وينفيها، ومن أصحاب هذا الرأي المستشرق الألماني ميللر، والعلامة المستشرق إجناس جولدسيهر... على أن ذلك كله لا يعني أن ابن تومرت لم يتأثَّر في تعاليمه الدينية بآراء الغزالي ونظرياته...». محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/ ١٦١-١٦٣.

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤٥، وتاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٧٨.

(٢) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٦.

مطرودًا منها، طرده واليها بعدما خشي منه، ثم ركب في سفينة متَّجهة إلى بلاد المغرب العربي، وعلى السفينة -أيضًا- ظلَّ محمد بن تومرت على حِدَّته في أمره بالمعروف ونهيه عن المنكر، فمنع الخمور على ظهر السفينة، وأمر بقراءة القرآن.

واشتدَّ على الناس واختلف معهم كثيرًا، فألقوه في عُرض البحر، وتركوه وساروا إلى بلاد المغرب، وهو يسبح بإزاء السفينة نصف يوم كامل، فلما رأوا ذلك اشفقوا عليه، وأنزلوا مَنْ أخذه من البحر وعظم في صدورهم، ولم يزالوا مكرمين له إلى أن نزل من بلاد المغرب[1]، وفي تونس تنتهي رحلته فينزل إلى بلد تُسَمَّى المهدية، ولما انتهى إلى المهدية نزل بمسجد مغلق، وهو على الطريق، وجلس في طاق شارع إلى المحجة ينظر إلى المارة فلا يرى منكرًا من آلة الملاهي، أو أواني الخمر إلا نزل إليها وكسرها، فتسامع الناس به في البلد فجاءوا إليه وقرءوا عليه كتبًا من أصول الدين[2].

كان محمد بن تومرت يُرِيد تغيير المنكر كله تغييرًا جذريًّا ودفعة واحدة، والحقُّ أن هذا أمر مخالف لسُنَن الله تعالى؛ فحين بدأ الرسول ﷺ بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر في مكة لم يأمر بهذا التغيير الجذري المفاجئ ولا سعى إليه، بل إن الأمور كانت تتنزل عليه ﷺ من عند الله ﷻ بصورة متدرِّجَة؛ فقد نزل أمر اجتناب الربا على درجات متسلسلة، ومراعية للتدرُّج مع الناس، وكذلك كان الأمر في تحريم الخمور وتجريمها، والناس قبل ذلك لم تكن تعرف لكليهما حرمة، حتى في أمر الجهاد والقتال في سبيل الله؛ فلم يتنزل هذا التكليف دفعة واحدة.

تلك الأمور التي فقهها جيدًا عمر بن عبد العزيز رحمه الله حين تولَّى الخلافة؛ فقد كانت هناك كثير من المنكرات في دمشق وما حولها من البلاد، وكان ابن عمر بن

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤٦.
(٢) السلاوي: الاستقصا، ٢/ ٧٩.

عبد العزيز رحمه الله شديدًا في الحقِّ، فأراد أن يُغَيِّرَ كل هذه المنكرات مستقويًا بسلطان أبيه، إلاَّ أنه وجد أباه عمر بن عبد العزيز يسير فيها بطريقة متدرِّجة فشقَّ ذلك عليه، فذهب إليه، وقال له: يا أبي؛ أنت تملك الأمور الآن، ولك هيمنة على بلاد المسلمين، فيجب أن تُغَيِّرَ هذا المنكر كله، وتُقيم الإسلام كما ينبغي أن يُقام. فقال له عمر بن عبد العزيز رحمه الله: يا بُنَيَّ؛ لو حملتُ الناس على الحقِّ جملةً واحدة تركوه جملةً واحدة[1].

لكن محمد بن تومرت لم يكن ينحو مثل هذا المنحى، إنما يُريد أن يُغَيِّرَ كل شيء تغييرًا جذريًّا، بل وبأسلوب فظٍّ شديد، وقد قال جَلَّ شأنه يخاطب نبيَّه الكريم: ﴿فَبِمَا رَحْمَةٍ مِنَ اللهِ لِنْتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]. خطابٌ لشخصه ﷺ؛ وهو المؤيَّد بالوحي، وأحكم الخلق، وأعلم البشر جميعًا: إن دعوتَ إلى الله ﷻ بفظاظة وغلظة انفضَّ الناس عنك، فما البال بعموم الناس من دونه؟!

محمد بن تومرت وعبد المؤمن بن علي ولقاء الأفكار الثورية:

ولما كان ابن تومرت في بجاية قابل رجلاً، كان يُريد هو -أيضًا- ما كان يُريده ابن تومرت في أوَّل رحلته في طلب العلم إلى الأقطار الإسلامية المختلفة، ذلك الرجل كان يُدعى عبد المؤمن بن عليٍّ، وفي أول لقاء له به سأله عن سبب تركه لبلاده وسياحته في البلاد، فأجابه بأنه يبحث عن العلم والدين، فردَّ عليه محمد بن تومرت بأن بضاعتك وما تبغيه لديَّ، فالتقيا كثيرًا، وقد أخذ محمد بن تومرت يُعَلِّمُه من علمه ما أعجب عبد المؤمن بن علي كثيرًا، وتآخيا في الله، وظلاَّ معًا في طريقهما لم يفترقا حتى مات محمد بن تومرت على نحو ما سيأتي بيانه[2].

---

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٦/ ٤١٩.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٤٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ١/ ٢٢٧، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٨٠، ومنهم من قال: إنه لقيه بملالة على بعد فرسخ من بجاية. ومنهم من قال: بفنزارة من بلاد متيجة. انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص١٠٠.

أخذ عبد المؤمن بن علي العلم من محمد بن تومرت مع الطريقة الفظَّة في الدعوة إلى الله، وفي الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويبدأ الاثنان معًا يدعوان إلى الله ﷻ في بلاد المغرب العربي، وقد انضمَّ إليهما خمسة آخرون، وأصبحوا بذلك سبعة أفراد بمحمد بن تومرت نفسه[1]، وعلى هذه الحال وجد محمد بن تومرت ومن معه أن المنكرات قد كثُرت بصورة لافتة في بلاد المرابطين، ووجد أن الخمور قد تفشَّت حتى في مَرَّاكُش، تلك العاصمة التي أسَّسها يوسف بن تاشفين رحمه الله من قبل، وكانت ثغرًا من ثغور الإسلام، كما رأى الولاةَ وقد بدءوا يظلمون الناس، ويفرضون عليهم الضرائب، ويأكلون أموال اليتامى، ووجد -أيضًا- ذاك السفور والاختلاط قد انتشر وصار شيئًا مألوفًا بين الناس؛ حتى إنه شاهد بنفسه امرأة سافرة وقد خرجت في فوج كبير، وعليه حراسة مما يماثل أفواج الملوك، وحينما سأل عن صاحبة هذا الفوج وتلك المرأة السافرة، علم أنها أخت أمير المسلمين عليٍّ بن يوسف بن تاشفين، فأنكر ذلك عليها إنكارًا شديدًا؛ حتى إن بعض المصادر تثبت أنه وأصحابه كانوا يضربون وجوه مطاياها حتى أوقعوها من عليه[2].

محمد بن تومرت وفكرته في التغيير

لا بُدَّ من تغيير لهذا الوضع المخزي، كانت هذه هي الفكرة التي اختمرت واستحوذت على رأس محمد بن تومرت؛ فجلس مع أصحابه وعددهم ستة نفرٍ، ثم عرض عليهم فكرته في التغيير، فكان رأيه أن المعاصي والمنكرات قد استشرت في بلاد المرابطين، وأن السيل قد بلغ الزبى، وأن الحلَّ في هذا الأمر هو أن نبدأ بالرأس، ونُقصي الحُكَّام عن الحُكْم، فنبدأ بعليٍّ بن يوسف بن تاشفين ومَنْ معه من الحُكَّام

---

(١) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان: ٥/ ٤٩، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٤٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٨٣.

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٢٣١، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٧.

والولاة وقادة الجيش، فنخرج عليهم فنُقصيهم عن الحُكم؛ ومِنْ ثَمَّ يكون الأمر في أيدينا، فنستطيع أن نُغَيِّر في البلاد وَفْق ما يقتضيه كتاب الله وسُنَّة رسوله ﷺ.

فمحمد بن تومرت يُرِيد أن يختصر طريق التربية، ويختصر الطريق الطويل الذي بدأه عبد الله بن ياسين من قبله، والذي سار فيه سنوات وسنوات حتى تمكَّن من الأمور، يُريد إقصاء علي بن يوسف بن تاشفين ومَنْ معه، ثم بعد أن يتملَّك الأمور يبدأ في تعليم الناس من فوق كرسي الحُكم وبسلطان القانون.

وإذا أكملنا السير مع محمد بن تومرت فإن عليَّ بن يوسف بن تاشفين كان يُقيم شرع الله ﷻ، وكان يجاهد في سبيل الله، إلاَّ أنه كانت تشوبه بعض التجاوزات والمخالفات، مثل التي ذكرناها، وهذه المخالفات لم تكن تُعطي الحق لمحمد بن تومرت ومَنْ معه -أيًّا كانت نياتهم فيما يبدو لنا، وأيًّا كان تقشُّفهم وزهدهم وعلمهم الغزير- أن يخرجوا عليه، بل كان عليهم أن يُقيموا الأمر من جديد، وأن يُعاونوه على العودة إلى طريق الإسلام الصحيح، وكان عليهم تعليم الناس وتربيتهم تربية إسلامية صحيحة.

ولننظر إلى تغيير رسول الله ﷺ في بداية الدعوة، وحينما خالفه المشركون في مكة؛ فقد كان من الممكن أن يفعل الأمر نفسه الذي فكَّر فيه محمد بن تومرت، كان من الممكن أن يُوصي عليَّ بن أبي طالب والزبير بن العوَّام وطلحة بن عبيد الله أن يقوم كلٌّ منهم فيقتل رجلاً من صناديد قريش، ثم يتولَّى هو الحُكم في مكة، ومِنْ ثَمَّ يُقيم شرع الله ﷻ.

ولأنها ليست سُنَّة الله في التغيير لم يَتَّبِعْها رسول الله ﷺ، بل أخذ يُرَبِّي الناس بالتدريج سَنَةً بعد سَنَةٍ، حتى قضى ثلاث عشرة سنة في مكة على تلك الحال، ثم هاجر إلى المدينة المنورة وتابع مسيرته في تربية الناس بالتدريج، حتى كانت موقعة

بدر مع الكافرين، وتلتها المواقع الكثيرة التي أصقلت معادن المؤمنين؛ حتى تمكَّن رسول الله ﷺ بعد ذلك من السيطرة على الأمور كلها في جزيرة العرب، واستطاع أن يُنشئ جيلاً من الرجال على طراز فريد من نوعه، استطاعوا من بعده أن يحملوا الرسالة إلى أهل الأرض قاطبة.

بين علي بن يوسف بن تاشفين ومحمد بن تومرت:

هذا هو المنهج الذي سلكه محمد بن تومرت قاصدًا به الإصلاح والتغيير، وهو -بلا أدنى شكٍّ- مخالف تمامًا للنهج القويم، ونهج رسول الله ﷺ في العمل ذاته على نحو ما رأينا.

سمع عليُّ بن يوسف بن تاشفين بمحمد بن تومرت وبدعوته، وبمنطق سليم فكَّرَ الخليفة في عقد مناظرة بين محمد بن تومرت وبين علماء دولة المرابطين، يكون مقرُّها قصر الخليفة نفسه، فقدم محمد بن تومرت على رأس أتباعه الستة، وأتى علماءُ المرابطين، وكان على رأسهم كبير العلماء وقاضي القضاة مالك بن وهيب، وبدأ الفريقان في المناظرة.

ونظرة أولية إلى فكرة عَقْد مثل هذه المناظرة يُوحي بأن عليَّ بن يوسف بن تاشفين كان رجلاً ما زال يحمل من الخير الكثير، وإلاَّ فإنه -وعلى أقلِّ تقدير- كان من الممكن أن يفتعل مثل هذه المناظرة ويقوم بعدها بسجن محمد بن تومرت، أو قتله أو فعل أيِّ شيء آخر من هذا القبيل، خاصَّة وهو ذلك الثائر على الحاكم، والذي يُريد قلب وتغيير نظام الحُكم، وهذا ما سيزداد تأكيدًا في نهاية هذه المناظرة في صالح الأمير على نحو ما سيأتي.

وفي هذه المناظرة تفوَّق محمد بن تومرت على علماء دولة المرابطين تفوُّقًا ملحوظًا؛ فقد كان -كما ذكرنا- من كبار العلماء المتشبِّعين بالعلم، وكان كما وصفه ابن خلدون بحرًا متفجِّرًا من العلم وشهابًا في الدين، وهو الذي أمضى عشر سنين

في بغداد يتعلَّم علم المجادلة، وفنون المحاورة على يد العقليين من المعتزلة وغيرهم، فاستطاع محمد بن تومرت أن يحاجَّ علماء دولة المرابطين جميعًا في كل القضايا التي أُثيرت بينه وبينهم، حتى بكى عليٌّ بن يوسف بن تاشفين في مجلسه؛ لما رأى من كثرة المعاصي في دولته، وهو لا يدري عنها شيئًا، أو هو يدري عنها لكنه لم يُغَيِّرْها، بكى من الخشية لَمَّا سمع حجج وأقاويل محمد بن تومرت، لكن ذلك لم يشفع له عنده، وظلَّت الحِدَّة واضحة جلية في كلامه وحديثه مع الأمير.

وكان علماء الدولة ووزراؤها يعلمون أنه يُحَرِّض الناس على الخروج على الحاكم، فأَسَرَّ مالك بن وهيب قاضي القضاة في أُذنِ عليٍّ بن يوسف بن تاشفين؛ بأنَّ عليه أن يعتقل هذا الرجل، ويُنفق عليه دينارًا كل يوم في السجن، وإلا ستمرُّ عليك الأيام فتُنفق عليه كل خزائنك دون أن تقدر عليه؛ لكن الوزير أشار على علي بن يوسف بن تاشفين بعدم فعل ذلك؛ خاصَّة وأنه جلس في مجلسه وبكى من خشية الله ﷻ حين سمع كلماته، فلا يُعقل أن تأتي بعد ذلك وتعتقله، فتَحْدُث بذلك بلبلة عند عموم الناس، كما أنه بمَنْ معه سبعة نفر فقط، أمَّا أنت فحاكم دولة ضخمة، وهي دولة المرابطين؛ فكيف تخشى من هذا الرجل؟!

وازن عليٌّ بن يوسف بن تاشفين بين رأي مالك بن وهيب قاضي القضاة وبين رأي الوزير، واستقرَّ أخيرًا على ترك محمد بن تومرت؛ خشية أن يأثم إن حبسه دون وجه حقٍّ؛ فالرجل ما زال به خير، وكان من الممكن أن يُصلح أمره إذا حاول معه محمد بن تومرت ومَنْ معه بالتي هي أحسن، لكنه لم يفعل[1].

محمد بن تومرت وجماعة الموحدين

ما أن خرج محمد بن تومرت من مجلس الأمير علي بن يوسف بن تاشفين من

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٥١، وابن كثير: البداية والنهاية، ١٢/ ٢٣١، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٧.

مَرَّاكُش حتى نزل على صديق له في بلد مجاور، وذهبوا بعدها إلى قرية في عمق الجبل اسمها تينملل، وهي التي ستكون عاصمة للدولة التي سوف يُؤَسِّسها محمد بن تومرت بعد ذلك[1].

وكان محمد بن تومرت زاهدًا أشدَّ الزهد، وكان لا يحمل في يده إلا عصا وركوة[2]، ولا يأكل إلا القليل من الطعام، وكان -كما ذكرنا- صاحب علم غزير، فبدأ الناسُ في هذه القرية الصغيرة يلتفُّون حوله ويسمعون لكلامه، وبدأ يُؤَثِّر فيهم بشكل طبيعي؛ لِمَا كانوا عليه من المعاصي والمنكرات، تلك التي انتشرت في بلاد المرابطين، ثم بدأ يُكَوِّن حوله جماعة بدأت صغيرة، وقد سمَّاها جماعة الموحدين[3]، وهي تسمية خطيرة لما سنعلمه بعد قليل.

يذكر عبد الواحد المراكشي مراحل دعوة ابن تومرت وتربيته الناس في تينملل، فيقول: «من هذا الموضع قامت دعوته وبه قبره، ولما نزله اجتمع إليه وجوه المصامدة، فشرع في تدريس العلم والدعاء إلى الخير من غير أن يُظهر إمرة ولا طلبة ملك، وألَّف لهم عقيدة بلسانهم، وكان أفصح أهل زمانه في ذلك اللسان، فلمَّا فهموا معاني تلك العقيدة زاد تعظيمهم له، وأُشربت قلوبهم محبته، وأجسامهم طاعته، فلما استوثق منهم دعاهم إلى القيام معه؛ أولاً على صورة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا غير، ونهاهم عن سفك الدماء، ولم يأذن لهم فيها، وأقاموا على ذلك مدة، وأمر رجالاً منهم ممن استصلح عقولهم بنصب الدعوة واستمالة رؤساء القبائل، وجعل يذكر المهدي ويُشَوِّق إليه، وجمع الأحاديث التي جاءت فيه من المصنفات، فلمَّا قَرَّر في نفوسهم فضيلة المهدي ونسبه ونعته، ادعى ذلك لنفسه، وقال: أنا محمد بن عبد الله. ورفع نسبه إلى النبي ﷺ وصرح بدعوى العصمة

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٥٠، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٤٥٥.
(٢) الركوة: إناء صغير من جلد يشرب فيه الماء والدلو الصغيرة. المعجم الوسيط ١/ ٣٧١.
(٣) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٥/ ٥١.

لنفسه، وأنه المهدي المعصوم، وروى في ذلك أحاديث كثيرة؛ حتى استقر عندهم أنه المهدي، وبسط يده فبايعوه على ذلك، وقال: أبايعكم على ما بايع عليه أصحاب رسولِ الله ﷺ رسولَ الله. ثم صنَّف لهم تصانيف في العلم منها: كتاب سماه (أعز ما يطلب)، وعقائد في أصول الدين، وكان على مذهب أبي الحسن الأشعري في أكثر المسائل، إلا في إثبات الصفات، فإنه وافق المعتزلة في نفيها، وفي مسائل قليلة غيرها، وكان يُبطن شيئًا من التشيُّع، غير أنه لم يَظهر منه إلى العامة شيء»[(١)].

قويت شوكة محمد بن تومرت، وبمجرَّد أن قويت شوكته ظهرت عليه انحرافات عقائدية خطيرة؛ فقد كان لأخذه العلم من تيارات مختلفة تُمَثِّل سُنَّة وشيعة ومعتزلة، وغيرهم في بلاد الشام وبغداد ومكة ومصر وغيرها من البلاد، كان من جرَّاء ذلك أن ظهر عليه خليط من العقائد المختلفة؛ والتي تمثَّلت فيما يلي:

أولاً: ادَّعى العصمة:

وعند أهل السُّنَّة والجماعة أن العصمة لم تَثْبُت إلاَّ للأنبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام، ولم يقولوا بها لغيرهم، حتى لكبار الصحابة الذين خَصَّهم الله بالفضل؛ كأبي بكر، وعمر، وعثمان، وعلي، وغيرهم[(٢)]؛ فابن تومرت بهذا النهج قد وافق الرافضة الاثني عشرية، الذين قالوا بالعصمة لأئمتهم؛ حيث يقولون بوجوب عصمتهم من الكبائر والصغائر والنسيان، كما قالوا: إن الإمام كالنبي، يجب أن يكون معصومًا من جميع الرذائل والفواحش ما ظهر منها وما بطن، من سنِّ الطفولة إلى الموت، عمدًا وسهوًا، كما يجب أن يكون معصومًا من السهو والخطأ والنسيان[(٣)].

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٥٤، وابن الأثير: الكامل ٩/ ١٩٦.

(٢) انظر: ابن تيمية: منهاج أهل السنة، ٧/ ٥٩.

(٣) انظر: أبو حامد الغزالي: فضائح الباطنية، ص١٤٢، والخميني: الحكومة الإسلامية، ص٥٢، ومن المفيد أن ننقل قول الخميني: «وإن من ضروريات مذهبنا أن لأئمتنا مقامًا لا يبلغه ملك مقرب ولا نبي مرسل، وبموجب ما لدينا من الروايات والأحاديث فإن الرسول الأعظم ﷺ والأئمة (ع) كانوا قبل هذا العالم أنوارًا، فجعلهم الله بعرشه محدقين، وجعل لهم من المنزلة والزلفى ما لا يعلمه إلا الله».

وهكذا نرى محمد بن تومرت قد اشتطَّ كثيرًا في القول بالعصمة لنفسه، وهذا - بلا شكٍّ- انحراف عقدي خطير؛ لأن الاعتراف بعصمته أو عصمة غيره يُوجب الإيمان بكل ما يقوله، فقد أعطاه ذلك معنى النبوة، وإن لم يُعطه لفظها.

ثانيًا: ادَّعى أن المرابطين من المجسِّمة:

كان المرابطون يُثبتون لله تعالى صفاته كما هي، لكن محمد بن تومرت أخذ فكر المعتزلة في نفي الصفات عن الله ﷻ، وهي قضية جدليَّة طويلة لا نُريد الخوض في تفصيلاتها، وخلاصة الأمر في ذلك أنه لما أثبت أنَّ المرابطين يُثبتون الصفات لله ﷻ، ادَّعى أنهم من المجسمة؛ وتبعًا لهذا الادعاء فقد قال بكفر المرابطين، وادَّعى أن عليَّ بن يوسف بن تاشفين ومَنْ معه من الولاة والعلماء، ومَنْ يعمل تحت حكمهم ومَنْ يَرضى بحُكمهم، هو من الكافرين[1].

وهذا منحى خطير؛ إذ إنه كفَّر حُكَّام الدولة التي كان يعيش فيها، وهي دولة المرابطين التي تشمل بلاد الأندلس والمغرب العربي في ذلك الوقت.

فكان يقول لأتباعه: «واشتغِلُوا بتعليم التوحيد فإنه أساس دينكم، حتى تنفوا عن الخالق الشبيه والشريك والنقائص، والآفاق والحدود والجهات، ولا تجعلوه - سبحانه- في مكان أو جهة، فإنه تعالى موجود قبل الأمكنة والجهات، فمن جعله في جهة ومكان فقد جسَّمه، ومَنْ جسمه فقد جعله مخلوقًا، ومن جعله مخلوقًا فهو كعابد وثن»[2]. لقد تبنَّى ابن تومرت منهج المعتزلة في الأسماء والصفات؛ حيث نفى كل ما عساه أن يُوهم الشبه والمثلية لله سبحانه، حتى ولو كان ذلك من الأسماء والصفات الثابتة لله تعالى في الكتاب والسُّنَّة؛ ولهذا سَمَّى أصحابه بالموحدين؛ لأنهم في رأيه هم الذين يُوَحِّدُون الله لنفيهم الصفات عنه ﷻ، كما كان يُسَمِّي أتباعه

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٥٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٧.
(٢) ابن تومرت: أعز ما يُطلب، ص٢٠٤، نقلاً عن الصلابي: دولة الموحدين، ص٤١.

بالمؤمنين، ويقول لهم: «ما على وجه الأرض مَنْ يُؤمن إيمانكم»[١].

ثالثًا: استحلّ دماء المرابطين:

وتبعًا لهذا التكفير السابق لغير الموحدين استحلَّ محمد بن تومرت دماء المرابطين؛ ومِنْ ثَمَّ فقد أمر بالخروج عليهم وقتلهم، وأنه ليس هناك إثم في ذلك؛ بل إن في قتلهم إحرازًا لثواب عظيم[٢]، وهنا يَبرز أحد أخلاق محمد بن تومرت فقد كان متساهلاً في الدماء، وهي خاصية من خصائص الخوارج، الذين تَعَلَّم على أيدي بعضهم -كما ذكرنا- أثناء رحلته لطلب العلم.

كان ابن تومرت يهدف إلى هدم دولة المرابطين من جذورها، وبناء دولة الموحدين على أنقاضها مهما كَلَّفه ذلك؛ وقد استباح في سبيل ذلك الدماء والأرواح والأموال، وكانت غايته تلك مبرِّرَة -من وجهة نظره- لكل وسيلة، فكان لا يتردَّد في قتل مَنْ يشكُّ في إيمانه بما يدَّعيه من مبادئ، حتى ولو كان من أتباعه؛ فقد قام ابن تومرت بما سمِّي التمييز؛ أي: تمييز أتباعه الصادقين من المداهنين والمنافقين والمخالفين، فيقتلهم على الفور ليظلَّ صَفُّه قويًّا[٣].

ومن المعلوم أنَّ من أهمِّ مقاصد الشريعة الإسلامية الحفاظ على النفس، وما فعله هذا الآثِم إنما هو اعتداء بغير حقٍّ على أنفسٍ حرَّم الله إزهاقها، وفي فعله هذا انحراف واضحٌ عن الشرع، وارتكاب متعمَّد للكبائر، وقد قال الله تعالى: ﴿**وَمَنْ يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُتَعَمِّدًا فَجَزَاؤُهُ جَهَنَّمُ خَالِدًا فِيهَا وَغَضِبَ اللهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُ وَأَعَدَّ لَهُ عَذَابًا عَظِيمًا**﴾ [النساء: ٩٣].

يقول الحافظ ابن كثير في تفسيره لهذه الآية: وهذا تهديد شديد ووعيد أكيد لمن

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٥٥.

(٢) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٨.

(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ١٩٩، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٨.

تعاطى هذا الذنب العظيم، الذي هو مقرون بالشرك بالله في غير ما آية في كتاب الله؛ حيث يقول -سبحانه- في سورة الفرقان: ﴿وَالَّذِينَ لا يَدْعُونَ مَعَ اللهِ إِلَهًا آخَرَ وَلا يَقْتُلُونَ النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ [الفرقان: ٦٨]، وقال تعالى: ﴿قُلْ تَعَالَوْا أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ أَلاَّ تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا﴾ إلى أن قال: ﴿وَلا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللهُ إِلاَّ بِالْحَقِّ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾ [الأنعام: ١٥١]، والأحاديث في تحريم القتل كثيرة جدًّا... منها: «لَزَوَالُ الدُّنْيَا أَهْوَنُ عِنْدَ اللهِ مِنْ قَتْلِ رَجُلٍ مُسْلِمٍ(١)»(٢).

إن أمر القتل في غاية الخطورة ولا يستحلُّه إلاَّ مَنْ تجرَّد من كل معاني الأخلاق والرحمة ومن كل المعاني الإنسانية.

وفي البخاري ومسلم أن رسول الله ﷺ قال: «لاَ يَحِلُّ دَمُ امْرِئٍ مُسْلِمٍ يَشْهَدُ أَنْ لاَ إِلَهَ إِلاَّ اللهُ وَأَنِّي رَسُولُ اللهِ؛ إِلاَّ بِإِحْدَى ثَلاَثٍ: الثَّيِّبُ الزَّانِي، وَالنَّفْسُ بِالنَّفْسِ، وَالتَّارِكُ لِدِينِهِ الْمُفَارِقُ لِلْجَمَاعَةِ»(٣).

يقول الأستاذ سيد قطب رحمه الله: «إنها جريمة قتل لا لنفس فحسب -بغير حقٍّ- ولكنها -كذلك- جريمة قتل للوشيجة العزيزة الحبيبة الكريمة العظيمة التي أنشأها الله بين المسلم والمسلم، إنها تنكُّر للإيمان ذاته وللعقيدة نفسها؛ ومن ثَمَّ قُرنت بالشرك في مواضع كثيرة؛ واتجه بعضهم -ومنهم ابن عباس- إلى أنه لا توبة منها.. ولكن البعض الآخر استند إلى قوله تعالى: ﴿إِنَّ اللهَ لا يَغْفِرُ أَنْ يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَنْ يَشَاءُ﴾ [النساء: ٤٨]. فرجَا للقاتل التائب المغفرة.. وفسَّر الخلود بأنه الدهر الطويل. والذين تربَّوْا في مدرسة الإسلام الأولى، كانوا يَرَوْنَ

---

(١) رواه الترمذي: كتاب الديات، باب في تشديد قتل المؤمن (١٣٩٥) عن عبد الله بن عمرو رضي الله عنهما، والنسائي (٣٩٨٧)، وصححه الألباني انظر: صحيح الجامع (٥٠٧٧).

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٢/ ٣٧٦.

(٣) البخاري: كتاب الديات، باب قول الله تعالى: ﴿أَنَّ النَّفْسَ بِالنَّفْسِ﴾ (المائدة: ٤٥) (٦٤٨٤)، عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، ومسلم: كتاب القسامة، باب ما يباح به دم المسلم (١٦٧٦) واللفظ له.

قاتلي آبائهم وأبنائهم وإخوانهم -قبل إسلامهم- يمشون على الأرض -وقد دخلوا في الإسلام- فيهيج في نفوس بعضهم ما يهيج من المرارة، ولكنهم لا يُفَكِّرُون في قتلهم، لا يُفَكِّرُون مرَّة واحدة؛ ولا يخطر لهم هذا الخاطر في أشدِّ الحالات وجدًا ولذعًا ومرارة؛ بل إنهم لم يُفَكِّرُوا في إنقاصهم حقًّا واحدًا من حقوقهم، التي يُخَوِّلها لهم الإسلام»(١).

كان لا بُدَّ لنا من هذا الوقفة مع هذا الأمر الخطير؛ أمر الدماء التي استحلَّها هذا الآثم المخادع، أمَّا عملية التمييز التي سبق الإشارة إليها فقد استعان فيها ابن تومرت برجل على شاكلته يُسَمَّى أبو عبد الله بن محسن الونشريشي، وكان يُلَقِّبه بالبشير؛ إمعانًا في خداع الناس وإضلالهم، وقد طلب ابن تومرت من هذا الفاسق أن يُخفي علمه وحفظه للقرآن، ويظهر أمام القبائل كأنه مجنون يسيل لعابه على وجهه.

قال الذهبي: «فلمَّا كان عام تسعة عشر وخمسمائة (٥١٩ هـ) خرج يومًا، فقال: تعلمون أن البشير -يُريد الونشريشي- رجل أُمِّيٌّ، ولا يثبت على دابَّة، فقد جعله الله مُبَشِّرًا لكم، مُطَّلِعًا على أسراركم، وهو آية لكم قد حفظ القرآن، وتعلَّم الركوب، وقال: اقرأ. فقرأ الختمة في أربعة أيام، وركب حصانًا وساقه، فبُهِتُوا، وعَدُّوها آية لغباوتهم، فقام خطيبًا، وتلا: ﴿لِيَمِيزَ اللهُ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ﴾ [الأنفال: ٣٧]، وتلا: ﴿مِنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [آل عمران: ١١٠]، فهذا البشير مُطَّلع على الأنفس مُلْهَم، ونبيكم ﷺ يقول: «إِنَّ فِي هَذِهِ الأُمَّةِ مُحَدَّثِينَ، وَإِنَّ عُمَرَ مِنْهُمْ»(٢). وقد صَحِبَنَا أقوام أطلعه الله على سِرِّهم، ولا بُدَّ من النظر في أمرهم، وتَيَمُّمِ العدل فيهم،

(١) سيد قطب: في ظلال القرآن، ٢/ ٧٣٦.

(٢) والحديث رواه أبو هريرة ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «لَقَدْ كَانَ فِيمَا قَبْلَكُمْ مِنَ الأُمَمِ مُحَدَّثُونَ فَإِنْ يَكُ فِي أُمَّتِي أَحَدٌ فَإِنَّهُ عُمَرُ». البخاري: كتاب فضائل الصحابة، باب مناقب عمر بن الخطاب أبي حفص القرشي العدوي ﷺ (٣٤٨٦) واللفظ له، ومسلم: كتاب فضائل الصحابة ﷺ، باب من فضائل عمر ﷺ (٢٣٩٨).

ثم نودي في جبال المصامدة: مَنْ كان مطيعًا للإمام فليأت. فأقبلوا يهرعون، فكانوا يُعْرَضون على البشير، فيُخرج قومًا على يمينه، ويَعدُّهم من أهل الجنة، وقومًا على يساره، فيقول: هؤلاء شاكُّون في الأمر. وكان يُؤْتَى بالرجال منهم، فيقول: هذا تائب رُدُّوه على اليمين تاب البارحة. فيعترف بما قال، واتفقت له فيهم عجائب، حتى كان يُطلق أهل اليسار، وهم يعلمون أن مآلهم إلى القتل، فلا يفرُّ منهم أحد، وإذا تجمَّع منهم عدَّة، قتلهم قراباتُهم حتى يقتل الأخ أخاه!»[1].

وأورد ابن الأثير في كتابه (الكامل في التاريخ) هذا الأمر فقال: «وكان الونشريشي يلزم الاشتغال بالقرآن والعلم في السرِّ؛ بحيث لا يعلم أحدٌ ذلك منه، فلمَّا كان سنةُ تسع عشرة، وخاف المهدي -ابن تومرت- من أهل الجبل، خرج يومًا لصلاة الصبح، فرأى إلى جانب محرابه إنسانًا حسن الثياب، طيب الريح، فأظهر أنه لا يعرفه، وقال: مَنْ هذا؟ فقال: أنا أبو عبد الله الونشريشي. فقال له المهدي: إن أمرك لعجبٌ! ثم صلَّى، فلما فرغ من صلاته نادى في الناس فحضروا، فقال: إنَّ هذا الرجل يزعم أنه الونشريشي فانظروه، وحقِّقُوا أمره. فلما أضاء النهار عرفوه، فقال له المهدي: ما قِصَّتُك؟ قال: إنني أتاني الليلة مَلَكٌ من السماء، فغسل قلبي، وعَلَّمَنِي الله القرآن والموطأ، وغيره من العلوم والأحاديث. فبكى المهدي بحضرة الناس، ثم قال له: نحن نمتحنك. فقال: افعل.

وابتدأ يقرأ القرآن قراءة حسنة من أيِّ موضع سُئِلَ، وكذلك الموطأ، وغيره من كتب الفقه والأصول، فعَجِبَ الناسُ من ذلك، واستعظموه، ثم قال لهم: إن الله تعالى قد أعطاني نورًا أعرف به أهل الجنة من أهل النار، وآمركم أن تقتلوا أهل النار، وتتركوا أهل الجنة، وقد أنزل الله تعالى ملائكة إلى البئر التي في المكان الفلاني يشهدون بصدقي.

(١) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٤٦.

فسار المهدي والناس معه وهم يبكون إلى تلك البئر، وصَلَّى المهدي عند رأسها، وقال: يا ملائكة الله؛ إن أبا عبد الله الونشريشي قد زعم كيت وكيت. فقال مَنْ بها: صدق. وكان قد وضع فيها رجالاً يشهدون بذلك، فلمَّا قيل ذلك من البئر، قال المهدي: إن هذه مطهرة مقدسة قد نزل إليها الملائكة، والمصلحة أن تُطَمَّ لئلاَّ يقع فيها نجاسة، أو ما لا يجوز. فألقَوْا فيها من الحجارة والتراب ما طَمَّهَا -وبهذا يكون قد قتل الرجال الذين اتَّفق معهم على هذا القول؛ لئلاَّ يُفْتَضح أمره- ثم نادى في أهل الجبل بالحضور إلى ذلك المكان، فحضروا للتمييز، فكان الونشريشي يعمد إلى الرجل الذي يخاف ناحيته، فيقول: هذا من أهل النار. فيُلْقَى من الجبل مقتولاً، وإلى الشاب الغرِّ ومَنْ لا يخشى، فيقول: هذا من أهل الجنة. فيُتْرَك على يمينه، فكان عدة القتلى سبعين ألفًا، فلما فرغ من ذلك أَمِنَ على نفسه وأصحابه»[1].

هذا فِعْلُ ابن تومرت بمَنْ معه، فكيف يكون فعله بالمرابطين؟!

ولقد رُويت عنه كثير من الأخبار التي احتال فيها؛ حتى ظهر وكأنه يعلم الغيب، ولا نشك أن له عيونًا وأتباعًا، كما لا شك في أنه شخصية قوية ذات بصر وخبرة وفراسة، يروي المراكشي واقعة منها فيقول: «أخبرني مَنْ رآه -ممن أثق إليه- يضرب الناسَ على الخمر بالأكمام والنعال وعسب النخل؛ متشبِّهًا في ذلك بالصحابة. ولقد أخبرني بعض مَنْ شهده وقد أتى برجل سكران، فأمر بحدِّه، فقال: رجلٌ من وجوه أصحابه يُسَمَّى يوسف بن سليمان: لو شدَّدْنَا عليه حتى يُخبرنا من أين شربها لنَحْسم هذه العلةَ من أصلها. فأَعْرَض عنه، ثم أعاد عليه الحديث، فأعرض عنه، فلما كان في الثالثة قال له: أرأيت لو قال لنا: شربتُها في دار يوسف بن سليمان. ما نحن صانعون؟ فاستحيا الرجل وسكت، ثم كُشِفَ على الأمر، فإذا عبيدُ ذلك الرجل سقَوه، فكان هذا من جملة ما زادهم به فتنة وتعظيمًا،

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ١٩٨، ١٩٩.

إلى أشياءَ كان يُخبر بها فتقع كما يُخبر، ولم يزل كذلك وأحوالُه صالحة، وأصحابه ظاهرون، وأحوال المرابطين المذكورين تَخْتَلُّ، وانتقاض دولتهم يتزيد، إلى أن تُوُفِّيَ ابن تومرت... بعد أن أسس الأمور، وأحكم التدبير، ورسم لهم ما هم فاعلوه»[١].

كذلك يروي الذهبي في سير أعلام النبلاء: «وقد بلغني فيما يُقال: أن ابنَ تُومرت أخفى رجالاً في قبور دَوَارِسَ[٢]، وجاء في جماعة لِيُرِيهم آية، يعني فصاحَ: أَيُّها الموتى أجيبوا. فأجابوه: أنتَ المهدي المعصومُ، وأنت وأنت.. ثم إنه خاف من انتشارِ الحيلة، فخسف فوقهم القبور فماتوا»[٣].

وقفة مع محمد بن تومرت وجماعته الموحِّدة

في جماعته الجديدة كان محمد بن تومرت يقتل العشرات من المخالفين له، حتى من فرقته وجماعته (الموحدين)، فالذي يُخَالِفُه في الرأي ليس له من دواء إلاَّ القتل، وهو أمر في غاية الغرابة؛ نظرًا لما عنده من العلم الغزير، وأغرب منه كان ادعاؤه بعض الخوارق، وأنه هو المهدي المنتظر!

ولا شكَّ في أنْ يعتقدَ صِدْقَه وما يذهب إليه من أقواله تلك كثيرٌ من الناس؛ وذلك -كما ذكرنا- لانشغال علماء الدولة بالأمور الفرعية عن تعليم هؤلاء الناس أصول العقائد وأصول العبادات، فقد أقام العلماء جدارًا عازلاً بينهم وبين العامَّة، الذين لا يعرفون أين الحقُّ وأين الباطل، والذين لا يستطيعون أن يُمَيِّزُوا بين الغثِّ والسمين.

ومن هنا حين رأى مثل هؤلاء الناس رجلاً مثل محمد بن تومرت في شخص

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٠-٢٦٢.

(٢) دوارس جمع دارس: وهو العافي وذهاب الأثر ومتقادم العهد. ابن منظور: لسان العرب، مادة درس ٦/ ٧٩، والمعجم الوسيط ١/ ٢٧٩.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ١٩/ ٥٥١.

العالم الكبير، وهو يروي من أحاديث رسول الله ﷺ عن فلان وفلان، ثم هـو يحفـظ كتاب الله، ويعلم سِيَرَ الصالحين والسابقين، ويعلم فقه كذا وكذا، حين رأوا ذلك ما كان منهم إلا أن يسمعوا ويطيعوا لما يقوله، وما يمليه عليهم عالمهم ومعلمهم، وقد اعتقدوا جميعًا بعصمته، واعتقدوا جميعًا بِحلِّ قتل المرابطين، بل والثواب الجزيل على قتلهم.

ولنا أن نتخيَّل مثل هذا الأمر في حقِّ المرابطين، الذين فتحوا البلاد، وأقاموا صرح الإسلام في بلاد المغرب والأندلس لسنوات وسنوات، الآن وبعد ظهور بعض المنكرات في بلادهم، وبعد انشغالهم بالجهاد عن التعليم، أصبحوا يُكَفِّرون وتُحَلُّ دماؤهم، ويُقَاتَلون من قِبَلِ جماعة الموحِّدِين، ذلك الاسم (الموحِّدين) الذي يُشير بقوَّة إلى أن غيرهم كفار وليسوا بموحدين أو مسلمين.

* * *

الفصل الثاني

عبد المؤمن بن علي وتأسيس دولة الموحدين

المرابطون والموحدون وقتال الأعداء

حمل محمد بن تومرت على عاتقه وعاتق جماعته -الموحدين- أمر مقاتلة المرابطين وسفك دمهم، يقول ابن خلدون ملخصًا معارك المرابطين والموحدين: «ولما تمَّ له (محمد بن تومرت) خمسون من أصحابه سمَّاهم ايت الخمسين، وزحف إليهم عامل السوس أبو بكر بن محمد اللمتوني بمكانهم من هرغة، فاستجاشوا بإخوانهم من هنتاتة وتينملل، فاجتمعوا إليه، وأوقعوا بعسكر لمتونة، فكانت هزمة الفتح، وكان الإمام (أي: ابن تومرت) يَعِدُهم بذلك، فاستبصروا في أمره (أي تأكدوا من صدق ابن تومرت)، وتسابق كافتهم إلى الدخول في دعوته، وتردَّدت عساكر لمتونة إليهم مرَّة بعد أخرى ففضُّوهم... وكانوا يُسَمّون لمتونة الحشم، فاعتزم على غزوهم، وجمع كافَّة أهل دعوته من المصامدة، وزحف إليهم فلقوه بكيك، وهزمهم الموحدون واتبعوهم إلى أغمات، فلقيهم هنالك زحوف لمتونة مع بكر بن علي بن يوسف، وإبراهيم بن تاعباشت، فهزمهم الموحدون...»[1].

لقد استطاع ابن تومرت أن يتحصن في تينملل وأنْ يُخرج منها الجيوش التي تفتك بالدولة المرابطية، ولقد استطاع بطبيعة الحال أن يُوَسِّع الأرض التي حوله

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٨.

والتي ينطلق منها، ولقد التقوا مع المرابطين في مواقع عديدة؛ كان منها تسع مواقع ضخمة، انتهت سبع منها بانتصارهم على المرابطين، وهُزموا في اثنتين.

وأكبر هزائمهم كانت حين استفحل خطرهم فجهز لهم علي بن يوسف بن تاشفين جيشًا كبيرًا، ثم خرج من الموحدين جيش كبير على قيادته عبد المؤمن بن علي، يروي عبد الواحد المراكشي كيف سارت المعركة فيقول: «ولما كانت سنة ٥١٧ جهز جيشًا عظيمًا من المصامدة، جُلُّهُم من أهل تينملل مع مَنِ انضاف إليهم من أهل سوس، وقال لهم: اقصدوا هؤلاء المارقين المبدِّلِينَ، الذين تسمَّوْا بالمرابطين، فادعوهم إلى إماتة المنكر وإحياء المعروف، وإزالة البدع، والإقرار بالإمام المهدي المعصوم، فإن أجابوكم فهم إخوانكم، لكم ما لهم وعليهم ما عليكم، وإن لم يفعلوا فقاتلوهم؛ فقد أباحت لكم السُّنَّة قتالهم. وأمَّر على الجيش عبد المؤمن بن علي وقال: أنتم المؤمنون، وهذا أميركم. فاستحقَّ عبد المؤمن من يومئذ اسم إمرة المؤمنين.

وخرجوا قاصدين مدينة مراكش، فلقيهم المرابطون قريبًا منها بموضع يدعى البحيرة، بجيش ضخم من سراة لمتونة، أميرهم الزبير بن علي بن يوسف بن تاشفين، فلمَّا تراءى الجمعان، أرسل إليهم المصامدة (من الموحدين) يدعونهم إلى ما أمرهم به ابن تومرت، فردُّوا عليهم أسوأ ردٍّ، وكتب عبد المؤمن إلى أمير المسلمين علي بن يوسف بما عهد إليه محمد بن تومرت، فردَّ عليه أمير المسلمين يُحَذِّره عاقبة مفارقة الجماعة، ويُذَكِّرُه الله في سفك الدماء وإثارة الفتنة، فلم يردع ذلك عبد المؤمن؛ بل زاده طمعًا في المرابطين، وَحَقَّق عنده ضعفهم، فالتقت الفئتان، فانهزم المصامدة وقُتِلَ منهم خلق كثير، ونجا عبد المؤمن في نفر من أصحابه، فلمَّا جاء الخبر لابن تومرت، قال: أليس قد نجا عبد المؤمن؟ قالوا: نعم. قال: لم يُفقد أحد»[1].

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٥٩.

وقفة مع تاريخ محمد بن تومرت

الحقيقة أن سيرة هذا الرجل فيها خلط كثير جدًّا، وتفاصيل كثيرة متشابكة في معظم الأحيان، وهي على تشابكها تتنافر وتتجاذب، فلا يدري المرء أي الأحداث أصدق، أو أيها أسبق، وبخاصة أن القدماء الذين كتبوا عن هذا الرجل لم يُؤَرِّخوا بدقَّة له أو للأحداث في عهده، اللهم إلا في القليل جدًّا، وهذا أمر يُعذرون فيه؛ إذ إن الظروف التي أحاطت بالرجل، أو التي أحاط نفسه بها -عن قصد أو غيرِه- تَحُولُ دون الدقَّة في الإخبار عنه؛ فلقد كان على غرابته ووحدته وصمته، دائم الترحال، ولم يستقرّ إلا في منطقة جبلية وعرة وحصينة؛ بل منهم مَن يقول: إنه استقر حينًا في منطقة وعرة، ثم ارتحل عنها بعد قليل (ثلاث سنوات تقريبًا) لمنطقة أخرى كانت أكثر حصانة منها ووعورة، وأشدَّ قسوة على أهلها ومَنْ راموهم بسوء، وهذا هو الأرجح، ولقد اعتمد على ساكني هذه المناطق في دعوته، ولنا أن نتوقَّع حال مَنْ يسكن هذه المناطق وعقلياتهم، بل يكفينا أن نتذكَّر أنهم ساروا خلفه رغم ادعائه الهدى والعصمة، ورغم ما فعله بهم يوم التمييز، ثم إنه قتل في يوم التمييز كلَّ مَنْ كان يخافه على نفسه ودعوته وأتباعه من أهل الفهم بين هؤلاء القوم، وقتلهم بأيدي أهليهم، بل إن مِن المصادر مَن يذكر أن هؤلاء الذين قُتلوا لم يحاولوا الهرب، وانتظروا حتى قتلهم أهلوهم، وإن كان ثمة مصادر أخرى ذكرت ما يختلف عن هذا؛ فمنهم مَن قال: إنه متى ذُكر أن فلانًا من أهل النار يُكَتَّف ثم يقتل. ومنهم من ذكر أنه كان يُلْقَى من أعلى الجبل في ساعتها، ومنهم.. ومنهم.. المهم أن أهل الفهم مِنْ هؤلاء لم يكونوا علماء، ولكنهم كانوا قومًا قد لا يصدقون كذبه وادعاءه، وينشرون ذلك بفطرتهم، فيُثَبِّطون به العزائم من حوله أو ما شابه؛ لهذا فإن المرء لا يَعْجَبُ إذا وجد أن كتاب (أخبار المهدي ابن تومرت) لأبي بكر بن علي الصنهاجي الشهير بالبيذق -وقد كان من أتباع ابن تومرت المقربين، وسابع مَنْ بايعوه في

تينملل- لم يكن يذكر تواريخ كثير من الأحداث، بل ولا حتى عام حدوثها، حتى معارك ابن تومرت نفسها لم يكن الرجل يذكر تواريخها ولا سنة وقوعها، اللهم إلا ما ذكره على سبيل الإجمال في نهاية كتابه عن أهم ما حدث من سنة ٥١٨هـ إلى سنة ٥٢٧هـ، فهذا رجل كان من كبار أتباع ابن تومرت، ولا يهتم أن يسوق الحدث ومعه تاريخ وقوعه؛ لذلك فإن المؤرخين معذورون في وقوع هذا الخلط.

موقعة البحيرة أو البستان:

كانت موقعة البحيرة أو موقعة البستان سنة (٥٢٤هـ=١١٣٠م)، انتصر فيها المرابطون على الموحدين، وقُتِلَ فيها من الموحدين أربعون ألفًا، وهذه المعركة - البستان أو البحيرة- هي التي سُبقت بحادث التمييز؛ حيث قام ابن تومرت بقتل كلِّ مَنْ يشُكُّ في ولائه له، بل جعل أهلَهم وأقرباءهم هم الذين يقتلونهم، كما سبق الإشارة إلى هذا الأمر.

قال ابن الأثير: «فجهَّز المهدي -ابن تومرت- جيشًا كثيفًا يبلغون أربعين ألفًا، أكثرهم رجَّالة، وجعل عليهم الونشريشي، وسَيَّر معهم عبد المؤمن، فنزلوا وساروا إلى مَرَّاكُش فحصروها، وضيَّقوا عليها، وبها أمير المسلمين علي بن يوسف، فبقي الحصار عليها عشرين يومًا، فأرسل أمير المسلمين إلى متولِّي سِجِلْمَاسة يأمره أن يحضر ومعه الجيوش، فجمع جيشًا كثيرًا وسار، فلما قارب عسكر المهدي خرج أهل مَرَّاكُش من غير الجهة التي أقبل منها، فاقتتلوا واشتدَّ القتال، وكثر القتل في أصحاب المهدي، فقُتِلَ الونشريشي أميرهم، فاجتمعوا إلى عبد المؤمن وجعلوه أميرًا عليهم. ولم يزل القتال بينهم عامَّة النهار، وصَلَّى عبد المؤمن صلاة الخوف؛ الظهر والعصر، والحربُ قائمة، ولم تُصَلَّ بالمغرب قبل ذلك، فلما رأى المصامدة كثرة المرابطين وقوَّتهم، أسندوا ظهورهم إلى بستان كبير هناك -والبستان يُسَمَّى عندهم البحيرة؛ فلهذا قيل: وقعة البحيرة، وعام البحيرة- وصاروا يُقاتلون من جهة

واحدة إلى أن أدركهم الليل، وقد قُتِلَ من المصامدة أكثرهم، وحين قُتل الونشريشي دفنه عبد المؤمن، فطلبه المصامدة، فلم يَرَوْه في القتلى، فقالوا: رفعته الملائكة. ولما جنَّهم الليل سار عبد المؤمن ومَنْ سلم من القتلى إلى الجبل»[١].

لم تَفُتَّ هذه الهزيمة في عضد ابن تومرت، ولم يُصبه اليأس، وإن كان أصحابه قد بدءوا يَشُكُّون في مهديَّته المزعومة؛ فلجأ نتيجة لذلك إلى الحيلة والكذب؛ ليبعث الأمل من جديد في نفوس أصحابه، ويُوهمهم بأنهم على الحقِّ، وأن هؤلاء الملثَّمِينَ على الباطل، ولا بُدَّ أن يُهزموا.

يقول المراكشي في المعجب: «ولما رجع القوم إلى ابن تومرت، جعل يُهَوِّن عليهم أمر الهزيمة، ويُقَرِّر عندهم أن قتلاهم شهداء؛ لأنهم ذابُّون عن دين الله، مُظهرون للسُّنَّة؛ فزادهم ذلك بصيرةً في أمرهم، وحرصًا على لقاء عدوِّهم، ومن حينئذٍ جعل المصامدة يشنُّون الغارات على نواحي مَرَّاكُش، ويقطعون عنها موادَّ المعايش وموصول المرافق، ويقتلون ويَسْبُون، ولا يُبْقُون على أحد ممن قَدروا عليه؛ وكثر الداخلون في طاعتهم والمُنْحَاشون إليهم، وابن تومرت في ذلك كله يُكثر التزهُّد والتقلُّل، ويُظهر التشبُّه بالصالحين، والتشدُّد في إقامة الحدود؛ جاريًا في ذلك على السُّنَّة الأُولى»[٢].

لم يلبث ابن تومرت أن تُوُفِّيَ بعد معركة البحيرة هذه، تاركًا أصحابه بعد أن أمَّر عليهم عبد المؤمن، ولما مات كَفَّنه عبد المؤمن بن علي وصَلَّى عليه، ودفنه بمسجده[٣].

وهكذا انتهت حياة ابن تومرت ومصير دعوته مجهول؛ بسبب هذه الهزيمة

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٢٠٠.
(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٠-٢٦٢.
(٣) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٢٩.

الشديدة التي نزلت بأتباعه في موقعة البحيرة، ولكنه قد نجح مع ذلك في ترسيخ دعوته في قلوبهم، حتى صَدَّقُوه وآمنوا بمهديَّتِه، وأطاعوه ولو في قتل أبنائهم؛ كما حصل في حادثة التمييز التي تقشعر لها الأبدان؛ حيث قتلت كل قبيلة أبناءها دون أن يُصِيبها التردُّد أو الحيرة.

وصية ابن تومرت والبيعة لعبد المؤمن:

ومن عجيب ما ينقل المراكشي في (المعجب) أن ابن تومرت قبل موته بأيام يسيرة استدعى هؤلاء المسمَّيْنَ بالجماعة، وأهل خمسين، وهم من قبائل متفرِّقة، لا يجمعهم إلا اسم المصامدة، فلمَّا حضروا بين يديه قام -وكان متكئًا- فحمد الله وأثنى عليه بما هو أهله، وصلى على محمد نبيه ﷺ، ثم أنشأ يترضَّى عن الخلفاء الراشدين -رضوان الله عليهم- ويذكر ما كانوا عليه من الثبات في دينهم، والعزيمة في أمرهم، وأن أحدهم كانت لا تأخذه في الله لومة لائم، وذَكَر مِن حَدِّ عمر ﵁ ابنَه في الخمر، وتصميمه على الحقِّ في أشباهٍ لهذه الفصول، ثم قال: فانقرضت هذه العصابة - نضَّر الله وجوهها، وشكر لها سعيها، وجزاها خيرًا عن أُمَّةِ نَبِيِّهَا- وخبطت الناس فتنةٌ تركت الحليم حيران، والعالم متجاهلاً مُداهنًا، فلم ينتفع العلماء بعلمهم، بل قصدوا به الملوك، واجتلبوا به الدنيا، وأمالوا وجوه الناس إليهم... ثم إنَّ الله - سبحانه وله الحمد - مَنَّ عليكم أيتها الطائفة بتأييده، وخَصَّكم من بين أهل هذا العصر بحقيقة توحيده، وقيَّض لكم من أَلْفَاكُم ضُلاَّلاً لا تهتدون، وعُمْيًا لا تُبصرون؛ لا تعرفون معروفًا، ولا تُنكرون منكرًا، قد فَشَتْ فيكم البدع، واستهوتكم الأباطيل، وزَيَّنَ لكم الشيطان أضاليلَ وتُرَّهاتٍ أُنَزِّه لساني عن النطق بها، وأَرْبَأُ بلفظي عن ذِكْرِهَا، فهداكم الله به بعد الضلالة، وبَصَّركم بعد العمى، وجمعكم بعد الفُرقة، وأعزَّكم بعد الذِّلة، ورفع عنكم سلطان هؤلاء المارقين، وسيُورثكم أرضَهم وديارهم، ذلك بما كسبته أيديهم، وأضمرته قلوبهم،

وما ربك بظلام للعبيد؛ فجدِّدوا لله -سبحانه- خالصَ نيَّاتكم، وأَروه من الشكر قولاً وفعلاً ما يُزَكِّي به سعيكم، ويتقبَّلُ أعمالكم وينشر أمركم، واحذروا الفُرقة واختلاف الكلمة وشتاتَ الآراء، وكُونُوا يدًا واحدة على عدوِّكم؛ فإنكم إن فعلتم ذلك هابكم الناس، وأسرعوا إلى طاعتكم، وكثر أتباعكم، وأظهر الله الحقَّ على أيديكم، وإلاَّ تفعلوا شَمِلَكم الذلُّ، وعَمَّكم الصَّغَارُ، واحتقرتكم العامَّة، فتَخَطَّفَتْكم الخاصَّة، وعليكم في جميع أموركم بمزج الرأفة بالغلظة، واللين بالعنف، واعلموا مع هذا أنه لا يَصلح أمرُ آخرِ هذه الأُمَّة إلاَّ على الذي صلح عليه أمرُ أوَّلها، وقد اخترنا لكم رجلاً منكم، وجعلناه أميرًا عليكم، هذا بعد أن بَلَوناه في جميع أحواله، من ليله ونهاره، ومدخله ومخرجه، واختبرنا سريرته وعلانيته، فرأيناهُ في ذلك كله ثَبْتًا في دينه، مُتَبَصِّرًا في أمره، وإني لأرجو ألاَّ يُخلف الظنَّ فيه، وهذا المشار إليه هو عبد المؤمن، فاسمعوا له وأطيعوا ما دام سامعًا مطيعًا لربه، فإن بدَّل أو نكص على عقبه، أو ارتاب في أَمْرِه ففي الموحِّدين -أعزَّهم الله- بركةٌ وخير كثير، والأَمْرُ أمرُ الله يُقَلِّده من شاء من عباده.

فبايع القوم عبد المؤمن، ودعا لهم ابن تومرت، ومسح وجوههم وصدورهم واحدًا واحدًا؛ فهذا سبب إمرة عبد المؤمن رحمه الله؛ ثم تُوُفِّيَ ابن تومرت بعد عهده هذا بيسير، واجتمع أمر المصامدة على عبد المؤمن[1].

أول خلفاء دولة الموحدين

وفي سنة (٥٤١هـ=١١٤٦م) بزغ نجم دولة الموحدين، وكان أَوَّل حُكَّامها عبد المؤمن بن عليٍّ (٤٨٧-٥٥٨هـ=١٠٩٤-١١٦٣م) صاحب محمد بن تومرت، والرجل الثاني بعد ابن تومرت المؤسِّس الحقيقي والفعلي لجماعة الموحدين.

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٢-٢٦٤.

وهو عبد المؤمن بن علي بن مخلوف بن يعلى بن مروان، أبو محمد الكومي، نسبته إلى كومية (من قبائل الأمازيغ البربر). ولو أنه -أيضًا- كان ينسب نفسه إلى العرب من مضر[1]. وُلِدَ في مدينة تاجرت بالمغرب قرب تِلِمْسَان، ونشأ فيها طالب علم، وأبوه صانع فخَّار[2].

ويصف عبد الواحد المراكشي عبدَ المؤمن بن عليٍّ فيقول: وكان أبيض ذا جسمٍ عممٍ، تعلوه حمرة، شديدَ سواد الشعر، معتدل القامة، وضيءَ الوجه، جَهْوَرِيَّ الصوتِ، فصيح الألفاظ، جَزْل المنطق، وكان محبَّبًا إلى النفوس، لا يراه أحدٌ إلا أحبَّه بديهة؛ وبلغني أن ابن تومرت كان يُنشد كلما رآه: [البسيط]

تَكَامَلَتْ فِيكَ أَخْلاقٌ خُصِصْتَ بِهَا ... فَكُلُّنَا بِكَ مَسْرُورٌ وَمُغْتَبِطُ
فَالسِّنُّ ضَاحِكَةٌ وَالْكَفُّ مَانِحَةٌ ... وَالصَّدْرُ مُنْشَرِحٌ وَالْوَجْهُ مُنْبَسِطُ[3]

وذكر الذهبي في كتابه العبر، وابن العماد في شذرات الذهب أنه كان ملكًا عادلاً، سائسًا، عظيم الهيبة، عالي الهمة، متين الديانة، كثير المحاسن، قليل المِثْل، وكان يقرأ كلَّ يوم سُبُعًا من القرآن العظيم، ويجتنب لبس الحرير -وهذا يعني أنَّ لبس الحرير كان عادة وإلفًا في زمانه- وكان يصوم الاثنين والخميس، ويهتمُّ بالجهاد والنظر في المُلْك كأنما خُلق له. ثم بعد هذه الأوصاف نجد هذه العبارة التي تحمل كثيرًا من علامات الاستفهام حيث يقول: وكان سفَّاكًا لدماء مَنْ خالفه[4]!

وقال عنه الزركلي في الأعلام: وكان عاقلاً حازمًا شجاعًا مُوَفَّقًا، كثير البذل للأموال، شديد العقاب على الجرم الصغير، عظيم الاهتمام بشئون الدين، محبًّا للغزو

(1) انظر: تاريخ ابن خلدون، 6/ 126، وعبد الواحد المراكشي: المعجب، ص265، السلاوي: الاستقصا 2/ 99.
(2) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص265، والسلاوي: الاستقصا، 2/ 99.
(3) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص266.
(4) ابن العماد: شذرات الذهب، 4/ 183، والذهبي: العبر 3/ 29.

والفتوح، خضع له المَغْرِبَان (الأقصى والأوسط)، واستولى على إِشْبِيلِيَة، وقُرْطُبَة، وغَرْنَاطَة، والجزائر، والمهدية، وطَرَابُلُس الغرب، وسائر بلاد إفريقية، وأنشأ الأساطيل، وضرب الخراج على قبائل المغرب، وهو أول مَنْ فعل ذلك هنالك[1].

ومثل هذه الأوصاف ذكرها ابن كثير -أيضًا- في البداية والنهاية، بقوله: «وكان مَنْ لا يحافظ على الصلوات في زمانه يُقتل، وكان إذا أَذَّن المؤذن وقبل الأذان يزدحم الخلق في المساجد... ولكن كان سفاكًا للدماء، حتى على الذنب الصغير»[2]. وهذه بالطبع هي تعاليم محمد بن تومرت.

وإضافة إلى هذا المنهج العقيم وتلك الصفة السابقة -التساهل في أمر الدماء- فقد كان محمد بن تومرت حين يعلم أن أتباعه ينظرون إلى الغنائم، التي حصَّلوها من دولة المرابطين في حربهم معهم، كان يأخذها كلها فيحرقها[3].. وكان يُعَذِّر بالضرب مَنْ يفوته قيام الليل من جماعته؛ فنشأت جماعة من الطائعين الزاهدين العابدين، لكن على غير نهج رسول الله ﷺ، الذي لم يكن يحرق الغنائم، أو يضرب المتباطئين أو المتثاقلين عن قيام الليل، أو يَتَّبع مثل هذا المنهج وتلك الرهبنة المتشدِّدَة.

وعلى كلٍّ فقد كان عبد المؤمن بن علي -على ما يبدو- غير مقتنع بفكرتَيِ العصمة والمهديَّة، اللتين ادَّعاهما محمد بن تومرت واقتنع بهما أتباعه من بعده؛ ويدفعنا إلى ذلك أن رجلاً بعلم وعقل عبد المؤمن لا شك علم -على الأقل بعد وفاة ابن تومرت- أنه ليس المهدي الذي ذكرت الأحاديث أنه يملأ الأرض عدلاً، ثم يتبعه نزول المسيح ابن مريم وما إلى ذلك من الحوادث، لكنه على الجانب الآخر

---

(١) الزركلي: الأعلام، ٤/ ١٧٠.

(٢) انظر: ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ٣٠٦.

(٣) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣٦/ ١٢٠.

فإن عبد المؤمن بن عليٍّ لم ينفِ مثل هذه الأفكار الضالَّة صراحة؛ وذلك لأن غالبَ شيوخ الموحِّدين كانوا على هذا الفكر وذلك الاعتقاد، فخاف -على ما يظهر- إن هو أعلن أن أفكار محمد بن تومرت هذه مخالفة للشرع، أن ينفرط العِقد ويحدث التفكُّك في هذه الفترة الحرجة من دولة الموحدين.

مشاهد من حياة عبد المؤمن بن علي:

نقل الذهبي في سير أعلام النبلاء عن عبد الواحد المراكشي قوله: أخبرني غير واحد ممن أرضى نقله، أنه (عبد المؤمن) لما نزل مدينة سلا - مدينة بأقصى المغرب ...- عبر النهر، وضُربت له خيمة على الشاطئ، وجعلت العساكر تعبر قبيلة بعد قبيلة... فخرَّ ساجدًا، ثم رفع وقد بلَّ الدمع لحيته... فقال: أعرف ثلاثة أشخاص وَرَدُوا هذه المدينَة لا شيء لهم إلاَّ رغيف واحد، فراموا عُبور هذا النهر، فأتوا صاحب القارب، وبَذَلُوا له الرغيف على أن يعبروا ثلاثتهم، فقال: لا آخذه إلا على اثنين خاصة. فقال لهم أحدهم وكان شابًّا جلدًا: خذا ثيابي معكما وأعبر أنا سباحة... فجعل الشاب يسبح، فكلما أعيا دنا من القارب ووضع يده عليه ليستريح، فيضربه صاحبه بالمجداف الذي معه حتى يؤلمه؛ فما بلغ البرَّ إلاَّ بعد جهد شديد. فما شكَّ السامعون للحكاية أنه هو العابر سباحة، وأن الاثنين المذكورين هما: ابن تومرت، وعبد الواحد الشرقي[1].

وكان لعبد المؤمن من الولد ستة عشر ذكرًا؛ وهم: محمد وهو أكبر ولده، ووليُّ عهده، وهو الذي خُلع بعد ذلك، وعلي، وعمر، ويوسف، وعثمان، وسليمان، ويحيى، وإسماعيل، والحسن، والحسين، وعبد الله، وعبد الرحمن، وعيسى، وموسى، وإبراهيم، ويعقوب[2].

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٩٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٠/ ٣٧٣.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٦.

الصراع المرير والسقوط المدوّي:

عاد عبد المؤمن بن علي إلى تينملل بعد موقعة البحيرة -التي سبقت الإشارة إليها- ثم مات ابن تومرت بعد ذلك بقليل، فبُويع من بعده عبد المؤمن بن علي، وأقام في تينملل فترة يتألَّف القلوب، ويُحسن إلى الناس، وكان جوادًا مقدامًا في الحروب، ثابتًا في الشدائد.

وفي سنة (٥٢٨هـ) جهَّز عبد المؤمن جيشًا كبيرًا، وقاده إلى مدينة تادَلة، ودارت بينه وبين أهلها حرب، انتهت بانتصار عبد المؤمن بن علي، ودخول المدينَة عَنْوة، وسار بعدها في الجبال يفتح المدن التي تليها.

وفي سنة (٥٣١هـ) تُوُفِّيَ وليُّ العهد سير بن علي بن يوسف، فاستدعى علي بن يوسف ابنه تاشفين من الأندلس، وكان أميرًا عليها، وجعله وليَّ عهده، ثم قلَّده أبوه بعد ذلك قيادة جيش قوي، وأرسله لمحاربة عبد المؤمن، فسار بالجيش في الصحراء قبالة جيش عبد المؤمن، الذي كان يسير في الجبال، وكانت تَحْدُث بينهما مناوشات من وقت لآخر، ولكن لم تَحْدُث بينهما حروب أو معارك كبيرة.

وفي شتاء سنة (٥٣٣هـ) وصل عبد المؤمن إلى جبل كرناطة، فنزل في أرض صلبة بين شجر، ونزل تاشفين مقابل عبد المؤمن في سهل لا نبات فيه، وفي أثناء ذلك توالى هطول الأمطار أيامًا، فصارت الأرض التي فيها تاشفين وأصحابه كثيرة الوحل، تسوخ فيها قوائم الخيل إلى صدورها، ويعجز الرجل عن المشي فيها، وَسَدَّت المياهُ الطرق؛ حتى انقطعت عن تاشفين وجيشه الإمدادات، فكانوا إذا أرادوا نارًا لم يجدوا إلاَّ رماحهم لِيُوقدوا بها النار، وأنهكهم الجوع والبرد وسوء الحال.

وكان عبد المؤمن وأصحابه في أرض خشنة صلبة في الجبل، لا يُبالون بشيء،

والإمدادات مُتَّصلة إليهم، فاستغلَّ ذلك عبد المؤمن وأرسل جيشًا في ذلك الوقت إلى وجرة من أعمال تِلِمْسَان، وقَدَّم عليهم أبا عبد الله محمد بن رقو، وهو من أهل الخمسين، فبلغ خبرهم إلى محمد بن يحيى بن فانوا (والي تِلِمْسَان من قِبَل المرابطين)، فخرج في جيش من المرابطين، فالتقوا بموضع يُعْرَفُ بخندق الخمر، فهزمهم جيش عبد المؤمن، وقُتِلَ محمد بن يحيى وكثير من أصحابه، وغنموا ما معهم ورجعوا، فتوجَّه عبد المؤمن بجميع جيشه إلى غمارة، فأطاعته قبائلها، وأقام عندهم مدَّة.

وظلَّ يسير بجيشه في الجبال، وتاشفين يُحاذيه في الصحارى، حتى تُوُفِّيَ أمير المسلمين علي بن يوسف بمَرَّاكُش، وخلفه ابنه تاشفين سنة (٥٣٥هـ)، فزاد طمع عبد المؤمن في البلاد، إلاَّ أنه ظلَّ مع ذلك معتصمًا بالجبال، ولم ينزل إلى الصحراء.

وفي سنة (٥٣٨هـ) توجَّه عبد المؤمن بجيشه إلى تِلِمْسَان للاستيلاء عليها، فسارع تاشفين لنجدتها، وعسكر الفريقان هناك دون حرب، اللهم إلا مناوشات بسيطة، وظلاَّ كذلك حتى سنة (٥٣٩هـ)، حتى رحل عبد المؤمن إلى جبل تَاجَرَة، ووجَّه جيشًا مع عمر الهِنْتَاتي إلى مدينة وهران، فهاجمها بغتة، واستولى عليها، فسمع بذلك تاشفين فسار إليها، فخرج منها عمر، ونزل تاشفين بظاهر وهران على البحر في شهر رمضان من السنة نفسها، وفي هذا الشهر قُتل تاشفين هناك، وصُلِبَتْ جُثَّتُه.

وقيل في سبب موته: إنه قصد حصنًا هناك على رابية، وله فيه بستان كبير، فيه من كلِّ الثمار، فاتفق أن عمر الهِنْتَاتي، أرسل سرية إلى ذلك الحصن، ولم يعلموا أن تاشفين فيه، فأشعلوا النار في بابه، فأراد تاشفين الهرب، فركب فرسه، فوثب الفرس من داخل الحصن إلى خارج السور، فسقط في النار، فأُخذ تاشفين فاعترف، فأرادوا حمله إلى عبد المؤمن، فمات في الحال بسبب إصابته، ثم صلبوه، وقُتِلَ كُلُّ مَنْ معه، وتفرَّق عسكره ولم يَعُدْ لهم جماعة، فتولَّى بعده أخوه إسحاق بن علي بن يوسف.

ولما قُتِلَ تاشفين أرسل عمر الهِنْتَاتي إلى عبد المؤمن بالخبر، فجاء من تاجَرَة في يومه بجميع جنوده، وتفرَّق عسكر تاشفين، واحتمى بعضهم بمدينة وهران، فلمَّا وصل عبد المؤمن دخلها بالسيف، وقتل فيها ما لا يُحصى، ثم سار عبد المؤمن إلى تاهَرْت وأقادير؛ فامتنعت أقادير وغَلَّقت أبوابها، وتأهَّب أهلها للقتال.

وأمَّا تاهَرْت فكان فيها يحيى ابن الصحراوية، فهرب منها بجنوده إلى مدينة فاس، وجاء عبد المؤمن إليها، فسارع إليه أهلها للدخول في طاعته، ولكنه لم يقبل منهم، وقتل أكثرهم، ودخلها ورتَّب أمرها، ورحل عنها تاركًا جيشًا يُحَاصِر أقادير.

وسار إلى مدينة فاس سنة (٥٤٠هـ) فحاصرها تسعة أشهر، وفيها يحيى ابن الصحراوية، وعسكره الذين فَرُّوا من تاهَرْت، فلما طال حصار المدينَة عمد عبد المؤمن إلى نهر يدخلها، فسَدَّه فترة، حتى إذا اجتمع الكثير من الماء فتح المجرى فجأة، فهدم سورها، وكُلَّ ما بجوار النهر من مبانٍ وإنشاءات، فلما أراد دخولها خرج إليه أهلها، وقاتلوه خارجها؛ فلم يتمكَّن من دخولها.

ثم عاد والي فاس وأعيانها فكاتبوا عبد المؤمن في طلب الأمان لأهل فاس، فأجابهم إليه، ففتحوا له بابًا من أبوبها، فدخلها جيشه في أواخر (٥٤٠هـ)، وهرب يحيى ابن الصحراوية، وسار إلى طَنْجَة، ورتَّب عبد المؤمن أمر مدينة فاس، وأمر فنُودِيَ في أهلها: مَنْ ترك عنده سلاحًا وعُدَّة قتال حلَّ دمه. فحمل كلُّ مَنْ في البلد ما عندهم من سلاح إليه، فأخذه منهم.

ولما فرغ عبد المؤمن من فاس وتلك النواحي، سار إلى مَرَّاكُش وهي عاصمة المرابطين، وكانت من أكبر المدن وأعظمها، وكان يحكمها حينئذٍ إسحاق بن علي بن يوسف بن تاشفين، وكان صبيًّا صغيرًا، فوصل مَرَّاكُش سنة (٥٤١هـ)، وعسكر على جبل صغير في غرب المدينَة، وبنى عليه مدينة له ولجنوده، وبنى بها جامعًا،

وبنى له بناءً عاليًا يُشرف منه على المدينَة، ويرى أحوال أهلها، وأحوال المقاتلين من أصحابه، وحاصرها أحد عشر شهرًا، قاتَلَ المدينةَ فيها قتالاً كثيرًا، كان المرابطون يخرجون فيه من المدينَة لقتال الموحدين، وأرهق الحصار عبد المؤمن، وقلَّ الطعام عنده، فعزم على أن ينصب كمينًا لأهل مَرَّاكُش ليُضعفهم به.

فأمر جنوده فزحفوا يومًا إلى مَرَّاكُش، فخرج إليهم جنود المرابطين كالعادة، فدارت بين الفريقين معركة شديدة، ثم انهزم الموحدون وفروا أمام المرابطين، فتبعهم المرابطون إلى المدينَة التي بناها عبد المؤمن له ولجنوده على الجبل، ودارت بين الفريقين معارك شديدة، وهُدمت أجزاء كبيرة من سور مدينة عبد المؤمن، وكان عبد المؤمن يُشاهد المعركة من أعلى البناء الموجود على الجبل، وكان قد اتَّفق مع رجاله أن ينهزموا أمام المرابطين، حتى إذا لحق بهم المرابطون أمر بضرب الطبول؛ فتخرج مجموعة أخرى من رجاله كانت مختبئة، لتُحيط بالمرابطين حتى تقضي عليهم، فلما اشتدَّت المعركة صاح الموحدون بعبد المؤمن ليأمر بضرب الطبول، فقال لهم: اصبروا حتى يخرج كل طامع في البلد، فلما خرج أكثر أهل مَرَّاكُش، أمر بضرب الطبول، فخرج الكمين عليهم، فقاتلوهم ودارت الدائرة على المرابطين، وقتلوا مقتلة عظيمة.

وبهذا ضعفت قوات المرابطين داخل مَرَّاكُش ضعفًا شديدًا، وكان إسحاق بن علي صبيًّا صغيرًا، وكان يُدير دولتَه مشايخُ المرابطين، فحدث أن أحدهم واسمه عبد الله بن أبي بكر خرج إلى عبد المؤمن مستأمنًا، وأطلعه على عوراتهم وضعفهم، فزاد طمع عبد المؤمن فيهم، وشدَّد عليهم الحصار، ونصب عليهم المنجنيقات والأبراج، حتى فنيت أقواتهم، وأكلوا دوابَّهم، ومات من العامَّة بالجوع ما يزيد على مائة ألف إنسان، فأنتن البلد من ريح الموتى.

وكان بمَرَّاكُش جيش من الفرنج كان المرابطون قد استنجدوا بهم، فجاءوا إليهم نجدة، فلما طال عليهم الأمر راسل الفرنج عبد المؤمن يسألونه الأمان،

فأجابهم إليه، ففتحوا له بابًا من أبواب البلد يقال له: باب أغمات. فدخلت عساكره بالسيف، وملكوا المدينَة عَنْوَة، وقتلوا مَنْ وَجَدُوا، ووصلوا إلى دار أمير المسلمين، فأخرجوا الأمير إسحاق وجميع مَنْ معه من أمراء المرابطين، فقُتِلُوا.

وكان إسحاق هذا صغيرًا؛ فلما قُبِضَ عليه، وخاف أن يُقْتَل أخذ يبكي ويدعو لعبد المؤمن ويتوسَّل إليه، فقام إليه الأمير سير بن الحاج، وكان مُقَيَّدًا إلى جانبه فبصق في وجهه، وقال: تبكي على أبيك وأمك؟ اصبر صبر الرجال، فهذا رجل لا يخاف الله، ولا يدين بدين. فقام الموحدون إليه بالخشب فضربوه حتى قتلوه -وكان من شجعان المرابطين، المعروفين بالإقدام- وقُدِّم إسحاق على صغر سنه، فضُربت عنقه سنة (٥٤٢هـ)، وكان آخر ملوك المرابطين، وكانت مدَّة ملكهم سبعين سنة، وَلِيَ منهم أربعة: يوسف، وعلي، وتاشفين، وإسحاق.

ولما فتح عبد المؤمن مَرَّاكُش أقام بها، وجعلها عاصمة لدولة الموحدين، وكان عبد المؤمن لما دخل مَرَّاكُش قد أكثر القتل في أهلها؛ فاختفى كثيرٌ من أهلها، فلما كان بعد سبعة أيام أمر فنُودِيَ بأمان مَنْ بَقِيَ من أهلها فخرجوا، فأراد أصحابُه قتلهم فمنعهم، وقال: هؤلاء صُنَّاع وأهل الأسواق مَنْ ننتفع به. فتُركوا، وأمر بإخراج القتلى من البلد، فأخرجوهم، وبنى بالقصر جامعًا كبيرًا، وزخرفه فأحسن عمله، وأمر بهدم الجامع الذي بناه أمير المسلمين يوسف بن تاشفين[١].

وقال عبد الواحد المراكشي في المعجب: ولم يزل عبد المؤمن -بعد وفاة ابن تومرت- يطوي الممالك مملكة مملكة، ويَدُوخ البلاد[٢] إلى أن ذَلَّت له البلاد وأطاعته العباد[٣].

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٢٠١، وما بعدها بتصرف.
(٢) داخَ البلادَ يَدُوخُها: قهرها واستولى على أهلها. ابن منظور: لسان العرب، مادة دوخ ٣/ ١٦.
(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٧٠.

وبنظرة إجمالية فإن عَدَدَ مَنْ قُتِلَ من المسلمين في المواقع التي دارت بين المرابطين والموحدين تجاوز عشرات الآلاف، وذلك في نحو ثمانٍ وعشرين سنة؛ من سنة (٥١٢هـ= ١١١٨م) وحتى قيام دولة الموحدين في سنة (٥٤١هـ= ١١٤٦م)، وقامت دولة الموحدين كما قامت دولة المرابطين من قبل، لكن على أشلاء الآلاف من المسلمين، وكان هذا هو الطريق الذي سلكه محمد بن تومرت ومَنْ معه، وكان هذا نهجهم في التغيير.

تداعيات سقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين:

متابعةً للأحداث بصورة متسلسلة فقد كان لسقوط دولة المرابطين وقيام دولة الموحدين في عام (٥٤١هـ= ١١٤٦م) ومقتل ما يربو على الثمانين ألف مسلم في بلاد الأندلس؛ نتيجة الحروب بينهما - كان لهذه الأحداث العظام تداعيات خطيرة على كلِّ بلاد المغرب العربي والأندلس، وما يهمُّنَا هنا هو ما حدث في الأندلس، فكان كما يلي:

أولاً: بعد قيام دولة الموحدين بعام واحد وفي سنة (٥٤٢هـ= ١١٤٧م) سقطت أَلَمَرِيَّة في أيدي النصارى، وهي تقع على ساحل البحر المتوسط في جنوب الأندلس؛ أي: هي بعيدة جدًّا عن ممالك النصارى، لكنها سقطت عن طريق البحر بمساعدة فرنسا.. وفي أَلَمَرِيَّة استُشْهِدَ آلافٌ من المسلمين، وسُبِيَتْ أكثر من أربعة عشر ألف فتاة مسلمة[1]، وفي هذا يقول المقري التلمساني: «وأُحْصِيَ عدد من سُبِيَ من أبكارها فكان أربعة عشر ألفًا»[2].

ثانيًا: بعد ذلك -أيضًا- بعام واحد وفي سنة (٥٤٣هـ= ١١٤٨م) سقطت

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٣٤٧، وعبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٧٩، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٤٦٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١١٨.

(٢) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٤٦٣.

طُرْطُوشة ثم لارِدَة في أيدي النصارى، وهما في مملكة سَرَقُسْطَة التي تقع في الشمال الشرقي، والتي كان قد حَرَّرها المرابطون قبل ذلك[١].

ثالثًا: وفي العام نفسه -أيضًا- توسَّعت مملكة البرتغال في الجنوب، وكانت من أشدِّ الممالك ضراوة وحربًا على المسلمين[٢].

رابعًا: بدأ النصارى يتخطَّوْن حدود الأندلس ويُهاجمون بلاد المغرب العربي، فاحْتُلَّت تونس في السنة ذاتها -أيضًا- من قِبل النصارى، وهي خارج بلاد الأندلس[٣].

ولقد كانت مثل هذه التداعيات شيئًا متوقَّعًا نتيجة الفتنة الكبيرة، والحروب التي دارت بين المسلمين في بلاد المغرب العربي.

* * *

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٩/ ٣٥٧، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١١٨.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٤/ ٥٢٦، ٥٢٧، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ١/ ٢٥٧.

(٣) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٩/ ٣٥٠، وتاريخ ابن خلدون، ٥/ ٢٠٣.



الفصل الثالث

عصر القوة في دولة الموحدين

أعمال عبد المؤمن بن عليٍّ في المغرب:

كان عبد المؤمن بن علي -كما ذكرنا- صاحب شخصية قوية، وصاحب فكر سياسي عالٍ؛ فبدأ وبطريقة عملية منظمة وشديدة في تأسيس وبناء دولته الفتيَّة الناشئة؛ فعمل على ما يلي:

أولاً: أنشأ الكثير من المدارس والمساجد، واهتم غاية الاهتمام بالتعليم والتثقيف، وكان -كما يقول عبد الواحد المراكشي- «مُؤْثِرًا لأهل العلم محبًّا لهم، محسنًا إليهم، يستدعيهم من البلاد إلى الكون[1] عنده والجوار بحضرته، ويُجري عليهم الأرزاق الواسعة، ويُظهر التنويه بهم، والإعظام لهم، وقسَّم الطلبة طائفتين طلبة الموحدين وطلبة الحضر، هذا بعد أن تسمَّى المصامدة بالموحدين؛ لتسمية ابن تومرت لهم بذلك؛ لأجل خوضهم في علم الاعتقاد، الذي لم يكن أحد من أهل ذلك الزمان في تلك الجهة يخوض في شيء منه»[2].

ثانيًا: عمل عبد المؤمن بن عليٍّ على إقران الخدمة العسكريَّة بالعلوم التثقيفية،

---

(١) الكَونْ عندي: أي الحضور إليه، وأن يكون عنده.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٦٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٤٥.

وأنشأ معسكرًا بقصره لتدريس وتعليم وتخريج رجال السياسة والحُكم، وكان يمتحن الطلاب بنفسه، فأنشأ جيلاً فريدًا من قوَّاد الحروب والسياسيين البارعين في دولة الموحدين، وكان يُدَرِّبهم على كل فنون الحرب؛ حتى إنه أنشأ بحيرة صناعية كبيرة في بلاد المغرب لتعليم الناس كيف يتقاتلون في الماء، وكيف تكون الحروب البحرية، وكان -أيضًا- يختبر المقاتلين الموحدين بنفسه[١].

ثالثًا: أقام مصانع ومخازن ضخمة وكثيرة للأسلحة؛ ليستعدَّ بذلك لحرب الصليبيين في الأندلس[٢].

لكن هذا لم يكن ليغضَّ الطرف عن كون عبد المؤمن بن عليٍّ ذا فرديَّة في نظام الحُكم والإدارة؛ أي أنه كان -بِلُغَة العصر- حاكمًا ديكتاتورِيًّا، فرديَّ الرأي لا يأخذ بالشورى، ولقد كان سَفَّاكًا للدماء، حتى أحصى له مؤرخ العهد الشهير بـ «البيذق» أكثر من ثلاثين ألف قتيل بدأ بها عهده لنشر الرعب وتثبيت أقدام الدولة بالسيف[٣].

بل لما سُرق من تاجر بعض ماله، جمع عبد المؤمن أشياخ القبيلة التي وقع فيها السرقة، فأخرج للتاجر ماله منهم، ثم أمر بقتل الجميع «فأقبلوا يتضرَّعون ويبكون، وقالوا: تؤاخذ -سيدنا- الصلحاء بالمفسدين؟ فقال: يُخرج كلُّ طائفة منكم مَنْ فيها من المفسدين. فصار الرجل يُخرج ولده، وأخاه، وابن عمه، إلى أن اجتمع نحو مائة نفسٍ، فأمر أهلهم أن يَتَوَلَّوْا قتلهم، ففعلوا. فخرجتُ (والكلام للتاجر) من المغرب إلى صقلِّية خوفًا على نفسي من أهل المقتولين»[٤].

---

(١) مجهول: الحلل الموشية، ص١٥٠.
(٢) السلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٤٣.
(٣) البيذق: أخبار المهدي ابن تومرت، ص٦٩.
(٤) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٣٨/ ٢٥٩.

وكان يتمثل ببيت الشعر الذي يقول: [البسيط]

وَحَكِّمِ السَّيْفَ لا تَعْبَأْ بِعَاقِبَةٍ ... وَخَلِّهَا سِيرَةً تَبْقَى عَلَى الْحِقَبِ

فَمَا تُنَالُ بِغَيْرِ السَّيْفِ مَنْزِلَةٌ ... وَلا تُرَدُّ صُدُورُ الْخَيْلِ بِالْكُتُبِ[1]

هذا كله في بلاد المغرب العربي، ولم تكن بلاد الأندلس قد دخلت بعدُ في حسابات عبد المؤمن بن عليٍّ في ذلك الوقت، إلا ما كان منه في إرسال الجيوش إليها؛ لتحوزها بعد انتصاره على المرابطين، وكان ذلك بعد استيلائه على مراكش، وفي بعض المصادر بعد استيلائه على فاس وتلمسان؛ إلا أنه أولى اهتمامه أكثر للمغرب؛ لأنه كان يعمل على أن يستقرَّ له الأمر أولاً في بلاد المغرب العربي حيث أنصار المرابطين في كل مكان، فلقد كانت المغرب حاضرة الدولة.

عبد المؤمن بن علي في الأندلس

بعد تساقط المرابطين في المغرب أمام الموحدين، تبعهم الموحدون في الأندلس، واستولوا على المدن الأندلسية التي كانت في يد المرابطين، وفي سنة (٥٤٣هـ= ١١٤٨م) وبعد استيلاء الموحدين على كثير من البلاد الأندلسية، قدم القاضي ابن العربي إلى بلاد المغرب، وبايع عبد المؤمن بن علي، وطلب النجدة لأهل الأندلس، وإن مبايعة القاضي ابن العربي لعبد المؤمن بن علي قد تُعطي إشارة إلى أن عبد المؤمن بن علي لم يكن يعتقد أو يدعو إلى أفكار ضالَّة كما في الدعوة إلى العصمة أو المهديَّة، أو غيرها مما كان يَدِينُ به محمد بن تومرت وبعضٌ من أتباعه[2].

قَبِلَ عبد المؤمن بن علي الدعوة من القاضي ابن العربي، وجَهَّزَ جيوشه، وانطلق إلى بلاد الأندلس، وهناك بدأ يحارب القوَّات الصليبية، حتى ضمَّ معظم بلاد

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٢٩٧.

(٢) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٣٤، والحلل الموشية، ص١٤٧، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١١٧.

الأندلس الإسلامية، التي كانت في أملاك المرابطين إلى دولة الموحدين، وكان ممن قاتله هناك بعض أنصار دولة المرابطين، إلا أنه قاتلهم وانتصر عليهم وذلك في سنة (٥٤٥هـ= ١١٥٠م)[(١)].

وفي سنة (٥٥٢هـ= ١١٥٧م) استطاع أن يستعيد ألَمرِيَّة[(٢)]، وفي سنة (٥٥٥هـ= ١١٦٠م) استعاد تونس من يد النصارى، وبعدها بقليل - ولأول مرة - استطاع أن يضمَّ ليبيا إلى دولة الموحدين، وهي لم تكن ضمن حدود دولة المرابطين[(٣)].

وبهذا يكون قد وصل بحدود دولة الموحدين إلى ما كانت عليه دولة المرابطين، إضافة إلى ليبيا، وقد اقتربت حدود دولته من مصر كثيرًا، وكان يُفَكِّر في أن يُوَحِّد كل أطراف الدولة الإسلامية تحت راية واحدة تكون لدولة الموحدين.

يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٣٣-٥٨٠هـ= ١١٣٨-١١٨٤م) وحُكم الموحدين

في عام (٥٥٨هـ= ١١٦٣م) تُوُفِّيَ عبد المؤمن بن علي في رباط سلا في طريقه للجهاد في الأندلس، ونُقل إلى تينملل فدُفن فيها إلى جانب قبر ابن تومرت، وخلفه على الحُكم ابنه محمد، ثم خُلع لفسقه وسوء خُلقه، وولي الأمر يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وكان يبلغ من العمر اثنين وعشرين عامًا، وقد كان مجاهدًا شهمًا كريمًا، إلاَّ أنه لم يكن في كفاءة أبيه القتالية[(٤)].

وقد وصفه الزركلي في الأعلام فقال: وكان حازمًا شجاعًا، عارفًا بسياسة رعيته، له علم بالفقه، كثيرَ الميل إلى الحكمة والفلسفة، استقدم إليه بعض علماء الأقطار؛ وفي جملتهم أبو الوليد بن رشد... وهو باني مسجد إِشْبِيلِيَة، أتمَّه سنة

(١) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٦٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١١٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل، ٩/ ٤١٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٢٢.
(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٣٧.
(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٠٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٤٤.

(٥٦٧هـ)، وإليه تُنسب الدنانير (اليوسفية) في المغرب، وكانت علامته في المكاتبات وعلامة مَنْ بعده: «الحمد لله وحده»(١).

وقد ظلَّ يوسف بن عبد المؤمن بن علي يحكم دولة الموحدين اثنين وعشرين عامًا مُتَّصلة، منذ سنة (٥٥٨هـ= ١١٦٣م) وحتى سنة (٥٨٠هـ= ١١٨٥م)، وقد نَظَّم الأمور وأحكمها في كل بلاد الأندلس وبلاد المغرب العربي، وكانت له أعمال جهادية ضخمة ضدَّ النصارى، لكنه كان يعيبه شيء خطير؛ وهو أنه كان متفرِّد الرأي لا يأخذ بالشورى، وهذا -بالطبع- كان من تعليم وتربية أبيه عبد المؤمن بن علي صاحب محمد بن تومرت كما ذكرنا.

وقد مات يوسف بن عبد المؤمن بن علي وهو في جهاد الصليبيين عند مدينة شنترين بغرب الأندلس نتيجة خطأ إداري قاتل، يرويه الذهبي هكذا: «وفي سنة تسع وسبعين تجهَّز للغزو، واستنفر أهل السهل والجبل والعرب، فعبر بهم الأندلس فنزل إشبيلية، ثم قصد مدينة شَنْتَرِين - أعادها الله إلى المسلمين - وهي بغرب الأندلس، أخذها ابن الريق -لعنه الله- فنازلها أبو يعقوب وضايقها، وقطع أشجارها، وحاصرها مدَّة، ثم خاف المسلمون البرد وزيادة النهر، فأشاروا على أبي يعقوب بالرجوع فوافقهم، وقال: غدًا نرحل. فكان أوَّل مَنْ قوَّض خباءَه أبو الحسن علي ابن القاضي عبد الله المالقيّ، وكان خطيبهم، فلمَّا رآه الناس قوَّضوا أخبيتهم ثقةً به لمكانه، فعبر تلك العشيَّة أكثرُ العسكر النهر، وتقدَّموا خوف الزحام، وبات الناس يعبرون الليل كلَّه، وأبو يعقوب لا علم له بذلك، فلما رأى الروم عبور العساكر، وأخبرهم عيونهم بالأمر، انتهزوا الفرصة وخرجوا وحملوا على الناس، فانهزموا أمامهم حتى بلغوا إلى مخيَّم أبي يعقوب، فقُتِلَ على باب المخيَّم خَلْق من أعيان الجند، وخُلِصَ إلى أمير المؤمنين، فطُعن تحت سُرَّته طعنة مات منها بعد أيَّام

---

(١) الزركلي: الأعلام، ٨/ ٢٤١.

يسيرة، وتدارك الناس، فانهزم الروم إلى البلد، وقد قضوا ما قضوا، وعبر الموحِّدون بأبي يعقوب جريحًا في محفَّة... ولم يسيروا بأبي يعقوب إلاَّ ليلتين أو ثلاثًا حتى مات»[١].

من أشهر علماء الأندلس في عهده

ابن العوَّام الإشبيلي (ت ٥٨٠هـ=١١٨٥م):

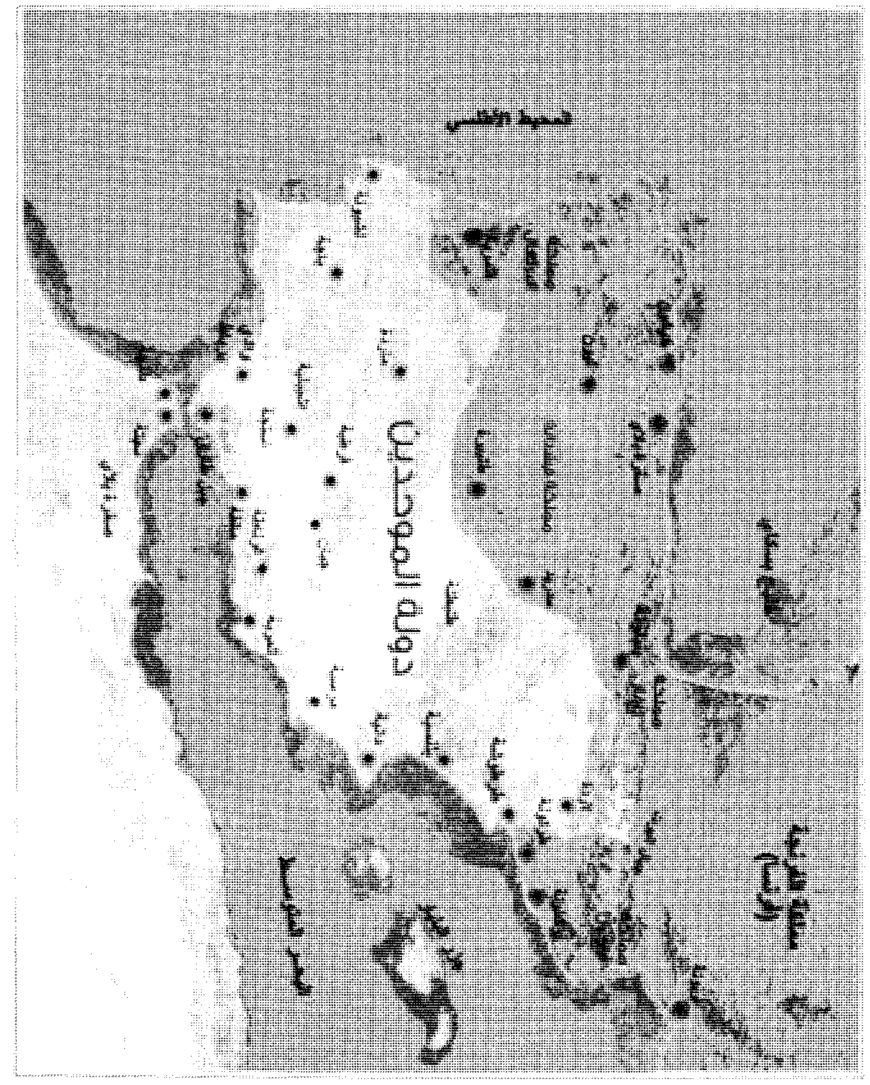
هو أبو زكريا يحيى بن محمد بن أحمد، الشهير بابن العوام الإشبيلي، وقد عاش في فترة قلقلة في بلاد الأندلس؛ هي فترة غروب الحضارة الإسلامية عنها، وعاش في إِشْبِيلِيَة في منطقة الوادي الكبير المزدهر بنباتاته المتنوِّعة، والمعروف بخصبه وازدهار الفنون الزراعية بين أهله.

اهتمَّ ابن العوام بالفلاحة فأتقنها، وصنفها علمًا كاملاً، ولولا ابن العوام ومَنْ أتقن (علم الفلاحة) من علماء الأندلس المسلمين، لما وصل هذا العلم برُقِيِّه إلى أوربا بدءًا من القرن الثاني عشر الميلادي، وفي هذا العلم خاصة استفاد العلماء المسلمون وغيرهم من نتاج ابن العوام المتميز في التربة والأسمدة والحرث والسقي... وقد نُقِلَ إلى اللغات الأجنبية مبكرًا، ونتيجة لكثرة تجاربه وجُرأته عرف العرب -كما عرف الأوربيون فيما بعدُ- خواصَّ التربة، وكيفية تركيب السماد، وأساليب الغرس والزراعة والسقي.

ولابن العوام كتاب في الفلاحة عظيم الشأن، ليس لاحتوائه على فنون الزراعة فقط؛ بل لكونه تتبَّع في الأندلس نظريات جديدة في الكيمياء والطبيعة، واختصر فيه علوم القدماء في الزراعة، وما زال هذا الكتاب -برغم أهميته النظرية والتطبيقية- لم يُحَقَّقْ بعدُ تحقيقًا جيدًا[٢].

---

(١) الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٠/ ٣٢٣، وانظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٣٢.
(٢) انظر: محمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، ٥/ ١٨٤، بتصرف.



خريطة رقم (١٤) دولة الموحدين

وألَّف ابن العوام -أيضًا- رسالة في (تربية الكَرْم)، وقد عُثر له على مخطوط بعنوان: (عيون الحقائق وإيضاح الطرائق)، وقد توفي رحمه الله سنة (٥٨٠هـ= ١١٨٥م)(١).

ابن طفيل (٤٩٤-٥٨١هـ= ١١٠٠-١١٨٥م):

هو الفيلسوف الشهير أبو بكر محمد بن عبد الملك بن محمد بن محمد بن طفيل القيسي من أهل وادي آش جنوب الأندلس، وهو صاحب المؤلف الفلسفي الشهير: رسالة حي بن يقظان.

قال عنه لسان الدين بن الخطيب: كان عالمًا صدرًا، حكيمًا فيلسوفًا، عارفًا بالمقالات والآراء، كلفًا بالحكمة المشرقية، محقِّقًا، متصوفًا، طبيبًا ماهرًا، فقيهًا، بارع الأدب؛ ناظمًا، ناثرًا، مشاركًا في جملة من الفنون(٢).

وقال عنه المراكشي في (المعجب): صرف عنايته في آخر عمره إلى العلم الإلهي ونَبْذِ ما سواه، وكان حريصًا على الجمع بين الحكمة والشريعة، معظِّمًا لأمر النُّبُوَّات ظاهرًا وباطنًا، هذا مع اتساعٍ في العلوم الإسلامية، وكان أبو بكر هذا أحد حسنات الدهر في ذاته وأدواته(٣).

وقد أخذ ابن طفيل على عاتقه جمع العلماء وجلبهم من البلاد والأقطار إلى بلاط يوسف بن عبد المؤمن، وكان يحضُّه على إكرامهم والتنويه بهم، وكان ممن جلبهم إليه الفيلسوف الكبير والفقيه المالكي المعروف أبو الوليد بن رشد، فمن هنا عُرف ابن رشد وبلغ ما بلغ(٤).

وله شعر «غاية في الجودة»(٥)؛ ومنه في الزهد: [البسيط]

---

(١) انظر: الزركلي: الأعلام، ٨/ ١٦٥، بتصرف.
(٢) لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢/ ٤٧٩.
(٣) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣١٢.
(٤) المصدر السابق، ص٣١٤.
(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١/ ٤٦٣.

يَا بَاكِيًا فُرْقَةَ الأَحْبَابِ عَنْ شَحَطٍ[1] ... هَلاَّ بَكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ؟!

نُورٌ تَرَدَّدَ فِي طِينٍ إِلَى أَجَلٍ ... فَانْحَازَ عُلْوًا وَخَلَّى الطِّينَ لِلْكَفَنِ

يَا شَدَّ مَا افْتَرَقَا مِنْ بَعْدِ مَا اعْتَلَقَا ... أَظُنُّهَا هُدْنَةً كَانَتْ عَلَى دَخَنٍ[2]

إِنْ لَمْ يَكُنْ فِي رِضَا اللهِ اجْتِمَاعُهُمَا ... فَيَا لَهَا صَفْقَةً تَمَّتْ عَلَى غَبَنٍ[3]

عاش ابن طفيل ٨٧ سنة، وتُوُفِّيَ بمَرَّاكُش سنة (٥٨١هـ= ١١٨٥م)، وحضر الخليفة يعقوب المنصور جنازته[4].

أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي (٥٥٤-٥٩٥هـ=١١٦٠-١١٩٩م) والعصر الذهبي لدولة الموحدين:

بعد وفاة يوسف بن عبد المؤمن بن علي تولَّى من بعده ابنه يعقوب بن يوسف بن عبد المؤمن بن علي، وقد لُقب بالمنصور، وكان له ابن يُدعى يوسف، فعُرف بأبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي.

يُعَرِّفه ابن خلكان فيقول: أبو يوسف يعقوب بن أبي يعقوب يوسف بن أبي محمد عبد المؤمن بن علي، القيسي الكومي، صاحب بلاد المغرب... كان صافي السمرة جدًّا، إلى الطول ما هو، جميل الوجه، أَفْوَه أَعْيَنَ شديد الكحل، ضخم الأعضاء، جَهْوَرِيَّ الصوت، جَزْلَ الألفاظ، من أصدق الناس لهجة، وأحسنهم حديثًا، وأكثرهم إصابة بالظنِّ، مجربًا للأمور، ولي وزارة أبيه، فبحث عن الأحوال بحثًا شافيًا، وطالع مقاصد العمال والولاة وغيرهم مطالعة أفادته معرفة جزئيات

---

(١) الشحط: البُعْد. ابن منظور: لسان العرب، مادة شحط ٧/ ٣٢٧.

(٢) هُدْنة على دَخَن: أي سكون لِعلَّة لا للصلح، وشبهها بدخان الحَطب الرَّطْب لما بينهم من الفساد الباطن تحت الصَّلاح الظاهر. ابن منظور: لسان العرب، مادة دخن ١٣/ ١٤٩.

(٣) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣١٣، ٣١٤.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ١/ ٤٦٣.

الأمور، ولما مات أبوه اجتمع رأي أشياخ الموحدين وبني عبد المؤمن على تقديمه، فبايعوه وعقدوا له الولاية، ودَعَوْهُ أمير المؤمنين كأبيه وجدِّه، ولَقَّبُوه بالمنصور، فقام بالأمر أحسن قيام، وهو الذي أظهر أبهة ملكهم، ورفع راية الجهاد، ونصب ميزان العدل، وبسط أحكام الناس على حقيقة الشرع، ونظر في أمور الدين والورع، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأقام الحدود حتى في أهله وعشيرته الأقربين، كما أقامها في سائر الناس أجمعين، فاستقامت الأحوال في أيامه وعظمت الفتوحات.

ولما مات أبوه كان معه في الصحبة، فباشر تدبير المملكة من هناك، وأول ما رتَّب قواعدُ بلاد الأندلس، فأصلح شأنها وقرَّر المقاتلين في مراكزها، ومهَّد مصالحها في مدة شهرين، وأمر بقراءة البسملة في أول الفاتحة في الصلوات، وأرسل بذلك إلى سائر بلاد الإسلام التي في مملكته، فأجاب قومٌ وامتنع آخرون[١].

وقد تولَّى أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي حُكم دولة الموحدين خمس عشرة سنة متصلة؛ من سنة (٥٨٠هـ= ١١٨٤م) وحتى سنة (٥٩٥هـ= ١١٩٩م)، وكان أقوى شخصية في تاريخ دولة الموحدين، ومن أعظم الشخصيات في تاريخ المسلمين بصفة عامَّة، وقد عُدَّ عصره في دولة الموحدين بالعصر الذهبي.

ونستطيع أن نتناول سيرته في الأندلس من خلال هذين العنصرين:

أولاً: المنصور الموحدي الرجل الإنسان:

مثل عبد الرحمن الداخل ومِنْ بعده عبد الرحمن الناصر، وغيرهم ممن فعلوا ما لم يفعله الشيوخ والكبار، تولَّى أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي وكان عمره ستًا وعشرين سنة فقط[٢]، وقد قام بالأمر على أحسن ما يكون، ورفع راية الجهاد،

---

(١) ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٧/ ٣، ٤.

(٢) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص١٧٠، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢١٧، وفي روايات أخرى أن سنه كانت اثنتين وثلاثين سنة. انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٣٦، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٢، وتاريخ الإسلام، ٤٢/ ٢١٣.

ونصب ميزان العدل، ونظر في أمور الدين والوعظ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالتي هي أحسن.

واستطاع أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي أن يُغَيِّر كثيرًا من أسلوب السابقين له؛ فكانت سمته الهدوء والسكينة والعدل والحلم؛ حتى إنه كان يقف ليقضي حاجة المرأة وحاجة الضعيف في قارعة الطريق[١]، وكان يَؤُمُّ الناس في الصلوات الخمس[٢]، وكان زاهدًا؛ يلبس الصوف الخشن من الثياب، وقد أقام الحدود حتى في أهله وعشيرته؛ فاستقامت الأحوال في البلاد، وعظمت الفتوحات.

بَلَغَتْ أعمال أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي الجليلة في دولته أوجها، فحارب الخمور[٣]، وأحرق كتب الفلاسفة، واهتمَّ بالطب والهندسة[٤]، وألغى المناظرات العقيمة، التي كانت في أواخر عهد المرابطين وأوائل عهد الموحدين[٥]، وزاد كثيرًا في العطاء للعلماء، «وانتشر في أيامه للصالحين والمتبتلين وأهل علم الحديث صيت، وقامت لهم سوق، وعظمت مكانتهم منه ومن الناس، ولم يزل يستدعي الصالحين من البلاد ويكتب إليهم يسألهم الدعاء، ويصل مَنْ يقبل صلته منهم بالصلات الجزيلة»[٦]، ومال هو إلى مذهب ابن حزم الظاهري؛ وأحرق الكثير من كتب الفروع، وأمر بالاعتماد على كتاب الله وعلى كتب السُّنَّة الصحيحة[٧].

---

(١) انظر: الذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٢/ ٢٢٥، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٩٩.

(٢) ثم انقطع عن ذلك بعد أن «أبطأ يومًا عن صلاة العصر إبطاءً كاد وقتها يفوت، وقعد الناس ينتظرونه، فخرج عليهم فصلى، ثم أوسعهم لومًا وتأنيبًا، وقال: ما أرى صلاتكم إلاَّ لنا، وإلاَّ فما منعكم عن أن تُقَدِّموا رجلاً منكم فيصلِّي بكم، أليس قد قَدَّم أصحاب رسول الله ﷺ عبد الرحمن بن عوف حين دخل وقت الصلاة وهو غائب، أما لكم بهم أسوة وهم الأئمة المتَّبَعُون، والهداة المهتدون. فكان ذلك سببًا لقطعه الإمامة». انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦١، والذهبي: تاريخ الإسلام، ٤٢/ ٢١٩.

(٣) انظر: ابن عذاري، قسم الموحدين، ص١٧٣.

(٤) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٨٥، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٧.

(٥) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٥٤.

(٦) المصدر السابق، ص٣٥٤.

(٧) المصدر السابق، ص٣٥٥.

وفي دولته اهتمَّ -أيضًا- أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بالعمران، وقد أكمل إنشاء مدينة الرباط التي كان قد اختطها ورسم حدودها أبوه يوسف، وسمَّاها رباط الفتح[(١)]، وأقام فيها المستشفى الكبير الذي يصفه عبد الواحد المراكشي مبهورًا بقوله: «وبنى بمدينة مراكش بيمارستانًا ما أظن أن في الدنيا مثله؛ وذلك أنه تخيَّر ساحة فسيحة بأعدل موضع في البلد، وأمر البنائين بإتقانه على أحسن الوجوه، فأتقنوا فيه من النقوش البديعة والزخارف المحكمة ما زاد على الاقتراح، وأمر أن يُغرس فيه مع ذلك من جميع الأشجار المشمومات والمأكولات، وأجرى فيه مياهًا كثيرة تدور على جميع البيوت، زيادةً على أربع بِرَكٍ في وسطه، إحداها رخام أبيض، ثم أمر له من الفُرُش النفيسة من أنواع الصوف والكَتَّان والحرير والأديم وغيره بما يزيد على الوصف، ويأتي فوق النعت، وأجرى له ثلاثين دينارًا في كل يوم برسم الطعام، وما يُنْفَقُ عليه خاصة خارجًا عما جَلَب إليه من الأدوية، وأقام فيه من الصيادلة لعمل الأشربة والأدهان والأكحال، وأعدَّ فيه للمرضى ثيابَ ليلٍ ونهار... من جهاز الصيف والشتاء، فإذا نَقَهَ المريض فإن كان فقيرًا أمر له عند خروجه بمال يعيش به ريثما يستقلُّ، وإن كان غنيًّا دفع إليه ماله وتُرِكَ وسببه، ولم يَقْصره على الفقراء دون الأغنياء، بل كلُّ مَنْ مرض بمَرَّاكُش من غريب حُمل إليه وعولج إلى أن يستريح أو يموت. وكان في كل جمعة بعد صلاته يركب ويدخله، يعودُ المرضى ويسأل عن أهلِ بيتٍ أهل بيت، يقول: كيف حالكم؟ وكيف القُوَمَةُ عليكم؟ إلى غير ذلك من السؤال، ثم يخرج، لم يزل مستمرًّا على هذا إلى أن مات رحمه الله»[(٢)].

وكان -أيضًا- يجمع الزكاة بنفسه ويُفَرِّقُها على أهلها، وكان كريمًا كثير الإنفاق؛ حتى إنه وزَّع في يوم عيدٍ أكثر من سبعين ألف شاة على الفقراء[(٣)].

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٤١، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٣.
(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦٤.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٧.

المنصور الموحدي يتبرأ من أباطيل ابن تومرت:

ويتبدى هذا في خطاب ابنه المأمون[١] لما أبطل القول بالمهدية، وأزال رسومها فكان مما قال: «وقد كان سيدنا المنصور رحمه الله هَمَّ أن يصدع بما به الآن صَدَعْنَا، وأن يرقع للأمة الخرق الذي رقعنا، فلم يُساعده لذلك أمله، ولا أَجَّلَه إليه أجله، فقدم على ربِّه بصدق نية، وخالص طويَّة، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظنُّ بمن لم يَدْرِ بأي يدٍ يأخذ كتابه...»[٢].

وكان مجلسه رحمه الله عامرًا بالعلماء وأهل الخير والصالحين، وقد ذكر الذهبي رحمه الله في السِّيَرَ أنه كان يُجيد حفظ القرآن والحديث، ويتكلَّم في الفقه ويناظر، وكان فصيحًا مهيبًا، يرتدي زي الزهَّاد والعلماء، ومع ذلك عليه جلالة الملوك[٣].

وعدم اعتراف المنصور الموحدي بأفكار ابن تومرت المخالفة للكتاب والسُّنَّة يجعله من أهل السُّنَّة والجماعة، ومن الفئة الصالحة المصلحة، التي يُحقِّق الله بها النصر والتمكين لدينه والعزَّة والمنعة لأهله -تعالى- وقد أورد المراكشي ما يُفيد براءة المنصور الموحدي من أفكار ابن تومرت الضالَّة، فقال: أخبرني الشيخ الصالح أبو العباس أحمد بن إبراهيم بن مطرف المري ونحن بحجر الكعبة، قال: قال لي أمير

---

(١) أعلن المأمون -الخليفة الموحدي فيما بعد- وهو ابن المنصور بطلان المهدية في عام ٦٢٦ هـ، وأصدر مرسومه يقول فيه: «ولتعلموا أَنَّا نبذنا الباطل، وأظهرنا الحقَّ، وأن لا مهدي إلاَّ عيسى ابن مريم، وما سُمِّيَ مهديًّا إلا أنه تَكَلَّم في المهد، وتلك بدعة قد أزلناها، والله يُعيننا على القلادة التي تقلدناها، وقد أزلنا لفظ العصمة عمن لا تثبت له عصمة؛ فلذلك أزلنا عنه رسمه، فتسقط وتُبَتُّ، وتُمْحَى ولا تثبت، وقد كان سيدنا المنصور رحمه الله هَمَّ أن يصدع بها به الآن صَدَعْنَا، وأن يرقع للأمة الخرق الذي رقعنا، فلم يُساعده لذلك أمله، ولا أَجَّلَه إليه أجله، فقدم على ربِّه بصدق نية، وخالص طويَّة، وإذا كانت العصمة لم تثبت عند العلماء للصحابة، فما الظنُّ بمن لم يَدْرِ بأي يدٍ يأخذ كتابه...». أمر بقطع ذِكْرِ إمامهم المهدي من الخطبة في جميع بلاده، ومحا اسمه من المخاطبات ومن النقش في السَّكَّة، وقطع النداء بعد الصلاة... وما أشبه ذلك مما كان العمل عليه من أول دولة الموحدين.

(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٨٦، ٢٨٧.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٦.

المؤمنين أبو يوسف: يا أبا العباس؛ اشهد لي بين يدي الله ﷻ أَنِّي لا أقول بالعصمة. - يعني: عصمة ابن تومرت - قال (أبو العباس): وقال لي يومًا وقد استأذنتُه في فعل شيء يفتقر إلى وجود الإمام: يا أبا العباس؛ أين الإمام؟ أين الإمام[1]؟

ويقول أيضًا: أخبرني شيخ ممن لقيته من أهل مدينة جَيَّان من جزيرة الأندلس يُسَمَّى أبا بكر بن هانئ مشهور البيت هناك، لقيته وقد عَلَتْ سِنُّه، فرويت عنه قال لي: لما رجع أمير المؤمنين - يعني: المنصور الموحدي - من غزوة الأرك، وهي التي أوقع فيها بالأذفنش وأصحابه، خرجنا نتلقَّاه فقدَّمني أهل البلد لتكليمه، فرفعت إليه، فسألني عن أحوال البلد وأحوال قضاته وولاته وعماله على ما جرت عادته، فلما فرغتُ من جوابه سألني كيف حالي في نفسي، فتشكَّرتُ له، ودعوتُ بطول بقائه، ثم قال لي: ما قرأتَ من العلم؟ قلتُ: قرأت تواليف الإمام. - أعني: ابن تومرت - فنظر إليَّ نظرة المغضب، وقال: ما هكذا يقول الطالب، إنما حكمك أن تقول: قرأتُ كتاب الله، وقرأتُ شيئًا من السُّنَّة. ثم بعد هذا قُلْ ما شئتَ[2].

وكان يقعد للناس عامَّة، لا يحجب عنه أحد من صغير ولا كبير، حتى اختصم إليه رجلان في نصف درهم، فقضى بينهما، وأمر الوزير أبا يحيى صاحب الشرطة أن يضربهما ضربًا خفيفًا؛ تأديبًا لهما، وقال لهما: أما كان في البلد حُكَّام قد نُصبوا لمثل هذا. فكان هذا -أيضًا- مما حمله على القعود في أيام مخصوصة لمسائل مخصوصة لا يُنفذها غيره.

وكان قد أمر أن يدخل عليه أمناء الأسواق وأشياخ الحضر في كل شهر مرتين؛ يسألهم عن أسواقهم وأسعارهم وحكامهم، وكان إذا وفد عليه أهل بلد فأول ما يسألهم عن عمالهم وقضاتهم وولاتهم، فإذا أثنوا خيرًا؛ قال: اعلموا أنكم مسئولون

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦٩.
(٢) المصدر السابق، ص٣٦٩.

عن هذه الشهادة يوم القيامة، فلا يقولنَّ امرؤ منكم إلا حقًّا. وربما تلا في بعض المجالس: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ للهِ وَلَوْ عَلَى أَنْفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ﴾ [النساء: ١٣٥][١].

المنصور الموحدي وبلاد الأندلس:

إضافة إلى أعماله السابقة في دولة الموحدين -بصفة عامَّة- فقد وَطَّد أبو يوسف يعقوب المنصور الأوضاع كثيرًا في بلاد الأندلس، وقَوَّى الثغور هناك، وكان يُقاتل فيها بنفسه، وقد كانت أشدُّ الممالك ضراوة عليه مملكة البرتغال، ثم مِنْ بعدها مملكة قشتالة، وقد كان له في الأندلس ما يلي:

مواجهة بني غانية:

وبنو غانية: هم أبناء محمد بن علي من قبيلة مسوفة، وكان علي بن يوسف بن تاشفين قد أرسل محمدَ بن علي وأخاه يحيى إلى الأندلس قبل ظهور ابن تومرت، و«غانية» هو اسم أمِّ هذين الرجلين (يحيى ومحمد ابني علي)، دُعيا به جريًا على عادة أهل هذه البلاد من نسبة الرجال في أحايين كثيرة لأمهم[٢]، وبعدما مات يحيى أخو محمد بن علي (ابن غانية) وظهرت دعوة الموحدين، وبدأت تنتشر على حساب دولة المرابطين، انتقل محمد ابن غانية إلى جزر البليار، وأقام فيها دولة له ولأبنائه من بعده، وساعده على ذلك قيام ابن مردنيش في شرق الأندلس؛ وهذا ما حمى جانب بني غانية من سطوة الموحدين، فلما دان شرق الأندلس للموحدين، بدأ إسحاق بن محمد ابن غانية، يُلاطف الموحدين، ويُرسل لهم من وقت لآخر بهدايا من غنائمه وسبيه من النصارى، وكان الموحدون -في أول الأمر- لا يعبئون بهذه الجزر، ولكنهم مع مرور الوقت سَعَوْا لإدخالها في طاعتهم، فأرسلوا إلى إسحاق بذلك،

(١) المصدر السابق، ص٣٦١-٣٦٣.
(٢) وقد رأينا هذا في أسماء كبار قادة المرابطين كداود ابن عائشة.

فماطل قدر استطاعته، ثم استُشهد في إحدى غزواته قبل أن يَرُدَّ عليهم، فخلفه ابنه عليٌّ على الحُكم، ثم مات بعد قليل يوسف بن عبد المؤمن في غزوة شنترين، فقويت نفوس بني غانية، وأعلنوا صراحة رفضهم الدخول في طاعة الموحدين، ثم زادوا فسعوا لاستغلال موت الأمير الموحدي على هذا النحو، واتصلوا ببعض أعيان بجاية (في شمال دولة الجزائر الآن)، واتفقوا معهم على نصرتهم، ثم خرجوا بأساطيلهم في أوائل عهد المنصور يعقوب بن يوسف الموحدي سنة (٥٨٠هـ) واستولوا عليها، وبدأ بينهم وبين الموحدين في الأندلس وإفريقيا صراع طويل.

وفي سنة (٥٨٥هـ= ١١٨٩م) حاربهم المنصور أبو يعقوب، واستطاع أن يسيطر على جزيرتين من جزر البليار الثلاث، ثم واجه تمردهم كذلك في المغرب، وكان من جرَّاء ذلك أن ضعفت كثيرًا قوَّة الموحدين في الأندلس.

استغلَّ ملك البرتغال انشغال أبي يوسف يعقوب المنصور في هذه المواجهات، واستغلَّ الضعف الذي كان نتيجة طبيعية لذلك، واستعان بجيوش ألمانيا وإنجلترا البرِّيَّة والبحريَّة، ثم حاصر إحدى مدن المسلمين هناك، واستطاع أن يحتلَّها ويُخْرِجَ المسلمين منها، وقد فعل فيها من الموبقات ما فعل، ثم استطاع أن يُوَاصل تقدُّمَه إلى غرب مدينة إِشْبِيلِيَة في جنوب الأندلس[1]، وهنا أضحى الوضع في غاية الخطورة.

سياسة أبي يوسف يعقوب المنصور في الحروب:

تُعتبر السنوات الخمس عشرة التي حكمها أبو يوسف يعقوب المنصور -ثالث الخلفاء الموحدين- العصرَ الذهبي للدولة الموحدية، والذروة التي وصل إليها التطوُّر السياسي في المغرب نحو التوحيد وإقامة الدولة الموحدية، ولقد كان العصر الذهبي قصيرًا، لا يتناسب مع دولة ضخمة مترامية الأطراف، غزيرة الثروة

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٥٦، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد الموحدين، ص٧٩.

والموارد مثل دولة الموحدين؛ فإن خلفاء الموحدين حكموا بلادًا تُضاهي ما حكمه العباسيون في أوج قوَّتهم، وكان تحت إمارتهم حشود من الجند القوي القادر على كسب المعارك، لم يتيسر للكثير من الدول في التاريخ الإسلامي؛ فقد كانت جيوش الموحدين تعجُّ بحشود من أبناء القبائل المغربية من المصامدة أولاً، ثم من بقية الصنهاجيين والزناتيين ممن استمالتهم الدولة الموحدية بقوتها وهيبتها، ثم أُضيفت إلى هؤلاء حشود من العرب الهلاليين، الذين انضووا تحت لواء الدولة الكبيرة، ولم يَخْلُ الأمر من قوات أندلسية ذات قدرة ومهارة. ورغم وجود هذه القوَّات، إلاَّ أن هذه القوة العسكرية الموحدية كانت دائمًا مُفَكَّكة، تنقصها القيادة الحازمة، التي تقبض على الجيش قبضة محكمة، وتُوَجِّه الأعمال وَفق خطة واحدة مرسومة، وكان أبو يوسف يعقوب المنصور من زعماء الموحدين القلائل الذين استطاعوا قيادة جيوشهم قيادة سليمة حكيمة، وكان الرجل في نفسه كذلك رجلاً حازمًا موهوبًا في شئون الإدارة والقيادة، وكان شديد الإيمان؛ فانتقل إيمانه إلى رجاله، وأصبحت جيوش الموحدين في أيامه قوَّة ضاربة كبرى[1].

* * *

(١) حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، ص٢٢٣، ٢٢٤.

الفصل الرابع

معركة الأرك الخالدة

بعد القضاء على ثورات بني غانية أخذ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي يُفَكِّر في كيفية إعادة الوضع إلى ما كان عليه، وإيقاف أطماع النصارى في بلاد الأندلس، علم أوَّلاً أن أشدَّ قوَّتين عليه هما قوَّة قشتالة وقوة البرتغال، لكنه استقبل رسالة من ملك قشتالة يسعى فيها إلى الصلح والمهادنة، بل ويعرض عليه أن يُحالفه ضدَّ مَنْ يشاء من أعداء أبي يوسف وأبناء ملَّة ملك قشتالة، وذكر أبو يوسف في رسالته أنه بعد أن روَّى في الأمر واستخار عزم على إجابة مطلب ملك قشتالة فقَبِلَ مسالمته، بما لا يتعارض مع عزَّة الإسلام والمسلمين[1].

وفي سنة (٥٨٥هـ)، جاء عدوانُ ملك البرتغال ألفونسو هنريكيز؛ يروي عبد الواحد المراكشي فيقول: «قَصَدَ بطرو بن الريق[2] - لعنه الله- مدينة شلب من جزيرة الأندلس فنزل عليها بعساكره، وأعانه من البحر الإفرنج بالبطس[3] والشواني[4]،

---

(١) ليفي بروفنسال: مجموع رسائل موحدية: الرسالة الرابعة والثلاثون، ص٢٢٢.

(٢) أمير البرتغال ألفونسو هنريكيز كما كان يسميه العرب وقتها.

(٣) البطس: مفردها بطسة، وهي من أنواع المراكب البحرية الكبيرة، عرفها العرب المسلمون منذ بداية العصر الإسلامي، واستعملوها في الحروب البحرية والأعمال التجارية، عدد أشرعتها أربعون شراعًا، تحمل على متنها ما يزيد عن ألفين وخمسمائة شخص. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص٨١.

(٤) الشواني: جمع شونة، وهي طراز من السفن المستخدمة للأغراض الحربية عرفها اليونان والرومان واستعملها العرب في العصر الإسلامي، تسير بالشراع، يصل عدد مجاديفها إلى ١٠٠، وهي مزودة بأبراج خاصة، وتحمل على متنها حوالي ١٥٠ من المقاتلين المزودين بأسلحتهم. مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية ص٢٨٧.

وكان قد وَجَّه إليهم يستدعيهم إلى أن يُعِينُوه على أن يجعل لهم سبي البلد، وله هو المدينة خاصة، ففعلوا ذلك ونزلوا عليها من البر والبحر فملكوها، وسبوا أهلها، وملك ابن الريق -لعنه الله- البلد، وتجهَّز أمير المؤمنين في جيوش عظيمة، وسار حتى عبر البحر، ولم يكن له هَمٌّ إلا مدينة شلب المذكورة، فنزل عليها، فلم تطق الروم دفاعه، وخرجوا عنها وعما كانوا قد ملكوه من أعمالها، ولم يكفِهِ ذلك حتى أخذ حصنًا من حصونهم عظيمًا يقال له: طرش»[1].

ثم عاد يعقوب المنصور إلى عاصمته مراكش في المغرب العربي بعد هذا النصر المؤزر على البرتغال، والهدنة مع قشتالة، وبقيت طائفة أخرى لم تصالح المنصور، وهي التي ستكون السبب في الحرب القادمة.

بعد أقل من خمس سنوات «جمعت تلك الطائفة (التي لم تصالح) جمعًا من الفرنج وخرجوا إلى بلاد الإسلام، فقتلوا وسبوا، وغنموا وأسروا، وعاثوا فيها عيثًا شديدًا»[2]، ثم ما لبث أن اجتمع معهم ألفونسو الثامن بعد انقضاء مدة الهدنة التي كانت بينه وبين المنصور، فبعث إلى جميع الثغور الإسلامية يُنذر بانتهاء الهدنة -وكان المنصور منشغلاً بمعاركه في المغرب ضد الخارجين عليه من بني غانية وغيرها- ثم بعث بقادته إلى مختلف أنحاء الأندلس يُغيرون عليها ويُثخنون فيها، وقد مال المنصور إلى الانتهاء من أمر المتمردين أولاً، لولا أن توالت كتب أهل الأندلس عليه تُشير باشتداد وطأة العدو إلى ما لا يطاق، فعدل عن عزمه وبدأ في التفكير صوب العبور إلى الأندلس[3].

وقبل هذا الوقت بسنوات قلائل كان المسلمون في كل مكانٍ يعيشون نشوة

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب ص٣٥٦، وابن عذاري: البيان المغرب، ص٢٠٤-٢١٢، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٤.

(٢) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٢٣٧، وابن خلكان: وفيات الأعيان ٧/ ٨.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٥/ ١٩٧.

النصر الكبير الذي حقَّقه صلاح الدين الأيوبي على الصليبيين في موقعة حطين الخالدة في سنة (٥٨٣هـ= ١١٨٧م)؛ أي: قبل هذه الأحداث بسبع سنوات فقط، وما زال المسلمون في المغرب يعيشون هذا الحدث الإسلامي الكبير، ويتمنَّوْنَ ويُريدون أن يُكَرِّرُوا ما حدث في المشرق؛ خاصَّة بعد أن قام أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي بتحفيزهم في الخروج إلى الجهاد، فتنافسوا في ذلك ﴿وَفِي ذَٰلِكَ فَلْيَتَنَافَسِ الْمُتَنَافِسُونَ﴾ [المطففين: ٢٦].

كان ثمة جيش جاهز لمواجهة المتمردين على المنصور، ولكن لما تغيرت الوجهة أقبل المجاهدون المتطوعة، وقد بدأ هذا الاستنفار في سنة (٥٩٠هـ=١١٩٤م)، وبعدها بعام واحد وفي سنة (٥٩١هـ=١١٩٥م) انطلقت الجيوش الإسلامية من المغرب العربي والصحراء وعبرت مضيق جبل طارق إلى بلاد الأندلس؛ لتلتقي مع قوَّات الصليبيين الرابضة هناك في موقعة ما برح التاريخ يذكرها ويُجِلُّها[1].

موقعة الأرك الخالدة:

الأرك: حصن على بُعْدِ عشرين كيلو مترًا إلى الشمال الغربي من قلعة رباح، على أحد فروع نهر وادي آنة، ومحلُّها اليوم: (Sta Maria de Alarcos) غرب المدينة الإسبانية الحديثة (giadad real) «المدينة الملكية»، والأرك نقطة الحدود بين قشتالة والأندلس في حينه[2].

---

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٥٨، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢١٧، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٥.
(٢) شوقي أبو خليل: الأرك، ص٥٤.



خريطة رقم (١٥) موقعة الأرك

وفي التاسع من شهر شعبان سنة (٥٩١هـ=١١٩٥م) وعند هذا الحصن الكبير الذي يقع في جنوب طُلَيْطِلَة على الحدود بين قشتالة ودولة الأندلس، في ذلك الوقت التقت الجيوش الإسلامية مع جيوش النصارى هناك[١]، وكان ألفونسو الثامن قد أعدَّ جيشه بعد أن استعان بمملكتي ليون ونافار، في قوَّة يبلغ قوامها خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف نصراني، وقد أحضروا معهم بعض جماعات من اليهود لشراء أسرى المسلمين بعد انتهاء المعركة لصالحهم؛ ليتمَّ بيعهم بعد ذلك في أوربا[٢].

وعلى الجانب الآخر فقد أعدَّ أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي جيشًا كبيرًا، بلغ قِوَامه مائتي ألف مسلم[٣] من جرَّاء تلك الحمية، التي كانت في قلوب أهل المغرب العربي وأهل الأندلس على السواء؛ خاصة بعد انتصارات المسلمين في حطين (٥٨٣هـ= ١١٨٧م) في الشرق.

البداية وأمور جانبية عند الموحدين

في منطقة الأرك وفي أول عمل له عقد أبو يوسف يعقوب المنصور الموحدي مجلسًا استشاريًّا يستوضح فيه الآراء والخطط المقترحة في هذا الشأن، ولقد كان هذا على غير نسق كل القادة الموحدين السابقين له، والذين غلب عليهم التفرُّد في الرأي، فسار على منهج رسول الله ﷺ في ذلك الأمر، وفي هذا المجلس الاستشاري استرشد أبو يوسف يعقوب المنصور بكل الآراء؛ حتى إنه استعان برأي أبي عبد الله بن صناديد في وضع خطَّة الحرب، وهو من الزعماء الأندلسيين وليس من قبائل المغرب البربرية،

(١) انظر: ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١٠/ ٢٣٧، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٢٣٧، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٥، ٤/ ١٨٢، ١٨٣، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٥/ ٢١٣، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين ٢/ ٨٤.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣١٩.

وكان هذا -أيضًا- أمرًا جديدًا على دولة الموحدين، التي كانت تعتمد على جيوش المغرب العربي فقط، فضمَّ أبو يوسف يعقوب المنصور قوَّة الأندلسيين إلى قوَّة المغاربة والبربر القادمين من الصحراء[(١)].

الاستعداد ووضع الخطط:

في خُطَّة شبيهة جدًّا بخطَّة موقعة الزَّلاَّقَة قَسَّم أبو يوسف يعقوب المنصور الجيش إلى نصفين، فجعل جزءًا في المقدمة، وأخفى الآخر خلف التلال، وكان هو على رأسه، ثم اختار أميرًا عامًّا للجيش، هو كبير وزرائه أبو يحيى بن أبي حفص، وقد ولَّى قيادة الأندلسيين لأبي عبد الله بن صناديد؛ وذلك حتى لا يُوغر صدور الأندلسيين وتضعف حماستهم حين يتولَّى عليهم مغربي أو بربري[(٢)].

وإتمامًا لهذه الخطة فقد جعل الجزء الأول من الجيش النظامي الموحدي ومن الأندلسيين، «فجعل (أميرُ الجيش أبو يحيى) عسكر الأندلس في الميمنة، وجعل زناتة والمصامدة والعرب وسائر قبائل المغرب في الميسرة، وجعل المتطوعة والأغزاز (المماليك المصريون) والرماة في المقدمة، وبقي هو في القلب في قبيلة هنتاتة»[(٣)].

وعند اكتمال الحشد وانتهاء الاستعداد للقتال أرسل الأميرُ الموحدي رسالة إلى كل المسلمين، يقول فيها: إن الأمير يقول لكم: اغفروا له؛ فإنَّ هذا موضع غفران، وتغافروا فيما بينكم، وطَيِّبُوا نفوسكم، وأخلصوا لله نيَّاتكم. فبكى الناس جميعهم، وأعظموا ما سمعوه من أميرهم المؤمن المخلص، وعلموا أنه موقفُ وداعٍ، ثم قام الخطباء يخطبون عن الجهاد ويُذَكِّرون بفضله وشرفه ومكانته ويُحَمِّسون الجند له[(٤)]،

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٨٧.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٤.
(٣) المصدر السابق، ص٢٢٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٨٩.
(٤) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢١٩

«فنشط الناس، وطابت النفوس، ومن الغد صدع بالنداء، وبأخذ السلاح والبروز إلى اللقاء»[١].

اللقاء المرتقب:

في تلك الموقعة كان موقع النصارى في أعلى تلٍّ كبير، وكان على المسلمين أن يُقَاتِلوا من أسفل ذلك التلِّ، لكن ذلك لم يَرُدّ المسلمين عن القتال، وقد بدأ اللقاء ونزل القشتاليون كالسيل الجارف..

ولنترك ابن أبي زرع يروي قصة المعركة، يقول:

«تحرَّك من جيش العدوِّ - دمَّره الله تعالى- عقدة كبيرة من سبعة آلاف فارس إلى ثمانية آلاف فارس، كلهم قد احتجب بالحديد والبيضات والزَّرّد[٢] النظيف النضيد، فدُفعت نحو عسكر المسلمين... فوصلت تلك العقدة التي دفعت بأجمعها حتى لطمت أطرافُ رماح المسلمين في صدور خيلهم أو كادت، ثم تقهقروا قليلاً، ثم عادوا بالحملة. فعلوا ذلك مرتين، ثم تهيئوا للدفعة الثالثة، والقائد ابن صناديد والزعيم العربي يناديان برفع أصواتهما: اثبتوا معشر المسلمين؛ ثَبَّت الله أقدامكم بالعزمة الصادقة.

فدفع النصارى على القلب الذي فيه أبو يحيى؛ قاصدين إليه يظنون أنه أمير المؤمنين، فقاتل رحمه الله قتالاً شديدًا وصبر صبرًا جميلاً، حتى استشهد رحمه الله واستشهد معه جماعة من المسلمين من هنتاتة والمطوعة، وغيرهم ممن ختم الله تعالى له بالشهادة، وسبقت له من الله تعالى السعادة.

وصبر المسلمون صبرًا جميلاً، ورجع النهار بالغبار ليلاً، وأقبلت قبائل المطوعة

---

(١) ابن الخطيب: رقم الحلل، ص٥٩.

(٢) الزَّرَد: حِلَق المغفر والدرع. ابن منظور: لسان العرب، مادة زرد ٣/ ١٩٤، والمعجم الوسيط ١/ ٣٩١.

والعرب والأغزاز والرماة، وأحاطوا بالنصارى الذين دفعوا من كل جانب، ودفع القائد ابن صناديد بجيوش الأندلس وحشودها، وزحفت معه قبائل زناتة والمصامدة وغمارة وسائر البربر إلى الربوة التي فيها ألفونسو الثامن -لعنه الله- يُقاتلون مَنْ فيها من جيش الروم.

وكان ألفونسو -لعنه الله- فيها مع جيوش الروم وجميع عساكره وأجناده فيما يزيد على ثلاثمائة ألف، ما بين فارس وراجل، فتعلَّق المسلمون بالربوة وأخذوا في قتال مَنْ بها فاشتدَّ القتال، وعظمت الأهوال، وكثر القتل في النصارى الذين دفعوا في الحملة الأولى، وكانوا نحو العشرة آلاف زعيم، انتخبهم اللعين ألفونسو الذميم، وصَلَّتْ عليه الأقسة[1] صلاة النصر، ورَشُّوا عليهم ماء المعمودية في الطهر، وتحالفوا بالصلبان ألاَّ يفروا حتى لا يتركوا من المسلمين إنسانًا، فصدق الله ﷻ وعده، ونصر جنده.

فلمَّا اشتد القتال على الكفار، وأيقنوا بالفناء والبوار، وَلَّوُا الأدبار، وأخذوا في الفرار، إلى الربوة التي فيها ألفونسو ليعتصموا بها، فوجدوا عساكر المسلمين قد حالوا بينهم وبينها، فرجعوا على أعقابهم ناكصين في الوطا، فرجعت عليهم العرب والمطوعة وهنتاتة والأغزاز والرماة فطحنوهم طحنًا، وأَفْنَوْهم عن آخرهم، وانكسرت شوكة ألفونسو بفنائهم؛ إذ كان اعتماده عليهم، وأسرعت خيل من العرب إلى أمير المؤمنين، وأطلقوا أَعِنَّتهم نحوه، وقالوا له: قد هزم الله تعالى العدو.

فضربت الطبول، ونشرت الرايات، وارتفعت الأصوات بالشهادة، وخفقت البنود، وتسابقت لقتال أعداء الله الأبطالُ والجنودُ، وزحف أمير المؤمنين بجيوش الموحدين، قاصدًا لقتال أعداء الله الكافرين، فتسابقت الخيل وأسرعت الرجال، وقصدوا نحو الكفرة، للطعان والنزال، فبينما ألفونسو الثامن -لعنه الله- قد همَّ

---

(١) الأقسة: جمع قسيس.

وعزم أن يحمل على المسلمين بجميع جيوشه، ويصدهم بجنوده وحشوده؛ إذ سمع الطبول عن يمينه قد ملأت الأرض، والأبواق قد طبقت الرُّبَا والبطاح، فرفع رأسه لينظر فيها، فرأى رايات الموحدين قد أقبلت، واللواء الأبيض المنصور في أولها عليه: لا إله إلا الله، محمد رسول الله، لا غالبَ إلى الله. وأبطال المسلمين قد تسابقت وجيوشهم قد تناسقت وتتابعت، وأصواتهم بالشهادة ارتفعت، فقال: ما هذا؟ فقيل له: هذا أمير المؤمنين قد أقبل، وما قاتلك اليوم كله إلاَّ طلائع جيوشه، ومُقَدِّمات عساكره، فقذف الله ﷻ الرعب في قلوب الكافرين، ووَلَّوُا الأدبار منهزمين، وعلى أعقابهم ناكصين.

وتلاحقت به فرسان المجاهدين، يضربون وجوههم وأدبارهم، ويقتفون آثارهم، ويُحكمون فيهم رماحهم وشفارهم، ويروون من دمائهم السيوف، ويُذيقونهم مرارة الحتوف، وأحاط المسلمون بحصن الأراك، وهم يظنون أن ألفونسو -لعنه الله- قد تحصَّن فيه، وكان عدو الله قد دخل فيه من باب، وخرج من الناحية الأخرى، فدخل المسلمون الحصن بالسيف عَنوة، وأضرموا النيران في أبوابه، واحتووا على جميع ما كان فيه وفي محلة النصارى من الأموال والذخائر والأرزاق، والأسلحة والعدد، والأمتعة والدواب، والنساء والذرية، وقُتل في هذه الغزاة من الكفرة ألوف لا تُعَدُّ ولا تُحْصَى، ولا يَعلم لها أحدٌ عددًا إلاَّ الله تعالى.

وأخذ في حصن الأراك من زعماء الروم أربعة وعشرون ألف فارس أسارى، فامتنَّ عليهم أمير المؤمنين، وأطلقهم بعدما ملكهم؛ ليكون له بذلك يد الامتنان ويدٌ عُلْيَا عليهم، فعزَّ فعله ذلك على الموحدين وعلى كافَّة المسلمين، وحُسِبَتْ له تلك الفعلة سقطة من سقطات الملوك»[1].

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٢٢٥ وما بعدها. وانظر حوادث المعركة مختصرة في: ابن عذاري في البيان المغرب - قسم الموحدين- ص٢١٤-٢٢٠، وابن الخطيب: رقم الحلل ص٥٩.

طارت أخبار النصر في كل مكان، ودوت أخبار ذلك الانتصار العظيم على منابر المسلمين في أطراف دولة الموحدين الشاسعة؛ بل وصلت هذه الأخبار إلى المشرق الإسلامي، وكانت سعادةً لا تُوصف؛ خاصَّة وأنها بعد ثمانية أعوام فقط من انتصار حطين العظيم.

قال المقري: وكان عدة مَنْ قُتِل من الفرنج - فيما قيل - مائة ألف وستَّة وأربعين ألفًا، وعدة الأسارى ثلاثين ألفًا، وعدة الخيام مائة ألف وستَّة وخمسين ألف خيمة، والخيل ثمانين ألفًا، والبغال مائة ألف، والحمير أربعمائة ألف، جاء بها الكفَّار لحمل أثقالهم؛ لأنَّهم لا إبل لهم، وأمَّا الجواهر والأموال فلا تُحصى، وبِيع الأسير بدرهم[1]، والسيف بنصف درهم، والفرس بخمسة دراهم، والحمار بدرهم، وقَسَّم يعقوب الغنائم بين المسلمين بمقتضى الشرع، ونجا ألفونسو ملكُ النصارى إلى طُلَيْطِلَة في أسوأ حال، فحلق رأسه ولحيته، ونكس صليبه، وآلى أن لا ينام على فراش، ولا يقرب النساء، ولا يركب فرسًا ولا دابَّة؛ حتى يأخذ بالثأر، وصار يجمع من الجزائر والبلاد البعيدة ويستعدُّ، ثم لقيه يعقوب وهزمه، وسار خلفه إلى طُلَيْطِلَة وحاصره، ورمى عليها بالمجانيق، وضيَّق عليها، ولم يبقَ إلا فتحُها، فخرجت إليه والدة ألفونسو وبناته ونساؤه وبَكَيْنَ بين يديه، وسألنه إبقاء البلد عليهن، فرقَّ لهن ومَنَّ عليهن بها، ووهب لهنَّ من الأموال والجواهر ما جَلَّ، وردَّهُنَّ مكرماتٍ، وعفا بعد القدرة، وعاد إلى قُرْطُبَة، فأقام شهرًا يُقَسِّم الغنائم[2].

نتائج انتصار الأرك:

تمخَّض عن انتصار الأرك الكبير آثار ونتائج عظيمة؛ أهمُّها ما يلي:

---

(١) أَمْرُ بيع الأسير بدرهم -كما عند المقري- مما يتنافى مع روايات المعاصرين للمعركة من امتنان المنصور عليهم بإطلاقهم بغير فداء.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٣.

أولاً: الهزيمة الساحقة لقوات النصارى:

كان من أهمِّ آثار انتصار الأرك تَبَدُّدُ جيش النصارى بين القتل والأسر؛ فقد قُتِلَ منهم في اليوم الأول فقط -على أقل تقدير- ثلاثون ألفًا، وقد جاء في نفح الطيب للمقري أن عدد قتلى النصارى وصل إلى ستة وأربعين ألفًا ومائة ألف قتيل، من أصل خمسة وعشرين ألفًا ومائتي ألف مقاتل، وكان عدد الأسرى بين عشرين وثلاثين ألف أسير[1]، وقد مَنَّ عليهم المنصور بغير فداء؛ إظهارًا لعظمة الإسلام ورأفته بهم، وعدم اكتراثه بقوَّة النصارى[2].

ثانيًا: النصر المادي:

رغم الكسب المادي الكبير جدًّا، إلاَّ أنه كان أقلَّ النتائج المترتبة على انتصار المسلمين في موقعة الأرك؛ فقد حصد المسلمون من الغنائم ما لا يُحصى، وقد بلغت -كما جاء في نفح الطيب- ثمانين ألفًا من الخيول، ومائة ألفٍ من البغال، وما لا يُحصى من الخيام[3].

وقد وزَّع المنصور رحمه الله هذه الأموال الضخمة وهذه الغنائم كما كان يفعل رسول الله ﷺ؛ فوزَّع على الجيش أربعة أخماسها، واستغلَّ الخمس الباقي في بناء مسجد جامع كبير في إِشْبِيلِيَة؛ تخليدًا لذكرى الأرك، وقد أنشأ له مئذنة سامقة يبلغ طولها مائتي متر، وكانت من أعظم المآذن في الأندلس في ذلك الوقت، إلاَّ أنها - وسبحان الله! - حين سقطت إِشْبِيلِيَة بعد ذلك في أيدي النصارى تحوَّلت هذه المئذنة -والتي كانت رمزًا للسيادة الإسلامية- إلى برج نواقيس للكنيسة، التي حَلَّت مكان المسجد الجامع[4]، وهي موجودة إلى الآن، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

(١) المصدر السابق، ١/ ٤٤٣.
(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٨.
(٣) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٣.
(٤) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٢٩.

ثالثًا: النصر المعنوي:

كان من نتائج موقعة الأرك -أيضًا- ذلك النصر المعنوي الكبير الذي ملأ قلوب المسلمين في مشارق الأرض ومغاربها؛ فقد ارتفع نجم دولة الموحدين كثيرًا، وارتفعت معنويات الأندلسيين، وهانت عليهم قوَّة النصارى، وارتفعت -أيضًا- معنويات المسلمين في كل بلاد العالم الإسلامي؛ حتى راحوا يعتقون الرقاب، ويُخْرِجُون الصدقات فرحًا بهذا الانتصار.

وكان من جرَّاء ذلك -أيضًا- أن استمرَّت حركة الفتوح الإسلامية، واستطاع المسلمون فتح بعض الحصون الأخرى، وحاصروا طُلَيْطِلَة إلاَّ أنها -كما ذكرنا من قبل- كانت من أحصن المدن الأندلسية؛ فلم يستطيعوا فتحها[1].

رابعًا: صراعات شتى بين ممالك النصارى:

نتيجةً لموقعة الأرك -أيضًا- حدثت صراعات شتَّى بين ليون ونافار من ناحية، وبين قشتالة من ناحية أخرى.. فقد ألقى عليهم ألفونسو الثامن (ملك قشتالة) مسئولية الهزيمة[2]، وكان من نتائج ذلك -أيضًا- أن وقعت لهم الهزيمة النفسية، وترتَّب على هذا -أيضًا- أن أتت السفارات تطلب العهد والمصالحة مع المنصور الموحدي.

خامسًا: معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين:

أيضًا كان من نتائج موقعة الأرك أن تمت معاهدة جديدة بين قشتالة والمسلمين على الهدنة ووقف القتال مدَّة عشر سنوات، أراد المنصور أن يُرَتِّبَ فيها الأمور من

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦٠، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٥، والمقري: نفح الطيب، ٢/ ١٩٢، وانظر تفاصيل غزو المنصور لأراضي قشتالة في مجموع رسائل موحدية، الرسالة الخامسة والثلاثون، ص٢٣١.

(٢) انظر: يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ٩٥، وليفي بروفنسال: مجموعة رسائل موحدية ص٢٣٨.

جديد في بلاد الموحدين[١].

أشهر العلماء في عهد يعقوب المنصور:

ابن رشد الحفيد (٥٢٠-٥٩٥هـ= ١١٢٦-١١٩٨م):

هو أبو الوليد، محمد بن أبي القاسم أحمد ابن شيخ المالكية أبي الوليد محمد بن أحمد بن أحمد بن رشد القرطبي، كان مولده سنة (٥٢٠هـ=١١٢٦م)، وقد نشأ في بيتٍ من بيوت العلم؛ فقد كان جدُّه ابن رشد -كما قال عنه ابن بشكوال في الصلة- فقيهًا عالمًا، حافظًا للفقه، مُقَدَّمًا فيه على جميع أهل عصره، عارفًا بالفتوى على مذهب مالك وأصحابه، بصيرًا بأقوالهم واتفاقهم واختلافهم، نافذًا في علم الفرائض والأصول، من أهل الرئاسة في العلم والبراعة والفهم مع الدين والفضل، والوقار والحلم، والسمت الحسن والهدي الصالح[٢].

نشأ ابن رشد الحفيد في هذا البيت، ومع أنه لم يُدرك جدَّه العظيم هذا -حيث تُوُفِّيَ جدُّه وعُمر الحفيد شهر واحد- إلاَّ أنه ورث العلم الغزير، خاصَّة في الفقه عن أبيه الذي تربَّى وتَعَلَّم على يد جدِّه وعن غيره من فقهاء عصره، وقيل: إنه تلقَّى علوم الفلسفة على ابن باجة[٣].

وقد ذكر الذهبي أن ابن رشد ما ترك الاشتغال مذ عَقَل سوى ليلتين: ليلة موت أبيه، وليلة عرسه، وأنه سوَّد فيها ألَّف وقيَّد نحوًا من عشرة آلاف ورقة، ومال إلى علوم الحكماء، فكانت له فيها الإمامة، وله من التصانيف: بداية المجتهد ونهاية المقتصد في الفقه، والكليات في الطب، ومختصر المستصفى في الأصول، وشرح

---

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٦٠، وقالت بعض المصادر: إن مدة الهدنة كانت خمس سنين. انظر: ابن الأثير: الكامل، ١٠/ ٢٣٨، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ١٩٣.

(٢) ابن بشكوال: الصلة، ٣/ ٨٣٩ (١٢٧٨).

(٣) رحاب عكاوي: ابن رشد، ص٩.

أرجوزة ابن سينا في الطب، والمقدمات في الفقه، وكتاب الحيوان، وكتاب جوامع كتب أرسطوطاليس، وشرح كتاب النفس، وكتاب في المنطق، وكتاب تلخيص الإلاهيات لنيقولاوس، وكتاب تلخيص ما بعد الطبيعة لأرسطو، وكتاب تلخيص الاستقصات لجالينوس، ولخصَّ له كتاب المزاج، وكتاب القوى، وكتاب العلل، وكتاب التعريف، وكتاب الحميات، وكتاب حيلة البرء، ولخص كتاب السماع الطبيعي، وكتاب تهافت التهافت، وكتاب منهاج الأدلة، وكتاب فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال، وكتاب شرح القياس لأرسطو، ومقالة في العقل، ومقالة في القياس، وكتاب الفحص في أمر العقل، والفحص عن مسائل في الشفاء، ومسألة في الزمان، ومقالة فيما يعتقده المشَّاءون وما يعتقده المتكلمون في كيفية وجود العالم، ومقالة في نظر الفارابي في المنطق ونظر أرسطو، ومقالة في اتصال العقل المفارق للإنسان، ومقالة في وجود المادَّة الأولى، ومقالة في الردِّ على ابن سينا، ومقالة في المزاج، ومسائل حكمية، ومقالة في حركة الفلك، وكتاب ما خالف فيه الفارابي أرسطو[(١)].

أثر فلسفة ابن رشد على الغرب:

كان لابن رشد فضل كبير على روجر بيكون الفيلسوف الشهير؛ فقد استفاد هذا الأخير من مؤلفاته وحيًا، واستنزل من حكمته إلهامًا، وذكره في كتابه اللاتيني (أبوس ماجوس)، وأثنى عليه وعلى مواهبه وسعة علمه، فقال: «إنه فيلسوف متين متعمق، صحَّح كثيرًا من أغلاط الفكر الإنساني، وأضاف إلى ثمرات العقول ثروة لا يُستغنى عنها بسواها، وأدرك كثيرًا مما لم يكن قبله معلومًا لأحد، وأزال الغموض عن كثير من الكتب التي تناولها ببحثه».

---

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٨، ٣٠٩.

وأمَّا توماس الأكويني الذي أصبح قديسًا؛ لأنه كان أعظم لاهوتي في كنائس الغرب، وأكبر فلاسفة القرون الوسطى، فقد سطع نجمه وعلا بكتابه إجمال اللاهوت (سوماتيولوجيا)، وقد ذكر توماس أسباب اتصاله بالأفكار الدنيوية، ودلَّ على أن الفضل في وضع كتابه شكلاً ومادة يعود إلى طريقة ابن رشد وفلسفته.

على أن فيلسوف قُرْطُبَة - ابن رشد - لم يسلم من ألسنة رجال الكنيسة؛ فقد ذَمُّوه بكل شفة ولسان، وطعنوا عليه أقبح طعن؛ فقد قال عنه بترارك: «إنه ذلك الكلب الكلِب الذي هاجه غيظ ممقوت؛ فأخذ ينبح على سيده ومولاه المسيح والديانة الكاثوليكية». وأما دانتي فقد جعله في هدوء ووقار يتبوَّأ مقعده في الجحيم جزاء له على كفره واعتزاله[١].

ومن ثناء العلماء عليه ما نقله الذهبي عن ابن أبي أصيبعة من قوله: كان أوحد في الفقه والخلاف، وبرع في الطب[٢]، وقول الذهبي نفسه: «وكان يُفزع إلى فتياه في الطب، كما يُفزع إلى فتياه في الفقه، مع وفور العربية، وقيل: كان يحفظ ديوان أبي تمام والمتنبي»[٣].

كان الخليفة أبو يعقوب يستعين بابن رشد إذا احتاج الأمر للقيام بمهام رسمية عديدة، ولأجلها طاف في رحلات متتابعة في مختلف أصقاع المغرب؛ فتنقَّل بين مَرَّاكُش وإِشْبِيلِيَة وقُرْطُبَة، ثم دعاه أبو يعقوب في سنة (٥٧٨هـ) إلى مَرَّاكُش فجعله طبيبه الخاص، ثم ولاَّه منصب القضاء في قُرْطُبَة، فلما مات أبو يعقوب يوسف وخلفه ابنه أبو يوسف يعقوب المنصور زادت مكانة ابن رشد في عهده مكنة ورفعة،

(١) محمد لطفي جمعة: تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، ص٢٢٣.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٨، وانظر: ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء ٣/ ٣١٩.
(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٨.

وقرَّبه الأمير إليه، ولكن كاد له بعض المقرَّبين من الأمير، فأمر الأمير بنفيه إلى قرية كانت لليهود، وأحرق كتبه، وأصدر منشورًا إلى المسلمين كافَّة ينهاهم عن قراءة كتب الفلسفة، أو التفكير في الاهتمام بها، وهَدَّد مَنْ يُخَالِف أمره بالعقوبة[١].

وقد مات ابن رشد محبوسًا في داره بمَرَّاكُش، وذلك سنة (٥٩٥هـ=١١٩٨م)[٢].

محمد بن سعيد بن زرقون (٥٠٢-٥٨٦ هـ= ١١٠٩-١١٩٠م):

هو -كما يصفه الذهبي في السير- المُسْنِدُ الفقيه، أبو عبد الله محمد بن سعيد بن أحمد بن سعيد الأنصاري الإشبيلي المالكي، المعروف بابن زرقون... وزرقون هو لقب جدهم سعيد.

وقد وُلِدَ سنة (٥٠٢هـ) في شَرِيش بالأندلس وتُسمى الآن هريز في جنوب إسبانيا، تلقَّى العلم على شيوخها، ثم انتقل مع أبيه إلى مَرَّاكُش، وبعد ذلك إلى الأندلس وتجوَّل فيها، ولازم القاضي عياضًا (ت ٥٤٤هـ)، وتلقَّى العلم بمَرَّاكُش وبسَبْتَةَ، وتولَّى ابن زرقون القضاء في إِشْبِيلِيَة وشِلْب.

وكان مُسْنِدُ الأندلس في وقته، وله مؤلَّف جَمَعَ بين الجامع الكبير للترمذي وسنن أبي داود في الحديث، وقد تُوُفِّيَ بإِشْبِيلِيَة في نصف رجب (٥٨٦هـ=١١٩٠م) عن أربع وثمانين سنة[٣].

الإمام الشاطبي (٥٣٨-٥٩٠هـ=١١٤٤-١١٩٤م):

هو كما يصفه الذهبي في السير: الشيخ الإمام، العالم العامل، القدوة، سيد القرَّاء، أبو محمد، وأبو القاسم القاسم بن فِيرُّه بن خلف بن أحمد الرعيني، الأندلسي

---

(١) رحاب عكاوي: موسوعة عباقرة الإسلام، ٢/ ٢٤٩.

(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٣٠٩.

(٣) المصدر السابق، ٢١/ ١٤٧، وما بعدها بتصرف.

الشاطبي، الضرير، وُلِدَ في شاطِبَة من بلاد الأندلس سنة (٥٣٨هـ=١١٤٤م)[1].

قرأ ببلده القراءات (أي علم قراءات القرآن الكريم) وأتقنها، ثم رحل إلى بَلَنْسِيَة بالقرب من بلده وسمع الحديث، ثم رحل للحج فأخذ العلم -أيضًا- بالإسكندرية[2].

ومن أشهر مؤلفات الإمام الشاطبي قصيدته الرائعة العظيمة الفائدة، الجمَّة النفع، المسماة: (حرز الأماني ووجه التهاني في القراءات السبع)، والتي عُرفت بـ «متن الشاطبية»، وقد أبدع رحمه الله فيها غاية الإبداع، ورزقه الله من التوفيق في هذا المتن ما لا يُوصف إلاَّ بأنه نور من الله عز وجل نوَّر به عقله وقلبه، فأطلق لسانه بهذا المتن العظيم (متن الشاطبية)؛ ويقع هذا المتن في أبيات تزيد على الألف، وقد قال رحمه الله في خاتمته: [الطويل]

وَأَبْيَاتُهَا أَلْفٌ تَزِيدُ ثَلاَثَةً ... وَمَعْ مِائَةٍ سَبْعِينَ زُهْرًا وَكُمَّلاَ

قال الشارح: زُهْرًا وَكُمَّلاً: حالان من الضمير في تزيد الراجع إلى الأبيات؛ أي: هي زاهرة كاملة، يعني: مضيئة كاملة الأوصاف. ثم قال رحمه الله:

وَقَدْ كُسِيَتْ مِنْهَا المُعَانِي عِنَايَةً ... كَمَا عَرِيَتْ عَنْ كُلِّ عَوْرَاءَ مِفْصَلا

قال الشارح: أثنى في هذا البيت على معانيها وألفاظها؛ فنصب (عناية) على أنه مفعولي كُسيت؛ أي أنه اعتنى بها فجاءت شريفة المعاني، حسنة المباني، وقابل بين الكسوة والعري، فقال: كُسيت معانيها عناية، وعَرِيت في التعبير عنها عن كل جملة عورًا؛ أي لا تُنْبِئُ عن المعنى المقصود فهي ناقصة[3].

(١) انظر: الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٢٦١، ٢٦٢.
(٢) انظر: ابن الجزري: غاية النهاية، ٢/ ٢٠-٢٢.
(٣) أبو شامة: إبراز المعاني من حرز الأماني، ص٧٥٦.

ونَظَم -أيضًا- قصيدته الرائية المسمّاة: (عقيلة أتراب القصائد في أسنى المقاصد)، وهي في علم الرسم[١]، و(ناظمة الزهر) وهي في علم عدد الآي، وله -أيضًا- قصيدة دالية تقع في خمسمائة بيت لخَّص فيها التمهيد لابن عبد البر[٢].

وتتلمذ عليه كثيرون، فقد كان شيخَ القراء بلا منازع، وقد بارك الله له في تصنيفه وأصحابه، فلا نعلم أحدًا أخذ عنه إلا قد نجب[٣].

قال عنه الإمام ابن الجزري: وكان إمامًا كبيرًا أُعجوبة في الذكاء، كثير الفنون، آية من آيات الله تعالى، غاية في القراءات، حافظًا للحديث، بصيرًا بالعربية، إمامًا في اللغة، رأسًا في الأدب مع الزهد والولاية والعبادة والانقطاع والكشف، شافعي المذهب، مواظبًا على السُّنَّة، بلغنا أنه وُلِدَ أعمى، ولقد حكى عنه أصحابه ومَنْ كان يجتمع به عجائب، وعَظَّموه تعظيمًا بالغًا؛ حتى أنشد الإمام الحافظ أبو شامة المقدسي رحمه الله من نظمه في ذلك: [الوافر]

رَأَيْتُ جَمَاعَةً فُضَلاءَ فَازُوا ... بِرُؤْيَةِ شَيْخِ مِصْرَ الشَّاطِبِيِّ

وَكُلُّهُمُ يُعَظِّمُهُ وَيُثْنِي ... كَتَعْظِيمِ الصَّحَابَةِ لِلنَّبِيِّ[٤]

وقال عنه المقري في نفح الطيب: وكان إمامًا علاَّمة ذكيًّا، كثير الفنون، منقطع القرين، رأسًا في القراءات، حافظًا للحديث، بصيرًا بالعربية، واسع العلم، وقد سارت الركبان بقصيدتيه: (حرز الأماني) و(عقيلة أتراب الفضائل) اللتين في القراءات والرسم، وحَفِظَهما خلقٌ لا يُحْصَوْنَ، وخضع لهما فحول الشعراء وكبار البلغاء وحُذَّاق القرَّاء، ولقد أوجز وسهَّل الصعب[٥].

---

(١) أي رسم المصحف وهو كتابة القرآن الكريم.
(٢) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٢٦٣، ٢٦٤.
(٣) ابن الجزري: غاية النهاية، ٢/ ٢٢.
(٤) ابن الجزري: غاية النهاية، ٢/ ٢٠، ٢١.
(٥) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٢٤.

وقال السبكي في حقِّ الإمام الشاطبي: إنَّه كان قويَّ الحافظة، واسع المحفوظ، كثير الفنون، فقيهًا، مقرئًا، محدِّثًا، نحويًّا، زاهدًا، عابدًا، ناسكًا، يتوقَّد ذكاءً. وقال السخاوي: أقطع أنَّه كان مكاشفًا، وأنَّه سأل الله كتمان حاله، ما كان أحدٌ يعلم أي شيء هو[1].

وقال ابن خلّكان: ولقد أبدع كل الإبداع في حرز الأماني، وهي عمدة قرَّاء هذا الزمان في نقلهم، فقلَّ مَنْ يشتغل بالقراءات إلاَّ ويُقَدِّم حفظها ومعرفتها، وهي مشتملة على رموز عجيبة وإشارات لطيفة، وما أظنُّه سُبِقَ إلى أسلوبها، وقد رُوِيَ عنه أنَّه كان يقول: لا يقرأ أحد قصيدتي هذه إلاَّ وينفعه الله؛ لأنني نظمتها لله[2].

وقال عنه الذهبي: كان يتوقَّد ذكاء، له الباع الأطول في فنِّ القراءات والرسم والنحو والفقه والحديث، وله النظم الرائق مع الورع والتقوى، والتألُّه والوقار... وكان إذا قُرِئَ عليه (الموطأ) و(الصحيحان)، يُصَحِّحُ النسخ من حفظه، حتى كان يقال: إنه يحفظ وِقْر بعير من العلوم[3].

ومن عجيب ما يُروى له من الكرامات، ما أورده الإمام ابن الجزري، قال: أخبرني بعض شيوخنا الثقات عن شيوخهم أن الشاطبي كان يُصَلِّي الصبح بغلس بالفاضلية، ثم يجلس للإقراء، فكان الناس يتسابقون السُّرَى[4] إليه ليلاً، وكان إذا قعد لا يزيد على قوله: مَنْ جاء أولاً فليقرأ. ثم يأخذ على الأسبق فالأسبق، فاتُّفِقَ في بعض الأيام أن بعض أصحابه سبق أولاً، فلما استوى الشيخ قاعدًا، قال: مَنْ جاء ثانيًا فليقرأ. فشرع الثاني في القراءة، وبقي الأول لا يدري حاله، وأخذ يتفكَّر ما وقع

---

(١) السبكي: طبقات الشافعية الكبرى ٧/ ٢٧٣، والمقري: نفح الطيب، ٢/ ٢٤.

(٢) انظر: ابن خلكان: وفيات الأعيان، ٤/ ٧١.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢١/ ٢٦٢، ٢٦٤.

(٤) السُّرَى: سَيرُ عامة الليل. الجوهري: الصحاح، باب الواو والياء فصل السين ٦/ ٢٣٧٦، وابن منظور: لسان العرب، مادة سرا ١٤/ ٣٧٧، والمعجم الوسيط ١/ ٤٢٨.

منه بعد مفارقة الشيخ من ذنب أوجب حرمان الشيخ له، ففطن أنه أَجْنَبَ تلك الليلة، ولشدَّة حرصه على النوبَة نسي ذلك لَمَّا انتبه، فبادر إلى الشيخ، فأُطْلِع الشيخ على ذلك، فأشار للثاني بالقراءة، ثم إنَّ ذلك الرجل بادر إلى حمام جوار المدرسة فاغتسل به، ثم رجع قبل فراغ الثاني، والشيخ قاعد أعمى على حاله، فلما فرغ الثاني قال الشيخ: مَنْ جاء أولاً فليقرأ. فقرأ، وهذا من أحسن ما نعلمه وقع لشيوخ هذه الطائفة، بل لا أعلم مثله وقع في الدنيا(١).

توفي رحمه الله -بعد حياة حافلة بالعلم الواسع الغزير والجهاد في نشره- بالقاهرة في الثامن والعشرين من جمادى الآخرة سنة (٥٩٠هـ= ١٩/ ٦/ ١١٩٤م) ودُفِنَ بالقرافة بين مصر والقاهرة بمقبرة القاضي الفاضل عبد الرحيم البيساني، وقبره مشهور معروف(٢).

❊ ❊ ❊

(١) ابن الجزري: غاية النهاية، ٢/ ٢٢١.
(٢) المصدر السابق، ٢/ ٢٢.

الفصل الخامس

معركة العقاب.. والهزيمة المريرة

لقي المنصور ربه في سنة (٥٩٥هـ= ١١٩٩م) عن عُمر لم يتعدَّى الأربعين سنة، تمَّ له فيه حُكم دولة الموحدين خمس عشرة سنة؛ من سنة (٥٨٠هـ=١١٨٥م) وحتى وفاته في سنة (٥٩٥هـ=١١٩٩م)، ثم تولَّى من بعده ابنه الناصر لدين الله أبو محمد عبد الله، وعمره آنذاك سبعة عشرة سنة وأشهر[١]، ورغم أن صِغَر السنِّ ليس به ما يشوبه في ولاية الحُكم خاصة وقد رأينا من ذلك الكثير، إلاَّ أنَّ الناصر لدين الله لم يكن على شاكلة أبيه في أمور القيادة.

وكان المنصور الموحدي قد استخلف ابنه الناصر لدين الله قبل وفاته على أمل أن يُمِدَّ الله في عمره؛ فيستطيع الناصر لدين الله أن يكتسب من الخبرات ما يُؤَهِّله لأن يُصبح بعد ذلك قائدًا فذًّا على شاكلة أبيه، لكن الموت المفاجئ للمنصور الموحدي عن عُمر لم يتجاوز الأربعين عامًا وضع الناصر لدين الله على رئاسة البلاد وهو لم يتجاوز الثامنة عشر من عمره[٢].

الناصر لدين الله وعقبات في الطريق:

كان الناصر لدين الله شابًّا طموحًا قويًّا مجاهدًا[٣]، لكنه لم يكن في كفاءة أبيه،

---

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٨٦.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٣٠.
(٣) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٨٦.

وفضلاً عن هذا فقد كانت البلاد محاطة بالأعداء من كل جانب، والنصارى بعدُ لم ينسوا هزيمتهم في موقعة الأرك، التي كانت قبل سنوات قلائل، ويُريدون أن يُعيدوا الكرة من جديد على بلاد المسلمين.

لكن المشكلة التي ما فتئت تؤرق الموحدين، وتمثل شوكة في ظهر المسلمين، هم بنو غانية، والحقيقة أن بني غانية قاموا بأسوأ دور يمكن أن يقوموا به، ولقد كان المنصور قد عزم على أن يواصل الجهاد حتى يقضي على التهديد النصراني الإسباني نهائيًّا؛ لولا أن استغل هؤلاء انشغاله بالجهاد في الأندلس فنشطوا حركتهم في إفريقية مرة أخرى؛ حتى كان تمردهم هذا من أسباب قبوله بمهادنة النصارى، فلما مات المنصور زاد نشاطهم وتكثف، فبدأت الخلخلة والاضطرابات تتزايد داخل الدولة الإسلامية الكبيرة، وفي سبيل استعادة الوضع إلى ما كان عليه وجَّه الناصر لدين الله جُلَّ طاقته للقضاء على ثورات بني غانية داخل دولة الموحدين، فخاض معهم معارك وحروب كثيرة، حتى استطاع في نهاية الأمر إخمادها تمامًا، وكان على محمد الناصر أن يبدأ عهده بالعمل على استئصال شوكتهم، فوجَّه الحملات، وتوجَّه هو بنفسه إلى إفريقية لحرب بني غانية فيها، وعاد سنة (٦٠٤هـ) بعدما تمكَّن من الاستيلاء على المدن التي استولوا عليها من قبل في إفريقية[١].

ألفونسو الثامن واستغلال الوضع الراهن:

في هذه الأثناء التي كان يسعى فيها الناصر لدين الله للقضاء على ثورات بني غانية، كان قد تجدَّد الأمل عند ألفونسو الثامن، فعمل على تجهيز العُدَّة لِرَدِّ الاعتبار، وقبل انتهاء الهدنة ومخالفةً للمعاهدة التي كان قد عقدها مع المنصور الموحدي قبل موته، هجم ألفونسو الثامن على بلاد المسلمين، فنهب القرى وأحرق الزروع، وقتل

(١) عبد الواحد المراكشي المعجب، ص٣٩٨، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٩.

العُزَّل من المسلمين، وكانت هذه بداية حرب جديدة ضد المسلمين[١].

دولة الموحدين وعيوب خطيرة في مواجهة النصارى:

إضافة إلى ضعف كفاءة القيادة في دولة الموحدين المتمثِّلة في الناصر لدين الله، والتي لم تكن بكفاءة السابقين، فقد كان ثمة عيب خطير آخر في القيادة، كان متأصلاً في أجداده من قبله، وهو اعتداد الناصر لدين الله برأيه ومخالفته أمر الشورى[٢]، ذلك العيب الذي تفاداه أبوه من قبله، فأفلح وساد وتمكَّن، ونصره الله ﷻ، وفوق هذا وذاك فكان المسلمون قد أُنْهِكُوا في رَدِّ الثورات المتتالية لبني غانية داخل دولة الموحدين.

وزاد من ذلك أمر آخر كان في غاية الخطورة، وهو أن الناصر لدين الله كان قد استعان ببطانة سوء، ووزير ذميم الخلُق وسيئ التدبير والسياسة يُدْعَى أبا سعيد بن جامع، والذي شكَّ كثير من المؤرخين في نياته، وشكَّ كثير من الأندلسيين والمغاربة المعاصرين له في اقتراحاته[٣].

النصارى والتعبئة العامة:

على الجانب الآخر من أحداث دولة الموحدين كانت هناك تعبئة روحية عالية في جيش النصارى، يقودها البابا في روما بنفسه، وقد أعلنوها حربًا صليبية، وراحوا يُضْفُون عليها ألوانًا من القداسة[٤].

وقد زاد الأمر تعقيدًا إرسالُ البابا رسالة إلى مملكة نافار - وكانت قد وَقَّعت

---

(١) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٩٨، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٠.

(٢) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٠.

(٣) انظر: السلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢١.

(٤) انظر: عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٩٩، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٣، ٢٦٤، والحميري: الروض المعطار، ص٤١٦، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١٠٩، وما بعدها.

معاهدة مع المنصور الموحدي قبل وفاته - يحضُّها فيها على نبذ المعاهدة التي مع الموحدين، وعلى استعادة العلاقة مع القشتاليين، وكان القشتاليون - كما ذكرنا - قد اختلفوا مع مملكة ليون ونافار بعد هزيمة الأرك، لكن البابا الآن يُريد منهم التوحد في مواجهة الصفِّ المسلم، فخاطب ملك نافار بنقض عهده مع المسلمين ومحالفة ملك قشتالة، فما كان منه إلاَّ أن أبدى السمع والطاعة(١).

تكون دول أوربا بذلك قد توحَّدت، وبلغ عدد جيوشها مائتي ألف نصراني، يَتَقَدَّمُهم الملوك والرهبان نحو موقعة فاصلة بينهم وبين المسلمين.

جيش الموحدين وطريقه نحو العقاب:

في مقابل جيوش النصارى تلك كان الناصر لدين الله قد أعلن الجهاد، وجمع المجاهدين من بلاد المغرب العربي والأندلس وقد بلغ الجيش عددًا عظيمًا أوصلته بعض الروايات إلى نصف مليون، وإن كنا نرى في هذا العدد مبالغة كبيرة بالقياس للظروف التاريخية لهذه الفترة(٢).

انطلق الناصر لدين الله بجيشه من بلاد المغرب وعبر مضيق جبل طارق، ثم توجَّه إلى ذهب إلى إشبيلية، ثم إلى سلبطرة، ثم عاد إلى إشبيلية، ثم ذهب إلى العقاب، وفي طريقه إلى العقاب بقي فترة في ظاهر جيان، وعُرفت منطقة العقاب بهذا الاسم لوجود قصر قديم كان يحمل هذا الاسم في تلك المنطقة- وهي تلك المنطقة التي دارت فيها الموقعة، وقد كانت -وسبحان الله- اسمًا على مسمى، فكانت بحقٍّ عقابًا للمسلمين على مخالفات كثيرة، ظهر بعضها سابقًا وسيظهر الباقي تباعًا(٣).

---

(١) انظر: ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٤.

(٢) المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٦ والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٠، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عصر المرابطين والموحدين ٢/ ١٠٨.

(٣) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٠ – ٢٦٥، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٦/ ٢٤٩.

دخل الناصر لدين الله أرض الأندلس بهذا العدد الكثيف من المسلمين، وفي أول عمل حربي له حاصر قلعة سَلْبَطْرَة، وكانت قلعة كبيرة وحصينة جدًّا، وبها عدد قليل من النصارى، وكانت تقع في الجبل جنوب طُلَيْطِلَة، لكنَّ حصانة القلعة أعجزت المسلمين عن فتحها، حتى كاد الناصر أن يتجاوزها؛ إلا أن الوزير ابن جامع أصر على ضرورة فتح القلعة فبقيت الجيوش تحاصر القلعة[(١)].

نتائج الاستبداد وملامح الهزيمة:

كان من جرَّاء هذا العمل الذي قام به الناصر لدين الله أن حدث ما يلي:

أولاً: إضاعة الوقت في حصار قلعة سلبطرة، وقد كان من الممكن أن يُهاجَم النصارى بهذا الجيش الكثيف قبل أن يتجمَّعُوا في كامل عُدَّتهم.

ثانيًا: أكمل النصارى استعداداتهم خلال هذه الفترة الطويلة، واستطاعوا أن يستجلبوا أعدادًا أخرى كثيرة من أوربا.

ثالثًا: أصاب الضرر الآلاف من المسلمين من صقيع جبال الأندلس في ذلك الوقت؛ حيث كان الناصر لدين الله قد دخل بلاد الأندلس في شهر مايو، وكان مناسبًا جدًّا للقتال، إلاَّ أنه ظلَّ يُحَاصر سَلْبَطْرَة حتى قَدِم الشتاء القارس، وبدأ المسلمون يهلكون من شدَّة البرد، وشدَّة الإنهاك في هذا الحصار الطويل[(٢)].

أبو الحجاج يوسف بن قادس والتحيز إلى فئة المؤمنين:

في بدايةٍ لحربٍ فاصلة قُسِّم الجيش النصراني القادم من الشمال إلى ثلاثة جيوش كبيرة، فالجيش الأول: هو الجيش الأوربي، والجيش الثاني: هو جيش إمارة

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٦، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢١، وثمة رواية أخرى ولها دلائل كثيرة تقول بأن فتح هذه القلعة كان في غزوة مستقلة، انظر: الحميري: الروض المعطار ص٣٤٤، وابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٢٦٠، وعبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٣٩٩.

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١٠٨.

أراجون، والجيش الثالث: هو جيش قشتالة والبرتغال وليون ونافار، وهو أضخم الجيوش جميعها[1].

قامت هذه الجيوش الثلاث بحصار قلعة رباح، وهي قلعة إسلامية كان قد تملكها المسلمون بعد موقعة الأرك، وكان على رأسها القائد البارع الأندلسي الشهير أبو الحجاج يوسف بن قادس رحمه الله وهو من قادة الأندلس المشهورين، حوصرت قلعة رباح حصارًا طويلاً من قِبَل الجيوش النصرانية، وقد طال أمد الحصار حتى أدرك أبو الحجاج يوسف بن قادس أنه لن يفلت منه، كما بدأت بعض الحوائط في هذه القلعة تتهاوى أمام جيش مملكة أراجون.

أراد أبو الحجاج يوسف بن قادس أن يُحَقِّقَ الأمن والأمان لَمَنْ في الحصن من المسلمين، وأراد أن يتحيَّز إلى فئة المؤمنين وينضمَّ إلى جيش المسلمين، فعرض على النصارى معاهدة تقضي بأن يترك لهم القلعة بكامل المؤن وكامل السلاح، على أن يخرج هو ومَنْ معه من المسلمين سالمين؛ ليتجهوا جنوبًا فيلتقوا بجيش الموحدين هناك ودون مؤن أو سلاح، فوافق ألفونسو الثامن على هذا العرض، وبدأ بالفعل انسحاب أبي الحجاج يوسف بن قادس من الحصن ومَنْ معه من المسلمين، وقد اتجهوا إلى جيش الناصر لدين الله.

ولأن الوليمة ليست قصرًا على ألفونسو الثامن، فقد اعترض على هذا الانسحاب جيش النصارى الأوربي المتحد مع جيش قشتالة.. فقد كانوا يَرَوْنَ أنهم ما أتوا من أبعد بلاد أوربا ومن إنجلترا وفرنسا والقسطنطينية إلاَّ لقتل المسلمين؛ فلا يجب أبدًا أن يُتركوا ليخرجوا سالمين.

وقد فعل ألفونسو الثامن ذلك حتى إذا حاصر مدينة أخرى من مدن المسلمين

---

(١) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٢.

يفتحون له كما فعل سابقوهم؛ لأنه لو قاتلهم بعد العهد الذي أبرمه معهم فلن يفتح له المسلمون بعد ذلك مدنهم، فاختلف الأوربيون مع ألفونسو الثامن، وعليه فقد انسحبوا من الموقعة[(١)].

وبذلك يكون قد انسحب من موقعة العقاب وقبل خوضها مباشرة خمسون ألفًا من النصارى، وبالطبع فقد كان هذا نصرًا معنويًّا وماديًّا كبيرًا للمسلمين، وهزيمة نفسية وهزَّة كبيرة في جيش النصارى، وقد أصبح جيش المسلمين بعد هذا الانسحاب أضعاف جيش النصارى[(٢)].

بطانة السوء وقتل أبي الحجاج يوسف بن قادس:

عندما عاد أبو الحجاج يوسف بن قادس إلى الناصر لدين الله، وعندما علم منه أنه قد ترك قلعة رباح وسَلَّمَها بالمؤن والسلاح إلى النصارى، أشار عليه وزير السوء أبو سعيد بن جامع بقتله؛ بتهمة التقاعس عن حماية القلعة، ولم يتردَّد الناصر لدين الله، في تنفيذ هذا القتل بحق القائد المجاهد أبي الحجاج يوسف بن قادس[(٣)].

وإن هذا - وبلا شكٍّ - ليُعَدُّ خطأً كبيرًا من الناصر لدين الله، وعملاً غير مُبَرَّر، ويُضاف إلى جملة أخطائه السابقة؛ وذلك للآتي:

أولاً: أن أبا الحجاج يوسف بن قادس لم يُخطئ بانسحابه هذا؛ بل كان متحرِّفًا لقتال، ومتحيِّزًا إلى الجيش المتأهِّب للحرب، كما أنه لو مكث لهلك، ولو لم يهلك لكانت قد حُيِّدَت قواته عن الاشتراك في الموقعة؛ بسبب الحصار المفروض عليها.

ثانيًا: وعلى فرض أن أبا الحجاج يوسف بن قادس قد أخطأ، فلم يكن - على

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٤٠١، وابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٨، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٢، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٤.

(٢) شوقي أبو خليل: العقاب، ص٣٤، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٤.

(٣) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٨، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٤٩.

الإطلاق - عقاب هذا الخطأ القتل؛ خاصة وأنه لم يتعمَّده، بل كان اجتهادًا منه.

وإن مثل ذلك قد حدث في حروب الردَّة حينما أخطأ عكرمة بن أبي جهل ﷺ في إحدى المعارك، وكان خليفة المسلمين حينئذٍ أبا بكر الصديق ﷺ، فما كان من أبي بكر في معالجة خطأ عكرمة إلاَّ أن عَنَّفَه باللسان وأوضح له خطأه، ثُمَّ أعاده مع جيشه من جديد إلى القتال؛ لمساعدة جيش آخر من جيوش المسلمين، بل أرسل إلى قائد هذا الجيش الآخر -يرفع من رُوح عكرمة وجيشه - بأن يستعين برأي عكرمة بن أبي جهل فإنَّ له رأيًا[1].

ومن هنا وبهذه الطريقة وبجانب فَقْدِ قوَّة كبيرة جدًّا (بفقد هذا القائد البارع)، فقد فقَدَ الجيش الإسلامي -أيضًا- قوَّة الأندلسيين، الذين شعروا أن هناك فارقًا بينهم وبين المغاربة؛ مما كان له أثر سلبي كبير على واقع المعركة، على نحو ما سيأتي بيانه.

وفي ذلك يقول المقري في نفح الطيب: وهذه الوقعة - العقاب - هي الطامة على الأندلس بل والمغرب جميعًا، وما ذاك إلاَّ لسوء التدبير، فإن رجال الأندلس العارفين بقتال الإفرنج استخفَّ بهم الناصر ووزيره، فشنق بعضهم، ففسدت النيَّات، فكان ذلك من بخت الإفرنج، والله غالب على أمره، ولم تقم بعدها -أي: بعد موقعة العقاب- للمسلمين قائمة تحمد[2].

خطة الناصر لدين الله ومتابعة الأخطاء:

تكملة للأخطاء السابقة فقد وضع الناصر لدين الله خطة شاذَّة في ترتيب جيشه وتقسيمه، حيث لم يَسِر فيه على نهج السابقين، ولم يقرأ التاريخ كما قرأه المنصور

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك، ٢/ ٢٧٥.
(٢) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٨٣.

الموحدي ويوسف بن تاشفين.. فقد قَسَّم جيشه إلى فرقة أمامية وفرقه خلفية، لكنه جعل الفرقة الأمامية من المتطوِّعين، وعددهم ستون ألفًا ومائة ألف متطوِّع، وضعهم في مقدمة الجيش ومِنْ خلفهم الجيش النظامي الموحدي[١].

وإنْ كان هؤلاء المتطوعة الذين في المقدمة متحمسين للقتال بصورة كبيرة، فليست لهم الخبرة والدراية بالقتال، كما هو الحال بالنسبة لتلك الفرقة المنتخبة من أجود مقاتلي النصارى، والتي هي في مقدمة جيشهم.

فكان من المفترض أن يضع الناصر لدين الله في مقدمة الجيش القادرين على صدِّ الهجمة الأولى للنصارى؛ وذلك حتى يتملَّك الخطوات الأولى في الموقعة، ويرفع بذلك من معنويات المسلمين ويحطَّ من معنويات النصارى، لكن العكس هو الذي حدث؛ حيث وضع المتطوعة في المقدمة.

ولقد زاد من ذلك -أيضًا- فجعل الأندلسيين في ميمنة الجيش، وما زال الألم والحرقة تكمن في قلوبهم من جرَّاء قتل قائدهم الأندلسي المجاهد المغوار أبي الحجاج يوسف بن قادس، فكان خطأ كبيرًا -أيضًا- أن جعلهم يتلقَّوْنَ الصدمة الأولى من النصارى[٢].

فنستطيع الآن حصر أخطاء الناصر لدين الله وهو في طريقه نحو العقاب على النحو التالي:

أولاً: إطالة الحصار لقلعة سَلْبَطْرَة حتى تمكَّن النصارى من الاستعداد والتجهز.

---

(١) ابن أبي زرع: روض القرطاس ص٢٣٩، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٨

(٢) يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٨.

ثانيًا: الاستعانة ببطانة السوء، الممثّلة في وزير السوء أبي سعيد بن جامع.

ثالثًا: قتل القائد الأندلسي المشهور أبي الحجاج يوسف بن قادس.

رابعًا: تنظيم الجيش وتقسيمه الخاطئ في أرض الموقعة.

خامسًا: أمر في غاية الخطورة وهو الاعتقاد في قوَّة العدد والعدَّة، فقد دخل الناصر لدين الله الموقعة وهو يعتقد أنه لا محالة منتصر[1]؛ فجيشه أضعاف الجيش المقابل، ومن هنا تتبدَّى في الأفق سحائب حنين جديدة، يخبر عنها ﷻ بقوله: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥].

العقاب.. والعقاب المرُّ:

تمامًا وكما تكرَّرت حُنين في أرض الأندلس قبل ذلك في بلاط الشهداء، وفي موقعة الخندق مع عبد الرحمن الناصر وهو في أعظم قوَّته، تتكرَّر حُنين -أيضًا- مع الناصر لدين الله في موقعة العقاب وهو في أعظم قوَّة للموحدين، وفي أكبر جيش للموحدين على الإطلاق، بل وفي أكبر جيوش المسلمين في بلاد الأندلس منذ أن فُتحت في سنة (٩٢هـ=٧١١م)، ولتوالي الأخطاء السابقة كان طبيعيًّا جدًّا أن تحدث الهزيمة، فقد هجم المتطوعون من المسلمين على مقدمة النصارى، لكنهم ارتطموا ارتطامًا شديدًا بقلب القشتاليين المدرَّب على القتال، فصدُّوهم بكل قوَّة ومزَّقوا مقدِّمة المسلمين، وقتلوا منهم الآلاف في الضربة الأولى لهم.

واستطاعت مُقَدِّمة النصارى أن تخترق فرقة المتطوِّعة بكاملها، والبالغ عددهم - كما ذكرنا- ستين ألفًا ومائة ألف مقاتل، وقد وصلوا إلى قلب الجيش الموحدي النظامي، الذي استطاع أن يصدَّ تلك الهجمة، لكن كانت قد هبطت وبشدَّة

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ٤/ ٣٨٣، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٠.

معنويات الجيش الإسلامي؛ نتيجة قتل الآلاف منهم، وارتفعت كثيرًا معنويات الجيش النصارى للنتيجة نفسها.

وحين رأى ألفونسو الثامن ذلك أطلق قوات المدد المدرَّبة لإنقاذ مقدمة النصارى، وبالفعل كان لها أثر كبير، وعادت من جديد الكرَّة للنصارى.

وفي هذه الأثناء حدث حادث خطير في جيش المسلمين، فحين رأى الأندلسيون ما حدث في متطوعة المسلمين، واستشهاد الآلاف منهم، إضافة إلى كونهم يُقاتلون مرغمين مع الموحدين -كما ذكرنا قبل ذلك- وأيضًا كونهم يعتقدون بالعدد وليس في الثقة بالله ﷻ، كل هذه الأمور اعتملت في قلوبهم، ففرُّوا من أرض القتال.

وحين فَرَّت ميمنة المسلمين من أرض الموقعة التفَّ النصارى حول جيش المسلمين، وبدأت الهلكة فيهم، فقُتل الآلاف من المسلمين بسيوف النصارى في ذلك اليوم، والذي سُمِّي بيوم العقاب أو معركة العقاب[1].

هُزم المسلمون هزيمة قاسية، وفرَّ الناصر لدين الله من أرض الموقعة، ومعه فلول الجيش المنهزم المنكسر، والمصاب في كل أجزاء جسده الكبير.

وقد قال الناصر لدين الله وهو يفرُّ: صدق الرحمن وكذب الشيطان[2]. حيث دخل الموقعة وهو يعلم أنه منصور بعدده، فعلم أن هذا من إلقاء الشيطان وكذبه، وصدق الرحمن: ﴿وَيَوْمَ حُنَيْنٍ إِذْ أَعْجَبَتْكُمْ كَثْرَتُكُمْ فَلَمْ تُغْنِ عَنكُمْ شَيْئًا وَضَاقَتْ عَلَيْكُمُ الْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ ثُمَّ وَلَّيْتُم مُّدْبِرِينَ﴾ [التوبة: ٢٥]، فولَّى الناصر لدين الله مدبرًا.

---

(١) انظر: شوقي أبو خليل: العقاب، ص٤٥، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١١٩.

(٢) ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٣٩، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٤.



خريطة رقم (١٦) موقعة العقاب

ومما زاد من مرارة الهزيمة أنه ارتكب خطأً آخر لا يقلُّ بحالٍ من الأحوال عن هزيمته المنكرة السابقة وفراره من أرض المعركة، وهو أنه لم يمكث بعد موقعة العقاب في المدينَة التي تلي مباشرة مدينة العقاب، وهي مدينة بَيَّاسَة، بل فرَّ وترك بَيَّاسَة، ثم ترك أُبَّذة، ترك كلتيهما بلا حامية وانطلق إلى مدينة إِشْبِيلِيَة[1]، وما زالت قوَّة النصارى في عظمها، وما زالت في بأسها الشديد.

الفواجع بعد العقاب:

مأساة بياسة:

انطلقت قوَّة النصارى بعد عقاب المسلمين وهزيمتهم تلك في موقعة العقاب فاقتحمت بَيَّاسَة، وكان أهلها قد هجروها خوفًا على أنفسهم، ولم يبقَ فيها إلاَّ الضعفاء والمرضى، وكانوا قد اجتمعوا بالمسجد الجامع الكبير في المدينة للاحتماء به، فقام النصارى بقتلهم جميعًا بالسيف.. قال المراكشي في المعجب: «فأما بَيَّاسَة فوجدها - أي ألفونسو - أو أكثرها خالية فحرق أدؤرها وخرب مسجدها الأعظم»[2].

مأساة أُبَّذة:

قال صاحب الروض المعطار: أُبَّذة مدينة بالأندلس بينها وبين بَيَّاسَة سبعة أميال، وهي مدينة صغيرة وعلى مقربة من النهر الكبير، ولها مزارع وغلات قمح وشعير كثيرة جدًّا، وفي سنة تسع وستمائة مالت عليها جموع النصرانية بعد كائنة العقاب، وكان أهلها قد أنفوا من إخلائها، كما فعل جيرانها أهل بَيَّاسَة، ولم ترفع تلك الجموع يدًا عن قتالها حتى ملكتها بالسيف، وقُتل فيها كثير، وأسروا كثيرًا[3].

---

(١) انظر: ابن أبي زرع: روض القرطاس، ص٢٤٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٤.

(٢) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٤٠٢.

(٣) الحميري: الروض المعطار، ص٦.

وقال المراكشي في المعجب: ونزل -أي ألفونسو- على أُبَّذة، وقد اجتمع فيها من المسلمين عدد كبير من المنهزمة وأهل بَيَّاسَة وأهل البلد نفسه، فأقام عليها ثلاثة عشر يومًا، ثم دخلها عَنْوة، فقتل وسبى وغنم، وفصل هو وأصحابه من السبي من النساء والصبيان بما ملئوا به بلاد الروم قاطبة، فكانت هذه أشدَّ على المسلمين من الهزيمة![1]

وقد تدهور حال المسلمين كثيرًا في كل بلاد المغرب والأندلس على السواء، حتى قطع المؤرخون بأنه بعد موقعة العقاب ما كنتَ تجد شابًّا صالحًا للقتال لا في بلاد المغرب ولا في بلاد الأندلس، فكانت موقعة واحدة قد بَدَّدت وأضاعت دولة في حجم وعِظَم دولة الموحدين[2].

ثم إنَّ الناصر لدين الله قد انسحب أكثر مما كان عليه، فانسحب من إِشْبِيلِيَة إلى بلاد المغرب العربي، ثم اعتكف في قصره، واستخلف ابنه وليًّا للعهد من بعده، وهو بعدُ لم يتجاوز خمس عشرة من السنين.

ثم تُوُفِّيَ الناصر لدين الله بعد هذا الاستخلاف بعام واحد في سنة (٦١٠هـ=١٢١٤م) عن عمرٍ لم يتجاوز الرابعة والثلاثين، وتروي بعض المصادر أنه مات وهو عازم على الجهاد في الأندلس «عزمًا لم يُعرف عن ملك قبله»[3]. وتولَّى حكم البلاد من بعده وليُّ عهده وابنه المستنصر بالله، وعمره آنذاك ست عشرة سنة فقط[4].

ومن جديد وكما حدث في عهد ملوك الطوائف تضيع الأمانة، ويُوَسَّد الأمر

---

(١) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٤٠٢.

(٢) انظر: المقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٦.

(٣) مجهول: الحلل الموشية، ص١٦١ وابن الخطيب: رقم الحلل، ص٦٠، والسلاوي الاستقصا، ٢/ ٢٢٥.

(٤) عبد الواحد المراكشي: المعجب، ص٤٠٤، والذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٢/ ٣٤٠، وابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٥٠، والسلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٢٦.

لغير أهله، وتتوالى الهزائم على المسلمين بعد سنوات طويلة من العلو والسيادة والتمكين لدولة الموحدين.

أشهر العلماء في عهد الناصر:

ابن جبير (٥٤٠-٦١٤هـ=١١٤٥-١٢١٧م):

هو العلامة أبو الحسين محمد بن أحمد بن جبير الكناني الأندلسي، أديب رحَّالة، وُلِدَ سنة (٥٤٠هـ) ببَلَنْسِيَة، تعلم القراءات، وعني بالأدب فبلغ الغاية فيه، وتقدَّم في صناعة الشعر والكتابة[1]، من أشهر مؤلفاته (رحلة ابن جبير)، و(نظم الجمان في التشكي من إخوان الزمان)، وهو ديوان شعره، و(نتيجة وجد الجوانح في تأبين القرن الصالح) وهو مجموع ما رثى به زوجته (أم المجد)[2].

ومن شعره: [المنسرح]

تَـأَنَّ فِي الأَمْـرِ لا تكُـنْ عَجِـلاً	فَمَـنْ تَـأَنَّى أَصَـابَ أَوْ كَـادَا
وَكُـنْ بِحَبْـلِ الإِلَـهِ مُعْتَصِمًا	تَـأْمَنُ مَـنْ بَغْـيِ كَيْـدِ مَـنْ كَـادَا
فَكَـمْ رَجَـاهُ فَنَـالَ بُغْيَتَـهُ	عَبْـدٌ مُسِيءٌ لِنَفْسِـهِ كَـادَا
وَمَـنْ تَطُـلْ صُحْبَةُ الزَّمَانِ لَـهُ	يَلْـقَ خُطُوبًـا بِـهِ وَأَنْكَـادَا[3]

ومن شعره -أيضًا- قوله وقد دخل إلى بغداد فاقتطع غصنًا نضيرًا من أحد بساتينها فذوى[4] في يده: [مجزوء الرجز]

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٨٢.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢/ ٢٣٤.

(٣) الذهبي: سير أعلام النبلاء، ٢٢/ ٤٦، ٤٧.

(٤) ذوى: ذبل ويبس. ابن منظور: لسان العرب، مادة ذوي ١٤/ ٢٩٠، والمعجم الوسيط ١/ ٣١٨.

لا تَغْتَرِبْ عَنْ وَطَنٍ وَاذْكُرْ تَصَارِيفَ النَّوَى

أَمَا تَرَى الْغُصْنَ إِذَا مَا فَارَقَ الأَصْلَ ذَوَى

ومن إبداعه في النثر ما أورده صاحب نفح الطيب[1] أن ابن جبير قال في رحلته في حقِّ دمشق: جنَّة المشرق، ومطلع حسنه المُونِق المشرق، هي خاتمة بلاد الإسلام التي استقريناها، وعروس المدن التي اجتليناها، قد تحلَّت بأزاهير الرياحين، وتجلَّت في حلل سندسية من البساتين، وحلَّت من موضع الحُسن بمكان مكين، وتزيَّنت في منصَّتها أجمل تزيين، وتشرَّفت بأن آوى الله تعالى المسيح وأمّه منها إلى رَبْوَةٍ ذات قَرَار ومَعِين، وظلٍّ ظليل، وماء سلسبيل، تنساب مَذانبه انسيابَ الأراقم بكل سبيل، ورياض يُحيي النفوسَ نَسِيمُها العليل، تتبرَّج لناظريها بمجتلى صقيل، وتناديهم هلمُّوا إلى مُعَرَّس للحُسن ومَقيل، قد سئمتْ أرضها كثرة الما، حتى اشتاقت إلى الظَّما، فتكاد تناديك بها الصُّمُّ الصلاب، ﴿ارْكُضْ بِرِجْلِكَ هَذَا مُغْتَسَلٌ بَارِدٌ وَشَرَابٌ﴾ [ص: ٤٢]، قد أحدقَتْ بها البساتينُ إحداق الهالة بالقمر، واكتنفتها اكتناف الكمامة للزهَر، وامتدَّتْ بشرقيها غُوطَتُها الخضراء امتداد البصر، فكلُّ موقع لحظة بجهاتها الأربع نظرته اليانعة قَيْدُ النظر، ولله صِدْقُ القائلين فيها: إن كانت الجنَّة في الأرض فدمشق لا شكَّ فيها، وإن كانت في السماء؛ فهي بحيث تُسامتها وتحاذيها![2].

ومن ثناء العلماء عليه قول لسان الدين بن الخطيب في حقِّه: إنَّه من علماء الأندلس بالفقه والحديث، والمشاركة في الآداب. وقول المقري في نفح الطيب: وكان أبو الحسين بن جبير المترجم قد نال بالأدب دنيا عريضة، ثم رفضها وزهد فيها[3].

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٢/ ٣٨٢.

(٢) المصدر السابق، ٢/ ٣٨٦، ٣٨٧.

(٣) المصدر السابق، ٢/ ٤٨٧.

تُوُفِّيَ ابن جبير بالإسكندرية في التاسع والعشرين من شعبان سنة (٦١٤هـ)[١].

ابن القرطبي (٥٥٦-٦١١هـ=١١٦١-١٢١٤م):

هو عبد الله بن الحسن بن أحمد بن يحيى بن عبد الله الأنصاري مَالَقِيّ، قُرطبي الأصل، يكنى أبا محمد، ويُعرف بالقرطبي، ولد بمَالَقَة لثمانٍ بقين من ذي القعدة سنة (٥٦٥هـ)، الموافق لشهر نوفمبر ١١٦١م[٢].

كان -كما يوصف- كاملَ المعارف، صدرًا في المقرئين والمجوِّدين، رئيس المحدِّثين وإمامهم، واسع المعرفة، مُكْثِرًا، ثقةً، عدلاً، أمينًا، مَكِينَ الرواية، رائق الخطِّ، نبيل التقييد والضبط، ناقدًا، ذاكرًا أسماء رجال الحديث وطبقاتهم وتواريخهم، وما حُلُّوا به من جرح وتعديل، لا يدانيه أحد في ذلك، عزيز النظر، متيقِّظًا، متوقِّد الذهن، كريم الخلال، حميد العشرة، دَمِثًا، متواضعًا، حسن الخلق، مُحَبَّبًا إلى الناس، نزيه النفس، جميل الهيئة، وقورًا، مُعَظَّمًا عند الخاصَّة والعامَّة، دَيِّنًا، زاهدًا، ورعًا، فاضلاً، نحويًّا ماهرًا، ريَّان من الأدب[٣].

قال تلميذه الأثير جعفر بن زعرور: بِتُّ معه ليلة في دُوَيْرَتِه التي كانت له بجبل فَارَه[٤] للإقراء والمطالعة، فقام ساعة كنتُ فيها يقظانًا، وهو ضاحك مسرور، يَشِدُّ يده كأنَّه ظفر بشيء نفيس، فسألتُه، فقال: رأيت كأن الناس قد حُشروا في العَرْضِ على الله، وأُتِيَ بالمحدِّثين، وكنتُ أرى أبا عبد الله النميري يُؤتى به، فيوقف بين يدي الله تعالى، فيُعطى براءته من النار، ثم يُؤْتَى بي، فأُوقِفت بين يدي ربِّي، فأعطاني براءَتي من النار، فاستيقظتُ، وأنا أشدُّ عليها يدي اغتباطًا بها وفرحًا، والحمد لله[٥].

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٢/ ٢٣٩.
(٢) المصدر السابق، ٣/ ٤٠٨.
(٣) المصدر السابق، ٣/ ٤٠٥.
(٤) جبل فاره: جبل يشرف على مدينة مالقة من ناحية الجنوب الشرقي. انظر: لسان الدين بن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ١/ ٥٠٦، حاشية رقم (٤).
(٥) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣/ ٤٠٦، ٤٠٧.

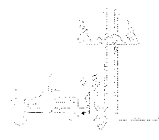
وقد ألف في العروض مجموعات نبيلة، وفي قراءة نافع، ولخَّص أسانيد الموطأ، وله كتاب (المُبْدِي لخطأ الرُّندي)، وألف في القراءات أيضًا.

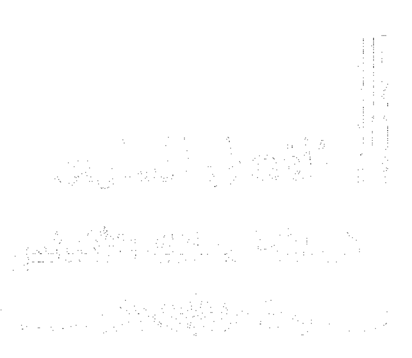
وقد تُوُفِّيَ رحمه الله في السابع من ربيع الآخر سنة (٦١١هـ)[1].

* * *

---

(١) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، ٣/ ٤٠٨.





في موقف مدَّ في عُمر الإسلام في بلاد الأندلس بضع سنوات ظهرت بعض الأمراض في الجيوش القشتالية، وهذا الذي اضطرهم إلى العودة إلى داخل حدودهم(١).

وفي سنة (٦١٣هـ=١٢١٧م) وبعد موقعة العقاب بأربع سنوات، ونظرًا لتردِّي الأوضاع في بلاد المغرب، وتولِّي المستنصر بالله أمور الحُكم، وهو بعدُ طفل لم يبلغ الرشد، ظهرت حركة جديدة من قبيلة زناتة في بلاد المغرب واستقلَّت عن حكم دولة الموحدين هناك، وأنشأت دولة سُنِّيَّة هي دولة بني مرين، والتي سيكون لها شأن كبير فيها بعدُ في بلاد الأندلس(٢).

وفي سنة (٦٢٦هـ) سقطت جزيرة ميورقة، أكبر وأفضل جزر البليار، وبعد قليل تبعها سقوط بياسة، وهي صغرى جزر البليار، وبقيت الجزيرة الوسطى (جزيرة منورقة) دهرًا تحت حكم المسلمين لكن تحت طاعة النصارى وفي حكمهم(٣).

(١) الحميري: الروض المعطار، ص٦، ويوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ٢/ ١٢٤.
(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٦/ ٢٥١.
(٣) حتى سقطت سنة (٦٨٦هـ).

وفي العام التالي (٦٢٧هـ) استقلَّ بنو حفص بتونس، وانفصلوا بها عن دولة الموحدين[١].

وقد دار صراع شديد على السلطة بعد وفاة المستنصر بالله؛ حيث لم يكن قد استخلف بعدُ، فتولَّى عمُّ أبيه عبد الواحد من بعده، إلاَّ أنه خُلع وقُتل، ثم تولَّى من بعده عبد الله العادل، وعلى هذا الحال ظلَّ الصراع، وأصبح الرجل يتولَّى الحُكم مدَّة أربع أو خمس سنوات فقط ثم يُخلع أو يُقتل، ويأتي غيره وغيره، حتى سارت الدولة نحو هاوية سحيقة.

وفي سنة (٦٢٥هـ=١٢٢٨م) استقلَّ رجل يُسَمَّى ابن هود بشرق وجنوب الأندلس، وكان كما يصفه المؤرخون: مفرطًا في الجهل، ضعيف الرأي، لم يُنصر له على النصارى جيش[٢].

وفي سنة (٦٣٣هـ=١٢٣٦م) حدث حادث خطير ومروع، إنه حادث سقوط قُرْطُبَة حاضرة الإسلام[٣].

المأساة الكبرى وسقوط قُرْطُبَة:

في موقف لا نملك حياله إلاَّ التأسُّف والندم، في سنة (٦٣٣هـ=١٢٣٦م) وبعد حصار طال عدَّة شهور، وبعد استغاثة بابن هود الذي كان قد استقلَّ بدولته جنوب وشرق الأندلس، والذي لم يُعِرِ اهتمامًا لهذه الاستغاثات؛ بسبب كونه منشغلاً بحرب ابن الأحمر، ذلك الأخير الذي كان قد استقلَّ -أيضًا- بجزء آخر من بلاد الأندلس، في كل هذه الظروف سقطت قُرْطُبَة، سقطت حاضرة الإسلام في بلاد الأندلس.

---

(١) السلاوي: الاستقصا، ٢/ ٢٤٠.

(٢) انظر: ابن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٧٨، وتاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٦٨، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٢١٥، ٤/ ٤٦٤.

(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٦٩، والحميري: الروض المعطار، ص٤٥٩، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٤٨.

وكان أمرًا غاية في القسوة حين لم يجد أهل قُرْطُبَة بُدًّا من الإذعان والتسليم والخروج من قُرْطُبَة، وكان الرهبان مصرِّين على قتلهم جميعهم، لكن فرناندو الثالث ملك قشتالة رفض ذلك؛ خشية أن يُدَمِّرَ أهلُ المدينة كنوزها وآثارها الفاخرة، وبالفعل خرج أهلها متَّجِهين جنوبًا تاركين كل شيء، وتاركين حضارة ومنارة ومجدًا عظيمًا كانوا قد خَلَّفوه[1].

سقطت قُرْطُبَة التي أفاضت على العالم أجمع خيرًا وبركة، وعلمًا ونورًا، سقطت قُرْطُبَة صاحبة ثلاثة آلاف مسجد، وصاحبة ثلاثة عشر ألف دار، سقطت قُرْطُبَة عاصمة الخلافة لأكثر من خمسمائة عام، سقطت قُرْطُبَة صاحبة أكبر مسجد في العالم، سقطت جوهرة العالم قرطبة[2].

سقطت قُرْطُبَة في الثالث والعشرين من شهر شوال لسنة ثلاثة وثلاثين وستمائة من الهجرة.. سقطت وفي يوم سقوطها تحوَّل مسجدها الجامع الكبير إلى كنيسة، وما زال كنيسة إلى اليوم، ولا حول ولا قوَّة إلاَّ بالله!

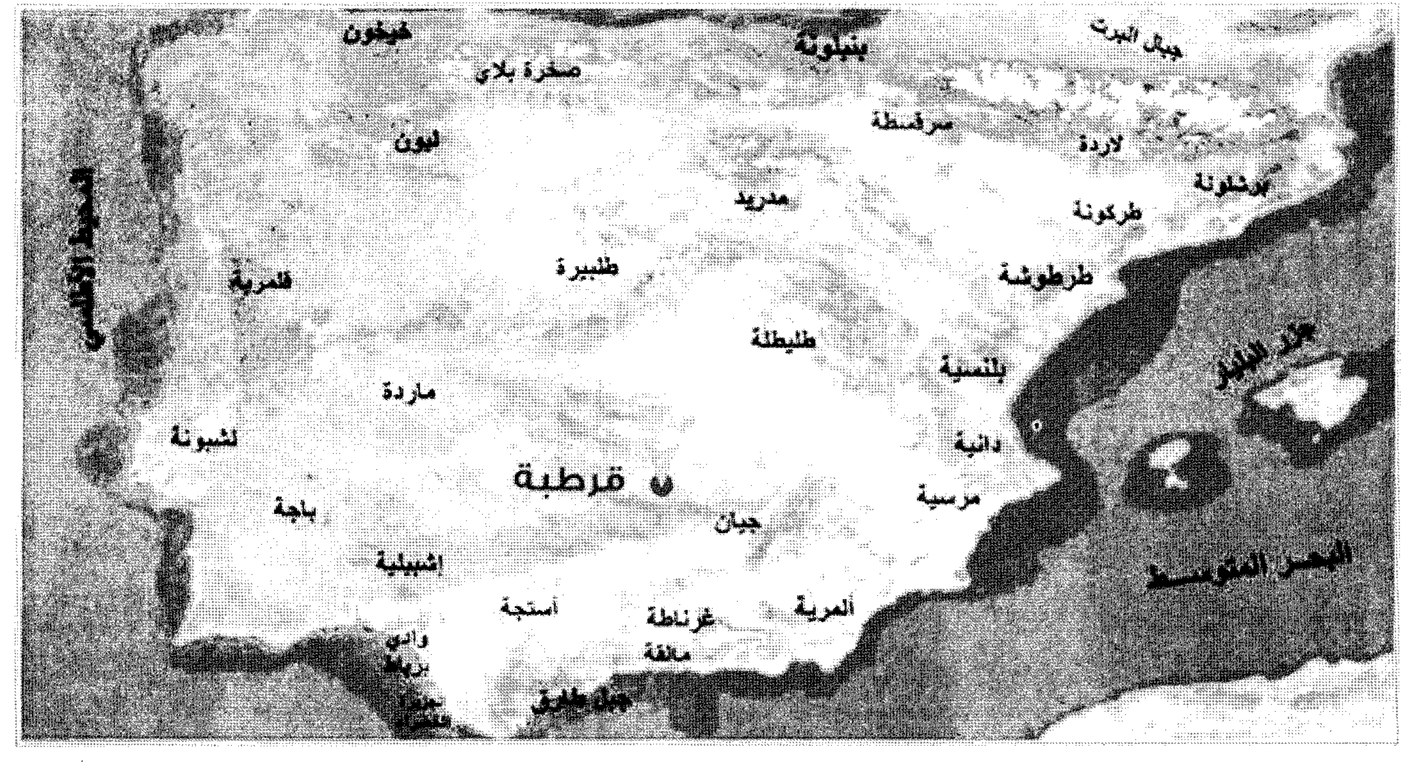
تتابع المآسي:

بعد سقوط قُرْطُبَة وفي سنة (٦٣٥هـ=١٢٣٧م) استقلَّ بنو الأحمر بغَرْنَاطة بعد موت ابن هود في السنة نفسها، وسيكون لهم شأن كبير في بلاد الأندلس على نحو ما سنُبيِّنه، وفي سنة (٦٣٦هـ=١٢٣٧م) وبعد استقلال ابن الأحمر بغَرْنَاطَة بسنة واحدة، وبعد حصار دام خمس سنوات متصلة سقطت بَلَنْسِيَة على يد ملك أراجون بمساعدة فرنسا، وكان حصارًا شديدًا كاد الناس أن يهلكوا جوعًا، وكان خلاله عدَّة مواقع؛ أشهرها موقعة أنيشة سنة (٦٣٤هـ=١٢٣٧م) التي هلك فيها الكثير من المسلمين من بينهم الكثير من العلماء.

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٦/ ٤٢٤.

(٢) راجع فصل «قُرْطُبَة.. جوهرة العالم» من الباب الخامس.



خريطة رقم (١٧) قرطبه

وكان بنو حفص في تونس قد حاولوا مساعدة بَلَنْسِيَة بالمؤن والسلاح، لكن الحصار كان شديدًا، حتى اضطروا لترك البلد تمامًا في سنة (٦٣٦هـ=١٢٣٩م) وهُجِّر خمسون ألفًا من المسلمين إلى تونس، وتحوَّلت للتَّوِّ كلُّ مساجد المسلمين إلى كنائس، وكانت هذه سياسة مُتَّبَعة ومشهورة للنصارى في كل البلاد الإسلامية التي يُسيطرون عليها، إمَّا القتل وإمَّا التهجير[(١)].

وفي سنة (٦٤١هـ=١٢٤٣م) سقطت دانية بالقرب من بَلَنْسِيَة[(٢)]، وفي سنة (٦٤٣هـ=١٢٤٥م) سقطت جَيَّان[(٣)]، وهكذا لم يبقَ في بلاد الأندلس إلاَّ ولايتان فقط؛ ولاية غَرْنَاطَة في الجنوب الشرقي من البلاد، وولاية إِشْبِيلِيَة في الجنوب الغربي، تمثلان حوالي ربع بلاد الأندلس[(٤)].

هذا مع الأخذ في الاعتبار أن كل ولايات إفريقيا قد استقلَّت عن دولة الموحدين، فسقطت بذلك الدولة العظيمة المهيبة المتسعة البلاد المترامية الأطراف.

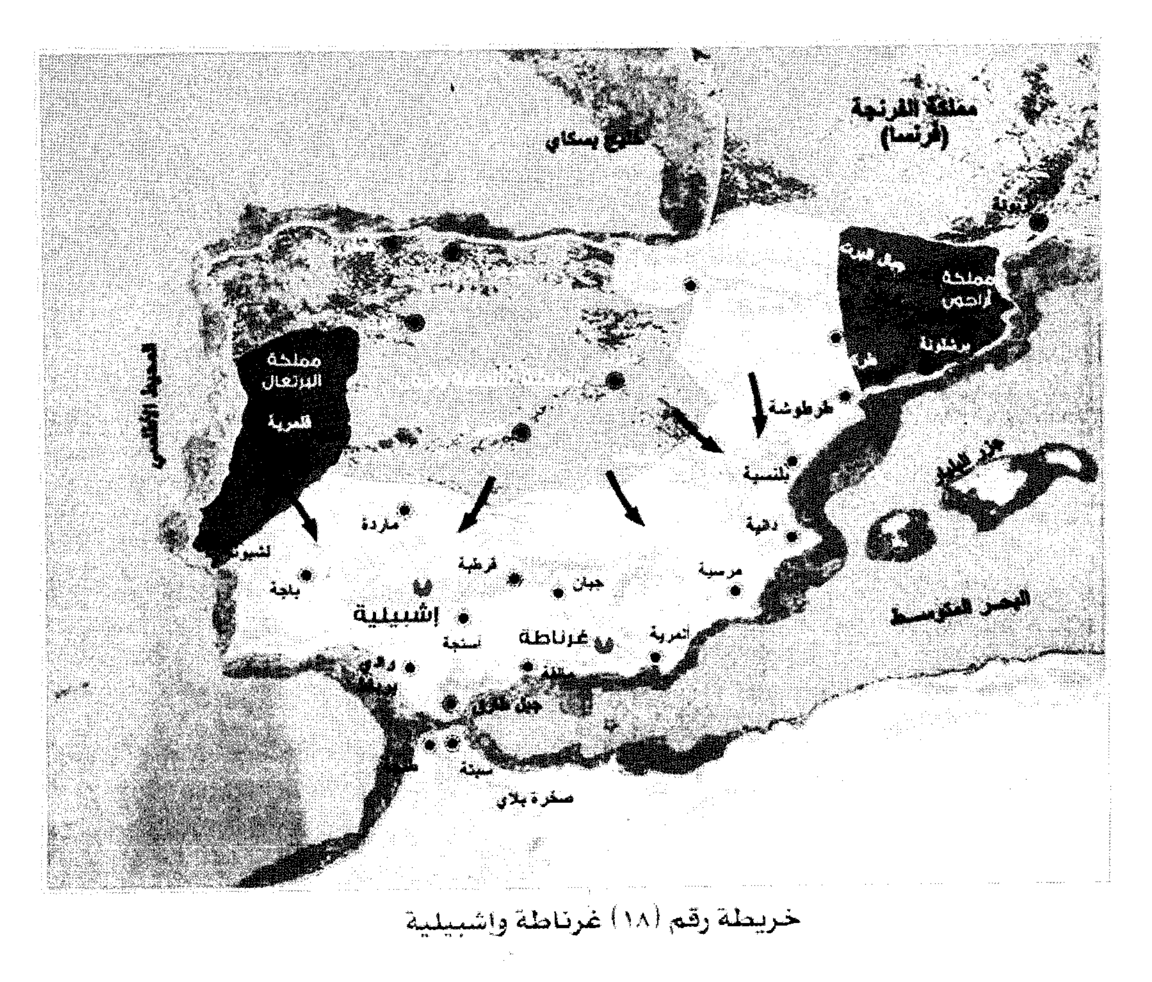
---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٧٦، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٤٦٠.

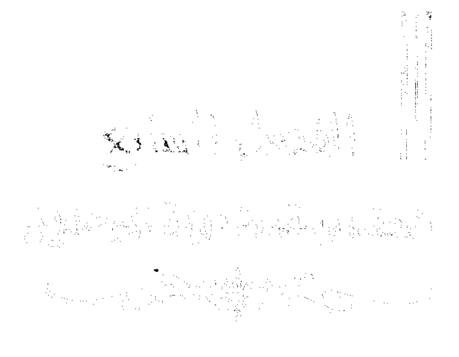
(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٦١.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٦/ ٤٦٨.

(٤) انظر: المقري: نفح الطيب، ١/ ٢٠٦.



خريطة رقم (١٨) غرناطة واشبيلية



قد يُفاجأ البعض ويتعجَّب لهول هذا السقوط المريع لهذا الكيان الكبير بهذه الصورة السريعة المفاجئة، فيسعى للبحث عن علله وأسبابه، وحقيقةُ الأمر أن هذا السقوط لم يكن مفاجئًا؛ فدولة الموحدين كانت تحمل في طياتها بذور الضعف وعوامل الانهيار؛ وكانت كثيرة؛ نذكر منها ما يلي:

أولاً: تعاملها بالظلم مع دولة المرابطين، وقتلها الآلاف ممن لا يستحقُّون القتل؛ وإن طريق الدم لا يمكن أبدًا أن يُثمر عدلاً، يقول ابن تيمية: «إن الله يُقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يُقيم الظالمة وإن كانت مسلمة»[1].

إن عاقبة الظلم وخيمة، وربما تتأخَّر عقوبة الظلم؛ لكنها -بلا شكٍّ- تقع على الظالم؛ فالله تعالى يُمهِلُ ولا يُهْمِل، وقد أسرف الموحدون كثيرًا في إراقة دماء مَنْ خالفهم من المسلمين، بل في سفك دماء مَنْ يشكُّون في ولائه لهم ممن كانوا معهم - كما رأينا في أمر التمييز الذي قام به ابن تومرت قبل وقعة البحيرة أو البستان، التي عجَّل الله لهم العقابَ فيها وقتل منهم الكثير، فقد جعل ابن تومرت الأهل يقتلون أبناءهم، بعدما أقنعهم أنهم من أهل النار، وذلك بحيلة ماكرة شاركه فيها أحد الخبثاء مِمَّنْ هو على شاكلته -وهذا أمر في غاية الخطورة- لقد حذَّر النبي ﷺ كثيرًا

(١) ابن تيمية: مجموع الفتاوى، ٢٨/ ١٤٦.

من العداء بين المسلم وأخيه المسلم، ومن التدابر والتحاسد والتناجش والتباغض، روى مسلم في صحيحه بسنده عن أبي هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «لاَ تَحَاسَدُوا وَلاَ تَنَاجَشُوا، وَلاَ تَبَاغَضُوا وَلاَ تَدَابَرُوا، وَلاَ يَبِعْ بَعْضُكُمْ عَلَى بَيْعِ بَعْضٍ، وَكُونُوا عِبَادَ اللهِ إِخْوَانًا، الْمُسْلِمُ أَخُو الْمُسْلِمِ لاَ يَظْلِمُهُ وَلاَ يَخْذُلُهُ، وَلاَ يَحْقِرُهُ، التَّقْوَى هَاهُنَا - وَيُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاَثَ مَرَّاتٍ- بِحَسْبِ امْرِئٍ مِنَ الشَّرِّ أَنْ يَحْقِرَ أَخَاهُ الْمُسْلِمَ، كُلُّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حَرَامٌ دَمُهُ وَمَالُهُ وَعِرْضُهُ»[(١)].

ثانيًا: العقائد الفاسدة التي أدخلها ابن تومرت على منهج أهل السُّنَّة، وبالرغم من أن المأمون قاومها وأبطلها، إلاَّ أنَّ أشياخ الموحدين ظلُّوا يعتقدون في عصمة محمد بن تومرت وفي صدق أقواله، حتى ذلك العهد؛ وهو ما جعل هذا الإصلاح كأنه ترقيع في ثوب مهلهل عقائديًّا.

وثمة أمر آخر لا يقل خطورة عن هذا الأمر، ألا وهو تكفير المرابطين، وقد بنى ابن تومرت على هذه الفكرة جواز قتلهم وحرقهم، وسبي نسائهم، وهدم دولتهم، وتقويض بنيانها من القواعد.

إن تكفير المسلم قضية في منتهى الخطورة، لا ينبغي لعاقلٍ بحال من الأحوال أن يقع فيها، ففي البخاري بسنده عن أبي هريرة ﷺ أنَّ رسول الله ﷺ قال: «إِذَا قَالَ الرَّجُلُ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهِ أَحَدُهُمَا»[(٢)]. وعند مسلم: «أَيُّمَا امْرِئٍ قَالَ لأَخِيهِ: يَا كَافِرُ. فَقَدْ بَاءَ بِهَا أَحَدُهُمَا، إِنْ كَانَ كَمَا قَالَ، وَإِلاَّ رَجَعَتْ عَلَيْهِ»[(٣)].

وقال أبو حامد الغزالي: «والذي ينبغي أن يميل المسلم إليه الاحتراز من

---

(١) مسلم: كتاب الصلة والآداب، باب تحريم ظلم المسلم وخذله واحتقاره ودمه وعرضه وماله (٢٥٦٤)، وأحمد (٧٧١٣)، والبيهقي: السنن الكبرى (١١٨٣٠).

(٢) البخاري: كتاب الأدب، باب من أكفر أخاه بغير تأويل فهو كما قال (٥٧٥٢).

(٣) مسلم: كتاب الإيمان، باب بيان حال إيمان من قال لأخيه المسلم: يا كافر (٦٠).

التكفير ما وجد إليه سبيلاً؛ فإن استباحة الدماء والأموال من المصلِّين إلى القبلة، المصرِّحين بقول: لا إله إلا الله محمد رسول الله. خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة أهون من الخطأ في سفك محجمة (قارورة) من دم مسلم»[1].

وقال ابن تيمية: «مَنْ ثبت إيمانه بيقين لم يزل عنه بالشكِّ، بل لا يزول إلاَّ بعد إقامة الحجة، وإزالة الشبهة»[2].

ثالثًا: كان من عوامل سقوط دولة الموحدين -أيضًا- الثورات الداخلية الكثيرة التي قامت داخل دولة الموحدين، وكان أشهرها ثورة بني غانية، والتي كانت في جزر البليار، وفي تونس.

رابعًا: الإعداد الجيد من قِبَلِ النصارى في مقابل الإعداد غير المدروس من قِبَل الناصر لدين الله ومَنْ تبعه بعد ذلك.

خامسًا: وهو أمر مهمٌّ وجدُّ خطير، وهو انفتاح الدنيا على دولة الموحدين، وكثرة الأموال في أيديهم، وهذا ما أدى إلى الترف والبذخ الشديد ثم التصارع على الحُكم.

سادسًا: بطانة السوء المتمثِّلة في أبي سعيد بن جامع وزير الناصر لدين الله ومَنْ كان على شاكلته بعد ذلك.

ويُعَلِّق على ذلك الدكتور شوقي أبو خليل بقوله: «لقد كان الناصر ألعوبة في يد وزيره ابن جامع، الذي لم يكن مسئولاً عن هزيمة العقاب فقط، بل عن مصير الموحدين بعد الناصر أيضًا، لقد وضع ابن جامع الأسباب القوية التي أدَّت إلى تصدُّع سلطان الموحدين من أساسه.

---

(١) أبو حامد الغزالي: الاقتصاد في الاعتقاد، ص١٥٧.

(٢) ابن تيمية: الفتاوى ١٢/ ٤٦٦.

لقد كُتب لأسرة ابن جامع التي تولَّى كثير منها الوزارة، وعلى رأسها أبو سعيد بن جامع أن تُؤَدِّي أخطر دور في تحطيم دولة الموحدين، بمشاركة الأعراب البدو، وأشياخ الموحدين.. لقد تصرف ابن جامع - الذي يمثِّل بطانة السوء - بدولة الموحدين، فكان له أثره الخطير، ليس في ميدان السياسة الداخلية والخارجية للدولة فحسب، بل على وجود دولة الموحدين نفسها[1].

سابعًا: إهمال الشورى من قِبَلِ الناصر لدين الله ومَنْ بعده من الأمراء، وإنها لمخالفة صريحة للقرآن الكريم؛ فالله ﷻ يقول: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، وقال الله تعالى في صفات المؤمنين: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَى بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ﴾ [الشورى: ٣٨]. قال الحافظ ابن كثير رحمه الله في تفسيره: لا يُبرمون أمرًا حتى يتشاوروا فيه؛ ليتساعدوا بآرائهم في مثل الحروب، وما جرى مجراها[2].

فهذه العوامل وغيرها اجتمعت لتُسْقِط هذا الكيان الكبير، والذي لم يبقَ منه في بلاد الأندلس إلاَّ ولايتان فقط؛ هما غَرْنَاطَة وإِشْبِيلِيَة، ومع ذلك ظلَّ الإسلام في بلاد الأندلس لأكثر من ٢٥٠ سنة من هذا السقوط المروِّع لدولة الموحدين!

وهذه قائمة بأسماء خلفاء دولة الموحدين:

١ - عبد المؤمن بن علي (٥٢٤-٥٥٨هـ=١١٢٩-١١٦٣م).

٢ - أبو يعقوب يوسف بن عبد المؤمن بن علي (٥٥٨-٥٨٠هـ=١١٦٣-١١٨٤م).

٣ - أبو يوسف يعقوب بن يوسف المنصور (٥٨٠-٥٩٥هـ=١١٨٤-١١٩٩م).

---

(١) شوقي أبو خليل: العقاب، ص٥٩، ٦٠.

(٢) ابن كثير: تفسير القرآن العظيم، ٧/ ٢٢١.

٤ - أبو محمد عبد الله الناصر (٥٩٥-٦١٠هـ=١١٩٩-١٢١٣م).

٥ - أبو يعقوب يوسف المستنصر (٦١١-٦٢٠هـ=١٢١٣-١٢٢٤م).

٦ - عبد الواحد بن يوسف بن عبد المؤمن (٦٢٠-٦٢١هـ=١٢٢٤م).

٧ - أبو عبد الله بن يعقوب المنصور (العادل) (٦٢١-٦٢٤هـ=١٢٢٤-١٢٢٧م).

٨ - يحيى بن الناصر (٦٢٤-٦٢٧هـ=١٢٢٧-١٢٣٠م).

٩ - المأمون بن المنصور (٦٢٧-٦٣٠هـ=١٢٣١-١٢٣٢م).

١٠ - الرشيد بن المأمون بن المنصور (٦٣٠-٦٤٠هـ=١٢٣٢-١٢٤٢م).

١١ - السعيد علي أبو الحسن (٦٤٠-٦٤٦هـ=١٢٤٢-١٢٤٨م).

١٢ - أبو حفص عمر المرتضى (٦٤٦-٦٦٥هـ=١٢٤٨-١٢٦٦م).

١٣ - أبو دبوس الواثق بالله (٦٦٥-٦٦٨هـ=١٢٦٦-١٢٦٩م).

* * *



الباب التاسع

مملكة غرناطة وسقوط الأندلس

الوضع الآن هو سقوط دولة الموحدين على إثر موقعة العقاب، ثم سقوط مدن المسلمين الواحدة تلو الأخرى، حتى سقطت قرطبة حاضرة الإسلام وعاصمة الخلافة، وسقطت جَيَّان في سنة (٦٤٣ هـ= ١٢٤٥م).

هذا ولم يبقَ في الأندلس إلاَّ ولايتان فقط كبيرتان نسبيًّا، الأولى هي ولاية غرناطة، وتقع في الجنوب الشرقي، وتمثل حوالي ١٥٪ من بلاد الأندلس، والثانية هي ولاية إشبيلية، وتقع في الجنوب الغربي، وتمثل حوالي ١٠٪ من أرض الأندلس.

هاتان الولايتان هما اللتان بقيتا فقط من جملة بلاد الأندلس، وكان من العجيب -كما ذكرنا- أن يظلَّ الإسلام في بلاد الأندلس بعد هذا الوضع وبعد سقوط قرطبة، وبعد هذا الانهيار الكبير لمدة تقرب من ٢٥٠ سنة، فكانت هذه علامات استفهام كبيرة، ولا بُدَّ من وقفة معها بعض الشيء.

الفصل الأول
تأسيس مملكة غرناطة

ابن الأحمر وملك قشتالة ومعاهدة الخزي والشنار[(١)] :

كان الخلاف بين أبناء الأمة الأندلسية في تلك الآونة العصيبة يذهب إلى حدِّ التضحية بأقدس المبادئ وأسمى الاعتبارات، وكانت وشائج القومية والدين والخطر المشترك كلها تغيض أمام الأطماع الشخصية الوضيعة، ففي العام نفسه الذي سقطت فيه جَيَّان بعد حروب غير مؤثرة بين المسلمين والنصارى، وفي سنة (٦٤٣هـ=١٢٤٥م) وحماية لحقوق وواجبات مملكة قشتالة النصرانية وولاية غرناطة الإسلامية، يأتي فرناندو الثالث ملك قشتالة ويعاهد ابن الأحمر الذي يتزعم ولاية غرناطة، ويعقد معه معاهدة يضمن له فيها بعض الحقوق ويأخذ عليه بعض الشروط والواجبات[(٢)].

وقبل أن نتحدث عن بنود هذه الاتفاقية وتلك المعاهدة، نتعرف أولاً على أحد طرفي هذه المعاهدة وهو ابن الأحمر، فهو أبو عبد الله محمد بن يوسف بن نصر، والذي ينتهي نسبه إلى سعد بن عبادة الخزرجي صاحب رسول الله ﷺ[(٣)]، لكن شتَّان بين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا، وبين سعد بن عبادة الخزرجي!

---

(١) الشَّنار: العيب والعار.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٤١، ٤٢.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ٢/ ٩٢.

وقد سُمِّي بابن الأحمر ولم يكن هذا اسمًا له، بل لقبًا له ولأبنائه من بعده حتى نهاية حكم المسلمين في غرناطة.

وكانت بنود المعاهدة التي تمت بين ملك قشتالة وبين محمد بن يوسف بن نصر بن الأحمر هذا هي:

أولاً: يدفع ابن الأحمر الجزية إلى ملك قشتالة، وكانت مائة وخمسين ألف دينار من الذهب سنويًّا[١]، وكان هذا تجسيدًا لحال الأمة الإسلامية، وتعبيرًا عن مدى التهاوي والسقوط الذريع بعد أفول نجم دولة الموحدين القوية المهيبة، والتي كانت قد فرضت سيطرتها على أطراف كثيرة من بلاد الأندلس وإفريقيا.

ثانيًا: أن يحضر اجتماع مجلس قشتالة النيابي (الكورتيس)، باعتباره من الأمراء التابعين للعرش[٢]، وفي هذا تكون غرناطة تابعة لقشتالة ضمنيًّا.

ثالثًا: أن يحكم غرناطة باسم ملك قشتالة علانية؛ وبهذا يكون ملك قشتالة قد أتم وضمن تبعية غرناطة له تمامًا[٣].

رابعًا: أن يسلمه ما بقي من حصون جَيَّان- المدينة التي سقطت أخيرًا- وأرجونة وغرب الجزيرة الخضراء حتى طرف الغار، وبذلك يكون ابن الأحمر قد سلم لفرناندو الثالث ملك قشتالة مواقع في غاية الأهمية تحيط بغرناطة نفسها[٤].

خامسًا: وهو أمر في غاية الخطورة، وهو أن يساعده في حروبه ضد أعدائه إذا

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٤٢.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٤٣. مع ملاحظة أن النظام السائد في المهالك النصرانية حتى ذلك الوقت هو النظام الإقطاعي الذي يتمتع فيه الأمراء أصحاب الإقطاعيات بنفوذ واستقلال كبير في حدود إقطاعياتهم على أن يكون من واجباتهم إمداد الدولة بالأموال والضرائب، وأن تكون أموالهم وقواتهم في خدمة العرش حال احتياج المملكة إليهم.

(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٤٢.

(٤) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٦٨، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٠.

احتاج إلى ذلك؛ أي أن ابن الأحمر يشترك مع ملك قشتالة في حروب ملك قشتالة التي يخوضها أيًّا كانت الدولة التي يحاربها[١].

التدني والانحطاط وسقوط إشبيلية:

وأوفى ابن الأحمر بالتزاماته هذه، وكان أكبر معين لفرناندو الثالث على سقوط إشبيلية في يده، وهي -يومئذٍ- أعظم القواعد الأندلسية قاطبة، وقد كانت العاصمة الثانية للأندلس بعد قرطبة، لا سيما في عصر الطوائف تحت حكم بني عباد.

استطاع فرناندو الثالث أن يستولي على مدينة قرمونة حصن إشبيلية الأمامي بمعاونة محمد بن الأحمر، وفقًا للتحالف المعقود بينهما، ثم عمد بعد ذلك إلى افتتاح باقي الحصون القريبة من إشبيلية. واستطاع ابن الأحمر بنصحه وتدخله، أن يقنع معظم أصحابها بتسليمها لملك قشتالة، مقابل تعهده بأن يحقن دماء المسلمين، وأن يمنحهم شروطًا سخية، ولم تأتِ أواسط (سنة ١٢٤٧م) الموافقة سنة (٦٤٥هـ) حتى كان ملك قشتالة قد استولى على جميع الحصون الأمامية لإشبيلية، وانتسف سائر البسائط والضِياع القريبة منها، وبدأ النصارى حصارهم لإشبيلية في أغسطس ١٢٤٧م (جمادى الأولى سنة ٦٤٥هـ)[٢].

التزام صاغر، وانتهاك لتعاليم الإسلام وشرائعه، وضرب لرابطة النصرة والأخوة الإسلامية، وموالاة للنصارى وأعداء الإسلام على المسلمين، ما كان من ابن الأحمر إلاَّ أن سمع وأطاع، وبكامل عدته يتقدم فرسان المسلمين الذين يتقدمون بدورهم جيوش قشتالة نحو إشبيلية، ضاربين حصارًا طويلاً وشديدًا حولها.

يتحرك الجيش الغرناطي مع الجيش القشتالي ويحاصرون المسلمين في إشبيلية،

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٤٢.

(٢) المصدر السابق، ٧/ ٤٣، ٤٤.

ليس لشهر أو شهرين، إنما طيلة سبعة عشر شهرًا كاملاً، يستغيث فيها أهل إشبيلية بكل مَنْ حولهم، لكن هل يسمع من به صمم؟!

لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا ... وَلَكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي

وَلَوْ نَارٌ نَفَخْتَ بِهَا أَضَاءَتْ ... وَلَكِنْ أَنْتَ تَنْفُخُ فِي رَمَادِ[1]

فالمغرب الآن مشغول بالثورات الداخلية، وبنو مرين يصارعون الموحدين في داخل المغرب، والمملكة الوحيدة المسلمة في الأندلس غرناطة هي التي تحاصر إشبيلية، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

وفي السابع والعشرين من شهر رمضان سنة (٦٤٦ هـ= ١٢٤٨م) وبعد سبعة عشر شهرًا كاملة من الحصار الشديد، تسقط إشبيلية بأيدي المسلمين ومعاونتهم للنصارى، تسقط إشبيلية ثاني أكبر مدينة في الأندلس، تلك المدينة صاحبة التاريخ المجيد والعمران العظيم، تسقط إشبيلية أعظم ثغور الجنوب ومن أقوى حصون الأندلس، تسقط إشبيلية ويغادر أهلها البلاد، ويهجَّر ويشرَّد منها أربعمائة ألف مسلم، وواحسرتاه على المسلمين، تفتح حصونهم وتدمر قوتهم بأيديهم[2]: [الوافر]

وَمَا فَتِئَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى ... مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَا

وَأَصْبَحَ لا يُرَى فِي الرَّكْبِ قَوْمِي ... وَقَدْ عَاشُوا أَئِمَّتَهُ سِنِينَا

وَآلَمَنِي وَآلَمَ كُلَّ حُرٍّ ... سُؤَالُ الدَّهْرِ: أَيْنَ الْمُسْلِمُونَا؟[3]

أين المسلمون؟! إنهم يحاصرون المسلمين! المسلمون يقتلون المسلمين!

(١) عمرو بن معدي كرب الزبيدي: شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، ص١١٣، والبيتان من بحر الوافر.
(٢) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٨٤، وابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٧٣، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٧١.
(٣) ديوان هاشم الرفاعي، ص٣٨٣.

المسلمون يُشَرِّدون المسلمين!

وعلى هذا تكون إشبيلية قد اختفت من الخارطة الإسلامية، وما زال إلى الآن مسجدها الكبير الذي أسَّسه يعقوب المنصور الموحدي بعد انتصار الأرك الخالد، ما زال إلى اليوم كنيسة يُعَلَّق فيها الصليب، ويُعبد فيها المسيح بعد أن كانت من أعظم ثغور الإسلام، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله!

غرناطة ولماذا يعاهدها ملك قشتالة؟

لم تكن غرناطة -في سنة (٦٤٦هـ= ١٢٤٨م)- تمثل أكثر من ١٥٪ وهي تضم ثلاث ولايات متحدة؛ هي: ولاية غرناطة، وولاية مالقة، وولاية ألمرية، ثلاث ولايات تقع تحت حكم ابن الأحمر، وإن كان هناك شيء من الاستقلال داخل كل ولاية.

ولنا أن نتساءل ونتعجب: لماذا يعقد فرناندو الثالث اتفاقية ومعاهدة مع هذه المملكة التي أصبح القضاء عليها ميسورًا؟! لماذا لم يأكل غرناطة كما أكل غيرها من بلاد المسلمين ودون عهود أو اتفاقيات؟!

والواقع أن ذلك كان للأمور التالية:

أولاً: كانت بغرناطة كثافة سكانية عالية؛ وهذا ما جعل من دخول جيوش النصارى إليها من الصعوبة بمكان، وقد كان من أسباب هذه الكثافة العالية أنه لما كانت تسقط مدينة من مدن المسلمين في أيدي النصارى كان النصارى -كما ذكرنا- ينتهجون نهجًا واحدًا، وهو إما القتل أو التشريد والطرد من البلاد.

فكان كلما طُرد رجل من بلاده عمَّق واتجه ناحية الجنوب، فتجمَّع كل المسلمين الذين سقطت مدنهم في أيدي النصارى في منطقة غرناطة في الجنوب الشرقي من البلاد[1]،

---

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٤/ ١٧١.

فأصبحت ذات كثافة سكانية ضخمة، وهذا ما يصعب معه دخول قوات النصارى إليها.

ثانيًا: كانت غرناطة ذات حصون كثيرة ومنيعة جدًّا، نشأت هذه الحصون كسبب طبيعي من جراء الحروب المتواصلة قديمًا، والتهديد المرتقب بالفناء على يد النصارى، هذه الحصون والأسوار هي نفسها التي جعلت غرناطة مملكة قوية، بل وقد نقول: إنها قد حددت حدودها، وكانت هذه الحصون تحيط بغرناطة والمرية ومالقة[1].

ومن هنا وافق فرناندو الثالث على عقد مثل هذه المعاهدة، وإن كانت كما رأينا معاهدة جائرة ومخزية، يدفع فيها ابن الأحمر الجزية، ويحارب بمقتضاها مع ملك قشتالة، ويتعهد فيها بألا يحاربه في يوم ما.

غرناطة وموعد مع الأجل المحتوم:

كعادتهم ولطبيعة متأصلة في كينونتهم، ومع كون المعاهدة السابقة بين ابن الأحمر وملك قشتالة تقوم على أساس التعاون والتصالح والنصرة بين الفريقين، إلا أنه بين الحين والآخر كان النصارى القشتاليون بقيادة فرناندو الثالث ومَنْ تبعه من ملوك النصارى يخونون العهد مع ابن الأحمر، فكانوا يتهجمون على بعض المدن ويحتلونها، وقد يحاول هو (ابن الأحمر) أن يسترد هذه البلاد فلا يفلح، ولا حول ولا قوة إلا بالله!

لم تؤسَّس مملكة غرناطة -آنذاك- على التقوى، بل أسسها ابن الأحمر على شفا جرف هارٍ، معتمدًا على صليبيٍّ لا عهد له ولا أمان؛ ﴿أَوَكُلَّمَا عَاهَدُوا عَهْدًا نَبَذَهُ فَرِيقٌ مِنْهُمْ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ [البقرة: ١٠٠].

ولقد فاتح النصارى ابن الأحمر وبدءوه بالعدوان، وغزوا أراضيه في سنة

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٤٤٣، ٤٤٤.

(٦٦٠هـ=١٢٦١م)، واستطاع بمعاونة قوات من المتطوعة والمجاهدين الذين وفدوا من وراء البحر، أن يهزمهم وأن يردهم عن أراضيه[١]، وبذلك ظهرت الأندلس على عدوها في ميدان الحرب لأول مرة منذ انهيار دولة الموحدين، ولما عبرت الكتائب المرينية بعد ذلك بقليل (٦٦٢هـ)، استطاع قائدهم الفارس عامر بن إدريس أن ينتزع مدينة شريش من يد النصارى، ولكن لمدى قصير فقط، وقد كانت هذه بارقة أمل متواضعة.

وما كان هذا التطور الخطير الذي يهدد «حرب الاسترداد» النصرانية ويضربها في مقتل، ويُعيد إلى الأندلسيين الأمل في استرجاع البلاد الذاهبة والمجد السليب - ما كان هذا التطور الخطير بالذي يسكت عليه ملك قشتالة ألفونسو العاشر، فشدَّد ضغطه على القواعد الأندلسية، حتى كانت أواخر سنة (٦٦٢هـ=١٢٦٣م)، وفيها نزل ابن يونس صاحب مدينة إستجة عنها إلى النصارى[٢]، ودخلها دون خيل قائد القشتاليين، فأخرج أهلها المسلمين منها، وقتل وسبى كثيرًا منهم، وذلك بالرغم من تسليمها بالأمان.

وفي العام التالي (٦٦٣هـ) ظهرت نيات ملك قشتالة واضحة في العمل على افتتاح ما بقي من القواعد الأندلسية، وسرى الخوف إلى نواحي الأندلس، وعادت

---

(١) مع أن الصراع بين دولة الموحدين المحتضرة وبين دولة بني مرين الناشئة، كان يحول دون إنجاد الأندلس بصورة فعالة، فإن كتائب المجاهدين من بني مرين والمتطوعة من أهل المغرب، لم تلبث أن هرعت إلى غوث الأندلس. وعبر القائد أبو معروف محمد بن إدريس بن عبد الحق المريني وأخوه الفارس عامر- البحر في نحو ثلاثة آلاف مقاتل جهزهم أبو يوسف يعقوب بن عبد الحق سلطان بني مرين. وكانت حوادث الأندلس المؤسية تُحدث وقعها العميق في المغرب، وكانت رسائل الأندلس تترى إلى أمراء المغرب وأكابرهم بالصريخ مما تكابده من عدوان النصارى واستطالتهم، والاستنصار بأهل العدوة إخوانهم في الدين، وكان علماء المغرب وخطباؤه وشعراؤه يبثون دعوة الغوث والإنجاد. انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٤٧.

(٢) كانت قد سقطت قبل ذلك بربع قرن، ودخلت في حكم الصليبيين، ولكن ظلت تحكم بالأمير المسلم -تحت سلطان النصارى- حتى ذلك الوقت.

الرسائل تترى على أمراء المغرب وزعمائه، بالمبادرة إلى إمداد الأندلس، وإغاثتها قبل أن يفوت الوقت، خاصة وقد بدأ عدوان النصارى يُحدث أثره، وبدأت هزائم قوات ابن الأحمر في ذلك الوقت على يد دون نونيو دي لارى (دوننه) صهر ملك قشتالة وقائده الأكبر (٦٦٣هـ=١٢٦٤م).

وكتب الفقيه أبو القاسم العزفي صاحب سبتة رسالة طويلة إلى قبائل المغرب، يستنصرهم فيها ويحثهم على الجهاد في سبيل الأندلس، وفيها يقول: «ولا تخلدوا بركون إلى سكون، والدين يدعوكم لنصره، وصارخ الإسلام قد أسمع أهل عصره، والصليب قد أوعب في حشده، فالبدار البدار، بإرهاب الجد وإعمال الجهاد في نيل الجد... ». وتكرر مثل هذا الصريخ إلى سائر أمراء إفريقية، وأعلن ابن الأحمر بيعته للملك المستنصر بالله الحفصي صاحب تونس، فبعث إليه المستنصر هدية ومالاً لمعاونته. ولكن هذه المساعي لم تسفر عن نتيجة سريعة ناجعة، وبقيت الأندلس أعوامًا أخرى تواجه عدوها القوي بمفردها، وتتوجَّس من سوء المصير.

ولما تفاقم عدوان القشتاليين وضغطهم، لم ير ابن الأحمر مناصًا من أن يخطو خطوة جديدة في مهادنة ملك قشتالة ومصادقته، فنزل له في أواخر سنة (٦٦٥هـ=١٢٦٧م) عن عدد كبير من البلاد والحصون، بلغ أكثر من مائة موضع، ومعظمها في غرب الأندلس؛ وبذا عقد السلم بين الفريقين مرة أخرى.

وهكذا فقدت الأندلس معظم قواعدها التالدة في نحو ثلاثين عاما فقط (٦٢٧هـ=٦٥٥هـ) في وابل مروع من الأحداث والمحن، واستحال الوطن الأندلسي الذي كان قبل قرن فقط يشغل نحو نصف الجزيرة الإسبانية، إلى رقعة متواضعة هي مملكة غرناطة.

وفي تلك الآونة (سنة ٦٦٨هـ وما بعدها) عاد النصارى إلى التحرك والتحرش

بالمملكة الإسلامية، وسار ملك قشتالة ألفونسو العاشر إلى الجزيرة الخضراء فعاث فيها فسادًا وتخريبًا.

وهنا وجد ابن الأحمر نفسه في مأزق، وحينها فقط علم أنه عاهد مَنْ لا عهد له، فماذا يفعل؟ ما كان منه إلا أن يمَّم وجهه شطر بلاد المغرب حيث بنو مرين، وحيث الدولة التي قامت على أنقاض دولة الموحدين، والتي كان عليها رجل يُسمّى يعقوب المنصور المريني، و«المريني» تمييزًا بينه وبين يعقوب المنصور الموحدي في دولة الموحدين، وكلاهما كانا على شاكلة واحدة، وكلاهما من عظماء المسلمين، وكلاهما من كبار القادة في تاريخ المسلمين.

فبعث ابن الأحمر إلى أمير المسلمين السلطان أبي يوسف يعقوب المريني ملك المغرب يطلب منه الغوث والإنجاد، ونصرة إخوانه المسلمين فيما وراء البحر، ويخبره بما بدا من عدوان النصارى ونيتهم في القضاء على ما بقي من ديار الأندلس، ولكن ابن الأحمر لم يعشْ ليرى نتيجة هذه الدعوة؛ إذ توفي بعد ذلك بقليل[1].

* * *

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٤٧-٥٠.

الفصل الثاني

بنو مرين يرثون دولة الموحدين في المغرب

بنو مرين فرع من قبيلة زناتة الأمازيغية (البربرية) الشهيرة[(١)]، والتي ينتمي إليها عدد من القبائل التي لعبت أدوارًا مهمة في تاريخ المغرب العربي، مثل مغيلة ومديونة ومغراوة وعبد الواد وجراوة، وغيرهم، وكان بنو مرين في أول أمرهم من البدو الرحل، وفي سنة (٦٠١هـ) نشبت بينهم وبين بني عبد الواد وبني واسين حرب فارتحلوا بعيدًا وتوغلوا في هضاب المغرب، ونزلوا بوادي ملوية الواقع بين المغرب والصحراء، واستقروا هناك إلى سنة (٦١٠هـ)، وهي السنة التي مات فيها محمد الناصر الموحدي عقب موقعة العقاب، وتولى من بعده ابنه المستنصر، وكان صبيًّا لا علم له بالسياسة وتدبير الملك، فانشغل باللهو والعبث وترك تدبير الملك لأعمامه ولكبار رجال الموحدين، فأساءوا وتهاونوا في الأمور وخلدوا إلى الراحة والدعة، وكانت غزوة العقاب قد أضعفت قواهم، وقضت على كثير من رجالهم وشبابهم، ثم جاء بعدها وباء عظيم قضى على كثير من أهل هذه المناطق، وكان بنو مرين في ذلك الوقت يعيشون في الصحاري والقفار، وكانوا يرتحلون إلى الأرياف وأطراف المدن المغربية في الصيف والربيع للرعي فيها طوال الصيف والربيع، ولجلب الحبوب والأقوات التي يستعينون بها على الحياة في الصحاري المجدبة، فإذا أقبل الشتاء اجتمعوا كلهم ببلدة تسمى «أكرسيف» ثم شدُّوا الرحال إلى مواطنهم في الصحراء.

---

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، ص١٤، وتاريخ ابن خلدون، ١٦٦/٧.

فلما كانت سنة (٦١٠هـ) ذهبوا على عادتهم إلى المدن والأرياف، فوجدوا أحوال هذه البلاد قد تغيرت وتبدَّلت، ورأوا ما آلت إليه أحوال الموحدين من التهاون والخلود للراحة، وما آلت إليه أحوال الشعب بعد ضياع رجاله وشبابه في موقعة العقاب، وفي الوباء الذي عم بلاد المغرب والأندلس بعدها، ووجدوا هذه البلاد مع ذلك طيبة المنبت، خصيبة المرعى، غزيرة الماء، واسعة الأكناف، فسيحة المزارع، متوفرة العشب لقلة الرعي فيها، مخضرة التلول والربى، فدفعهم ذلك إلى ترك القفار والاستقرار في هذه البلاد، وأرسلوا إلى قومهم في الصحراء يخبرونهم بذلك كله، وأنهم عزموا على الاستقرار هناك، ويحضونهم على اللحاق بهم، فأسرع باقي بني مرين بالانتقال إلى هذه البلاد الخصبة وانتشروا فيها[1].

ولأنهم كانوا قومًا من البدو لم يعتادوا الخضوع لغيرهم، فقد عملوا على بسط سيطرتهم على هذه البلاد، وشنوا الغارات على البلاد المحيطة بهم كعادة أهل الصحراء، فلما كثر عيثهم وزادت شكاية الناس منهم، أراد الخليفة المستنصر الموحدي أن يقضي عليهم، فأرسل لهم جيشًا عام (٦١٣هـ)، وكان أميرهم في ذلك الوقت أبو محمد عبد الحق بن محيو، فاشتبك الفريقان، ودارت بينهم حرب شديدة استمرت أيامًا، وانتهت بهزيمة الموحدين هزيمة شديدة وبانتصار بني مرين واستحواذهم على أموال الموحدين وسلاحهم، فزاد ذلك من قوة بني مرين، وسرت هيبتهم في بلاد المغرب[2].

واستمرت المعارك بعد ذلك بين بني مرين وبين الموحدين، حتى كانت سنة (٦٣٩هـ)، وفيها أرسل الخليفة الرشيد الموحدي جيشًا لقتال بني مرين فهُزم الموحدون هزيمة شديدة، واستولى بنو مرين على أموالهم وسلاحهم[3]، وتوفي

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٢٤- ٢٧، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٦٩، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٤.
(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٢٧، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٦٩.
(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٧١.

الرشيد بعد ذلك بعام، فخلفه أخوه أبو الحسن السعيد، وهو الذي استنجد به أهل إشبيلية[١]، وصمم أبو الحسن السعيد هذا على القضاء على بني مرين فضاعف في ذلك جهوده، وسَيَّر لقتالهم سنة (٦٤٢هـ) جيشًا ضخمًا، ونشبت بين الفريقين موقعة هائلة هُزم فيها بنو مرين، وقُتل فيها أميرهم في ذلك الوقت أبو معرِّف محمد بن عبد الحق.

وتولى إمارة المرينيين بعد مقتل أبي معرف أخوه أبو بكر بن عبد الحق الملقب بأبي يحيى، وفي عهده اشتدَّ ساعد بني مرين، وتغلبوا على مكناسة سنة (٦٤٣هـ)[٢]، ثم زحفوا على فاس واستولوا عليها بعد حصار شديد سنة (٦٤٨هـ)، ثم استولوا على سجلماسة ودرعة سنة (٦٥٥هـ)، وبعد ذلك بعام واحد توفي أبو يحيى، وصار الأمر بعده إلى أخيه أبي يوسف يعقوب بن عبد الحق المريني، وتلقب بالمنصور بالله، وجعل مدينة فاس عاصمة دولته[٣]، وفي سنة (٦٥٧هـ) نشبت الحرب بين بني مرين وبين الأمير يَغْمُراسن بن زيان ملك المغرب الأوسط، وزعيم بني عبد الواد، فانتصر يعقوب المنصور المريني، وارتد يغمراسن إلى تلمسان مهزومًا[٤]، وفي سنة (٦٥٨هـ) هاجم نصارى إسبانيا ثغر سلا من بلاد المغرب، وقتلوا وسبوا كثيرًا من أهله، فأسرع المنصور المريني بإنجاده، وحاصر النصارى بضعة أسابيع حتى جلوا عنه[٥].

ثم جاءت سنة (٦٦٧هـ)، وفيها كانت الموقعة الحاسمة بين المرينيين والموحدين ففي أواخر هذه السنة سار الخليفة الواثق بالله الموحدي لقتال بني مرين، والتقى

---

(١) ابن عذاري: البيان المغرب، قسم الموحدين، ص٣٨٠- ٣٨٤.
(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٦٣: ٦٦، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٧١، ١٧٢.
(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٥٨، ٧٧، ٧٨، ٨٣.
(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٧٧، ١٧٨.
(٥) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص٩٣، ٩٤، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٢١، ٢٢.

الفريقان في وادي غفو بين فاس ومراكش، فانتصر بنو مرين، وقُتل من الموحدين عدد كبير، وكان على رأس القتلى الخليفة الموحدي نفسه، واستولى المرينيون على أموالهم وأسلحتهم[1]، ثم ساروا إلى مراكش، فدخلها يعقوب المنصور بجيشه في التاسع من المحرم سنة (٦٦٨هـ)، وتسمَّى بأمير المسلمين[2]، وبذلك انتهت دولة الموحدين بعد حوالي قرن ونصف من الزمان، وقامت بعدها دولة بني مرين الفتية التي سيطرت على المغرب الأقصى كله.

* * *

(١) انظر: ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١١٧، ١١٨، و ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٨٢.
(٢) انظر: ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١١٨.

الفصل الثالث

يعقوب المنصور المريني وجهاده في الأندلس

يعقوب بن منصور المريني رجل الشدائد:

في وصف بليغ ليعقوب المنصور المريني يقول المؤرخون المعاصرون له: إنه كان صوَّامًا قوَّامًا، دائم الذكر، كثير الفكر، لا يزال في أكثر نهاره ذاكرًا، وفي أكثر ليله قائمًا يصلي، مكرمًا للصلحاء، كثير الرأفة والحنين على المساكين، متواضعًا في ذات الله تعالى لأهل الدين، متوقفًا في سفك الدماء، كريمًا جوَّادًا، وكان مظفرًا، منصور الراية، ميمون النقيبة، لم تهزم له راية قط، ولم يكسر له جيش، ولم يغزُ عدوًّا إلا قهره، ولا لقي جيشًا إلا هزمه ودمَّره، ولا قصد بلدًا إلا فتحه[1].

وإنها لصفات عظيمة لهؤلاء القادة المجاهدين الفاتحين، يجب أن يقف أمامها المسلمون كثيرًا، ويتمثلونها في قرارة أنفسهم، ويجعلون منها نبراسًا يضيء حياتهم.

وفي تطبيق عملي لإحدى هذه الصفات وحين استعان محمد بن الأحمر الأول بيعقوب المنصور المريني ممثلاً في دولة بني مرين، ما كان منه إلا أن أعد العدة وأتى بالفعل، وقام بصدِّ هجوم النصارى على غرناطة.

بلاد الأندلس واستيراد النصر وقفة عابرة:

لقد تعوَّدت بلاد الأندلس استيراد النصر من خارجها، كانت هذه مقولة

(1) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص85، 86.

ملموسة طيلة العهود السابقة؛ فلقد ظلت لأكثر من مائتي عام تستورد النصر من خارج أراضيها؛ فمرة من المرابطين، وأخرى من الموحدين، وثالثة كانت من بني مرين وهكذا، فلا تكاد تقوم للمسلمين قائمة في بلاد الأندلس إلا على أكتاف غيرهم من بلاد المغرب العربي وما حولها.

ومن الطبيعي ألا يستقيم الأمر لتلك البلاد التي تقوم على أكتاف غيرها أبدًا، وأبدًا لا تستكمل النصر، وأبدًا لا تستحق الحياة، لا يستقيم أبدًا أن تنفق الأموال الضخمة في بناء القصور الضخمة الفارهة في غرناطة؛ مثل قصر الحمراء الذي يُعَدُّ من أعظم قصور الأندلس ليحكم منها ابن الأحمر أو غيره، وهو في هذه المحاصرة من جيوش النصارى، ثم يأتي غيره ومن خارج الأندلس ليدافع عن هذه البلاد وتلك القصور.

وفاة محمد الأول وولاية محمد الفقيه

في سنة (٦٧١هـ= ١٢٧٣م) يموت محمد بن الأحمر الأول وقد قارب الثمانين من عمره، وقد استخلف على الحُكم ابنه وسميَّه، بل وسميَّ معظم أمراء بني الأحمر كان اسم ابنه هذا محمدًا، فكان هو محمد بن محمد بن يوسف بن الأحمر، وكانوا يلقبونه بالفقيه «لانتحاله طلب العلم أيام أبيه»[1].

لما تولَّى محمد الفقيه الأمور في غرناطة نظر إلى حال البلاد فوجد أن قوة المسلمين في بلاد الأندلس لن تستطيع أن تبقى صامدة في مواجهة قوة النصارى، هذا بالإضافة إلى أن ألفونسو العاشر حين مات ابن الأحمر الأول ظن أن البلاد قد تهاوت، فما كان منه إلا أن أسرع بالمخالفة من جديد وبالهجوم على أطراف غرناطة، ما كان -أيضًا- من محمد الفقيه إلا أن استعان بيعقوب المنصور المريني رحمه الله، وكان

(١) انظر ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩١.

أبوه قد وصاه عند موته بالتمسك بعروة أمير المسلمين في المغرب[١].

وعلى كلٍّ فقد أتى بنو مرين، وكان العبور الأول للمنصور المريني رحمه الله في صفر سنة (٦٧٤هـ)، وكان قد سبق ذلك بعام إرساله خمسة آلاف جندي بقيادة ابنه للجزيرة؛ حتى يفرغ من استعداده للجواز، وكان قبل ذلك بعدة أعوام سنة (٦٦٣هـ) قد أرسل حوالي ثلاثة آلاف مجاهد تحت قيادة بعض أقاربه إلى الأندلس في حياة الشيخ ابن الأحمر فاستقروا بالأندلس -كما ذكرنا- واستطاعوا أن يردُّوا الهجوم عن غرناطة، وحفظها الله من السقوط المدوّي[٢].

وهناك وفي مكان خارج غرناطة وبالقرب من قرطبة يلتقي المسلمون مع النصارى،ههعه وعلى رأسهم واحد من أكبر قواد مملكة قشتالة يدعى دون نونيو دي لارى (الذي سميت الموقعة باسمه، فعُرفت بموقعة الدونونيّة)[٣].

موقعة الدونونية ونصر مؤزر

في سنة (٦٧٤هـ= ١٢٧٦م) تقع موقعة الدونونية، وكان على رأس جيوش المسلمين المنصور المريني رحمه الله، وقد أخذ يحفز الناس بنفسه على القتال، وكان مما قاله في خطبته الشهيرة في تحفيز جنده في هذه الموقعة:

ألا وإن الجنة قد فتحت لكم أبوابها، وزينت حورها وأترابها، فبادروا إليها وجِدُّوا في طلبها، وابذلوا النفوس في أثمانها، ألا وإنَّ الجنَّة تحت ظلال السيوف؛ ﴿إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١١١].

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩١.

(٢) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٤٤-١٤٦، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩١، ١٩٢.

(٣) انظر: ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٤٨.

فاغتنموا هذه التجارة الرابحة، وسارعوا إلى الجنة بالأعمال الصالحة؛ فمَنْ مات منكم مات شهيدًا، ومن عاش رجع إلى أهله سالمًا غانمًا مأجورًا حميدًا، فـ﴿اصْبِرُوا وَصَابِرُوا وَرَابِطُوا وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [آل عمران: ٢٠٠][(١)].

وبهؤلاء الرجال الذين أتوا من بلاد المغرب، وبهذه القيادة الربانية، وبهذا العدد الذي لم يتجاوز عشرة آلاف مقاتل حقق المسلمون انتصارًا باهرًا وعظيمًا، وقُتل من النصارى ستة آلاف مقاتل، وتم أسر سبعة آلاف وثمانمائة آخرين، وقُتل دون نونيو قائد قشتالة في هذه الموقعة[(٢)]، وقد غنم المسلمون غنائم لا تحصى، وما انتصر المسلمون منذ موقعة الأرك في سنة (٥٩١هـ= ١١٩٥م) كهذا النصر في الدونونية في سنة (٦٧٤هـ= ١٢٧٦م).

عاد المنصور -عقب غزوة الدونونية- إلى الجزيرة الخضراء، واستقرَّ بها خمسة وثلاثين يومًا، ووزَّع خلالها الغنائم، وأرسل إلى العدوة بخبر الغزوة، وكذلك أرسل إلى ابن الأحمر، ثم عاد بعد ذلك، وقاد جيشه إلى أحواز إشبيلية، وحاصرها حصارًا شديدًا، قتل فيه وسبى، وضيق على إشبيلية تضييقًا شديدًا، ثم رحل بجيشه عنها محملاً بالغنائم إلى شريش، وحاصرها هي الأخرى فترة، ثم فضَّ الحصار وعاد إلى الجزيرة[(٣)].

وبعد ثلاث سنوات من هذه الموقعة في سنة (٦٧٧هـ= ١٢٧٩م) تنتقض إشبيلية، فيذهب إليها من جديد يعقوب المريني رحمه الله، ومن جديد وبعد حصار فترة من الزمن يصالحونه على الجزية، ثم يتجه بعد ذلك إلى قرطبة ويحاصرها، فترضخ له أيضًا على الجزية[(٤)].

---

(١) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٤٩.
(٢) تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٣.
(٣) ابن أبي زرع: الذخيرة السنية، ص١٥٨، وما بعدها، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٣.
(٤) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٦، ١٩٧.

كان النصارى معتصمين بمدنهم، يحتمون بأسوارها وقلاعها، أو قل: هي أسوار وقلاع بناها المسلمون من قبل. إلا أن ألفونسو العاشر لم يكن من المتخاذلين والضعفاء والجبناء الذين ابتلي بهم المسلمون في أيام السقوط فتركوا هذه المدن، أو سلموها، أو حتى عاونوا النصارى في إسقاطها.

بل حتى في هذه الفترة لم تكن ما بقي من بلاد الأندلس متوحدة تحت سلطان ابن الأحمر، بل خرج عليه بنو أشقيلولة[1]، وسيطروا على مالقة وقمارش ووادي آش، وكثيرًا ما حاربهم هو وحاربهم أبوه من قبله، بل إن ابن الأحمر لم يشترك في موقعة الدونونية لهذا النزاع مع بني أشقيلولة[2].

حاصر المسلمون إشبيلية، واستنزفوها قدر الإمكان، وكان فيها ألفونسو العاشر، وأرسل المنصور السرايا إلى مختلف النواحي لتؤدي العمل نفسه، واقتحمت سراياه عدة حصون، ثم عاد السلطان بالغنائم والسبي إلى الجزيرة، وأراح في الجزيرة بعض الوقت، ثم خرج إلى شريش فاشتد في التضييق عليها، وأرسل ولده إلى إشبيلية، فاكتسح ما استطاع من حصونها، ثم عاد إلى أبيه وعادا معًا بالجيوش وبالغنائم إلى الجزيرة، ثم دعا ابن الأحمر للغزو، فاستجاب له، وخرجا سويًّا إلى قرطبة، فضيقوا عليها قدر الإمكان، وخربوا ما استطاعوا من حصونها، وأرسلوا السرايا إلى المدن الأخرى للتضييق عليها كأرجونة وبركونة وجيان، وملك قشتالة لا يجرؤ على الخروج لهم، ثم إنه لم يجد أمامه بدًّا من مسالمتهم، وبالفعل أرسل إلى أمير المسلمين يطلب المسالمة والصلح، فترك أمير المسلمين القرار في ذلك لابن الأحمر إعلاءً لشأنه، فوافق ابن الأحمر بعد استئذان أمير المسلمين في ذلك، وعاد أمير

---

(١) بنو أشقيلولة هم ابن أخت السلطان محمد بن الأحمر الفقيه، وكانت وقعت بينهم وبين السلطان خالهم (محمد الفقيه) حروب تسببت في مقتل فرج أحد الأخوة الأربعة (بني أشقيلولة)؛ فوقعت العداوة بين أمه أخت السلطان، وأخيها، وهي العداوة التي لم تنته ولم ينفع فيها صلح.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٧، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٤٥- ٤٨.

المسلمين مع ابن الأحمر إلى غرناطة، وترك له غنائم هذه الغزوة، ثم عاد أمير المسلمين للجزيرة[١].

محمد بن الأحمر الفقيه والخيانة العظمى:

في أثناء رجوع يعقوب المريني رحمه الله يموت حاكم مالقة -وهو من بني أشقيلولة الذين كانوا يسيطرون عليها- فيتولى عليها ابنه من بعده، إلا أن هذا الابن شرع في النزول عن مالقة لأبي يعقوب المنصور المريني[٢]؛ نكاية في خاله محمد الفقيه، بل إلى الحد الذي قال فيه للمنصور: إن لم تحزها أعطيتها للفرنج ولا يتملكها ابن الأحمر، وكان من الطبيعي -والحال هذا- أن يسارع المنصور لأخذها والاستجابة لبني أشقيلولة[٣].

ولا شكَّ أن موقفه كان في غاية الصعوبة؛ إذ هو الحريص دائمًا على طمأنة محمد الفقيه واسترضائه؛ فلقد كان هذا الأخير لديه من البطانة مثل ما كان للمعتمد بن عباد من قبله، وهم ممن يرضى بالنزول للنصارى ولا يرضى أن ينزل إلى الجزيرة، أمثال يوسف بن تاشفين ويعقوب المنصور المريني!

ولا شكَّ -أيضًا- في أن المنصور المريني لم يشأ أن تضيع جهوده في الجهاد سدى، ولا بُدَّ أنه فكر في ضرورة أن يكون للمرينيين قوات في أرض الأندلس يمكنها ردع المحاولات النصرانية، كما يمكنها شلَّ الأفكار التي قد تجول في رأس ابن الأحمر حول التحالف مع النصارى، أو النزول لهم عن مزيد من الأراضي.

ولقد كان للمنصور المريني قوات في جزيرة طريف على الساحل الجنوبي لبلاد الأندلس، اشترط نزول ابن الأحمر عنها لدى استدعائه له للغوث والإنجاد؛ وذلك

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٦، ١٩٧ .
(٢) ابن الخطيب: اللمحة البدرية ص٤٥، وتاريخ ابن خلدون ٧/ ١٩٧.
(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٥٦٤، وأعمال الأعلام، القسم الثالث، ص٢٨٨، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٤٨.

حتى تكون هذه القوات مددًا قريبًا لبلاد الأندلس إذا احتاجوا إليهم في حربهم ضد النصارى، وسبيلاً سهلاً للعبور المغربي إلى الأندلس.

وهنا كرر محمد بن الأحمر الفقيه سيرة المعتمد بن عباد، وخشي أن تتكرر قصة يوسف بن تاشفين حينما ساعد ملوك الطوائف ثم حاز الأندلس بعدئذٍ وأدخلها في حكم المرابطين[1]، ففكر عازمًا على أن يقف حائلاً وسدًّا منيعًا حتى لا تُضم بلاد الأندلس إلى دولة بني مرين.

ويا لهول! هذا الفكر الذي كان عليه ذلك الرجل الذي لُقب بالفقيه الذي ما هو بفقيه! فماذا يفعل إذًا لكي يمنع ما تكرر في الماضي، ويمنع ما جال بخاطره؟ بنظرة واقعية وجد أنه ليست له طاقة بيعقوب المنصور المريني، فماذا يفعل؟!

كرر سيرة الخيانة ذاتها؛ ومثلما أرسل المعتمد بن عباد من قبل إلى ألفونسو السادس، فعل محمد بن الأحمر الفقيه (!!) مع ألفونسو العاشر ملك قشتالة، واستعان به في طرد يعقوب المنصور المريني من جزيرة طريف[2].

ولم يكتفِ بهذا، بل سارع ابن الأحمر «الفقيه» (!!) في مراسلة الأمير المغربي يغمراسن بن زيان -ملك المغرب الأوسط، والعدو اللدود للسلطان يعقوب المريني[3]- للمحالفة على المنصور المريني.

وعلى موعد مع الزمن يأتي ملك قشتالة بجيشه وأساطيله ويحاصر جزيرة

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ١٩٨.

(٢) انظر: لسان الدين بن الخطيب: أعمال الأعلام، ص٢٨٩، وتاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٠٠.

(٣) بل إن يغمراسن هو الأمير الذي منعت معاركه المرينيين من سرعة الاستجابة لغوث الأندلسيين من قبل؛ حتى إنه رفض رسالة المنصور المريني بعقد هدنة بينهما لأنه سيتوجه إلى الأندلس التي تستغيث من بلاد النصارى، فما أمكن المنصور المريني أن يتوجه للجهاد مع الأندلسيين إلا بعد أن انتصر على يغمراسن هذا في معارك قوية، وبعد وقت ثمين ذهبت فيه من المسلمين الأندلسيين بلاد وأرواح وسبايا.. نسي ابن الأحمر هذا وأرسل ليغمراسن ليحالفه ضد المنصور المريني.

طريف، وما أن يسمع بذلك يعقوب المنصور المريني رحمه الله حتى يُريد أن يعبر من توه إلى الأندلس، إلا أن حوادث المغرب ومضايقات يغمراسن تمنعه وتعوقه، حتى لقد بلغ الحال بالمسلمين المحاصرين في الأندلس أنهم «قتلوا الأصاغر من أولادهم خشية عليهم من معرة الكفر»(١)، فأغمه هذا، فأرسل ابنه الأمير أبا يعقوب على رأس أسطول ضخم في أوائل سنة (٦٧٨هـ=١٢٧٩م)، وتُحَدِّثنا مصادر التاريخ عن فقيه من سبتة اسمه أبو حاتم العزفي أبلى البلاء الحَسن في حشد الناس، واستنفارهم للجهاد؛ حتى ركب أهل سبتة جميعًا للجهاد من الفتى الذي بلغ الحلم فما فوقه، وتوفرت همم المسلمين على الجهاد وصدقت عزائمهم على الموت(٢).

واستطاع ابن الأحمر في ظل هذه الكوارث التي أثارها للمارينيين بالمغرب والأندلس أن يأخذ مالقة ويستولي عليها ويُدخلها في حكمه، وعندئذٍ تكون الأمور قد عادت إلى ما كان يحب ويرغب من إخراج المرينيين من مالقة.

ثم بدا لابن الأحمر -مما وصل إليه حال المسلمين المحاصرين من جيوش النصارى- أن النصارى يستعدون لأخذها، وليس فقط إخراج المرينيين منها، وأنها على وشك أن تقع بأيديهم بالفعل، فندم على ما صنع ونبذ عهده وأعد أساطيله وجعلها مددًا للمسلمين، واجتمعت الأساطيل بميناء سبتة تناهز السبعين، فنشبت بين الأسطول الإسلامي وبين الأسطول النصراني معركة هائلة هُزم فيها النصارى، واستولى المسلمون على سفنهم، ونزلوا بالجزيرة، ففرَّ منها النصارى في الحال.

أَمَا كان الفقيه يعتبر بالتاريخ حتى نهايته، فيُبصر فيه نصر ابن تاشفين على ابن عباد ومعه الفرنج، ولو فعل ذلك لاكتملت له مسيرة القصة فيعتبر بها كلها، بدل أن يخشى من أحد فصولها فيكرر سيرة الخيانة!! إنه نموذج للحاكم الذي تضيع على يديه الممالك

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢٠٢.
(٢) المصدر السابق.

والبلاد، وتُمْحَى بسيرته أمجاد سطرها العظماء والفاتحون والمجاهدون الكبار.

وللنقمة التي ملأت قلب الأمير أبي يعقوب -ابن المنصور المريني، وقائد النصر البحري- على ابن الأحمر، فكَّر في أن يتحالف مع النصارى ضد ابن الأحمر حتى يُذهب ملكه في غرناطة، وأرسل بهذا إلى أبيه في المغرب، فأنكر عليه المنصور ذلك ورفضه تمامًا.

وفي هذا الوقت نفسه ينقلب النصارى على ابن الأحمر، ويتحالفون مع بني أشقيلولة ويهاجمون غرناطة، إلا أن ابن الأحمر استطاع ردهم عنها.

ورغم خطورة الموقف الذي أوقع ابن الأحمر نفسه فيه؛ إذ جعل الكل أعداءه، فتحالف على نصيره الوحيد وهم المرينيون، فجعلهم عدوًّا جديدًا يضاف إلى النصارى وإلى بني أشقيلولة رغم خطورة هذا الموقف ودقته إذا به يستقبل الرسالة التي تنزل على قلبه بردًا وسلامًا، وهي رسالة من السلطان يعقوب المنصور المريني، يُجَدِّد فيه الرغبة في الصلح والتحالف، ويحذر من خطورة انفصام هذا التحالف على المسلمين في الأندلس ومصيرهم.

وما كان أمام ابن الأحمر الفقيه إلا أن يقبل ويستجيب أمام هذا الخلق الإسلامي الكريم، فيكسب قومًا طالما جاهدوا معه، ونصروه وأعزوه، وعاداهم هو بحماقته، فلم يلبث إلا أن دارت عليه الدوائر[1].

هدأت العلاقات وصفت بين المنصور وبين ابن الأحمر لفترة من الزمن، ثم انقلب الحال في قشتالة نفسها؛ إذ ثار سانشو بن ألفونسو العاشر على أبيه، فلجأ ألفونسو العاشر إلى المنصور المريني، الذي جاز إلى الأندلس معاونةً لألفونسو، واستغلالاً لهذه الفرصة في ضرب بعضهم ببعض، ثم جاز مرة ثانية بعد أن مات ألفونسو العاشر، فصالحه النصارى وعقدوا معه عقدًا للهدنة والموادعة[2].

---

(١) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٠١-٢٠٤، وابن الخطيب: أعمال الأعلام القسم الثالث، ص٢٨٩، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ١٠٢، ١٠٣.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٠٥، ٢٠٦.

ثم وَفَد سانشو بعد ذلك على أمير المسلمين، وفيها سأل المنصورُ سانشو أن يرسل إليه من الكتب التي أخذوها من بلاد المسلمين في الأندلس، فأرسل إليه بعد عودته إلى بلاده ١٣ حملاً[١].

تكرار الخيانة من ابن الأحمر الفقيه وسقوط طريف:

بعد الموقعة السابقة بعام واحد وفي سنة (٦٨٥هـ= ١٢٨٦م) يموت المنصور المريني رحمه الله ويخلفه على إمارة بني مرين ابنه يوسف بن المنصور[٢]، ومن حينها يذهب ابن الأحمر الفقيه إليه ويعرض عليه الولاء والطاعة، وكان قد تم اتفاق بينهما فيما مضى حينما نزل الجيش المغربي إلى الأندلس وهزم الأساطيل النصرانية، وفيه أن ينزل الأمير يوسف بن يعقوب لابن الأحمر عن كل الثغور الأندلسية التابعة لبلاد العدوة المغربية، عدا الجزيرة وطريف، وتفرق الملكان وهما على أكمل حالات المصافاة، ثم كذلك نزل السلطان يوسف المريني لابن الأحمر عن وادي آش بعد ذلك سنة (٦٨٦هـ)[٣].

في هذه الأثناء وبعدها نقض سانشو المعاهدة التي كان أبرمها مع المرينيين؛ مستغلاً انشغال السلطان المغربي بشئون المغرب واضطراباته، فهاجموا البلاد الإسلامية، فعبر إليه السلطان، وغزا بلاده وهزمه، وهنا أرسل سانشو إلى ابن الأحمر يُخَوِّفه السلطان المريني على ملكه، ويسأله محالفته حتى يتمكنوا من منع بني مرين من العبور إلى الأندلس ثانية، وأن ليس إلى ذلك من سبيل إلا أن يستولوا على جزيرة طريف.

ومن جديد اعتملت الوساوس في قلب ابن الأحمر، ووقع في الفخ النصراني القاتل، وما درى المسكين أنه يخنق نفسه بيده، فوافق على التحالف مع النصارى شريطة أن يأخذ

---

(١) المصدر السابق، ٧/ ٢٠٩.
(٢) ابن الخطيب: رقم الحلل، ص٨٩، ٩٠، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢١٠.
(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون ٧/ ٢١١.

هو طريف إن استُولي عليها، أما ملك قشتالة فإنه يحصل على ستة حصون من ابن الأحمر، وبالفعل حاصر ملك قشتالة طريف، وكان ابن الأحمر يمده بالمؤن والأقوات، واستمرَّ الحصار حتى أنهك أهلها تمامًا، وسلموا لملك قشتالة على شروط.

وكسابقة وعلى موعد أيضًا مع الزمن يأتي بالفعل جيش النصارى ويحاصر طريف كما فعل في السابق، لكن في هذه المرة يستطيعون أن يسقطوا طريف.

لكن النصارى بعد أن استولوا عليها لم يُعيدوها إليه، وإنما أخذوها لأنفسهم؛ وبذلك يكونون قد خانوا العهد معه، وتكون قد حدثت الجريمة الكبرى والخيانة العظمى وسقطت طريف[1].

وكان موقع طريف هذه في غاية الخطورة؛ فهي تطل على مضيق جبل طارق، ومعنى ذلك أن سقوطها يعني انقطاع بلاد المغرب عن بلاد الأندلس، وانقطاع العون والمدد من بلاد المغرب إلى الأندلس تمامًا.

أبو عبد الله بن الحكيم وأمور يندى لها الجبين:

في سنة (٧٠١هـ= ١٣٠٢م) يموت ابن الأحمر الفقيه[2] ويتولى من بعده محمد الثالث، والذي كان يلقب بالأعمش[3]، ويُعرف بالمخلوع، وكان رجلاً ضعيفًا جدًّا، وقد تولى الأمور في عهده الوزير أبو عبد الله بن الحكيم -الذي ما هو بحكيم- حيث كانت له السيطرة على الأمور في بلاد غرناطة[4]، و«انصرف عن موالاة سلطان المغرب إلى موالاة ملك قشتالة»[5].

---

(١) المصدر السابق، ٧/ ٢١٦، والسلاوي: الاستقصا، ٣/ ٧١.

(٢) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٥٦٦، واللمحة البدرية، ص٤٥، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٢٨.

(٣) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٥٤٤، ٥٤٥، واللمحة البدرية، ص٤٨، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٢٨.

(٤) ابن الخطيب: الإحاطة، ١/ ٥٤٩، واللمحة البدرية، ص٥١، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٢٨.

(٥) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٢٨.

لم يكتفِ أبو عبد الله بن الحكيم بذلك، لكنه زاد على السابقين له في هذه المحالفات وغيرها بأن فعل أفعالاً يندى لها الجبين، فأوعز أبو عبد الله المخلوع إلى ابن عمه حاكم مالقة بمداخلة أهل سبتة في خلع طاعة السلطان يوسف المريني، والدخول في طاعة ابن الأحمر، ثم جهَّز جيشًا وذهب ليقاتل، تُرى من يقاتل؟! أيقاتل النصارى الذين هم على حدود ولايته، أم من يقاتل؟!

كانت الإجابة المخزية أنه ذهب بجيشه واحتلَّ سبتة في بلاد المغرب، ذهب إلى دولة بني مرين واحتلّ مدينة سبتة حتى يقوي شأنه في مضيق جبل طارق، وتم احتلال سبتة بالفعل وأعلن أبو عبد الله بن الحكيم الأمان لأهل سبتة، وإرساله حكام سبتة المخلوعين إلى غرناطة[1].

وفي سبيل لزعزعة الحُكم في بني مرين، انطلق رجل مغربي كان من المرينيين الذين يقيمون في الأندلس ويُدعى عثمان بن أبي العلاء، انطلق من سبتة إلى البلاد المغربية المحيطة في محاولة للسيطرة عليها؛ أملاً في أن يتمكن من السيطرة على المغرب، وساعده على ذلك مشاكل المغرب الداخلية، ثم ما كان من مقتل السلطان يوسف المريني، وما أدى إليه من فتنة بين ولديه أبي سالمٍ وأبي ثابت، انتهت بانتصار أبي ثابت واستيلائه على العرش، ثم مات أبو ثابت بعد ذلك بقليل، وخلفه أخوه أبو الربيع سليمان، وهو الذي هزم عثمان بن أبي العلاء بعد ذلك فارتد إلى الأندلس من جديد[2].

وإنه -بلا شكٍّ- غباء منقطع النظير، أمر لا يقرُّه عقل ولا دين، لكن هذا ما حدث، فكانت النتيجة أنه بعد ذلك بأعوام قليلة استغل النصارى الثورة التي قامت على أبي عبد الله المخلوع وتولية أخيه أبي الجيوش نصر بدلاً منه، فزحفوا

(١) المصدر السابق، ٧/ ٢٢٨، ٢٢٩.

(٢) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٣٦-٢٣٨.

بجيوشهم نحو جبل طارق حتى سقط في أيديهم في سنة (٧٠٩هـ= ١٣٠٩م)، فعُزلت -بهذا- بلاد الأندلس عن بلاد المغرب، وتركت غرناطة لمصيرها المحتوم[1].

* * *

(١) ابن الخطيب: الإحاطة، ٣/ ٣٣٩، واللمحة البدرية، ص٦٢، ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٢٤٠.

الفصل الرابع

غرناطة تصارع السقوط

وطيلة ما يقرب من مائتي عام، منذ سنة (٧٠٩هـ= ١٣٠٩م) وحتى سنة (٨٩٧هـ= ١٤٩٢م) ظلَّ الحال كما هو عليه في بلاد غرناطة، ولم تسقط.

وكان السر في ذلك والسبب الرئيس، والذي من أجله حُفظت هذه البلاد هو وجود خلاف كبير وصراع طويل كان قد دار بين مملكة قشتالة ومملكة أراجون، (المملكتان النصرانيّتان في الشمال)؛ حيث تصارعتا معًا بعد أن صارت كل مملكة منهم ضخمة قوية، وكانتا قد قامتا على أنقاض الدولة الإسلامية في بلاد الأندلس.

وقفة مع غرناطة وعوامل ثباتها طيلة هذه الفترة[1]:

كانت غرناطة تتردَّد بين القوة والضعف وبين الهزيمة والثبات وبين الأمن والقلق وبين الهدوء والاضطراب، رغم ذلك في الدَّاخل كانت -خلال عمرها البالغ حوالي قرنين ونصف- تمتلئ بالإنتاج، كما تطفح بالخير والرفاه، توفرت لها أيام مشهودة في الانتصار والغلبة، مع قلة الإمكانيات وقسوة الظروف وكثافة الأعداء.

في هذه الظروف -وحتى مع الأيام العصيبة والانشغال- استطاعت أن تسير في الموكب الحضاري، على قدر ما أوتيت من إمكانيات، وأن تُقَدِّم ألوانًا عديدة من

(١) عبد الرحمن الحجي: التاريخ الأندلسي، ص٥٥٩- ٥٦٢.

الإنجاز؛ مما يدل على حيوية هذه الأمة المسلمة واستعدادها للعمل والإنتاج، بقدر ما لديها من معاني الإسلام، وما تمتلك من رسوخ عقيدته، إن الذي أصاب المسلمين بتقصيرهم وتخاذلهم حين الهبوط عن المستوى الكريم الذي أراده الإسلام كان أكثر مما أصابهم من عدوهم[(١)]. مع اعتبار أهمية هذا الأخير في الإشغال والاستنزاف والإطباق من كل جهة، ينتقص من أطرافها ويأكل وجودها ويطحن حضارتها، ترابًا تذروه رياحها العاصفة.

أول إنجاز هو الاستعداد - في تلك الظروف - للمحافظة على ما تبقى للأندلس من أرض، تأوي إليها البقية الباقية، والسير في الوجهة القويمة على قدر؛ بعض هذه الإنجازات كانت موجودة واستمرت، وبعضها الآخر وجد أيام غرناطة؛ وجدت أيامها «مشيخة الغزاة»، التي خلَّفت تلك البطولات بجانب الانتصارات الأخرى[(٢)].

أمكن الحفاظ على التكوين والبناء الاجتماعي في عدد من الجوانب، ولو بحدود تضيق أو تتسع، وهو الذي ساعد على الوقوف في هذا الخضم الصعب لعدة أجيال، كما أن الآفاق والقيم التي رعاها وحافظ عليها أنتجت بناء حضاريًا كبيرًا في مختلف الميادين، قد تغور أحيانًا بعد أن كانت تفور.

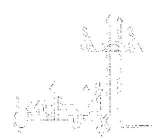
وفي العلوم المتعددة الحقول قدمت التآليف الكثيرة والإنتاج الضخم، كما حافظت على ما خطته يد العلماء الذين سبقوا وانتفعت به.

نجد ثَبْتًا طويلاً من أسماء اللامعين بعضها في الإحاطة لابن الخطيب وفي نفح الطيب للمقري، كما أُنشئت المدارس ومعاهد العلم الأخرى في كل ناحية، وتوفرت

---

(١) انظر: المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٠٩، ٥١٠، وأزهار الرياض، ١/ ٥٣- ٥٥.

(٢) انظر في أصل «مشيخة الغزاة» ودورها: ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٧/ ٣٦٦، ٣٦٧، والمقري: نفح الطيب، ١/ ٤٥٢- ٤٥٤.



الاختراعات؛ من مثل: المدافع التي ترمي نوعًا من المحروقات، وتحويل البارود إلى طاقة قاذفة، وانتقلت عنهم إلى أوربا [١]، وما يزال متحف مدريد الحربي يحفظ حاليًا البنادق التي استعملها المسلمون في دفاعهم عن غرناطة.

وفي الصناعات ازدهرت أنواع كثيرة؛ فقد كانت هناك صناعة السفن، ثم الأنسجة، وصناعة الورق والفخار المذهب العجيب [٢]، وأنتجت الكثير في ميدان الأصباغ والدباغة والجلود، وصناعة الحلي، والصناعات الفنية الدقيقة.

كذلك برزت بالزراعة ووسائل الري والعناية بها وأنواع المزروعات.

ثم الجانب العمراني المتمثل في المباني المختلفة؛ كالمساجد، والقصور، والدور، والقناطر، وقصر الحمراء الذي ما زال باقيًا، مزينًا بالنقوش التي تدل على فنية ماهرة رائعة، كذلك المباني الحربية المتعددة.

وكان للتنظيمات المختلفة في المجتمع والدولة دورها وأهميتها، فقد غدت مدينة غرناطة في وقتها من أجمل مدن العالم بشوارعها وميادينها وحدائقها ومبانيها ومرافقها المتنوعة، وكانت تضم حوالي مليون نفسٍ، وتُصَدِّر كثيرًا من الصناعات إلى عدة بلدان؛ منها الأوربية.

وظهرت آثارها على هذه البلدان الأوربية في بعض المسائل الأخرى المعنوية، فانتفعت - إلى حدٍّ - بالفروسية التي كانت لها الحفلات الرائعة المتفننة، بما تحتويه من ضروب البراعة والرشاقة والأعراف.

* * *

(١) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢١١، وما بعدها.

(٢) ابن بطوطة: رحلة ابن بطوطة، ٤/ ٢١٨.

الفصل الخامس
اتحاد الممالك النصرانية

وقبل الحديث عن هذه الفترة الحرجة من تاريخ مملكة غرناطة الإسلامية، لا بُدَّ أن نقف سريعًا أمام هذا العامل المهم الذي كان سببًا في الاحتضار السريع لآخر دول المسلمين في الأندلس، وهذا العامل هو اتحاد المملكتين النصرانيتين قشتالة وأراجون، بعد أن كانتا مملكتين مختلفتين متخاصمتين؛ تحارب كل منهما الأخرى وتعمل على القضاء عليها، بالرغم مما كان يربطهما من وحدة الدين والجنس، واشتراكهما -أيضًا- في عدد من الأهداف، والتي كان أهمها على الإطلاق هو القضاء على الإسلام في شبه الجزيرة الأيبيرية؛ خوفًا من أن يستحوذ على شبه الجزيرة ثانية كما حدث من قبل، فيقضي بذلك على سلطانهما، الذي يعملان على توطيده، ولو على حساب بعضهما البعض.

وقد ظهرت بوادر هذا الاتحاد سنة (٨٧٩هـ= ١٤٧٤م) عندما توفي هنري الرابع ملك قشتالة، فثارت بذلك حول تولي العرش مشكلة دقيقة، وهي أن هذا الملك لم يترك سوى ابنة صغيرة هي خوانا (چنة)، ولكنَّ نَسَبَها إليه مع ذلك كان موضع شكٍّ، وكانت تُنسب إلى صديقه وصفيه الدوق بلتران دي لاكويڤا؛ ولذلك كان اسمها الشائع خوانا بلترانيخا، وكان يناصرها فريق صغير من النبلاء، في حين كانت الأميرة إيزابيلا أخت الملك هنري على العكس من ذلك، فكانت تتمتع بعطف الشعب القشتالي، ويناصر وراثتها للعرش فريق كبير من النبلاء؛ حتى إن

أخاها الملك هنري قد اعترف بحقها في العرش، وأيد الكورتيس (مجلس النواب القشتالي) أحقيتها بالعرش عقب وفاة أخيها ألفونسو سنة (١٤٦٨م)؛ ولذلك لم يكن ثمة لبس في أحقية هذه الأميرة في تولي عرش قشتالة خلفًا لأخيها.

وكانت إيزابيلا قد تزوجت قبل وفاة أخيها ببضعة أعوام بابن عمها الأمير فرناندو الأرجوني ابن الملك خوان الثاني ملك أراجون، وقصة هذا الزواج أن الأنظار كانت تتطمح إلى إيزابيلا مذ كبرت؛ للاحتمالات القوية التي كانت تؤهلها لعرش قشتالة، وكان خوان الثاني ملك أراجون يتوق إلى خطبتها لابنه فرناندو؛ لما كان بين العائلتين المالكتين من أواصر القربى الوثيقة، ولأن ذلك سيقرب بالطبع سبل الاتحاد بين المملكتين؛ ولذلك كان فرناندو أول المتقدمين لخطبة إيزابيلا، ولكن أخاها الملك لم يرضَ عن اقتران فرناندو بأخته، وكان ينافس فرناندو في خطبة إيزابيلا عدد من الأمراء والنبلاء الطامعين في عرش قشتالة، مثل الأمير فرناندو الأرجوني؛ وكان من هؤلاء ألفونسو ملك البرتغال وكبير فرسان قلعة رباح، وقد وافق الملك هنري على أن ترتبط أخته بكبير فرسان قلعة رباح، إلا أن الأميرة كان لها رأي آخر؛ إذ إنها آثرت بعد إمعان النظر أن تقبل خطبة ابن عمها الأمير فرناندو الأرجوني؛ للبواعث نفسها التي جعلت أباه يحرص على هذه الزيجة، ولأنه يجمع بينهما من الجد بيت ملكي واحد، ووضعت شروط هذا الزواج بين الفريقين سرًّا؛ نظرًا لمعارضة الملك هنري لهذه الزيجة، فكان من هذه الشروط أن يتعهد فرناندو باحترام قوانين قشتالة وتقاليدها، وأن يجعل مقرَّ إقامته في قشتالة، وألا يغادرها دون إذن إيزابيلا، وألا يتخذ أية قرارات أو تعيينات في المملكة دون إذنها. وتعهد بالأخص بمتابعة الحرب ضد المسلمين.

وفي أكتوبر سنة (١٤٦٩م) الموافقة سنة (٨٧٤ هـ) عُقد الزواج في مدينة بلد الوليد -حيث كانت تقيم إيزابيلا في ذلك الوقت- في حفل خاص لم يشهده سوى

قليل من الأصدقاء، ثم أخطرت الأميرة أخاها بعقد الزواج برسالة تشرح فيها بواعث إقدامها على ذلك.

وأُعلنت إيزابيلا في ديسمبر (١٤٧٤م) عقب وفاة أخيها هنري ملكة لقشتالة وليون في بلدة شقوبية؛ حيث كانت تُقيم آنذاك، ودخلت مدن أخرى في طاعتها، ولكن الأمر لم يكن سهلاً؛ لأن ثمة فريق من النبلاء كان يناصر الأميرة خوانا ابنة الملك المتوفى، كما كان زوج إيزابيلا الأمير فرناندو الأرجوني يطمع هو الآخر في انتزاع العرش لنفسه؛ باعتباره آخر الأبناء من الذكور لعائلة قشتالة المالكة، ولكن إيزابيلا تمسكت بحقها، واتفقت مع زوجها على مزاولة الملك المشترك؛ فتكون إيزابيلا ملكة أصلية لقشتالة لها الرأي الأول في الأمور الجليلة، في حين يجري القضاء وتُسك العملة باسميهما.

وكان خصوم إيزابيلا في ذلك الحين وعلى رأسهم مطران طُلَيْطلَة قد تفاهموا مع ملك البرتغال ألفونسو الخامس على تأييد سعيهم في تنصيب خوانا ملكة لقشتالة، وهي ابنة أخت ألفونسو الخامس، فغزا ملك البرتغال في مايو سنة (١٤٧٥م) أراضي قشتالة، واخترق هضابها الشمالية حتى مدينة سمورة، وبادر فرناندو وإيزابيلا بالسير في قواتهما إلى لقائه، واشتبك الفريقان على مقربة من تورو بجوار سمورة، فهُزم القشتاليون في البداية، ولكن ألفونسو لم يبادر إلى الاستفادة من تفوقه، وطال الصراع بين الفريقين بضعة أشهر، وانتهى بانتصار القشتاليين.

وهكذا استقر الملكان على العرش بلا منازع، وفي سنة (١٤٧٩م) توفي خوان الثاني ملك أراجون، فتولى ابنه العرش من بعده، وبذلك اتحدت المملكتان الإسبانيتان في ظلِّ عرش واحد بعد أن فرَّقت بينهما المنافسات والصراعات أحقابًا.

وكان فرناندو الخامس أو فرناندو الكاثوليكي -إلى جوار تمتعه بالقدرة الفائقة

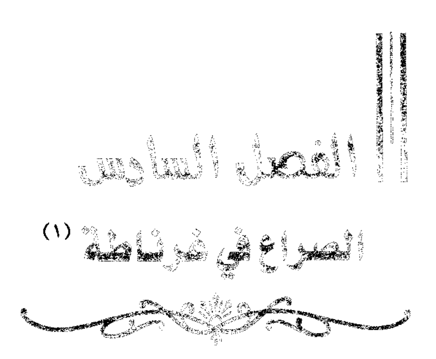
في الإدارة والسياسة والحرب- أميرًا لا وازع له، يجنح في سياسته إلى الغدر ومجانبة الوفاء، وكان رجل الفرصة السانحة، يلتمس إلى تحقيق أطماعه الكبيرة أيَّ الوسائل؛ مهما ابتعدت عن المبادئ الأخلاقية المقررة ومقتضيات الفروسية والوفاء، كما ظهر ذلك من قبل في سيرته، وكما سيظهر من بعد في تصرفاته ومعاملته للأمة الأندلسية المغلوبة.

وكانت زوجه الملكة إيزابيلا تتمتع بكثير من الذكاء والعزم، وكانت تُثير برقتها وتواضعها واحتشامها حب الشعب القشتالي وإعجابه؛ بيد أنها كانت تجيش بنزعة صليبية عميقة تذهب كثيرًا مذهب التعصب الأعمى، وكانت تقع تحت تأثير الأحبار المتعصبين وتنزل عند تحريضهم وتوجيههم، وكان مشروع القضاء على الإسلام في الأندلس يُذكي في نفس هذه الملكة الصليبية (التي تُنعت -أيضًا- بالكاثوليكية) أشنع ضروب التعصب، ويحملها على مؤازرة ديوان التحقيق الإسباني، أو ما عُرف خطأ بمحاكم التفتيش، فكانت تقرُّ كل ما جنح إلى ارتكابه هذا الديوان من الجرائم باسم النصرانية.

وفي الوقت الذي استقر الملك فيه للملكين الكاثوليكيين تحت راية إسبانيا الموحدة القوية، كانت مملكة غرناطة تدخل بعد سلسلة من الحروب الأهلية، وإهمال أميرها أبو الحسن علي بن سعد بن الأحمر لشئون دولته، وركونه إلى الراحة والدعة، وسعيه خلف ملاذِّه -إلى مرحلة خطيرة من الضعف والتمزق؛ لذلك فما أن استقر الأمر للملكين الكاثوليكيين حتى أشهرا الحرب على المملكة الإسلامية؛ ليبدأ هذا الفصل المؤسِّي من حياة المسلمين في الأندلس [1].

* * *

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ١٨٠ - ١٨٥، بتصرف.



الفصل السادس

الصراع في غرناطة (١)

قبل السقوط بست وعشرين سنة تقريبًا، وفي سنة (٨٧١هـ= ١٤٦٧م) كان يحكم غرناطة في ذلك الوقت رجل يُدعى علي بن سعد بن محمد بن الأحمر، والذي كان يُلَقّب بالغالب بالله على عادة ملوك الغرناطيين(٢)، وكان له أحد الإخوة يُعرف بأبي عبد الله محمد الملقب بالزغل (الزغل يعني الشجاع) ، فكان الأول غالب بالله، وكان الثاني زغلاً أو شجاعًا.

وكما حدث في عهد ملوك الطوائف اختلف هذان الأخَوان على الحُكم، وبدأ يتصارعان على مملكة غرناطة الهزيلة الضعيفة، والمحاطة في الشمال بمملكتي قشتالة وأراجون النصرانيتين.

وكالعادة -أيضًا- استعان أبو عبد الله محمد الزغل بملك قشتالة في حرب أخيه

---

(١) ينبغي أن نسجل هنا شكرًا بالغًا للمجهود الرائع الذي بذله الأستاذ محمد عبد الله عنان في التأريخ لهذه الفترة، وهو يُعَدُّ مصدرًا رئيسًا لها، فهذه الفترة تعاني ندرة في المصادر العربية، وقد بذل الأستاذ عنان جهدًا مبكرًا في جمع وتحليل الروايات القشتالية والإفرنجية المتاحة، كما قد عثر على وثائق كثيرة في شكل مخطوطات عربية وإفرنجية في رحلاته لإسبانيا والمغرب، وغيرها من المدن الأندلسية القديمة والمغاربية أيضًا، ولا يكاد يخلو كتاب -أرّخ لهذه الفترة بعدَه- من الاعتماد على ما أتى به.

(٢) كان محمد بن يوسف بن نصر مؤسس هذه الدولة بغرناطة يلقب أيضًا بـ «الغالب بالله»، وهكذا كان أبو عبد الله محمد بن علي آخر ملوك غرناطة، والذي عُرف في التاريخ الإسباني من بعد بـ« الملك الصغير»، وكان يُلقب بـ « الغالب بالله»، ويُعلق الأستاذ محمد عبد الله عنان على ذلك بقوله، ٧/ ٢٨٨: «وهي شعار سائر ملوك غرناطة».

الغالب بالله، وقامت على إثر ذلك حرب بينهما، إلا أنها قد انتهت بالصلح، لكنهما - ويا للأسف- قد اصطلحا على تقسيم غرناطة إلى جزء شمالي على رأسه الغالب بالله وهي الولاية الرئيسة، وجزء جنوبي وهي مالقة ومعها بعض الولايات الأخرى، وعلى رأسها أبو عبد الله محمد الزغل[1].

وبعد هذا التقسيم بثلاثة أعوام، وفي سنة (٨٧٤هـ= ١٤٦٩م) يحدث أمر غاية في الخطورة في بلاد الأندلس، فقد تزوَّج فرناندو الخامس ملك أراجون من إيزابيلا وريثة عرش قشتالة؛ وبذلك تكون الدولتان قد اصطلحتا معًا، وأنهتا صراعًا كان قد طال أمده، ولم يأتِ عام (١٤٧٩م) إلاَّ وكانت المملكتان قد توحدتا معًا في مملكة واحدة هي مملكة إسبانيا، وكانت هذه بداية النهاية لغرناطة.

غرناطة وصراع أُسَري في ولاية الغالب بالله:

على الجانب الآخر كانت غرناطة في ذلك الوقت سنة (٨٧٩هـ= ١٤٧٤م) منقسمة إلى شطرين؛ شطر مع الزغل، والآخر مع الغالب بالله، وفي هذه الأثناء حدث سيل عظيم في غرناطة، «ومن وقت هذا السيل العظيم بدأ ملك الأمير أبي الحسن في التقهقر والانتكاس والانتقاض؛ وذلك أنه اشتغل باللذات والانهماك في الشهوات واللهو بالنساء المطربات، وركن إلى الراحة والغفلات، وضيع الجند وأسقط كثيرًا من نجدة الفرسان، وثقّل المغارم وكثّر الضرائب في البلدان، ومكّس الأسواق ونهب الأموال، وشحّ بالعطاء إلى غير ذلك من الأمور التي لا يثبت معها الملك، وكان للأمير أبي الحسن وزير يُوافقه على ذلك، ويظهر للناس الصلاح والعفاف، وهو بعكس ذلك... فمن جملة انهماكه أنه اصطفى على زوجته روميَّة اسمها ثريا، وهجر ابنة عمه وأولادها منه... فبقيت الحال كذلك مدة والأمير مشتغل باللذات منهمك في الشهوات، ووزيره يضبط المغارم ويثقلها، ويجمع

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ١٩٤.

الأموال ويأتيه بها، ويعطيها لمن لا يستحقها، ويمنعها عمن يستحقها، ويهمل كل من فيه نجدة وشجاعة من الفرسان، ويقطع عنهم المعروف والإحسان، حتى باع الجند ثيابهم وخيلهم وآلات حربهم، وأكلوا أثمانها وقتل كثيرًا من أهل الرأي والتدبير والرؤساء والشجعان من أهل مدن الأندلس وحصونها، ولم يزل الأمير مستمرًّا على حاله والجيش في نقص، والملك في ضعف، إلى أن انقضى الصلح الذي كان بينه وبين النصارى، فلم يشعر بهم أحد حتى دخلوا مدينة الحمة...»[(١)].

كان السلطان الغرناطي قد ركن إلى الخلافات التي نشبت بين رؤساء النصاري، وما وقع بينهم من حروب؛ «فبعضهم استقل بملك قرطبة وبعض بإشبيلية، وبعض بشريش، وعلى ذلك كان صاحب غرناطة السلطان أبو الحسن قد استرسل في اللذات، وركن الى الراحات، وأضاع الأجناد، وأسند الأمر إلى بعض وزرائه، واحتجب عن الناس، ورفض الجهاد، والنظر في الملك ليقضي الله تعالى ما شاء، وكثرت المغارم والمظالم، فأنكر الخاصة والعامة ذلك منه، وكان -أيضًا- قد قتل كبار القواد وهو يظن أن النصارى لا يغزون بعدُ البلاد، ولا تنقضي بينهم الفتنة ولا ينقطع الفساد، واتُّفق أن صاحب قشتالة تَغَلَّب على بلادها بعد حروب، وانقاد له رؤساء الشرك المخالفون، ووجدت النصارى السبيل إلى الإفساد، والطريق إلى الاستيلاء على البلاد»[(٢)].

كان الغالب بالله الذي يحكم غرناطة متزوجًا من امرأة تُدعى عائشة، وقد عرفت في التاريخ بعائشة الحرة، وكانت له جارية نصرانية تُسمى ثريا قد فُتن بها وغرق في عشقها[(٣)]، «فمن جملة انهاكه أنه اصطفى على زوجته روميَّة اسمها ثريا، وهجر ابنة عمه وأولادها منه، فأدرك ابنة عمه من الغيرة ما يدرك النساء على

(١) مجهول: نبذة العصر، ص٤٥- ٥٠.
(٢) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥١١، ٥١٢.
(٣) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٠٠.

أزواجهن، ووقع بينهما نزاع كثير، وقام الأولاد محمد ويوسف مع أمهما، وغلظت العداوة بينهم، وكان الأمير أبو الحسن شديد الغضب والسطوة؛ فكانت الأم تخاف على ولديها منه، فبقيت الحال كذلك مدة، والأمير مشتغل باللذات منهمك في الشهوات... وفي هذا اليوم (٢٧ جمادى الأولى ٨٨٧هـ) بلغ الخبر لمن كان في لوشة أن ابني الأمير أبي الحسن محمدًا ويوسف هربا من القصبة خوفًا من أبيهما؛ وذلك أن شياطين الإنس صاروا يوسوسون لأمهما ويخوفونها عليهما من سطوة أبيهما، ويغوونها مع ما كان بينها وبين مملوكة أبيهما الرومية ثريا من الشحناء، فلم يزالوا يغوونها حتى سمحت لهم بهما، فاحتالت عليهما بالليل، وأخرجتهما إليهم، وساروا بهما إلى وادي آش، فقام أهل وادي آش بدعوتهما، ثم قامت غرناطة -أيضًا- بدعوتهما، واشتعلت نار الفتنة ببلاد الأندلس، ووقعت بينهم حروب وكوائن أعرضنا عن ذكرها لقبحها؛ لأن الآمر آل بينهم إلى أن قتل الوالد ولده، ولم تزل نار الفتنة مشتعلة وعلاماتها قائمة في بلاد الأندلس والعدو -دمره الله- مع ذلك كله مشتغل بحيلته في أخذ الأندلس، إلى أن ساعده الزمان ووافقته الأقدار»[1].

ويعرض لنا الأستاذ محمد عبد الله عنان هذا الأمر في أسلوب قصصي شائق مستعينًا فيه بالروايات العربية والقشتالية، فيقول: «تحتل شخصية عائشة الحرة في حوادث سقوط غرناطة مكانة بارزة، وليس ثمة -في تاريخ تلك الفترة الأخيرة من المأساة الأندلسية- شخصية تثير من الإعجاب والاحترام، ومن الأسى والشجن قدر ما يثير ذكر هذه الأميرة النبيلة الساحرة، التي تذكرنا خلالها البديعة ومواقفها الباهرة، وشجاعتها المثلى إبان الخطوب المدلهمة بما نقرأه في أساطير البطولة القديمة من روائع السير والمواقف...كانت عائشة الحرة ملكة غرناطة في ظلِّ مُلك يحتضر، ومجد يشع بضوئه الأخير ليخبو ويغيض.... وكانت عائشة ترى من الطبيعي أن

(١) مجهول: نبذة العصر، ص٤٦-٦٢، وانظر أيضًا: المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥١٢- ٥١٤.

يئول الملك إلى ولدها، ولكن حدث بعد ذلك ما يهدد هذا الأمل المشروع؛ ذلك أن السلطان أبا الحسن ركن في أواخر أيامه إلى حياة الدعة، واسترسل في أهوائه وملاذه، واقترن للمرة الثانية بفتاة نصرانية رائعة الحُسن، تعرفها الرواية الإسلامية باسم «ثريا» الرومية، وتقول الرواية الإسبانية: إن ثريا هذه واسمها النصراني إيسابيلا... فهام بها السلطان أبو الحسن، ولم يلبث أن تزوجها، واصطفاها على زوجه الأميرة عائشة، التي عُرفت عندئذ بـ«الحرة»؛ تمييزًا لها عن الجارية الرومية، أو إشادة بطهرها ورفيع خلالها... وكان السلطان أبو الحسن قد شاخ يومئذٍ، وأثقلته السنون، وغدا أداة سهلة في يد زوجه الفتية الحسناء، وكانت ثريا فضلاً عن حسنها الرائع فتاة كثيرة الدهاء والأطماع، وكان وجود هذه الأميرة الأجنبية في قصر غرناطة، واستئثارها بالسلطان والنفوذ في هذه الظروف العصيبة، التي تجوزها المملكة الإسلامية عاملاً جديدًا في إذكاء عوامل الخصومة والتنافس الخطرة. وكانت ثريا في الواقع تتطلع إلى أبعد من السيطرة على الملك الشيخ؛ ذلك أنها أنجبت من الأمير أبي الحسن كخصيمتها عائشة ولدين؛ هما: سعد ونصر، وكانت ترجو أن يكون الملك لأحدهما، وقد بذلت كل ما استطاعت من صنوف الدس والإغراء لإبعاد خصيمتها الأميرة عائشة عن كل نفوذ وحظوة، وحرمان ولديها محمد ويوسف من كل حق في الملك، وكان أكبرهما أبو عبد الله محمد ولي العهد المرشح للعرش، وكان أشراف غرناطة يؤثرون ترشيح سليل بيت الملك على عقب الجارية النصرانية، ولكن ثريا لم تيأس ولم تفتر همتها، فما زالت بأبي الحسن حتى نزل عند تحريضها ورغبتها، وأقصى عائشة وولديها عن كل عطف ورعاية، ثم ضاعفت ثريا سعيها ودسها حتى أمر السلطان باعتقالها، وزجت عائشة مع ولديها إلى برج قمارش أمنع أبراج الحمراء، وشدد في الحجر عليهم، وعوملوا بمنتهى الشدة والقسوة. فأثار هذا التصرف غضب كثير من الكبراء، الذين يؤثرون الأميرة

الشرعية وولديها بعطفهم وتأييدهم، وكان نذير الاضطراب والخلاف في المجتمع الغرناطي، وانقسم الزعماء والقادة إلى فريقين خصيمين؛ فريق يؤيد الأميرة الشرعية وولديها، وفريق يؤيد السلطان وحظيته، واستأثر الفريق الأخير بالنفوذ مدى حين، واضطرمت الأهواء والشهوات والأحقاد، واشتدَّ السخط على أبي الحسن وحظيته التي أضحت سيدة غرناطة الحقيقية، واستأثرت بكل سلطة ونفوذ. وذهبت ثريا في طغيانها إلى أبعد حدٍّ، فحرضت الملك الشيخ على إزهاق ولده أبي عبد الله عثرة آمالها. وكانت الأميرة عائشة امرأة وافرة العزم والشجاعة، فلم تستسلم... بل عمدت إلى الاتصال بعصبتها وأنصارها، وفي مقدمتهم بنو سراج أقوى أسر غرناطة، وأخذت تُدَبِّر معهم وسائل الفرار والمقاومة؛ ولم يغفر السلطان أبو الحسن لبني سراج هذا الموقف قط. ويقال: إنه عمد فيما بعد إلى تدبير إهلاكهم في إحدى أبهاء الحمراء. ولما وقفت الأميرة عائشة من أصدقائها على نية أبي الحسن، قررت أن تبادر بالعمل، وأن تغادر قصر الحمراء مع ولديها بأية وسيلة، وفي ليلة من ليالي جمادى الثانية سنة (٨٨٧هـ=١٤٨٢م) استطاعت الأميرة أن تفر مع ولديها محمد ويوسف... وكان اسم عائشة ورفيع خلالها، وقصة فرارها الجريء تثير أيما عطف وإعجاب، وظهر ولدها الأمير الفتى أبو عبد الله محمد في وادي آش حيث مجمع عصبته وأنصاره، وكان السلطان أبو الحسن وقت فرار الأميرة وولديها بعيدًا عن غرناطة، يدافع النصارى عن أسوار لوشة، وكانت الحوادث تسير بسرعة مؤذنة باضطرام عاصفة جديدة»[1].

فرناندو الخامس واستغلال النزاع والفرقة:

حيال هذا الوضع الذي آل إليه حال المسلمين في الأندلس استغل فرناندو الخامس هذا الموقف جيدًا لصالحه، وبدأ يهاجم حصون غرناطة؛ حيث كان يعلم أن

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ١٩٦- ٢٠١.

هناك خلافًا وشقاقًا كبيرًا داخل البلد، فدارت المعارك بين المسلمين والقشتاليين على أكثر من جبهة، استطاع المسلمون الانتصار في بعضها، وانهزموا في البعض الآخر، وهذه الهزائم لم تكن لقوة عدوهم بقدر ما كانت للضعف الذي كان قد وصلت إليه مملكتهم، نتيجة لاستمراء أميرهم لحياة الدعة والراحة، أما الشعب فإنه كان متحفزًا للدفاع عن نفسه تحفزًا كبيرًا، ثم تتابعت الأحداث، إذ قامت ثورة وضعت أبا عبد الله محمدًا في السلطة، وفرَّ أبوه إلى الزغل في مالقة، وهناك ومن مالقة كان الزغل يدفع النصارى عنها أشد دفاع، واستطاع -بعون الله- رد النصارى بعد هزائم شديدة مريرة، فقدوا فيها الكثير ومنهم بعض زعمائهم، كما فقدوا فيها الكثير من العُدد والآلات، فنشط أبو عبد الله هو الآخر لغزو النصارى، وغزاهم بالفعل واستطاع أن ينتصر عليهم... وأن يتوغل في بلادهم، وأثناء عودته من هناك محملاً بالغنائم، قطع عليه النصارى طريق عودته، ودارت بين الفريقين معركة قرب إلياسنة هُزم فيها المسلمون، وأُسر ملكهم أبو عبد الله محمد الصغير[١].

وبعد أَسْر الصغير عاد أبوه الزغل لحكم غرناطة، فأصبحت من جديد إمارة واحدة تحت حكم الزغل، غير أن المرض كان قد هدَّه وذهب ببصره؛ إذ أُصيب بمرض شبه الصرع، وأصيب في بصره، وأصابه خدر في جسده، وعاقبه الله تعالى بأنواع من البلاء؛ فتنازل عن الملك لأخيه محمد بن سعد، وحُمل إلى مدينة المنكب فأقام بها حتى مات[٢].

وبذل أبو الحسن حين عوده إلى العرش جهده لافتداء ولده، لا بباعث الحب له

---

(١) مجهول: نبذة العصر، ص٥٠-٦٧، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥١٢-٥١٥، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٠١- ٢٠٣، ومحمود علي مكي: التاريخ السياسي للأندلس ص١٣٤، منشور في الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي.

(٢) مجهول: نبذة العصر ص٦٧، ٦٨، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥١٥، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٢٠٤.

والشفقة عليه، ولكن لكي يحصل في يده ويأمن شره ومنافسته، وعرض على فرناندو نظير تسليمه أن يدفع فدية كبيرة، وأن يُطلق عددًا من أكابر النصارى المأسورين عنده، فأبى فرناندو، وآثر أن يحتفظ بالأسير إلى حين، وبذلت الأميرة عائشة من جهة أخرى مجهودًا آخر لإنقاذ ولدها، بمؤازرة الحزب الذي يناصره، وأرسلت إلى ملك قشتالة سفارة على رأسها الوزير ابن كماشة؛ ليفاوض في الإفراج عن الأسير مقابل الشروط التي يرضاها، وانتهت المفاوضات بين الفريقين بعقد معاهدة سرية تتلخص نصوصها فيما يلي: أن يعترف أبو عبد الله بطاعة الملك فرناندو وزوجه إيزابيلا، وأن يدفع لهما جزية سنوية قدرها اثنا عشر ألف دوبلا من الذهب، وأن يُفرج في الحال عن أربعمائة من أسرى النصارى الموجودين في غرناطة يختارهم ملكهم، ثم يطلق بعد ذلك كل عام سبعين أسيرًا لمدة خمسة أعوام، وأن يُقَدِّم أبو عبد الله ولده الأكبر رهينة مع عدد آخر من أبناء الأمراء والأكابر ضمانًا بحسن وفائه. وتعهَّد الملكان الكاثوليكيان من جانبهما بالإفراج عن أبي عبد الله فورًا، وألا يكلف في حكمه بأي أمر يخالف الشريعة الإسلامية، وأن يعاوناه في افتتاح المدن الثائرة عليه في مملكة غرناطة، وهذه المدن متى تم فتحها، تغدو واقعة تحت طاعة ملك قشتالة، وأن تستمر هذه الهدنة لمدة عامين من تاريخ الإفراج عن السلطان الأسير»[1].

ملك إسبانيا والتداعي على باقي القصبة

كان على الساحة الآن «الصغير» ومعه ولاية غرناطة، والزغل ومعه وادي آش، ثم ملك إسبانيا وتحت قبضته مالقة، واستكمالاً لآمال كان قد عقدها قديمًا، وفي سنة (٨٩٥هـ= ١٤٩٠م) انطلق ملك إسبانيا من مالقة إلى ألمرية على ساحل البحر المتوسط، واستولى على كل ما في طريقه إليها من مدن وحصون، ثم تمَّ تسليم ألمرية

(١) محمد عبد الله عنان في دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٠٤، ٢٠٥.

له بعد ذلك، وقد دافع المسلمون عن مدنهم أشد دفاع وأسناه، ولكن فارق الإمكانيات لم يساعدهم، ولم يحل شيء دون وقوع المصير المحتوم(١).

ثم منها توجه إلى وادي آش (التي هي في يد الزغل) فاستولى عليها، بعد أن رأى الزغل أنه قد أحيط به، وأنه ما عاد يستطيع الدفع عن بلاده، وبعد أن استنجد بمن استطاع الاستنجاد به من ملوك المسلمين(٢).

كان الوضع الآن أن حوصرت مدينة غرناطة وكل قراها ومزارعها من كل مكان بجيوش النصارى، أحاطوها من الشرق ومن الغرب ومن الشمال ومن الجنوب، وكان كما قال رسول الله ﷺ: «يُوشِكُ الأُمَمُ أَنْ تَدَاعَى عَلَيْكُمْ كَمَا تَدَاعَى الأَكَلَةُ إِلَى قَصْعَتِهَا». فقال قائلٌ: ومن قلَّةٍ نحن يومئذٍ قال: «بَلْ أَنْتُمْ يَوْمَئِذٍ كَثِيرٌ، وَلَكِنَّكُمْ غُثَاءٌ كَغُثَاءِ السَّيْلِ، وَلَيَنْزِعَنَّ اللهُ مِنْ صُدُورِ عَدُوِّكُمُ الْمَهَابَةَ مِنْكُمْ، وَلَيَقْذِفَنَّ اللهُ فِي قُلُوبِكُمُ الْوَهَنَ». فقال قائلٌ: يا رسول الله، وما الوهن. قال: «حُبُّ الدُّنْيَا وَكَرَاهِيَةُ الْمَوْتِ»(٣).

فقد تداعت ملوك النصارى حول مملكة غرناطة الصغيرة والضعيفة جدًّا في ذلك الوقت، واستولى ملك إسبانيا (قشتالة وأرجون متحدتين) على برجين: برج ملاحة غرناطة، وبرج قرية همدان، وكانا برجين كبيرين حصينين، فزادهما تحصينًا وشحنهما بالرجال، وما يحتاج إليه من آلة الحرب؛ ليضيق على أهل غرناطة؛ لأنهم كانوا قريبين منهما، فضيَّق بذلك عليهم أشدَّ الضيق.

وفي أول عام (٩٨٥هـ= ديسمبر ١٤٨٩م) وحسبما تُشير بعض الوثائق، تم

---

(١) مجهول: نبذة العصر، ص٩٨، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٢، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٢٦، ٢٢٧.

(٢) مجهول: نبذة العصر، ص٩٩- ١٠١، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٢، ٥٢٤، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٢٧، ٢٢٨.

(٣) أبو داود: كتاب الملاحم، باب في تداعي الأمم على أهل الإسلام (٤٢٩٧)، وقال الألباني: صحيح.

صلح جديد، «حسبما تدل على ذلك وثيقة صادرة عن أبي عبد الله نفسه في المحرم سنة ٨٩٥هـ (ديسمبر سنة ١٤٨٩)، وهي عبارة عن خطاب موجه منه إلى قادة وأشياخ بلدة أجيجر، وفيه يُنَوِّه أبو عبد الله بهذا (الصلح السعيد) المعقود لعامين، ويدعو إلى الدخول فيه... وبالرغم من أننا لا نعرف نصوص هذا الصلح مفصَّلة، فإن بعض الروايات القشتالية تذكر لنا أن أبا عبد الله قد تعهد في هذا الصلح بأن يُسَلِّم مدينة غرناطة للملكين الكاثوليكيين، متى تمَّ تسليم بسطة وألمرية ووادي آش. وعلى أي حال ففي فاتحة سنة ١٤٩٠م (أوائل صفر ٨٩٥هـ) أرسل الملكان الكاثوليكيان إلى السلطان أبي عبد الله سفارة لتخاطبه في موضوع التسليم... ولم يطلب (ملك قشتالة) تسليم غرناطة ذاتها، ولكن طلب تسليم مدينة الحمراء مقر الملك والحكم.

فماذا كان جواب أبي عبد الله؟

لقد كان في سابق مواقفه ما يحمل الملكين الكاثوليكيين على توقُّع استسلامه وخضوعه، ولكن حدث عكس ما توقعه الملكان؛ إذ أرسل إليهما القائد أبا القاسم المليح برسالة (بتاريخ ٢٩ صفر سنة ٨٩٥هـ= ٢٢ يناير سنة ١٤٩٠م)؛ وبالرغم من اللهجة المهذبة المقرونة بعبارات الخضوع والطاعة التي اختتمت بها الرسالة، فقد كان فحواها هو الرفض. لكن الملكان الكاثوليكيان أصرَّا على طلبهما، فاعتزم أبو عبد الله أن يشهر عليهما الحرب، لولا أن نصحه بعض الأكابر بالروية والتريث. فأرسل وزيره يوسف بن كُماشة ومعه تاجر كبير من سراة غرناطة، له علائق طيبة مع النصارى يدعى إبراهيم القيسي إلى الملكين الكاثوليكيين في إشبيلية؛ لإقناعهما بالعدول عن مطلبهما، ولكنهما عادا خائبين، وعلى ذلك استؤنفت الحرب بين المسلمين والنصارى.

وهنا نقف قليلاً لنتأمل هذا الموقف الجديد من جانب أبي عبد الله؛ أجل كانت

الخطوب والمحن التي جازتها الأندلس في هذه الأعوام المليئة بالحوادث، قد جعلت من أبي عبد الله رجلاً آخر، وكان هذا الأمير الضعيف يرقب سير الحوادث جزعًا، ويستشف من ورائها القدر المحتوم، وكان قد تخلَّص بانسحاب عمه من الميدان من منافسه القوي، ولكنه فقد في الوقت نفسه أقوى عضد يمكن الاعتماد عليه في الدفاع والمقاومة، وكانت سائر قواعد الأندلس الأخرى قد غدت نهائيًّا من أملاك مملكة قشتالة، وعيّن لها حكام من النصارى، وتدجن مَن بقي من أهلها، أو غدوا مدجَّنين يدينون بطاعة ملك النصارى، وذاعت بها الدعوة النصرانية، وارتد كثير من المسلمين حرصًا على أوطانهم ومصالحهم، أو اتقاء الريب والمطاردة، ولكن كثيرًا منهم ممن أشفقوا على أنفسهم ودينهم جازوا البحر إلى المغرب.

وهرعت جموع غفيرة أخرى منهم إلى غرناطة معقل الإسلام الوحيد الباقي؛ حتى غدت الحاضرة تموج بسكانها الجدد، وحتى أصبحت تضمُّ بين أسوارها وأرباضها أكثر من أربعمائة ألف نفس، وكانت موجة عامة من اليأس والنقمة تغمر هذه الألوف، التي أوذيت في الأوطان والأنفس والولد والمال، دون أن تجني ذنبًا أو جريرة، وكانت فكرة التسليم للعدو الباغي أو مهادنته تلقى استنكارًا عامًّا، ولم يكن أبو عبد الله يجهل هذا الاتجاه العام، فلما وفد إليه سفيرا ملكي قشتالة في طلب التسليم، ثارت نفسه لهذا الغدر والتجني، وأدرك -وربما لأول مرة- فداحة الخطأ الذي ارتكبه في محالفة هذا الملك الغادر، ومعونته على بني وطنه ودينه، ولما أصرَّ فرناندو على تجنيه جمع أبو عبد الله الكبراء والقادة، فأجمعوا على رفض ما طلبه الملكان النصرانيان، وأعلنوا عزمهم الراسخ على الدفاع حتى الموت عن وطنهم ودينهم، وأبلغ أبو عبد الله ملك قشتالة بأنه لم يَعُدْ له القول والفصل في هذا الأمر، وأن الشعب الغرناطي يأبى كل تسليم أو مهادنة، ويُصَمِّم على المقاومة والدفاع. هكذا كان جواب أبي عبد الله لملكي قشتالة، وهكذا حمل الأمير الضعيف -بعزم

شعبه- من الاستكانة والمهادنة إلى التحدي والمقاومة»[١].

وما أن علم ملك قشتالة بامتناع أبي عبد الله عن التسليم ذهب إلى غرناطة، وحاصرها، فحاربه المسلمون وبرز إليه الأمير أبو عبد الله محمد، وصمد المسلمون في وجه الطاغية صمودًا بطوليًّا رده -بفضل الله- خائبًا خاسرًا إلى بلاده، وما أن ذهب حتى بدأ المسلمون بقيادة أبي عبد الله يغزون البلاد النصرانية المحيطة، ويساعدون الثوار المسلمين في البلاد التي استولى عليها النصارى قريبًا، وقد استطاعوا بالفعل الاستيلاء على عدد من الحصون والمدن القريبة والمهمة، ثم عاد الطاغية لمحاصرة غرناطة، ورده الله دون أن ينال منها شيئًا، ورجع المسلمون لغزواتهم، وهكذا حتى جاءهم الطاغية محاصرًا للمرة الثالثة، وكله تصميم على ألا يرحل هذه المرة عن غرناطة إلا بعد فتحها، ولعل أحد أسباب تصميمه هذا هو خوفه من هذا النشاط الذي ظهرت به غرناطة في فترتها الأخيرة، على أن غرناطة لم تستسلم لهذا الحصار، وعملت على كسره ضاربة بذلك أروع أمثلة البطولة والفروسية، بل كانت سرايا المسلمين تخرج للعيث في البلاد النصرانية القريبة[٢].

* * *

(١) مجهول: نبذة العصر، ص١٠٢، ١٠٣، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٣. ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٢٩- ٢٣٢، ونقلنا عن هذا المصدر الأخير باختصار.

(٢) مجهول: نبذة العصر، ص١٠٣- ١١٧، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٣، ٥٢٤، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٣٢-٢٣٦.

الفصل السابع

حركة الجهاد قبيل سقوط غرناطة

برز في هذا الحصار الأخير داخل غرناطة حركة جهادية بارزة على رأسها رجل يُسمى موسى بن أبي غسَّان، فكان أن حرَّك الجهاد في قلوب الناس، وبدأ يُحَمِّسهم على الموت في سبيل الله، وعلى الدفاع عن بلدهم وهويتهم، فاستجاب له الشعب وتحرك للدفاع عن غرناطة(١).

وطيلة سبعة أشهر كاملة ظل أصحاب الانتفاضة في دفاعهم عن حصون غرناطة ضد الهجمات النصرانية الشرسة، وإليك طرفًا من هذا الصمود يحكيه الفارس المعاصر صاحب كتاب نبذة العصر:

«رجع ملك قشتالة إلى فحص غرناطة، ونزل بمحلته بقرية عتقة، ثم شرع في البناء، فبنى هنالك سورًا كبيرًا في أيام قلائل، وصار يهدم القرى، ويأخذ ما فيها من

---

(١) يقول الأستاذ عنان: «لم نعثر في المصادر العربية التي بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله؛ ومرجعنا في ذلك هو المؤرخ الإسباني كوندي، الذي يقول: إنه نقل روايته عن مصادر عربية. ولكنه كعادته لم يذكر لنا هذه المصادر، وأشار الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني -في رحلته- إلى من يُدعى (موسى أخا السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة) (رحلة الوزير المنشورة بعناية معهد فرانكو ص١٣)... وقصة موسى تشغل حيزًا كبيرًا في الروايات الإسبانية... ونحن ننقل هنا أقوال الرواية القشتالية عن موسى وفروسيته لا على أنها محققة من الناحية التاريخية، ولكن لأنها تقدم لنا صورًا رائعة لدفاع المسلمين عن دينهم ووطنهم وآخر قواعدهم». انتهى كلام الأستاذ عنان دولة الإسلام في الأندلس (هامش) ٧/ ٢٣٧، ٢٣٨. والحقيقة أننا لا نتوقع أن تؤلف المصادر الإسبانية شخصية إسلامية تقود دفاعًا رائعًا عن غرناطة، بل الأقرب إلى التوقع أن توجد حركة صحوة ودفاع وجهاد قبيل فترة السقوط، وهي الحركة التي تُعَدُّ من طبائع الناس جميعًا، ولا شك أن ندرة المصادر العربية عن هذه الفترة تمثل عنصرًا سلبيًّا في مثل هذه اللحظات التاريخية، فلا نجد -لملء الفراغ- إلا أن نستنطق الرويات الأخرى ونستخدم التوقع والترجيح.

آلة البناء، ويجعله على العجل، ويحمله إلى ذلك البلد الذي بناه، ويبني به، وهو مع ذلك يقاتل المسلمين ويقاتلونه قتالاً شديدًا، وحارب ملك الروم -أيضًا- أبراج القرى الدائرة بغرناطة وأخذها، ولم يبق إلا قرية الفخار، فلم يزل يُلِحُّ عليها ويجلب عليها بخيله ورجله، ويطمع أن يجد فرصة فلم يقدر على شيء، حتى قتل له عليها خلق كثير من الروم، ووقعت عليها ملاحم كثيرة بين المسلمين والنصارى؛ لأن المسلمين كانوا يُلِحُّون على حمايتها خوفًا من أن يملكها الروم؛ فتكون سببًا في إخلاء قرى الجبل وحصار البلد، فلم يزالوا يدافعون عنها ويقاتلون مَنْ قصدها؛ حتى قصر عنها العدو؛ لكثرة ما قُتل له عليها من خيل ورجال.

ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى كل يوم؛ تارة في أرض الفخار، وتارة في أرض بليانة، وتارة في أرض رسانة، وتارة في أرض طفير، وتارة في أرض يعمور، وتارة في أرض الجدوى، وتارة في أرض رملة أفلوم، وتارة في أرض الربيط، وتارة وادي منتشيل، وغير ذلك من المواضع التي على غرناطة، وفي كل ملحمة من هذه الملاحم يثخن كثير من أنجاد الفرسان بالجراحات من المسلمين، ويستشهد آخرون، ومن النصارى أضعاف ذلك، والمسلمون فوق ذلك صابرون محتسبون، واثقون بنصر الله تعالى، يقاتلون عدوهم بنية صادقة وقلوب صافية، ومع ذلك يمشي منهم الرجال في ظلام الليل لمحلة النصارى، ويتعرضون لهم في الطرقات، فيغنمون ما وجدوا من خيل وبغال وحمير وبقر وغنم ورجال، وغير ذلك حتى صار اللحم بالبلد من كثرته: رطل بدرهم.

ومع ذلك لم تزل الحرب متصلة بين المسلمين والنصارى، والقتل والجراحات فاشيان في الفريقين سبعة أشهر، إلى أن فنيت خيل المسلمين بالقتل، ولم يبقَ منها إلا القليل، وفني -أيضًا- كثير من نجدة الرجال بالقتل والجراحات»[١].

(١) مجهول: نبذة العصر ص١١٧ وما بعدها.

إلاَّ أن البسالة وحدها لا تكفي في ظلِّ وضع كهذا؛ إذ المسلمون محاصرون داخل المدينة ولا يمكنهم الحصول على الإمدادات، فيما النصاري يحاصرونهم من الخارج، وخطوط الإمدادات مفتوحة من بلادهم، ولا سيما أن الحرب دفعت بكثير من الغرناطيين إلى الخروج من البلدة، بما انتهبها من الخوف والفزع، وتبعات الحرب المتواصلة، فظلت غرناطة تضعف شيئًا فشيئًا، ثم لما دخل فصل الشتاء ونزلت الثلوج أصابت طريق البشرة -الذي كانت الأطعمة تأتي عبره إلى غرناطة- فقل الطعام عند ذلك في أسواق المسلمين في غرناطة، واشتد الغلاء وأدرك الجوع كثيرًا من الناس وكثر السؤال.

وهنا لم يكن أمام الغرناطيين إلا التسليم بالأمان، فذهب جمع منهم إلى ملكهم محمد؛ طالبين منه أن يفاوض ملك قشتالة على التسليم بالأمان، وقد أورد صاحب نبذة العصر ما يُفيد بأن التسليم كان رغبة قائمة في نفس محمد الصغير من قبل، إلاَّ أنه خاف من العامة، فكان يُراسل ملك قشتالة سرًّا، ولهذا قطع ملك قشتالة الحرب فترة، وبقي على ما هو فيه من الحصار والتشديد، منتظرًا جهود محمد الصغير في إقناع العامة بالتسليم بالأمان، فلما أثمرت جهوده مع العامة، وذهب وفدهم إليه، سارع مستجيبًا لهم، ثم سارع مرسلاً وزراءه إلى ملك قشتالة، الذي سارع بدوره بالقبول[1].

ونحن نذهب إلى قبول هذه الرواية وترجيحها، لا سيما وأن سيرة ملك غرناطة وطبيعة وزرائه تدفعنا لإساءة الظن بهم، ثم وجدنا الأستاذ محمد عبد الله عنان يوافق هذه الرواية -بعدما كان يرتاب فيها- لما ظهر من وثائق فيما بعدُ؛ أفادت بأن مساعي كانت تُبْذَل في الخفاء لتحقيق ما يمكن من الضمانات والمغانم الخاصة لأبي عبد الله وأسرته ووزرائه، فعُقدت معاهدة سرية مُنح فيها أبو عبد الله وأفراد أسرته ووزرائه منحًا خاصة بين ضياع وأموال نقدية وحقوق مالية وغيرها، هذا بخلاف الأملاك التي

(١) مجهول: نبذة العصر ص١٢١ وما بعدها.

كانوا يملكونها وتصرفوا فيها بالبيع، منذ بدأت الحوادث تتجهم في غرناطة[1].

واستقرَّ الأمر على تسليم غرناطة بالأمان، يروي المقري فيقول: «ثم عددوا مطالب وشروطًا، أرادوها وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش؛ منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام والوفاء بالشرط إذا أمكنوه من حمراء غرناطة والمعاقل والحصون، ويحلف على عادة النصارى في العهود... وكانت الشروط سبعة وستين؛ منها تأمين الصغير والكبير في النفس والأهل والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم ودورهم ورباعهم وعقارهم، ومنها: إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم، ولا يغصبوا أحدًا، وأن لا يولى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم... وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصًا أعيانًا نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان، لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى ودينهم، وأن مَنْ تَنَصَّر من المسلمين يوقف أيامًا حتى يظهر حاله، ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على مَنْ قَتل نصرانيًّا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٢٤٢.

النصارى آمنًا في نفسه وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن ولا مصلٍّ ولا صائم ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره»[١].

موسى بن أبي غسان وعملية استشهادية:

في رد فعل طبيعي وصريح له حيال ما حدث وقف موسى بن أبي غسان ﵀ في قصر الحمراء وقال: لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة مَلِكِهم؛ إن الموت أقل ما نخشى (يُريد أن هناك ما هو أصعب من الموت)؛ فأمامنا نهب مدننا وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش والتعصب الوحشي، والسياط والأغلال، وأمامنا السجون والأنطاع والمحارق، هذا ما سوف نعاني من مصائب وعسف، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة، التي تخشى الآن الموت الشريف، أما أنا فوالله! لن أراه[٢].

يُريد موسى بن أبي غسان أنه لن يرى كل هذا الذُّل، الذي سيحل بالبلاد جراء هذا التخاذل والتقاعس، وأنه اختار الموت الشريف، ثم غادر المجلس وذهب إلى بيته ولبس سلاحه وامتطى جواده.

وانطلق يقابل سرية من سرايا النصارى، وبمفرده يقابل موسى بن أبي غسان خمس عشرة رجلاً من النصارى، فيقتل معظمهم، ثم يُقتل هو في سبيل الله ﵀[٣].

---

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٤- ٥٢٧، وانظر: مجهول نبذة العصر ص١١٩ وما بعدها، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس ٧/ ٢٤٥ وما بعدها.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٥٤، ٢٥٥.

(٣) المصدر السابق، ٧/ ٢٥٥، ٢٥٦، وتنهي المصادر القشتالية حياة موسى بأنه انتحر، ونحن نستبعد هذا الاحتمال في سيرة مجاهد كهذه السيرة.

الفصل الثامن

سقوط غرناطة

كان مقتل موسى بن أبي غسان وتسليم ابن الأحمر الصغير غرناطة إيذانًا بانتهاء عصر الدولة الإسلامية في مملكة غرناطة.

أعطى أبو عبد الله محمد الصغير الموافقة بالتسليم للملكين فرناندو الخامس وإيزابيلا، ولم ينسَ أن يرسل إليهما بعضًا من الهدايا الخاصة[1]، وبعد التسليم بأيام يدخل الملكان في خيلاء قصر الحمراء الكبير ومعهما الرهبان، وفي أول عمل رسمي يقومون بتعليق صليب فضي كبير فوق برج القصر الأعلى، ويُعلن من فوق هذا البرج أن غرناطة أصبحت تابعة للملكين الكاثوليكيين[2]، وأن حكم المسلمين قد انتهى من بلاد الأندلس.

وفي نكسة كبيرة وفي ظلِّ الذل والصغار يخرج أبو عبد الله محمد بن الأحمر الصغير من القصر الملكي، ويسير بعيدًا في اتجاه بلدة أَنْدَرَش[3]، حتى وصل إلى ربوة عالية تُطل على قصر الحمراء يتطلع منها إليه، وإلى ذاك المجد الذي قد ولَّى، وبحزن وأسى قد تبدَّى عليه لم يستطع فيه الصغير أن يتمالك نفسه، انطلق يبكي حتى بللت دموعه لحيته، حتى قالت له.أمه «عائشة الحرة»: أجل؛ فلتبك كالنساء

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٥٧.

(٢) المصدر السابق، ٧/ ٢٦٠.

(٣) وهي البلدة التي كان قد قرر الإقامة فيها، أو أراد له فرناندو ذلك، انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٦٤.

مُلْكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال[١].

وإلى هذه اللحظة ما زال هذا التل -الذي وقف عليه أبو عبد الله محمد الصغير- موجودًا في إسبانيا، وما زال الناس يذهبون إليه، يتأمَّلون موضع هذا المَلِك الذي أضاع مُلكًا أسسه الأجداد، ويُعرف (هذا التل) بـ «زفرة العربي الأخيرة»، وهو بكاء أبي عبد الله محمد الصغير حين ترك ملكه[٢].

وقد تم ذلك في الثاني من شهر ربيع الأول، سنة ٨٩٧هـ= ٢ من يناير سنة ١٤٩٢م[٣].

وقد هاجر بعدها أبو عبد الله محمد الصغير إلى بلاد المغرب، ويذكر المقري أنه استقر بفاس، وبنى بها قصورًا على طراز الأندلس، وأن المقري نفسه قد تجوَّل في هذه القصور، ورأى ذريته في فاس سنة (١٠٢٧م) يأخذون من أوقاف الفقراء والمساكين، ويعدون من جملة الشحاذين[٤].

فلعنة الله على هذا الذُّلِّ! ولعنة الله على هذا التَّرْك للجهاد! اللذَيْن يوصلان إلى هذا المثوى وتلك المنزلة.

وما كان من أمر، فقد اندثرت حضارة ما عرفت أوربا مثلها من قبل؛ إنها حضارة الدنيا والدين، وقد انطوت صفحة عريضة خسر العالم أجمع بسببها الكثير والكثير، وقد ارتفع علم النصرانية فوق صرح الإسلام المغلوب، وأفل وإلى الآن نجم دولة الإسلام في بلاد الأندلس.

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٦٧.

(٢) انظر: المصدر السابق، ٧/ ٢٦٧.

(٣) نبذة العصر، ص ١٢٥، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٥، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٢٥٨- ٢٦٧.

(٤) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٩.

وليت شعري، أين موسى بن نصير؟!

أين طارق بن زياد؟!

أين عبد الرحمن الداخل وعبد الرحمن الناصر؟!

أين المنصور بن أبي عامر؟!

أين يوسف بن تاشفين؟!

أين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟!

أين يعقوب المنصور المُوَحدي؟!

أين يعقوب المنصور المريني؟!

أين كل هؤلاء؟!

غابوا وانقطعت آثارهم وإمداداتهم، ولا حول ولا قوة إلاّ بالله!

سقوط وضياع غرناطة.. العوامل والأسباب:

كانت عوامل انحدار وسقوط وضياع الأمم قد تشابهت إلى حدٍّ كبير في كل فترات الضعف في تاريخ الأندلس، وهذه العوامل نفسها قد زادت وبشدَّة في فترة غرناطة؛ ولذلك كان السقوط كاملاً وحاسمًا؛ وكان من هذه العوامل ما يلي:

العامل الأول:

كان الإغراق في الترف، والركون إلى الدنيا وملذاتها وشهواتها، والخنوع والدعة والميوعة، هي أولى العوامل التي أدَّت إلى تلك النهاية المؤلمة، وقد ارتبطت كثيرًا فترات الهبوط والسقوط بكثرة الأموال والانغماس في الملذات، والميوعة الشديدة في شباب الأمة، والانحطاط الكبير في الأهداف؛ قال تعالى: ﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِنْ قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنْشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا آخَرِينَ ۞ فَلَمَّا أَحَسُّوا بَأْسَنَا إِذَا هُمْ مِنْهَا يَرْكُضُونَ ۞ لَا تَرْكُضُوا وَارْجِعُوا إِلَى مَا أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَاكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْأَلُونَ﴾ [الأنبياء: ١١- ١٣].

وهكذا يا أهل غرناطة، أين ستذهبون؟ وإلى أين ستركضون؟ ارجعوا إلى قصر الحمراء، وارجعوا إلى مساكنكم وما أترفتم فيه، وسلموا هذه البلاد إلى النصارى، وتذوقوا الذُّلَّ كما لم تعملوا للعزة وللكرامة!

العامل الثاني:

ترك الجهاد في سبيل الله، وهو أمر ملازم لمن أُغرق في الترف؛ فالجهاد سُنَّة ماضية إلى يوم القيامة، وقد شرعه الله ليعيش المسلمون في عزَّة ويموتون في عزَّة، ثم يدخلون بعد ذلك الجنة ويُخلَّدون فيها.

وإن الناظر إلى عهد الأندلس ليتساءل: أين أولئك الذين كانوا يجاهدون في حياتهم مرة أو مرتين كل عام، وبصفة مستمرة ودائمة؟! أين يوسف بن تاشفين، وأين أبو بكر بن عمر اللمتوني؟ وأين الحاجب المنصور؟ وأين عبد الرحمن الناصر وغيرهم؟

وإنها لعبرة وعظة حين ننظر إلى ملوك غرناطة، ومَنْ كان على شاكلتهم حين ذُلُّوا وأُهينو لَمَّا تركوا الجهاد في سبيل الله؛ يقول تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انْفِرُوا فِي سَبِيلِ اللهِ اثَّاقَلْتُمْ إِلَى الْأَرْضِ أَرَضِيتُمْ بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا مِنَ الْآخِرَةِ فَمَا مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ۞ إِلَّا تَنْفِرُوا يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا وَاللهُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [التوبة: ٣٨- ٣٩].

وقد يظن البعض أنه يجب على الملتزمين بالمنهج الإسلامي أن يضحوا بأرواحهم، ويظلوا يعيشون حياة الضنك والتعب والألم في الدنيا؛ وذلك حتى يصلوا إلى الآخرة، وإن حقيقة الأمر على عكس ذلك تمامًا؛ إذ لو عاش المسلمون الملتزمون بمنهج الإسلام على الجهاد لعاشوا في عزة ومجد، وفي سلطان ومُلك من الدنيا عريض، ثم لهم في الآخرة الجنة خالدين فيها بإذن الله.

العامل الثالث:

يتبع العاملَيْن السابقين عامل الإسراف في المعاصي؛ فجيش المسلمين لا يُنصَر بالقوة ولا بالعدد والسلاح، لكنه يُنصر بالتقوى.

فإذا بعُد المسلمون عن دين ربهم، وإذا هجروا نهج رسولهم ﷺ كُتب عليهم الهلكة والذلّة والصغار، يقول رسول الله ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَمُحَقَّرَاتِ الذُّنُوبِ؛ فَإِنَّهُنَّ يَجْتَمِعْنَ عَلَى الرَّجُلِ حَتَّى يُهْلِكْنَهُ»(١).

وإذا كان هذا حال محقّرات الذنوب، تلك التي يستحقرها العبد من فرط هوانها، فلا تزال تجتمع عليه حتى تهلكه، فما البال وما الخطب بكبائر الذنوب من ترك الصلاة، والزنا، والتعامل بالربا، وشرب الخمور، والسب واللعن، وأكل المال الحرام، فأي نصر يُرجى ويُتَوقّع بعد هذا؟!

كانت هذه هي أهم عوامل السقوط في دولة الأندلس، وهناك غيرها الكثير مثل:

- الفُرقَة والتَشرذُم.
- موالاة النصارى واليهود والمشركين:

وقد قال ﷻ: ﴿وَلَنْ تَرْضَى عَنْكَ الْيَهُودُ وَلَا النَّصَارَى حَتَّى تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ قُلْ إِنَّ هُدَى اللهِ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٢٠].

وقال جَلَّ جَلَالُهُ: ﴿لَا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ [التوبة: ١٠].

وقال ﷻ: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا الْيَهُودَ وَالنَّصَارَى أَوْلِيَاءَ بَعْضُهُمْ

---

(١) أحمد (٣٨١٨)، وقال شعيب الأرناءوط: حسن لغيره. والطبراني: المعجم الكبير ٥/ ٤٤٩، والبيهقي: شعب الإيمان (٧٠١٧)، وقال الألباني: صحيح. انظر: صحيح الجامع (٢٦٨٧).

أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ إِنَّ اللهَ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾[المائدة: ٥١]. وآيات غيرها كثير.

- توسيد الأمر لغير أهله:

وكان ذلك واضحًا جدًّا خاصة في ولاية هشام بن الحكم، وولاية الناصر بعد أبيه يعقوب المنصور الموحدي، وأيضًا ولاية جميع أبناء الأحمر في ولاية غرناطة.

- الجهل بالدين:

وقد وضح جيدًا قيمة العلم والعلماء في زمن عبد الله بن ياسين، وزمن الحكم بن عبد الرحمن الناصر، وما حدث في عهدهما من قوَّة بعد هذا العلم، ووضح - أيضًا- أثر الجهل في نهاية عهد المرابطين، وفي عهد دولة الموحدين، حيث انتشر الجهل بين الناس، وسادت بينهم آراء ومعتقدات غريبة وعجيبة، كان من ذلك - أيضًا- ما حدث من الجهل بأمر الشورى، وهو أصل من الأصول التي يجب أن يحكم بها المسلمون، وكيف اعتدُّوا بآرائهم، وكيف قبل الناس ذلك منهم؟!

ومثل ما كان من غزو محمد بن الأحمر الأول لإشبيلية، وقد تبعه الناس في ذلك؛ ظنًّا منهم أنهم على صواب، وأنهم أصحاب رسالة وفضيلة، وأيُّ جهل بالدين أكثر من هذا؟!

* * *

الفصل التاسع
مصير المسلمين بعد سقوط غرناطة

كالعادة ولطبيعة جُبلت نفوسهم عليها -بعد أن ترك أبو عبد الله محمد الصغير البلاد- لم يوف النصارى بعهودهم مع المسلمين، بل تنكَّروا لكلامهم والتزامهم بالحفاظ على الحريات الدينية في غرناطة، وحماية الأماكن المقدسة للمسلمين، وما إلى ذلك مما ورد في شروط تسليم المدينة، فقد أهانوا المسلمين بشدة، وصادروا أموالهم؛ وكان ذلك مصداق قوله تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِنْ يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لَا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلًّا وَلَا ذِمَّةً يُرْضُونَكُمْ بِأَفْوَاهِهِمْ وَتَأْبَى قُلُوبُهُمْ وَأَكْثَرُهُمْ فَاسِقُونَ﴾ [التوبة: ٨].

وبعد تسع سنوات من سقوط غرناطة، وفي سنة (١٠٥١م) أصدر الملكان فرناندو الخامس وإيزابيلا أمرًا كان خلاصته أنه لمَّا كان الله قد اختارهما لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة (المسلمين)، فإنه يحظر وجود المسلمين فيها، فإذا كان بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم؛ خوفًا من أن يتأخر تنصيرهم، أو بأولئك الذين تنصروا لئلاَّ يفسدوا إيمانهم، ويعاقب المخالفون بالموت أو بمصادرة الأموال[1].

ومن هذا المنطلق قام النصارى بعدة أمور؛ كان منها:

أولاً: التنصير:

ولكي يعيش آخرون في بلاد الأندلس في ظل حكم النصارى الإسبان، تَنَصَّر

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٢٤.

من المسلمين بعضهم[١]، وهؤلاء لم يرتضِ لهم النصارى الإسبان حتى بالنصرانية، فلم يتركوهم دون إهانة، وقد سمَّوْهم بالمُورِسْكِيين؛ احتقارًا لهم، وتصغيرًا من شأنهم، فلم يكن المُورِسْكِي نصرانيًّا من الدرجة الأولى؛ لكنه كان تصغيرًا لهذا النصراني الأصيل[٢].

وقد نقل إلينا الدون لورنتي مؤرِّخ ديوان التحقيق الإسباني وثيقة من أغرب الوثائق القضائية؛ تضمنت طائفة من القواعد والأصول التي رأى الديوان المقدس أن يأخذ بها العرب المتنصرين في تهمة الكفر والمروق، وإليك ما ورد في تلك الوثيقة الغريبة:

«يعتبر الموريسكي أو العربي المتنصر قد عاد إلى الإسلام: إذا امتدح دين محمد، أو قال: إن يسوع المسيح ليس إلهًا، وليس إلا رسولاً. أو أنَّ صفات العذراء أو اسمها لا تناسب أمه، ويجب على كل نصراني أن يُبَلِّغَ عن ذلك، ويجب عليه -أيضًا- أن يُبَلِّغ عما إذا كان قد رأى أو سمع بأن أحدًا من الموريسكيين يُباشر بعض العادات الإسلامية؛ ومنها أن يأكل اللحم في يوم الجمعة وهو يعتقد أن ذلك مباح، وأن يحتفل يوم الجمعة بأن يرتدي ثيابًا أنظف من ثيابه العادية، أو يستقبل المشرق قائلاً باسم الله، أو يوثق أرجل الماشية قبل ذبحها، أو يرفض أكل تلك التي لم تذبح، أو ذبحتها امرأة، أو يختن أولاده، أو يسميهم بأسماء عربية، أو يُعرب عن رغبته في اتباع هذه العادة، أو يقول: يجب ألا يعتقد إلا في الله وفي رسوله محمد، أو يقسم بأيمان القرآن، أو يصوم رمضان، ويتصدق خلاله، ولا يأكل ولا يشرب إلا عند الغروب، أو يتناول الطعام قبل الفجر -السحور- أو يمتنع عن أكل لحم الخنزير وشرب الخمر، أو يقوم بالوضوء والصلاة؛ بأن يُوَجِّه وجهه نحو الشرق، ويركع

(١) انظر: نبذة العصر، ص١٣٠، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٧.
(٢) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٢٢، ٣٢٦، ٣٤٥.

ويسجد، ويتلو سورًا من القرآن، أو أن يتزوج طبقًا لرسوم الشريعة الإسلامية، أو ينشد الأغاني العربية، أو يُقيم حفلات الرقص والموسيقى العربية، أو أن يستعمل النساء الخضاب - الحناء - في أيديهن أو شعورهن، أو يتبع قواعد محمد الخمس، أو يلمس بيده على رءوس أولاده أو غيرهم؛ تنفيذًا لهذه القواعد، أو يغسل الموتى ويكفنهم في أثواب جديدة، أو يدفنهم في أرض بكرٍ، أو يغطي قبورهم بالأغصان الخضراء، أو أن يستغيث بمحمد وقت الحاجة واصفًا إياه بالنبي ورسول الله، أو يقول: إن الكعبة أول معابد الله، أو يقول: إنه لم ينصَّر إيمانًا بالدين المقدس، أو أن آباءه وأجداده قد غنموا رحمة الله؛ لأنهم ماتوا مسلمين... إلخ[1].

ثانيًا: التهجير:

لم تخل البلاد الإسلامية من ثورات شعبية ومواجهات محدودة الإمكانيات بمنطق «حرب العصابات»، وكان المجاهدون يختبئون في الجبال والأودية والمناطق البعيدة، ثم يشنُّون غاراتهم على القوات الإسبانية، وقد نجحوا كثيرًا في إنزال خسائر مؤثرة بالإسبان، وقد اشتدت هذه الحركات لا سيما بعد قرار التنصير الذي اعتمدته إسبانيا، فزاد عدد الثائرين والمنحازين للمجاهدين، وقد عزم الإسبان في البداية على القضاء على الثوار، إلا أنهم فشلوا في ذلك فشلاً ذريعًا، فلما يئسوا من القضاء عليهم، أصدروا عفوا عامًّا عنهم، وسمحوا لهم بالهجرة إلى بلاد المغرب، دون أن يأخذوا معهم غير الثياب التي كانت عليهم، أما الباقون فقد كان ثمة أمر ملكي بمنع الهجرة، ثم صدر الأمر بعد ذلك عام (١٦٠٩م) -أي بعد مائة سنة تقريبًا- بنفي الموريسكيين[2].

---

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٤٦.

(٢) مجهول: نبذة العصر، ص١٣٢، والمقري: نفح الطيب، ٤/ ٥٢٧، ٥٢٨، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٤٥.

ثالثًا: محاكم التفتيش وأهوال تشيب لها الولدان:

هدف الإسبان إلى تنصير المسلمين بإشراف السلطات الكنسية، وبأشد وسائل العنف، ولم تكن العهود التي قُطعت للمسلمين لتحول دون النزعة الصليبية، التي أسبغت على السياسة الإسبانية الغادرة ثوب الدين والورع، ولما رفض المسلمون عقائد النصارى ودينهم المنحرف، وامتنعوا عنه وكافحوه، اعتبرهم نصارى الإسبان ثوارًا وعملاء لجهات خارجية في المغرب والقاهرة والقسطنطينية، وبدأ القتل فيهم، وجاهد المسلمون ببسالة في غرناطة والبيازين والبشرات، فمُزِّقُوا بلا رأفة ولا شفقة ولا رحمة[1].

لم يقف الأمر عند حدِّ التهجير والتنصير، وإنما أعقب ذلك أن قام الكردينال الإسباني كمينس -وكان صليبيًّا حاقدًا- بحرق ثمانين ألف كتاب جُمعت من غرناطة وأرباضها في يوم واحد[2].

ثم أنشأ الإسبان بعد ذلك ما سُمِّي في التاريخ بمحاكم التفتيش؛ وذلك للبحث عن المسلمين الذين ادَّعوا النصرانية وأخفوا الإسلام، فكانوا إذا وجدوا رجلاً يدَّعي النصرانية ويُخفي إسلامه، كأن يجدوا في بيته مصحفًا، أو يجدوه يُصَلِّي، أو كان لا يشرب خمرًا، أقاموا عليه الحدود المغلظة، فكانوا يلقون بهم في السجون، ويعذبونهم عذابًا لا يخطر على بال بشر، فكانوا يملأون بطونهم بالماء حتى الاختناق، وكانوا يضعون في أجسادهم أسياخًا محمية، وكانوا يسحقون عظامهم بآلات ضاغطة، وكانوا يمزقون الأرجل، ويفسخون الفك، وكان لهم توابيت مغلقة بها مسامير حديدية ضخمة تنغرس في جسم المعذب تدريجيًا، وأيضًا أحواض يُقَيَّد فيها الرجل، ثم يسقط عليه الماء قطرة قطرة حتى يملأ الحوض ويموت،

(١) علي الصلابي: دولة الموحدين، ص٢٠٩.
(٢) شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة، ص٩٨، ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣١٦.

وكانوا -أيضًا- يقومون بدفنهم أحياء، ويجلدونهم بسياط من حديد شائك، وكانوا يقطعون اللسان بآلات خاصة.

كل هذه الآلات الفتاكة وغيرها شاهدها جنود نابليون حين فتحوا إسبانيا بعد ذلك، وقد صوَّروها في كتاباتهم، وعبَّروا عن شناعتها بأنهم كانوا يُصابون بالغثيان والقيء، بل والإغماء من مجرد تخيل أن هذه الآلات كان يُعذَّب بها بشر، وقد كان يُعذَّب بها مسلمون، ولا حول ولا قوة إلاَّ بالله! [1].

ومما يُذكر.. أن هناك عذابًا اختص به النساء العنيدات اللائي كن يشتمن رجال المحكمة؛ وهو تعرية المرأة إلا ما يستر عورتها، وكانوا يضعون المرأة في مقبرة مهجورة ويُجلسونها على قبر من القبور، يضعون رأسها بين ركبتيها ويشدون وثاقها، وهي على هذه الحالة السيئة، ولا يمكنها الحراك، وكانوا يربطونها إلى القبر بسلاسل حديدية، ويرخون شعرها فيجللها، وتظهر لمن يراها عن كثب كأنها هي جنِّيَّة، لا سيما إذا ما أرخى الليل سدوله، وتُترك المسكينة على هذه الحال إلى أن تجنَّ، أو تموت جوعًا ورعبًا[2].

لقد قام النصارى بإجبار المسلمين على الدخول في دينهم، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبقَ فيها من يقول: لا إله إلا الله، محمد رسول الله. إلا مَنْ يقولها في قلبه وفي خفية من الناس، وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الأذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين! وكم فيها من الضعفاء والمعذورين! لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل نارًا، ودموعهم تسيل سيلاً غزيرًا، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان، ويأكلون الخنزير والميتات،

---

(١) شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة، ص١٠٩-١١٣.
(٢) علي مظهر: محاكم التفتيش، ص٩٨.

ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم ولا على نهيهم، ومَنْ فعل ذلك عوقب بأشدِّ العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرَّها! ومصيبة ما أعظمها! وطامة ما أكبرها!(١).

لقد كانت محاكم التفتيش والتحقيق مضرب المثل في الظلم والقهر والتعذيب، كانت تلك المحاكم والدواوين تلاحق المسلمين؛ حتى تظفر بهم بأساليب بشعة تقشعر لها القلوب والأبدان، فإذا عُلم أن رجلاً اغتسل يوم الجمعة يصدر في حقه حكم بالموت، وإذا وجدوا رجلاً لابسًا للزينة يوم العيد عرفوا أنه مسلم فيصدر في حقه الإعدام، لقد تابع النصارى الصليبيون المسلمين؛ حتى إنهم كانوا يكشفون عورة من يشكون أنه مسلم فإذا وجدوه مختونًا، أو كان أحد عائلته كذلك؛ فيعلم أنه الموت ونهايته هو وأسرته(٢).

وكان دستور ديوان التحقيق (الاسم الرسمي لمحاكم التفتيش) يجيز محاكمة الموتى والغائبين، وتصدر الأحكام في حقهم، وتوقع العقوبات عليهم كالأحياء، فتصادر أموالهم، وتعمل لهم تماثيل تنفذ فيها عقوبة الحرق، أو نبش قبورهم وتستخرج رفاتهم؛ لتحرق في موكب «الأوتودافي»، وكذلك يتعدى أثر الأحكام الصادرة بالإدانة من المحكوم عليه إلى أسرته وولده، فيقضى بحرمانهم من تولي الوظائف العامة وامتهان بعض المهن الخاصة(٣).

وبعد مرور أربعة قرون على سقوط الأندلس، أرسل نابليون حملته إلى إسبانيا وأصدر مرسومًا سنة (١٨٠٨م) بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية.

ولنستمع إلى هذه القصة التي يرويها لنا أحد ضباط الجيش الفرنسي الذي دخل

---

(١) مجهول: نبذة العصر، ص١٣٠، ١٣١.
(٢) الصلابي: دولة الموحدين، ص٢١١.
(٣) انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ٧/ ٣٣٨.

إلى إسبانيا بعد الثورة الفرنسية؛ كتب الكولونيل ليموتسكي أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا قال: «كنت سنة ١٨٠٩م ملحقًا بالجيش الفرنسي الذي يقاتل في إسبانيا، وكانت فرقتي بين فرق الجيش الذي احتل (مدريد) العاصمة، وكان الإمبراطور نابليون أصدر مرسومًا سنة ١٨٠٨م بإلغاء دواوين التفتيش في المملكة الإسبانية، غير أن هذا الأمر أهمل العمل به للحالة والاضطرابات السياسية التي سادت وقتئذٍ.

وصمم الرهبان الجزويت أصحاب الديوان الملغى على قتل وتعذيب كل فرنسي يقع في أيديهم انتقامًا من القرار الصادر، وإلقاءً للرعب في قلوب الفرنسيين؛ حتى يضطروا إلى إخلاء البلاد فيخلوا لهم الجو.

وبينما أسير في إحدى الليالي أجتاز شارعًا يقل المرور فيه من شوارع مدريد؛ إذ باثنين مسلحين قد هجما عليَّ؛ يبغيان قتلي فدافعت عن حياتي دفاعًا شديدًا، ولم ينجني من القتل إلا قدوم سرية من جيشنا مكلفة بالتطواف في المدينة، وهي كوكبة من الفرسان تحمل المصابيح، وتبيت الليل ساهرة على حفظ النظام، فما أن شاهدها القاتلان حتى لاذا بالهرب، وتبين من ملابسهما أنهما من جنود ديوان التفتيش، فأسرعتُ إلى (المارشال سولت) الحاكم العسكري لمدريد، وقصصت عليه النبأ وقال: لا شك بأن مَنْ يُقتل من جنودنا كل ليلة إنما هو من صنع أولئك الأشرار، لا بد من معاقبتهم وتنفيذ قرار الإمبراطور بحل ديوانهم، والآن خذ معك ألف جندي وأربع مدافع، وهاجم دير الديوان، واقبض على هؤلاء الرهبان الأبالسة..».

حدث إطلاق نار من اليسوعيين حتى دخلوا عَنْوة، ثم يتابع قائلاً: «أصدرتُ الأمر لجنودي بالقبض على أولئك القساوسة جميعًا وعلى جنودهم الحراس توطئة لتقديمهم إلى مجلس عسكري، ثم أخذنا نبحث بين قاعات وكراسٍ هزازة، وسجاجيد فارسية، وصور ومكاتب كبيرة، وقد صنعت أرض هذه الغرفة من

الخشب المصقول المدهون بالشمع، وكان شذى العطر يعبق أرجاء الغرف، فتبدو الساحة كلها أشبه بأبهاء القصور الفخمة، التي لا يسكنها إلا ملوك قصروا حياتهم على الترف واللهو، وعلمنا بعد أنَّ تلك الروائح المعطرة تنبعث من شمع، يوقد أمام صور الرهبان، ويظهر أن هذا الشمع قد خلط به ماء الورد.

وكادت جهودنا تذهب سدى، ونحن نحاول العثور على قاعات التعذيب، إننا فحصنا الدير وممراته وأقبيته كلها، فلم نجد شيئًا يدل على وجود ديوان للتفتيش، فعزمنا على الخروج من الدير يائسين، كان الرهبان أثناء التفتيش يقسمون ويؤكدون أن ما شاع عن ديرهم ليس إلا تهمًا باطلة، وأنشأ زعيمهم يؤكد لنا براءته وبراءة أتباعه بصوت خافت، وهو خاشع الرأس، توشك عيناه أن تطفر بالدموع، فأعطيت الأوامر للجنود بالاستعداد لمغادرة الدير، لكن اللفتنانت «دي ليل» استمهلني قائلاً: أيسمح لي الكولونيل أن أخبره أن مهمتنا لم تنتهِ حتى الآن؟! قلت له: فتشنا الدير كله، ولم نكتشف شيئًا مريبًا؛ فماذا تريد يا لفتنانت؟! قال: إنني أرغب أن أفحص أرضية هذه الغرف؛ فإن قلبي يحدثني بأن السرَّ تحتها.

عند ذلك نظر الرهبان إلينا نظرات قلقة، فأذنت للضابط بالبحث، فأمر الجنود أن يرفعوا السجاجيد الفاخرة عن الأرض، ثم أمرهم أن يصبوا الماء بكثرة في أرض كل غرفة على حدة -وكنا نرقب الماء- فإذا بالأرض قد ابتلعته في إحدى الغرف. فصفق الضابط «دي ليل» من شدة فرحه، وقال: ها هو الباب، انظروا. فنظرنا فإذا بالباب قد انكشف، كان قطعة من أرض الغرفة، يُفتح بطريقة ماكرة، بواسطة حلقة صغيرة وضعت إلى جانب رجل مكتب رئيس الدير.

أخذ الجنود يكسرون الباب بقحوف البنادق، فاصفرت وجوه الرهبان، وعلتها الغبرة.

وفُتح الباب، فظهر لنا سلم يؤدي إلى باطن الأرض، فأسرعتُ إلى شمعة كبيرة يزيد طولها على متر، كانت تضيء أمام صورة أحد رؤساء محاكم التفتيش السابقين، ولما هممت بالنزول، وضع راهب يسوعي يده على كتفي متلطفًا، وقال لي: يابني؛ لا تحمل هذه الشمعة بيدك الملوثة بدم القتال، إنها شمعة مقدسة.

قلت له: يا هذا؛ إنه لا يليق بيدي أن تتنجس بلمس شمعتكم الملطخة بدم الأبرياء، وسنرى من النجس فينا، ومن القاتل السفاك؟!

وهبطت على درج السلم يتبعني سائر الضباط والجنود، شاهرين سيوفهم حتى وصلنا إلى آخر الدرج، فإذا نحن في غرفة كبيرة مرعبة، وهي عندهم قاعة المحكمة، في وسطها عمود من الرخام، به حلقة حديدية ضخمة، وربطت بها سلاسل من أجل تقييد المحاكمين بها.

وأمام هذا العمود كانت المصطبة التي يجلس عليها رئيس ديوان التفتيش والقضاة لمحاكمة الأبرياء، ثم توجهنا إلى غرف التعذيب وتمزيق الأجسام البشرية، التي امتدت على مسافات كبيرة تحت الأرض.

رأيتُ فيها ما يستفز نفسي، ويدعوني إلى القشعريرة والتقزز طوال حياتي.

رأينا غرفًا صغيرةً في حجم جسم الإنسان، بعضها عمودي وبعضها أفقي، فيبقى سجين الغرف العمودية واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يموت، ويبقى سجين الغرف الأفقية ممدًّا بها حتى الموت، وتبقى الجثث في السجن الضيق حتى تبلى، ويتساقط اللحم عن العظم، وتأكله الديدان، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من جثث الموتى فتحوا نافذة صغيرة إلى الفضاء الخارجي.

وقد عثرنا في هذه الغرف على هياكل بشرية ما زالت في أغلالها.

كان السجناء رجالاً ونساءً، تتراوح أعمارهم ما بين الرابعة عشرة والسبعين،

وقد استطعنا إنقاذ عدد من السجناء الأحياء، وتحطيم أغلالهم ، وهم في الرمق الأخير من الحياة.

كان بعضهم قد أصابه الجنون من كثرة ما صبُّوا عليه من عذاب، وكان السجناء جميعًا عرايا، حتى اضطر جنودنا إلى أن يخلعوا أرديتهم ويستروا بها بعض السجناء.

أخرجنا السجناء إلى النور تدريجيًّا حتى لا تذهب أبصارهم، كانوا يبكون فرحًا، وهم يُقَبِّلون أيدي الجنود وأرجلهم الذين أنقذوهم من العذاب الرهيب، وأعادوهم إلى الحياة، كان مشهدًا يُبكي الصخور.

ثم انتقلنا إلى غرف أخرى، فرأينا فيها ما تقشعر لهوله الأبدان، عثرنا على آلات رهيبة للتعذيب، منها آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم البشري، كانوا يبدءون بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر والرأس واليدين تدريجيًّا، حتى يهشم الجسم كله، ويخرج من الجانب الآخر كتلة من العظام المسحوقة، والدماء الممزوجة باللحم المفروم، هكذا كانوا يفعلون بالسجناء الأبرياء المساكين، ثم عثرنا على صندوقٍ في حجم جسم رأس الإنسان تمامًا، يُوضع فيه رأس الذي يُريدون تعذيبه بعد أن يربطوا يديه ورجليه بالسلاسل والأغلال؛ حتى لا يستطيع الحركة، وفي أعلى الصندوق ثقب تتقاطر منه نقط الماء البارد على رأس المسكين بانتظام في كل دقيقة نقطة، وقد جُنَّ الكثيرون من هذا اللون من العذاب، ويبقى المعذَّب على حاله تلك حتى يموت.

وآلة أخرى للتعذيب على شكل تابوت تُثَبَّت فيه سكاكين حادة.

كانوا يلقون الشاب المعذب في هذا التابوت، ثم يطبقون بابه بسكاكينه وخناجره، فإذا أغلق مُزِّق جسم المعذب المسكين، وقطعه إربًا إربًا.

كما عثرنا على آلات كالكلاليب تغرز في لسان المعذب ثم تشدُّ ليخرج اللسان معها، ليقص قطعة قطعة، وكلاليب تغرس في أثداء النساء وتسحب بعنفٍ؛ حتى تتقطع الأثداء أو تبتر بالسكاكين.

وعثرنا على سياط من الحديد الشائك، يُضرب بها المعذبون وهم عراة حتى تتفتت عظامهم، وتتناثر لحومهم.

وصل الخبر إلى مدريد فهب الألوف ليروا وسائل التعذيب، فأمسكوا برئيس اليسوعيين ووضعوه في آلة تكسير العظام فدقت عظامه دقًّا، وسحقها سحقًا، وأمسكوا كاتم سرِّه وزفوه إلى السيدة الجميلة[1] وأطبقوا عليه الأبواب فمزقته السكاكين شرَّ ممزق، ثم أخرجوا الجثتين وفعلوا بسائر العصابة وبقية الرهبان كذلك، ولم تمض نصف ساعة حتى قضى الشعب على حياة ثلاثة عشر راهبًا ثم أخذ ينهب ما بالدير[2].

* * *

(١) السيدة الجميلة هي آلة التعذيب التي بها السكاكين.
(٢) علي مظهر: محاكم التفتيش، ص١٣٢ - ١٣٩.

الفصل العاشر

من علماء الحياة في غرناطة

الشريف الإدريسي (٤٩٣-٥٦٠ هـ= ١١٠٠-١١٦٥م):

هو محمد بن محمد بن عبد الله بن إدريس الإدريسي الحسني الطالبي، مؤرخ، من أكابر العلماء بالجغرافية، ولد في سبتة ونشأ وتعلم بقرطبة، ويعتبر الشريف الإدريسي- بحق- عمدة الجغرافيين المسلمين، فقد ترك لنا موسوعة جغرافية عظيمة هي كتابه الرائع: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

قام برحلات عديدة وتجوَّل في شبه الجزيرة الإسبانية، كما وصل إلى شواطئ فرنسا وإنجلترا الجنوبية، بعدها عبر البحر إلى المغرب وتجول في شماله وجنوبه، وعاش حينًا في مراكش، وحينًا آخر في قسنطينة[1]، ثم رحل إلى المشرق وتجوَّل في آسيا الصغرى، وكان لهذه الرحلات أكبر الأثر في تكوين معلوماته الجغرافية، التي مهدت لوضع مؤلفه الجغرافي الكبير «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق».

انتهى المطاف بالإدريسي في جزيرة صقلِّية، وهناك استقبله ملكها «روجر الثاني» في بلاطه وأغدق عليه وكفله بالرعاية، حيث كان يسبق وصول الإدريسي إلى صقلِّية صيته كرحالة وكعالم جغرافي فذّ، وفي صقلِّية صمم الإدريسي خريطة للعالم هي الأدق والأفضل حتى وقت قريب.

---

(١) قسنطينة: مدينة شرق الجزائر.

ثم وضع مؤلفًا جغرافيًّا عامًّا يستعرض فيه العالم المعروف في ذلك الوقت، وتوصف فيه أحوال البلاد والأرضين وأماكنها، وصورها، وبحارها وجبالها، ومزروعاتها وعللها، وما يذكر عنها من العجائب، مع ذكر أحوال أهلها وهيئاتهم ومذاهبهم، وأزيائهم ولغاتهم، وقد استغرق فيه خمسة عشر عامًا، وانتهى من وضعه سنة (٥٤٩هـ= ١١٥٤م).

وعن كتابه: «نزهة المشتاق في اختراق الآفاق» قال عنه الزركلي: وهو أصح كتاب ألفه العرب في وصف بلاد أوربا وإيطاليا، وكل من كتب عن الغرب من علماء العرب أخذ عنه[(١)]. وقالت عنه دائرة المعارف الفرنسية: إن كتاب الإدريسي هو أوفى كتاب جغرافي تركه لنا العرب، وإن ما يحتويه من تحديد للمسافات ووصف دقيق يجعله أعظم وثيقة علمية جغرافية في القرون الوسطى.

وله أيضًا: الجامع لصفات أشتات النبات (في علم النبات[(٢)])، وروض الأنس ونزهة النفس، وأنس المهج وروض الفرج، وهذا بخلاف الكرة الفضية المرسوم عليها خريطة العالم.

توفي الشريف الإدريسي سنة (٥٦٠هـ= ١١٦٥م).

لسان الدين بن الخطيب (٧١٣-٧٧٦هـ=١٣١٣-١٣٧٤م):

هو محمد بن عبد الله بن سعيد السلماني، وزير مؤرخ أديب نبيل، كان أسلافه يُعرفون ببني الوزير، وُلِدَ ونشأ بغرناطة، استوزره سلطان غرناطة أبو الحجاج يوسف بن إسماعيل (سنة ٧٣٣هـ) ثم ابنه (الغني بالله) محمد من بعده، وعظمت مكانته، ولكنه شعر بسعي حاسديه في الوشاية به، فكاتب السلطان عبد العزيز بن

---

(١) الزركلي: الأعلام ٧/ ٢٤.

(٢) يبحث هذا الكتاب في ٥٦٠ نوعًا من النباتات، واعتمد عليه ابن البيطار، ولولا إنجاز الإدريسي العظيم في الجغرافي لعُدَّ من أهم علماء النبات.

علي المريني برغبته في الرحلة إليه.

وترك الأندلس خلسة إلى تلمسان، وكان السلطان عبد العزيز بها، فبالغ في إكرامه، وأرسل سفيرًا من لدنه إلى غرناطة بطلب أهله وولده، فجاءوه مكرمين، واستقر بفاس القديمة، قال عنه المقري: الوزير، الشهير الكبير، لسان الدين الطائر الصيت في المغرب والمشرق المزري، عرف الثناء عليه بالعنبر والعبير، المثل المضروب في الكتابة والشعر والطب ومعرفة العلوم على اختلاف أنواعها، ومصنفاته تخبر عن ذلك، ولا ينبئك مثل خبير، علم الرؤساء الأعلام، الوزير الشهير الذي خدمته السيوف والأقلام، وغني بمشهور ذكره عن مسطور التعريف والإعلام، واعترف له بالفضل أصحاب العقول الراجحة والأحلام.

محنة ابن الخطيب:

لما مات عبد العزيز، وخلفه ابنه السعيد بالله، ثم خلع وتولى المغرب السلطان (المستنصر) أحمد بن إبراهيم، وقد ساعده (الغني بالله) صاحب غرناطة مشترطًا عليه شروطًا؛ منها: تسليمه (ابن الخطيب)، فقبض عليه المستنصر، وكتب بذلك إلى الغني بالله، فأرسل وزيره ابن زمرك إلى فاس، فعقد بها مجلس الشورى، وأحضر ابن الخطيب، فوُجهت إليه تهمتا الزندقة، وسلوك مذهب الفلاسفة، وأفتى بعض الفقهاء بقتله، فأعيد إلى السجن، ثم دَسَّ له رئيس الشورى سليمان بن داود بعض الأوغاد -كما يقول المؤرخ السلاوي- من حاشيته، فدخلوا عليه السجن ليلاً، وخنقوه، وذلك في سنة (٧٧٦هـ= ١٣٧٤م)، ثم دفن في مقبرة (باب المحروق) بفاس.

أَلَّف الكثير من الكتب القيمة التي تُعَدُّ مرجعًا خالدًا؛ منها: الإحاطة في أخبار غرناطة، الإعلام في مَنْ بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام، واللمحة البدرية في الدولة النصرية، ورقم الحلل في نظم الدول، وأعمال الأعلام، ومقنعة السائل عن

المرض الهائل، روضة التعريف بالحب الشريف، وعمل من طب لمن أحب، والتاج المحلى في مساجلة القدح المعلى، والوصول لحفظ الصحة في الفصول، ومعيار الاختيار في ذكر المعاهد والديار، والكتيبة الكامنة، وخطرة الطيف في رحلة الشتاء والصيف، ودرة التنزيل.. وغيرها من المؤلفات الجيدة[١].

ابن بطوطة (٧٠٣-٧٧٩هـ= ١٣٠٤-١٣٧٧م):

هو الشيخ الفقيه أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن محمد بن إبراهيم اللواتي ثم الطنجي المعروف بابن بطوطة، وُلِدَ في طنجة، عام (٧٠٣هـ= ١٣٠٤م)، ينتمي إلى قبيلة «لواتة»، وهي قبيلة بربرية كبيرة، كانت بطونها تنتشر على طول الساحل الإفريقي الشمالي من المحيط إلى ليبيا.

يُعدُّ ابن بطوطة أشهر رحالة عربي، بل سيد رحالة القرن الثامن الهجري الرابع عشر الميلادي دون منازع؛ حيث إنه قضى ٢٨ عامًا متنقلاً أو مرتحلاً في أجزاء العالم المعروف في أيامه، وقد بدأ رحلته التي استغرقت كل هذه السنين من موطنه في طنجة مجتازًا ساحل شمال إفريقيا، حتى وصل إلى مصر، ومنها إلى جزيرة العرب، ثم الشام، ثم بلاد فارس، ثم البحرين، وعُمان، ثم شرق إفريقيا، بعدها تجوَّل في آسيا الصغرى والقرم وحوض الفولجا الأدنى - الجنوبي - ودخل القسطنطينية ثم توجَّه شرقًا إلى خوارزم وبخارى وكردستان وأفغانستان والهند - حيث مكث ثماني سنوات، ثم زار جزر المالديف وبعض جزر الهند الشرقية والصين، وكان قد بدأ تلك الرحلة سنة (١٣٢٥م) ليعود إلى طنجة سنة (١٣٤٧م)، واتصل ابن بطوطة خلال رحلاته تلك بالكثير من الملوك والأمراء، فمدحهم - وكان ينظم الشعر - واستعان بِهِبَاتِهم على أسفاره.

---

(١) انظر في تفاصيل حياته، مقدمة التحقيق الذي كتبه الأستاذ محمد عبد الله عنان لكتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة».

بعد ذلك قام برحلتين قصيرتين: الأولى في ربوع الأندلس سنة (١٣٥٠م)، والثانية في السودان ووسط إفريقيا سنة (١٣٥٢م)؛ ليعود ويستقرّ في فاس سنة ١٣٥٤م؛ ليملي فيها وصف رحلته التي سماها: «تحفة النظار وغرائب الأمصار وعجائب الأسفار»، والمشهور لدينا باسم «رحلة ابن بطوطة»، وقد أملاها على ابن جُزي الكاتب ببلاط السلطان المغربي أبي عفان المريني، وذلك سنة (١٣٥٦م).

وقد قُدِّرت المسافة التي قطعها ابن بطوطة في رحلته بنحو ١٢٠ ألف كيلو متر... ولنا أن نتخيل أي رحلة تلك وأي رحَّالة كان ابن بطوطة؛ إذا تصورنا وسائل النقل التي كانت متوفرة في تلك الحقبة من الزمن!

ويمكننا تقسيم رحلات ابن بطوطة كما جاءت في كتابه «تحفة النظار» إلى ثلاث رحلات:

- الرحلة الأولى: تقع في الفترة الزمنية من سنة ١٣٣٤م إلى سنة ١٣٤٩م، زار فيها ابن بطوطة شمال إفريقيا، ومصر، والشرق الأوسط، وشرق إفريقيا، وجزيرة العرب، واليمن، ثم قصد القسطنطينية، وبعد أن أقام بها فترة من الزمن عاد إلى الهند، ثم سافر مع أعضاء البعثة الدبلوماسية التي أرسلها سلطان الهند محمد شاة، فزار جزائر الهند ومالديف وسيلان والصين.

- الرحلة الثانية: في الفترة ١٣٥١م إلى ١٦٥٢م، وتجوَّل فيها في بلاد الأندلس.

- الرحلة الثالثة: في الفترة من ١٣٥٢م إلى ١٣٥٤م وتجوَّل فيها في السودان وغرب إفريقيا.

وتستمد رحلات ابن بطوطة قيمتها من تميُّز صاحبها عن سواه من الرحالة السابقين في التفوق في الدرس؛ إذ لم يترك صغيرة ولا كبيرة إلا ألمَّ بها وبسطها بتفصيل، وإذا كان ابن بطوطة سابع سبعة من أعلام الرحالة العرب (المقدسي

والإدريسي وابـن جبـير والسـمعاني ويـاقوت والبـيروني)، إلا أنـه أكثـرهم تميّـزًا، وأشدهم عناية بالحديث عن الحالة الاجتماعية للمجتمع أو البلد الذي يراه.

قال ابن جزي -تلميذ ابن بطوطة وكاتـب كتابه-: لا يخفى على ذي عقل أن هذا الشيخ هو رحال العصر، ومَنْ قال: رحال هذه الملة لم يبعد، ولم يجعل بلاد الدنيا للرحلة. واتخذ حضرة فاس مقرًّا ومستوطنًا بعد طول جولانه.

مات في مراكش سنة (٧٧٩هـ= ١٣٧٧م)، وتُلَقِّبه جامعة كامبريدج في كتبها وأطالسها بأمير الرحالة المسلمين.

ابن البناء المراكشي (٦٥٤-٧٢١هـ= ١٢٥٦-١٣٢١م):

هـو الشـيخ المحقـق أبـو العبـاس أحمـد بـن محمـد بـن عـثمان بـن البنـاء الأزدي المـراكشي، سُـمِّيَ بـ«ابـن البنـاء»؛ لأن أبـاه كـان يعمـل بنَّـاءً؛ وُلِـدَ في مـراكش سـنة (٦٥٤هـ=١٢٥٦م)، من مؤلفاته: حاشية على الكشاف، ومنتهى السلوك (في علم الأصـول)، وكليـات في المنطـق وشرحهـا، وكليـات (في العربيـة)، والمقـالات (في الحساب)، واللوازم العقلية في مدارك العلوم، والروض المريع في صناعة البديع، وعنوان الدليل من مرسوم خط التنزيل، ورسالة في المكاييـل، وجزء في المساحات، ومقالة في علم الإسطرلاب، وقانون (في معرفة الأوقات بالحساب).

ومن كتبه -أيضًا- «تلخيص أعمال الحساب»، وقد نظمه ابن غـازي، وشرح نظمه، وطُبع النظم وشرحه بفاس، ويُعدُّ هذا الكتاب المرجع الأساسي في علم الحسـاب في أوربـا، حتى مطلـع القـرن العـاشر الهجـري (السـادس عشر ميـلادي) واهتم علماء الغرب بتحقيقه وترجمته إلى لغـات مختلفـة، حتى أوائـل القـرن الثالـث عشر الهجري (التاسع عشر ميلادي)، ويؤكد جورج سارتون في كتابه «المدخل إلى تاريخ العلوم» أن كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء المراكشي يحتوي على

نظريات حسابيه وجبريه مفيده؛ إذ أوضح العويص منها إيضاحًا لم يسبقه إليه أحد؛ لذا يرى سارتون أنه يُعتبر من أحسن الكتب التي ظهرت في علم الحساب. أمَّا ديفيد يوجين سمث فقد ذكر في كتابه تاريخ الرياضيات أن كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء يشتمل على بحوث كثيرة في الكسور ونظريات لجمع مربعات الأعداد ومكعباتها، وقانون الخطأين لحلِّ المعادلة من الدرجة الأولى.

ويذكر فرانسيس كاجوري في كتابه «المقدمة في الرياضيات» أن ابن البناء المراكشي قدَّم خدمة عظيمة بإيجاده الطرق الرياضية البحتة لإيجاد القيم التقريبية لجذور الأعداد الصم. أما العلامة ابن خلدون فيقول عن كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء: «وهو مستغلق على المبتدئ بما فيه من البراهين الوثيقة المباني، وهو كتاب جدير بذلك، وإنما جاءه الاستغلاق من طريق البرهان ببيان علوم التعاليم؛ لأن مسائلها وأعمالها واضحة كلها، وإذا قصد شرحها، إنما هو إعطاء العلل في تلك الأعمال، وفي ذلك من العسر على الفهم ما لا يوجد في أعمال المسائل.

وأضاف عمر رضا كحالة في كتابه «العلوم البحتة في العصور الإسلامية» قائلاً: «كتاب تلخيص أعمال الحساب لابن البناء يحتوي على بحوث مختلفة، تمكن ابن البناء من جعلها -على الرغم من صعوبة بعضها- قريبة المتناول والمأخذ، وقد أوضح النظريات العويصة والقواعد المستعصية إيضاحًا لم يُسبق إليه فلا تجد فيها التواء أو تعقيدًا.

عاش ابن البنَّاء ٦٧ سنة، وتوفي في مراكش سنة (٧٢١هـ=١٣٢١م).

❊ ❊ ❊





الباب العاشر

تاريخ الأندلس

وقفة معتبر



على طول الدراسة السابقة كان تاريخ الأندلس يحوي أكثر من ثمانمائة عام، وهذا الذي ينبغي على المسلمين أن يقفوا معه وقفات ووقفات؛ يأخذون منه العبرة والدرس، ويكررون ما حدث فيه من أفعال العظماء، وفي الوقت ذاته يتجنبون أفعال الأقزام؛ تلك التي أدت إلى هذه الحال التي رأيناها آخر عهود الأندلس وفترات السقوط.

بداية لم يكن سقوط الأندلس بالسقوط المفاجئ، فقد كان هذا متوقعًا منذ أكثر من مائتي عام، إلا أنها- وبمدد من بني مرين مرة، وبخلاف النصارى مرة أخرى مع بعضهم البعض- صمدت وصبرت بعض الشيء، لكن الذي حدث في النهاية هو الذي كان متوقعًا.

وهنا لا بد لنا من وقفة على أسباب هذا الانهيار، والتي كان من شأنها أنها ما أن تتكرر في أيٍّ من الأزمان أو الأوقات، وفي أي من البلدان أو القارات، فإنها -ولا شك- ستعمل عملها، وتكون العاقبة والنتيجة من العاقبة وتلك النتيجة نفسها.

الفصل الأول

نظرة في قيام وسقوط الدول والحضارات

بعد الوصول إلى هذه المرحلة من الضعف والتفتت والهوان هناك تعليق عام وتحليل، واستراحة على طول طريق الأندلس منذ الفتح وحتى هذه المرحلة، نستجلي فيه سُنَّة من سنن الله ﷻ في كونه بصفة عامة، وفي الأمة الإسلامية بصفة خاصة، وهي سُنَّة قيام وسقوط الأمم، وسُنَّة الارتفاع والهبوط، تلك التي لوحظت بشكل لافت في الدولة الإسلامية خاصة.

وحقيقةُ الأمر أنه منذ فجر التاريخ وحتى يومنا هذا، بل حتى قيام الساعة، اقتضت سُنَّة الله في الأمم والحضارات بصفة عامة أن تقوم ثم تسقط وتزدهر ثم تندثر، فمن سنن الله أن كانت هناك قوانين اجتماعية وإنسانية عامة تتصل مباشرة بضبط مسيرة الحياة الإنسانية ومسيرة الأمم والشعوب، فإذا ما التزمت الأمم والحضارات بهذه القواعد دامت وكانت في خير وسعادة، وإذا حادت عنها لقيت من السقوط والاندثار ما هي أهل له؛ قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ النَّاسِ﴾ [آل عمران: ١٤٠].

وليست الأمة الإسلامية بمنأى عن هذه السنن الكونية، فمنذ نزول الرسالة على رسول الله ﷺ والدولة الإسلامية تأخذ بأسباب القيام فتقوم، ثم تحيد عنها فيحدث الضعف ثم السقوط.

وأسباب قيام الدولة الإسلامية كثيرة على نحو ما ذكرنا فيما مضى، والتي كان من أهمِّها:

أولاً: الإيمان بالله ﷻ والاعتقاد الجازم بنصرته وقدرته.

ثانيًا: الأُخوة، والوحدة، والتجمُّع ونبذ الفرقة.

ثالثًا: العدل بين الحاكم والمحكوم.

رابعًا: العلم، ونشر الدين بين الشعوب.

خامسًا: إعداد العدة، والأخذ بالأسباب: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُمْ مَا اسْتَطَعْتُمْ مِنْ قُوَّةٍ وَمِنْ رِبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِنْ دُونِهِمْ لَا تَعْلَمُونَهُمُ اللهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنْفِقُوا مِنْ شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنْتُمْ لَا تُظْلَمُونَ﴾ [الأنفال: ٦٠].

فإذا أخذ المسلمون بهذه الأسباب فإنهم سرعان ما يقومون، وغالب الأمر يكون القيام بطيئًا ومتدرجًا، وفيه كثير من الصبر والتضحية والثبات، ثم بعد ذلك يكون القيام باهرًا، ثم يحدث انتشار للدولة الإسلامية بصورة ملموسة، حتى تُفتح الدنيا على المسلمين، وهنا يصبر القليل على الدنيا وزينتها ويقع الكثيرون في الفتنة.

«إِنَّ لِكُلِّ أُمَّةٍ فِتْنَةً وَفِتْنَةُ أُمَّتِي الْمَالُ»[1].

ومن جديد يحدث الضعف فالسقوط، وعلى قدر الفتنة بالمادة والمدنية يكون الارتفاع والانحدار، والسقوط والانهيار.

وأمر الفتنة هذه هو الذي فقهه عمر بن الخطاب ﷺ في سنة (١٧هـ=٧٣٥م) حينما أمر بوقف الفتوحات في بلاد فارس، في عمل لم يتكرَّر في تاريخ المسلمين، إلا لدى قليل ممن هم على شاكلته، وذلك حين فُتحت الدنيا على المسلمين وكثرت الغنائم في أيديهم.

---

(١) الترمذي: (٢٣٣٦) وقال: هذا حديث صحيح غريب. وأحمد (١٧٥٠٦)، وابن حبان (٣٢٢٣)، والحاكم: (٧٨٩٦)، وقال صحيح الإسناد ولم يخرجاه. وصححه الذهبي

خاف عمر ﷺ أن تتملك الدنيا من قلوب المسلمين، وخشي أن يُفتَنوا بالدنيا ويخسروا الآخرة فيخسروا دولتهم، وكان همه أن يُدخل شعبه الجنة، لا أن يُدخله بلاد فارس، إذا كان دخول فارس على حساب دخول الجنة، وقال ﷺ: وددت أن بيننا وبين فارس جبلاً من نار لا نصل إليهم منه ولا يصلون إلينا[١]. ولم يعد ﷺ إلى مواصلة الفتوح إلا بعد أن هجم الفرس على المسلمين، وخاف على المسلمين الهزيمة والضياع.

والأمة الإسلامية تنفرد بأنها أمة لا تموت ودائمًا في قيام، فإذا سقطت أتبع السقوط قيام، أما ألا يتبع السقوطَ قيامٌ فهذا ليس من سنن الله مع المسلمين، ولا يحدث إلا مع أمم الأرض الأخرى غير الإسلامية، تلك الأمم التي يغلب عليها سقوط واندثار لا يتبعه رجعة، حتى وإن طال أجل القيام والازدهار، ومن أصدق الأمثلة على ذلك حضارة الفراعنة، واليونان، وإمبراطوريتي فارس والروم، وإمبراطورية إنجلترا التي لا تغرب عنها الشمس.. وهذه السُّنة الكونية يمثلها قوله تعالى: ﴿كَتَبَ اللهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ [المجادلة: ٢١]. وقوله: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥]. ومما يُثبت سُنَّة الله هذه في الدولة الإسلامية قول رسول الله ﷺ: «إِنَّ اللهَ يَبْعَثُ لِهَذِهِ الْأُمَّةِ عَلَى رَأْسِ كُلِّ مِائَةِ سَنَةٍ مَنْ يُجَدِّدُ لَهَا دِينَهَا»[٢]. فمعنى هذا أنه سقوط، ومن بعد السقوط ارتفاع وعلوٌّ، وهذا الارتفاع سيكون على يد مجدِّد أو مجموعة مجدِّدين، وهكذا إلى قيام الساعة.

---

(١) الطبري: تاريخ الأمم والملوك ٢/ ٤٩٨، وابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٢/ ٣٨٢.

(٢) أبو داود: كتاب الملاحم، باب ما يذكر في قرن المائة (٤٢٩١)، وقال: رواه عبد الرحمن بن شريح الإسكندراني لم يجز به شراحيل. والحاكم (٨٥٩٢)، وقال الألباني: صحيح. انظر: السلسلة الصحيحة (٥٩٩).

والتاريخ الإسلامي مليء بمثل هذه الفترات، ففيه الكثير من أحداث الارتفاع والهبوط، ثم الارتفاع والهبوط، ولم يكن هذا خاصًّا بتاريخ الأندلس فقط؛ بل إن صحابة رسول الله ﷺ شاهدوا ذلك بأعينهم، فبعد وفاته ﷺ مباشرةً حدث سقوط ذريع وانهيار مروِّع، ورِدَّة في كل أطراف جزيرة العرب، التي لم يبق منها على الإسلام سوى مكة والمدينة وقرية صغيرة تسمى هَجَر (هي الآن في البحرين).

وبعد هذا السقوط يحدث قيام عظيم وفتوحات وانتصارات، كان قد جدَّد أمرها وغرس بذرتها أبو بكر ﷺ بعد أن أجهز على الردَّة، ثم فُتحت الدنيا على المسلمين في عهد سيدنا عثمان ﷺ، فحدثت الفتنة والانكسارات في الأمة الإسلامية؛ مما أدَّى إلى مقتله ﷺ وهو الخليفة الراشد وصاحب رسول الله ﷺ، وظلَّت هكذا ليلة خلافة سيدنا علي ﷺ.

ومن جديد يستتبُّ الأمر، وتقوم الدولة الأموية وتستكمل الفتوح، ثم فترة من الزمان ويحدث سقوط آخر حين يفسد أمر بني أمية، وعلى أَثَره يقوم بنو العباس فيُعيدون من جديد المجد والعزّ للإسلام، وكالعادة يحدث الضعف ثم السقوط، وعلى هذا الأمر كانت كل الدول الإسلامية الأخرى التي جاءت من بعدها، مرورًا بالدولة الأيوبية وانتهاءً بالخلافة العثمانية الراشدة، التي فتحت كل شرق أوربا، وكانت أكبر قوة في زمنها.

فهي إذًا سنة من سنن الله تعالى، ولا يجب أن تَفُتَّ في عضد المسلمين، ولا بُدَّ للمسلمين من قيام بعد سقوط، كما كان لهم سقوط بعد قيام، وكما ذكرنا سابقًا فإنه ليس بين الله ﷻ وبين أحد من البشر نسب.

«يَا فَاطِمَةَ بِنْتَ مُحَمَّدٍ سَلِيني مَا شِئْتِ لَا أُغْنِي عَنْكِ مِنَ اللهِ شَيْئًا»[1].

---

(١) البخاري: كتاب الوصايا، باب هل يدخل النساء والولد في الأقارب (٢٦٠٢)، ومسلم: كتاب الأيمان، باب في قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (٢٠٤).

فإن ضلَّ المسلمون الطريق، وخالفوا نهج نبيهم؛ فستكون الهزيمة لا محالة، وسيكون الانهيار المروِّع الذي شاهدناه في الأندلس، والذي نشهده في كل عهود المسلمين.

المرحلة التي يعيشها المسلمون الآن وتصنيفها:

قد يتساءل المرءُ: ما هو تصنيفنا كمسلمين في هذا العصر وفقًا للمراحل السابقة ما بين الارتفاع والهبوط، أو القيام والسقوط؟

وواقع الأمر- وكما هو واضح للعيان- أن الأمة الإسلامية تمرُّ الآن بمرحلة من مراحل السقوط؛ سقوط كبير وضعف شديد وفرقة للمسلمين، سقوط مباشر لسقوط الخلافة العثمانية في عشرينيات القرن الماضي، وهو أمر طبيعي ودورة طبيعية من دورات التاريخ الإسلامي، وسُنَّة من سنن الله تعالى كما رأينا.

إلا أن مرحلة السقوط الأخيرة هذه قد شابها أمران لم تعهدهما الدولة الإسلامية، ولم يحدثا من قبل في مراحل سقوطها المختلفة؛ **الأمر الأول**: هو غياب الخلافة؛ إذ حدث ولأول مرة في التاريخ أن يُصبح المسلمون بلا دولة واحدة تجمعهم، فرغم ما كان وما يكون من السقوط والانهيار على مدى فترات الضعف التي مرت بها الأمة الإسلامية، إلا أنه لم تكن لتغيب صورة الخلافة عن الأذهان بحالٍ من الأحوال، منذ الدولة الأموية في القرن الأول الهجري، وحتى سقوط الخلافة العثمانية في القرن الرابع عشر الهجري؛ حيث كان الإسلام سياسيًّا (دين ودولة) طيلة أربعة عشر قرنًا من الزمان.

الأمر الثاني: هو غياب الشرع الإسلامي، فلم يكن -أيضًا- في أيٍّ من عصور السقوط السابقة للدول الإسلامية، مع ما يصل المسلمون إليه من تدنٍّ وانحدار لم يكن قطُّ يُلغى الشرع أو يغيب، نعم قد يُتجاوز أحيانًا في تطبيق بعض أجزائه، لكن

لم يظهر على الإطلاق دعوة تنادي بتنحية الشرع جانبًا، وتطبيق غيره من قوانين البشر مما هو أنسب وأكثر مرونة على حسب رؤيتهم.

وإن مثل هذين العاملين ليجعلان من مهمة الإصلاح والتغيير أمرًا من الصعوبة بمكان، ورغم ذلك فإنه وكما أوضحنا ليس بمستحيل؛ لأن المستحيل هنا هو التعارض مع سنن الله ﷻ التي تقول بأن دولة الإسلام في قيام حتى قيام الساعة.

وهناك من المبشِّرات نحو قيام الدولة الإسلامية الآن الكثير والكثير، فمنذ سقوط الخلافة العثمانية سنة (١٣٤٢هـ= ١٩٢٤م) كان قد حدث انحدار كبير -ولا شك- في معظم أقطار العالم الإسلامي، إن لم يكن كله (بعد سقوط الخلافة العثمانية أُقيمت الدول العربية عدا السعودية على أساس علماني شبيه بالدول الغربية)، وظلَّ هذا الوضع حتى أوائل السبعينيات، ثم كانت الصحوة في كل أطراف الأمَّة الإسلامية في منتصف السبعينيات وإلى يومنا هذا.

ونظرة واحدة إلى أعداد المصلين في المساجد خاصة الشباب، وإلى أعداد المحجبات في الشوارع في كل أطراف العالم الإسلامي، وانتشار المراكز الإسلامية في كل بلاد أوربا وفي أميركا، والصحوة الجهادية في البلاد المحتلة مثل فلسطين والعراق والشيشان وغيرها، وحال الإسلام في جمهوريات روسيا السابقة بعد احتلال نصراني وشيوعي دام لأكثر من ثلاثمائة عام، نظرة واحدة إلى مثل هذه الأمور وغيرها يُبَشِّر بالقيام من جديد.

***

الفصل الثاني

حروب الأمس وحروب اليوم

هل تتكرر انتصارات المسلمين؟

لا شك أن انتصارات المسلمين في السابق في مثل مواقع الزلاقة ووادي برباط، وأي من المواقع الإسلامية الأخرى في غير تاريخ الأندلس، لا شك أنه أمر يبعث العزة ويدعو إلى الفخر؛ لكن مثل هذه الانتصارات السابقة كانت حيث السيوف والرماح والخيول، ولقاء الجندي بالجندي، أما الآن وقد اختفت مثل هذه الأمور، بل واندثرت تمامًا، وتبدَّل الوضع؛ فأصبحت الحرب غير الحرب، والطاقة غير الطاقة، حيث الحرب الإلكترونية، وحيث الطائرات والقنابل العنقودية، والصواريخ العابرة والموجهة، والأسلحة الكيميائية والنووية، وغير ذلك مما لم يكن على سابق ما مضى تمامًا.

فهل يستطع المسلمون أن يحققوا نصرًا في مثل هذه الظروف، وتلك المستجدات، ورغم ما هم فيه من تخلفٍ وانحطاطٍ كانتصارات سابقيهم؟!

والحقيقة أن مبعث مثل هذا الخاطر وذاك السؤال هو عدم الفهم والوعي لعاملَيْن مهمَّيْن جدًّا، كنا قد تحدثنا عنهما فيما مضى؛ وهما:

العامل الأول: أمة الإسلام أمة لا تموت:

اقتضت سُنَّة الله في كونه -كما ذكرنا- أن تكون أمة الإسلام أمة لا تموت، وأنها أبدًا في قيام، وأنه لا بُدَّ من القيام بعد السقوط كما كان السقوط بعد القيام، بصرف

النظر عن مدى قوة وعظم الكافرين وضعف المسلمين، فالله ﷻ يقول: ﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ الَّذِينَ كَفَرُوا فِي الْبِلَادِ * مَتَاعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾ [آل عمران: ١٩٦- ١٩٧].

العامل الثاني: إدراك أن المعركة بين الحق والباطل:

فالحرب بين المسلمين وغيرهم ليست متمثِّلَة في شكل دول أو أشخاص، إنما هي حرب عقائدية، حرب بين الحق والباطل، وهي بأيسر تعبير معركة بين أولياء الله ﷻ وأولياء الشيطان.

فماذا تكون النتيجة إذًا إذا كانت المعركة على هذا النحو؟ وهل ينتصر حزب الشيطان وأولياؤه مهما تعاظمت عناصر القوة لديهم، أم ينتصر حزب الله وأولياؤه، وإن قلَّت وضعفت إمكاناتهم وطاقاتهم؟

وفي استدعاءٍ للتاريخ والمواقع الإسلامية السابقة خير مثال ودليل على ما ذهبنا إليه، فهل كان من الطبيعي بالقياسات القديمة أن يحقق المسلمون النصر في معاركهم كلها فيما مضى؟! هل كان من الطبيعي في معركة القادسية -على سبيل المثال- أن ينتصر اثنان وثلاثون ألف مسلم على مائتي ألف فارسي؟! بكل قياسات الماضي وقياسات الوضع الطبيعي، هل من الممكن أن يحدث مثل هذا؟ وأين؟ في بلادهم وعقر دارهم.

وهل كان من الطبيعي في معركة اليرموك أن ينتصر تسعة وثلاثون ألف مسلم على مائتي ألف رومي؟! وهل كان من الطبيعي أن ينتصر ثلاثون ألف مسلم في تُستر على مائة وخمسين ألف فارسي ثمانين مرة متتالية في خلال سنة ونصف، وفي عقر دارهم أيضًا؟! وهل كان من الطبيعي كما ذكرنا في أحداث الأندلس السابقة أن ينتصر اثنا عشر ألف مسلم على مائة ألف قوطي في معركة وادي برباط؟!

هذه كلها أمور من الصعب إن لم يكن من المستحيل أن تحدث حتى بقياسات الماضي، وهو لغز لا يمكن أن نجد له حلاً إلا بطريقة واحدة، هي أن نعلم ونتيقن أن الله ﷻ هو الذي يحارب الكافرين؛ ﴿وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ﴾ [الأنفال: ١٧]. ويقول أيضًا: ﴿وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ﴾ [محمد: ١٤].

فالله ﷻ يختبر المؤمنين بحربهم مع الكافرين، وليس هو ﷻ في حاجةٍ إلينا لينتصر على أعدائه أو المشركين به من اليهود والأميركان والروس، أو غيرهم من أمم الأرض الذين جحدوا وحدانيته واجتاحوا بلاد المسلمين، إنما كان من فضله علينا وجُوده وكرمه أن استعملَنَا جنودًا عنده ﷻ، وإنما نحن كمن يستر القدرة ويأخذ الأجرة، فنحن نستر قدرة الله ﷻ في هزيمته للكافرين، ونأخذ الأجر على الثبات في هذا الموقف أمام الكفار.

والذي يقول بأن الموقف في الماضي مخالف عن الموقف في الحاضر، أو أن حروب الماضي مختلفة بالكلية عن حروب الحاضر، وهو يعلم أن الله ﷻ هو الذي نصر الصحابة ونصر مَنْ تبعهم بإحسان وإلى يوم الدين، من يرى هذا كأنه يقول -حاشا لله من هذا- بأن الله كان قادرًا على عادٍ وثمود وفارس والروم، ولكنه -نعوذ بالله من ذلك- ليس بقادر على أميركا واليهود وروسيا ومَنْ حالفهم، أو شايعهم من الأمم الحاضرة المقاتلة لأمة الإسلام!

يقول ﷻ في كتابه الكريم حكاية عن الأمم العاتية السابقة: ﴿فَأَمَّا عَادٌ فَاسْتَكْبَرُوا فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَقَالُوا مَنْ أَشَدُّ مِنَّا قُوَّةً أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَهُمْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يَجْحَدُونَ﴾ [فصلت: ١٥].

ويقول أيضًا في وصف حال الكافرين: ﴿اسْتِكْبَارًا فِي الْأَرْضِ وَمَكْرَ السَّيِّئِ وَلَا

يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِ فَهَلْ يَنْظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ الْأَوَّلِينَ فَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَبْدِيلًا وَلَنْ تَجِدَ لِسُنَّتِ اللهِ تَحْوِيلًا ۞ أَوَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَيَنْظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَكَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَمَا كَانَ اللهُ لِيُعْجِزَهُ مِنْ شَيْءٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ إِنَّهُ كَانَ عَلِيمًا قَدِيرًا﴾ [فاطر: ٤٣- ٤٤].

لكن المهم والذي من المفترض أن يشغل بال المسلم الحريص على دينه هو معرفة دوره هو في هذا القيام وهذه الدعوة، ومعرفة دوره في انتصار مثل انتصار الزلاقة، وغيره من مواقع المسلمين الخالدة.

فإن كان قيام أمة المسلمين بنا فنحن مأجورون على ذلك، حتى ولو لم نَرَ نصرًا، وإن كان القيام بغيرنا فقد ضاع منا الأجر، حتى ولو كنا معاصرين لذلك النصر وذاك التمكين، وهذا هو ما يجب أن يستحوذ على أذهان المسلمين، وأن يعملوا ليكون لهم دور في إعادة بنيان هذه الأمة بعد ذاك السقوط الذي تحدثنا عنه.

***

الفصل الثالث

أمل النصر لا تخبو جذوته أبدًا

بعد الدرس الأول والوقوف على عوامل وأسباب السقوط كان هذا الدرس الثاني، وهو ما نستقيه من تاريخ الأندلس؛ حيث إنه لا يغيب الأمل أبدًا في نصر الله، فإن الله دائمًا ما يُقَيِّض لهذه الأمة مَنْ ينصرها، ومَنْ يُجَدِّد لها أمر دينها.

وقد حدث مثل ذلك كثيرًا في تاريخ الأندلس، كان منه ما حدث في نهاية عهد الولاة، وذلك بقيام عبد الرحمن الداخل، ثم ما حدث -أيضًا- في نهاية الإمارة الأموية على يد عبد الرحمن الناصر، وهكذا في كل عهد تجد مَنْ يجدِّد لهذه الأمة أمر دينها، تجد يوسف بن تاشفين، وتجد يعقوب المنصور الموحدي، وتجد يعقوب المنصور المريني، وغيرهم الكثير.

وقد يتساءل البعض قائلاً: لقد انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكلية، فأين ذاك القيام، الذي من المفترض أن يكون بعد هذا الانتهاء، ما دامت كانت قد جرت السُّنَّة على ذلك؟!

وفي معرض الردِّ على مثل هذا السؤال نسوق حدثًا في غاية الغرابة، فقد حدث قبل سقوط الأندلس الأخير بنحو أربعين سنة حادث عجيب، وأعجب منه هذا التزامن الذي فيه، فقد فُتحت القسطنطينية في سنة (٨٥٧هـ= ١٤٥٣م) أي قبل سقوط الأندلس بأربعين عامًا، فكان غروب شمس الإسلام على أوربا من ناحية

المغرب يزامنه شروق جديد عليها من ناحية المشرق، واستبدل الله هؤلاء الذين باعوا، وأولئك الذين خانوا من ملوك غرناطة في الأندلس بغيرهم من العثمانيين المجاهدين الفاتحين الأبرار، الذين فتحوا القسطنطينية وما بعدها، وقد بدأ الإسلام ينتشر في شرق أوربا انتشارًا أسرع وأوسع مما كان عليه في بلاد الأندلس وفرنسا.

وإنها- وايم الله- لآية من آيات الله ﷻ تبعث الأمل وتبثُّه في نفوس المسلمين في كل وقت وكل حين، مبشرة ولسان حالها: أمة الإسلام أمة لا تموت.

***

الفصل الرابع

فلسطين اليوم أندلس البارحة

كان الدرس الثالث من تاريخ الأندلس هو الأخطر من نوعه، وتبدو معالمه في سؤال ربما يكون قد شغل أذهان البعض كثيرًا، وهو: لماذا انتهى الإسلام بالكلِّيَّة من بلاد الأندلس؟!

فبلاد الأندلس (إسبانيا والبرتغال) هي اليوم من أقل بلاد العالم في عدد المسلمين، والذين بلغ عددهم فيها مائة ألف مسلم فقط، أي أقل من عدد المسلمين في مدينة من مدن أميركا.

ففي مدينة دالاس الأميركية وحدها يصل عدد المسلمين إلى مائة ألف مسلم، وهي بعدُ لم تكن قد حُكمت بالإسلام، بينما تعداد المسلمين في شبه الجزيرة الأيبيرية (إسبانيا والبرتغال) وبعد أن حُكمت ثمانية قرون بالإسلام لا يزيد عن مائة ألف مسلم، وهو أمر في غاية الغرابة.

ومن هنا كان هذا السؤال: لماذا انتهى الإسلام من بلاد الأندلس بالكلِّيَّة كأفراد وشعوب ولم ينتهِ من البلاد الأخرى، والتي استُعمرت استعمارًا صليبيًّا، طال أمده في بعض الدول؛ مثل: الجزائر التي احتُلت ثلاثين ومائة سنة، ومصر التي احتُلت سبعين سنة، وفلسطين احتُلت مائتي سنة في زمن الصليبيين، وغيرها من الدول الإسلامية التي غُلبت على أمرها، ورغم ذلك لم يندثر المسلمون، أيًّا كانت طريقة

اندثارهم، ولم يتغيروا وظلوا مسلمين وإلى الآن؟!

وللإجابة على هذا التساؤل لننظر أولاً ما كان يفعله الاستعمار الإسباني في بلاد الأندلس، فقد كان الاستعمار الإسباني استعمارًا استيطانيًّا إحلاليًّا، ما أن يدخلوا بلدًا إلا قتلوا كل مَنْ فيه من المسلمين في حرب إبادة جماعية، أو يطردونهم ويُهَجِّرونهم إلى خارج البلد، ثم يُهجِّرون إليها من النصارى من أماكن مختلفة من الأندلس وفرنسا مَنْ يحل ويعيش في هذه المدن وتلك الأماكن التي خلفها المسلمون، وبذلك لم يَعُدْ يبقى في البلاد مسلمون.

وحكم البلاد وعاش فيها بعد ذلك نصارى وأبناء نصارى، على عكس ما كان يحدث في احتلال البلاد الإسلامية الأخرى؛ مثل: مصر، والجزائر، وليبيا، وسوريا، وغيرها؛ فإن الاحتلال في هذه البلاد كان بالجيوش لا بالشعوب، واحتلال الجيوش ولا شك مصيره إلى ردة وزوال.

وإن مثل هذا ليضع أيدينا على شيء هو في غاية الأهمية؛ ذلك أن الاحتلال الاستيطاني هذا الذي حدث في بلاد الأندلس لم يتكرر في أيٍّ من بلاد العالم إلا في مكان واحد فقط، وهو -أيضًا- يخصُّ المسلمين، وهو فلسطين.

وإن ما يحدث الآن فيها وعلى أرضها ما هو إلا تكرار لأندلس جديدة، ما يفعله اليهود الآن من تهجير اليهود إلى أرض فلسطين، وإبادة في الشعب الفلسطيني بالقتل والطرد والتشريد، وإصرارهم (اليهود) على عدم عودة اللاجئين إلى ديارهم، ثم الإكثار من بناء المستعمرات، كل ذلك وغيره ما هو إلا خطوة من خطوات إحلال الشعب اليهودي مكان الفلسطيني.

فقد شُرِّد الشعب الفلسطيني وبات مصيره في طيِّ النسيان، بات العالم أجمع ينسى قضيته يومًا بعد آخر، بل بات محتملاً أن ينسى هو نفسه (الشعب الفلسطيني)

قضيته، وأخشى والله! أن ينسى الفلسطينيون المشردون القضية تمامًا كما نسيها أهل الأندلس، الذين هاجروا إلى بلاد المغرب وإلى تونس والجزائر بعد عام أو عامين، أو عشرة أعوام، أو حتى بعد مائة عام، فقد مرَّ الآن على سقوط الأندلس خمسمائة عام، فمن يُفكِّر في تحريرها؟!

وهكذا وعلى هذا الوضع يسير اليهود ويجمِّعون شتاتهم إلى بلاد فلسطين لإحلال الشعب اليهودي مكان الشعب الفلسطيني.

فكانت قضية فلسطين شديدة الشبه بالأندلس، وتُرى لماذا عُقد اتفاق السلام عام ١٩٩٢م بين اليهود وبين الفلسطينيين، ومن بين كل بلاد العالم هناك يعقد في إحدى مدن الأندلس القديمة في مدريد؟!

كانت مفاوضات السلام تدور في أوسلو وترعاها أميركا وروسيا وغيرها من البلاد، ومع ذلك أُقيمت في «مدريد» وفي إزالة علامات التعجب نجد أن ذلك كان بسبب أن المفاوضات قامت في سنة ١٩٩٢م، وهي ذكرى سقوط الأندلس؛ حيث كان قد مر على سقوطها خمسمائة عام.

ففي تلك الأثناء كانت شوارع «مدريد» مكتظة بالاحتفالات والمهرجانات، حيث هزيمة المسلمين وانتصار الصليبيين في هذه الموقعة القديمة منذ خمسمائة عام، وكأنهم يبعثون برسالة مفادها: ها هو التاريخ يتكرَّر، وها هي أحداث الأندلس تتكرر من جديد في فلسطين، وها هي الانتفاضة التي تحدث في فلسطين تُقتَل كما قُتلت من قبل انتفاضة موسى بن أبي غسان في غرناطة، ها هو التاريخ يتكرر، لا داعي للحرب، ولا داعي للجدال والمحاورات الكثيرة؛ فإن مصيركم هو ما حدث في الأندلس من قبل.

* * *

الخاتمة



بعد هذه الدراسة، وبعد تلك الحقبة المهمة من تاريخ المسلمين، نستطيع أن نسطر من جديد: ما كان التاريخ -وتاريخ الأندلس خاصة- يومًا ما بُكاءً على اللبن المسكوب، ولا عيشًا في صفحات الماضي، إنما كان لأخذ الدرس والعبرة، وكما ذكرنا في البداية:

﴿فَاقْصُصِ الْقَصَصَ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الأعراف: ١٧٦].

وأيضًا: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾ [يوسف: ١١١].

والذي يجب أن يشغلنا الآن هو أن نقف مع تاريخ الأندلس وقفة نفهم منها أحداث فلسطين والعراق؛ وأحداث أفغانستان، الشيشان، وكوسوفا، والبوسنة والهرسك، وكشمير، وغيرها من البلاد، وما دور الشعوب والأفراد في قضية فلسطين حتى لا تصبح أندلسًا أخرى.

والذي يجب أن يشغلنا هو أن يعرف كلٌّ منا دوره في الحياة؛ ومن ثَمَّ يقوم عليه بأحسن ما يكون وأحسن ما يجب أن يكون القيام، وإن معرفة مثل ذلك لتقبع خلف كل صفحة من صفحات تاريخ الأندلس، وخلف كل صفحة من صفحات التاريخ الإسلامي بصفة عامة.

وليعلم كل منا أنه إنما هو على ثغرة عظيمة من ثغور الإسلام، فليحذر وليحرص كل الحرص على ألا يُؤْتى الإسلام من قِبله، ولا يُلدغ الثانية، وقد قال

عز وجل: ﴿وَعَدَ اللهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّن بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ [النور: ٥٥].

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين

* * *

قصيدة أبي البقاء الرندي
في رثاء الأندلس:

لِكُــلِّ شَيْءٍ إِذَا مَــا تَــمَّ نُقْصَــانُ ... فَــلا يُغَــرُّ بِطِيــبِ الْعَــيْشِ إِنْسَــانُ

هِــيَ الأُمُــورُ كَــمَا شَــاهَدْتَهَا دُوَلٌ ... مَــنْ سَرَّهُ زَمَــنٌ سَــاءَتْهُ أَزْمَــانُ

وَهَــذِهِ الــدَّارُ لا تُبْقِــي عَــلَى أَحَــدٍ ... وَلا يَــدُومُ عَــلَى حَــالٍ لَهَــا شَــانُ

يُمَــزِّقُ الــدَّهْرُ حَــتْمًا كُــلَّ سَــابِغَةٍ[1] ... إِذَا نَبَــتْ مَشْرَفِيَّــاتٌ[2] وَخرْصَــانُ[3]

وَيَنْــتَضِي كُــلَّ سَــيْفٍ لِلْفَنَــاءِ وَلَــوْ ... كَــانَ ابْــنَ ذِي يَــزَنٍ وَالْغِمْــدُ غمْــدَانُ

أَيْــنَ الْمُلُــوكُ ذَوُو التِّيجَــانِ مِــنْ يَمَــنٍ ... وَأَيْــنَ مِــنْهُمْ أَكَالِيــلٌ وَتِيجَــانُ؟

وَأَيْــنَ مَــا شَــادَهُ شَــدَّادُ فِي إِرَمٍ ... وَأَيْــنَ مَــا سَاسَــهُ فِي الْفُــرْسِ سَاسَــانُ؟

وَأَيْــنَ مَــا حَــازَهُ قَــارُونُ مِــنْ ذَهَــبٍ ... وَأَيْــنَ عَــادٌ وَشَــدَّادٌ وَقَحْطَــانُ؟

أَتَــى عَــلَى الْكُــلِّ أَمْــرٌ لا مَــرَدَّ لَــهُ ... حَتَّــى قَضَــوْا فَكَــأَنَّ الْقَــوْمَ مَــا كَــانُوا

وَصَارَ مَا كَانَ مِنْ مُلْكٍ وَمِنْ مَلِكٍ ... كَمَا حَكَى عَنْ خَيَالِ الطَّيْفِ وَسْنَانُ

---

(١) السابغة: الدرع التامة الوافرة الطويلة الواسعة. ابن منظور: لسان العرب، مادة سبغ ٨/ ٤٣٢، والزبيدي: تاج العروس، باب الغين فصل السين ٢٢/ ٤٩٩.

(٢) المشرفيات: السيوف. ابن منظور: لسان العرب، مادة شرف ٩/ ١٦٩، والزبيدي: تاج العروس، باب الفاء فصل الشين ٢٣/ ٥٠٣.

(٣) الخرصان؛ جمع خرص: وهو الرمح. ابن منظور: لسان العرب، مادة خرص ٧/ ٢١، والزبيدي: تاج العروس، باب الصاد فصل الخاء ١٧/ ٥٤٦.

فَجَائِعُ الدَّهْرِ أَنْوَاعٌ مُنَوَّعَةٌ ... وَلِلزَّمَانِ مَسَرَّاتٌ وَأَحْزَانُ

دَارَ الزَّمَانُ عَلَى (دارا) وَقَاتلهِ ... وَأَمَّ كسرى فَمَا آوَاهُ إِيوَانُ

كَأَنَّمَا الصَّعْبُ لَمْ يَسْهُلْ لَهُ سَبَبٌ ... يَوْمًا وَلا مَلَكَ الدُّنْيَا سليمانُ

وَلِلْحَوَادِثِ سُلْوَانٌ يُسَهِّلُهَا ... وَمَا لِمَا حَلَّ بِالإِسْلامِ سُلْوَانُ

دَهَى الجزيرة أَمْرٌ لا عَزَاءَ لَهُ ... هَوَى لَهُ أُحُدٌ وَانْهَدَّ ثَهْلانُ

أَصَابَهَا الْعين فِي الإِسْلامِ فَارْتَأَزَتْ ... حَتَّى خَلَتْ مِنْهُ أَقْطَارٌ وَبُلْدَانُ

فَاسْأَلْ (بلنسية) مَا شَأْنُ (مرسية) ... وَأَيْنَ (شاطبة) أَمْ أَيْنَ (جيان)؟!

وَأَيْنَ (قرطبة) دَارُ الْعُلُومِ فَكَمْ ... مِنْ عَالِمٍ قَدْ سَمَا فِيهَا لَهُ شَانُ؟!

وَأَيْنَ (حمص) وَمَا تَحْوِيهِ مِنْ نُزَهٍ ... وَنَهْرُهَا الْعَذْبُ فَيَّاضٌ وَمَلآنُ

قَوَاعِدٌ كُنَّ أَرْكَانُ الْبِلادِ فَمَا ... عَسَى الْبَقَاءُ إِذَا لَمْ تَبْقَ أَرْكَانُ

تَبْكِي الْحَنِيفِيَّةُ الْبَيْضَاءُ مِنْ أَسَفٍ ... كَمَا بَكَى لِفِرَاقِ الإِلْفِ هَيْمَانُ

عَلَى دِيَارٍ مِنَ الإِسْلامِ خَالِيَة ... قَدْ أَقْفَرَتْ وَلَهَا بِالْكُفْرِ عمْرَانُ

حَيْثُ الْمَسَاجِدُ قَدْ صَارَتْ كَنَائِسَ مَا ... فِيهِنَّ إِلاَّ نَوَاقِيسٌ وَصُلْبَانُ

حَتَّى الْمَحَارِيبُ تَبْكِي وَهْيَ جَامِدَةٌ ... حَتَّى الْمَنَابِرُ تَرْثِي وَهْيَ عِيدَانُ

يَا غَافِلاً وَلَهُ فِي الدَّهْرِ مَوْعِظَةٌ ... إِنْ كُنْتَ فِي سِنَةٍ فَالدَّهْرُ يَقْظَانُ

وَمَاشِيًا مَرِحًا يُلْهِيهِ مَوْطِنُهُ ... أَبَعْدَ (حمص) تَغُرُّ الْمَرْءَ أَوْطَانُ؟!

تِلْكَ الْمُصِيبَةُ أَنْسَتْ مَا تَقَدَّمَهَا ... وَمَا لَهَا مَعَ طُولِ الدَّهْرِ نِسْيَانُ

يَـا رَاكِبِـينَ عِتَـاقَ الْخَيْـلِ ضَـامِرَةً ... كَأَنَّهَـا فِي مَجَـالِ السَّبْـقِ عُقْبَـانُ

وَحَـامِلِينَ سُـيُوفَ الْهِنْـدِ مُرْهَفَـةً ... كَأَنَّهَـا فِي ظَـلامِ النَّقْـعِ نِـيرَانُ

أَعِنْـدَكُمْ نَبَـأٌ مِـنْ أَهْـلِ أَنْـدَلُسٍ ... فَقَـدْ سَرَى بِحَـدِيثِ الْقَـوْمِ رُكْبَـانُ

كَمْ يَسْتَغِيثُ بِنَا الْمُسْتَضْعَفُونَ وَهُـمْ ... قَتْلَـى وَأَسْرَى فَـمَا يَهْتَـزُ إِنْسَـانُ

مَـاذَا التَّقَـاطُعُ فِي الإِسْـلامِ بَيْـنَكُمُ ... وَأَنْـتُمُ يَـا عِبَـادَ اللهِ إِخْـوَانُ

يَـا مَـنْ لِذِلَّـةِ قَـوْمٍ بَعْـدَ عِـزِّهِمْ ... أَحَـالَ حَـالَهُمْ جَـوْرٌ وَطُغْيَـانُ

بِـالأَمْسِ كَـانُوا مُـلُوكًا فِي مَنَازِلِهِمْ ... وَالْيَـوْمَ هُـمْ فِي بِـلادِ الْكُفْـرِ عُبْـدَانُ

فَلَـوْ تَـرَاهُمْ حَيَـارَى لا دَلِيـلَ لَهُـمْ ... عَلَـيْهِمُ مِـنْ ثِيَـابِ الـذُّلِ أَلْـوَانُ

يَـا رُبَّ أُمٍّ وَطِفْـلٍ حِيـلَ بَيْـنَهُمَا ... كَـمَا تُفَـرَّقُ أَرْوَاحٌ وَأَبْـدَانُ

وَطِفْلَـةٌ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ ... كَـأَنَّمَا هِـيَ يَـاقُوتٌ وَمَرْجَـانُ

يَقُودُهَـا الْعِلْـجُ لِلْمَكْـرُوهِ مُكْرَهَـةً ... وَالْعَـيْنُ بَاكِيَـةٌ وَالْقَلْـبُ حَـيْرَانُ

لِمِثْلِ هَـذَا يَـذُوبُ الْقَلْـبُ مِـنْ كَمَـدٍ ... إِنْ كَـانَ فِي الْقَلْـبِ إِسْـلامٌ وَإِيـمَانُ[1]

* * *

(١) المقري: نفح الطيب، ٤/ ٤٨٧، ٤٨٨.

المصادر والمراجع

أولاً: القرآن الكريم

ثانيًا: كتب التفسير

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: تفسير القرآن العظيم، تحقيق: سامي بن محمد سلامة، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الثانية، ١٤٢٠هـ=١٩٩٩م.
- البغوي: معالم التنزيل، تحقيق: محمد عبد الله النمر، وعثمان جمعة ضميرية، وسليمان مسلم الحرش، دار طيبة للنشر والتوزيع، الطبعة الرابعة، ١٤١٧هـ=١٩٩٧م.
- سيد قطب: في ظلال القرآن، دار الشروق - القاهرة، الطبعة الشرعية الحادية عشرة، ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.
- الطبري: جامع البيان في تأويل آي القرآن، تحقيق: أحمد محمد شاكر، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٤٢٠هـ=٢٠٠٠م.
- القرطبي، أبو عبد الله محمد بن أحمد الأنصاري: الجامع لأحكام القرآن، دار إحياء التراث العربي - بيروت، ١٤٠٥هـ=١٩٨٥م.

ثالثًا: كتب الحديث والسنة

- ابن القيم: زاد المعاد في هدي خير العباد، تحقيق: مصطفى عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن حجر العسقلاني: فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة - بيروت، ١٣٧٩هـ.

- أبـو داود: سـنن أبي داود، تحقيـق: محمـد محيي الـدين عبـد الحميـد، دار الفكـر - بيروت، ١٩٨٦م.
- أحمد بن حنبل: المسند، مؤسسة قرطبة - القاهرة.
- الألباني: السلسلة الصحيحة، مكتبة المعارف - الرياض.
- الألباني: صحيح وضعيف الجامع الصغير وزيادته، المكتب الإسلامي.
- البخاري: الجامع الصحيح المختصر (صحيح البخاري)، تحقيق: مصطفى ديب البُغَا، دار ابن كثير، اليمامة - بيروت، الطبعة الثالثة، ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م.
- البزار: البحر الزخار المسمى بمسند البزار، تحقيق: محفـوظ الـرحمن زيـن الله، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٣م.
- البيهقي: السنن الكبرى، تحقيق: محمـد عبـد القـادر عطـا، دار الكتـب العلميـة - بيروت.
- البيهقـي: شـعب الإيـمان، تحقيـق: محمـد السـعيد بسـيوني زغلـول، دار الكتـب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ.
- الترمذي: الجامع الصحيح (سنن الترمذي)، تحقيق: أحمد محمد شـاكر وآخـرين، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- الحـاكم: المستدرك عـلى الصـحيحين، تحقيـق: مصـطفى عبـد القـادر عطـا، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ=١٩٩٠م.
- الطبراني: المعجم الكبير، تحقيق: حمدي بـن عبـد المجيـد السـلفي، مكتبـة العلـوم والحكم - الموصل، الطبعة الثانية، ١٤٠٤هـ=١٩٨٣م.
- مسلم بن الحجاج النيسابوري: صحيح مسلم، تحقيق: محمـد فـؤاد عبـد البـاقي، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- النسائي، أحمد بن شعيب: سنن النسـائي الكـبرى، تحقيـق: عبـد الغفـار سـليمان

البنداري، وسيد كسروي حسن، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١١هـ=١٩٩١م.

رابعًا: كتب السيرة والتاريخ والطبقات

- ابن أبي أصيبعة: عيون الأنباء في طبقات الأطباء، تحقيق: عامر النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ٢٠٠١م.
- ابن أبي زرع: الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية، الرباط - المغرب، ١٩٧٢م.
- ابن أبي زرع: روض القرطاس في أخبار ملوك المغرب وتاريخ مدينة فاس، دار المنصور للطباعة والوراقة، الرباط - المغرب، ١٩٧٢م.
- ابن الأبار: الحلة السيراء، حققه وعلق حواشيه: د. حسين مؤنس، دار المعارف - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٥م.
- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري: الكامل في التاريخ، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: أعمال الأعلام في من بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام (تاريخ إسبانيا الإسلامية)، تحقيق وتعليق: إ. ليفي بروفنسال، دار المكشوف - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٥٦م.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: الإحاطة في أخبار غرناطة، تحقيق: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٣٩٣هـ=١٩٧٣م.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: اللمحة البدرية في الدولة النصرية، تحقيق: محب الدين الخطيب، المكتبة السلفية، القاهرة، ١٣٤٧هـ.
- ابن الخطيب، لسان الدين محمد بن عبد الله: رقم الحلل في نظم الدول، المطبعة العمومية، تونس، ١٣١٦هـ.

- ابن العماد الحنبلي : شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: عبد القادر الأرناءوط، ومحمود الأرناءوط، دار ابن كثير - دمشق، ١٤٠٦هـ.
- ابن الفرضي : تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري ودار الكتاب اللبناني، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.
- ابن القطان المراكشي : نظم الجمان لترتيب ما سلف من أخبار الزمان، تحقيق ودراسة: د. محمود علي مكي، دار الغرب الإسلامي.
- ابن الوردي : خريدة العجائب وفريدة الغرائب، تعليق: محمود فاخوري، دار الشرق العربي - بيروت، ١٩٩١م.
- ابن بسام، علي بن بسام الشنتريني : الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة، تحقيق: إحسان عباس، الدار العربية للكتاب.
- ابن بشكوال، خلف بن عبد الملك : الصلة، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٠هـ=١٩٨٩م.
- ابن بطوطة، محمد بن عبد الله : رحلة ابن بطوطة، دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت، ١٩٩٧م.
- ابن حجر العسقلاني : الإصابة في تمييز الصحابة، دار الكتاب العربي - بيروت.
- ابن حزم وابن سعيد والشقندي : فضائل الأندلس وأهلها، تحقيق: د. صلاح الدين المنجد، دار الكتاب الجديد، ١٩٦٨م.
- ابن حزم : رسائل ابن حزم، تحقيق: د. إحسان عباس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- ابن حيان : المقتبس من أنباء أهل الأندلس، تحقيق: د. محمود علي مكي، طبعة المجلس الأعلى للشئون الإسلامية، مصر.
- ابن خاقان : قلائد العقيان ومحاسن الأعيان، تحقيق: د. حسين يوسف خربوش،

مكتبة المنار - الأردن ١٤٠٩هـ=١٩٨٩م.

- ابن خاقان: مطمح الأنفس ومسرح التأنس في ملح أهل الأندلس، تحقيق: محمد علي شوابكة، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
- ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، دار احياء التراث العربي - بيروت، لبنان.
- ابن خلكان، أبو العباس أحمد بن محمد: وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٩٤م.
- ابن سعيد المغربي: المغرب في حلى المغرب، تحقيق: د. شوقي ضيف، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة.
- ابن عبد البر القرطبي: الدرر في اختصار المغازي والسير، تحقيق: د. شوقي ضيف، المجلس الأعلى للشئون الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ=١٩٩٥م.
- ابن عبد الحكم: فتوح مصر وأخبارها، طبعة ليدن، ١٩٢٠م.
- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، تحقيق: ج. س. كولان وليفى بروفنسال، دار الثقافة - بيروت، لبنان.
- ابن عذاري: البيان المغرب في أخبار الأندلس والمغرب، قسم الموحدين، تحقيق: محمد إبراهيم الكتاني وآخرون، دار الغرب الإسلامي - بيروت، ودار الثقافة - الدار البيضاء، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ=١٩٨٥م.
- ابن فرحون، علي بن محمد: الديباج المذهب في أعيان علماء المذهب المالكي، وضع الحواشي: مأمون محيي الدين الجنان، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى.
- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: البداية والنهاية، تحقيق: علي شيري، دار إحياء التراث العربي، الطبعة الأولى، ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.

- ابن كثير، أبو الفداء إسماعيل بن عمر: السيرة النبوية، تحقيق: مصطفى عبد الواحد، دار المعرفة - بيروت، ١٣٩٦هـ=١٩٧١م.
- ابن ماكولا، علي بن هبة الله: الإكمال في رفع الارتياب عن المؤتلف والمختلف في الأسماء والكني والأنساب، دار الكتب العلمية - بيروت.
- ابن هشام: السيرة النبوية، تحقيق: محمد فهمي السرجاني، المكتبة التوفيقية - القاهرة.
- أبو عبيد البكري: جغرافية الأندلس وأوربا (من كتاب المسالك والممالك)، تحقيق: عبد الرحمن الحجي - بيروت، ١٣٧٨هـ=١٩٦٨م.
- الإدريسي، محمد بن محمد بن عبد الله: نزهة المشتاق في اختراق الآفاق، عالم الكتب - بيروت، ١٩٨٩م.
- الأزدي: تاريخ العلماء بالأندلس، تحقيق: عزت العطار الحسيني، مطبعة المدني - القاهرة، ١٤٠٨هـ=١٩٨٨م.
- أسامة بن منقذ: الاعتبار، تحقيق: فيليب حتي، برنستون، ١٩٣٠م.
- حسن أحمد محمود: قيام دولة المرابطين - القاهرة ١٩٥٧م.
- حسين مؤنس: فجر الأندلس، دار الرشاد - القاهرة، الطبعة الثالثة، ٢٠٠٥م.
- حسين مؤنس: معالم تاريخ المغرب والأندلس، دار الرشاد - مصر، الطبعة الثامنة، ١٤٢٦هـ=٢٠٠٥م.
- الحميدي: جذوة المقتبس في تاريخ علماء الأندلس، تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري - القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٨٩م.
- الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: الروض المعطار في خبر الأقطار، مكتبة لبنان ناشرون، الطبعة الثانية، ١٩٨٤م.
- الحميري، محمد بن عبد الله بن عبد المنعم: صفة جزيرة الأندلس، دار الجيل - بيروت، الطبعة الأولى.

- الخطيب البغدادي، أبو بكر محمد : تاريخ بغداد، تحقيق: مصطفى عبد القادر، دار الكتب العلمية - بيروت، ١٩٩٧م.
- الذهبي : العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد بن بسيوني، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الذهبي : تاريخ الإسلام ووفيات المشاهير والأعلام، تحقيق: مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية - بيروت.
- الذهبي : سير أعلام النبلاء، تحقيق حسين الأسد، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة التاسعة، ١٤١٣هـ=١٩٩٣م.
- الزركلي: موسوعة الأعلام، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٩٨٠م.
- السبكي : طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي، وعبد الفتاح الحلو، دار هجر للطباعة والنشر، ١٤١٣هـ.
- سعدون عباس نصر الله: دولة المرابطين في المغرب والأندلس، دار النهضة العربية - لبنان.
- السلاوي: الاستقصا لأخبار دول المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، ومحمد الناصري، دار الكتاب - الدار البيضاء، ١٩٩٧م.
- السهيلي: الروض الأنف (الروض الأنف في شرح سيرة ابن هشام)، دار الكتب العلمية - بيروت.
- شكيب أرسلان: غزوات العرب في فرنسا وسويسرا وإيطالية وجزائر البحر المتوسط، المكتبة العصرية - صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- شوقي أبو خليل: الأرك، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: الزلاقة، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.

- شوقي أبو خليل: العقاب، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: بلاط الشهداء، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: فتح الأندلس، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- شوقي أبو خليل: مصرع غرناطة، دار الفكر - دمشق، سوريا، ١٤١٨هـ=١٩٩٨م.
- الصفدي: الوافي بالوفيات، تحقيق: تركي فرحان المصطفى، دار إحياء التراث العربي - بيروت.
- طارق السويدان: الأندلس التاريخ المصور، شركة الإبداع الفني - الكويت، الطبعة الأولى، ٢٠٠٥م.
- الطاهر أحمد الزاوي: تاريخ الفتح العربي في ليبيا، دار المدار الإسلامي - بيروت، الطبعة الرابعة، ٢٠٠٤م.
- الطبري، محمد بن جرير: تاريخ الأمم والملوك، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ.
- عبد الرحمن على الحجي: التاريخ الأندلسي، دار القلم - دمشق، الطبعة الثانية، ١٩٨٧م.
- عبد الواحد المراكشي: المعجب في تلخيص أخبار المغرب، المكتبة العصرية - لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٦م.
- علي الصلابي: دولة المرابطين، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.
- علي الصلابي: دولة الموحدين، دار التوزيع والنشر الإسلامية - القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٢٤هـ=٢٠٠٣م.

- علي مظهر : محاكم التفتيش في إسبانيا والبرتغال وغيرها،المكتبة العلمية.
- عياض القاضي : ترتيب المدارك وتقريب المسالك،تحقيق: محمد سالم، دار الكتب العلمية - بيروت ١٩٩٨م.
- مجموعة : مجموع رسائل موحدية من إنشاء كتاب الدولة المؤمنية،حققها ونشرها: ليفي بروفنسال، المطبعة الاقتصادية - الرباط، المغرب، ١٩٤١م.
- مجهول : أخبار مجموعة في فتح الأندلس وذكر أمرائها والحروب الواقعة بها بينهم. تحقيق: إبراهيم الإبياري، دار الكتاب المصري، ودار الكتاب اللبناني - القاهرة، وبيروت، الطبعة الثانية ١٤١٠هـ=١٩٨٩م.
- مجهول : الحلل الموشية في ذكر الأخبار المراكشية،تحقيق: د. سهيل زكار، وعبد القادر زمامه، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، المغرب.
- مجهول : نبذة العصر في أخبار ملوك بني نصر،ضبطه وعلق عليه: ألفريد البستاني، مكتبة الثقافة الدينية - مصر، الطبعة الأولى، ١٤٢٣هـ=٢٠٠٢م.
- محمد سهيل طقوش : تاريخ المسلمين في الأندلس،دار النفائس للطباعة والنشر - بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٢٩هـ=٢٠٠٨م.
- محمد عبد الله عنان : دولة الإسلام في الأندلس،الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠١م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني : أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض، تحقيق: مصطفى السقا وآخرين، مطبعة لجنة التأليف والنشر - القاهرة، ١٣٥٨هـ=١٩٣٩م.
- المقري، أحمد بن محمد التلمساني : نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر - بيروت، ١٩٦٨م.
- النباهي، أبو الحسن بن عبد الله بن الحسن : تاريخ قضاة الأندلس (المرقبة العليا

فيمن يستحق القضاء والفتيا)، تحقيق: لجنة إحياء التراث العربي، دار الآفاق الجديدة - بيروت، الطبعة الخامسة، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.

- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب: نهاية الأرب في فنون الأدب، تحقيق: مفيد قمحية وآخرين، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٢٤هـ=٢٠٠٤م.
- ياقوت الحموي: معجم البلدان، دار الفكر - بيروت.
- يوسف أشباخ: تاريخ الأندلس في عهد المرابطين والموحدين، ترجمة: محمد عبد الله عنان، مكتبة الخانجي - القاهرة، الطبعة الثالثة، ١٩٩٦م.

خامسًا: كتب الأدب واللغة

- إبراهيم مصطفى وآخرون: المعجم الوسيط، تحقيق: مجمع اللغة العربية، دار الدعوة - مصر.
- ابن دحية الكلبي: المطرب من أشعار أهل المغرب، تقديم: صلاح الدين الهواري، المكتبة العصرية - صيدا، لبنان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٨م.
- ابن منظور: لسان العرب، دار صادر - بيروت، الطبعة الأولى، ١٩٩٧م.
- الجوهري: الصحاح، دار العلم للملايين - بيروت، الطبعة الرابعة، ١٩٩٠م.
- الزبيدي: تاج العروس من جواهر القاموس، دار ابن حزم - بيروت.
- عمرو بن معدي كرب الزبيدي: شعر عمرو بن معدي كرب الزبيدي، تحقيق: مطاع الطرابيشي، مجمع اللغة العربية - دمشق، الطبعة الثانية، ١٤٠٥هـ =١٩٨٥م.
- القلقشندي، أحمد بن علي: صبح الأعشى في صناعة الإنشا، دار الفكر - دمشق، الطبعة الأولى، ١٩٨٧م.
- الميداني، أحمد بن محمد النيسابوري: مجمع الأمثال، تحقيق: محمد محيي الدين عبد

الحميد، دار المعرفة - بيروت.

سادسًا: كتب أخرى

- ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام: مجموع الفتاوى، تحقيق: عامر الجزار، دار ابن حزم - بيروت، ١٩٩٨م.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد السلام: منهاج السنة النبوية، تحقيق: محمد رشاد سالم، مؤسسة قرطبة، الطبعة الأولى.
- أبو شامة: إبراز المعاني من حرز الأماني، تحقيق: إبراهيم عطوة عوض، دار الكتب العلمية - بيروت.
- أبو يعلى الفراء، محمد بن حسين: الأحكام السلطانية، مطبعة مصطفى البابي الحلبي، الطبعة الأولى، ١٣٥٦هـ.
- إدوارد فان ديك: اكتفاء القنوع بما هو مطبوع، تصحيح: محمد الببلاوي، دار صادر - بيروت.
- جلال مظهر: حضارة الإسلام وأثرها في الترقي العالمي، مكتبة الخانجي - القاهرة، ١٩٧٤م.
- جوستاف لوبون: حضارة العرب، ترجمة: عادل زعيتر، الهيئة المصرية العامة للكتاب - القاهرة، ٢٠٠٠م.
- رحاب عكاوي، ومحمد أمين فرشوخ: موسوعة عباقرة الإسلام، دار الفكر العربي - القاهرة، ١٩٩٦م.
- سعود بن عبد العالي البارودي العتيبي: الموسوعة الجنائية الإسلامية، المقارنة بالأنظمة المعمول بها في المملكة العربية السعودية، الطبعة الثانية، ١٤٢٧هـ.
- شوقي أبو خليل: الحضارة العربية الإسلامية وموجز عن الحضارات السابقة، دار الفكر - دمشق، سوريا.

- شوقي أبو خليل : علماء الأندلس إبداعاتهم المتميزة وأثرها في النهضة الأوربية، دار الفكر - دمشق، سوريا.
- الطحاوي : مشكل الآثار،دار الكتب العلمية - بيروت.
- عامر النجار : في تاريخ الطب في الدولة الإسلامية،دار المعارف - مصر، الطبعة الثالثة، ١٩٩٤م.
- عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني : فهرس الفهارس والأثبات ومعجم المعاجم والمشيخات والمسلسلات،تحقيق: إحسان عباس، دار الغرب الإسلامي - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٨٢م.
- علي بن عبد الله الدفاع : رواد علم الطب في الحضارة الإسلامية،مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، ١٩٩٨م.
- الغزالي : الاقتصاد في الاعتقاد،دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤٠٣هـ=١٩٨٣م.
- مجموعة : الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس،تحرير: سلمى الخضراء الجيوسي، مركز دراسات الوحدة العربية - بيروت، لبنان، الطبعة الثانية، ١٩٩٩م.
- مجموعة : تراث الإسلام،بإشراف: توماس أرنولد، ترجمة: جرجيس فتح الله، دار الطليعة - بيروت، الطبعة الثانية، ١٩٧٢م.
- محمد كامل حسين : الموجز في تاريخ الطب والصيدلة عند العرب، المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - ليبيا.
- محمد لطفي جمعة : تاريخ فلاسفة الإسلام في المشرق والمغرب، دار الكتب العلمية - بيروت.
- محمد ماهر حمادة : المكتبات في الإسلام، مؤسسة الرسالة - بيروت، ١٩٧٨م.

- محمود الحاج قاسم: الطب عند العرب والمسلمين تاريخ ومساهمات، الدار السعودية للنشر والتوزيع - جدة، الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ=١٩٨٧م.
- مصطفى عبد الكريم الخطيب: معجم المصطلحات والألقاب التاريخية، مؤسسة الرسالة - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ=١٩٩٦م.
- المناوي، محمد عبد الرءوف بن علي: فيض القدير شرح الجامع الصغير، دار الكتب العلمية - بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٥هـ=١٩٩٤م.
- يوسف القرضاوي: فقه الجهاد، مكتبة وهبة - القاهرة، الطبعة الأولى، ٢٠٠٩م.

سابعًا: المجلات والدوريات والموسوعات ومواقع الإنترنت

- صحيفة الأهرام المصرية.
- مجلة المعهد المصري للدراسات الإسلامية بمدريد.
- مجلة المهن الطبية.
- موسوعة المورد الحديثة (١٩٩٥).
- موقع ويكيبيديا: http://ar.wikipedia.org.

الفهارس

فهرس الآيات

فهرس الأحاديث

فهرس الأعلام


قصة الأندلس

فهرس الأماكن

فهرس الغزوات والمعارك

فهرس القبائل

فهرس الخرائط

فهرس الشعر

الشاعر	البيت الأول	البحر	الصفحة
ابن العسال	هَتكُوا بِخَيْلِهِمُ قُصُورَ حَرِيمِهَا *** لَمْ يَبْقَ لا جَبَلٌ وَلا بَطْحَاءُ	الكامل	٣٨٨
المعتمد بن عباد	الذُّلُّ تَأْبَاهُ الْكِرَامُ وَدِينُنَا *** لَكَ مَا نَدِينُ بِهِ مِنَ الْبَأْسَاءِ	الكامل	٤٤٧
عبد المؤمن بن عليٍّ	وَحَكِّمِ السَّيْفَ لا تَعْبَأْ بِعَاقِبَةٍ *** وَخَلِّهَا سِيرَةً تَبْقَى عَلَى الْحِقَبِ	البسيط	٥٧١
المعتمد بن عباد	قَبْرَ الْغَرِيبِ سَقَاكَ الرَّائِحُ الْغَادِي *** حَقًّا ظَفِرْتَ بِأَشْلاءِ ابْنِ عَبَّادِ	البسيط	٣٥٥
ابن اللبانة	مِنْ بَنِي الْمُنْذِرِينَ وَهْوَ انْتِسَابٌ *** زَادَ فِي فَخْرِهِ بَنُو عَبَّادِ	الخفيف	٣٤٢
ابن جبير	تَأَنَّ فِي الأَمْرِ لا تَكُنْ عَجِلاً *** فَمَنْ تَأَنَّى أَصَابَ أَوْ كَادَا	المنسرح	٦٢٠
عمرو بن معدي كرب الزبيدي	لَقَدْ أَسْمَعْتَ لَوْ نَادَيْتَ حَيًّا *** وَلَكِنْ لا حَيَاةَ لِمَنْ تُنَادِي	الوافر	٦٤١
ابن رشيق القيرواني	مِمَّا يُزَهِّدُنِي فِي أَرْضِ أَنْدَلُسٍ *** أَسْمَاءُ مُعْتَضِدٍ فِيهَا وَمُعْتَمِدِ	البسيط	٤٠٠
المعتمد بن عباد	أَبَا هَاشِمٍ هَشَّمَتْنِي الشِّفَارُ *** فَلِلَّهِ صَبْرِي لِذَاكَ الأُوَارُ	المتقارب	٥٠٠
ابن حيان	أَلَمْ تَرَ أَنَّ الشَّمْسَ قَدْ ضَمَّهَا الْقَبْرُ *** وَأَنْ قَدْ كَفَانَا فَقْدَهَا الْقَمَرُ الْبَدْرُ	الطويل	٣٣٥
أبو الوليد محمد بن جهور	وَإِذَا الْفَتَى فَقَدَ الشَّبَابَ سَمَا لَهُ *** حُبُّ الْبَنِينِ وَلا كَحُبِّ الأَصْغَرِ	الكامل	٣٣٦
عمران بن حطان السدوسي	أَسَدٌ عَلَيَّ وَفِي الْحُرُوبِ نَعَامَةٌ *** فَرْخَاءُ تَنْفِرُ مِنْ صَفِيرِ الصَّافِرِ	الكامل	٤٢٢
أبو القاسم محمد بن إسماعيل بن عباد	وَلا بُدَّ يَوْمًا أَنْ أَسُودَ عَلَى الْوَرَى *** وَلَوْ رُدَّ عَمْرٌو لِلزَّمَانِ وَعَامِرُ	الطويل	٣٤٧
أبو بكر الزبيدي	أَبَا مُسْلِمٍ إِنَّ الْفَتَى بِجَنَانِهِ *** وَمِقْوَلِهِ لا بِالْمَرَاكِبِ وَاللِّبْسِ	الطويل	٢٢٩
عبد الرحمن الداخل	أَيُّهَا الرَّاكِبُ الْمُيَمِّمُ أَرْضِي *** أَقْرِ مِنْ بَعْضِي السَّلامَ لِبَعْضِي	الخفيف	١٦٥
ابن تومرت	تَكَامَلَتْ فِيكَ أَخْلاقٌ خُصِصْتَ بِهَا *** فَكُلُّنَا بِكَ مَسْرُورٌ وَمُغْتَبِطُ	البسيط	٥٥٩
ابن عسال	يَا أَهْلَ أَنْدَلُسٍ حُثُّوا مَطِيَّكُمُ *** فَمَا الْمُقَامُ بِهَا إِلاَّ مِنَ الْغَلَطِ	البسيط	٤٥٩
المعتمد بن عباد	قَالُوا الْخُضُوعُ سِيَاسَةٌ *** فَلْيَبْدُ مِنْكَ لَهُمْ خُضُوعُ	مجزوء الكامل	٣٥٥
ابن الفرضي	أَسِيرُ الْخَطَايَا عِنْدَ بَابِكَ وَاقِفٌ *** عَلَى وَجَلٍ مِمَّا بِهِ أَنْتَ عَارِفُ	الطويل	٢٨٤
ابن القوطية	مِنْ مَنْزِلٍ يُعْجِبُ النُّسَّاكَ خُلْوَتُهُ *** وَفِيهِ سَتْرٌ عَلَى الْفُتَّاكِ إِنْ فَتَكُوا	البسيط	٢٣١

يحيى بن هذيل التميمي	مِنْ أَيْنَ أَقْبَلْتَ يَا مَنْ لا شَبِيهَ لَهُ *** وَمَنْ هُوَ الشَّمْسُ وَالدُّنْيَا لَهُ فَلَكُ	البسيط	٢٣١
عبد الرحمن الداخل	يَا نَخْلُ أَنْتِ غَرِيبَةٌ مِثْلِي *** فِي الْغَرْبِ نَائِيَةٌ عَنِ الأَصْلِ	الكامل	١٦٤
الشاطبي	وَأَبْيَاتُهَا أَلْفٌ تَزِيدُ ثَلاثَةً *** وَمَعْ مِائَةٍ سَبْعِينَ زُهْرًا وَكُمَّلاَ	الطويل	٦٠٢
المظفر محمد بن الأفطس	أَنِفْتُ مِنَ المُدَامِ لأَنَّ عَقْلِي *** أَعَزُّ عَلَيَّ مِنْ أُنْسِ المُدَامِ	الوافر	٣٦٢
مجهول	قَوْمٌ لَهُمْ دَرْكُ الْعُلا فِي حِمْيَرٍ *** وَإِنِ انْتَمَوْا صِنْهَاجَةً فَهُمُ هُمُ	الكامل	٤٧٥
المتنبي	إِذَا غَامَرْتَ فِي شَرَفٍ مَرُومٍ *** فَلاَ تَقْنَعْ بِمَا دُونَ النُّجُومِ	الوافر	٥١٠
عبد الرحمن الناصر	هِمَمُ المُلُوكِ إِذَا أَرَادُوا ذِكْرَهَا *** مِنْ بَعْدِهِمْ فَبِأَلْسُنِ الْبُنْيَانِ	الكامل	٢٢٥
أبو البقاء الرندي	لِكُلِّ شَيْءٍ إِذَا مَا تَمَّ نُقْصَانُ *** فَلا يُغَرُّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إِنْسَانُ	البسيط	٧٣٣
الطُّرْطُوشيُّ	إِنَّ للهِ عِبَادًا فُطُنًا *** طَلَّقُوا الدُّنْيَا وَخَافُوا الْفِتَنَا	الرمل	٣٩٦
ابن طفيل	يَا بَاكِيًا فُرْقَةَ الأَحْبَابِ عَنْ شَحَطٍ *** هَلاَّ بَكَيْتَ فِرَاقَ الرُّوحِ لِلْبَدَنِ؟!	البسيط	٥٧٧
مجهول	ذَاكَ الَّذِي مَاتَ مِرَارًا وَدُفِنْ *** فَانْتَفَضَ التُّرْبُ وَمُزِّقَ الْكَفَنْ	الرجز	٣٥١
هاشم الرفاعي	وَمَا فَتِئَ الزَّمَانُ يَدُورُ حَتَّى *** مَضَى بِالْمَجْدِ قَوْمٌ آخَرُونَا	الوافر	٦٤١
ابن عطية	بِأَرْبَعٍ فَاقَتِ الأَمْصَارَ قُرْطُبَةٌ *** مِنْهُنَّ قَنْطَرَةُ الْوَادِي وَجَامِعُهَا	البسيط	٣٠٨
ابن جبير	لا تَغْتَرِبْ عَنْ وَطَنٍ *** وَاذْكُرْ تَصَارِيفَ النَّوَى	مجزوء الرجز	٦٢١
أبو شامة المقدسي	رَأَيْتُ جَمَاعَةً فُضَلاءَ فَازُوا *** بِرُؤْيَةِ شَيْخِ مِصْرَ الشَّاطِبِيِّ	الوافر	٦٠٣

فهرس الموضوعات

* * *

الأستاذ الدكتور راغب السرجاني



الأستاذ الدكتور راغب السرجاني : وُلِدَ عام ١٩٦٤م بمصر، وتخرَّج في كلية الطب جامعة القاهرة بتقدير امتياز مع مرتبة الشرف عام ١٩٨٨م، أتمَّ حفظ القرآن الكريم عام ١٩٩١م. ثم نال درجة الماجستير عام ١٩٩٢م من جامعة القاهرة بتقدير امتياز، ثم الدكتوراه بإشراف مشترك بين مصر وأمريكا عام ١٩٩٨م (في جراحة المسالك البولية والكلى).

- أستاذ بكلية الطب جامعة القاهرة.
- رئيس مجلس إدارة مركز الحضارة للدراسات التاريخية بالقاهرة.
- صاحب فكرة موقع قصة الإسلام والمشرف عليه (أكبر موقع للتاريخ الإسلامي) www.islamstory.com.
- باحث ومفكر إسلامي، وله اهتمام خاص بالتاريخ الإسلامي.
- ينطلق مشروعه الفكري «معًا نبني خير أمة» من دراسة التاريخ الإسلامي دراسة دقيقة مستوعبة، تحقق للأمة عدة أهداف؛ منها:

• استنباط عوامل النهضة والاستفادة منها في إعادة بناء الأمة.
• بعث الأمل في نفوس المسلمين، وحثهم على العلم النافع والعمل البناء؛ لتحقيق الهدف.
• تنقية التاريخ الإسلامي وإبراز الوجه الحضاري فيه.

- وعلى مدار سنوات عديدة كانت له إسهامات علمية ودعوية؛ ما بين محاضراتٍ وكتبٍ ومقالاتٍ وتحليلاتٍ؛ عبر رحلاته الدعوية إلى شتى أنحاء العالَم.
- صَدَرَ له حتى الآن ٣١ كتابًا في التاريخ والفكر الإسلامي؛ هي:

١. (من هو محمد ﷺ): الحائز على جائزة المركز الإسلامي لدعاة التوحيد والسُّنَّة عام ٢٠١٠م.

٢. (ماذا قدم المسلمون للعالم.. إسهامات المسلمين في الحضارة الإنسانية): الحائز على جائزة مبارك للدارسات الإسلامية عام ٢٠٠٩م.
٣. (الرحمة في حياة الرسول ﷺ): الحائز على جائزة المركز الأول في مسابقة البرنامج العالمي للتعريف بنبي الرحمة ﷺ عام ٢٠٠٧م.
٤. المشترك الإنساني.. نظرية جديدة للتقارب بين الشعوب
٥. قصة الإمام محمد بن عبد الوهاب رحمه الله
٦. قصة التتار من البداية إلى عين جالوت
٧. قصة الحروب الصليبية من البداية إلى عهد عماد الدين زنكي
٨. العلم وبناء الأمم - دراسة تأصيلية في بناء الدولة وتنميتها
٩. روائع الأوقاف في الحضارة الإسلامية
١٠. أخلاق الحروب في السنة النبوية
١١. قصة العلوم الطبية في الحضارة الإسلامية
١٢. فلسطين.. واجبات الأمة
١٣. وشهد شاهد من أهلها
١٤. رحماء بينهم - قصة التكافل والإغاثة في الحضارة
١٥. بين التاريخ والواقع - أربعة أجزاء
١٦. رمضان ونصر الأمة
١٧. أمة لن تموت
١٨. رسالة إلى شباب الأمة
١٩. كيف تحافظ على صلاة الفجر
٢٠. كيف تحفظ القرآن الكريم
٢١. القراءة منهج حياة
٢٢. المقاطعة.. فريضة شرعية وضرورة قومية
٢٣. أخي الطبيب قاطع
٢٤. أنت وفلسطين
٢٥. فلسطين لن تضيع.. كيف؟
٢٦. لسنا في زمان أبرهة
٢٧. إلا تنصروه ﷺ

٢٨. التعذيب في سجون الحرية

٢٩. رمضان وبناء الأمة

٣٠. الحج ليس للحجاج فقط

٣١. من يشتري الجنة

- يقدم عدة برامج وحوارات على الفضائيات والإذاعات المختلفة؛ منها: اقرأ، الرسالة، الحوار، الناس، القدس، المستقبل، العربية، الجزيرة، الجزيرة مباشر، والسودان، وإذاعة أم القوين، وإذاعة القرآن الكريم بفلسطين والأردن ولبنان والسودان والإمارات، وغيرها.

- له مئات المحاضرات والأشرطة الإسلامية؛ يتحدث فيها عن السيرة النبوية والصحابة، وتاريخ الأندلس، وقصة التتار، وغير ذلك.

***